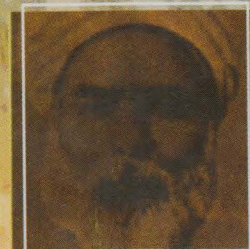
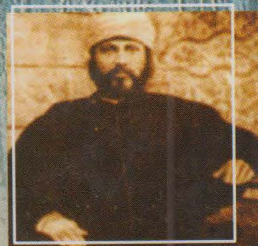
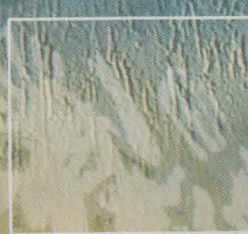
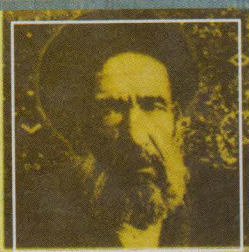
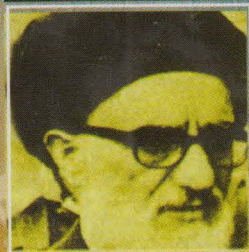
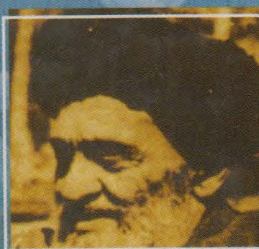
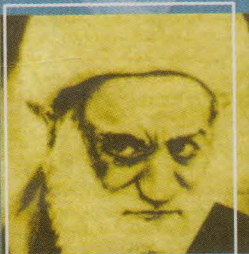
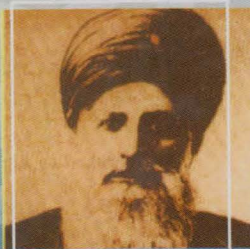
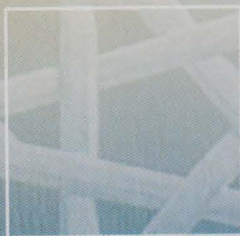


كفاح علماء الإسلام

في القرن العشرين



كِفَاةُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ
فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ

كِفَايَةُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ

فِي الْقَرْنِ الْمَرِينِ

حجة الإسلام و المسلمين

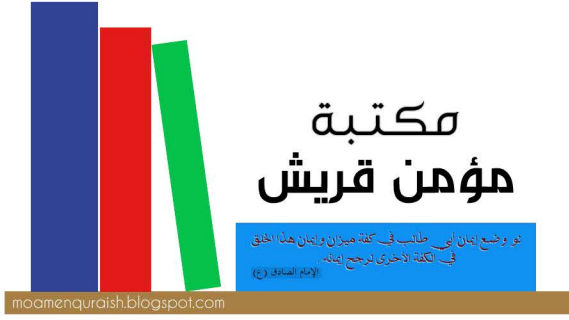
الدكتور العقيقي البخشايشي

منشورات

مؤسسة الأعلی للطبوعات

ببيروت - لبنان

ص ب : ٢١٢٠



الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة للناسخ

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel – Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.



بيروت – شارع المطار – قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور- ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

بِسْمِ رَبِّ الشَّهَدَاءِ وَالصَّادِقِينَ

المقدمة

انّ مطالعة حياة عظماء الدين والعلماء وقداوات التقوى والفضيلة والتعمّق فيها بناءً ومحرّكة للشعوب اضافة الى أنّها قيّمة ومصيرية من جانب، ومن جانب آخر فإنّها واجب ملقّى على عاتق الجيل الحاضر الذي يبجلّ أسلافه وينظر إليهم بعين الاكبار والتقدير، وينقل سيرتهم ومسيرتهم الى الأجيال القادمة؛ ليعتبر الجيل الجديد بتجارب الجيل الماضي ومساعدته.

ولم يُكتب لحدّ الان ما يليق ببيان احوال العلماء المجاهدين وما يستحقونه من ترجمة لحياتهم السامية، وقد كان هذا النقص بسبب الضغوط السياسية الداخلية والخارجية، حيث لم يكن بالامكان في ظلّ تلك الأجواء إظهار الحقائق على ما هي عليه مطلقاً، ومن هنا كان ما يبين الخدمات والجهود التي بذلتها هذه الطبقة الفاضلة من المجتمع إلّا في حدود الاجمال والاختصار، ولذا بقيت سيرة اولئك الأعاظم خفيّة عن الجيل الصاعد، حتّى اصبحت الصورة لديهم ان لا يُنتظر من علماء الدّين إلّا الخضوع والخشوع، والبكاء والدعاء، وليس لهم اي دور آخر، في حين أنّ تاريخ اولئك مليء بالجهد والسعي الدؤوب في سبيل احياء حقوق الشعوب المحرومة والمستضعفة والطبقات الكادحة المضطّهدة.

انّ لجهاد رجال الدين الاحرار وعلماء الإسلام الواعين في طريق تحرير الشعوب الإسلامية المستضعفة من قيود الظلم والجور والاستعمار والاستبداد، الدور الفاعل والصورة الناصعة في جبين التاريخ، ولعبوا دوراً في صياغة التاريخ وصنّاعته. لقد أحس اعداء الإسلام أنّ هذا الدين - دين الإستقلال والتحرير - يهدد وجودهم دائماً؛ ولذلك فإنّهم كلّما شعروا بخطورته فإنّهم يهبون لمحاربتة، فيستعمرون الشعوب الإسلامية وينهبون ثرواتها، ويسعون لاضعاف المجتمعات

الإسلامية، وهم بذلك يسعون إلى اضعاف الإسلام واستغلال معتنقيه، فما كان من علماء الدين الواعين والفظنين إلا أن شتموا عن سواعد الجد والجهاد، فنزلوا الى ميدان الجهاد، وكانوا في معركة الاستعمار جنباً الى جنب مع امواج الشعوب الإسلامية الهادرة الغاضبة، وحتى في الحالات التي اوصلت المكائد الشيطانية -لاعداء الإسلام وحرية الانسان- الشعوب الإسلامية الى حالة الاحتضار.

كانت الانفاس السامية والثورية لعلماء الدين ذوي الهمم العالية والقلوب الحيّة تبعث الروح في جسد الامة الإسلامية، الذي مات نصفه وأشرف على الهلاك، وبهذه الانفاس يوجهون الضربات القاصمة للعدو المتكبر المغرور فتقضي عليه وهو لا يكاد يصدق.

ولا توجد في تاريخ جهاد المجتمعات والشعوب المسلمة ثورة قامت ضد الظلم والاستبداد وكانت الثورة دينية والهدف الإسلام، وليس لعلماء الدين فيها نصيب او انها بعيدة عن قيادتهم وبركاتهم، وحيثما هب العلماء لنصرة الشعوب الإسلامية المضطهدة المحرومة ودفعها نحو الثورة على الجور والاستبداد، تجلت في سماء الجهاد نجوم العلم والفضيلة، وتجلت فيها ادوار رجال الدين والنماذج الساطعة لهم.

إنّ امعان النظر والتدبّر في حياة أبطال الفضيلة والجهاد، وتحليلها وفهمها واجب انساني واسلامي، اضافة الى ما له من التأثير المهم على حياة الناس، وتحديد أطر أفكار جيل الشباب، وخاصة في هذه البرهة من الزمان، وفي هذه المرحلة المشرقة من الثورة الإسلامية، التي قام بها شعوبنا المجاهدون بقيادة وارشاد علماء الدين الواعين الأحرار، الذين كان لهم دور في توعية الشعب وبوجيه نحو الثورة.

ومثل هذه الدراسة والتحليل ضرورية والحاجة تدعو اليها، وقد كتبت - حول هؤلاء المجاهدين في ميادين العلم والجهاد - رسائل وكتب تحقيقية قيمة أغنتنا عن الكتابة فيها، وما نحتاجه اليوم هو تحليل وفهم حياة علماء الدين وافكارهم وجهادهم الاجتماعي، ودورهم الفاعل في القرن الاخير، خاصّة وانّ الوعي الثوري

وجهاد الشعوب المسلمة ضد الاستعمار في القرن الحاضر وبقيادة العلماء المجاهدين الأحرار قد بلغ الدرجة العليا، كما انه ثبت دوره الحقيقي في تاريخ الثورات الإسلامية، وفي تاريخ ثورات العالم بكل وضوح.

في ظل الثورة

لقد غيرت الثورة الإسلامية العظيمة في ايران القيم والمعايير، وظهرت الحقائق الخفية، ولقد رأى جيل الشباب انّ طلائع ثورته هم علماء الدين المجاهدون - الوجوه النورانية الالهية لمراجع الدين المجاهدين، الذين جلبوا انظار العالم نحو هذه الثورة بجهادهم واجتهادهم - ورأى ان قيادة هذه الثورة على يد شخصية منفردة ومرجع ديني وعالم رباني مجتهد، ألا وهو آية الله العظمى الامام الخميني رَبِّهِ، الذي كان يدير دفة ثورة ايران العملاقة بافكاره الإسلامية.

من هنا نشأ الاحساس بضرورة البحث والتحليل في خدمات العلماء الاحرار المجاهدين، وان ضرورة هذا الجهد اكثر من أي وقت مضى، وخاصة الاحساس بأن احياء ذكريات جهاد العلماء بالامس وتفصيل جوانب من نشاطاتهم وخدماتهم في المائة سنة الاخيرة (القرن العشرين الميلادي) ودراسة أهدافهم وطرق جهادهم وتصحيح الاغلاط والانحراف، ضرورة تاريخية.

قصة تأليف الكتاب

أطلعت رئيس تحرير صحيفة (اطلاعات) الإيرانية على فكرة القيام بهذا العمل، فكان استقباله وتأييده مشجعاً ودافعاً للشروع، فتمت المطالعات اللازمة في موضوع الكتاب وسلمتها لهيئة التحرير لكي يدرجها في الصحيفة كهامش. وقد بدأ طبع القسم الاول من سلسلة المقالات هذه في أول شهر نيسان سنة ١٩٨٠م واستمر شهرين متتابعين، وقد اقترن الاستمرار بكتابتها بالتوفيق وتقبلها الناس بقبول حسن، وقد جمع بعض الأصدقاء هذه المقالات واصرّوا على طباعتها مستقلة، فطبعت ونفذت الطبعة الأولى في اشهر، واضيف لها الجزء الثاني والثالث و

الرابع وطبعت الاجزاء عدّة مرّات و ترجمت إلى الإنجليزية ايضاً إلا أنّ أهم ما يرد على هذه الكتب، كما نبتّه على ذلك بعض القراء الاعزّاء، اشكالان اساسيان: الأول: إنّ مطالب الكتاب، بسبب كونها كتبت للصحافة، تفتقد المصادر والمراجع وصفحات المصادر، ولاشك أنّ هذا الأمر يعتبر نقصاً كبيراً في الكتب التاريخية.

الثاني: نظراً لكون مطالعات الكاتب محدودة، ولضيق وقت تهيئة المقالات فقد فات ذكر حال وخدمات بعض عظماء تاريخ العلماء ومفاخره في تلك السلسلة من المقالات، ومن المعلوم أنّ هذا الامر لا يمكن التغاضي والصفح عنه في كتاب يهتم بتبيين خدمات اعظم العلماء، وخاصّة في شان بعض الوجوه البارزة كالمرحوم: الشيخ فضل الله النوري او الشهيد الكواكبي و كاشف الغطاء و الشيخ عزّالدين القسّام و الامام موسى الصدر وآخرين، وربما حمل هذا الامر على معانٍ آخر أحياناً، ومن هنا سعينا الى رفع هذا النقص في هذه الطبعة.

شكر وتقدير:

وهنا أرى لزاماً عليّ خلقياً أن اقدم خالص شكري لجميع من ساهم في تهيئة سبل طبع هذه المقالات ونشرها، وخاصّة هيئة تحرير صحيفة (اطلاعات) وأرجو من الله تعالى ان يتقبّل مساعيهم باحسن القبول ويجزل لهم العطاء، انه سميع مجيب.

قم - الحوزة العلمية

عبدالرحيم العقيقي البخشايشي

الميرزا الشيرازي بطل العلم والعمل والإجتهد

إذا القينا نظرة على سجّل جهاد العلماء في المائة سنة الاخيرة، فإنّ أوّل اسم سيسطع في هذا السجّل هو اسم آية الله العظمى الميرزا محمد حسن الشيرازي، مرجع التقليد للشيعة في عصر حكومة ناصرالدين شاه القاجاري الجائرة.

لقد كان بطل العلم والتقوى هذا، وربّان مشعل الجهاد والمساعي الاجتماعية والسياسية ودليلاً في القرن الاخير، وهو - في الحقيقة - مؤسس الحركات الثورية للشعب الايراني المحروم ضدّ الظلم والاستبداد الداخلي والإستعمار الخارجي، ولهذا فإنّ وعي الشعب الايراني المسلم في بداية القرن الهجري المنصرم - القرن الرابع عشر - ووقفته بوجه الاستعمار الغربي والدول العظمى آنذاك، وخاصة الانجليز والروس، هي من جهود هذا العالم المجاهد ووعيه وفطنته.

كان الانجليز قد حصلوا على امتياز التبغ في ايران، وقد حاولوا عن هذا الطريق ان يجعلوا ايران من ضمن مستعمراتهم، فما كان من هذا العالم الرباني إلا ان اصدر فتواه الثورية بتحريم التبغ فكان لها اثرها القاطع، فقد قتلت نطفة الاستعمار الانجليزي في الرحم، بل نفخت الروح في جهاد الشعب ضد استبداد العائلة القاجارية، فاستمرت حتّى ثورة المشروطة، واقتلاع اجهزة الاستبداد القاجاري.

كان الميرزا الشيرازي من الطلبة البارزين للمرحوم الشيخ مرتضى الأنصاري (المتوفى ١٢٨١ هـ . ق)، ذلك الشيخ الذي وضع أسس اصول الفقه وأكملها وأحكمها في القرن الثالث عشر الهجري، وإليه إنتقلت مرجعية التشييع بعد المرحوم صاحب الجواهر (١٢٥٦ هـ . ق).

انهى الميرزا الشيرازي تحصيله العلمي في النجف الأشرف، حصن التشييع العلمي الشامخ، وبعد ان بلغ درجة الاجتهاد اختار مدينة سامراء مقرّاً له. وقد افتح في ذلك الزمان حوزة علمية بين الأخوة أبناء السنّة والشيعّة وذلك بتفكيره وتديبره الخاص، وكانت هذه الحوزة أحد الحوزات العلمية الفعّالة المثمرة في العالم الإسلامي، فقد خرّجت طلبة بارزين كان كل منهم بدوره حاملاً لمشعل العلم والفضيلة وللواء الجهاد والكفاح في الأمة الإسلامية.

إن إحدى ابرز خدماته واقداماته الثورية لبلده ايران وشعبه هو تحريم استعمال التبغ، فقد قصم بها ظهر المستعمرين في اوج استبداد ناصرالدين شاه وجلاوزته الذين باعوا وطنهم بارخص ثمن، ويفتخر التاريخ بموقف الميرزا المشرق.

وفي تلك الفترة المظلمة بلغت مظالم المستعمرين الاوربيين في البلدان الشرقية والإسلامية حدّاً لا يطاق، فقد كانت الدول الاستعمارية الغاشمة تقسم اموال هذه البلدان - ومن جملتها ايران - وثرواتها الطبيعية التي منّ الله بها عليهم، وتستغل رؤوس اموالها ولا تعطي في مقابل ذلك إلا الشيء اليسير، تقدمه للملوك والحكّام مقابل سكوتهم المهين.

ومع اتّساع نفوذ الاستعمار الخارجي الغاشم في البلدان الإسلامية الشرقية كان السيّد جمال الدين الاسدآبادي من الأوائل الذين احسّوا بخطر هذا الاتّساع وعواقبه الوخيمة التي تهدّد الإسلام وعظمة المسلمين، وبحث هذه المسائل بدقّة، ومن ثمّ بدأ باعداد الأرضية اللازمة للبدء بجهاد المستعمرين، وبذل في هذا المضمار جهوداً جبّارة، ومن جملة ما قام به ان أرسل رسائل مؤثّرة تهزّ الاعماق الى علماء المسلمين في ايران وباقي البلدان، بيّن فيها الاخطار المرعبة والعواقب المؤلّمة التي ستحدث من جرّاء وجود الاستعمار الغربي في العالم الاسلامي، وطلب منهم العون والتأييد.



رسالة السيّد جمال الدين

كانت الرسالة التي بعث بها السيّد الى مرجع الشيعة آية الله العظمى المرحوم الميرزا الشيرازي من أكثر الرسائل تأثيراً، ومن اجل دقّة الاطلاع على المسائل التي وردت في رسالة السيّد، والتحليل الاصولي لمفادها، نرى لزاماً ان نعود قليلاً الى الوراء ونبحث باختصار في كيفية منح امتياز التبغ للانجليز.

اثناء السفرة الثالثة التي قام بها ناصرالدين شاه الى اوربا، والتي تمت بتخطيط الانجليز ومعونة امين السلطان بالتواطؤ مع رجال البلاط، تلقى (ظل السلطان) ورئيس الوزراء من الانجليز اقتراحات حول الحصول على عدّة امتيازات جديدة،

وكان من أهم هذه الاقتراحات وغ الحصول على امتياش تبغ ايران.
 وكان المال الذي مع ناصرالدين شاه - الذي سافر الى اوربا لقضاء فترة بين احضان الغايات والسقوط في مستنقع الرذيلة - قد نفذ في انجلترا، واشتدّت حاجته للمال للاستمرار بالتمتّع بهذه اللذائد وادامة سفره، فلم يمتلك المقاومة امام وسوسة الانجليز التي اقترنت بلمعان الليرات الامبراطورية، فخرّ صريع شهواته واستسلم لارادتهم .

وخلاصة القول: انّ حاشيته - ومنهم رئيس الوزراء الخائن لوطنه والعميل للاسياد الذين وعدوا برشاوى - قد صوروا للشاه قبول هذه الإتفاقيه ورغبوه في قبض المال للاستمرار في السفر والمتعة.

لم يكن هناك ادنى فرق لدى الشاه الجاهل المستبدّ ان يكون تنباك بلاده بيد الايرانيين أم بيد الاجانب. فهو - لقصر نظره وضعف فكره - لم يستطع حتّى تصوّر ما يراد من وراء هذه المؤامرة ليعرف ان الهدف الاساس من الحصول على هذا الامتياز، هو دخول الانجليز ميدان التجارة كباعة للتبغ؛ ليحصلوا على ارباح مادية عن هذا الطريق، بل إنّ الهدف اكبر من ذلك، وما امتياز التبغ إلاّ جسر يمرّون عليه للدخول الى ايران والاستقرار فيها، وعن هذا الطريق ستكون ايران من ضمن المستعمرات البريطانية.

وبعد الحصول على رضا الشاه أعدّت انجلترا مرسوماً بالاتفاقيه، لكنها لم توقّعه باسمها، بل جعلته باسم احد رعاياها واسمه (ماجور تالبوت) ووقّعه شركة خاصّة اسمها (رجى).

وهذا دأب بريطانيا في هذه الموارد، فهي بدل ان تدخل طرفاً في الاتفاقيات، تجعل احد رعاياها طرف الإتفاق؛ لئلا يستغل اسمها. وإذا تعرضت مصالح هؤلاء الافراد والشركات الخاصة - وفي الحقيقة منافع دولتها - للخطر، فإن البرلمان والحكومة البريطانية يعقد جلسة طارئة يعبئ فيها كل الطاقات من اجل احقاق حقّ ذلك الفرد او الشركة غير الحكومية ظاهراً، فيتدخلون مباشرة في الامور المتعلقة بها، ويستعملون شتى أنواع الضغوط، واذا اقتضى الحال فإنهم يهجمون هجوماً

مسلحاً، وقد يشنون حرباً دعائية من اجل ذلك.

وعن هذا الطريق دخل (ماجور تالبوت) الميدان، وبمجرد ان انهى الشاه سفرته وعاد الى ايران، فإنه دخل طهران بصورة سرّية، وفي الوقت الذي اختفى فيه في سفارة انكلترا، وبقي بعيداً عن الأنظار، فإنه استمر كل يوم في المباحثات المتعلقة بالاتفاقية، بارسال الهدايا والرشاوى الضخمة - التي تخرس الالسن - الى الشاه ورئيس الوزراء وعدّة من رجال البلاط ومسؤولي الدولة المؤثرين. وبذلك فلم تمضِ فترة قصيرة حتّى عُقدت الاتفاقية بين ايران وماجور تالبوت انجلترا كما يُبَيّن.

نصّ اتفاقية التبغ (مينوبول)

أوكلنا بيع التبغ و فروع التبغ في جميع انحاء ايران وشرائه وصناعته في الداخل والخارج الى (ماجور تالبوت) وشركائه لمدة خمسين عاماً من تاريخ توقيع هذه الاتفاقية على الشروط أدناه.

الشروط: «وقد نظمت في خمسة عشر فصلا ووقعت في يوم الخميس ٢٨ في سنة ١٣٠٧ هـ الموافق للعشرين من آذار سنة ١٨٩٠م.

فحرمت هذه الاتفاقية الشعب الايراني وحكومته من محصول التبغ والتبغ تماماً، وجعلته تحت تصرف الانجليز في ظروف استعمارية واستثمارية، فكان المزارع الايراني مضطراً الى بيع محصوله الى شركة (رجى) بثمان بخس، واذا اراد شراءه فانه يشتريه بثمان باهض، إذا وافقت الشركة او رغبت في بيع التبغ للإيرانيين! وقد منحت كل هذه الامتيازات للانجليز في مقابل دفعهم (١٠) آلاف ليرة بريطانية وربح صافي الربح السنوي للشركة الى خزينة الدولة، او قل الى جيب شاه ايران!

وضمن هذا الامتياز منحت بريطانيا تسهيلات وامكانيات ضخمة اخرى، ومن جملةها: تسخير المزارعين، بل وحتّى حكام الولايات، من اجل كسب كل انواع المعلومات، أو قل استخدامها في الجاسوسية - بحسب الطريقة الانجليزية

الخاصة - فيما يتعلق بالمسائل الزراعية في ايران، وقد مهّد ذلك الأرضية لأن تنشب الامبراطورية اظفارها الدموية في صدور مزارعين وتمسك بخناقهم، كما فتحت الابواب واسعة بوجه الإستعمار والاستثمار عن هذا الطريق، وكما سلبت المزارع الايراني حقه في بيع التبغ والسجائر وغيرها وشرائها، إلاّ باجازه مكتوبة من أصحاب الإمتياز.

ومن التسهيلات الاخرى اعفاء الشركة عن جميع الرسوم الكمركية، وعدم دفعها الضرائب عند ادخالها الادوات والآلات اللازمة، فقد فُتحت الحدود الايرانية بوجه الانجليز بأوسع أبوابها، وسُمح لهم بأن يدخلوا الى ايران كلّما أحبّوا حتّى الأسلحة والآلات الحربية والأجهزة في سبيل قتل الشعب الايراني.

كما منحت الشركة صلاحيات واسعة في مجال تعيين قيمة التبغ، واذا ظهرت خلافات في التحديد فإنّ بريطانيا هي التي تختار حكماً لتحديد القيمة، ويجب اطاعة امرها وحكمها، ومن الطبيعي ان تختار من هو الاكثر طاعة لها، او انه يخضع لتهديدها ويطمع في نيل رضاها وجائزتها، وتنتخب من يجعل الامور تجري في مصلحتهم، ويضّرّ أشدّ الضرر بالمزارعين الايرانيين.

كما تعهّدت دولة ايران ان لا تزيد الرسوم الكمركية ولا الضرائب لمدة خمسين عاما - وهي مدة الإتفاقيّة - شيئا على الذي يؤخذ على التبغ والسجائر وامثالها، وان تعاقب كل من باع التبغ وكلّ أنواعها الاخرى من دون إذن الشركة أشدّ العقاب، وتغرّمه الغرامات الباهضة.

والشركة حرّة في ان تمنح امتيازها لمن تشاء، واذا نشأ خلاف بين حكومة ايران والشركة البريطانية فإنّ احد سفراء دولتي امريكا والمانيا والنمسا المقيمين في طهران يكون حكما وييدي رأيه، وعلى الطرفين الرضا بحكمه».

وبواسطة هذه الإتفاقيّة الإستعمارية الدنيئة تغلغل الانجليز في مجال التبغ في ايران، جلبوا المفاهيم الإستعمارية الى ايران تحت غطاء عمّال الشركة البريطانية، ووزّعوا كل فريق منهم على مدينة من مدن ايران، ولم يستعمروا الفلاحين واهالي المناطق المختلفة وحسب، بل جعلوا حكّام الولايات تحت

نفوذهم وسيطرتهم بأمر الشاه وقرار الدولة، فكان الأجانب يسرون في شوارع كل مدينة وازقتها زرافات ووحدانا يظهرون قوتهم.

وقد كتب احد المحققين: «... لقد اصحبت ايران سوقا اجنبية تماما، وخاصة طهران التي غصت بالاجانب، فحيثما تذهب فأمامك الاجانب، ففي الدار اجنبي وفي المحل اجنبي، وفي السوق اوربي، وفي الزقاق اجنبي ايضا»^(١).

ولم تكن مسألة امتياز التبغ هي السبب الوحيد الذي اثار غضب الشعب بعد ان اوضحته الدولة، بل ان اعمال الانجليز وعمال الشركة وسلوكهم قد زاد من لهيب هذا الغضب وزاد في النفرة والاشمئزاز العام من هذا الوضع.

واول عمل قام به الانجليز هو انهم اشتروا في اوائل الايام التي دخلوا فيها ايران بستانا في افضل منطقة في طهران آنذاك - وهي اليوم عمارة حفظ الاموال جنب البنك الوطني في شارع فردوسي - بثمن باهض، واقاموا عليه بناية الشركة، وبنوا اطرافه ما يشبه القلاع العسكرية، كما بنوا جدرانا وابراجا عالية، وبنوا بناية ضخمة محكمة في وسط البستان وكأنها ثكنة عسكرية او مقر قيادة، وقد اثار هذا العمل، الحيرة والرهبة لدى الايرانيين.

الآن اعمال الانجليز وسلوكهم لم تنته بهذا العمل، بل اتهم بدأوا منذ الايام الاولى بمعاملة الايرانيين معاملة استعمارية، وقد كشفوا عن سوء نواياهم وافكارهم الخبيثة، ونحن نورد قسماً مما كتبه «الشيخ محمد رضا الزنجاني» وهو كفيل بأن يزيح النقاب عن بعض هذه الحوادث:

«وبالجملة، فإن مجيئ هذه الجماعة الأجنبية الى ايران، وتفترقهم في انحاء هذه البلاد، وبنائهم المباني بعد استقرارهم فيها من دون اي تأن أو تأخير، فرّق شمل المسلمين وقيدهم».

ويضيف قائلاً: «وقد استأجر كل فرد من الاجانب الذين اجتمعوا في ايران - تقريباً - عدّة نساء ورجال للخدمة والعمل، و استخدموا النساء المسلمات بالذات في الخدمة ورعاية الاطفال وجلبوهن للعمل في البيوت مقابل اجور مغرية، فكنت

١- تحريم تنباكو، للشيخ رضا الزنجاني من المعاصرين لتوقيع الاتفاقية .

ترى في كل زقاق من ازقة طهران امرأة مسلمة تحتضن طفلاً أجنبيّاً، وربما رأيت طفلاً يعدو خلفها ويناديها ماما! ولا شك أنّ شعب إيران المضطهد قد اشتغل بخدمة الاجانب لعدم امتلاكه الثروة، والا فإنه لم يكن ليرضى بهذا الشقاء والتعاسة».

لقد أدخل البريطانيون قواتهم الاستعمارية بلباس عمّال الشركة، واستفادوا الى دعم دولة إيران، فقد سلكوا سلوكاً مشيناً وقحاً مع الإيرانيين حتّى انهم سحقوا المشاعر الوطنية والدينية لدى الناس، ولم يعبأوا بها، بل واستهانوا بهم وبمعتقداتهم، كما كانوا سيئي الخلق والسلوك ويظهرون كل خشونة وقسوة.

ويذكر الشيخ رضا الزنجاني في كتابه: «في مقابل موقف سيارات السيّد عبدالعظيم، وامام مرأى جمع من المسلمين صفع احد الاجانب - الذي يجب ان يدفع الجزية شرعاً - احد المسلمين صفعة شديدة، فقد سمعت الضربة من مسافة بعيدة، وما ذلك الا لاهمال الدولة وضعفها، ولم يكتف بهذه الصفعة بل بدأ يكيّل الشتائم ويوجه الكلام البذيء امام هذا الجمع ويقول له: اذهب الى من شئت واشتك عنده، وأشفع ذلك بأقبح الكلمات، فلم ينبس المسلم المسكين بينت شفة لانه يعلم بقوة الطرف المقابل».

لقد كان من نية الامبراطورية البريطانية العظمى ان تجعل مصير ايران كمصير الهند، وان تصيرها احدى مستعمراتها من خلال الحصول على امتياز التبغ، وحتّى (عباس ميرزا ملك آرا) أخو الشاه، فإنه كان ينظر نظرة متشائمة الى هذه المسألة، وكان يرى ان هناك مؤامرات تحاك خلف الستائر، فقد كتب في مذكراته:

«وقد دخل الانجليز ايران كأنهم دولة فتحت ايران، فقد أرسلوا افرادهم الى جميع انحاء البلاد، وجعلوا في كل بلدة فارساً ينفذ احكامهم، ومنحوا الفرسان افضل الجياد واعلى الرواتب واحداث الاسلحة، وكانت الشركة مطلقة العنان تفعل ما تشاء، او كما يقول الحكماء: وجود لا بشرط، فانهم لما رأوا الساحة خالية الى هذا الحد، ولا يوجد اي عائق في طريقهم عاملوا الناس اسوء معاملة واقساها، ولم يعيروا الحكومة ادنى اهتمام في اي مكان، كما كان امناء الدولة الذين رشتهم الشركة باجمعهم، يصدرن كل يوم اوامر جديدة الى حكام الولايات، تقضي

بتحسين اوضاع اتباع الشركة ورعاياها».

ولهذه الامور كان غضب الشعب وسخطه على اعمال الشركة البريطانية ومعاملتها الاستعمارية يزداد كل يوم، خاصة وان حكومة القاجاريين الاستبدادية كانت قد ضيقت على الناس من قبل، وشحنت الصدور غيظا عليها، فتهيات بذلك الأرضية المناسبة لحدوث انفجار بين اوساط الشعب، وكانت الاعمال القبيحة والسلوك الاستعماري المقيت للبريطانيين كعود كبريت اقترب من برميل بارود.

انطلاقة تبريز وشيراز

ظهرت اول ردود الفعل لغضب الشعب في مدينتي شيراز وتبريز، فقد اغلق اهالي هاتين المدينتين الأبواب بوجه ممثلي الشركة وعمالها، ولم تستطع الدولة وازالها مجابهة الناس في تبريز فاضطرت للاستسلام امام غضب الشعب ونهضته العارمة.

اما في شيراز فقد اتخذت الدولة اسلوباً آخر في العمل باستخدام قوتها، فحينما اجتمع اهالي شيراز لاعلان اعتراضهم على مجيء عمال الشركة وازدحموا في محل التجمع واحتضنوا علماء المدينة وشكلوا حلقة حولهم لحمايتهم، سعت الدولة الى عزل الناس عن العلماء ونفوذهم الشعبي عن طريق الضغط واستخدام القوة ضد العلماء، اذ ان الناس لما ثاروا في هذا البلد وأحدثوا تلك الضجة اتصلت حكومة شيراز بالحكومة المركزية واطلعتها على الامر؛ لتعرف واجبها تجاه الحدث وتنفيذ ما تصدره الحكومة المركزية من اوامر، فتجاهل الحكام في العاصمة تجمع الناس وغضبهم، وأصدروا اوامرهم بنفي العالم الجليل المجاهد الواعي المحبوب لدى اهل شيراز السيد علي اكبر فال اسيري، وبعد عدة ايام اخذ حاكم شيراز هذا العالم على حين غفلة وهو خارج المدينة، فاختطفوه ونفوه الى العراق عن طريق جنوب ايران والبصرة بعيداً عن انظار الناس.

وبذلك فإن اول مواجهة حدثت بين العلماء والاستعمار في سجل جهاد العلماء ضد الاستبداد والاستعمار في القرن الاخير، كانت في شيراز، واول عالم

دين نفي من بلده كان من شيراز.

إلا أنّ تصور الدولة واذنابها بأن هذا النفي قد حلّ المشكلة تصوّر في غير محله، بل كانت له نتائج عكسية، فإن نفي السيّد علي أكبر فال اسيري لم يرعب الناس او يجعلهم اجلاس بيوتهم، بل انه على العكس من ذلك أثار غضبهم وأوقد نار سخطهم، حتّى تخطت ابواب شيراز وامتدّت الى باقي المدن، فشملت العاصمة ايضاً.

ان أهل شيراز، وبعد نفي السيّد علي أكبر فال اسيري، بدل ان يخافوا ويلتزموا الهدوء ويلتجأوا الى بيوتهم وتهدأ بذلك المدينة - كما تصورت الدولة - استمرّوا في الثورة بغضب أكبر وبحماس وحرارة اعظم، فاتّجه الناس نحو مزار السيّد شاه چراغ واجتمعوا في الصّحن الشريف، وأطلقوا صرخاتهم المدوية الغاضبة لعدّة ساعات فألقوا بذلك الرعب في قلوب انصار الحكومة.

انّ كلّ ما جرى كان بهدف الوقوف بوجه مجرى البريطانيين الذين كانوا يريدون نهب اموال الشعب الايراني وانتهاك حرمانه تحت غطاء اعضاء الشركة، لكن النتيجة كانت معكوسة، اذ لم تكتف الدولة بتفريق تجمّع الناس باطلاق الرصاص عليهم وقتلهم وجرحهم، بل انّ حكومة شيراز قد قامت في اليوم الثاني بقتل الناس العزل قتلا جماعيا، وأقامت مجازر وحشية، ثم أبلغت وكلاء الشركة بأن بإمكانهم ان يدخلوا شيراز آمنين ولا يكون في قلوبهم ادنى خوف أو رهبة من اهالي المدينة.

وبالفعل دخل المدينة نوّاب الشركة الذين كانوا قد بقوا خارج المدينة حتّى ذلك اليوم خوفا من اهالي شيراز ولم يجروا على الدخول، بل ظلوا ينتظرون اذن الدخول من ازام الدولة، فلما اذنوا لهم دخلوا بكلّ اطمئنان، ولكن صدى الشكوى والاستغاثة كان يصل من زقاق بعيد وكان كل من يسمع هذا النداء يترك داره او محلّ عمله ليبلغ اخوانه وجيرانه، ليذهب الجميع الى صحن شاه چراغ ليتصلوا ببقية الناس.

عندما علم رجال الدولة بذلك استولى الرعب عليهم وبدأوا يفكرون بوضع

الحلول للاخطار المحتملة التي يمكن ان تنجم عن استمرار هذا الوضع، فقررت حكومة شيراز استخدام القوة في سبيل تفريق هذا التجمع، واستخدمت الفرسان والمسلحين بالبنادق في سبيل تحقيق هذا الهدف، كما يذكر ذلك الشيخ محمد رضا الزنجاني في كتابه حيث يقول: «ولم تستطع حكومة شيراز ان تهدئ الوضع المضطرب إلا باستخدام الفرسان المتوحشين المتعطشين للدماء (بهارلو) الذين كانوا تحت امرتها، ففرقوا الناس باطلاق النار. لقد وجّه هؤلاء المنسلخون عن الانسانية رصاصهم الى صدور هذا الشعب المسلم فأردوا مجموعة منهم قتلى». واستقبل ممثلو الحكومة باقامة تشريفات ومراسم مطوّلة.

انتفاضة اهل تبريز

أمّا في تبريز فإن النصر كان حليف الشعب، فانهم بعثوا ببرقيات الى ناصرالدين شاه أعلنوا فيها عن مخالفتهم لاتفاقية التبغ، وبادروا الى اغلاق ابواب المدينة بوجه نواب الشركة، ثم اتجهوا نحو قصر ولي العهد الذي كان في تبريز آنذاك، وقاموا بتظاهرات هناك.

وقد خاف ناصرالدين شاه من نهضة التبريزيين اشد الخوف، وكان رجال الدولة في ذلك العهد اذا سمعوا اعتراضاً عليهم في أيّ بقعة من ايران فانهم يفسرونه بأنه ناتج عن تدخل العناصر الاجنبية وتحريكها، ولم يكونوا يقتنعون بأن الشعب الايراني قد بلغ درجة من الوعي يستطيع معها الاعتراض والثورة من دون تحريك الاجانب وارشاداتهم، ولهذا التصور فإن رجال الحكومة اذا سمعوا بان ثورة وتحركاً ضدّهم قد قام في الاطراف الشمالية من البلد فانهم يلقون التبعة على الروس، واما حركات الجنوب واعتراضاته فكانوا يتهمون الانجليز بها، غير ان الاعتقاد بأن للانجليز دخلاً في تحريك سكّان شيراز لا يمكن تصوره، فإن الشيرازيين ثاروا ضد الانجليز هذه المرة، ولهذا السبب فإن حكومة شيراز قد نسبت هذا التحرك الى نشاط السيد علي اكبر فال اسيري ونفته.

واما في تبريز فلما كان ناصرالدين شاه يعتقد بان للروس يداً في الاحداث،

فانه خاف من دخول الانجليز الى تبريز، ولذلك فانه ومن اجل استمالة الروس طلب من وكلاء الشركة ان يتركوا تبريز ولا يدخلوها لأنها تحت نفوذ الروس.

انتفاضة اهل اصفهان

وفي تلك الفترة انتفض الشعب في اصفهان، وازدادت قوة الانتفاضة حتى اصدر المرحوم آية الله النجفي فتواه بتحريم شراء التبوغ وبيعها واستعمالها، وتنفيذاً لفتواه امتنع مقلدوه من الاصفهانيين عن التعامل بالتبغ.

لقد واجه ابناء اصفهان الحكومة بقيادة علماء المدينة بكل حزم، ونفذوا حكم آية الله النجفي مجتهد المدينة القاضي بتحريم التعامل بالتبغ بكل دقة وايمان، ومنذ ذلك اليوم اختلّ عمل الشركة في هذه المدينة فاضطربوا اشد الاضطراب، فاتصلت الشركة بالحكومة لتحديد موقفها، ومن اجل ذلك بعثت الدولة برقية تهديد الى المرحوم آية الله النجفي تطالبه فيها بالكف عن مخالفة الشركة البريطانية.

ومن جهة اخرى فان الحكومة المركزية امرت الحكومة المحلية بشيراز باسكات الناس واجبار علماء الدين على اصدار فتوى تبيح استعمال التبغ، واذا استمر الشعب بالمقاومة فإن لها الحق في استخدام القوة لقمع هذه المقاومة.

وفي هذا الإطار دخل (ظل السلطان ابن ناصر الدين شاه) في مفاوضات مع علماء الدين في اصفهان، إلا انها لم تثمر شيئاً، فقد أصرّ علماء الدين على مخالفتهم لاتفاقية التبغ ودخول العمال الانجليز الى ايران.

وفي المقابل حصلت الحكومة المحلية على اذن من الحكومة المركزية بمضايقة علماء الدين وخلق المتاعب والصعاب لهم، وقد ضغطوا كثيراً على العلماء حتى اضطّر بعضهم الى مغادرة مدينته ليتخلص من ضغوط ازام الدولة.

وكانت حياة العالم منير الدين - وهو احد مشاهير علماء اصفهان ومحل احترامهم وتقديرهم - قد تعرضت للخطر، فاضطّر الى مغادرة المدينة ليلاً متخفياً عن انظار جنود الحكومة، واتّجه مباشرة الى آية الله الميرزا الشيرازي مرجع الشيعة آنذاك حيث كان حينها مقيماً في سامراء.

حرق الاموال

غير ان ابناء اصفهان استمروا في مجابتههم وامتنعوا ومنعوا من التعامل بالتبغ بيعاً وشراءً واستعمالاً تنفيذاً لفتوى مجتهدهم المحبوب وعالم المدينة الجليل، حتى ان جماعة من تجار التبغ وباعة الجملة بدل ان يبيعوا ما لديهم من البضاعة فانهم قسّموها بين الفقراء، وبلغ الامر ان احد تجار اصفهان المعروفين ابني ان يتعامل مع الشركة البريطانية، وجعل الشركة في حيرة من امره عندما أقدم على عملٍ يبدو عقيماً في ظاهره، وذلك ان الشركة لما علمت بعدم موافقة هذا التاجر على بيع بضاعته، أرسلت أفرادها لمصادرة ما لديه من التبغ، فطلب هذا التاجر الفدائي منحه فرصة لمدة (٢٤) ساعة ثم يسلمهم البضاعة بعد ذلك، فعمد الى ما عنده من التبغ - وكان مقداره (١٢) ألف كيسا - ونقلها الى محل واسع ثم سكب عليها صفائح من النفط وأحرقها جميعا ليبقى ايمانه وعقيدته الدينية نقيّة غير مشوبة.

مقالة براون

كتب «ادوارد براون» المستشرق المعروف حول هذا التاجر: إن سّموا طبع هذا التاجر المضحي وحبه لوطنه وعلمه وايمانه لا يمكن ان يوصف، فهو يحرق رأس مال عظيم بكل صلابة واطمئنان وبعيداً عن أي نوع من التظاهر والرياء؛ ليعلن مخالفته للإحتكار، وليحارب نفوذ الاجانب في ايران، وليبين عملياً ان هذه الشركة تخالف رغبة ايران ومصحتها، وان حكم زعماء المذهب واجب يجب على جميع المسلمين تنفيذه^(١).

انتفاضة اهل طهران

اما في طهران فكانت حركة الشعب بصورة اخرى، وذلك ان الناس في المدن القريبة والبعيدة كانوا يسمعون ما يترتب على اتفاقية التبغ، وما ينجم عنها قبل ان يروا شيئاً بأعينهم، اما في طهران فان أهلها كانوا يرون ما يجري بأعينهم ويلمسون

١- تاريخ بيدارى ايرانيان الجزء الاول.

ذلك من قريب، فهم في طهران يعيشون وجهاً لوجه مع سيل الانجليز الذين انتشروا في انحاء المدينة يؤذون الإيرانيين ويحرقونهم، والناس هنا يشاهدون عن كثب سياسة الشاه الغاشمة، وتهديده الشعب برميه بقذائف المدافع والرصاص، واستخدام امين السلطان قوته وقدرته، وكانت هذه المسائل تمنحهم وعياً وفطنةً يعرفون بها ما يجري خلف الستار، وكان هذا الوعي يزيد في قوة حركتهم العامة، ويمنح انتفاضتهم حماساً اكثر ويجعلهم يثابرون عليها ويستمررون فيها.

والذي يلفت النظر، وكونه من العلامات البارزة، هو قيادة العلماء ودورهم الفعّال في توجيه الانتفاضة في طهران - وكذلك في بقية البلدان - توجيهاً اسلامياً، وتحديد هيكلها واطارها، فقد كانت دار الميرزا حسن الاشتياني العالم الجليل الذي يحترمه الناس، مكاناً لتجمّع الناس في طهران كلّ يوم، وكانت تشهد حماس الشعب الغاضب ومشاعره الملهبة.

ومنذ اليوم الاول الذي تجمّع فيه الشعب حول دار الميرزا الاشتياني ليعلنوا غضبهم الهادر واعتراضهم الصارخ ضدّ منح امتياز الانحصار للاجانب، اتصل الميرزا الاشتياني بالشاه وامين السلطان عدّة مرات، واجرى معهما محادثات حول لغو هذا الامتياز، غير أنّهما لم يعيرا كلامه واقتراحاته ادنى اهتمام، ولم يرتباً عليها ايّ اثر. ولما أيقن الجميع أنّ الشاه وامين السلطان مصممان على البقاء على قرارهما، وليس في النية ان يتخذ أي قرار يلبي طلبات الشعب الغاضب، رأوا أنّ الحلّ الوحيد هو ارسال رسالة الى مرجع الشيعة الكبير الميرزا الشيرازي، فتشاور علماء طهران في الأمر فأشار الميرزا الاشتياني والمرحوم السيّد علي اكبر التفرشي بارسال رسالة الى الميرزا الشيرازي يطلبون منه فيها الحل لهذه الاوضاع.

ووصلت الرسالة بيد الميرزا الشيرازي سريعاً، وفي نفس الوقت ذهب السيّد علي اكبر فال اسيري الذي نفتته حكومة شيراز الى سامراء، وكذلك منيرالدين احد علماء اصفهان الذي غادر بلده ليلاً نتيجة تزايد ضغط (ظل السلطان) حاكم المدينة الى الميرزا الشيرازي، اضافة الى جماعة اخرى من العلماء وطلبة العلوم وعمامة الناس، الذين عانوا من الظلم اثناء هذه الحوادث فالتجأوا الى سامراء، حيث الميرزا

الشيرازي.

انّ نفي هؤلاء العلماء الذين استقبلهم الميرزا الشيرازي ورعاهم في كنفه كان كافياً لوحده لأن يفهم مرجع الشيعة - بكل سهولة - مدى وخامة الاوضاع في طهران ومدن ايران الاخرى، كما وصلت الميرزا الشيرازي رسائل كثيرة في هذه الفترة، تتحدّث جميعها عن اوضاع ايران والارهاب السائد فيها، وتطلب الحلّ من المرجع الجليل، وفي هذه الظروف وصلت رسالة السيّد جمال الدين بيده.

رسالة السيّد جمال الدين الاسدآبادي

في تلك الايام كتب السيّد جمال الدين الاسدآبادي، المجاهد والمصلح الكبير، رسالة مفصّلة ومعبرة الى الميرزا الشيرازي، وعندما مر السيّد علي اكبر قال اسيري بالبصرة في مسير نفيه الى سامراء، سلّمه السيّد الرسالة ليوصلها الى الميرزا الشيرازي بمجرد وصوله سامراء، ونذكر هنا مختصراً من تلك الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الى زعيم الدين وشعاع انوار الائمة الساطع، قطب الديانة ولسان الشريعة الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي أيد الله به الإسلام واعزّه، ورّد كيد الكافرين في نحورهم بوجوده.

... هذه الرسالة تعبّر عن ارادة أمة الإسلام، ترسلها الى اولياء امرها العظام... زعيم الدين... لقد نصب الله كرسي زعامتك في قلوب الناس وعقولهم؛ ليقوم عمود الدين وينضح الصراط المستقيم، لكنّ الله تعالى قد القى على عاتقك مسؤولية حفظ الدين والدفاع عن العالم الإسلامي في مقابل ما منحك من عظمة ورياسة في القلوب والعقول، وهذه المسؤولية تقتضي القيام بها حتّى ولو نلت الشهادة، وهذه سنّة الماضين من قبلك. انّ هذه الأمة الإسلامية الحائرة قد علقّت الامال عليك وهي ترى انّ سعادتها ونجاتها وخلاصها في يدك.

واذا تخلّيت عنها في هذه الاوضاع فإنّ افكارها ستشتت وتخور قلوبها وتضعف دعائم ايمانها، فكلّمنا قصّر العلماء في اداء واجباتهم او تهاونوا في الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر تحيّر عامة الناس وشكّوا، ووقعوا في حبال سوء الظن وانحرفوا عن الصراط المستقيم.

مشاكل الشعب الإيراني

واليوم يواجه الشعب الإيراني المشاكل والمصاعب ... تلك المشاكل التي سلّطت الكفار على الأمة الإسلامية .. تلك المصاعب التي تسببت في ان يعتدي حفنة من الأجانب الكفرة على حقوق المسلمين، لكن الأمة الإسلامية قد شخصت بابصارها اليك في هذه الاوضاع، فرأت انك ساكت عنها، ولم تهب لعونها، رغم المسؤوليات العظيمة الملقاة على عاتقك.

انّ من حق هذا الشعب ان يتسائل: لماذا سكت السيّد آية الله امام هذه الحوادث؟ وما الذي حدث حتّى لا يعبأ بالدين واهل الدين، ويدع المسلمين تحت وطأة الكفار بهذه الحالة البائسة، يعملون فيهم ما يشاؤون، ويلهون بهم كيفما يحلو لهم.

ان الحق يجب ان يقال، فأنت زعيم الشيعة، وأصبحت كالروح في ابدان ابناء هذه الامة فرداً فرداً، ولن يستطيع اي احد ان يهب لانقاذ الامة إلا في ظلك وحمایتك، فلن تطمئن هذه الامة الى احد سواك.

يا امام الدين العظيم! لقد اصبح ملك ايران رجلاً ضعيفاً سيئ السيرة، ضعفت مشاعره وماتت احساسه، فقسى على الشعب، واستخدم القوة ضدّه، كما ساءت معاملته معهم، ولمّا كان عاجزاً عن ادارة امور البلاد والمحافظة على مصالح الشعب، فإنه اودع زمام امور الناس والبلاد بيد رجل خبيث احمق قبيح السيرة، وهو عدو للاسلام، فإنه يسيء القول في انبياء الله امام الناس، فلا هو يطيع امر الدين، ولا يحترم زعماء الدين، فهو يشتم علماء الدين، ويتهمّ المتقين، ويهين السادات المعظمين، وله مع الوعاظ سلوك مشين، فقد خلع جلباب الحياء منذ قدّم من اوربا، واستبد برأيه، ويشرب الخمرة دون خجل أو وجل، يقابل الكفار بوجه المحبة، ويجابه المسلمين والاخيار بوجه العداوة والبغضاء.

هذه بالطبع اعماله الخاصة، اما ما فعله مما يضر بالجميع، فإنه باع القسم الاعظم من البلاد وما فيه من الموارد والعائدات لأعداء الدين والأمة. وتفصيل ذلك كما يلي:

١ - المعادن والطرق المؤدية الى المعادن، وكذلك المواصلات التي توصل المعادن بنقاط الدولة المهمة.

٢ - من المقرر ان تضم جميع منازل القوافل الموجودة على جوانب خطوط السكك الحديدية - في جميع انحاء البلاد - الى المزارع والبساتين الواقعة على اطراف هذه الطرق.

٣ - نهر الكارون وجميع الفنادق التي تبنى على جانبيه وعلى طول امتداده، وكذلك المراتع التابعة لهذا النهر.

٤ - طريق اهواز - طهران وكل ما يقع على اطرافه من العمارات والفنادق والمزارع والبساتين.

٥ - التبغ وما يتبعه من لوازم من اكثر المراكز، المزارع، دور الحراس ومسؤولي الحمل والنقل، والباعة حيثما كانت، واينما تبنى.

٦ - جني العنب لغرض صناعة الخمر، وكل ما تحتاجه الصناعة من محلات ومصانع في جميع انحاء البلاد.

٧ - الصابون والشمع والسكر وما تتطلبه هذه المواد من معامل.

٨ - البنك، وما ادراك ما البنك؟ فالبنك عبارة عن تسليم زمام الامور المالية للشعب بيد اعداء الإسلام وجعل المسلمين عبيداً لهم، وعليهم ان يقبلوا بسيادة الكافرين.

وبعد هذا يقف هذا الخائن الأحمق ويقيم دليلاً سخيفاً على تصرفه الأحمق ليرضي به الشعب، فيقول: ان هذه المعاهدات مؤقتة لا تتجاوز المائة سنة! فيا لله! اي برهان اوضح من هذا على فضيحة الخائنين؟!

وقد منح نصف البلاد الآخر الى روسية كئمن لسكوتها، وتلك البقعة عبارة عن: مياه رشت، وطريق انزلي الى خراسان، وكل ما في هذا المسير من دور وفنادق

وبساتين، غير أنّ روسية ركبت رأسها ورفضت هذه الهدية، لأنها كانت تفكر هي الأخرى باحتلال آذربيجان ومازندران إذا لم تلغ هذه المعاهدات التي ستؤدي إلى تسليم الوطن بيد الأجانب .. نعم، هذه أوّل النتائج التي تمخضت عن رئاسة هذا الأحمق الجاهل.

وخلاصة القول: إنّ هذا الرجل الضال قد عرض إيران في سوق المزايدات، وهو يبيع بيوت محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدول الإسلامية إلى الأجنبي، لكنه لحقارته وما فيه من الصفات الوضيعة مستعدّ لأن يبيع البلاد بثمن بخس.

خاتمة الرسالة:

والان، فإنك يا زعيم الدين ان لم تهبّ لنصرة الشعب وتوحيده، وتخرج البلاد من قبضة المجرمين بقدرتك، فسوف لن تطول المدة حتّى يقع الوطن تحت وطأة الأجانب وقوتهم .. فإذا مرت هذا الفرصة وتمت هذه الاتفاقية في حياتك فسوف لن تذكر بخير على صفحات التاريخ، وانت تعلم أنّ صدور علماء إيران قد ضاقت وهم ينتظرون سماع كلمة منك.

كيف يجوز لرجل اعطاه الله مثل هذه القوة ان يترك الشعب والوطن في هذه الحال؟ انك، ونظراً لقدرتك ونفوذ كلمتك، ستؤثر في الجميع، فستوحد القلوب المتباينة، وترفع الاختلاف الموجود بينهم، وستجتمع قوى الشعب المبعثرة، شيئاً فشيئاً بواسطة، فكلمة منك ستوجد الوحدة، وعليه فالجميع معك، وستكون مسؤولاً امام الله والشعب^(١). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جمال الدين الحسيني

الجواب العملي

اخيراً، بدأ الميرزا الشيرازي عمله المضاد عبر اعلان مخالفته لاتفاقية امتياز التبغ، بعد ان وقف على ما يجري في إيران، وكان قد مضى على توقيع الاتفاقية ونفوذ الانجليز وسيطرتهم في إيران (١٧) شهراً، حينما بعث الميرزا الشيرازي في

١- تاريخ مشروطه، الجزء الاول.

١٩ ذي الحجة ١٣٠٨ بيرية الى ناصرالدين شاه بواسطة كامران ميرزا نائب السلطنة، وقد طلب مرجع الشيعة الكبير في هذه البرقية من ناصرالدين شاه باسلوب الاحترام والأدب:

اولاً: ان يقوم فوراً بالغاء امتياز التبغ، ذلك الامتياز الذي يعارض صريح القرآن الكريم والنواميس الالهية، ويهدد استقلال الدولة ويخل بنظام البلاد، ويسبب تفرق الناس واضطرابهم.

ثانياً: ان يحترم العلماء الذين تعرضوا للظلم والاهانة في هذه الحوادث، خاصة الحاج السيد علي اكبر فال اسيري حفظه الله تعالى، والذي التجأ الى هذه الناحية المقدسة، سامراء.

تجاهل البرقية

لم يعبأ ناصر الدين شاه بهذه البرقية عندما تسلمها، بل ولم يسمح لاحد غيره وامين السلطان وعدة من المقربين بالاطلاع عليها. وكانت سياسة ناصرالدين شاه وامين السلطان تقوم على اساس تهدئة ثورة الناس بوعدهم اليوم وغداً، وعدم الاجابة على هذه البرقية، ليحملوا الناس على الملل والتعب والرضا بما حدث، والكف عن العتب والشكوى. لكن الشعب لم يخدع بهذه الأساليب والالاعيب، ولم يهنوا أو يتراجعوا، بل كان لهيب غضبهم يتأجج يوماً بعد يوم، واستمروا في ثورتهم، وارسلوا الى الميرزا الشيرازي رسائل تهز الأعماق، تتحدث عن اوضاع ايران ومظالم الانجليز فيها، وطلبوا منه ان يتحرك بجدية لانقاذ الناس من قبضة هذا النظام الفاسد.

وهذه المرة ارسل زعيم الشيعة رسالة اخرى الى ناصرالدين شاه بواسطة (كامران ميرزا) نائب السلطنة لكنها كانت اشدّ تعبيراً واقوى تهديداً من الرسالة الأولى. وقد كان السكوت جواب ناصرالدين شاه على هذه الرسالة ايضاً، واكتفى بارسال رسالة قصيرة الى الميرزا الشيرازي ذكر فيها انه اصدر الاوامر لأمين السلطان بأن يجيب على رسالة الميرزا بأسرع وقت ممكن، وعند ملاحظتها سيتيقن آية الله

بأن الدولة لم تبع حيثية الناس واستقلالهم ونواميسهم وحریتهم للآخرين، بل انها تسعى وتستسعى بكل جد للحفاظ على استقلال البلاد! ان شاء الله

ان نص هذه الرسالة يوضح ان جواب الميرزا الشيرازي موكول الى المستقبل، ولم يكن هذا المستقبل معيناً، وفي اي وقت سيجيب الميرزا، وكان الميرزا قد أدرك هذا الامر جيداً.

ومن جهة اخرى كان ازلام الدولة يزيدون من ضغطهم على الشعب وارهابهم كل يوم، ولم يدعوا لحظة تمر دون ان يكيلوا فيها الشتائم للناس ويضربوهم ويسجنوهم، وكانت كل هذه الامور قد ذكرت في رسائل اليمه نائرة، وارسلت الى الميرزا الشيرازي. وكان الشعب وعلماء اصفهان وشيراز وطهران يطالبون الميرزا باستمرار ان يتخذ قراره النهائي.

وفجأة بلغ خبر يفيد بأن مرجع الشيعة الكبير قد حرّم استعمال التبغ وكان لهذا التحريم دويّ اقوى من دوي اي انفجار في العالم، وقد أدان الشاه وعبيده.

لقد كانت فتوى الميرزا الشيرازي موجزة العبارة إلا أنّها حازمة لا تردّد فيها، فهي في صلابتها كالجبل، ونصّ العبارة:

بسم الله الرحمن الرحيم. ان استعمال التبغ اليوم، وبأيّ نحو كان، بمثابة محاربة صاحب الزمان عجلّ الله تعالى فرجه الشريف.

حرره الأقل محمد حسن الحسيني

رد فعل الشعب

بمجرد ان وصل حكم التحريم الموجز الحازم الى طهران اثار ضجة عظيمة فيها وكأنّ قنبلة قد انفجرت، فلم تمر ساعتان الا وانتشر الخبر في جميع انحاء طهران. ولما علم امين السلطان وكامران ميرزا نائب السلطنة بصدور فتوى الميرزا داخلهما الرعب وعملا على الوقوف امام انتشار الخبر في طهران، فأرسلوا افراد الشرطة الى الشوارع ليمزقوا كل نسخة من الفتوى يعثرون عليها، لكن الشعب لم يهدأ، فبالاضافة الى ان المتعلمين قد استنسخوا آلاف النسخ في اقلّ مدة وتناولتها

الأيدي في أرجاء المدينة، فان الخطباء قد نزلوا الى الشوارع وقرأوا فتوى مرجع التقليد على الناس بصوت عال، فلم يطلع الشعب على كيفية التحريم وحسب، بل انهم قد خاطروا بأنفسهم في سبيل إيصال فتوى الميرزا الشيرازي الى بقية المدن ببرقيات ابرقوها، ولم ينقض ذلك اليوم حتى علم الناس في انحاء البلاد، في كبار المدن وصغارها، بهذا الحكم.

وطبقاً لما كتبه الشيخ محمدرضا الزنجاني المعاصر لمسألة التحريم «فإن هذا الحكم الحازم المطاع قد نفذ الى القلوب نفوذاً عجيباً، حيث ان جميع اصناف الشعب، الرجل والمرأة، العالم والعامي، العالي والداني، ورغم اختلاف الطبائع والآراء قد انقادوا لهذا الحكم تمام الانقياد، واتفقوا على ان لا يرى أي دخان يتصاعد من نرجيلة أو سبجارة أو سائر أنواع الدخانيات في نقطة من أرجاء ايران، حتى عصر الجمعة».

وأثر هذه الفتوى أغلق باعة التبغ محلاتهم، ورمى كل من يمتلك علبة سجائر تلك العلبة بعيداً، بل ان هذه الفتوى قد دخلت الى منزل ناصرالدين شاه حيث لم تر نرجيلة فيه، وأمرت نساء الدار الغلمان والخدم بكسر رؤوس النرجيلات (البابيات) والقائها أمام غرفة نوم الشاه ليطلع على الامر.

أنيس الدولة وجوابها القاطع

وفي ذلك اليوم عندما دخل الشاه غرفة أنيس الدولة التي كان يحبها كثيراً رأى الخدم منشغلين - وباشراف أنيس الدولة - بنزع رؤوس النرجيلات الفضية المرصعة وجمعها في زاوية واخفائها عن الانظار، فغضب الشاه لذلك وسأل انيس الدولة: لماذا فعلت ذلك؟

فأجابت: لأن شرب النرجيلة اصبح حراماً.

فاستولى الغضب على الشاه وقال: من حرّم النرجيلة؟

فقالت: الذي احلني لك!

فاتتبه الشاه الى ان التحريم قد دخل الى اعماق ارواح الناس واذهانهم

وتفكيرهم الديني هذه المرّة، حتّى بلغ الامر ان تلتزم نساء قصره بهذا الحكم، ومن المتيقّن انه لا يستطيع ان يواجه هذه المسألة، وخوفاً من ان الاستمرار في السؤال والجواب سيؤدي الى طريق أضيّق، ولعله سيسمع ما يسيء اليه من الملكة، فانه سكت وغادر الغرفة، ولم يجرؤ من ذلك الحين ان يطلب من غلمانها اتيانه بالترجيلة.

الانضباط الاسلامي

لقد زلزل الالتزام بتحريم التبغ، والذي نفذه الناس تنفيذاً يبعث الحيرة في النفوس، اركان الحكومة، ففكّر امين السلطان - الذي كان العقل المخطط لبلاط ناصرالدين شاه - ببث الشائعات والاكاذيب؛ لتقف امام سيل التحريم الجارف، فعمل مع ازلامه على زعزعة عقيدة الشعب عن طريق اشاعة: ان مثل هذه الفتوى لم تصدر عن الميرزا أبداً، وانما اختلقها بعض المغرضين الذين يريدون السوء بالشعب!

ولما سمع الناس بهذه الشائعات اتّجهوا نحو دائرة البريد ليرقوا الى نفس الميرزا مستفسرين عن حقيقة الأمر، ولكنهم بمجرد ان وصلوا وجدوا البريد تحت سيطرة الشرطة الذين منعوا من ارسال البرقيات بحجج مختلفة؛ لتلا يطلّع احد على رأي مرجع التقليد.

وعاظ السلاطين

وكان هذا المنع من ارسال البرقيات كافياً لوحده؛ ليعلم الناس اختلاق هذه الشائعات، إلا انّ جريان الأحداث قد اتّخذ شكلاً آخر، فقد دفع امين السلطان ورؤساء شركة (رجى) مبالغ من المال الى جماعة من المتلبّسين بالدين وبيعة الضمير، وطلبوا منهم ان يتحركوا ضدّ هذه الفتوى، فارتقى هؤلاء المعمّمون العملاء، -الذين يوجدون في كل عصر وزمان - المنابر ووقفوا في الطرق العامة والمجالس الخاصة؛ ليشيعوا بين الناس انّ هذه الفتوى كذب وافتراء من الاساس، وانّ شخصاً اسمه «ملك التجار» وهو من تجار التبغ الذين تعرضت مصالحه للخطر قد اختلق

هذه الفتوى. ومن اجل تثبيت هذه الشائعات عمدت الدولة الى اختطاف ملك التجار من داره ليلاً، وابعده الى قزوين ليخفيه رجال الحكومة هناك ليعيداً عن متناول الشعب.

إلا أن أياً من هذه المؤامرات لم يؤثر، فقد هبّ العلماء والخطباء المخلصين الذين يثق بهم الشعب ويصدقهم، الى تكذيب هذه الشائعات، واناة افكار الناس بالحق والحقيقة.

وفي هذه الاثناء سعت الحكومة سعياً حثيثاً، لعلها تستطيع ان تجذب بعض علماء الإسلام الحقيقيين، وطلبت منهم الغاء حكم التحريم، إلا أنهم اجابوا جميعاً بان هذا حكم مرجع التقليد الكبير، ولا يستطيع احد سواه ان يلغيه، ولذلك فكرت الدولة بالانتقام من العلماء فأذاقتهم الظلم والجور، وكان على رأسهم الميرزا الآشثاني العالم الجليل، الذي يحترمه اهل طهران ويقدرونه، فإنّ الضغط قد اشتدّ عليه اكثر من الباقيين.

وفي غمرة هذه الاحداث قام الشعب بفعل مضادّ، فقد امتلأت ابواب المدينة وجدرانها بيانات تشير الى اعلان حكم الجهاد ضدّ الدولة والأجانب المقيمين في ايران، وكان نصّ اعلان حكم الجهاد الذي علّقه ابناء طهران على ابواب المدينة وجدرانها ما يلي :

«طبقاً لحكم حجة الإسلام الميرزا فإنّ امتياز التبغ اذا لم يبلغ خلال (٤٨) ساعة فإنّ الجهاد سيعلن يوم الاثنين القادم، فتهيّأوا ايّها الناس».

وبالنظر للجو السائد، واستعداد الناس، فقد انتشر هذا البيان بسرعة مذهلة، وأخذ مأخذ الجّد، حتّى انّ كثيراً من ابناء طهران قد هبّوا لنفسه سلاحاً نارياً، في نفس ذلك اليوم، واصبحوا على اهبة الاستعداد، فاذا ما تحدد يوم الجهاد وساحته، خرجوا باسلحتهم.

و علم الشاه وامين السلطان ونائب السلطنة ورجال الدولة واذناب الحكومة وعمال الشركة البريطانية ومدراء اعمالها بموضوع هذا البيان بسرعة، بفارق أنّ الناس كانوا يثورون ويتحمسون لدى سماعهم بهذه الأحداث ويطردون الخوف من

نفوسهم؛ ليكونوا على اهبة الاستعداد لخوض المعركة، اما الطائفة الأخرى، وهم الطواغيت المحيطون بناصرالدين شاه، فإنّ الرعب يستولي عليهم عند سماعهم بمثل هذا الخبر، ويحاولون يائسين ايجاد حلّ لما هم فيه من الاوضاع.

وقد بلغ الامر بناصرالدين شاه المستبد الجاهل، الذي تجاهل الاجابة على رسالة مرجع الشيعة الكبير لأيام واسابيع، وكان يحاول ان يبعد هذا التغافل عن نفسه بشتى الحيل والحجج ويسقط التقصير عنه .. بلغ الامر به ان يلجأ الى احضان العلماء ويكتب رسالة الى الميرزا الآشتياني في تلك الاوضاع.

كتب ناصرالدين شاه هذه الرسالة بنفسه وبخطّ يده، اعتذر فيها الى الميرزا الآشتياني مما بدر في حقّه من اعمال العنف والسلوك القبيح قبل عدّة ايام، واطهر ندمه على ذلك، وطلب منه العون في سبيل اخماد ثورة الشعب وحماسهم، أنهى رسالته - طبقا لعاداته واخلاقه الجاهلية - بالشكوى من العلماء، وخاصة الضغوط التي يمارسونها ضدّه وانصاره، وختمها بشيء من التهديد وكلمات الغضب والانفعال.

ان قلق الشاه واتباعه كان من خوفهم ان يتيقنوا شيئاً فشيئاً بأنّ ثورة الشعب ستتخذ شكلاً آخر تدريجياً، فلم تعد القضية منحصرة بتحريم التبغ ومسألة الشركة البريطانية واستغلالها للناس، بل انّ الثورة كانت تتجه نحو الاعتراض على اصل استبداد الشاه والبلاط والدولة وظلمهم للناس، فاتبعت أرضية مواجهة الظلم. ولذلك لم تر الدولة الجو ملائماً وآمناً حتّى لعمال الشركة ومدرائها وعمالها، ومن الطبيعي ان تظهر عجزها عن تأمين الحماية لعمال الشركة، ولما رأى عمال الشركة عجز الدولة امام غضب الشعب الهادر بدأوا يفكرون في كيفية الحفاظ على ارواحهم نتيجة لهذا الشعور .

كتب الشيخ محمد رضا الزنجاني يصف حالتهم في الكتاب التاريخي تحريم التبغ: «فانّ الأجانب المقيمين في البلد، وبسبب الرعب الذي استولى عليهم من الأمة الإسلامية، علموا بان الحكم الأول المنسوب الى آية الله قد دخل الى اعماق قلوبهم، ومع كل طمأنينة العلماء فإنّ بعض الجبناء قد فرّ من المدينة ليلاً بعد ان

ارتدى الملابس النسائية الإسلامية التي استعارها من المسلمين الذين اتبعوهم بعد ان تملقوا لهم وتوسلوا اليهم، كما أخفى الباقون في المدينة انفسهم نهائياً، والأهم من ذلك انك لا ترى في سوق طهران اثراً للتقاليد الأجنبية والتغريب الذي ساد»^(١).

الحيل الدبلوماسية

وبهذا فقد دفع تردي الأوضاع السفراء الأوربيين في ايران والسياسيين المقيمين في طهران، والذين لم يعودوا يجرأون على الخروج الى شوارع العاصمة وازقتها لخوفهم؛ الى الاعتراض على الشركة البريطانية التي تسببت في خلق هذه الاوضاع والصعوبات، وطلبوا منها ايجاد حل لانهاء هذه الاوضاع.

ونتيجة لهذه الضغوط اضطر «آرنستين» - رئيس الشركة - الى الرجوع الى امين السلطان ومطالبته إما باخماد الثورة وحل مسألة تحريم التبغ، او بدفع الخسارة (الخسارة المذكورة في الاتفاقية) والغاء الامتياز.

ولم يكن امين السلطان راغباً في اعادة شيء من تلك الرشاوى الكبيرة التي اخذها من الانجليز في مقابل هذه الاتفاقية، لكنه وبالرغم من عدم وجود امل في امكانية اخماد ثورة الشعب، التزم بحل مسألة تحريم التبغ. واسكات الشعب الغاضب على امل الوصول الى ذلك عبر اتباع الحيلة والمكر.

وكان اول السبل التي راودت ذهن امين السلطان في هذا الصدد، هو ان يعزل نفسه عن نفوذ العلماء المخلصين ويلتجئ الى احضان وعآظ السلاطين والمعممين الذين باعوا انفسهم لخدمة الحكام.

وتنفيذاً لهذه الخطة استدعى احد هؤلاء العملاء ليدخله الى الساحة وكان على هذا الملا - الذي لم يذكر اسمه اغلب المؤرخين - ان يقوم بدور ماكر في هذا الميدان، وحسب ما ذكره صاحب كتاب (حركة التبغ) فإن هذا الشخص ذهب بأمر امين السلطان للقاء وزير بريطانيا ورئيس شركة التبغ وعرف نفسه بانه العالم الاكبر

في ايران وادعى انه يستطيع الغاء حكم التحريم وتهدئة الشعب بشرط ان يطلب رئيس الشركة من امين السلطان ان ينفي مخالفته، ومنهم الميرزا الآشتياني من المدينة، وقد استلم هذا المعمم العميل ثلاثة الاف تومان كأجر على ما فعل، وهو مبلغ كبير في حينها^(١).

اطلع رئيس الشركة امين السلطان على الامر بسرعة، وأبلغ هذا بدوره الشاه، واضطر الشاه - الذي لم يرض بتنفيذ طلب امين السلطان بل كان قلقاً منه، وكان قد كتب بنفسه قبل ايام رسالة استغاثة انهاها بالتهديد وبعثها الى الميرزا - الى الاستسلام للطلب جلباً لرضى الانجليز، فكتب بنفسه رسالة الى كامران ميرزا نائب السلطنة، طلب منه فيها التضييق على الميرزا الآشتياني والضغط عليه، وان يطلب منه ان يرتقي المنبر ويدخن الترجيلة امام اعين الجميع، وإلا فإن مصيره سيكون النفي من المدينة.

ومن جهة اخرى فمن اجل الاستمرار في هذه الضغوط وزيادة مساحتها أمر (الآقا بالاخان معين نظام) الذي كان يتولى ادارة الشرطة في المدينة، ان يفتح المقاهي التي عطلت مع بدء تحريم التبغ بالقوة، واذا اقتضى الامر كسر الابواب من الخارج فليكسرها، ثم يدخل جماعة الى المقهى ويناولهم الترجيلة، ويأمرهم ان يتجاهلوا الرأي العام ويدخوها، واذا ما أبدى احد ادنى اعتراض فليمزق بطنه!

ان هذه الأوامر القاسية بدل ان تزرع الخوف والرعب لدى الناس، شجعتهم على الصمود والمقاومة امام هذه الصعوبات بمعنويات اعلى وتضحية اعظم.

ومن جهة اخرى فقد زار (عبدالله خان والي) ولتنفيذ حكم ناصرالدين شاه، الميرزا الاشتياني وأطلعته على الامر، فأجاب الميرزا بأن امر تحريم التبغ قد صدر من قبل مرجع الشيعة الكبير، وليس لأحد نقض ذلك الحكم، فيستحيل ان ينقض هو هذا الحكم بطريق اولي.

اما الامر الثاني فيسنفذه بكل سهولة وسيخرج من طهران حالاً شريطة ان

يمنح مدة يوم وليلة ليستعد في اليوم التالي - الذي صادف يوم الاثنين الثالث من جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ - لمغادرة طهران بعد تهيئة مقدمات السفر وواسطته. لكن تغيّر كل شيء في هذه الـ (٢٤) ساعة فجأة، فقبل غروب ذلك اليوم علم ابناء طهران بالخبر ففضبوا اكثر من قبل.

لقد تداولت الالسن خير نفي الميرزا الاشتياني، ولم تمض ساعات حتّى انتشر الخبر في ارجاء طهران، وجميع الناس يتحدّثون حوله، فاستعد الناس لأن يقاوموا بكل شجاعة، ويمنعوا تنفيذ حكم النفي، حتّى وان تطلب ذلك بذل الدماء والنفوس.

لقد ظن امين السلطان - الذي اصدر حكم نفي الميرزا الاشتياني وارسله الى نائب السلطنة حاكم طهران - انّ الناس سيضطرون الى السكوت لشدة الخوف اذا صدر مثل هذا الحكم، وسيعم طهران الهدوء، إلاّ انّ الواقع كان على العكس من ذلك، فلم يخلق الحكم بنفي الميرزا الاشتياني جواً من الهدوء، بل زاد من شدة الحماس والضجيج، ولم يخف الناس هذا الحكم، بل اصبحوا اشجع وأجرأ من ذي قبل.

وطبقاً لما كتبه المؤرخون في هذا الباب: «فانّ جميع طبقات الشعب قد قضاوا عصر يوم الأحد وليلة الاثنين في الحديث عن نفي الميرزا الاشتياني، وصمّ اغلب الناس على مغادرة المدينة مع الميرزا الاشتياني يوم غد». وتجلّى في هذه النهضة المحيّرة التي تهز الأعماق امر حدث لأول مرة، ويبعث على الفخر، ألا وهو مشاركة نساء طهران الفعّالة والمباشرة في اظهار قوة هذا الشعب المضطهد ذلك اليوم.

انّ هذا العرض العظيم للقوة، والذي حدث لأول مرّة في تاريخ ايران، قد هزّ اركان حكومة ناصرالدين شاه المستبّدة من الاساس، اذ لم تقتصر النساء اللواتي شاركن لأول مرة في ثورة شعبية على المشاركة في هذه الحركة التحرّرية، بل كنّ يقدن هذه الحركة في اكثر نقاط طهران، وقد أظهرن من حسن الادارة والقيادة ما جعل الرجال يرون ان من الأفضل ان يقفوا خلف النساء ويسيروا تحت لوائهن في

اغلب مراحل هذه النهضة.

تقرير عن مشاعر الشعب، وخاصة النساء

في هذا المجال كتب الشيخ محمد رضا الزنجاني، وهو احد المشاركين في تلك الاحداث، ورأى بعينه عن كذب حركة النساء وقيادتهنّ للنهضة، كتب في ذلك في واحد من اكثر الكتب التاريخية اعتباراً:

«في صبح يوم الاثنين، الثالث من جمادى الثانية، خرج في البدء، العلماء وطلبة العلوم في دار الخلافة جماعات جماعات من كلّ محلّة، واتجهوا نحو محلّة (سنگلج) حيث منزل الميرزا الاشتياني، وكثر الناس شيئاً فشيئاً وكانت اكثر المحلات والاسواق مغلقة، واتجه اصحابها نحو منزله، واستمرت الافواج تتوافد حتّى قريب الظهر، وعند الظهر بدأ دور النساء، فقد اتين جماعة جماعة حتّى عظم عددهن. وبعد هذا التجمع كان أوّل ما قامت به النساء انهنّ اتجهنّ نحو الأسواق، فاذا رأين محلاً قد فتح ابوابه فانهن يغلقنه شاء أم ابى، واستمر الحال كذلك حتّى لم يبق في المدينة محلّ مفتوح. وبعد غلق الأسواق اتجه سيل النساء العظيم هذا نحو مقر الحكومة وهنّ، يطلقن الهتافات والصرخات والانين، بعد ان صبين الطين على رؤوسهن التي تغطيها العباءات.

اما الرجال فقد اتبعوا النساء، وهم في منتهى الحماس والهتاف، وأشفع بعضهم ذلك بالأنين والبكاء والصراخ بـ (وا اسلاماه) عندما رأت النسوة هذه الحال علا صراخهن، وزاد حماس الرجال بعد ان احاطوا باطراف النساء، وقد اجتمع جميع الرجال والنساء في ميدان (ارك) وهم على تلك الحالة المدهشة المرعبة.

ويمكن ان يقال في وصف تلك الحادثة بانه مثل هذه الضجة والنهضة العظيمة

لم تكن تخطر على بال احد قبل ان تحدث وتراها العيون.

انّ هذا التجمع النسائي، الذي كان طليعة الثوار في هذه المعركة، قد نادى الشاه أولاً باسم الملكة الخادمة، او الملكة الخادمة ذات الشاربين، وكالت النساء للشاه واقاربه وامواته الشتائم بصوت عال وبلهجة صريحة، كما لم يمتنعن عن شتم

الشاه والهتاف بموته حتى خيل لهنّ انهنّ لم يدعن شيئاً لم يذكرته، وكلما كانت النساء يقلن هذه المقولة والهتاف، كان صوت ينطلق من حناجر الجميع بهتاف (يا علي) و(يا حسين)، ثمّ يعدن النساء الى ما كنّ عليه من القول.

لقد استولى الرعب على جميع اماكن الدولة - وخاصة قصر السلطنة - من هذا التجمع العظيم الذي ظهر فجأة في ساحة (ارك) واضطرب رجال البلاط لذلك. وحسب امر الشاه القاضي بالتعجيل في المحافظة على مقر السلطنة، فقد اخرجت مدافع (تبركروپ) فوراً ووضعت على جميع ممرات قصر السلطنة، ووزعت البنادق واطلاقات (مارتين) على جميع الجنود الموجودين في العاصمة، كما اعلنت حالة الاستنفار ليكونوا على اهبة الاستعداد للدفاع.

وخرج نائب السلطنة، وهو مضطرب الحال، طمعاً في تهدئة الثوار باظهار اللطف والرفق والمحبة، واعلان عفو الدولة ورحمتها، فكانت النساء تواقه من بين الحاضرين الى ان يجيبه، فلم يردن شيئاً من الكلام الا وقلته، ولم يتركن شيئاً مما في صدور الناس، الاحياء منهم والاموات، إلا وعبرن عنه وذكرنه، لقد أخدمن لهيب قلوبهن بهذه الكلمات، وفي كل مقطع كانت الاصوات ترتفع بهذا الهتاف: يا الله، يريدون محو ديننا، يخرجون علماءنا ليعقد الا جانب قراننا غداً، وليكفن الغرباء موتانا ويدفونهم، وليصلي الأ جانب على جنازتنا.

وبالجملة، فإنّ هذه الهتافات كانت تشكل فصولاً طويلة مشفوعة بالصراخ والأنين، ثم يعودون بعدها الى السباب والشتيم.

وتعجّب نائب السلطنة من هذا التجمع وهذا الحال والحماسة، وكلّما حاول تلطيف الجو بقوله: اخواتي، سنخرج الاجانب، ولن ندع اي عالم يغادر البلاد، فاطمأن واهدأ واكفف عن الصراخ والأنين، لكن واحدة لم تصغ له ولم تتخدع، وقد اعتبرن حضوره فرصة فاطلقن لألسنتهن العنان وقلن كلّ ما أردن وفيمن أردن.

في مسجد الشاه

وبالجملة، فإنّ سيل النساء بعد رجوعهنّ من مقر السلطنة ذهبن الى مسجد

الشاه، وصادف ان كان امام الجمعة قد ارتقى المنبر، وهو منشغل بالموعظة وتهديد الشعب، ظنًا منه انّ مثل هذه التهديدات قد تخدم مثل هذه الحركة، فدخلت النسوة، ولما علمن بموضوع حديثه، بدأن بالصراخ والأنين، وهنا ايضا حدث ما لم يمكن تفصيله، فقد أترنّ ضجة كبرى، وقلن ما حلاهن، ولم يدعن شيئاً إلاّ وقلنه في إمام الجمعة، فاضطر هذا المسكين الى النزول عن المنبر بعد هذه الفضيحة، ثم عدن الى مقر السلطنة.

وقد عظم اجتماع الناس حتّى امتلأت جميع الأزقة والاسواق وساحة السلطنة بالناس، وانقطع طريق المارة في الازقة والأسواق، وكانت الصرخات والأنين بـ (واشريعته، وا اسلاماه، يا علي، يا حسين) تنطلق من افواه هذا الجمع العظيم باستمرار. وقد عمّ الضجيج والحماس والنياحة والبكاء كل ارجاء المدينة، بحيث لا يمكن وصف تلك العظمة.

وملخص الكلام: انّ تلك البقعة اصبحت كيوم المحشر من شدة الزحام. ولاشك ان افراد الدولة والسلطة - الذين كانوا في اطراف هذه الواقعة - قد خافوا واضطربوا أشد الاضطراب، خاصة وان الوسيط في هذا الامتياز لا يرى نفسه المسؤول عن هذه المعركة الخطيرة، وان هذه المخمصة المرعبة ليست من نتائج عمله الطالح، وقد تشتت ذهن الدولة نتيجة هذا المطلب، حتّى حملت هذه الانتفاضة والحماسة الدولة على الاعتقاد بأنّ هؤلاء العلماء من المدافعين عن الجمهورية وهم من طلابها في الباطن.

ويعلم من هذا انّ هذه الجماعة كانت تترقب مثل هذه الفرصة منذ سنين طوال، فاذا ما حصلوا على ذريعة ووسيلة اثاروا الشعب ضدّ الدولة، والآن حيث حدثت قضية امتياز التبغ، فقد استغلوها ذريعة ناجحة لانجاح عملهم، فحرّكوا الناس بهذا الدافع ضدّ الحكومة، فمسألة امتياز التبغ كانت ذريعة، اما في الواقع فانّ مراد هذه الجماعة خصوص الدولة، وهدفهم الأساس من اثاره هذه الفتنة والتمرد هو محاربة نفس السلطان واسقاط الملكية و تأسيس الجهورية...

عودة الى خبر نفي الآشتياني

ويذكر الشيخ محمد رضا الزنجاني في بقية تفصيله لحادثة الانتفاضة التي قام بها اهل طهران لدى سماعهم خبر نفي الميرزا الاشتياني؛ ليقفوا امام تنفيذ امر الشاه القاضي بهذا النفي المشين قائلاً:

«وفي اثناء هذه المعركة أوصل معتمد السلطان (عبدالله خان والي) نفسه بكلّ مشقة وخوف الى (ملاذ الأنام) وأبلغه بأنّ الشاه يقول: ما هو مرادكم؟ أبلغونا لتنفذه، فقال له (ملاذ الانام) : نحن لا نهدف إلّا الى الغاء هذا الامتياز من داخل البلد وخارجه، وان يمنع الاجانب من التدخل في هذا العمل منعا باتاً.

فأسرع عبدالله خان وابلغ الشاه هذه المطالب، فما كان من الشاه إلا ان كتب بيده كتاباً - في نفس الوقت - فيما يتعلق بهذا الخصوص، وبعثه الى نائب السلطنة، فعاد عبدالله خان بعد قليل الى (ملاذ الأنام) وأراه كتاب الشاه».

وعندما أبلغ ناصرالدين شاه بأنّ ازدحام الناس وضجيجهم وهتافهم يشتدّ آنأ بعد آن، وانه يخشى من ان يؤدّي تراكم الناس الى فقدان السيطرة على الاوضاع، اضطر الشاه الى الاستسلام، غير انّ الشعب لم يرضَ بهذا الاستسلام، فقد كان ما يطلبونه اكثر من ذلك. وعلى أية حال فقد أبلغ الشعب بأنّ نائب السلطنة قد أتى بكتاب من الشاه بخط يده وسلّمه الى الميرزا الاشتياني، وقد امر الميرزا ان يقرأ هذا الكتاب على عامّة الناس. وكان نصّ الكتاب الذي اصدره الشاه الى نائب السلطنة كما يلي:

«نائب السلطنة: كنا قد الغينا امتياز الداخل، وقد الغينا امتياز الخارج أيضاً، والشعب غير مجبر على تدخين الترجيلة حتّى يأتي حكم الميرزا الشيرازي».

لكن الأوان قد فات، فلم يعد بإمكان حتّى مثل هذه الرسالة الخطية ان تكون حلاً لهذا الشعب الغاضب، خاصة وان النساء قد غضبن في هذه الحادثة، ولما كنّ قد شاركن لأول مرة في سبيل احقاق حقوقهن الانسانية عبر الثورة والقوة، ووفقن توفيقاً بيناً، حيث اجبرن الشاه القاجاري المستبد على الاستسلام والتراجع عن اوامره السابقة، وذقن حلاوة النصر الذي تحقق نتيجة لاتحاد الجميع في انتفاضتهم،

فقد أخذتهنَّ نشوة الانتصار وعدن لا يردن الرجوع. وفي خضم هذه الضجة أوصل (عبدالله خان والي) نفسه الى الميرزا الاشتياني وكان يملؤه الرعب والاضطراب والقلق، وسلمه القرار الصادر من امين السلطان رئيس الوزراء حول الغاء امتياز التبغ المعطى للجانب، وعند ذلك ظنَّ ان هذا القرار سيحلَّ جميع المشاكل، ففارق الميرزا الاشتياني عائداً الى مقره، وكان عليه ان يشق جموع الرجال والنساء الغاضبات، وعندما وصل الى مجموعة من النساء واجهنه بالصراخ والهتاف، وكان له صدى مرعب، ففقد اتزانه وصبره وبدأ بالعتاب والجدال، ولم يتم آخر كلمة حتَّى هجمت عليه النساء الثائرات، وقبل ان يتهيأ للامر انهالت عليه اللكمات والركلات حتَّى اغمي عليه.

وبعد دقائق قصد (معمد السلطان مجد الدولة) دار الميرزا الاشتياني حيث كان قد خرج من اجل تهدئة الوضع. ومن اجل ان يرضي الشعب عن ظاهر عمله فأنه قال: انه جاء لزيارة العلماء وتفقد احوالهم ليطمئن بأنهم سالمون، ولم يصبهم اي مكروه ان شاء الله، إلا أنه على طول الطريق قد وقع مراراً بيد النساء الغاضبات ونال لكمات وصفعات منهن، ولذلك فأنه عندما اراد العودة من دار الميرزا الاشتياني، فكّر في حلٍ ينجيه من الضرب، فطلب من الميرزا ان يرسل معه احد العلماء الى الشاه ليعلم المطالب من فم هذا النائب.

يقول محمد رضا الزنجاني، الذي شاهد هذه الحوادث والوقائع، والذي ذكر جزئياتها في كتابه (تحريم تنباكو) في هذا الصدد:

«واخيراً، ومع عدم رغبة احد في هذه الرفقة فانه صحب (الآقا علي اكبر ابن المرحوم الاقا جمال) بعد اصرار شديد، ورجع الى مقره. وعندما رأى الناس انه صحب احد المعتمين لم يعترضوا سبيله، وشغل (مجد الدولة) نفسه بالحديث مع نائب السلطنة بعد ان التجأ الى حصن هذا المعتم وخلص نفسه بذلك.

واراد نائب السلطنة الخروج من مقر الحكومة، ليذهب الى محط قوافل (وزير نظام) المحاذي لمقر الحكومة، ويسلك من هناك الطريق الواقع خلف مجمع الصناعات؛ حتَّى يصل منزل الميرزا الاشتياني ويخدم هذه الضجة والصخب. وفجأة

هجم (سيّد) من بين الناس بعد أن جرّد سيفه وتبعه جمع كثير - نحو جهة نائب السلطنة، فلما شاهد نائب السلطنة هذا الوضع الرهيب من بعد رجوع فورا الى المقر، لكن الثوار تبعوه ووصلوا قريباً منه، وهنا رمى السيّد المذكور سيفه نحو نائب السلطنة، فتلقى نائب محمود - وهو احد الخدم الأذكياء الأوفياء لنائب السلطنة - السيف بخشبة كانت في يده لثلا تصيب نائب السلطنة. وفي تلك الدوامة زلّت قدم نائب السلطنة من الدهشة، ومن الصدف ان كانت الأرض وحلة، فسقط على احد جانبيه في الطين، فهب الخدم ورفعوا نائب السلطنة وتناولوه يداً بيد، وكان بالقرب منهم فرس لا سرج عليه بل كان عليه قطعة لباد فقط، فأتوا به وأركبوا نائب السلطنة بلباسه الملوث بالطين وادخلوه الى البناية واغلقوا ابوابها، فلما وصل نائب السلطنة الى الداخل اغمي عليه!

وكان جمع من الثوار يعقبه، فكان قسم منهم خارج البناية يرمون الأحجار حتّى كسروا جميع المصاييح وزجاج النوافذ المطلة على الشارع، وتجراً جماعة ممن تبعوا السيّد المذكور على ان يهجموا على الطابق الأسفل لمنزل نائب السلطنة. وبذلك فقد استولى رعب قاتل على قلوب رجال البلاط، وبقي المقربون من نائب السلطنة في حيرة، وكلما أطالوا الفكرة في هذه الملحمة المدمرة فأنهم يرون سبل النجاة ضيقة. واخيراً قرر (معين نظام) - وكان من الافراد القساة والعييد الخاصين للبلاط - ان يرد على جرأة الثوار هذه، فتوجه الى فوج الجنود الأتراك المرابطين في العمارة وصادر اليهم الاوامر باطلاق الرصاص على الشعب، إلا ان فوج الجنود الأتراك الذين كانوا يعشقون الوطن وأصحاب غيرةٍ أجابوا بأنهم لن يتحملوا عار مثل هذا العمل المشين الوقح، وأنهم لن يطلقوا النار على النساء والفتيات المجردات من السلاح.

فاستشاط (معين نظام) غضباً لهذا الموقف، وبعد اليأس من الجنود الأتراك إتجه نحو القوات الخاصة بنائب السلطنة المعروفة بالشر والسوء، ولسوابقهم المخزية عرفوا (جماعة اللقطاء) فأمرهم باطلاق النار على الناس، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً.

وحول هذا المقطع يذكر محمد رضا الزنجاني:

«فاستجاب اللقطاء لهذا الامر ووجهوا اسلحتهم نحو صدور النساء والرجال والشيوخ والأطفال، واطلقوا النار عليهم، وجعلوا المسلمين المتعيين الذين اطلقوا الشكوى واطلغوا التظلم الى شاه ايران ظنا منهم ان ذلك سيجلب رأفة الدولة ورحمتها، هدفاً لاطلاقات البنادق المارتينية، وكان المسلمون يتساقطون كاوراق الخريف، ولم يعلم على وجه الدقة عدد القتلى الذين استراحوا من هم هذه الحياة ونكباتها، فتفرق الناس ولو ان الذين ارادوا اخراج القتلى من (ارك) كانوا قد تجمعوا اكثر، والناس في فورتهم وحماسهم، وبملاحظة الهجوم الذي قام به الثوار من قبل، لكان الخطب ادهى والفاجرة اعظم».

«إنّ اللسان لألكن، والبيان ليعجز عن التعبير عن هذه الحادثة العظيمة، وإنّ هذه الصفحات الصغيرة المختصرة لتضيق عن كتابة جميع تفاصيل الاوضاع والاحوال العامّة في هذه الواقعة، لكنني، ومن اجل توضيح اوضاع تلك الحادثة العظيمة والتغيير الذي حدث لدى الشعب في دار الخلافة، في تلك الملحمة المحيرة للعقول، اكتفي بذكر مشاهدة مناظر القتلى التي تعتصر الارواح أماً، ولكنها كانت تثير الناس وتلهبهم حماساً، بحيث لم يبق في قلب احد شيء من الخوف من مواجهة المدافع والبنادق، والنزول الى ساحة الحرب، فلم يكن للصغير ولا للكبير، لا للرجل ولا للمرأة، أمل إلاّ القتل، ولم يكن هناك حديث إلاّ حديث الهجوم على مقرّ السلطنة».

انّ استعراض القوى هذا، والذي قاده علماء الدين الحقيقيين قد اظهر لأول مرة قدرة النساء، تلك القوة الحقيقية التي بقيت خفية بين جدران البيوت الأربعة، فبهرت بها عيون الرجال، وخاصة عيون بلاط ناصرالدين شاه، واستعراض القوة هذا - وان ادى الى سقوط جماعة مخرجين بدمائهم - إلاّ انّ عاقبته كانت مبعث فخر وخلود في التاريخ، فلم تؤد هذه النهضة العظيمة الى الغاء حكم نفي عالم طهران المعروف المحترم وحسب، بل انّ الشعب قد حصل - في اوج الأحداث ، ونتيجة لطاعته لحكم مرجع الشيعة الكبير - على مكسب الغاء امتياز التبغ.

اما ناصرالدين شاه الذي لم يرض ادنى رضى عن هذه الأحداث - ولذلك أظهر كل تلك القسوة والخسونة والوقوف امام مطالب الشعب - فإنه اضطر في النهاية الى الاستسلام امام مطالب الشعب الثائر، مع علمه بطلب الانجليز بتعويض الخسائر.

وكان الانجليزيون قد هددوا بأنهم سيأخذون مبلغ (٥٠٠) الف ليرة، اذا ما ألغي امتياز التبغ، والآن، وبعد الغاء الامتياز بصورة رسمية وجديّة فمن الطبيعي ان يطالب الانجليز بالخسارة بصورة رسمية جديّة أيضاً. ولم يكن لدى ناصرالدين شاه من المال ما يمكنه من دفع مثل هذه الخسارة الضخمة، فاضطر الى اقتراض هذا المبلغ من البنك الشاهنشاهي - وهو البنك المرتبط ببريطانيا - بفائدة ٦٪.

وتحمل هذه الأضرار الكثيرة التي نجمت عن تحريم التبغ، من غلق المحلات التجارية والأسواق، والهجمات والاصطدامات والمذابح، والاثار الاقتصادية لهذه الاحداث على المجتمع والخزانة الشاهنشاهية. وفي الوقت الذي أنقذ نفسه والشعب من هذه المهلكة، فإنه لم يربح من اتفاقية التبغ ديناراً واحداً ، بل انّ عليه ان يدفع خسائرها لسنوات طويلة.

ومهما كان، فان الغاء امتياز التبغ كان الحلّ الوحيد لاستقلال الأمة والوطن، فإنّ الانجليز، وطبقاً للسياسة التي يتبعونها في شتى انحاء العالم من اجل توسيع مستعمراتهم، كانوا يسعون لاستغلال الحالة التي تمخضت عن اتفاقية التبغ من اجل جعل ايران احد المستعمرات الكثيرة لبريطانيا العظمى. ولولا ذكاء علماء الدين المخلصين المجاهدين ووعيمهم، واجراءاتهم التي اتخذوها في الوقت المناسب، ولولا دعم الشعب المسلم المحروم وتفانيه في مساندة ما اتخذته العلماء الواقعيون في ذلك الوقت من خطوات وأحكام، ولولا تضحيتهم بالغالي والنفيس وحملهم الأرواح على الأكف، لم يكن مستبعداً - ان لا تمرّ فترة وجيزة - إلا ويكون اسم ايران على الخرائط الجغرافية للعالم، كأحد المستعمرات البريطانية التي كان عددها كبيراً في ذلك الوقت.

وبهذا، فإنّ نهضة التبغ كانت في بدايتها اعتراضاً على منطق القوّة والظلم

وسوء معاملة البريطانيين - الذين وردوا إيران تحت غطاء موظفي شركة (رجى) - وشيئا فشيئا إتخذت شكلها كواجهة واسعة ضد الاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي، وكانت كلا المواجهتين بقيادة العلماء الحقيقيين المجاهدين في ذلك الوقت وارشادهم.

لقد اقتلعت هذه الثورة جذور الاستعمار البريطاني منذ بدايتها، وباستمرار هذه الحركة - على مدى عدة سنوات قادمة - قامت نهضة الدستور العظيمة، واتّجهت نحو اقتلاع جذور الإستبداد الداخلي أيضا وهيأت مقدمات النهضة المشروطة.

جمال الدين الاسدآبادي المكافح ضد الاستعمار

في مسيرة جهاد العلماء ضد الاستبداد والاستعمار، المليئة بالتعرجات والمصاعب، تطالعنا اسماء لامعة تبعث على التأمل كثيراً، لكن هناك من بين العلماء نفر لم تلمع اسمائهم - وتثير الحيرة والتدبر وحسب - بل انهم بقوا في الازهان والوجدان كنقاط عطف في التاريخ لهم مدارسهم، واوجدوا طرقاً وافكاراً جديدة وأسسوا مشارب فكرية خاصة.

والسيد جمال الدين الحسيني، الشهير بالاسدآبادي، احد هذه الاسماء والوجوه.

كان السيد جمال الدين احد أهمّ طلائع التوعية في الشرق، ومن اكثرهم تأثيراً في بثّ الوعي في أحلك ادوار حياة الشعوب المضطهدة في هذه البلدان. وقد سجّل تاريخاً اسمه كمجاهد صامد لا يعرف الكلل والملل، في الادوار الإسلامية في القرن الأخير، وكأحد اقطاب دعاة وحدة الشعوب الإسلامية، بل مؤسسها في العصر الاخير، وكمقاتل شجاع سعى الى احياء عظمة الإسلام الماضية ومجده التليد، والى شموخ الشعوب الإسلامية وعزّتها.

وينبغي ان نذكر هنا بأن اقوالاً متناقضة قد قيلت في أعجوبة المشرق هذا، ولذلك احاطت بشخصية هذا العالم المجاهد المضحي الصامد هالة من الإبهام والشك، وربما وضعت شخصيته في قفص الاتهام أحياناً.

واليوم تمرّ على وفاة السيد جمال الدين قرابة التسعين عاماً، ولكن نظراً لشخصيته العجيبة، وحياته المليئة بالحوادث، والافكار والعقائد الجديدة التي



طرحها، والتي لم تُسمع من قبل، التي كانت تزرع الأمل والدفء في نفوس الشعب المحروم، وتلقّي الرعب في نفوس المستبدين وأذئاب الاستبداد والإستعمار وتزلزلهم، فإنّ كتباً ورسائل ومقالات وتقارير كثيرة قد كُتبت حول حياته واهدافه السياسية، على مدى السنوات التي مرّت بعد وفاته، وقد كتبت هذه الكتب والرسائل باللغات الفارسية والعربية والأفغانية والتركية والانجليزية، كما ترجم كل منها الى لغات أخرى وقد بلغت هذه الكتب والرسائل العشرات بل المئات، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار، المقالات الصغيرة والكبيرة التي نشرت في المجلات والصحف، فإنّ العدد سيتجاوز الآلاف.

لكن الذي يبعث على العجب والأسف، أنه بالرغم من وجود هذه التحقيقات والكتابات التي تجاوزت الحدّ، فإن الوجه الحقيقي للسيد لم يعرف، ولم يزح ستار الايهام عن هذه الشخصية المغامرة المثيرة المحيرة.

الشخصية الاسطورية

كما ان كثيراً من المحققين والمؤرخين قد اثنوا على شخصيته من دون اي اشكال وإعتراض، واعتبروا خدماته ونشاطاته في سبيل توعية شعوب الشرق، وزرعه بذور الحرية في افكارها وقلوبها، وسقي هذه البذور بعمله الدؤوب وتضحيته، آثاراً مفيدة واعمالاً جبّارة، تصل الى مرتبة تغيير مسيرة التاريخ، وكتبوا في ذلك الكتب والرسائل الكثيرة.

وقد وقف في الجانب الآخر جماعة خالفوه اشدّ المخالفة، وخاصة في السنين الأخيرة، وسعوا الى تشويه شخصيته والخطّ من منزلته عبر توجيه اتهامات لا أساس لها، واجتهدوا ان يجعلوا من وجهه الثوري وجهاً وشخصيةً غامضةً معقّدةً مضرّةً.

ولا حاجة الى التأكيد على أنّ نشر مثل هذه المطالب حول الشخصيات التاريخية والسياسية والاجتماعية والعلمية العظيمة أمر طبيعيّ جداً، فليس بالإمكان، العثور، على مدى التاريخ، على شخصية نالت من الشهرة والاعتبار والتقدير، ولفتت انظار الناس من جوانب مختلفة، علمية وسياسية واجتماعية وحتى الأدبية، ما نالته شخصية السيد جمال الدين، ولم تقع هدفاً وغرضاً للتهم والافتراءات والأقاويل المغرضة الحقودة التي يطلقها المناوؤن.

ومع هذا، فإن ما يبيّن الحقائق حول امثال هذه الشخصيات هي النظرة الواقعية الخالية من الأغراض، والتزام جانب الحياد عند التحقيق في حياتهم وافكارهم وعقائدهم وكيفية جهادهم ودورهم وتأثيرهم في اجواء حياة معاصريهم، والتغيّرات التي يحدثونها في حياتهم، أو التي تحدث بعد مماتهم، لكنّها نتيجة مساعدتهم.

وفي هذا القسم من الكتاب سعينا إلى أن نضع ما يُحتاج إليه للقضاء والمعرفة الصحيحة، استناداً إلى المصادر والمستندات التي لا يمكن إنكارها، ليتمكن بعد ذلك اتباع مسيرة جهاد العلماء ضد الاستبداد على صراط مستقيم.

لقد هبّ هذا العالم المجاهد في احلك ادوار حياة شعوب الشرق، حيث تسلّط الغرب المستعمر على الشعوب الإسلامية، وفي قَمّة الصراع الفكري الدولي؛ ليدافع عن الإسلام وموازينه الاصيلّة أمام المذاهب المختلفة السياسية والفلسفية والمادية.

والذي يضفي على نشاطات السيّد جمال الدين قيمة وأهمية خاصة هو سعة ابعاد اهدافه في انحاء العالم الاسلامي، وعمومية نشاطاته من اجل رفاه الشعوب الإسلامية في العالم وفلاحها. فمنذ أن وطأت قدمه ساحة الجهاد، دعا جميع المسلمين الى مواجهة المستعمرين الطامعين، وعدم اللين والمسالمة معهم، والى السعي والمثابرة التي لا تعرف الحدود، في سبيل تجديد عظمة الإسلام التليدة، والحصول على الاستقلال والحرية، واعادة شرف المسلمين وعزّتهم في العالم، كما يليق بمعتنقي هذا الدين العظيم.

لقد طرح السيّد، القسم الاعظم من افكاره في الصحيفة المعروفة بـ (العروة الوثقى) وفي بقية اثاره، واذا اردنا معرفة هذه الافكار وتأثيرها في مواجهاته الإسلامية والانسانية، وكذلك تأثيرها في انصاره ومؤيديه، والوقوف على تفاصيل مواجهات مؤيديه في فكرته، والمجاهدين الى جنبه ومريديه واتباعه، فإن الرجوع الى هذه الآثار سيغنيننا عن البحث في متون الكتب الأخرى. وهنا، نرى من المناسب ان نلقي في البداية نظرة خاطفة على اقوال وكتابات وآراء - وبتعبير آخر - اعترافات بعض اعظم العلم والأدب في العالم، والمستشرقين المشهورين، واهل التحقيق الخالص - الذي لا شائبة فيه - حول شخصيته وافكاره.

رأي لوتروپ:

(لوتروپ ستوارد) هو الذي انتشر كتابه النفيس - والجدير بالاعتماد عليه

والاهتمام به - بمختلف اللغات الأوروبية، وإضافة الى ذلك، فقد قام الاستاذ (عجاج) بترجمته الى العربية، وهو يقول في هذا الكتاب:

«لقد كان السيد جمال الدين الاسدآبادي أول من تنبّه - بنظره الثاقب ونظرته الواقعية الفاحصة - إلى سيطرة الغربيين ونفوذهم الرهيب في البلدان الشرقية والشعوب الإسلامية، وأدرك بوضوح، الأخطار المدمرة والعواقب الوخيمة لهذه المسألة، عند ذلك شمر عن ساعد الجدّ بعزم راسخ، وروح مضحية سامية، في سبيل دفع هذا الخطر.

وقد بدأ السير في سبيل تحقيق هذا الهدف السامي، وتحمل الصعاب المضنية من أجل أداء الرسالة، التي كان يحسّ بوجود نشرها وأدائها، وقد ملأ هذا الشعور كيانه، فبدأ رغم قلة وسائط النقل في عصره بالأسفار البعيدة الطويلة المدى إلى تركيا والهند وباريس والقاهرة وكابل وباقي البلدان والأوطان، وحيثما حلّ كان يلهب القلوب بكلامه الثوري اللاهب، الذي كان يدخل القلوب، لأنّه خرج من القلب، ونتيجة لنفوذ كلامه الذي قلّ نظيره، فإنه كان يجمع المسلمين المحرومين المضطهدين حوله، ويوعمهم ويطلّعهم على العواقب الوخيمة المهولة لسياسات الغربيين، التي كانت قد اتّسعت أمامهم.

أيّما كان يضع قدمه كانت تظهر فجأة أمواج الغضب والحماس بين الشعوب المسلمة و تزلزل اركان الحكومة في تلك البلدان آنذاك.

ولذلك فان حكام ذلك العصر وأزلاب الحكومات الجائرة في كل منطقة كانت تهب لمجابهته، لكن كلما كثرت الصعاب وصنوف المشقة التي كانت تصب عليه، فإنه كان يزداد عزماً وقوة، وتزداد صلابة وثباتاً.»

«لم يكن السيد جمال الدين يخاف من قوّة أيّة دولة، وكان مؤمناً بأنّ الدول الاستعمارية الغربية القويّة مهما امتلكت من قدرة، فانها تتلاشى وتضمحلّ أمام قوّة غضب الشعوب الإسلامية وفورها، شريطة ان تكفّ الشعوب الإسلامية عن اختلافاتها الصغيرة التي كانت تتكاثر وتتسع يوماً بعد آخر - نتيجة حيل المستعمرين ومكائدهم - وان يتّحد المسلمون ويكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً



السيد جمال الدين في طهران عام ١٣٥٤ من اليمين الحاج محمد حسن أمين الضرب و الشخص الخامس ابن امين الضرب و الذي واقف و يداؤه على صدره ميرزا لطف الله ابن اخت السيد الاسدآبادي الهمداني.

ولساناً واحداً من أجل تحقيق الهدف المشترك، ألا وهو تجديد عظمة الإسلام وفناء أعدائه.

لقد كان يعتقد بان الخطر الذي يحيط بالشعوب الإسلامية في الشرق من جهة بريطانيا المستعمرة لا يضاھيه خطر أية دولة أخرى، كما كان مؤمناً بان المسلمين إن إتحدوا فانهم سيحطمون قدرة الاستعمار البريطاني الجهنميّة، وعند ذلك لا يقضون على ألد أعدائهم وأشدّهم، بل وسيعبّدون الطريق من أجل القضاء على أعداء الإسلام والمسلمين الآخرين، ولهذا لم تقلق دولة من طريقة تفكير السيد جمال الدين، ولم تخف دولة من اجراءاته التي يتخذها، واتساع نطاق نشاطاته، كما قلقت وخافت بريطانيا. ان قلق السيد في شان الانجليز، وخوف الانجليز من السيد كان في الحقيقة بمثابة الأرضية المناسبة لصراع كل منهما ضد الآخر، وقد استمرّ الحال الى سنوات متطاولة»^(١).

رأى الرازي:

كتب الدكتور عبدالله الرازي مؤلف كتاب (تاريخ كامل ايران) حول السيد جمال الدين وكيفية جهاده ونشاطه:

«لقد جعل صبر السيد جمال الدين وصموده في سبيل التبليغ وترويج الإسلام الواقعي الحقيقي - لا الإسلام الذي روجّه الملوك الظلمة ودعت اليه القوى الاستعمارية الغريبة - منه شخصية صامدة مفكّرة ومبتكرة، فهو بلاشك احد حلقات سلسلة أقطاب النهضة الاصلاحية والموажات الإسلامية في المائة سنة الأخيرة، حيث كان يشخّص الأمراض الاجتماعية لدى المسلمين بنظرة واقعيّة خاصة، وكان هذا الرجل العظيم يبيّن طريق الاصلاح وأساليب حلّ المشاكل وعلاج الأمراض، هذا الرجل الذي كان بحق أعجوبة من أعاجيب الدهر، فقد أوجد ثورة عظيمة في تركيا والهند ومصر، واتسع نطاقها حتّى بانت تأثيراتها جليّة في ايران. لقد بذر بذور

ثورة عظمى في هذه البلدان، وبذل قصارى جهده من أجل توعية الأمة الإسلامية وإيقاظها، فكان لكلامه الأثر البالغ العجيب في قلوب الجميع، وقد وضعه تأثير كلامه هذا في الصفّ الأول من المجاهدين ضدّ الاستعمار والاستبداد»^(١).

رأي محيط الطباطبائي

وكتب الاستاذ محيط الطباطبائي حوله في كتاب (نقش سيد جمال الدين در بيدارى ملل مشرق زمين):

«لقد مهّد السيّد جمال الدين بلسانه الذرب وقلمه القاطع، الأرضية والاسس المتينة لقبول حكومة الدستور في ايران في أذهان علماء البلاد، ولم يخطئ حسن ظن السيّد جمال الدين وحده الصائب حول العنصر الذي سيؤدي الى اشتعال ثورة الدستور في ايران، فقد كانت روحه دليلاً وهدياً لكل من تسنّم مقام القيادة وأصبح قدوة للناس، من حركة التبغ الى الهجرة الى قم ومساندة علماء الإسلام لأنصار حركة الدستور في مواجهة انقلاب باغشاه»^(٢).

رأي الاستاذ الشهيد مطهري

وأما العلامة المجاهد الفيلسوف الشهيد العالم الربّاني آية الله الأستاذ مرتضى المطهري، الذي قضى عمره في سبيل الجهاد ضدّ الاستعمار والاستبداد و الأُمّية، وتركت تحقيقاته القيّمة آثاراً عجيبة في تفتح أذهان الشعوب الإسلامية ووعيتها، وخاصة مسلّموا ايران المحرومون المستضعفون، وكانت شهادته في أوائل أيام تأسيس الجمهورية الإسلامية وتغيير تاريخ ايران، بحد ذاتها مفخرة أخرى تُضمّ الى مفاخر صفحات جهاده ضد الاستعمار، فانه يتحدث حول السيّد جمال الدين قائلاً:

«كانت نهضة السيّد جمال الدين فكريّة واجتماعيّة، فقد كان يرمي الى بعث

١- نهضتهای اسلامی در صدر سال اخیر ص ١٩.

٢- الكتاب المذكور في المتن ص ٦٥.

الحركة في أفكار المسلمين من جهة، والى إحداث تغيير في أنظمة حياتهم من جهة أخرى. فلم يقف عند مدينة أو بلد بل ولا قارة معينة، وإنما كان يقضي كل فترة في نقطة من نقاط الدنيا، فقد رفض الحدود وجاب آسيا وأوروبا وإفريقيا، وكانت له إتصالات مع جماعات مختلفة في كل بلد، وكما كتب، فإنه ومن أجل ان ينفذ الى القلوب كان ينخرط في سلك الجيش.

وتسببت رحلات السيد جمال الدين في احاطته بأعراف الناس وثقافتهم ومعنوياتهم في البلدان الدانية والقاصية، وطبيعة الأحداث وشخصيات هذه البلدان. وقد أدرك من خلال توقّفه الطويل نسبياً في الدول الغربية والاوربية مسيرة حياة العالم المتقدم، وأطلعته على ماهية التمدّن الاوربي ونية زعماء ذلك التمدن. وقد شخص أنّ أهم أمراض المجتمع الاسلامي هو الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي، فبدأ بمحاربة الاثنين معاً اشد محاربه، حتّى بذل روحه في هذا السبيل»^(١).

ولد السيد جمال الدين الحسيني سنة (١٢٥٢ هـ - ١٨٣٧ م)، ودرس مقدمات العلوم من العربية والفلسفة والالهيّات في مسقط رأسه، ولما كان ذا ذكاء وقاد، وروح حماسية تحب المغامرة والحوادث، فإنه لم يرّ البقاء في مسقط رأسه موصلاً له الى اهدافه، فعزم على إكمال معلوماته والسير في الآفاق، هاجر الى النجف و حضر في دروس الآيتين: الشيخ مرتضى الأنصاري في الفقه و الأصول و الشيخ المولى حسينعلی الهمداني في الأخلاق و العرفان و عند ما كمل في العلوم الإسلامية فاتخذ السفر وسيلة، ورحل الى الهند.

وقد صادف سفر السيد وتجواله في شبه القارة الهندية الفترة التي كان الانجليز فيها قد هووا بسيف استعمارهم وظلمهم المسموم على جسد الشعب الهندي وتجاوزوا الجلد واللحم ووصلوا الى العظم، وفي المقابل كان الشعب الهندي المظلوم قد بدأ ثورة عارمة ضد الإستعمار الانجليزي.

وقد كان ما يجري في ساحة هذه الأحداث المزدوجة المتضادة - فمن جهة

ظلم الانجليز وتعديهم، ومن جهة أخرى مقاومة الهنود وكفاحهم المستميت الذي لا يعرف الكلل والملل ضد الانجليز - قد أوجد مشاهد أعطت من خلال الفسوة والضغط صورة لظلم أقوى الدول الاستعمارية الغربية آنذاك للشعب الهندي المحروم، كما كان باعث حيرة وحسرة وتأثر، ودرساً عجبياً يهزّ الأعماق بالنسبة للسيد جمال الدين الثائر المتحمس.

لقد غاص في تفكير عميق بعد مشاهدته لهذه الحوادث، وقرّر ان يبحث ويطلع حتّى يصل الى علّة تسلط الأوربيين الجبارة على الدول الشرقية، وجذور ذلك. وبعد فترة، وإتباعاً لهذا الهدف غادر الهند متجهاً الى الدول العربية، وقد زار بيت الله الحرام خلال هذه الأسفار، وقد غيرته هذه الزيارة تماماً، فتفتقت ذهنيته عن أفكار جديدة، فقد شاهد بعينه اثناء مناسك الحج كيف انّ مئات الآلاف من المسلمين على اختلاف ألوانهم وقومياتهم وألسنتهم وثقافتهم وآدابهم وأعرافهم، لكن بنية واحدة وإيمان واحد وفكر ديني واحد، قد أتوا الى بيت الله من مختلف بلدان العالم، وعقدوا اجتماعاً بهذه العظمة، يعلنون فيه تضامنهم واتحادهم، وفجأة قفزت الى ذهنه فكرة توحيد الشعوب والدول الإسلامية في العالم، وفكر في نفسه بأنّ كلّ هؤلاء المسلمين اذا ما اتحدوا فكراً وسبيلاً وقوةً، فأية قوة في العالم ستجروا على الوقوف بوجههم ومحاربتهم؟

حمل السيد هذه الفكرة واستمر في سفره وتجوّاله، وخلال سفراته إطلع على بعض اللغات المختلفة، واكتسب تجارب كثيرة ومعلومات واسعة حول اوضاع دول الشرق، وخاصة الشعوب المسلمة، وعند ذلك رجع الى افغانستان، لكنّه رأى فجأة ان الأوضاع مضطربة، ولم يصدق أوّل الأمر ان جماعة من أمراء البلاد ومسؤوليها قد دخلت في حرب مع الجيش المناصر لهم، وقد قامت المذابح وساد الاضطراب والفوضى من أجل الوصول الى السلطة، فدخل السيد الميدان بحماسة وحبّه لصنع الأحداث، والتحق بانصار (أمير دوست محمد خان الافغاني)، وقد انتصر هذا الأمير الأفغاني بسرعة، فاتخذ السيد جمال الدين مشاوراً له، غير انّ حرب السلطة كانت مستمرة حتّى انتصرت الجماعة الأخرى بعد حين فسلبت السلطة من (أمير دوست

محمد خان) وعائلته، فرأى السيد ان لا مكان له في افغانستان، فغادر الوطن للمرة الثانية.

وفي هذه المرة اتجه السيد الى الهند أولاً، وبعد مدّة توجه الى القسطنطينية، وتعرّف فيها على مختلف رجالات الدولة العثمانية ومسؤوليها، وقد أدت هذه المعاشرة المستمرة مع كبار رجال الدولة العثمانية، وخاصة الخطابات والكلمات التي كان يلقيها السيد في تجمّعات الرجال الواعين والمجامع العلمية والسياسية والدينية، الى ان اشتهر باسم الرجل العالم الواعي، وعلى ضوء هذه الشهرة وافق مسؤولوا الدولة العثمانية على ان يكون في سلك مدرسي العلوم الدينية في تلك الدولة.

لكن لم تمض فترة حتّى بدأ العلماء الاتراك، ثمّ المسؤولون السياسيون الاتراك الذين حرّضهم العلماء، بمخالفة السيد، وكان السبب في ذلك هي الافكار الحادّة والعقائد والنظريات الثورية التي يتبنّاها السيد، والتي لم تكن في تلك الأيام تلائم مذاق العلماء الاتراك ومسؤولي أمور الدولة العثمانية، ولم يكونوا يرتضونها كثيراً، ولذلك فقد تسبّبت مخالفة المتنفذين الأتراك في طرد السيد وابعاده عن هذا البلد ايضاً.

في طريق مصر:

كان ذلك سنة ١٨٧١ هـ عندما اضطر الى ترك تركيا العثمانية والذهاب الى مصر، وتأسيس حلقة دراسية هناك، وهناك ايضاً كانت أفكاره العالية وعقائده الثورية سبب شهرته المتزايدة منذ البدء، بحيث اجتمع حوله شباب مصر الثوّار والطلّاب للحريّة بسرعة، واستطاع بدوره ان يجد محبين وأنصاراً ومؤيدين له بنفوذ كلامه الذي قلّ نظيره وجرأته وشهامته العجيبة، وأفكاره الواضحة الثورية.

لقد أصبح كلّ واحد من انصار السيد الذين كانوا يحضرون حلقة درس السيد كطلّاب له، شخصية بارزة فيما بعد، حتّى ان اثنين منهما - وهما الشيخ محمد عبده العالم الاسلامي الكبير المشهور، ومحمد احمد السّوداني - اصبحا من كبار القادة

الدينيين والسياسيين، واستطاعا بمعونة انصارهما واتباعهما ان يقودا ثورة السودان ضد الاستعمار في السودان و في مصر.

وشياً فشيئاً أصبحت حلقة درسه في مصر مركزاً ومجمعاً لذوي الأفكار الواضحة من المثقفين وطلاب الحرّية، الذين ساروا في طريق محاربة الاستعمار بكل ايمانهم وقواهم واستلهاماً من تعاليم السيّد، وضخّوا بأنفسهم في سبيل ايقاظ المسلمين وتوعيتهم ودفعهم الى محاربة الاستعمار؛ للخلاص من برائنه ونيل الحرية والاستقلال.

لكن، في مصر أيضاً لم يجد السيّد الهدوء والاستقرار، ولم يلق الأمن والأمان، فانه انتقد كثيراً خديوي مصر وتحذّث باسهاب عن تدخل القوى الاستعمارية في المسائل الداخلية ومصير المصريين، سواء في حلقة درسه أو في اجتماع مؤيّديه وانصاره، وسواء في المجامع المختلفة في أوساط الناس وفئاته، حتّى أغضب خديوي مصر، فأمر باخراج السيّد من البلاد بسرعة وحجز أمواله.

بعد اخراجه من مصر ذهب السيّد الى الهند مرةً أخرى، وبعد ان أقام فيها مدّة كتب فيها رسالة اسمها (ردّ نيّجربة) ونشرها، وهي في اجابة المخالفين والمنكرين للدين والتديّن ومعرفة الله، والتي ضاعفت من شهرته ومكانته، ثم فكر بالسفر الى أوروبا والاقامة فيها.

اصدار العروة الوثقى:

وتبعاً لهذه الفكرة سافر الى فرنسا وأقام في باريس، ولم يهدأ في باريس ايضاً، فقد كان يثير الحماس والضجيج في كل مكان بكلماته النارية وأفكاره الثورية، غير ان اهم أعمال السيّد في باريس كان اصداره صحيفة باسم (العروة الوثقى) التي لم تتل الشهرة والاعتبار والتعلق الشديد بها في زمان صدورها وحسب، بل أنّ اسمها ومحتويات مقالاتها وكتاباتنا قد خلّد في التاريخ المعاصر، وخاصة تاريخ ثورات العالم الاسلامي وخاصة ايران.

لقد طرح السيّد في هذه الصحيفة، عقائده الثورية بقلمه البليغ، وبيانه الفصيح،

واسلوبه المثير للحماس، وكان انصاره يزدادون يوماً بعد آخر. والمهم في هذه الصحيفة - والذي له دوره الفاعل والأساس - هو مجابته وصلابته في طريق توعية شعوب الشرق، وخاصة الإسلامية، من أجل نيل الاستقلال والتحرر من قيود الجهل، الذي كان السبب في ان تنشب القوى الاستعمارية أظفارها في جسد الأمة الإسلامية، وتضيّق الخناق عليها.

عندما أقدم السيد على اصدار صحيفة (العروة الوثقى) في باريس التحق به تلميذه الوفيّ الشيخ محمد عبده ليعينه على اصدار الصحيفة باللغة العربية. وازافة الى اصداره الصحيفة التي كانت تحتوي على أفكاره وعقائده وآرائه الثورية، فقد كان السيد يشارك في المحافل العلمية والدينية، ويناقش مختلف الأفراد وخاصة الذين كانت لهم نظريات تخالف الإسلام.

مناظرته مع رنان:

كان (أرنست رنان) العالم الفرنسي المعروف أحد الذين يتحدثون عن مخالفتهم للإسلام، فهو وإن كان عالماً إلا أنه يتحدث بذلك بسبب عدم إطلاعه الكافي على أصول الإسلام وأسسها، وقد فتح السيد في صحيفته باباً لمناظرته مناظرة مثيرة، وقد أورد في الإجابة على اعتقاد رنان: بأنّ تخلف الدول الشرقية ناشئ عن دينهم، مطالب علمية لا يتطرق إليها الشك، وقد أقرّ العدو والصديق بان كل ما قاله (ارنست رنان) قد ردّ في هذه المقالات رداً لا يمكن إنكاره ودفعه.

وكتب السيد في جانب من هذه المقالات: «لم يكن الدين الاسلامي سبب التأخر، بل ان هذا الدين المتطور هو الدين الوحيد الذي يوضح مسير الانسان نحو الرقي والتعالى بأوضح الطرق والأساليب. الإسلام دين يهدي معتقيه الى أفضل طرق السعادة والفلاح، غاية ما هناك ان أولئك الذين يرون ان بقاء سلطتهم وقدرتهم ونفوذهم لا يتم إلا بانتشار الجهل والامية وعدم الوعي والتخلف في الشعوب المسلمة قد سعوا منذ قرون عديدة، وطبقاً لبرامج دقيقة معدة، الى ابعاد المسلمين عن معرفة حقيقة الإسلام، وذلك لعلمهم بانّ الأمة الوحيدة التي يستطيعون

استعمارها هي الأمة الجاهلة المتخلفة، فإذا ما استيقظت هذه الأمة ووعت أمرها فأنها لن ترضى بالخضوع للاستعمار يوماً واحداً.

والمستعمرون هم الذين وطّدوا أسس حكومتهم عبر إشاعة الجهالات والخرافات، وإشعال نار النفاق والفرقة بين الأمم الإسلامية، وإلا فإن الدين الإسلامي والشريعة المحمدية لم تكتفِ برفض الخرافات والجبن والخوف والموادعة الباطلة، بل دعت أتباعها إلى الجهاد في سبيل إحقاق الحق، ونيل الحرية، ورغبتهم في ذلك».

وقد أثارت صحيفة العروة الوثقى ضجة في الدول الإسلامية، وبالرغم من أن لصحيفة السيد جمال الدين مطالعين ومتابعين كثيرين، فإن أغلب الدول كانت تخالفها، وبلغت بهم المخالفة إلى أن منعوا من دخولها إلى بلدانهم، حتى أن مصر وتركيا العثمانية قد فرضتا عقوبات شديدة على من وجدت هذه الصحيفة في محله أو داره، وإذا عثر على شخص يحمل الصحيفة بيده أو في حال قراءتها فإن اعتقاله أمر لا بد منه. وبالرغم من ذلك فإن هذه الصحيفة التي كانت تحمل الأخطار لقراءتها في كل سطرٍ من سطورها، كانت تصل إلى أيدي قرائها الذين كانوا يعانون المشقة في سبيل الحصول عليها، وتنتشر في جميع أرجاء الدول الإسلامية، حتى أن كل عدد منها كان يصل من يد إلى يد، ومن بيت إلى بيت، حتى قيل: إن عدد قراء هذه الصحيفة يزيد على عدد ما تطبعه عشرين ضعفاً.

إن هذه الصحيفة التي أثارت ضجيجاً في العالم الإسلامي بسبب مقالاتها الثورية الحماسية لم تستمر في الصدور أكثر من عام واحد، ولم تسمح حياة السيد المليئة بالأحداث أن يستمر في إصدارها أكثر من هذه المدة الوجيزة.

السفريات والتحرّكات

إن أكثر ما انطوت عليه حياة السيد جمال الدين من الحوادث هي سفراته المتتابعة النائية طويلة المدى، وبسبب هذه الأسفار لقبوا السيد في حياته بأعجوبة الشرق. فوسائط النقل وامكانيات السفر في ذلك الزمان إذا ما قورنت بأمثالها اليوم

تكون بمثابة العدم، والسفر من مكان ما في الشرق الى نقطة ما في الغرب قد يستغرق اشهرًا وربما سنة كاملة آنذاك، ورغم ذلك كان السيد كمن يمتلك أسرع وسائل النقل والسفر، فقد كان يغيّر مكانه بسرعة، ويذهب من زاوية الدنيا هذه الى الزاوية التي تقابلها، وكان كلّ من يعرفه يعجب من أمره ويقع في حيرة من انّ شخصاً في طهران اليوم كيف يكون في القاهرة بعد أسبوع، ويصل في أقلّ من عشرة أيام بعدها الى باريس، ويكون في الأسبوع القادم في كابل أو أنقرة أو اسطنبول؟ في مثل هذه الفترة، وبعد تأسيسه لصحيفته وإيكال أمورها الفنية والادارية الى الشيخ محمّد عبده المصري، واصل السيد سلسلة أسفاره ليطلع عن كثر على حياة مختلف الشعوب، ولينعرف على آلامها ومشاكلها، ومحاولة وضع الحلول لها، من خلال تبادل وجهات النظر مع رجالات الدول وشخصياتها الواعين المفكرين، وليهيء من خلال ذلك مقالات وبحوث لصحيفته.

وفي خلال هذه الأسفار إتّجه الى ايران عن طريق الحجاز وسوريا والعراق، وفي ايران كان السيد معروفاً، ولصحيفته مئات القراء في ايران، ولذلك فان قراء صحيفته والعارفين بعقائده وأفكاره، والذين اشتاقوا الى رؤيته، قد هبوا لاستقباله بحفاوة وتكريم. وقد بلغ استقبال الناس للسيد، درجة من العظمة بحيث وقع مسؤولوا الدولة تحت تأثيره وقرّروا استقبال السيد بحفاوة بالغة.

وكان (ظلّ السلطان) أحد هؤلاء المسؤولين، وقد أخذ استضافة السيد في اصفهان على عاتقه، وأقام له حفلاً رائعاً ومأدبة فاخرة، غير ان السيد قد أطلق لسانه بانتقاد مضيفه وهو في بيت (ظلّ السلطان) حيث وضع أمامه ما لذّ وطاب من الأطعمة، وبدأ يوجّه إليه أشدّ سهام الانتقاد وأمضّها وهو يلبسها ثوب النصيحة، أمّا (ظلّ السلطان) الذي كان يعلم ان للسيد مكانة في قلوب الحاضرين الذين دعاهم بنفسه بمناسبة قدوم السيد جمال الدين، وان لكلامه تأثيراً ونفوذاً منقطع النظير، ومما لاشك فيه أنه قد سحرهم وجذبهم بكلامه، فإنه لم ينبس ببنت شفة، ولم يجب السيد مطلقاً، بل وتقبل جميع انتقادات السيد وحملاته بوجه طليق، ووعد بالسعي الى الازدعان لنصائح وارشادات عظيم كالسيد، والى تطبيقها ما أمكن.

ومذ ان تولى (ظل السلطان) - الذي كان رجلاً جاهلاً وخصماً لدوداً للثقافة والتاريخ - زمام الأمور في مدينة اصفهان التاريخية معيّنًا من قبل ناصرالدين شاه، أبدى عداً وحقداً على كل ما يمت الى تاريخ هذه الدولة وآدابها وحضارتها، وخاصة ما في خزانة اصفهان الفنية بصلة. ومما نجم عن هذا العدا أنه أصدر يوماً قراراً بهدم كل الآثار التاريخية والأبنية القديمة في اصفهان، وأنشأ بستان وحديقة وحوض وعمارة مكانها، وبعد مدة من هدم الابنية التاريخية بأمر (ظل السلطان) ورد السيّد جمال الدين اصفهان.

وفي تلك الفترة تجوّل السيّد ذات يوم في المدينة ورأى بعينه كل هذا الهدم والخراب، وعند عودته خاطب (ظل السلطان) بكل شدة، وعيناه قد اغرّ ورقّتا بالدموع لفرط الاسى، وهو يعصّ على شفّيته لشدة الغضب: إن الحكام والأمراء والملوك والممسكين بزمام أمور المدن والدول في جميع أنحاء العالم يحافظون على الأماكن التاريخية والأبنية التاريخية ويرممونها إن احتاجت الى ذلك، فكيف سمحت لنفسك ان تهدمها؟

كان ابن ظل السلطان من جملة الذين سمعوا هذا العتاب والخطاب من السيّد، فسكت وأرجأ الجواب الى وقت آخر، ولما خلى بالسيّد في غرفة أطلع السيّد على رسائل ناصرالدين الشاه.

لقد كال ناصرالدين شاه في هذه الرسائل أنواع السباب والكلام البذيء الى الملوك الصفويين وما بقي من مرحلتهم، وأصدر أوامره بهدم الآثار والأبنية الباقية من زمن الصفويين بأقصى سرعة ممكنة لئلا يبقى لهم أثر.

واضافة الى هذه الرسائل، فان ظل السلطان قال: ان استبداد ناصرالدين شاه لم يترك أثره من خلال هدم الأبنية التاريخية، بل ان أثره واضح في دمار أنحاء الوطن، ولا ذنب لأحد من حكام الولايات ولا دخل في هذا الدمار.

واكتملت في ذهن السيّد جمال الدين صورة دقيقة عن الوجه المستبد لناصرالدين شاه من خلال ما سمعه من (ظل السلطان) واخرين، وما رآه بأمّ عينه، وبهذه الصورة القاتمة قصد السيّد طهران.

وفي طهران استقبل ناصرالدين شاه السيد بحرارة في بادئ الأمر، ولكن ما ان مضت مدة قصيرة جرت فيما بينهما لقاءات وحوارات تبدلت حرارة الاستقبال الى برودة وجفاء. وقد صرح ناصرالدين شاه في حديثه مع أنصاره بأنه لم يرتح لصراحة لهجة هذا الرجل الشجاع ذي اللسان الذرب والقول اللاذع. وقد تراجع ناصرالدين شاه عن موّدته للسيد عندما خاطب السيد ملك ايران المستبد أثناء محادثاته الموسعة، والتي كانت متعبة للشاه قائلًا: انّ العالم يسير اليوم نحو الحرّية والتحرّر، وقد ولّى زمان الحكم الفردي، فان الشعوب هي التي تقرّر مصيرها اليوم، ولم تعد كثير من الدول تدار من قبل شخص يسمى الملك والسلطان والاميراطور، بل أنها تدار تحت لواء القانون، وللشعب الحقّ في ان يعرف كل شيء على أساس القانون، ويطالبون بما يريدون في ضوئه. وقال في نهاية حديثه: ولا بد لايران من ان تسلك هذا المسلك، ويشكّل التّاس الحكومة الدستورية، ويتعين مصير الشعب في مكان يسمّى دار الأمة، ولا يتحدّد وفقاً لما يريده شخص الشاه.

لقد أغضبت هذه الكلمات ناصرالدين شاه، وغيّرت رأيه في السيد جمال الدين كلياً.

ولم تمض أيام على دخول السيد جمال الدين ايران حتّى أخبر الشاه بأنه حينما حل، في المحافل والمجامع، وفي أوساط الناس، وحتّى في الأزقة والأسواق فانه يقوم خطيباً في الناس، يبيّن لهم بكلماته النارية مفاصد الاستبداد، وفجائع الظلم الذي ينزله الحكام وأفراد الدولة بالشعب، وينتقد كل ذلك، ويتحدّث في المقابل عن محاسن الحرّية والديمقراطية وقيام الحكومة الدستورية، فيثير الناس ضدّ الوضع القائم.

ولذلك فإنّ ناصرالدين شاه لم يكتف بتقطيب الحاجب بوجه السيد، بل أنه أوجد أوضاعاً لم يعد بإمكان السيد ان يستمرّ في بقائه في ايران معها، فأضطرّ الى الذهاب الى روسيا هذه المرّة.

واستمرّ السيد في نشاطاته في روسيا أيضاً، فقد كتب هناك مقالات لاذعة حماسية مثيرة، وقد نشرت صحف (موسكو) و(بترزبورك) هذه المقالات على

صفحاتها، وقد لفتت هذه المقالات أنظار السياسيين في روسية، فطلبوا اللقاء به، وحتىى امبراطور روسية فانه سمع لحن السيد فأراد الالتقاء به.

وفي هذا اللقاء سأل امبراطور روسية السيد عن خلافه مع ناصرالدين شاه وسبب ذلك، فتحدّث السيد أولاً عن إقتراح الحكومة الدستورية الذي اقترحه على ناصرالدين شاه، وأوضح أنّ سبب تعكر صفو مزاج الشاه هو هذا الاقتراح ومتابعته من قبله، ثم طرح إقتراحاً على امبراطور الروس نفسه، وتحدّث حول ضرورة استغلال جميع القوى البشرية وافراد الشعب، وخاصة العمّال والفلاحون، ومحاسن تنفيذ مثل هذه الخطة، فقال: ليعلم الامبراطور بان ملايين العمّال والفلاحين، الذين يعيشون في هذا البلد إذا ما ساندوا بقلوبهم هذه الحكومة وناصروها فان ذلك أفضل بكثير من ان يعادوها في أعماقهم، ولن يتمّ مثل هذا الدعم والمساندة من قبلهم إلا حين تعيّن الحقوق الانسانية لكلّ هؤلاء وتحترم، ويهتمّ بها.

ومن الطبيعي ان لا يكون مثل هذا الفكر والأسلوب الحديث مورد رضى امبراطور روسيه أيضاً، فقد غضب هو الآخر - باعتباره امبراطوراً مستبداً - عندما سمع رجلاً يتحدّث عن (حقوق الشعب) لكنّه لما كان رجلاً منصفاً أمر ان يُخرج السيد من روسية بلطف ومحبة.

وبعد إخراجه من روسية لم يكن للسيد مكان للبقاء في الدول الإسلامية والعالم الشرقي، فلهذا الثوري الملتهب الكلام انصار كثيرين، وصدى واسع، لكنه حيران، فاضطرّ الى إختيار الدول الاوربية محلاً لإقامته وحياته هذه المرة، وحيثما حلّ كان يتحدّث عن الاستعمار والاستبداد الحاكم والمهيمن على الشرق، سواء عن طريق المقالات أو الخطابات والكلمات، أو يلفت أنظار العالم الى الوضع الموجود في هذه البقعة.

السفر الى اوربا

في تلك الأيام التي كان فيها السيد حائراً في الدول الأوروبية، وكان يقضي كل فترة في دولة ومدينة منها، سافر (ناصرالدين شاه) و(الميرزا علي أصغر اتابك)

رئيس الوزراء آنذاك (سنة ١٨٨٩) الى أوروبا، وصادف ان التقيا بالسيد لدى وصولهما الى النمسا، وخلافاً لما كان ينتظره السيد فإن ناصرالدين شاه قد أجاد التلقين بأنه نادم على سلوكه السابق، وإنه الآن بعد ان شاهد عن كشب، تطورات الدول الاوربية ورفاه شعوب هذه الدول ونعيمها وهدوئها، وافق السيد، على أفكاره وعقائده من الأعماق، وأنه سيستعين في المستقبل بآراء السيد وارشاداته من أجل راحة الشعب ورفاهه وتقدّم البلاد ورفقيها.

وفي تلك السفارة دعا محمد حسن خان إعتقاد السلطنة - الذي كان من مرافقي ناصرالدين شاه - السيد ان يعود الى ايران ويفنيهم بآرائه وارشاداته.

غير ان إقامة السيد في طهران واجهت مسائل ومشاكل كثيرة هذه المرّة، فإن اتابك الذي كان قد وعده بتقديم كلّ أنواع المساعدات، والذي استغل صداقته فخدعه بارساله الى روسية لجلب أنظار رؤسائها نحوه، لم يف بوعوده، فلم يعن السيد بشيء بعد عودته الى طهران، بل وبلغ بعدائه وخصومته القمة، حتّى ان السيد لمّا أراد مقابلته للتباحث في الأمور الجارية في ايران، امتنع اتابك من الالتقاء به وظلّ يعد بان سيلتقي به اليوم وغدا، حتّى أيقن السيد بأنه لا ينوي اللقاء معه أصلاً. لم يكن السيد يتوقّع أبداً ان يلاقي مثل هذا السلوك معه بعد ذلك الإستقبال الحافل والدعوة الحارّة، فكتب رسالة قانون في بيت أمين الضرب - والذي اختاره محلاً لسكناه بعد مجيئه الى طهران - وأرسلها الى ناصرالدين شاه، وذكره فيها بلقاء أوروبا، والوعود التي وعد بها ناصرالدين شاه هناك، وتحدّث مرّة أخرى عن ضرورة قيام حكومة دستورية، وانتشار الحرية والديمقراطية وأخذ حقوق الشعب بنظر الاعتبار.

لكن اتابك اتّخذ وصول هذه الرسالة الى ناصرالدين شاه ذريعة جديدة، فأثار رعب الشاه القاجاري من وجود السيد وكلماته وكتاباتاته، وغيره على السيد واقداماته الثورية فجعله في حيرة من أمره، وأساء الظن بالسيد أكثر من ذي قبل. وإضافةً الى ذلك، فقد كانت تصل الشاه كل يوم أخبار جديدة تجعله يطمئن أكثر الى كلام اتابك وظنونه السيئة، فقد كانت هذه الأخبار تتحدّث عن ان العلماء

والمثقفين والعلماء المجاهدين الحقيقيين، كالملا هادي النجم آبادي والميرزا أبي الحسن جلوه يذهبون كل يوم الى دار أمين الضرب ويلتقون بالسيد، وأنه يثير الحماس فيهم بكلماته النارية ويحرّضهم ضدّ حكومة الشاه، حتّى ان هذه الجماعة قد استعدّت بكل وجودها ان تقدم على إيقاظ الشعب وتوعيته وإثارته ضد ظلم الحكام وجورهم.

وقد بلغ خوف ناصرالدين شاه أوجه عندما أخبر يوماً بان كلام السيّد قد بلغ حدّاً من التأثير فيمن يذهب للالتقاء به، بحيث ان الميرزا أبا الحسن جلوه قد تباحث معه ساعة، وبمجرّد ان خرج من دار أمين الضرب قال: «إنّي ذاهب لأرتدي الكفن لأنهيّاً لجهاد حكومة الشاه الفاجري المعادية للدين والإسلام».

الانزواء

إن ناصرالدين شاه والميرزا علي أصغر خان اتابك اللذين دعوا - بأنفسهما - السيّد الى ايران خلال لقائهما به في أوربا، خافا مرّة اخرى منه ومن أعماله وأفكاره الثورية، ومن أجل ان يأمنا جانبه والى الأبد فكّرا بقتله في دار أمين الضرب وفق مؤامرة دقيقة. اما السيّد الذي تنبّه لذلك بفراسته، فقد ترك محل إقامته في الوقت المناسب والتجأ الى منطقة السيّد عبدالعظيم الحسيني.

وعندما علم ناصرالدين شاه واتابك بذلك غضبا من فطنة السيّد وذكائه، وبلغ غضبهما حدّاً بحيث لم يمنعهما التجاؤه الى تلك الناحية المقدسة من التفكير في القبض عليه، فأرسلوا أفراد الشرطة في أثره. وقد ذهبوا اليه وهو طريح فراشه حيث اشعلت بدنه حمى شديدة، ورغم ذلك فقد أخذوه بأسوء طريقة وسحبوه من الفراش، ومع ان ذلك اليوم كان من أشدّ أيام الشتاء برداً، فإنّهم إقتادوه معهم وهو يرتدي لباساً خفيفاً وأوصلوه الى حدود العراق. وكانوا يعاملونه أسوء معاملة طول الطريق، ولما وصلوا الحدود اخرجوه وهو في تلك الحالة، وبدون ان يكون معه مال يكفيه لسفره.

أما أموال السيّد الشخصية، ومن جملتها حقييته الكبيرة المليئة بالكتب

والمذكرات والمقالات، والتي بقيت في دار أمين الضرب فقد أخرجوها وأرسلوها الى الشاه كوثائق تدلّ على خيانة السيد وضلالته.

وبالرغم من أنهم لم يعثروا على أدنى وثيقة أو سند في أموال السيد ووثائقه التي تركها، تدل على خيائته وضلالته، فانهم أشاعوا في كل مكان أنّ هذا الرجل ليس سيّداً، بل وليس مسلماً أبداً، وإنما هو رجل مخادع خطر، يسافر الى الدول الإسلامية بهدف خداع المسلمين وصرفهم عن دينهم، وليس له هدف إلا إثارة الفتنة والدمار، ولهذا فقد اصدر الشاه ورئيس الوزراء قرارهما باخراجه لتلاّ تؤثّر أفعاله الخداعة - بزعمهم - في الناس، ولتلاّ يسلب هديتهم وراحتهم، وبهذا فقد أنجيا الايرانيين المسلمين من خطر وجود مثل هذا الرجل.

بعد إبعاد السيد عن ايران قصد أوربا مرّة أخرى، وفي تلك الديار استمرّ في أعماله الثورية، وقد جدّ في الحديث عن مظالم الشاه واتبك وازلامهما واستبدادهم وجورهم خلال المقالات التي كان ينشرها في صحف اوربا، وجعل صدى أجراس فضائحهم يدوي في كل مكان.

وبعد مدّة دعاه السلطان عبدالحميد الخليفة العثماني الذي سمع بصيته - الذي طار في الآفاق - الى القسطنطينية، وبالرغم من ان السيد بعد ان ذاق مرارة تجربة دعوة ناصرالدين شاه واتبك، لم يرغب هذه المرّة في تلبية دعوة الخليفة العثماني، فان الخليفة أصرّ إصراراً بالغاً على قبوله دعوته، فاضطر السيد الى تليتها، وقصد الخليفة.

وفي المقابل فإن السلطان عبدالحميد قد عامله بكلّ احترام، وسعى كثيراً في المحافظة على الاحترام والتقدير، وذلك لأنه قال لمن حوله مراراً: بأنه يفضل ان يحظى بمحبت السيد ليتقي عداه، فانه كان على يقين، من ان رجلاً كالسيد جمال الدين إذا ما عاداه فإنه سيثير الأخطار حوله.

ومن العوامل الأخرى لحسن سلوك عبدالحميد مع السيد، وانه كان يتحمل أخلاقه وسلوكه وكلماته ويظهر نفسه مظهر الموافق له في كل شيء، انه كان يراوده حلم الخلافة على جميع الدول الإسلامية، وكان يأمل ان يتسلّم زمام الأمور في

جميع البلدان الإسلامية، وبهذه الافكار والآمال كان يظنّ بان السيّد الذي رفع علم الوحدة الإسلامية في كلّ مكان، وتحدّث عن إتّحاد الشعوب الإسلامية، يستطيع ان يعينه في الوصول الى ما يطمح إليه، وسيكون له الأثر في تحقيق هدفه، لكن عندما نار الأرامنة في الدولة العثمانية وعلم السلطان عبدالحميد بان للسيّد يداً خفيّة فيها، تغيّر عليه وأساء الظن به، وتفاقم سوء الظن هذا حتّى اعتقد جماعة بان السلطان عبدالحميد هو الذي تسبّب في موت السيّد عندما أمر بدسّ السمّ إليه فقلّته.

وقبل ان تتبدّل نظرة السلطان عبدالحميد عن السيّد سعى ناصرالدين شاه واتبك كثيراً الى صدّه عن دعم هذا الثوري الحائر، فقد طلبا من الامبراطور العثماني ان يبعده عن تركيا، أو يأذن لهما ان يقتلا السيّد هناك بواسطة أتباعهما، الذين يعملون تحت تصرّف وزيرهما في اصطنبول، غير ان الامبراطور العثماني الذي لم يكن قد تغيّر عليه بعد، وكان يعتبره عوناً له في بلوغ مأربه، ومن أجل ان يحافظ على رضى جيرانه الملوك، أجابهما بان إقامة السيّد لديه لا يشكل أيّ خطر على ايران وملكها، بل انّ ذلك يعود بالنفع عليه، حيث أنه لما أبقي السيّد في بلده قد أبعده عن أوروبا، وأوقع الفرقة بينه وبين الميرزا ملكم وذلك يقلّل من أثره وأثر أعوانه في المنشورات الاوربية في تحريك الآخرين.

ومع كلّ هذه الايضاحات لم يركن السيّد الى الهدؤ وهو لدى الخليفة، فقد استمرّ من هناك في نشاطاته الثورية، وقاد من هناك مقدمات لغو إتفاقيه التسبغ وتحريم استعماله - وهي تعتبر أوّل ضربة الى جسد الاستبداد في ايران - وذلك بمعيّة موافقيه في الفكر الميرزا آقا خان برد سيري والشيخ احمد الروحي وخبير الملك، وأخيرا حقق هذا الهدف والفكرة بالاستعانة بالميرزا الشيرازي مرجع الشيعة الكبير المقيم في سامراء.

المعرض على الاغتيال

وفي تلك الفترة التي كان يقضيها السيّد في الدولة العثمانية إغتيل ناصرالدين شاه بعد ٤٩ سنة من الحكم الاستبدادي الجائر على يد الميرزا رضا الكرمانى، ومع

بعد السيد عن ايران، فإن جماعة كثيرة يعتقدون بأنه هو الذي حرّض الميرزا رضا على إغتيال الشاه.

صحيح ان الميرزا رضا الكرمانى كان من مريدى السيد جمال الدين المستميتين وقضى سنين طوال في مدرسته، وتربى في أحضانها، فقبل افكار السيد بكل وجوده وآمن بكل ما قاله، فكان يعتقد بان الميرزا علي أصغر خان اتابك ونائب السلطنة هما اللذان يقفان حجر عثرة أمام قيام حكومة الدستور في ايران. وصحيح ان الميرزا رضا كان يعارض حكومة ناصرالدين شاه المستبدة، لكن لا يمكن القول بان السيد جمال الدين قد أرسل الميرزا رضا الكرمانى مباشرة لإغتيال ناصرالدين شاه.

كان الميرزا رضا قد تحمّل بنفسه أنواع العذاب والمشقة من الحكومة القاجارية وأسلوب ممارسة رؤسائها للسلطة، فقد صبّ الميرزا علي أصغر خان اتابك ونائب السلطنة عليه انواع الظلم والعذاب، وقد أودعاه السجن لمدة طويلة دون ان يرتكب ذنباً، وسجناه في سجون ناصرالدين شاه الرهيبة، فمن الطبيعي ان يتمرد الميرزا رضا ويستعد لإقتلاع جذور هذا الظلم والجور.

وكان عدم الرضى والفضب والتمرد قد أستولى على الميرزا رضا الكرمانى بعد خروجه من السجن والتعذيب، وقد أشد به ذلك حتى أصبح كبرميل بارود يكفي إشعال عود كبريت لإنفجاره، وكان إشتعال هذا العود يوم حدثت بينه وبين السيد لقاءات أدت الى إعجاب الميرزا رضا بأفكار السيد الثورية، فاعتقد الميرزا تأثره بأفكار السيد - بانّ على كل ايراني واجب التحرك والسعي حسب إستطاعته في سبيل انقاذ الوطن والأمة من قيود الحكومة الجبارة - وبعد تعرّفه على أفكار السيد جمال الدين زار العتبات المقدسة مرّة واحدة، ومن هناك غير مسيره وإتجه الى الدولة العثمانية ليستلهم الدروس من خلال حضوره بين يدي مرشده وقائده الفكرى.

وبعد ان أقام مدة مع السيد ووقع تحت تأثير أفكاره، نهياً تماماً للقيام بعمله الثوري، فغادر الدولة العثمانية متّجها الى طهران، وعلى أعتاب السنة الخمسين

لحكومة ناصرالدين شاه أطلق عليه الرصاص في صحن السيّد عبدالعظيم. وبعد مصرع الشاه ألقى القبض على الميرزا رضا وقيدوا يديه ورجليه مرةً أخرى، لكنّه كان هذه المرّة مرتاح الخاطر والضمير لأنّه - كما قال - أدّى واجبه الدّيني والانساني والوطني والشعبي. ومع ان الميرزا رضا أنكر في جميع محاكماته ان يكون السيّد جمال الدين قد أرسله في هذه المهمة، أو ان يكون قد حرّضه على ذلك، لكنه كان يقول بكل فخر واعتزاز: بأنّه يعتبر السيّد جمال الدين أعظم عالم، ومجاهد ذكيّ ورجل دين صالح، وانه كان يعيش لسنوات طويلة متأثراً بأفكاره الثورية.

وقد استبشر السيّد جمال الدين باغتيال ناصرالدين شاه، وقال فرحاً: انّ قتل هذا الشاه المستبد هو طليعة الحكومة الدستورية في ايران، وكان يعتقد انّ مصرع الشاه المستبد سيكون سبباً لوعي الايرانيين وسعيهم في الحصول على الحرّية، ومن جهة اخرى فان الذين يخلفونه في الحكم سوف لا يتجرّؤون، بعد ان لاقى الشاه هذا المصير، ان يتركوا الشعب يعيش في ظلّ مثل هذه الحياة القائمة.

ومع ان السيّد جمال الدين لم يعيش بعد قتل ناصرالدين شاه إلاّ سنة واحدة، ولم يعمر ليرى بعينه بداية نهضة الدستور وثورة أنصار الحرّية من الشعب الايراني، لكنّ تاريخ الشرق، وخاصة تاريخ ايران، سوف لن ينسى أبداً دوره في إنارة أذهان الشعب الايراني المجر على التخلف آنذاك، والثورة الدموية لهذا الشعب من أجل نيل الحرية.

جذور الفساد

لقد تنبه السيّد جمال الدين بعمق الى نقطة اساسيّة في محاربة الظلم والفساد، واعتبرها علّة العلل والمادة الرئيسيّة للفساد، ألا وهي وجود الحكومات الفردية وفرض إرادة فرد واحد على المظلومين والرعايا الضعفاء العاجزين، فقد كتب حول ذلك في أحد اعداد مجلة العروة الوثقى:

«يقولون: ان الدول تحمي بالقصور التي تناطح السماء والأبراج العالية،

والجيش المجهز بأحدث التسليحات، وأقرّ بان وجود ذلك ضروري في حماية البلد، لكن الملك والجيش والقصر لا تستطيع لوحدها ان تحافظ على استقلال البلاد، بل ان الشعب المثقف، وذوي الصلاحيات والقابليات والشخصيات المؤمنة المسؤولة منهم هم الذين يحافظون على البلد واستقلاله، ان رجال الفكر والعلم وأصحاب الرأي والمشورة هم الذين يصلحون أوضاع الدولة وشؤونها، ويهيئون الأمن والهدوء لا الملك والجيش والتجهيزات. ورجال العلم والفضيلة هم القادرون على ان يشرفوا على علاقات الدولة وأحداثها بكل اخلاص وتحرق، وهم الذين يرعون حقوق الناس بكل رحمة ومحبة وشفقة، ويوقفون من يتعدى على الاموال العامة عند حده ويعاقبونه».

مكانة علماء الدين الايرانيين

لقد أدرك السيد جيداً مدى أهمية العلماء وعمق نفوذهم المعنوي خلال أيام الظلم والاستبداد، وكان يعلم جيداً ان لهم وحدهم المكانة العميقة، في قلوب الناس في تلك الأيام المظلمة القاسية، ولذلك فإنه كان يقدر مكانتهم ويحترمها، ويعتمد عليهم ويستمدّ العون من قوتهم ونفوذهم في مواجهة المشاكل الإجتماعية والسياسية.

كان السيد اذا ما أراد الشروع في نشاطاته فإنه أول ما يتجه نحو العلماء الواعين المجاهدين ويستمدّ منهم العون، وتتجلى هذه الحقيقة بكل وضوح من خلال مضامين الرسائل التي كان يوجهها السيد الى أقطاب علماء الشيعة وخاصة الميرزا الشيرازي.

رأي محيط الطباطبائي

كتب الاستاذ محيط الطباطبائي في تحقيقه الذي نشره حول حياة السيد جمال الدين وأفكاره ونشاطاته جاء فيه:

«لقد التفت السيد الى أهمية العلماء ونفوذهم في سفرته الأولى الى أوروبا

عندما كان يصدر مجلة العروة الوثقى، ففي الرسالة التي أرسلها آنذاك الى أحد الايرانيين المقيمين في مصر، وأسمه الداغستاني، يقول بصراحة: ان علماء ايران لم يقصروا في أداء واجباتهم، لكن أزلام الدولة هم الذين كانوا السبب في شقاء الناس واذاهم وتخلّفهم، كما انهم خلقوا أسباب تخلف الوطن». ومن أجل الوقوف على معنويات السيّد جمال الدين الخاصة، وتفكيره تجاه مقام العلماء المجاهدين الشامخ نورد جوانب من رسائله.



فنتطالع في الرسالة التي كتبها بتاريخ ٢٥ / ايلول / ١٨٨١ حول علماء ايران

الواعين:

«ان ما تصوّرتموه، حول علماء ايران بعيد عن العدل والانصاف، فمتى لم يكن هناك مشرف ومراقب لاعمال السلطة، فان علماء الدين لا يستطيعون الوقوف امام ما تريده تلك القوة المتسلطة، فمتى أرادت الدولة مد السكك الحديدية ومانع علماء الدين ووقفوا أمام تحقيق هذا الهدف المفيد للدولة والبلاد؟ متى أرادت حكومة ايران نشر العدالة بين الناس، وأرادت ايجاد المحاكم العادلة، وتأسيس مجلس للشورى؛ لجعل جميع الاحكام تسيّر وفقاً للعدالة والحاجة، فنهض علماء الدين ضدّ ذلك وأعلنوا محاربتهم للعدالة والقانون؟ متى أرادت الحكومة انشاء مستشفيات جديدة، واقامة أماكن للراحة والتربية فلم يفرح العلماء والمراجع بهذا العمل الجديد، أو أنهم قالوا: ان هذا العمل الجديد بدعة والبدعة تبعث على الهلاك؟

كانت النهضة التي قام بها السيد جمال الدين في الشرق عبر نشره أفكاره وعقائده الثورية، نهضة فكرية اجتماعية عالمية، فلم يستقر أو يسكن حتى آخر عمره، ولم يقم اقامة دائمية في مدينة أو دولة، بل ولا حتى في قارّة، بل كان يغيّر محلّ اقامته خلال مدّة قصيرة، فلم تكن تمضي عليه فترة في دولة حتى يغادرها فجأة الى دولة أخرى؛ ليستمرّ هناك في نشاطاته الثورية والتوعية، فكان يوماً في آسيا، وآخر في أفريقيا، وفي أوربا ثالثاً، وحيثما كان يحلّ كان يتصل بمختلف فئات المجتمع؛ ليتعرف على أمراض المجتمعات المختلفة، وليعيش أوضاعها ومعاناتها بكل وجوده.

ويقول الشيخ محمد عبده فيه: «لو أني قلت بان الذهنية المتوقدة والعقل الواسع والبصيرة النافذة التي وهبها الله للسيد جمال الدين كانت في أعلى الدرجات بعد الأنبياء والأئمة المعصومين فلا أراني قد بلغت أبداً».

وفاته:

أما فيما يتعلق بموت السيد جمال الدين فإنّ المؤرّخين والمحققين لم يتفقوا على رأي، بل لكلّ منهم رأيه في هذا الموضوع.

السيدان الأيتان: الطباطبائي و البهبهاني

إنّ لنهضة الدستور مكانها الخاص في تاريخ الجهاد ضد الاستبداد، وفي تاريخ النهضات الإسلامية في إيران، فإنها أول نهضة وثورة لفئات الشعب العظيم نالت النصر المؤزر، واستطاعت ان تذللّ غول الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي، وتركعه أمام أمواج المجاهدين الغاضبة، وان تثبت أحقيتها في قلب التاريخ والشعب الثوري، بل وفي قلوب عملاء الاستعمار وأرواحهم السوداء. وكما في بقية النهضات الشعبية والانتفاضات والثورات الإسلامية، فان دور العلماء الواعين المجاهدين في ثورة الدستور كان دوراً ساطعاً له أثره في تغيير وجه التاريخ، وسواء كان في خضم أحداث ثورة الدستور أم السنوات التي سبقتها، فإن مهادت الثورة لما كانت تقام، وتقوي جذور القدرة من أجل تهيئة الأرضية اللازمة لثورة الشعب المحروم، كان العلماء المجاهدون في الصفوف الأولى دائماً، وكان لهم الدور الأهم في الأحداث.

ومن بين العلماء المشهورين الذين منحوا تاريخ وعي الإيرانيين ويقظتهم وتاريخ ثورة الدستور إعتباراً خاصة عبر اسمائهم الشهيرة، ونشاطاتهم المتوالية وجهادهم، سطعت أسماء ثلاثة منهم وكانت اكثر اشراقاً ولفناً للنظر، وأدوم بقاءً، وهم:

آية الله الميرزا الشيرازي الذي مهد أوليات يقظة الإيرانيين واتصالهم بسبيل الثورة العرم عن طريق نظريته الثاقبة وتدبيره.

ثم رفررت راية الثورة في خضم احداث نهضة الدستور باسمي السيد محمد

الطباطبائي والسيد عبدالله البهبهاني العالمين الفطنين المجاهدين الشجاعين نقبي النفوس وطاهري القلوب.

لقد كانت ثورة الدستور التاريخية العظيمة مظهراً لصلافة الشعب الإيراني العظيم، ومقاومته وثباته بوجه الاستبداد الداخلي والاستثمار والاستغلال الخارجي، حيث وجد هذا التجسد العملي والتبلور الظاهري للشعب ماهيته الحقيقية في وجود هذين العالمين المقدامين، وكان ذلك في نفس الوقت الذي عبر فيه «جلال آل أحمد» بان «العلماء كانوا آخر قلاع المقاومة حيث أبدوا بكل وجودهم قدرتهم في المقاومة والصمود، بالرغم من أنهم أصبحوا في النهاية ضحية ثورة الدستور، ولهذا الموضوع بذاته بحث مفصل أليم».

إن الإشارة الى لمعان اسم هذين العالمين لا يعني ان دور العلماء منحصر فيهما، فقد كان في تلك البرهة عظماء مجاهدون مضحون لم يتوانوا لحظة عن الجهاد والتضحية، امثال الشيخ فضل الله النوري، والسيد جمال الدين الواعظ الاصفهاني، وملك المتكلمين، والشيخ محمد الخياباني وثقة الإسلام، وبقية المجاهدين في هذا السبيل، والذين سنتناول تفصيل حياتهم وتحليل أفكارهم في محله.

لكن لما كان التاريخ قد ذكر - حسب تسلسله - هذين الجليلين قبل سائر علماء ثورة الدستور المجاهدين، فأتنا تبعاً لذلك نتناول اولاً حياتهما وافكارهما وجهادهما.

ممرّ و سفر

كانت ثورة الدستور - حسب تعبير المؤرخين والمحققين - ممرّاً من الدكتاتورية المطلقة الى الديمقراطية والحكومة الشعبية، وكانت الدعامة الأساسية لانتصارها الحتمي هو إيمان الشعب وتضحيته، وحزم القادة من علماء الدين وصراحتهم وشجاعتهم.

لقد عبأ علماء عصر الدستور كلّ طاقاتهم من أجل إقتلاع جذور الاستبداد

والاستعمار وإلقائها بعيداً، ووضعوا نصب أعينهم ذلك العهد الإلهي المقدس الذي بينه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول: «وما أخذ الله على العلماء ان لا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم»^(١)، وقد وفي هؤلاء أيضاً بهذا العهد، وبذلوا قصارى جهودهم في سبيل اقتلاع جذور الظلم والاستبداد.

كانت ايران قبل ثورة الدستور تحترق بلهيب الاستبداد، وكان المستعمرون الدوليون قد أنشبوأ أظفارهم ومخالبهم في جميع مصادرها الطبيعية وثرواتها الظاهرية والباطنية، والأدهى من ذلك ان القوى العظمى كانت تتدخل حتى في طريقة حياة الشعب، بل وفي حياة مسؤولي الدولة، بل وحتى في حياة الملك الخاصة! وقد بلغ هذا التدخل غير المشروع للشعوب الاوربية، وخاصة الانجليز والروس، في أمور البلاد غايته القصوى، وتحولت ايران الى حلبة صراع بين القوتين المتنازعتين، كما ذكر ذلك ناصرالدين شاه في إحدى مذكراته حيث يقول:

«إذا أردت السفر الى شمال الوطن اعترض السفير الانجليزي! وان أردت السفر الى الجنوب اعترض السفير الروسي! فتعساً لهذه الحكومة التي لا يحق للشاه فيها ان يسافر الى شمال مملكته أو جنوبها!!».

في تلك الأيام، ونتيجة لضعف الحكومة وفقدان من بيدهم زمام الارادة واتخاذ القرار، بلغ الأمر ان يسمح ممثل بلجيكا وقنصلها - واسمه (نوز) - لنفسه ان يهين المقدسات الإلهية وعقائد الشعب الدينية ويحقرها في المجالس العامة، فقد كان يرتدي ملابس العلماء في مجالس الرقص والدعارة ويرقص ويعربد ويهرج، ويقوم باعمال مضحكة، ولم يكتف بذلك، بل عمل صوراً من ذلك الرداء ونشرها أزالاه بين الناس من أجل تشويه لباس العلماء وإسقاط حرمة.

وفي سنة ١٣٢٢ هـ - أي قبل سنتين من ثورة الشعب التي أجبرت مظفرالدين شاه على توقيع أمر الدستور - لم يطق الشعب الغاضب هذا الوضع ونفذ صبره، فقاموا بتظاهرات واسعة، وأقاموا ضجة كبرى بقيادة هذين السيدين المجاهدين الجليلين، وذلك ليطلعوا الشاه المهزوز الضعيف وأنصاره وأعوانه على

١- نهج البلاغة الخطبة المعروفة بالشقشقية خطبة «٣» النهج ص ٤٣، فيض الأسلام.

ما يجري في بلادهم. وقد كان لمساندة علماء الإسلام ووحدة كلمتهم وقيادة السيّدين الجليلين، الدور البناء في هذه النهضة، وفي تاريخ الثورات الإسلامية. فقد كان المرحوم السيّد محمد الطباطبائي والسيّد عبدالله البهبهاني من مؤسسي هذه الحركة التي قامت ضدّ الاستبداد ومن روادها الأوائل. وحول هذا الموضوع يقول أحمد كسروي، المؤرخ المعروف لثورة الدستور، والمعروف بمعارضته الشديدة للعلماء: «لقد أثار السيّدان الطباطبائي والبهبهاني حركة الدستور في إيران، لكن يلاحظ ان ذلك قد نسب الى مشير الدولة في الصحف»^(١).

إتّساع نطاق الثورة

وسع هذان العالمان المجاهدان من نشاطاتهما، ودخلوا في مراحل أكثر جدية وتأثيراً في التاريخ، فقد حضرا اجتماعاً شعبياً عظيماً في مسجد الشاه ليتحدّثا عن مضار الحكومة الدكتاتورية ومحاسن الحكومة الشعبية والدستورية، غير أنّ جماعة من عملاء الشاه وخدم البلاط تغلغلوا بين الناس - طبقاً لخطة معدة مسبقاً - من أجل تفريق هذا الاجتماع الهائل، وبدأوا بايذائهم واهانتهم، حتّى أنهم أهانوا العالمين المجاهدين الجليلين، وتفاقم الحال في مسجد الشاه ذلك اليوم حتّى انتهى الى المشاجرة والصدام والجراح، فاضطرّ الناس الى التفرق للخلاص من هذه الفتنة. وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر آذر ١٢٨٢ هـ. ش اعتصم العالمان المجاهدان بعميّة جماعة من العلماء والتجار كالمرحوم الحاج الشيخ مرتضى متولي مدرسة خان مروي، وصدر العلماء، والسيّد جمال الدين الافجئي، والميرزا مصطفى بن الحاج الميرزا محمد حسن الاشتياني، والشيخ محمد صادق الكاشاني، والشيخ محمد رضا القمي وجماعة من تجار طهران في صحن السيّد عبدالعظيم الحسيني ليعلنوا بذلك احتجاجهم ومعارضتهم. وفي أثناء الطريق وقف جماعة من أزام النظام بوجههم، وسعوا الى صدهم



آية الله السيد محمد الطباطبائي ————— آية الله السيد عبدالله البهبهاني رفيق درب الكفاح

عن هذه الحركة، وبلغ الأمر حد المصادمات وإطلاق النار، ولكن نتيجة لإصرار التجار وضاغطهم وإغلاقهم محالهم التجارية، وإحتمال إزدياد الاضطراب أمر عين الدولة، الحاكم العسكري لظهران آنذاك، أفراد الشرطة وعملاء الحكومة بالكف عنهم، والسماح لهذه الجماعة ان تكمل مسيرها نحو صحن السيد عبدالعظيم.

لكنه أمر من ناحية اخرى بأنه اذا ما استمرّ الذين أغلقوا محلاتهم بهذه المناسبة في اغلاقها ولم يفتحوها فإنها ستنهب من قبل افراد الشرطة، وفعلاً فإن

بعضاً من التجار لم يكثرثوا لهذا الأمر الصادر فذهب أزلام النظام بضائع محلاتهم وسيطروا عليها.

أما رجال الدولة الذين كانوا مرتبطين بالاجانب، وكان كلّ منهم تحت حماية السفير الروسي أو الانجليزي، فإنهم - ومن أجل الحفاظ على مصالح أسيادهم الأجانب - سعوا الى فصم عروة الاتحاد بين السيّدين العالمين المجاهدين محمد الطباطبائي وعبدالله البهبهاني، فاستخدموا التهديد تارة، والاطماع أخرى، فكانوا كلّ يوم يرسلون إليهما رسالة تهديد أو وعد بمال ومنصب، وأنهما يلقيان بأنفسهما الى التهلكة عبر هذا الطريق الذي اختاره. لكن هؤلاء غفلوا عن انّ رجال الحق لا يهابون في طريق إيمانهم وعقيدتهم التهديد والموت والشهادة، ولا ينحرفون عن الصراط المستقيم عبر ترغيبهم ووعدهم بالمال والمنصب والجاه، وكما يقول الامام علي عليه السلام: «فانهم زهّاد الليل وليوث النهار».

ثورة الجماهير

هزّت إقامة المجاهدين الشجاعين بالري معربين عن اعتراضهما ومخالفتهما للحكومة أعماق الجماهير، نظراً لامتلاكهما قلوب الناس ولمكانتهما الخاصّة فيها، ومنذ اليوم الأول الذي أتجه فيه هذان العالمان نحو الري رافقهما جماعة من أنصارهما، أما بعد استقرارهما بالري فقد بدأت مجموعات جديدة من الجماهير تتجّه الى الري كلّ يوم، ويلتحقون بالعالمين المجاهدين وأنصارهما، وبذلك كانت أعدادهم تزداد يوماً بعد يوم، واستمرت بالازيد لتكون سيلاً جارفاً يقوى على تحطيم جدران الخصم والمخالف في ساعة الصفر.

وقد بلغ الأمر ان خالف بعض شباب العوائل الفخمة المتصلة بالبلاط، بل وحتى جماعة من رجال الدولة وأولاد الأمراء القاجار، النظام الحاكم آنذاك، ولذلك غضب عليهم الملك المستبدّ وأعوانه الإنتهازيون، ففارقته تلك الطائفة وقصدوا الري والتحقوا بذلك الجمع.

وأدى تزايد أعداد هذه الجماهير يوماً بعد آخر، ولحظة بعد أخرى، والتفافها

حول قائديها المحبوبين الى رعب الجهاز الحاكم وقلقه شيئاً فشيئاً، حتى ان عين الدولة رئيس الوزراء الدكتاتور المستبد، ورجل بلاط القاجار المستميت الذي لم يأتِ أحداً من باب السلام والصلح أبداً، عندما رأى أنه لا يقوى على مواجهة هذه الجماهير عن أيّ طريق كان قد فكر جدياً بتهديد الشعب وإرعابه، فارسل أحد عسكريه القساة الذين كان يعتمد عليهم مع مئات الفرسان المسلّحين الى الري للقيام بهذا التهديد والارهاب. غير ان المقاتلين المسلمين الشجعان لم يجدا الخوف من مواجهة الفرسان المسلّحين وافراد الجيش الذي يعملون تحت أمره الأجانب - فهم ضعفاء امام القوى الاجنبية، وشجعان جلاّدون أمام شعبيهم المحروم المضطهد الأعرل وأبناء وطنهم الحفاة - الى قلوبهم سبيلاً، وثبتوا بكل جرأة وصلابة أمام هذا الجحفل، وبيّنوا بقول صريح بليغ مشاكل الشعب وحرمانه، وعدّدوا مفاسد الحكومة الدكتاتورية واحدة قواحدة، وانتقدوا بشدّة اجحاف الدولة بحقوق الجماهير، وتعديها عليها.

بيان المعتصمين بالري

واخيراً نظم هذا الجمع بياناً ذكروا فيه مطالبهم التي أشرف عليها وأيدّها العالمان المجاهدان، وأوردوها في ثماني موادّ وأرسلوها الى الشاه بواسطة السفير العثماني. وكانت هذه الموادّ التي ثبتت جزئياتها في التاريخ كأوّل مطالبة بالحقوق مدوّنة، وأوّل طلب منظمّ دقيق بقيام الحكومة الدستورية، عبارة عن:

- ١ - ايجاد (دار العدالة) في أنحاء ايران، سواء في المدن أم القرى.
- ٢ - عزل علاء الدولة من حكومة طهران.
- ٣ - ارجاع الحاج الميرزا محمد رضا - وهو أحد العلماء المجاهدين في أوائل نهضة الدستور، وقد نفي بسبب عقائده التحرّرية - من رفسنجان الى كرمان.
- ٤ - إعادة سدانة مدرسة خان الى سادنها الأصلي.
- ٥ - تطبيق القوانين الإسلامية وتوسعة نطاقها في أنحاء البلد الايراني.
- ٦ - عزل المسيو (نوز) البلجيكي عن رئاسة الكمرک والمالية، حيث لم يكن

له همّة وهو في هذا المنصب المهم إلا إيذاء الناس والتبذير بما في بيت المال وإتلافه.

٧ - تقليل الرواتب الحكومية بمقدار عشر شاهيات من كل تومان، والذي سنّ قبل عام واحد.

٨ - وأخيراً عزل عسكر غاريجي عن ادارة العربات على طريق قم. وكان هذا الرجل قد حصل على امتياز ادارة عربات طريق قم من الدولة، لكنّه كان يسيء معاملة المسافرين وخاصّة علماء قم وطلّابها، فكان يشكّونه ويتظلمون منه الى علماء طهران، فأراد قادة نهضة الدستور ان يستميلوا علماء قم وطلاب حوزتها واشراكمهم معهم في الثورة عبر إدراج مطلبهم ضمن هذه المطالب.

أخذ السفير العثماني مطالب العلماء التي أصدرها ووافق عليها المئات من المتحصنين بالري وذهب بها الى البلاط وسلمها بيد الشاه، غير ان الشاه -وكعادته -رماها جانباً ولم يعرها أدنى إهتمام. لكن مقاومة المعتصمين في صحن السيّد عبدالعظيم وطول مكوث العلماء بينهم أثار القلق لدى الشاه، لأنه أبلغ بتأزم أوضاع هذا الاعتصام، وبان جماعات جديدة تلتحق كل يوم بالمعتصمين، حتّى انّ الكثير منهم قد جاءوا من مدن بعيدة للاشتراك في هذه النهضة؛ وليقفوا الى جانب المجاهدين، فخاف الشاه من ذلك وفكّر بطريق خلاص، فأشار عليه مشاوروه ومن حوله، بالموافقة على مطالب الثائرين فوراً.

وهذا ما فعله الشاه، بل وأرسل عربته الخاصة الى الرّي لتأتي بالسيّدين المجاهدين ومرافقيهما الى طهران بكلّ حفاوة وتكريم. بل وطلب مشاورو الشاه منه ان يكتب رسالة يعد فيها بتأسيس دار العدل وتطبيق أحكام الإسلام. وبهذا أنهى العلماء، وعلى رأسهم السيّد محمد الطباطبائي والسيّد عبدالله البهبهاني، اعتصامهم وإتجهوا الى طهران، وتبعهم على ذلك من كان معهم.

رسالة الطباطبائي

أمّا العلماء فإنّهم أنتظروا كثيراً بعد رجوعهم الى طهران ان يفى الشاه بوعوده،

ولكن لم يتم ذلك، ولذلك كتب السيد محمد الطباطبائي - بعد مدة - رسالة الى عين الدولة رئيس الوزراء المخالف للحكومة الدستورية في ايران يتجلى من مضمونها ومحتواها طلب استقلال البلاد ومحبة الشعب وعشقهم للحرية، وشموخ الشعب وافتخار الوطن وعمرانه من جملة ما كتب السيد في رسالته:

«اين تلك العهود والمواثيق؟ انكم تعلمون جيداً بدمار هذا الوطن واستئصال هذا الشعب والاطار التي تحيط به، وتعلمون جيداً ان اصلاح كل ذلك لا يمكن إلا بتأسيس المجلس واتحاد الحكومة والشعب، ورجال الدولة والعلماء، والعجب من ان المرض معلوم وطريق علاجه معلوم ثم لا تقدمون على ذلك!!

ان هذه الاصلاحات التي يطالب بها الشعب ستقع عن قريب، لكننا نريدها ان تتم على يد ملكنا ورئيسنا لا على يد الروس والانجليز والعثمانيين. نحن لانريد ان يكتب التاريخ ان الدولة قد انقرضت مع مظفرالدين شاه، وان ايران في عهده قد ذهبت ادراج الرياح. الخطر قريب والوقت ضيق، والآن وقد أشرف هذا المريض على الموت أبحسن تأخير العلاج؟

أقسم بالله وجميع أنبيائه وأوليائه بان ايران ستفنى بادنى تهاون ومهادنة. وإذا كنت قد تعدت الحد أو سأتعداه فاني معذور، لأن ايران وطني، وكل اعتباري بهذا الوطن، خدمتي للاسلام في هذا الوطن، وعزتي مرتبطة تماماً بهذه الدولة.

أني أرى هذه الدولة تسقط بيد الاجانب فتذهب كل شؤوني واعتباراتي! وسأبقى محافظاً على هذه الدولة مادام في عرق ينبض، ونفس يصعد، بل وسأقدم نفسي قرباناً في هذا السبيل إن اقتضى الأمر.

اليوم يجب ان تلقى الاغراض الشخصية جانباً، والتضحية لله وحده، فلما تتم هذه الأعمال باسم فلان وفلان؟

الوقت قصير، والمطلب مهم، ولات حين أوهام وخيال. أتي مستعد ان أتجاوز كل شيء، وأضع شأني واعتباري جانباً، واذا توقف القيام بهذا العمل على ان أكون مرتباً للاخذية في بيتكم، أو أكون بواباً لداركم فاني مستعد لذلك.



أقسم عليكم بالله ورسول الله ان لا تجعلوا أبناء هذا الشعب أسرى بيد الروس والاتجليز والعثمانيين، فأين العهد؟ وأين القرآن؟ لقد كان عهدنا تأسيس المجلس.

لم يبق من عمري إلا اليسير، ولا أحظى بشيء فحظي في هذا العمر هو الإقدام على هذا العمل، ومنتهى أمني هو تحقيق هذا الأمر، فأما ان أبذل نفسي في هذا السبيل، وهو مبعث عفو وافتخار لي ولأبنائي، وإلا فإن هذا الأمر إن لم يتم فسوف تلعننا أجيالنا القادمة كما أننا لم نرض عن آبائنا ولا نمدحهم.

أطلب منكم بتواضع ان تقدموا على هذا الأمر - يعني تأسيس المجلس - فان

لتأخيره ولو ليوم واحد أثراً قاتلاً. لا يمكن الآن إلقاء شر العثمانيين إلا بتأسيس هذا المجلس واتحاد الشعب والحكومة، ورجال الدولة والعلماء. ولا أطيل عليكم أكثر من هذا»^(١).

رسالة أخرى الى مظفر الدين شاه

تعقيباً للهدف السامي الذي كان ينشده العالم المجاهد السيد محمد الطباطبائي، والذي كان يمثل الآمال القلبية للمجاهدين وأبناء الشعب الايراني المسلم الواعي، أرسل السيد الطباطبائي في نفس تلك الفترة رسالة أخرى الى مظفر الدين شاه، وطلب فيها من ملك البلاد ان يقدم على تنفيذ هذا الأمر المهم. وجاء في هذه الرسالة:

«حضرة الملك لما كنت قد أخبرتني بأنني إذا ما دهمني أمر فلي ان أعرضه عليك مباشرة، فأنني أرسل هذه الرسالة، ولما كانت سبيل الوصول اليك مغلقة بوجوه ذوي الحاجات ولا يدعون مطالبهم تصل اليك، فاني أخبرك أيها الملك بان البلاد خربة، والشعب قلق، والحكام وأفراد النظام أحراراً في تعديهم على أموال الرعية وأعراضهم، وظلم الحكام وأعاونهم لا حد له، فهم يأخذون من أموال الشعب ما شاؤوا، ويتبعون ما تحكم به شهواتهم وغضبهم، من الضرب والقتل وقطع الاعضاء، فمن أين حصلوا على كل هذه العمارات والاشخاب والأموال والأملك في مدة قصيرة؟ كل ذلك من أموال الرعية الضعفاء.

في العام الماضي أخذوا الفتيات القوجانيات مقابل ثلاثة أخماس محصول الحنطة يعطينها كضرائب، وباعوا تركمانيي وأرامنة عشق آباد بئمن باهض! فرّ عشرة آلاف قوجاني من الظلم ولجأوا الى الروس. هاجر آلاف الرعايا الايرانيين الى الدول الخارجية فراراً من ظلم الحكام والمأمورين، وهم يشغلون كحمالين، وينذلون شرفهم وماء وجههم، ويموتون بذلٍ وحقارة. لا يمكن تبيان ما يعانیه هذا الشعب من ظلم الظلمة، في هذه الرسالة المختصرة. انهم يخفون كل هذه القضايا

عنكم، ولا يدعونكم تطلعون عليها، وعمّا قريب ستكون هذه الدولة جزءاً من الدول الخارجية، ومن المسلمّ أنّكم لن ترضوا ان يكتب في التاريخ ان ايران قد انتهت في عهدكم، وان الإسلام قد ضعف والمسلمين قد ذلّوا في ظل حكومتكم.

حضرة الملك:

انّ مجلس العدل، أي المجلس المكوّن من جميع طبقات الشعب وأصنافهم، وفيه تجاب طلبات الناس، ويتساوى فيه الملك والشحات، هو القادر على ان يقضي على كل هذه المفاسد، والملك يعلم أكثر من الجميع بفوائد هذا المجلس. اذا وجد مثل هذه المجلس فسترفع هذه الظلامات، وتعمّر الخرائب، ولن يطمع الاجانب في البلد، ولن يستولي الانجليز على سيستان وبلوجستان، ولن يحتل الروس المكان الفلاني، ولن يقوى العثمانيون على التعدي على ايران، ان الخبز واللحم اللذين يشكلان قوة الناس الغالب وبه استمرار الحياة رديئان جداً ومغشوشان، وأغلب الشعب محرومون منهما. لقد أمر حضرة الملك بتحسين هذين القوتين، واستجاب بعض طلاب الخير، لكن وللأسف لم يدع أولئك الذين يأخذون كل يوم مبالغ طائلة من الخبّاز والقصاب ان يتم مطلوب الخيرين ليستريح الناس ويترفهوا. ولا يخفى عليكم حال الجندي الذي يحافظ على الوطن والشعب، ومع هذا فلا يعطونهم حتّى نصيبهم من الرواتب والعطايا والمؤن.

لقد قضينا ثلاثين يوماً كأشدّ ما تكون في زاوية من صحن السيّد عبدالعظيم حتّى صدر الكتاب بخطّ يدكم يعد بتأسيس المجلس المقصود، فشكرنا ذلك وأقيم حفل بهيج استبشاراً بهذا الاقدام، ثم بقينا بانتظار الوفاء بذلك العهد المبارك، فلم نرّ للوفاء أثراً، وإنما يتكلّمون بغير ما نريد ويهتّمون بالهوامش، بل قالوا صريحاً: ان هذا الأمر لا يتمّ، فان تأسيس المجلس ينافي السلطنة، ولم يعلموا ان الحكومة الصحيحة الثابتة إنما تكون بوجود المجلس، فبدون المجلس لا معنى للحكومة، وستكون معرّضة للزوال.

حضرة الملك:

لا تجعل الابناء الذين تولّدوا عن سلالة الملوك أباً عن جدّ أسرى فرد واحد.

المطالب كثيرة، ولا أطيل أكثر من هذا. أرجو ان تطالعوا هذه الرسالة بدقّة، وان تنفضّلوا بطريقة حلّ قبل إنقطاع السبل، لثلا تخرج البلاد من قبضتكم، ولثلا يصبح أفراد الشعب المساكين، الَّذِينَ هم بمثابة أبنائكم، أسرى الأجانب وأذلاء بين أيديهم. أمركم مطاع».

محمد بن صادق الحسيني الطباطبائي

جواب مظفرالدين شاه

بعد ان قرأ مظفرالدين شاه رسالة السيد الطباطبائي أرسل له الجواب وكان بهذا المضمون:

«حضرة السيد محمد المجتهد. قرأنا رسالتكم وأوكلنا تنفيذ مطالبكم الى اتابك وانتم أيضاً لاتقصروا في أداء واجبكم واشتغلوا بالدعاء، وأطفؤوا فتن الأشرار بنصحكم وموعظتكم، وأخدموا الفوضى، وإن لم تفعلوا ذلك فسيعم غضبنا الجميع». الشاه

انّ هذه الرسالة بأسلوبها الجاف وعبارتها المتناثرة، ومحتواها ومضمونها غير المترابط والذي لا يدل على أدنى وجه للربط بين مطالب الرسالة، وعدم الجواب الذي ينبغي ان يجاب به على رسالة الطباطبائي، توحى بان الرسالة لم تصل بيد مظفرالدين شاه، ويحتمل قوياً بما يقرب من اليقين انّ عين الدولة رئيس الوزراء المستبد الشرس هو الذي كتب الجواب فعبر به عن رأي الشاه، خاصّة وان العبارة الاخيرة كانت عبارة تهديد شديد، وأولئك الذين يعرفون أخلاق الشاه العجوز وطباعه اللطيفة، ويعلمون بالذات مدى احترامه للعلماء وائمة الدّين بسبب معتقداته الدينية، كانوا على يقين من أنه لايمكن ان يكتب مثل هذا الجواب.

أما السيد المجاهد، فإنه لم يعبأ بهذا الجواب الجاف غير المترابط والمتضمن للتهديد، ولم يخل الساحة، بل واستمرّ في طريقه الجهادي بتصميم أقوى وارادة أشدّ إستحكاماً، فبعد ذلك لم يكتف السيد محمد الطباطبائي بارسال الرسائل النارية والمثيرة الى الشعب الايراني في أقصى نقاط البلاد يدعو فيها الشعب، وخاصة

الطبقة المحرومة المضطهدة، الى الثورة على الظلم، ويشجعهم على الصمود في مطالبتهم بتأسيس المجلس، بل كان يجمع الناس حوله عدّة مرّات في اليوم، في داره أو خارجها، في المحافل والمجالس، وحتّى في الأزقة والشوارع، ثم يرتقي المنبر ويوضح - ببيانه القاطع وخطابه الملتهب - سبيل النجاة من الظلم والجور والتحرر من قيود الحكام وأزلام النظام وأفراد الحكومة واستعمار الدول الاجنبية، وكان يطلب من الناس الصمود من أجل الوصول الى الهدف وان بُذلت النفوس، وان لا يخافوا الموت والشهادة التي تبعث على الفخر، وان لا يتراجعوا حتّى النفس الأخير.

وفي جميع هذه المجابهات كان السيّد عبدالله - رفيقه القريب والمجاهد الى جانبه في مواضع الجهاد - ملازماً له، فلم يكتفِ باطلاع الناس على مستوى واسع برسائل صديقه ورفيقه الكبير في الجهاد، بل كان هو أيضاً - كالطباطبائي - يخطو خطوات ثابتة في هذا الطريق، وكان يدعو الشعب المحروم كل يوم الى ان يكون أكثر ثباتاً وقدرةً في مطالبته الحقّة بحقوقه المشروعة.

ومع ان المرحوم السيّد عبدالله البههاني كان أصغر من السيّد الطباطبائي بسنوات لكنّه هو الآخر كان طاعناً في السن، مطلعاً على العالم، ذاق مرّ الحياة وحلوها، والأهم من ذلك انه كان أحد مراجع الشيعة الكبار، وقد تصدى لقيادة فئة عظيمة من الشعب المسلم المجاهد في ثورة الدستور، ويُعدّ أحد قادة ثورة الدستور العظماء، الذين ضحّوا بأرواحهم في سبيل الجهاد ضد الظلم والظالمين، والعمل ضدّ الاستبداد وعمّال الاستثمار، والسعي من أجل تثبيت حكومة الدستور.

ترجمة اجمالية

كتب المرحوم العلامة الأميني، العالم والمتتبع الاسلامي العظيم، في كتابه الثمين (شهداء الفضيلة) حول هذا المجاهد الشهيد على طريق الحرّية والانسانية: «السيّد عبدالله البههاني، قائد حركة الدستور، وهو ابن السيّد اسماعيل، ومرجع الشيعة الجليل، والمصلح الكبير، وهو من سلالة أفاخم العوائل وأعرقها،

تلك العائلة التي كان لها صداها الواسع، وباعها الطويل، ومقامها الرفيع في العلم والثقافة، وفي مجال خدمة العالم الاسلامي.

وهذه الشجرة الطيبة أصلها ثابت في (غُرَيْفَة) من قرى البحرين، وفروعها نامية في النجف والبصرة والمحمرة وميناء بوشهر وشيراز وطهران وبهبهان.

ولد المترجم في النجف سنة ١٢٦٢ هـ. ق وبها شبَّ ونما. وأخذ دروسه العالية عن الإمام المجدد الشيرازي وآية الله الكوه كمرى وشيخنا الفقيه راضي، وكان من أعظم علماء طهران، وحاز رتبة عالية من العلوم الشرعية.

كابد في دستورية ايران الكوارث الملمة، ويمم العراق بعد سيادة الاستبداد الصغير بايران، ثم عرج عليها بعد ان كسحت العراقيل دونه، فهبط العاصمة بكل حفاوة من الاهلين، ثم حاول تطبيق القوانين الدستورية بالنواميس الإسلامية المقررة، ورفض ما أُلصق بها من البدع، فبهظ ذلك سماسة الأهواء، حتّى باغتوه باطلاق شواظ البندقية عليه ليلاً في داره في شعبان سنة ١٣٢٨ هـ، وقد نقل جثمانه الى النجف الاشرف ودفن مع والده العلامة في احدي الحجر الشرقية من الصحن المقدس»^(١).

وبذلك فقد أدى هذان العالمان المجاهدان الواعيان دورهم البناء التغييري والتاريخي في إحدى أعظم حوادث تاريخ ايران، وإحدى أكبر الحركات في الشرق، وهي ثورة الدستور، وثبتا بذلك أركان قيام الحكومة الدستورية، ولم يتراجعا أو يتقاعسا حتّى تمّ التوقيع على الحكومة الدستورية.

الشيخ فضل الله النوري

شهيد التغرّب والتجديد

كان لصوته صدىً مدوّ مهيب، مع ان جرح الرصاصة الذي بقي أثره في بدنه منذ سبعة أشهر قد أضعف قواه، ومع ان العدو المغرض والصديق الجاهل قد إتحدا الآن وأتيا به الى حبل المشنقة بجريمة الدفاع عن الإسلام، ومع ان حبل المشنقة يظلل على جسده النحيف - ذي السبعين عاماً - بظلال الموت الذي لا يبعد عنه إلا قدم واحد، مع كل ذلك فان صوته لم يزل على قوته ورهبته.

رفعوا عمامته عن رأسه، فالتفت الى من تجمع حوله من الذين عميت عليهم الأمور والأحاسيس، وكانوا يزغردون فرحاً من دون ان تكون لهم القدرة على تشخيص المسائل وتمييزها، ورفع صوته الجهوري قائلاً:

لقد رفعوا هذه العمامة عن رأسي، وسوف يرفعونها عن رؤوس الجميع^(١).
كان ذلك هو المجاهد الشهيد آية الله الشيخ فضل الله النوري، الذي كان يتحدث بهذا الحديث بكلّ ثبات وصلابة، وكم كان صائباً وواقعياً هذا التنبؤ، إذ لم تمض فترة قصيرة على شهادته حتّى رأى الناس السذج - وهم الأكثرية الذين ظنوا لجهلهم، كما ظن جيش معاوية حين حارب علياً عليه السلام - ان أحد أعداء الشعب الألداء، وأحد المعارضين الاشداء لخلافة الانسان في الأرض قد أزيح من بينهم - ان

١- تكمن أهمية بعض الكتب مثل تاريخ مشروطه، تاريخ بيداري ايرانيان لناظم الإسلام كرماني، تاريخ انقلاب مشروطيت لمهدي ملك زاده و... في اشتغالها على كثير من وثائق و مأخذ ثورة الدستور، مع ما أوردوه من إعتراضات على الشهيد آية الله النوري.

شهادة آية الله النوري كان بداية لمخطط استعماري مشؤوم، ومن بعده بدأ العدو بتصفية المحافظين على دين الله وحراس شريعة رسول الله ﷺ واحداً بعد آخر، وسيستمر حتى يقتلع جذور الإسلام من صدور الشعب، وذلك لأنه وقد رأى من قبل، ولمرات عديدة.

إن القوة الوحيدة التي تستطيع الوقوف أمامه هي القوة النابعة عن الإيمان بالاسلام، فان هذه القوة تخلق سيلاً عرماً من المسلمين، الذين يحملون الأرواح على الأكف؛ فيفسدون بذلك كل خططهم الخبيثة، وآمالهم غير المشروعة، ومن هنا قرّر هذه المرة ان يقف أمام الماء من العين والمنبع ضمن خطة مدروسة.

ان الأعداء الآن يدعون مجابهة الأمة الإسلامية، ويتجهون الى أصل الإسلام وجوهره، فانهم أدركوا جيداً بأنه اذا لم تكن قوة الإسلام المحركة التي تبث الحياة، ولم يكن علماء متصدّون مجاهدون، فسوف لن تكون هناك أمة إسلامية تقف بوجه مخططاتهم الخبيثة ومؤامراتهم المدمرة.

إنّ حادثة شهادة العالم المجاهد الواعي الشهيد آية الله الشيخ فضل الله النوري الأليمة، تعد بحق من أعجب حوادث تاريخ العلماء، في تاريخ الدم والجهاد للشعب الايراني المسلم! وإنّ المرء ليعجب حقاً كيف انّ عالماً تقياً، ورجلاً من المخلصين لله، ورجل دين، قضى عمره في الحفاظ على كيان الإسلام وبيضته. وشخصية كان لها الدور الأكبر في وضع أسس ثورة الدستور في ايران وتقويتها ومنحها الحياة والاستمرار، يصبح بين ليلة وضحاها ألد أعداء هذه الثورة في أذهان الناس، ثمّ يقتل ظلماً لهذا الذنب الذي لم يقترفه؟

إنّ هذه الحادثة العجيبة، والتي هي عبرة في الوقت نفسه، تستحق الوقوف عندها ودراستها من أبعادها المختلفة ضمن هذه السلسلة التحقيقية التاريخية والإسلامية.

بداية الجهاد

ربما لا يصحّ تعيين نقطة بداية لجهاد عالم واعٍ مجاهد، فإن الإسلام دين



الجهاد، فكلّ مسلم يعيش حياته في حالتها الاعتيادية، لا بد ان يسير في خطا
الجهاد ضدّ الظلم والجور، وكل ما هو أرضي دنيوي لا يرتبط بالله وليس على نهج
الله وشريعته، فكيف يمكن لعالم مجاهد مجتهد مفتّ، لم يشكّ أحد من الأعداء
والاصدقاء باعلميته وزهده وتقواه، ووصفه الجميع بأنه أعلم علماء طهران
وأزهدهم، ان يمرّ عليه يوم واحد ولم يحارب فيه الظلم والجور وحكومة لا تحكم
في الأرض بحكم الله؟ لكننا، ومن أجل كتابة ما اخفي في إطار التاريخ، مضطرون
ان نبدأ من وقت أعلن فيه الشهيد آية الله النوري جهاده.

كانت بداية جهاده العلني أبان ثورة الدستور، عندما وقف العالمان المجاهدان

الآخران: آية الله البهبهاني وآية الله الطباطبائي في الصفّ الأول مع الناس، فكما كان الشيخ الثوري من أصلب المجاهدين ضدّ الاستعمار الخارجي في إيران، وكان واسطة لنقل فتوى تحريم التبغ، وما تلاها من مكاتبات التأييد والتأكيد التي كتبها مرجع التقليد الكبير آية الله الميرزا الشيرازي، فقد كان محلّ ثقة زعيم نهضة تحريم التبغ، ومورد إحترام عامّة الناس واطمئنانهم وثقتهم، ووقف هذه المرة أيضاً جنباً إلى جنب مع البهبهاني والطباطبائي في صفّ الجهاد الأول.

وإذا كانت الأُسنة قد وجهت إلى الاستعمار الخارجي في نهضة تحريم التبغ، فإنها وجهت هذه المرّة نحو الاستبداد والاستغلال الداخلي ونحو رأس المستبدين الذي باع نفسه إلى الأجانب، وهو عين الدولة رئيس الوزراء، جبّار ذلك الزمان ورجله الفاسد، فقد هبّ ثلاثة علماء بارزون إلى الجهاد الشامل ضدّ ظلم الحكام وجورهم آنذاك، وأرسل مثلث طهران (البهبهاني والطباطبائي والثوري) رسائل إلى أكبر ثلاث مراجع كانوا مقيمين في النجف في حينها - وهم آية الله الآخوند الملامحمد كاظم والشيخ عبدالله المازندراني والحاج الميرزا حسين الخليلي الطهراني - أطلعوهم فيها على نشاطاتهم وعزمهم على الجهاد، كما أوضحوا هدفهم من ذلك، ألا وهو إقامة الحكومة الإسلامية في قالب الدستور، فما كان من مراجع النجف إلا أن أيّدوا هذا الهدف المقدّس، ونتيجة احساسهم الديني والالهي العميق فانهم أرسلوا آرائهم وفتاواهم، وأنزلوا الناس إلى الساحة لدعم جهاد علماء طهران، وليكون هذا الجهاد باعظم صورة وأقواها، من أجل الوصول إلى ذلك الهدف المقدّس.

عندما كان جهاد الشعب الإيراني المسلم بقيادة علماء طهران وبتأييد ودعم مرجعيّة النجف يتعاظم يوماً بعد يوم، زاد عين الدولة من قسوته وضغطه، واتبع أسلوباً خشناً لم تبدُ منه آية بارقة أمل في اللين أمام أرادة الشعب ومطلبه، ألا وهو قيام حكومة الشريعة المقدسة، وتثبيت أهداف العلماء السامية.

وقد تجاوزت هذه الضغوط والمصاعب الحدّ، وضاق الخناق حتّى أحرق بعلماء طهران المجاهدين، وعلى رأسهم مثلث طهران المعروف، ولذلك رأى العلماء

الثلاثة أنّ من الأفضل ان يخرجوا من إطار دائرة الضغط، فهاجروا جميعاً الى مدينة قم، وقد كانت هذه الهجرة من أهمّ أساليب المواجهة، فقد قلبت كل شيء، إضافة الى الدور المهم والبناء الذي لعبه الخطباء المشهورون والمعتبرون في إنارة أذهان الناس من خلال منابرهم، وفجأة وجدت الدولة الفاسدة الفاجرة نفسها وجهاً لوجه مع أمواج الشعب الغاضبة، فقد أغلق الناس معظم المحلات والأسواق، وشلوا الأعمال الحكومية، كما أربعوا وزلزلوا أركان الحكومة.

ومن جهة أخرى فإن سائر علماء طهران والمدن الأخرى لما سمعوا بهجرة مثلث طهران هبوا للدفاع عن أهدافهم بكلّ قواهم، وجعلوا الناس يسيرون خلفهم متهيئين لكل أنواع إعلان الغضب والاعتراض، بل وحتى التضحية.

صلاة العلماء واستسلام الشاه القاجاري

وكانت الاوضاع تسير الى صالح العلماء والشعب يوماً بعد آخر، وأما من ناحية الحكومة فإنها كانت تسير من سيئ الى اسوأ، ومن مخوف الى أخوف، حتى أنّ مظفرالدين شاه كان يرى علامات الخطر ترفرف فوق رأسه، وكحلّ لهذه الأوضاع المضطربة والفوضى السائدة التي هزت أركان الحكومة، ومفتاح حلّها وتهديتها بيد العلماء المجاهدين والمهاجرين الى قم، ارسل نائب السلطنة الأمير عضدالدولة نائباً عنه الى قم؛ ليطلب - عن لسانه - من العلماء المجاهدين البارزين العودة الى طهران.

غير أنّ الهدف الذي دفع العلماء المجاهدين الى الهجرة - وهو قيام حكومة العدل الإسلامية - لم يكن لينسى من خلال وساطة هذا وذاك، وطلب الشاه ورجائه، كما أنّ العلماء المحاهدين لم يكونوا يطمحون بهذه الهجرة الى التقرب من الشاه ليكونوا قد وصلوا الى مرادهم الآن وليكفوا عن الجهاد، وإنما كان هدفهم التقرب الى الله وإقامة أحكام الله في إطار عدم تخطي أحكام الإسلام أبداً، ولذلك كان جوابهم قصيراً قاطعاً لا يقبل النقاش، فقد أجاب العلماء الثلاثة - المتحدة قلوبهم وهدفهم - بانهم لن يقطعوا هذه الهجرة ولن يكفوا عن الجهاد حتى يتشكل مجلس

الشورى - ولاشك ان مرادهم مجلس الشورى الاسلامي - اذ لم يكن هدف العلماء الحقيقيين إلا تطبيق أحكام الإسلام، ولا شيء سوى ذلك، وما لم تسن القوانين التي توافق الشريعة الإسلامية المقدسة من أجل ادارة أمور الدولة، وتنظيم أمور حياة الشعب، وإقامة احكام الله التي لا تهدف إلا الى توسيع الامكانيات المعيشية للناس في ظل العدل والقانون الإسلامي، فأنهم لن يتركوا ما هم عليه، ولن ينهوا هجرتهم. ولهذا فقد اضطرّ مظفر الدين شاه الى الاستسلام أمام المطالبين المشروعة لعلماء الدين الأفاضل، والتي كانت تعبّر عن آمال الشعب الايراني المسلم المجاهد وطموحاته، ففي الوقت الذي عزل فيه عين الدولة الذي وقف أمام هذه المطالب المشروعة، فإنه وقّع على اقامة الحكومة الدستورية، وتأسيس مجلس شورى؛ ليضع القوانين سنة ١٣٢٤ هـ. ق

ولما لم نكن نهدف الى ذكر أحداث ثورة الدستور، فإنّ بإمكان القراء الأعزّاء الذين يرغبون في مزيد الاطلاع الرجوع الى الكتب التي تناولت قضايا تلك النهضة بالتفصيل^(١) وإنما نعني هنا ببحث المسائل التي جرت في خفايا ثورة الدستور، والاسرار التي أدت الى استشهاد آية الله الشيخ فضل الله التوري:

نظرة الى حياة العالم الشهيد

قبل ان نتناول الأحداث التي جرت خلف الستار ابان نهضة الدستور وكيف أدت الى استشهاد آية الله الشهيد، نرى لزاماً علينا ان نلقى نظرة، ولو عابرة وسريعة على حياة ذلك العالم الربّاني والمجاهد في سبيل الإسلام.

وقد تطرّق العلامة المجاهد الشيخ عبدالحسين الأميني صاحب (الغدير) في اثره النفيس (شهداء الفضيلة) الى حياة الشهيد، التي كانت لوحة من العلم والتقوى والمنفعة فقال: «ابن المولى عباس النورى شهيد الانقلاب الدستوري. كان أبوه من العلماء الأفاضل، وقد رُئي بقصيدة يتخلص ناظمها فيها الى تعزية المترجم وذكر

١- راجع اكثر الكتب التي تتناول تاريخ ثورة الدستور، وخاصة تاريخ مشروطه لأحمد كسروي، وتاريخ انقلاب ايران لادوارد براون الانجليزي.

حاله، العلامة النوري، ومدح أستاذه الإمام المجدد الشيرازي.
وأما الشيخ النوري فهو شيخ الإسلام والمسلمين، وعلم العلم والدين، وأكبر
زعيم روحي في طهران. كان يطفح الفضل من جوانبه، ويتدفق بين كلمه ومجارى
قلمه. كان ابن أخت العلامة النوري وصهره على كريمته. ولد سنة ١٢٥٨ هـ وهاجر
الى النجف الأشرف وهو غض الشيبية، وقرأ على الفقيه الشيخ راضي ردحاً، ثم يعم
سامراء مع خاله المذكور في أول المهاجرين إليها بعد الإمام المجدد الشيرازى سنة
١٢٩٢ هـ وكان معهم المولى فتح علي السلطان آبادي (قدوة العارفين والنموذج
العالي للاخلاق، وصاحب الكرامات والمقامات الرفيعة، من تلاميذ الشيخ
الأنصاري وكان حاضراً أيضاً).

حضر الشيخ فضل الله النورى بحث أستاذه المجدد الشيرازى سنين وكتب
تقرير درسه، وبعد سنة ١٣٠٠ هـ قفل الى طهران، ولم يبرح بها إماماً وقائداً روحياً
وزعيماً دينياً، يعظم شعائر الله، وينشر مآثر دينه، ويرفع أعلام الحق، ويبرز كلمة
الحقيقة، حتى حكمت بواعث العبث والفساد بشنقه بعدما جابه الالحاد والمنكر
زمناً طويلاً، فمضى شهيداً بيد الظلم والعدوان، ضحية الحمية والديانة في ١٣ رجب
سنة ١٣٢٧ هـ ودفن في بلدة قم»^(١).

وفي موضع آخر من الكتاب نطالع: «في سامراء كان من تلامذة الميرزا
الشيرازي العالم المجاهد الشهير المبرز، وورد ايران سنة ١٣٠٠ هـ وأقام في
طهران، وكان منذ الأيام الاولى مورد إهتمام الخاصّ والعامّ وفرض مرجعيته.
كانت انتفاضة وحركته من أجل الله وإعلاء كلمة الإسلام، وكان يعمل طبق
اجتهاده ورأيه، أما الانتهازيون والمساومون والمجارون للحكام، فقد كانوا بعيدين
عن حلبة جهاده، ولذلك نراه أحد أركان ثورة الشعب الايراني المسلم ضدّ الإتفاقيه
الاستعمارية الانجليزية (اتفاقيه رجي)، وكان له الدور الفعال في الحركة الثورية
الشعبية. وكان الميرزا الشيرازي الكبير صاحب فتوى تحريم التبغ يُعنونون أكثر
مراسلاته وفتواه باسمه. وفي ثورة الدستور وانتفاضة العلماء والشعب ضدّ استبداد

الفاجاريين كان من أوائل الذين حركوا دولاب الثورة، ويعدّ من اقطاب الثورة وزعمائها».

وهنا يطرح هذا السؤال: ماذا حدث حتّى يصبح هذا العالم المجاهد الزاهد بين ليلة وضحاها من المناهضين للثورة في أنظار الناس، ثم يعدم باعتباره مخالفاً لمطالب الشعب؟

تأمّر الانجليز لحرف ثورة الدستور

عندما حققت انتفاضة الشعب المسلم بقيادة العلماء الواعين أهدافها، واضطرّ الشاه الى التوقيع على الحكومة الدستورية وتشكيل مجلس شورى، دخل الرعب قلوب المتآمرين الانجليز مرة أخرى، فقد رأوا من قبل قوّة الإسلام وقدرته المحركة في الأمة الإسلامية، وذلك عندما حولت فتوى الميرزا الشيرازي القصيرة والحازمة - في احداث اتّفاقية رجي - الشعب الى كتلة ملتهبة غاضبة، وكما أرخ جميع مؤرخي ثورة الدستور، فان هذه النهضة قد أدت الى ان يركم الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي بكلّ قواه وامكانياته أمام وحدة الشعب والتنظيم الذي أوجده العلماء في ظل راية الإسلام.

والآن يرون مرّة أخرى أنّ العلماء قد تزعموا قيادة الجهاد واستطاعوا - بكلّ سهولة - القضاء على رئيس الوزراء العميل وجبّار الحكومة الجلّاد القاسي، واجبار الشاه وأقطاب حكومته على تنفيذ مطالب الشعب.

ومن أجل ان يحصل المتآمرون الانجليزيون على موطن قدم في صفوف ثورة الشعب الايراني المسلم، وكذلك من أجل توجيه ضربة قاصمة الى وحدة العلماء في ايران، وتضعيف جبهة الإسلام، من خلال إيجاد الفرقة والنفاق بينهم، حتّى لا يبقى هناك سدّ منيع - كتعاليم الإسلام الحيويّة - يقف أمامهم، فإنهم قد أوجدوا ثغرات نفذوا من خلالها الى صفوف الشعب، حيث انهم زجّوا فئة من الذين اشتروا ذممهم وطرحوهم باعتبارهم مثقّفين عادوا لتوهم من البلاد الغربية، وادخلوهم في صفوف الثوّار، وذلك لكي يفرضوا على الشعب من خلال هؤلاء كل

ما يروونه ضرورياً لبقائهم، ويدنونون كل ما يخدمهم ويقدمونه كقانون. وفي قمة الهيجان والحماس الناتج عن الانتصار في الثورة - ذلك الشعور الذي غمر الكثير من الواعين المخلصين لهذا الدين والأمة - فلم يعودوا قادرين - وهم في تلك النشوة - على ان يلتفتوا الى المؤامرات التي يحوكها الاجنبي، واذا كان هذا حال الواعين، فكيف بعامة الناس الذين اسكرتهم نشوة النصر؟ ولاشك انهم سيكونون بعيدين عن الواقع، فيفرون بظواهر الامور، ويجهلون ما يجري خلف الكواليس.

وهذا ما حدث، فقد بدأ الانحراف منذ البداية، فقد وافق مجلس الشورى على قوانين صيغت بالفاظ جميلة تخدم العوام لكنها مستلهمة من الغرب، وتعود في محتواها الى الثقافة الغربية، فبدل ان تسن القوانين الإسلامية الحيوية سنت القوانين الاوربية، ولم يُعر للاسلام وكيانه أدنى اهتمام، بل كانت تشم من تلك القوانين رائحة مخالفته أحيانا، كل ذلك والشعب غافل عن ذلك.

وهنا لم يلتزم العلماء المبرزون جانب الصمت تجاه هذه المسائل، وشمروا عن ساعد الجد والحزم ليبدووا المواجهة مرة أخرى، فطالبوا ان يعين مجلس الشورى لجنة تشرف على مدى مطابقة القوانين المسنونة للأحكام الإسلامية. غير ان هذه اللجنة التي اشترك فيها عدد من نواب المجلس، والعلماء: السيد محمد الطباطبائي والسيد عبدالله البهبهاني والشيخ فضل الله النوري، دونت بعض الأصول المتممة للدستور الحقت به، ولم تنظر في كثير من الموارد فبقيت معلقة، ولذلك لم يستطع الشيخ فضل الله النوري ان يرى الوضع القائم ويظل ساكناً، فقد أدرك جيداً ان المتآمرين الأجانب قد دسوا أيادهم في ايران ليمنعوا اصطباغ القوانين الايرانية بالصيغة الاسلامية، كما أدرك ان هؤلاء المتآمرين قد وفقوا في نفوذهم، واستطاعوا حتماً - وعبر اساليبهم الخفية - ان يجعلوا من المناهضين السابقين ثورين مضاعفين ويدخلوهم الساحة، كما وفقوا لبث الفرقة والنفاق بين رجال الثورة الحقيقيين، بل وحتى بين العلماء الخيرين.

وبذلك، فلم يجد ذلك العالم الجليل سبيلاً للوقوف امام الخطر الذي يحيط

بالدين، إلا أن يعلن اعتراضه ويستمرّ في اعتراضه العلني، ولذلك هاجر الى الري برفقته عدد من علماء طهران و علماء عدّة مدن اخرى، واعتصم في صحن السيّد عبدالعظيم^(١).

الدستور الغربي أم الدستور الشرعي؟

ومن جهة أخرى فلم يقف المتآمرون واعوانهم واذنابهم مكتوفي الأيدي، فقد اشاعوا الاشاعات، واطلقوا التهم المتتالية، ونشروا المقالات المدروسة الدقيقة في الصحف، وأوجدوا جوّاً يساعد على سوء الظنّ بالشيخ فضل الله النوري، وأوحوا بأنّه مخالف للمطالب الحقّة، ومناهض لثورة الشعب الايراني، هذا من جهة. ومن جهةٍ أخرى فإنّهم كانوا يتجاهلون أيّ جواب يجيب به الشيخ فضل الله عن هذه الشائعات والاتهامات، ويتغافلون عن كلّ رأيٍ وعقيدة كان يطرحها ويبينها لئلا يقف الناس - اذا ما نشرت - على مواقفه الحقيقية وافكاره وعقائده الدينية، ومدى حبه للإسلام والشعب.

اللوائح:

ومن هنا - وكما كتب احمدكسروي الذي كان من معارضي الشيخ فضل الله - أقدم الشيخ فضل الله على طبع المنشورات وتوزيعها من محلّ اعتصامه، وكانت تطبع تحت عنوان (لائحة) وينشرها المقربون اليه بين الناس^(٢) وكان الشيخ يبيّن وجهات نظره، ولكن للأسف:

أولاً: لم تكن لوائحه تنتشر على نطاق واسع لضعف الامكانيات في ذلك الزمان.

ثانياً: إن الايادي الاجنبية كان تبعدها عن تناول الناس. وفي احدي هذه البيانات التي بيّنت بوضوح تامّ مواقفه وآراءه الإسلامية،

١ - مجلة (مكتب اسلام) السنة العشرون. مقالة (بعد سبعين سنة ...).

٢ - تقلا عن لوائح المهاجرين الى صحن السيّد عبدالعظيم، والمذكورة في تواريخ نهضة الدستور.

كانت كلماته توحى بأنه لم يكن غير مخالف لثورة الدستور وحسب، بل أنه أحد مؤسسيها وأصلب المدافعين عنها، غاية ما هناك أن الدستور الذي يريده هو الدستور الواقعي الذي يتطابق مع مبادئ الإسلام، لا الدستور الغربي الذي يريد الأجانب ان يملؤه على الشعب.
وقد جاء في هذه اللائحة:

«أيها الناس اني لا أرفض مجلس الشورى الوطني أبداً، بل اعتقد أن لي السبق في وضع أساس هذا المجلس، فإن العلماء الاعاظم المجاورين للعتبات المقدسة وسائر البلدان لم يكونوا مع ثورة الدستور في البداية، وإنما جعلتهم يسايرون الثورة من خلال البراهين والأدلة التي أقمتها لهم، ويمكن ان تتبنتوا من ذلك من السادة الأعاظم انفسهم. اني أقول بصراحة، فاسمعوا قولي وبلغوا الغائبين عنكم، بأني اطمح الى مجلس الشورى الوطني الذي يطمح إليه كافة المسلمين، وانما يطمح المسلمون كافة الى مجلس يقوم على أسس الإسلام، ولا يسنّ فيه قانون يخالف القرآن والشريعة المحمّدية ويخالف المذهب الجعفري المقدّس. اني أريد هكذا مجلس، وأنا وجميع المسلمين متفقون على هذا الرأي، وانما الخلاف بيننا وبين العلمانيين الذين ينكرون الإسلام ويعادون الدين الحنيف، سواء الباطنيون أم الطبيعيون الغربيون.

لقد وقف هؤلاء في الصف المقابل لي ولكافة المسلمين، وهم يسعون ليل نهار الى ان يجعلوا هذه الفقرة مبهمة لدى المسلمين، ولا يدعون الشعب يلتفت الى آتي واياهم على عقيدة واحدة ولا خلاف بيننا.

ألا ترون يا اخوتي في الدين - بأمر اعينكم - أنه منذ انعقاد هذه المجلس قد برز كل من في طهران من طلاب الحرية اللامشروعة والطبيعيين والباطنيين من خلف الستار واجتمعوا على القيام بكل أمر مشين؟

أخبروني ما هي العلاقة والقرابة بين هذا الصنف من الشعب وبين هذا المجلس المنعقد في بهارستان؟ لا رضي الله تعالى عن من يريد لمجلس الشورى الوطني غير التصحيح والتكميل والتنقيح، وغضب الله على من ينشر مطلبي هذا

على خلاف حقيقته، ويوهم الأمر على المسلمين، ويسدّ طريق رفع الشبهة؛ لئلا تصل كلماتنا الى أسماع المسلمين، وليلقنوا الناس بأنّ فلانا وسائر المهاجرين أصبحوا يرفضون أساساً مجلس الشوري الوطني^(١).

الثبات أمام اللادينيين

بالرغم من ان اللائحة التي ذكرناها تبين بحدّ ذاتها آراء الشهيد النوري بحيث لا تحتاج معها الى مزيد تفصيل وتحليل، وهي توضح بجلاء بانه لم يخالف نهضة الدستور بأيّ وجه من الوجوه، بل كان من أشدّ المتحمّسين لها وأصلب المدافعين عنها، فأتنا نرى من اللازم ان تُبحث هذه النقطة بوضوح، وهي ماذا حدث في المجلس على يد الأعداء الواعين والاصدقاء الجهلة، إضافة الى مؤامرات الانجليز حتّى أثار غضب هذا العالم الربّاني وجعله يستمر في جهاده، لا ضدّ الدستور، وانما ضدّ ما كان يطرح باسم الدستور من أجل توجيه ضربة قاصمة للإسلام؟ من الافضل ان نطلع على تلك المسائل من خلال قلمه ولسانه:

«اخوتي أهالي طهران ومسلمي تلك الديار: أقسم عليكم بالله ان تمنعوا النظر في هذا البيان القاصر، وانظروا فيه، فان كان فيه علامة حقّ فصّدقوها. فجأة بلغ عدد الصحف اكثر من ثمانين، وهناك الاعلانات الليلية والاعلانات التي تنشر من هنا وهناك، وكلّها سخيقة المحتوى، وتضمّ بين اسطرها أنواع الكفر ومختلف السخافات. قبل ثلاث سنوات كانت صحيفة (الحبل المتين) في كلكتا قد كتبت: ان أجيال الناس قد اعتادت على زيارة خامس آل العباء، ويأتون بقبضة تراب يسمّونه «التربة»، ويصرفون الأموال في سبيل الحج، وعض ذلك يأتون يقليل من الماء المالح والمرّ يسمّى «ماء زمزم».

وكتبوا في العدد ١٤٣ من صحيفة (المجلس) ان دين النبي أصبح قديما، وان النبي وعلياً ما هما إلا كطالبيين سياسيين لدى علماء أوروبا وعلماء السياسة في هذا الزمان، وقالوا: لن نصغي بعد الآن الى هذه الأقاويل القديمة.

وفي صحيفة (صور اسرافيل) وصفوا دين النبي بأنه ألوية وسخرية.
وفي صحيفة (الكوكب الدرّي) وصفوا آباءهم وأجدادهم بانهم كانوا حمقى
في عقائدهم واعمالهم السابقة.

وفي العدد ١٣ من صحيفة (عراق، عجم) «صحيفة اراك» جعلوا مجلس
الشورى يتلو الكعبة والبيت العتيق في الشرف، بل وجعلوه اشرف منهما في بعض
اشاراتهم.

وفي احدى الاعلانات الليلية قالوا: ان صاحب الزّمان (عجل الله فرجه)
وهم.

وفي صحيفة (نداء الوطن) عدو بيوت الدعارة وبيع الخمر امورا لازمة من
أجل تأمين مصاريف البلدية وتعمير البيوت.

وفي صحيفة (تنبيه) رسموا علماء المذهب الجعفري على هيئة حيوانات.
كما رسمت في صحيفة (زشت وزيا) صورة النبي صلّى الله عليه وآله ومحمد علي شاه
على صفحتين، وقيل فيها: انّ النبي مقتن السياسة في الجزيرة العربية.

الويل لكم أيها المسلمون اذا اعتبرتم قراءة هذه الصحف أساس رقيكم وسعة
ادراككم، وانفقتم نفقة نسائكم وابنائكم في شرائها لتسوقكم الى ان تتبرأوا من
المسلمين وعلماء الدين، حتّى كأنكم لم تكونوا وآياهم على دين واحد، وأنهمتم
هؤلاء العلماء الذين هم الحجّة عليكم بعد الغيبة الكبرى، بألف عيب وبأخذهم
الدراهم والدنانير، واطلقتم عليهم انهم يعارضون المجلس. مع ان هذا المجلس
يشوه بعض افراده سمعة الاخرين، واذا ما اجتمع هذا البعض في دار أحدهم ليلاً
فانهم يقضون ليلهم في شرب الخمر والارتماء في احضان الغايات، وقد أصبح
ظلمهم اضعاف ما كان عليه أيام الأستبداد. واتخذوا المجلس ذريعة لعقائدهم
الفاسدة وافعالهم الشنيعة.

يا ابناء الإسلام! ألم يقل نبيكم: «انّ من أهان عالماً فقد أهانني، ومن أهانني
فقد أهان الله؟! وانّ الرّد على العالم ردّ على الله و...»؟ فلماذا تنشرون بين عوام
النّاس انّ صوت الحق الذي يطلقه العلماء هو باطل؟ ولماذا تخفون ايها الشياطين

الجاثمة على صدور الشعوب دائماً رسائل العلماء وبرقيات السادة وحجج الإسلام في النجف الاشرف، أو تنشرونها بعد تحريفها، وتخطؤون في أعمالكم دائماً؟
دعوا عامة الناس يتحدثون فيما بينهم، وينظّمون هذا المجلس على اساس القانون المحمّدي. والسلام على من إتبع الهدى».

التنبؤ بالحوادث المشؤومة

أجل، انّ الوقوف على الوثائق التي سجّلت في التاريخ، والتي لم يستطع حتى أعداء الإسلام انكارها أو تجاهلها يوضح بجلاء مدى ثبات الشيخ فضل الله النوري وتضحيته في سبيل عقائده الإسلامية، حتى أنه لم يتردّد في بذل نفسه في هذا السبيل لئلا يصل الى كيان الإسلام مكروه.

لقد كان ينظر الى المستقبل بكل وضوح، وحدّد بوضوح تامّ ان هذا الكيان -الذي بدأ باسم الحرية والدستور، وقام اساسه على الاستلهاً من القوى الامبريالية - ليزلزل أركان الإسلام، وعند ذلك سيصل الى اهدافه من دون أيّ رادع أو مانع، سوف يصل عن قريب الى مرحلة تُنسى فيها أحكام الإسلام في دولة ايران الإسلامية، التي افتخرت لسنين متطاولة وقرون متتالية بأنها تتبع مذهب التشيع، مذهب أهل البيت عليهم السلام، بل ولا يبقى من يتحدّث عن هذه الأحكام أو يطالب بتنفيذها.

ومن أجل مزيد الاطلاع على قوّة هذه النظرة المستقبلية والتنبؤ بالحوادث المشؤومة، التي تحاول اقتلاع جذور الإسلام تحت ستار الدستور والتحرر لدى الحاج الشيخ النوري، فأتنا مضطرون الى إلقاء نظرة على جوانب من لائحة أخرى من لوائحه التي تبدأ بهذه العبارة:

«انّ بيان مقاصد حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ فضل الله - سلمه الله - وباقي المهاجرين الى الزاوية المقدّسة - أي صحن السيّد عبدالعظيم - من العلماء العظام وغيرهم هو : لقد ورد في كتاب السلطان - والمراد منه القرار الصادر بتوقيع مظفرالدين شاه بعد جهاد الشعب المتواصل بقيادة العلماء المجاهدين آنذاك، ومنهم

الطباطبائي والبهباني والشيخ فضل الله النوري، في سبيل إحقاق حق الحرية، وعرف في التاريخ بقرار الدستور - اصدرا قرار تأسيس مجلس الشورى الوطني الاسلامي. لكن لم تمض فترة وجيزة حتى زال لفظ (الاسلامي) خلال الحوادث التي حدثت بعد ذلك.

لقد رأينا بأمّ اعيننا، ولا تزال نرى، أنّ مجموعة من المتحلّلين الذين لادين لهم ولا يهتمون بشيء، والذين كانوا معروفين من قبل بانهم بآييون، وجماعة من المنكرين للشريعة والمؤمنين بالطبيعة، قد اجتمعوا منذ افتتاح هذا المجلس ووضعوا يداً بيد، فرموا الصدور بالحجارة، وشنّوا الحرب ضدّ عباد الله.

كما ظهرت صحف ومنشورات ليلية ينصبّ أكثرها على سبّ العلماء الاعلام والطنن في أحكام الإسلام، ويصرّحون فيها بأنه يجب التصرف في هذه الشريعة وتغيير بعض فروعها نحو الأحسن والأفضل، فان هذه القوانين التي سنّت قبل الف وثلاثمائة سنة يجب ان تغيّر الى ما يتناسب مع أوضاع العصر ومتطلّباته، كإباحة المسكرات، ونشر دور الدعارة، وافتتاح مدارس لتربية النساء، ومدارس ابتدائية للفتيات.

وقد استخدموا أوراق القرآن المجيد في صناعة (مقوى) ادوات القمار، وثاروا الصفحات التي فيها اسم الجلالة والآيات السماوية في ساحة مجلس الشورى الوطني.

وانّ جميع شعوب الأرض يجب ان تتساوى في الحقوق، وان تكون دماء الدمي والمسلم متكافئة، ويختلطوا فيما بينهم فيزوّج بعضهم بعضاً، ويتزوّج بعضهم من بعض^(١).

اني أسألكم عن طهران فقط، فمنذ ان أُشيع اسم الحرّية في هذه المدينة كم

١ - ينبغي ان نلتفت الى ان انصار الديمقراطية الاوربية والامريكية قد خطوا فيما بعد خطوة أوسع عندما جعلوا دم المسلم انفه شيء في قوانين الدولة الرسمية، بحيث ان ذمياً لو أراق دم مسلم فليس من حقّ الاجهزة القضائية في الدولة الإسلامية ان تحاكمه، وأنما يرسل القاتل الى دولته ليحاكم وفق قوانينها، فأضاعوا بذلك حرمة دم المسلم. انظر القوانين المتعلقة بالكابيتولاسيون الذي كان سبب الثورة الإسلامية الإيرانية بامامة الإمام الخميني (رض).

ضعفت عقائد الناس؟ والى أيّة درجة بلغ التحلّل وعدم الخوف من شيء؟ لقد ظهرت في ايران فرقتان منذ سنوات، وهما منهنمكتان كالشيطان في تضليل وخداع العوام وهم من الانعام: احدهما: فرقة البايّية، والتي تفرّعت منها فرقة البهائيّة الضالّة، وقد استلمت السلطة من قبل، والأخرى: طائفة الطبيعيين. ولسوء الحظّ فقد استولت هاتان الطائفتان على جلسات مجلس شورانا الوطني -نحن المسلمين- يسعون بكلّ جدّية الى عدم صيرورة مجلس الشورى الوطني الايراني اسلامياً، ويريدون ان يجعلوا مجلس الشورى الوطني كبرلمان باريس. وقد اصبح حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ فضل الله النوري -أيده الله- غرضاً لظلم هؤلاء الجهلة، فقد تنبّه لهاتين الطائفتين السارقتين، وقد وقف بكلّ صلابه من أجل تطهير مجلس الشورى الوطني من هاتين الفرقتين الفاسدتين، وسوف لن يقصر -بعون الله- في أداء واجبه، ولن يبخل بماله ونفسه في هذا السبيل».

تهمة الإتفاق مع البلاط:

ونرى من المناسب ان نشير هنا الى نكتة، وهي ان جماعة كانوا مكلفين -سواء في أوج نشاط ذلك العالم الشهيد وجهاده ضدّ القوانين المنافية للإسلام والأعمال الشنيعة لباعة الضمير الخونة وعملاء الاجانب، أم بعد استشهاده- بتصوير جهاداته ونشاطاته بانها تخالف الشريعة المقدسة، وتشويه سمعته، وإثارة سوء الظنّ به في اذهان اكثر السذج، الذين يصدقون ما يسمعونه بسرعة، حتّى انهم كانوا يلقنّونهم بأنّه قد تحالف وتعاهد مع محمد علي شاه القاجاري، وانه كان ينوي دعم دكتاتورية محمد علي شاه تحت غطاء الدفاع عن احكام الدين والشريعة، وكان على يقين من أنه سينتصر في هذا المضمار ويقضي على طلب الحرية وأنصارها، وبعد ان يترعّ محمد علي شاه على عرش الحكم المطلق ويحكم بحكمه الاستبدادي فانه سيكافؤه مكافأة عظيمة.

لاشكّ ان قصد اولئك الذين كانوا يبتّون هذه الإشاعات الكاذبة، هو أنّهم

ارادوا الايحاء الى الناس بانّ الشيخ فضل الله النوري قد سلك هذا السبيل وهو على يقين من انتصاره، ولم يكن يتصوّر أبداً أن مساعيه سوف لا تثمر، وان مجلس الشورى الوطني لبلد اسلامي سيسير في طريق مهّد له أعداء الإسلام، و ارادوه أن يسير فيه.

وحتى لو كان قد تصوّر الهزيمة في هذه المسألة فانه لم يكن يتصوّر انّ أنصار الديمقراطية سيقدمون بعد انتصارهم على مناهضة انصار الشريعة، بل وسيعدمون زعيم انصار الشريعة، وإلا فانه لم يكن يخطو خطوة في هذا الطريق الذي ضعف فيه احتمال النصر، بل ويحتمل فيه الموت.

نعم، كانت هذه هي الايحاءات والاعلام الموجّه ضدّ الشهيد، سواء كان في حياته أم بعد استشهاده، أمّا اليوم وقد مرّ على تلك الفاجعة أكثر من مائة عاماً، فان المحقّقين الواعين وذوي البصيرة من المؤرّخين، بل وكل من كان عنده القليل من الانصاف، ويسعى الى معرفة الحقيقة من خلال الرجوع الى الوثائق التاريخية، يدرك من مضامين هذه اللائحة انّ ما كان في أعماق ذلك الشهيد وعقائده تغاير تماماً هذه الايحاءات والافتراءات الاعلامية.

فقد جاء في هذه اللائحة بوضوح: «انّ الحاج الشيخ فضل الله النوري - كما هو حقاً - قد وقف بكل صلابة من أجل تطهير مجلس الشورى الوطني من هاتين الفرقتين الفاسدتين، وسوف لن يبخل بماله ونفسه في هذا السبيل».

وهذا يوضح بانه لم يكن غير مرتبط باجهزة حكومة محمد علي شاه الجوفاء وحسب، بل انه سار عالماً متمعداً في طريق يلوح فيه الخطر والموت بوضوح، ومع ذلك فانه كان يعلن من دون أيّ تردد أو رهبة بانه قد وضع روحه على كفه للتضحية بها في سبيل الدفاع عن كيان الإسلام واحكام الشريعة المقدسة، وانه لن يهرب الموت من أجل الايمان والعقيدة، وكانت هذه - ولا تزال - هي السيرة السنيّة والأسلوب المتعارف بين شهداء طريق الله والايمان والمضحيين في سبيل الله. كما كرّر مرارا في طيّات البيانات التي كان يصدرها وهو معتصم في قم وناحية السيّد عبدالعظيم: أنا الشيخ المتضرّع المشرف على الرحيل لا أريد الحياة

أكثر من هذا، فقد رأيت في هذه الدنيا ما يجب ان أراه، لكنني ما دمت حيّاً فلن أقصر في نصرة الإسلام والالتزام به، وقد هيأت نصف روحي المتبقية للتضحية بها من أجل الإسلام. ان الدستور الذي يطبخ في سفارة بريطانيا لن ينفعنا نحن الايرانيين»^(١).

القربان المقدم للإسلام

وأخيراً حدث ما تهيأ له، وضحي بنفسه في سبيل الدفاع عن الإسلام، فقد كان يقول ويصرّ على ذلك: «إذا ما ترك نواب مجلس الشورى الوطني المحترمون -الذين يدعون الإسلام والتدين ومعرفة الله ممانعتهم وعدم موافقتهم على هذه الفقرات الأربعة^(٢) وقبلوها، فسوف لن يقف بوجههم أحد من علماء الإسلام وفئات المسلمين، بل سيكون حقيقة مجلس الشورى الوطني الاسلامي الأكبر، وسيقرن بكلمة (المقدّس) وبجملته الدعاء (شيّد الله اركانه).

وأخيراً، فقد استمرّ هذا الاصرار والضغط حتّى جلب اليه أنظار عامّة الناس وأفكارهم، واضطرّ أعداء الإسلام الذين كانوا يسعون الى ضعضة أركان الإسلام وأحكامه تحت غطاء المطالبة بالحريّة والديمقراطية، ولو من أجل حفظ ظاهرهم، الى الأصغاء الى مطالب المعتصمين، واستناداً الى ذلك فقد وافقوا على الأصل الثاني المتمّم للدستور - وكان أساسه يستند الى عقيدة الشيخ فضل الله النوري ووجهة نظره، أما نصّه فكان نفس ما كتبه الشيخ - مع تغيير بسيط في اللفظ والعبارة،

١- مكتب اسلام. السنة العشرون - مقالة بعد سبعين سنة.

٢- الفقرات الأربعة التي يقصدها هي:

أ: ان تذكر لفظة الشرعي بعد لفظ الدستور. ب: ان يشرف خمسة علماء من الطبقة الأولى على كَيْفِيَّة تدوين القوانين والموافقة عليها ومدى مطابقتها للأحكام الاسلاميّة، في جميع أدوار المجلس ومراحلها. ج: تعيين الحدود وتنفيذ احكام الشريعة بحق البائسين والبهاثيين وسائر اللادينيين وأعداء الإسلام.

د: تعديل قانون المطبوعات، حيث أنه لم يمنع بصيغته الأولى من نشر كتب الضلال والكتب التي تسيء الى الشريعة المقدّسة والانبياء والأئمّة.

وقد تقرر ان يستمر إشراف خمسة علماء من الطبقة الأولى على عدم سنّ قوانين تخالف أحكام الشريعة حتى ظهور صاحب الزمان (عجل الله فرجه).



الإحقاد الدفينة

غير ان هذا الانتصار البسيط الذي حققه الشيخ فضل الله النوري في وصوله الى مطالبه الإسلامية الحقّة أثار الحقد عليه في قلوب المخالفين والمعاندين للحق،الذين بدأوا بعد فتح طهران على يد أنصار الدستور وعزل محمد علي شاه عن الحكم بقمع كل من لم يوافقهم على فكرهم ولم يلتزم بعقيدتهم، ولا يخفى انّ الشهيد الشيخ فضل الله النوري كان في مقدّمة الذين نالهم هذا القمع والتصفية.

وبعد ان أصابوه بعيار ناري قبل سبعة أشهر من إعدامه اقتادوه ساعة شهادته الى خشبة الاعدام، وذلك لأنه استطاع ان يكتشف الألاعيب السياسية الخفية للاستعمار، والتي كانت تجري خلف الكواليس، وان يحسّ بالأيدي الخبيثة التي كانت تعمل من وراء نهضة العلماء المقدسة، وكيف أصبح أعداء الثورة ثوريين، بل وتسمّوا مناصب حساسة جداً، وهم قد غيروا وبغيتروا، سيرة الثورة وفق خطةٍ مدروسة.

لقد أحاط الشهيد علماً بالحركة المناهضة للإسلام والثورة، وكان قد عرف جيّداً من هم الذين جلسوا على مائدة شهداء الثورة وأبناء الإسلام والتشيع، وهم الآن مشغولون بالسلب والنهب. لقد وجد انّ هذه القضايا تصدر من سفارات الدول الاستعمارية.

لهذا استغلّ اعداء الإسلام - الذين كانوا يعتبرون وجوده خطراً حقيقياً يهدّدهم - عاصفة المشاعر، وأثاروا لدى عوام الناس الغضب والحقد عليه، وخنقوا صوته، فبعد محاكمة صوريّة أعدموا آية الله المجاهد الشيخ فضل الله النوري بمحضر جمع كثير من الناس، وذلك قبل غروب يوم ولادة الامام علي عليه السلام الثالث عشر من رجب سنة ١٣٢٧ هـ.

نعم، لقد قتلوا عليّ زمانه، وابن التشيع الدامي في يوم ولادة عليّ، وباسم عليّ^(١) وحملوا جنازته الى سنكلج في بادئ الأمر ودفنوه سرّاً، وبعد مدّة نقل الى قم ودفن في صحن السيّدة المعصومة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

بعد تسعين عاماً

ربما فرح في ذلك اليوم كثير من الشعب المسلم - تأثراً بالإعلام المسموم - لأنّ شخصاً رجعيّاً عالماً دجّالاً، أو مناوئاً للثورة قد اعدم، ولكن لم تمض فترة وجيزة هدأت فيها ثورة المشاعر العارمة، وسكن فيها طوفان الاحاسيس، حتّى

١- كان رئيس شرطة طهران انذاك يفرم خان الارمني، وقد اعدم آية الله الشهيد بأمره. راجع تواريخ ثورة الدستور.

علموا أيّ خطأ قد ارتكبوا، وماذا الذي حدث، وأي شخصيّة عظيمة قد فقدوا؟
ومرّة أخرى يغلق سجل حافل بالمنافع والجهاد لعالم واع، مجاهد آخر سبح
في دمانه في سبيل الأهداف الإسلامية المقدسة، وقدمت سلالة التقوى والإيمان
ولداً باراً آخر في سبيل إعلاء كلمة الإسلام العزيز لينظر تاريخ المستقبل بعين أكثر
بصيرة عندما يعقد ماتمه، ولينظر الى الحقائق بافق أوسع.

آخر اعتراف

لقد كان المرحوم جلال آل أحمد الذي ذاق مرارة الغرب والتغرّب بنفسه،
وأوضحه في كتابه (التغرّب) أوّل من قدم اعترافه الى وجدان المجتمع الاسلامي من
الكتاب المثقّفين، وقد جعل هذه الكلمات ختام مسك لكتابه، فهو يقول:
«كان العلماء آخر قلاع المقاومة بوجه الثقافة الغربيّة، فمنذ حركة الدستور
قبعوا في الزوايا أمام هجوم الماكنة والصناعة الغربية، واغلقوا نوافذهم ليبتعدوا عن
العالم الخارجي، وحاكوا حولهم أنسجة لا يخرجون منها إلاّ يوم القيامة، فقد
ترجعوا شيئاً فشيئاً، وما صعود الزعيم الديني المؤيّد للدستور الشرعي الى خشبة
الاعلام إلاّ دليل على هذا التراجع.

وأنا اوافق الدكتور تندركيا على رأيه حيث يقول: «ان الشهيد الشيخ النوري
لم يعدم باعتباره معارضاً للدستور، فانه كان من المدافعين عنه في البدء، وانما أعدم
باعتباره يدافع عن الدستور الشرعي»^(١) وأضيف بأنه كان مدافعاً عن كلية التشيع
الاسلامي، وقد جلس الجميع ينتظرون الفتوى التي سيصدرها النجف حول مقتل
هذا الشهيد، وذلك في الوقت الذي كان يتزعم ملكم خان المسيحي وطالب اوف
القفقازي جماعة المثقّفين! وعلى أيّة حال فمنذ ذلك اليوم - يوم استشهاد النوري -
كُويت جباهنا، وأنّي أرى جسد ذلك العالم الجليل وهو يتمايل على خشبة الاعدام،
كالراية المرفرفة في سماء هذه البلاد؛ لتدلّ على استيلاء التغرّب بعد مائتي عام من

الكر والفر»^(١).

نعم هكذا كانت قصة شهيد كانت ضحية لعلماء الغرب والمغتربين
وديمقراطيي الشعب المتآمرين.

١ - غرب زدگی. طبعة شهر مهر سنة ١٣٤٠ هـ. ش ص ٣٦ وقد انزل هذا اللواء المتهرئ ببركة الثورة الإسلامية في إيران. المؤلف.

الميرزا الثاني

بطل الجهاد ضد الاستعمار

في تاريخ كفاح العلماء الواعين والحركات الإسلامية في القرن الاخير، نواجه اسم (الميرزا الشيرازي) مرّتين في فترتين زماميتين متقاربتين: ففي المرّة الأولى: نواجه اسم الميرزا الشيرازي العالم المجاهد والمرجع الكبير الذي ذاع صيته في الآفاق، والذي أقام دعائم الجهاد ضد الاستعمار الخارجي، وأسس الثورات المناهضة للاستبداد الداخلي، في أوج قوة الجبار ناصرالدين شاه وحكومة القاجاريين المستبدة المصّاصة للدماء، وذلك عبر فتواه الشهيرة القاضية بتحريم التبغ ووقوع حادثة (رجى).

وفي المرّة الثانية: نواجه اسم الميرزا محمد تقي الشيرازي الشهير بالميرزا الثاني، والذي لم يخلد - في مسير جهاده الطويل ضد الاستعمار والاستبداد الداخلي، وجهاده الواسع المتتالي ضد الاستعمار الانجليزي - في تاريخ وطننا وحسب، بل خلّد ذكره حتّى في تاريخ أوروبا، وبالذات في تاريخ بريطانيا.

صورة اجمالية

كان الميرزا محمد تقي الشيرازي من مشاهير طلبة الميرزا الشيرازي الأوّل، ومن البارزين لديه، والمستلهمين دروس الجهاد التي التزمها استاذة، وقد نشأ في الحوزة العلميّة في سامراء.

وقد بدأ نضجه السياسي والاجتماعي قبل سنة ١٣٠٠ هـ منذ ان كان العراق

يعتبر أحد مستعمرات بريطانيا العظمى، التي بسطت نفوذها آنذاك على آفاق الشرق وخاصة البلدان الإسلامية. كان العراق ونظراً لطبيعته وموقعه الجغرافي الخاص، محط أنظار الأجانب ومطامعهم دائماً، وخاصة القوى الاستعمارية العظمى والدول الإستعمارية العالميّة، وكانوا ينظرون نظرة سوء وخيانة الى هذا البلد الغنيّ، ذي المناخ الملائم.

ومن جهة أخرى فقد كان العراق، وبسبب مكانته الدينيّة والثقافية الخاصّة، مورد اهتمام المجاميع العلميّة والروحيّة في العالم الاسلامي، ويعتبر مهد الحضارات السابقة، ومركز العلاقات الثقافيّة والعلميّة في العالم الاسلامي، ولهذا كان مركز الخلافة الإسلاميّة لقرون طويلة.

انّ كلاً من وجود الجامعة النظامية ببغداد، ومركزية الحوزة العلمية في النجف، ووجود أكثر مرآد أئمة الإسلام الحقيقيين عليه السلام، يعدّ بحدّ ذاته عامل عطاء للمقاتلين والمجاهدين في سبيل الحرّيّة، والحقّ انّ كلاً منها عامل مهم في جذب قلوب العشاق نحو هذا البلد، حتّى انّ أغلب الايرانيين - اليوم - يعرفون مدن هذا البلد جيّداً، وربما حتّى أحياءه وأزقّته، ويعتقدون انّ لهم دوراً ورأياً في مصير ذلك البلد، ويشتركون فيه كمصير بلدهم، كما يعتبرون طرد الإستعمار من المنطقة واجباً وفريضة عليهم كما طردوه من ديارهم.

مكانة النجف

تمتّع مدن النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء بمكانة معنويّة خاصّة من بين مدن العراق، ولا تفتقد هذه المكانة سائر مدن العالم وحسب، بل تفتقدها حتّى بقية مدن العراق الاخرى. ومن بين هذه المدن الاربعة يمتاز النجف بمكانته الدينيّة والسياسية والاجتماعية الخاصّة، والتي جعلت النجف اسمى المدن واهمها واكثرها قدسيّة.

انّ النجف ذا التاريخ الروحي والثقافي الذي يمتدّ الى ألف سنة، والذي كان مهد التربية للميرزا الثاني، ودار للتربية الفكرية والنضوج الذهني للكثير من اعظم



العالم الاسلامي ورجال الشوق، لا يزال اليوم معقلاً لتربية الرجال الاحرار والمجاهدين في سبيل انقاذ البشر من قيود الاستعمار والاستبداد. اولئك الرجال الذين وقفوا جيلاً بعد جيل، ومنذ مئات السنين، بوجه الظلم والجور، ولم يستسلموا أبداً في مقابل الضغط والإرهاب، ولم يضعفوا ولم يستكينوا، وغالباً ما حملوا بأنفسهم راية الثورة والاستقلال.

وفي هذه الاثناء أحدثت الحركات السياسية والثورية الضخمة، التي بدأت من النجف الأشرف وقعاً خاصاً في التاريخ السياسي الشرقي والدول الاسلاميّة، ويمكن ان نسمّيها بالحركة السياسية العراقية.

وحول هذا الموضوع كتب مؤلف كتاب (ثورة النجف): «لقد واجه النجف الاشراف في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حركة سياسيّة وطبيّة، وكان هدفه من هذه المواجهة والصراع انقاذ الإسلام من طرق الضلال والانحراف التي خطّط لها الاستعمار، وكذلك انقاذ الشعوب الإسلاميّة من نير الاستعمار، والاستغلال المدمر، والفقر المدقع، والجهل المطبق، والامراض المتفشية في كل مكان.

وكانت مكانة النجف الخاصة من العظمة بحيث تنعكس فيها آثار الأحداث، وأخبار الثورات والتحوّلات السياسيّة المهمّة في ايران والعراق، وتمخض عن هذا الانعكاس نتائج وآثار مختلفة.

كما كانت الفتاوى والبرقيات الشديدة اللهجة التي كانت تنهمر على القادة والقوى المتسلّطة آنذاك في تركيّة وايران، من النجف الاشراف تعبّر عن مكانة النجف وقوّته في التأثير في أفكار الناس والرأي العام.

لهذه العوامل جميعاً اضطرّ مرجع المسلمين الى ان يكون مرجعاً يطالب بالحرّيّة ويحمي حمى القانون ويدافع عنه، وان يكون مرجعاً يقتلع جذور الإستعمار والإستغلال والإستبداد من ايران والعراق، ويقضي عليه في المنطقة.

واضافة الى ايران والبلدان المجاورة، فإنّ سبعين في المائة من الشعب العراقي نفسه لا يقدمون على القيام بأيّ حركة ثوريّة، ما لم يحصلوا على اذن شرعي من المراجع المقيمين في النّجف، سواء كان هذا الإذن سرّياً أو علنيّاً، وخاصّة في أمر الجهاد ضدّ من يعادي الإسلام والمسلمين، فإنهم لن يتحركوا إلاّ بأمر النجف لاغير.

وعلى مدى سنين طوال، كان النجف مركزاً لتجمّع المفكرين الأحرار والمناصرين للحرّيّة، والسياسيين والثوريين من رجال العراق وايران وتركيا وبقية الأقطار الإسلاميّة.

الاحتلال الأجنبي

بعد هذه المقدمة ينبغي ان نقول: إنّ النجف الذي كان يبرز تحت نير احتلال القوات الاجنبية في الحرب العالمية الأولى، أصبح مقراً للتشاور وتبادل الآراء بين الزعماء العلماء ورؤساء العشائر المسلّحة، ومركزاً لتشكيل اللجان السياسيّة والإجتماعية، في سبيل الدفاع عن وجوده وحيثيته، وكانت ثمرة ذلك الجهد المتواصل ان انبثقت ثورة العشرين سنة (١٩٢٠م - ١٣٣٧هـ) بقيادة المجاهد الكبير الواعي، ومرجع الدّين المقاتل، المرحوم الميرزا محمد تقي الشيرازي أو الميرزا الثاني.

لقد اتخذ الميرزا الثاني موقعه الحقيقي بكلّ صلابة وإيمان، وبكامل الشجاعة الدينيّة والوعي والفتنة الإسلاميّة، وخاصّة عند مواجهة الحوادث المناهضة للدين والمؤامرات المعادية للقرآن، التي كان يقوم بها ويخطّط لها الإستعمار البريطاني. وعندما كانت المعارك مشتتة آنذاك هبّ الميرزا الثاني للمجابهة والدفاع بكلّ ما يقدر عليه من جهد مثمر وسعي جدّي، ولما وصل الأمر الى الطريق المسدود أصدر أمره بوجوب الدفاع عن حريم الإسلام، وبإصداره فتواه الثوريّة عظيمة الأهمية فقد هزّ العراق^(١).

مقالة آقا بزرگ الطهراني

«زعيم الثورة العراقية وموري شرارتها الأولى، من أكابر العلماء وأعظم المجتهدين، ومن أشهر مشاهير عصره في العلم والتقوى والغيرة الدينيّة. ولد بشيراز - كما حدّثني به - ونشأ في الحائر الشريف، فقرأ فيه الأوليات ومفدّمات العلوم، وحضر على العلامة المولى محمد حسين الشهر بالفاضل الاردكاني حتّى برع وكمل، فهاجر الى سامراء في أوائل المهاجرين مع صديقه وشريكه في البحث العلامة محمد الفشاركي الاصفهاني، فحضر على المجدّد الشيرازي حتّى صار من أجلاء تلاميذه وأركان بحثه، وكان يومئذٍ مدرّساً لجمع من

أفاضل تلاميذ المجدد، إلى ان توفي أستاذه الجليل فتعين للخلافة بالاستحقاق والأولوية، فقام بالوظائف من الافتاء والتدريس وتربية العلماء، وقد خرج من مجلس بحثه جمع غفير من أجلة العلماء وأفاضل المجتهدين البالغين رتبة الاجتهاد، وذلك لدقة نظره وفكره وكثرة غوره في المطالب الغامضة والمسائل المشككة».

لقد كانت حلقة درس الميرزا محمدتقي الشيرازي قبلة لجماعة كثيرة من عشاق العلوم الإلهية ومحبي طريق الكمال والفضيلة الإنسانية، وذلك لقدرته على حسن البيان ووفور علمه وكماله وشهرته، فقد ضمّ مجلس بحثه جماعة من الفضلاء، بل وحتى المجتهدين، اضافة الى طلابه ومريديه والباحثين عن طريق الحق والحقيقة، وذلك لانهم كانوا يقولون: لن يستغني أحد، وفي آية مرتبة كان، عن علم الميرزا الشيرازي».

مقالة السيد حسن الصدر

يقول الاستاذ آية الله المحقق السيد حسن الصدر مؤلف كتاب (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام) في كتاب (التكملة):
«عاشرته عشرين عاماً فما رأيت منه زلة، ولا أنكرت عليه خلّة، وباحثه إثني عشر سنة، فما سمعت منه إلا الأنظار الدقيقة، والأفكار العميقة، والتنبيهات الرشيقة»^(١).

انّ اهم ما أضفى العظمة والاعتبار على شخصيّة الميرزا الثاني، وميّزه من بين مئات المجتهدين والعلماء المعاصرين له، هو احساسه بالمسؤولية أمام الحوادث العظيمة في حياة المسلمين الإجتماعية، فقد كان يعتبر نفسه جزءاً من الحوادث التي تحلّ بحياة الشعوب الإسلامية حيثما كانت، ولم يتردّد في بذل نفسه فداء لتأدية واجباته، والقيام بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه.
لقد أدرك من خلال احساسه العميق بأنّه لا ينبغي له ان يدع عملاء الأجنب

والمستعمرين الدوليين يعيشون فساداً في بلاد الإسلام والقرآن ومهد تعاليم الأنبياء والمرسلين في فترة زعامته، وإنّ عليه ان لا يتركهم يسيؤون الى أفكار المسلمين وحضارتهم الأصيلة، وخاصّة في مجال الثقافة الإسلامية.

كان رأيه أنه لا يحق لأحد، وفي أيّ منصب كان، ولا لايّة قوّة من القوات الخارجية آنذاك، ان تسرق ثروات المسلمين، وتهدر منابعها ومواردها، وتضّر باقتصاد المسلمين.

ولما رأى بوضوح أنّ دولة بريطانيا العظمى والمستعمرة من الطراز الأوّل آنذاك، تعمل على خلاف رأيه وعقيدته، ولم تتراجع عن استغلال الشعوب الإسلامية، فقد رفع راية الجهاد ضدّ هذه الدولة القوية آنذاك، وضدّ ذلك الاستعمار القائم، وقد حمل روحه على كفّه في سبيل الجهاد ضد الاستعمار، والدّفاع عن حقوق المسلمين والمعايير الإسلامية.

لقد منح الميرزا الثاني في هذا الجهاد كلمة التضحية معنىً خاصاً، فقد سخّر كل طاقاته وامكانياته في خدمة هذا الجهاد، بل وضخّى باولاده في هذا السبيل.

وفي أوائل أيام المواجهة أُعتقل ولده الكبير الميرزا محمدرضا في حوادث العراق، وأصبح أسيراً بيد عملاء الأجنبي. وكان الاستعمار البريطاني قد أجبر الشعب العراقي على ان يقبل بممثّل بريطانيا (السير برسي كوكس) كرئيس على العراق، وان يخضع لجميع أوامره في جميع المجالات.

مع صدور هذا القرار الرامي الى الضّغط على الشعب العراقي المسلم، أدرك الميرزا الثاني بوضوح ان قوات بريطانيا العظمى تسعى الى إحكام سيطرة الأجنبي على البلدان الإسلامية، ومنحها أبعاداً جديدة، وعند ذلك، وفي أوج الاضطراب الذي عمّ الشرق الاسلامي نتيجة إمتداد السيطرة الغربية، أصدر فتوى هزّت أركان الحكومة البريطانية المستعمرة، فقد صرّح في هذه الفتوى بعدم جواز الرضى بغير المسلم حاكماً على المسلمين، ونصّها كما يلي:

«إنّ المسلم لا يجوز له أن يختار غير المسلم، حاكماً»

محمد تقي الحائري الشيرازي

لقد كان لهذه الفتوى وما رافقها من المعارضة والموقف السلبي ضد الاستعمار، أثرها العظيم في قلوب المسلمين المستعمرين والمستعَلين، وأوقفتهم على مسؤولياتهم السياسيّة والإجتماعيّة بإبعادها الواسعة. والأهمّ من ذلك أنّ هذه الفتوى قد حذرت المسلمين وأفهمتهم أنّ مصير الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفرديّة للمسلمين لن يحدّده إلاّ المسلمون أنفسهم، ولن يحقّق لأية قوّة أجنبيّة -مهما عظمت تلك القوّة واتّسعت سيطرتها- ان تتدخّل في هذه المسائل.

ولم يكتف الميرزا الثاني باصدار هذه الفتوى في جهاده الشامل ضدّ أقوى قوّة استعماريّة آنذاك، وإنّما عقد اجتماعاً سرّياً في نفس الفترة التي نفذت فيها الفتوى، ضمّ عدداً من العلماء البارزين المجاهدين، وهم: الشيخ مهدي الخالسي، والسيد هبة الدين الشهرستاني، والسيد ابوالقاسم الكاشاني. وكان هؤلاء النفر يعقدون اجتماعاتهم كلّ يوم، وربما عقدت عدّة اجتماعات يومياً، بحضور الميرزا، ثم يوزعون نتائج هذه الاجتماعات وما اتّخذوه من قرارات على علماء النجف ورؤساء عشائر الفرات، كما كانوا يوجّهون الرأي العام نحو تحقيق الأهداف الإسلاميّة.

وفي معرض قيادته للجهاد ضدّ الاستعمار العالمي للمسلمين عموماً، وللشعب العراقي خاصّة، كتب الميرزا الثاني رسائل وأصدر فتاوى عديدة، ومن أجل ان نكون قد ذكرنا نماذج لذلك نشير إلى رسالتين:

الرسالة المثيرة

في الرسالة الأولى خاطب الشعب العراقي قائلاً:

«لقد تعاهد إخوتكم العراقيون في بغداد والكاظميّة والنجف وكربلاء وباقي الأماكن، على القيام بمظاهرات سلميّة، وقد بدأوا بعض هذه المظاهرات. انّ طلب جميع الجماهير هو تأمين الحقوق المشروعة للشعب العراقي، والتي تشر استقلال هذا البلد، على اساس حكومة العدل الاسلامي، وعلى هذا فإنّ من واجبكم جميعاً، أن ترسلوا ممثليكم الى بغداد للمطالبة بهذه الحقوق، و ان تجتهدوا في ان لايمس

أمن الشعب سوء ولا يحيط به خطر، وأنقوا الفرقة والخلاف ان تظهر بينكم. اوصيكم بان تحترموا كل العقائد والافكار الموجودة بين الناس، وانتم تخوضون هذا الجهاد العظيم».

لقد كان تأثير هذه الرسالة عجيبياً فوق حدّ التصور، فما ان انتشرت هذه الرسالة بين أوساط الشعب العراقي وتناولتها الأيادي، حتّى توارد ممثلو الشعب من المدن المختلفة بل وحتّى القرى، جماعات على بغداد.

لم تأخذ القوات البريطانية هذه المسألة مأخذ الجد، في البداية، ولم تكن تصدق أنّ فتوى أو رسالة واحدة من القائد الديني يمكن ان تثير كلّ هذا الحماس والثورة، وتدفع آلاف البشر الى التحرك من أقصى نقاط البلد نحو بغداد؛ ليتكون منهم هذا السيل الجارف! لكن لما رأوا في اليوم الماضي - على حين غرّة - ان أمواج الشعب الغاضب قد غمرت بغداد، حتّى لم يبق في شوارع بغداد وأزقتها طريق للمارة، أحسّوا بعظم الخطر الذي يحيط بهم، وبعد الإحساس بهذا الخطر، أقدم الانجليز على القيام بالاعمال الوحشية، واستخدام الشدّة توقياً من العواقب الوخيمة لهذه الحركة.

تأمين نفقات الجهاد

في هذه الاثناء رأى الميرزا الثاني أنّ تجهيزات الشعب المسلم، وخاصة من الناحية المادّية، لا تكفي لمقاومة القوات البريطانية المستعمره وقدرتها التي قلّ نظيرها، وكان يخشى كل لحظة ان يهزم المسلمون، لذلك أصدر فتواه الشهيرة التي أحدثت ضجة عظيمة، والتي تقضي بتأمين نفقات المجاهدين من زكاة أموال المسلمين.

ومع صدور هذه الفتوى أتى الاغنياء من المسلمين، بل وحتّى الذين ليس لهم الا ما يسد رمقهم، جماعات الى زعيم الجهاد والثورة ضدّ الاستعمار حاملين زكاتهم ليصرفها في سبيل الجهاد، سبيل الله.

أمّا المسلمون المجاهدون، الذين كانوا يعانون الصعوبات وهم يواجهون

التجهيزات الإنجليزِيَّة بأيدٍ خالية، ومن دون امكانيَّات كافية، فانَّهم لما دُعِموا وسوندوا بـزكاة الأثرياء وحتَّى الفقراء تنفيذاً لفتوى الميرزا الثاني، أحسَّوا بأنَّ روحاً جديدة تدب في ابدانهم، فقد استطاع قادة المجاهدين في المرحلة الأولى ان يهيئوا ما يحتاجونه من الآلات الحربية والمعدَّات، بما اجتمع لديهم من مال الزكاة، وفي المرحلة الثانية أراحوهم من التفكير بشؤون عوائلهم ومعيشتهم، حيث أمنت عن هذا الطريق أيضاً، وذلك انَّ أغلب المجاهدين كانوا من الطبقات الفقيرة في المجتمع، ولم يدخروا شيئاً يؤمن حاجة عوائلهم عند غيابهم، فهم يعيشون في ضنك من العيش، منذ ان ترك من يعولهم عمله والتحق بصفوف المجاهدين، أمَّا وقد صدرت فتوى الميرزا الشيرازي وجمعت الزكاة في مكان واحد، وهُيئت الأسباب فقد زالت هذه النواقص والمخاوف والقلق، فهب المجاهدون، الَّذِينَ دبَّت فيهم حياة جديدة لمجابهة القوى البريطانيَّة المستعمرة بقوة ومعنوية أذهلت العدو.

لقد تحيَّر رؤساء الحكومة الانجليزية واعوانها، فلم يصدقوا انَّ شعباً متخلِّفاً -بزعمهم - يمكن ان تكون فيه مثل هذه القوَّة وشدَّة التعاون والألفة، وان تكون أموره دقيقة ومنظَّمة عن وعي الى هذا الحدِّ.

وانَّ الشعب الذي يعاني شظف العيش، ويواجه ضغوطاً عديدة يساعد بعضه بعضاً في مواضع الشدَّة بهذه الصورة، ويقف افراده صفّاً واحداً بوجه العدو المشترك فيقصمون ظهره ويهزّون كيانه.

وكلِّما زادت قوَّة الجهاد والمجابهة الناتجة عن وحدة الشعب العراقي المسلم، زاد الانجليز من ضغوطهم واعمالهم الوحشية، وكلِّما زادت هذه الأعمال والضغط من قبل الانجليز، ضاعف الشعب العراقي المسلم الشائر من مقاومته وصموده وجهاده، وهنا التفت قادة المجاهدين العراقيين الى ان الإنجليز قد أعدَّوا فعلاً قوات عظيمة من القوات التي تعمل تحت امرتهم لمحاربة المسلمين، وانَّ هذه القوات المدرَّبة المسلحة ستنزّل ضربة قاصمة بمقاتليهم وتشتت وحدتهم وتراصهم.

الرسالة الثانية

ثم أصدر الميرزا الشيرازي رسالته الثانية مخاطباً فيها الشعب العراقي، وكانت كلمات هذه الرسالة كلهيب نار التمرد والثورة الذي كان يقع على هشيم ارواح المسلمين فيشعلها جميعاً لتلتهم روح الاستعمار البريطاني.

وقد وصف مؤرخو تاريخ شعوب الشرق ومحققوه، وخاصة مؤرخو تاريخ جهاد المسلمين والثورات الإسلامية هذه الرسالة بانها «فتوى رهيبة كان لها تأثيرها الخاص في مصير الشعب العراقي وباقي الدول المجاورة، وأرعبت المستعمرين وأرهبتهم، حتى أنهم رأوا أنفسهم على حافة هاوية الفناء» وتبدأ هذه الرسالة بهذه العبارة:

«مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية اذا امتنع الإنجليز عن قبول مطالبهم»^(١).

لقد اختلف الوضع بصدور هذه الفتوى، فقد كان الشعب العراقي المضطهد المظلوم المحروم لا يعرف تكليفه حتى ذلك الحين، وكان ابناؤه حائرين لا يعلمون ما يجب عليه فعلة ضد المستعمرين الغربيين، وفي أية جبهة يجب ان يتخذوا مواقعهم؟ اما الآن فلم يبق ثمة شيء مبهم بعد صدور هذه الفتوى بهذا الوضوح، حيث ان المرجع العظيم والقائد الواعي والزعيم المجاهد قد أوضح التكليف، وأذن للشعب العراقي سنة وشيعة ان يقفوا وقفة رجل واحد في صف كالبنيان المرصوص حاملين راية الجهاد ضد الاستعمار، وان يتجاوزوا مرحلة الدفاع المحض، فاذا لزم الأمر غير موقعهم من الدفاع الى الهجوم.

لقد وضعت هذه الفتوى وما أعقبها من ثورة الشعب العراقي المسلم أسس الثورة الكبرى، وأصبحت بمنابة النواة المركزية لثورة العراق.

ومع ان الميرزا محمدتقي الشيرازي قد لبى نداء ربه بعد أربعة أشهر من صدور هذه الفتوى، غير ان الثورة التي وضع أسسها لم تتصدع، بل ان الشعب

١- تاريخ العراق السياسي. دور الخطباء في الإسلام. الدكتور الورددي.

العراقي ضاعف من جهاده وتضحيته وبطولاته لثلاثين عاماً، جعلوا الثورة أكثر قوة وثباتاً وحيوية، حتى أن قادة الحكومة البريطانية في العراق كانوا يقولون وهم في هلع وعدم تصديق لما يرونه: «آية أمة هؤلاء المسلمون؟ وأي شعب هم؟ فحتى بعد وفاة قائدهم لا يتفرقون ولا تتبعثر صفوفهم، بل ويزدادون اتحاداً وتنظيماً!».

لم يكن يعلم هؤلاء أن شخص القائد ليس هو الأساس في مرحلة الجهاد الإسلامي، بل أن قوة القيادة، هي المهمة والمصيرية، وقوة القيادة الإسلامية لا توجد بظهور قائد ما - وخاصة في مجال الثورات ضد الظلم - حتى إذا مات زالت معه تلك القوة.

القيادة الإسلامية قوة لها دوامها واستمراريتها على مدى التاريخ المعنوي لحياة المسلمين، وتنتقل من جيل قيادي إلى جيل قيادي آخر. ولهذا، فبعد وفاة الميرزا الثاني تابع المراجع العظام - وخاصة تلاميذه والقاطفون ثمار الفضل والتقوى والشجاعة الأخلاقية والشهامة الدينية من بستان استاذهم - السير على نهجه، وأخذوا على عاتقهم مسؤولية قيادة الثورة الإسلامية، وقد حملوا - كالميرزا - ارواحهم على الأكف ولم يعبأوا بارواحهم وحياتهم الأرضية الفانية، فاستعدروا للتضحية بها في هذا السبيل.

رفاق الميرزا في الجهاد

سطعت في تاريخ الجهاد الإسلامي للشعب العراقي أسماء جماعة من العلماء المشهورين والمجاهدين الكبار، الذين اشتركوا في تلك الحرب والجهاد ضد الاستعمار، وكان أكثر هذه الأسماء تألقاً وشهرة هم:

* المرحوم السيد محمد الطباطبائي الابن الأكبر لآية الله العظمى السيد كاظم

اليزدي (صاحب العروة الوثقى).

* آية الله السيد مصطفى الكاشاني وولده الجليل آية الله السيد أبو القاسم

الكاشاني.

❖ آية الله السيّد محمد تقي الخوانساري الزعيمّ للحوزة العلمية بقم بعد وفاة مؤسسها.

❖ آية الله الشيخ مهدي الخالصي وولده المحترم اللذين كان لكلّ منهما دوره الفعّال في قيادة الثورة الإسلامية التي وضع اسسها الميرزا الثاني. لقد بقي هؤلاء اسابيع وأشهرًا في المناطق الجبلية التي كانت مواضع للمجاهدين المسلمين، ووقفوا بوجه القوات الانجليزية، وجابهوا القوات المهاجمة في اطراف البصرة، المزيرعة، القرنة، العمارة، الناصرية، الكوت، والقصيبة التي تقع في اطراف مدينة بغداد، ودافعوا بصلابة عن الوطن العراقي المسلم. وفي الحقيقة لم يكن دفاع هؤلاء دفاعاً عن بلد اسلامي وحسب، وأنما كان دفاعاً عن الإسلام ومواضعه، وذلك لأنّ قادة الشعوب الإسلامية ادركوا جيّداً بان المستعمرين الغربيين اذا ما استطاعوا ان يحتلّوا موضعاً، واستعمروا شعب منطقة اسلامية، فانهم سيتقدمون خطوة بعد أخرى في سبيل توسيع مستعمراتهم، وسيفرضون سيطرتهم الاستعماريّة على سائر الدول الإسلامية، وعند ذلك سوف لا يقفون عند حدّ في أضعافهم للدول الإسلامية واستضعاف الشعوب المسلمة. ولذلك صمم هؤلاء القادة على الوقوف أمام تقدّم المستعمرين منذ الخطوة الأولى، ومنعوا من ان يتطاول هؤلاء ويتعدّوا على ثغور الدول الإسلامية، أو ان يسيطروا على أرواح المسلمين وحياتهم السياسية والاجتماعية والفردية.

شهداء الفضيلة:

في تلك الحرب الدامية الشاملة شارك عدد كبير من مشاهير العلماء من الطبقة الاولى، وحمل القادة الواعون الحقيقيون السلاح واتجهوا نحو ساحة الحرب ونالوا شرف الشهادة، وكان الشهيد آية الله زاده يزدي أحد شهداء طريق الحق، الذين سقطوا في ساحة المعركة، ومع أنّ جماعة أخرى من العلماء لم يفارقوا الحياة في ساحة الحرب إلاّ أنهم لازموا الفراش نتيجة الجراحات التي اصابتهم في الحرب، وبعد فترة فارقوا الحياة دون ان يتماثلوا للشفاء وينهضوا من فراش

المرض، ومن جملة هؤلاء آية الله السيّد مصطفى الكاشاني والد المرحوم آية الله السيّد أبي القاسم الكاشاني المجاهد الشهير في عصر البهلويين، وأحد أقطاب الثورة الإسلامية للشعب الإيراني في الأربعين سنة الأخيرة، ومن واضعي أسس فكرة الحكومة الإسلامية.

صحيح أنّ الدولة العثمانية (تركيا) قد هزمت من قبل مهاجمي الحرب العالمية الأولى في تلك الحرب والجهاد، واقتسم الحلفاء هذا البلد الإسلامي، وصحيح أنّ دولة سوريا ولبنان خضعتا لفرنسا، ودولة فلسطين والعراق خضعتا لسيطرة الانجليز، غير أنّ انتصار المسلمين في تلك الحرب لم يكن صورياً، بل كان انتصاراً معنوياً داخلياً.

في تلك الفترة المليئة بالارهاب والمصائب بدأ الوعي والشعور السياسي يتزايد لدى المسلمين يوماً بعد آخر، ومن بعد ذلك بذلت الشعوب الإسلامية في الشرق قصارى جهدها في سبيل انقاذ أوطانها من نير الإستعمار ونيلها الاستقلال والحرية، وصدوا في جهادهم واستمروا حتّى نالوا النصر النهائي في نهاية المطاف.

تغيير اسلوب المستعمرين

كتب الاستاذ (دواني) مؤلف الكتاب النفيس (نهضت روحانيون ايران) حول هذا الموضوع:

«عندما شاهد الانجليز ثبات علماء الشيعة و صمود الزعماء الايرانيين في الحوزة العلمية في النجف و كربلاء، والحماس الخارق للشعب المسلم، اضطروا الى الغزوب عن فكرة اختيار حاكم انجليزي غير مسلم على الشعب العراقي المسلم؛ ليحكم علنياً ومباشرة، وفكروا في تعيين شخص مسلم يرتضيه المسلمون سنّة وشيعة؛ ليكون حاكماً على العراق، وكان هدفهم تعيين شخص عميل لهم يستلم زمام الحكم في العراق؛ ليكون حارساً لمصالح أسياده الانجليز، وتكون هذه المصالح عنده أهمّ من مصالح شعبه ووطنه.

كانت القوى البريطانية المستعمرة تسعى عبر هذا الانتخاب الخداع الى ان

يعود الهدوء الى العراق مدّة من الزمن، وما ان سكنت أمواج الثورة، وخذت شعلته الثورة والحماس في نفوس الثوّار، ورجع كل منهم الى محلّه، وتفرّق ذلك الجمع المتراص، بدأ المستعمرون مرّةً أخرى بتنفيذ مخطّطاتهم الخبيثة ومؤامراتهم الشيطانية.

وتنفيذاً لهذا الهدف اختاروا الامير فيصل حاكماً على العراق، وكان فيصل من السادات الحسينيين، ومن أهل الحجاز، وكان مقيماً في مكة، وبعدّ من اتباع الفقه السنّي، وقد أُختير مدّة كملك لسوريا من قبل الفرنسيين.

بعد وفاته - التي تمّت بصورة غامضة - خلفه الملك غازي، ونتيجة لسوء سياسته فقد تغيرت أوضاع العراق في مدّة قليلة، وتلاحقت المؤامرات والإنقلابات العسكرية التي كان للجنرال نوري السعيد يداً في أغلبها.

في سنة ١٩٣٩ توفّي الملك غازي في حادثة اصطدام غامضة أيضاً، وهذه المرّة تربع الطفل فيصل على عرش السلطنة.

وبعد سنة أصبح رشيد عالي الكيلاني السياسيّ الوطني المعروف رئيساً للوزراء، ومنذ تسنّمه هذا المنصب أجرى سلسلة من الاصلاحات الظاهرية، غير ان الاستعمار وضع العراقيل أمامه بعد سنة من ذلك، وأدّت هذه المشاكل والعراقيل الى سقوط حكومته، وبعد سقوطه الذي تمّ نتيجة مخططات استعمارية اضطرّ رشيد عالي الى مغادرة العراق متّجهاً الى ايران، وبعد فترة غادرها الى مصر، وحصل فيها على اللجوء السياسي.

بعد مدّة من ذلك بدأ الانجليز بمحاورته واجراء المحادثات معه، واتّفقوا على ان يرجع الى العراق برفقة الأمير عبدالله ويتسلّم زمام الأمور، على ان يهتمّ بالمصالح البريطانية في الدرجة الأولى. ولما كان رشيد عالي قد تحمّل المصاعب والمشاق الكثيرة، وكان بانتظار فرصة كهذه، فقد عاد الى العراق برفقة الأمير عبدالله، وقد تسلّمّت الأمور هذه المرّة حكومة استعماريّة عميلة.

وانقلب وضع العراق مرّةً أخرى، فارتبكت الأمور واختلّ نظامها، وعادت الحياة السياسيّة والاجتماعية للشعب العراقي خاضعة لسيطرة القوى الاستعماريّة.

مرّة أخرى ظهرت ظروف حسّاسة في تاريخ الشعوب المسلمة، ومرّة أخرى بدأ العلماء الواعون والمجاهدون بأداء دورهم الواعي في النوعية، ومرّة أخرى هب المراجع المجاهدون الواعون الى الدفاع عن وطنهم، والأهم عن دينهم ومقدّساتهم وثقافتهم الدينيّة، التي ينشب الأجنبي أظفارهم فيها للقضاء عليها.

هبوا للدفاع والجهاد ضدّ المستعمرين، وكان المرحوم آية الله العظمى السيّد أبو الحسن الأصفهاني أحد هؤلاء القادة الدينيين، وكان له الدور الحساس والمصري، ولم يكن يبخل بنفسه - كأسلافه - في طريق الجهاد من أجل انقاذ الإسلام من سيطرة الأجنبي.

وبكلمة واحدة، كان للنجف وحوزته العلميّة والعلماء المقيمين في هذه المدينة الدينيّة المجاهدة، الدور الأساس والقيادي في جميع أدوار النهضة والثورات الإسلاميّة، وخاصّة في القرن الأخير، كما هو شأن كثير من الثورات التي إنطلقت من هذه الحوزة العلميّة وترعرعت في أحضانها وكانت قيادتها منها، ولهذا كانت مدينة النجف - كما هو رأى المحقّقين والمؤرّخين الاسلاميين - شوكة في عيون المستعمرين الغربيين الاقوياء وخاصّة الانجليز».

وحول الدور الحساس والتاريخي للعلماء وزعماء الدين المجاهدين في تحقيق اهداف الثورات الإسلاميّة تقول المؤرّخة والكاتبة الغربية «المس بيل»: «وكان رجال الدين من أشدّ المؤثرين وأقوى المبلّغين في ثورة العراق، وكان لهم هذا التأثير والدور على مدى الحرب وما بعد الحرب. وقد دفع نفوذ العلماء هذا المتصدّين لأموال الحكومة الى تأسيس مدارس حديثة لإضعاف مكانة المدارس الدينيّة، وصرف أنظار الشباب والأحداث عن تلك المدارس، وتوجيهها نحو هذه المدارس التي تدار بأساليب غربية، وذلك لإضعاف مكانة الدين وقديسيّته لدى جيل الشباب، وبالتالي سيقتلعون جذور الثّورة والانتفاضة من نفوسهم، سواء كان ذلك في هذه الفترة أو خلال الفترات القادمة».

ومع كلّ ذلك فإنّ محققي العالم اليوم يرون أنّ الشعوب الإسلاميّة بقيامها بالثورات الأصيلة والصامدة قد أوضحت بأنّ المسلمين لن تخدعهم مثل هذه

المؤامرات والمخططات، وإذا ما ابتعدوا فترة عن اهدافهم الإسلامية نتيجة مؤامرات المستعمرين، فإنّ حادثة واحدة، وتحذيراً واحداً، وصدمة قويّة تعود بهم الى اعماقهم، كافية لعودتهم الى عقيدتهم الاسلاميّة وتقوية موازينها واحكامها في قلوبهم، ويكفي ذلك لأن يعلنوا استعدادهم للتّضحية بانفسهم في سبيل احياء الإسلام وإيقاظه من براثن المستعمرين، ويوضحوا إنّهم يعتقدون بأنّ الإسلام وتعاليمه الساميّة هو أرقى مذهب لنجاة البشر.

وقد بيّن الميرزا محمد تقى الشيرازى المشتهر بالميرزا الثاني، وهو أحد المجاهدين ومن أقطاب الثورة، هذا الرمز، رمز الوصول الى الهدف الصحيح. لقد أحدث بجهاده المتواصل نقطة عطف في تاريخ جهاد الشعوب الإسلامية، ولا ينبغي التغافل عن ان نشاطه وجهاده، وان كان قد بدأ وتجدّر في العراق، وآتى ثماره في العراق، لكن الشجرة التي سقاها بتضحيته وجهاده كانت شجرة ضخمة نشرت ظلالها الوارفة وثمارها على آفاق الأوطان الإسلامية، وكانت تضحياته وجهاده صاعقة وعتّ جميع العالم الاسلامي وحذّرتة مما يجري حوله.

آية الله السيد عبد الحسين اللاري (م ١٣٤٢ هـ . ق)

واضع اصل ولاية الفقيه قبل مائة سنة!

يقول الحاج آقا بزرگ الطهراني في طبقات اعلام الشيعة في حقّه: «ولد في النجف ليلة الجمعة ثالث صفر ١٢٦٤ هـ ونشأ نشأة عالية فتعلّم المبادئ وقرأ مقدمات العلوم على بعض الأفاضل، ثم حضر على السيد محمد حسن المجدّد الشيرازي والشيخ محمد حسن الكاظمي والمولى لطف الله المازندراني والمولى حسين قلي الهمداني والمولى محمد الايرواني وغيرهم، وبرع في الفقه براعة فائقة، وتقدّم على كثير من زملائه، وحظي بعناية فائقة من كبار علماء عصره ومشاهير فقهاء وقته. واعترفوا بمكانته وفضله، وصوّرت له الاجازات من مشايخه المذكورين جميعاً، واختاره السيد المجدّد من بين المئات من الأفاضل، فبعثه بوكالة منه الى لار في سنة ١٣٠٨ هـ فأقبلت عليه طبقات الناس، وقصده طلاب العلم من اراك وسيرجان وجهرم واصطبهانات وشيراز وغيرها».

لقد كان للعلماء المجاهدين على مدى تاريخ الإسلام، وخاصة في آفاقه الشيعية الأصيلة دور عظيم، وسطعت نجومهم حتّى كاد نورها يذهب بالأبصار، غير ان بزوغ هؤلاء العلماء قد عظم في القرن الرابع عشر الهجري، حتّى كان قد ادخّر أكثر ودائعهم العزيزة لهذا القرن.. هذا القرن الذي يمكن ان نعبّر عنه بأنه بداية قرن يقظة المجتمعات الإسلامية من سباتها الذي طال عدّة قرون.

والحقّ أنّه يمكن القول بأنّه اذا كانت تقع في كل قرن ملحمة جهاد إسلامي، فقد تجلّت في هذا القرن جميع المظاهر المختلفة لمثل هذه النشاطات والمجاهبات،

فمنذ ذلك اليوم الذي صدعت فيه صرخات السيد جمال الدين جدران الإستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي في البلدان الإسلامية، حتى أشرفت تلك الجدران على السقوط.

ومنذ ذلك اليوم الذي وجهت فيه الفتوى التاريخية للميرزا الشيرازي لأول مرة صفقة الأمة الإسلامية القوية الى وجه المستعمرين وأعداء الإسلام، ومنذ ذلك اليوم الذي اطلق فيه علماء الإسلام من الطبقة الأولى نداء الدستور الشرعي في ايران؛ من أجل تخليص الجهاد الواقعي لمسلمي ايران من كل أشكال الانحراف، ومنذ ذلك اليوم بدأ العلماء المسلمون الحقيقيون مظاهر جهادهم المختلف، وشرعوا في سعيهم لإنارة العالم وإنقاذه من ظلمة الجهل والاستعمار.

وكان أحد رجال العلم والايمان، والشرف والفضيلة، والصلابة والثبات، من هؤلاء آية الله الحاج السيد عبدالحسين الموسوي اللاري النجفي الذي لم يكن من طلائع المجاهدين في القرن الرابع عشر وحسب، وإنما كان من أوائل من طرحوا أصل ولاية الفقيه بصورتها الموجودة اليوم ودعوا اليها. وكذلك أعلن ان تأسيس حكومة إسلامية بكل ما في الكلمة من معنى، هو الطريق الوحيد لإنقاذ المسلمين من الاستعمار والاستغلال والاستبداد، بل ووضع خطة دقيقة مكتوبة من أجل الوصول الى ذلك الهدف.

ولم يكن آية الله الموسوي اللاري - الذي كان من كبار مراجع الشيعة، وفتيها عادلاً، ومفكراً مصلحاً، ومجاهداً سابطاً، لايعرف السأم والكلل - يعد من طلائع ومؤسسي ثورة الدستور في ايران، ومن الذين شَمروا عن الساعد، وهبوا لمقارعة ظلم القاجاريين الفجرة وجورهم، بل كان من أوائل من حملوا راية الجهاد ضد الاستعمار، ومن رواد الثورات الإسلامية الضخمة في القرن الرابع عشر، فقد هب لمقارعة الأجانب المعادين للإسلام، ونواب الامبريالية آنذاك، مقارعة لا هوادة فيها، ووجه في جنوب ايران أقوى ضربة مدمرة الى جسد الإستعمار والأمبريالية الانكليزية وعملائها، حتى ان خواطر مجابهات هذا العالم الرباني وجهاده وتضحياته قد نُبِتت في صفحات التاريخ، بل و أصبحت ورداً تلهج به

ألسنه أهل جنوب ايران، يرويها الأب لابنه، ويتوارثونها قلباً فقلباً.



بداية طريقه

ولد آية الله الحاج السيد عبدالحسين الموسوي اللاري سنة ١٢٦٤ هـ في عائلة محترمة معروفة علمائياً، كانت قد ألفت رحلها في مدينة النجف الاشرف منذ سنين، وبعد أن قضى مرحلة العلوم الابتدائية القصيرة لدى الكتاب، ترقى نحو تحصيل العلوم الدينية العالية، فدخل المدارس الدينية المعتمدة آنذاك. لقد قضى طفولته وشبابه في تحصيل العلم بالحضور بين يدي كبار علماء الشيعة، وعندما كان آية الله العظمى الميرزا الشيرازي الكبير مقيماً في النجف

الأشرف، وكان طلاب العلوم ينهلون من منهله، كان السيد عبدالحسين الموسوي الشاب المتحمس النشط ممن يستفيد من درسه.

ولمّا هاجر الميرزا الكبير الى سامراء التقى السيد عبد الحسين - الشاب الذي لا يعرف الراحة والإستقرار - بنفسه في حلقة درس أربعة من علماء الطبقة الأولى في النجف، وروى روحه الظمأى من عيون علمهم وفضلهم وكمالهم.

وهؤلاء العلماء الأربعة هم: آيات الله العظمى: الشيخ محمد حسين الكاظميني، والحاج الشيخ لطف الله المازنداراني، والشيخ محمد الايرواني، والشيخ المولى حسين قلي الهداني، وقد اطلعوا جميعاً على درجات علمه وتقواه وفضيلته وكماله، فمنحوه اجازة الاجتهاد ولمّا يتجاوز عمر السيد عبدالحسين (٢٢) عاماً حينها.

ومع كل ذلك فإنّ نبوغه العجيب في العلم، وتقواه العظيمة في العمل، وبلوغه القمّة في تهذيب الاخلاق وتركية النفس، قد جعل منه وجهاً بارزاً، حيث أصبح وهو في سني شبابه أحد المدرّسين من الطراز الأول، ومن الأساتذة البارزين في الحوزة العلمية بالنجف، التي كانت تعدّ آنذاك أعظم وأهمّ مركز علمي للتشيع.

نحو الجهاد المرير

كانت حلقة درس آية الله الموسوي اللاري من أكثر حلقات الدروس في النجف الأشرف طلبية وفائدة، ولهذا كان طلبة العلم يتجهون نحو النجف من كل صوب ليأخذوا مكانهم في حلقة درسه، وليقتطفوا من ثمار شجرة علمه وفضيلته. لقد دوّى صداه في أقصى نقاط العالم الاسلامي، وبلغ نوره المحافل العلمية والدينية الإيرانية، التي كانت تعيش في تلك الفترة أحلك مراحلها التاريخية وأقساها.

وفي هذه الاثناء سافر جماعة من كبار مدينة (لار) ومجاهديها؛ لزيارة العتبات المقدسة، وكانوا قبل ذلك منشغلين بجهاد الغزاة الأجانب والمستعمرين وعملاء الإستبداد الداخلي في منطقة جنوب ايران. وكان هؤلاء قد عزموا على ان

يطلبوا من زعيم الشيعة العظيم آية الله الميرزا الشيرازي ان يعين لهم مجتهداً عالمًا عادلاً فقيهاً متقياً وقائداً مجاهداً، يهاجر معهم الى مدينة لار.

وكان هدفهم من وراء ذلك، هو وجود مجتهد كبير ومرجع تقليد بين طهرانيهم، يرجعون إليه في أحكام الدين، إضافة الى قيادته لهم في جهادهم ضدّ الظلم والجور الداخلي، وضدّ الغزاة الأجانب بالخصوص.

وبذلك فقد إطمأنّ جماعة كبار (لار) ومجاهديها الى تقوى آية الله الموسوي اللاري وعلمه وفضله وكماله ومكارم أخلاقه، وطلبوا إليه ان يصحبهم ليكون مرجعاً لهم في الأحكام، وزعيماً لهم في الجهاد، ضدّ أعداء الإسلام.

ولما كان المرجع الكبير والقائد الكبير للشيعة الميرزا الشيرازي قد طلب من آية الله الموسوي اللاري ان يلتي دعوة مجاهدي (لار) ويهاجر معهم الى ايران، فقبل هذه الدعوة، إذ انه كان يحترم القائد العظيم من جهة، ومن جهة أخرى: فإنه كان يعلم أيّ ظلم واستبداد يحكم ايران؟ وكيف انّ الأجانب الكفرة يعبثون بدين سكّان جنوب ايران وشرفهم وأعراضهم، وجعلوهم ألعوبة لقضاء شهواتهم وميولهم. من هنا أحسّ بضرورة الجهاد المستمرّ ضدّ الأجانب الغزاة، كما كان يعلم بضرورة وجود مجاهد صبور وعالم جليل - مثله - من أجل القيام بهذا الجهاد والوصول الى النصر.

وأخيراً، هاجر الى ايران سنة ١٣٠٩ هـ وكان عمره انذاك (٤٥) سنة، ووضع قدمه في طريق الجهاد المرير الذي استمرّ حتّى آخر عمره الشريف. وفي الوقت الذي لم يمنح فيه الميرزا الشيرازي الكبير، المرجع العظيم، اجازة الاجتهاد إلاّ لشخصين طوال عمره، فقد منح آية الله الموسوي اللاري اجازة الاجتهاد المطلق، وقال لرئيس جماعة مجاهدي لار:

«باصطحابكم السيد عبدالحسين الى لارستان نقلتم النجف الى هناك، وأخليتم مهد الفضل والعلم من رفيع الفضل ومعدن العلم».

وبقي الاحساس بخلو مكانه لسنين طوال، حتّى أنّ العلماء الأعظم والفقهاء الأكابر، كآيات الله الأعظم: المرحوم الحاج الملا علي الطهراني، والشيخ جعفر

الشوشتري، والشيخ محمد اليزدي، وعلم الهدى السيّد مرتضى الكشميري، والمرحوم السيّد محمد البحراني، الذين اطلعوا عن كتب على درجات تقواه وفضله وعلمه وكماله، كانوا يقولون دائماً وبحسرة: «إذا لم يكن السيّد عبدالحسين قد غادر النجف، فانه كان سيجعل بقية العلماء مجهولين، ولأصبح اشهر عالم في العالم، وطفى على علماء النجف».

غير انه لم يفكر في عالم الشهرة، وسار في طريق الجهاد في سبيل الله ومقارعة أعداء الله، واستعدّ لتحمل الصعاب والعذاب من أجل القيام بواجبه الشرعي الثقيل.

بداية الجهاد

منذ الأيام الأولى لوروده مدينة «لار» تولّى زعامة المجاهدين، ولم يكنف بذلك وإنما ارتدى لباس الجهاد بنفسه. وكانت أوّل خطوة عظيمة خطاها، هي تأسيس مدرسة علميّة ضخمة في لارستان، وذلك ليبدأ جهاده الأساس - وهو الجهاد العقائدي والفكري والاخلاقي - على نطاق واسع من خلال جمع مجموعة من طلبة العلم والمجاهدين في سبيل الله.

وفي نفس الوقت الذي كان يجمع طلبة العلم من كل جانب حوله، اجتهد في تأسيس المجامع العباديّة، والمؤسسات التي تؤمن رفاه الناس، كما بدأ بجديّة عجيبة بإقامة مراسم صلاة الجمعة العباديّة السياسية، وذلك ليعلمّ عامة الناس - إضافة الى طلابه - أصول الإسلام الأصيل، وأسس التشيع الثائر من خلال هذه الصلاة، وليهيئ الشعب للجهاد في سبيل الله ومقارعة الإستبداد الداخلي والإستعمار الخارجي.

وقد حارب منذ البداية الأفكار المنحرفة والأفكار الاستعماريّة التي كانت ترمي الى أفكار السذج، ففي ذلك الوقت عمّت المهمة المشؤومة الداعية الى فصل الدين عن السياسة كل الارحاء، لكن آية الله الموسوي اللاري قد وقف بكل جديّة أمام هذه الفكرة الاستعماريّة، ووعى الشعب وأطلعهم على المخططات المشؤومة

للأجانب وعمالئهم في الداخل، وسعيهم الى تنفيذ مؤامرة فصل الدين عن السياسة. ربما كان آية الله الموسوي اللاري أول من طرح أصل ولاية الفقيه بالصيغة المتداولة اليوم في ذلك الزمان، أي بداية القرن الرابع عشر الهجري، فقد تناول هذا الأمر المهم في كتابه (تعليقات المكاسب)، الذي يعدّ من أهم آثاره العلمية، ويبيّن فيه صلاحيّات الولي الفقيه الذي يعتبر بحكم نائب الامام عليه السلام في زمان غيبة بقية الله في الأرض صاحب الأمر والزمان (عجلّ الله فرجه)، وإنّ عليه ان يحكم باعتباره أعلى مقام ومنصب في الحكومة الإسلامية، كما أوضح جزئيات هذه الاطروحة الحيويّة، واعتقد أنّ خلاص الشعوب والدول الإسلامية يكمن في قيام الحكومة الإسلامية واستخدام صلاحيات ولاية الفقيه وتنفيذها^(١).

إعلان الجهاد ضد الانجليز

في أيام النكبة المرّة تلك، كانت ايران وبقية الشعوب الإسلامية تعيش أحلك أيّامها، فقد جعلت بريطانيا - التي كانت أقوى قوّة استعمارية في العالم آنذاك، وتعبير اليوم كانت الشيطان الأكبر والمستكبر السفّاك في العالم - الإعتداء على حقوق الناس واعراضهم برنامجاً لها، وضيقت الخناق بأكفّها الدموية على أنفاس الشعوب المستضعفة، وخاصة مسلمي المنطقة.

ومن جهة أخرى دخلت روسيا ساحة التنافس مع بريطانيا، وشاركت ذلك الشيطان الرهيب في كثير من مناطق المنطقة واقتسمتها معه، فكما أخضع الانجليز مناطق ايران الجنوبية لسيطرتهم، فقد اقتطع الرّوس القفقاز وتركمانيّة وأفغانيّة من الوطن الاسلامي وأخضعتها لسيطرتها. ومن جهة ثالثة خضع الملوك القاجاريّون واذنابهم السفّاكون للاجانب وتأمروا معهم، فكانوا كلّ يوم يمنحونهم القسم الأكبر من صلاحيّات الدولة ويسلّطونهم على حياة الشعب وشرفه، عبر توقيع الاتّفاقيات التي يندى لها الجبين.

وهنا وقف آية الله الموسوي اللاري على حكمه الشرعي وما أمر الله به، ولما

١ - تعليقات المكاسب لآية الله الموسوي اللاري، الجزء الثاني.

كان يفكر في اقامة حكومة اسلامية، ولم يعد قادراً على تحمّل تسلّط غير المسلمين على المسلمين وبلادهم، فقد نفذ صبره أمام كل هذا الظلم والجور، فهب فجأة للجهاد الحتمي والمصيري، وفي هذه المرحلة أعلن الجهاد ضدّ تعديّات دولة بريطانيا بإصدار حكم ثوري لم يسبق له نظير غافل الإستعمار فيه.

أجل، أنّه لم يكن منظراً فكرياً بعيداً عن العمل، وإنّما كان رجل عمل ورجل ميدان الحرب، فقد ارتدى لباس الجهاد وانتصب مستعداً لخوض حرب ضروس بصورة تثير العجب، وقد عبأ الشعب بكل ما يملك من طاقة، وهبأه لخوض الجهاد ضدّ الظلم والجور واعتداء الأجنبي.

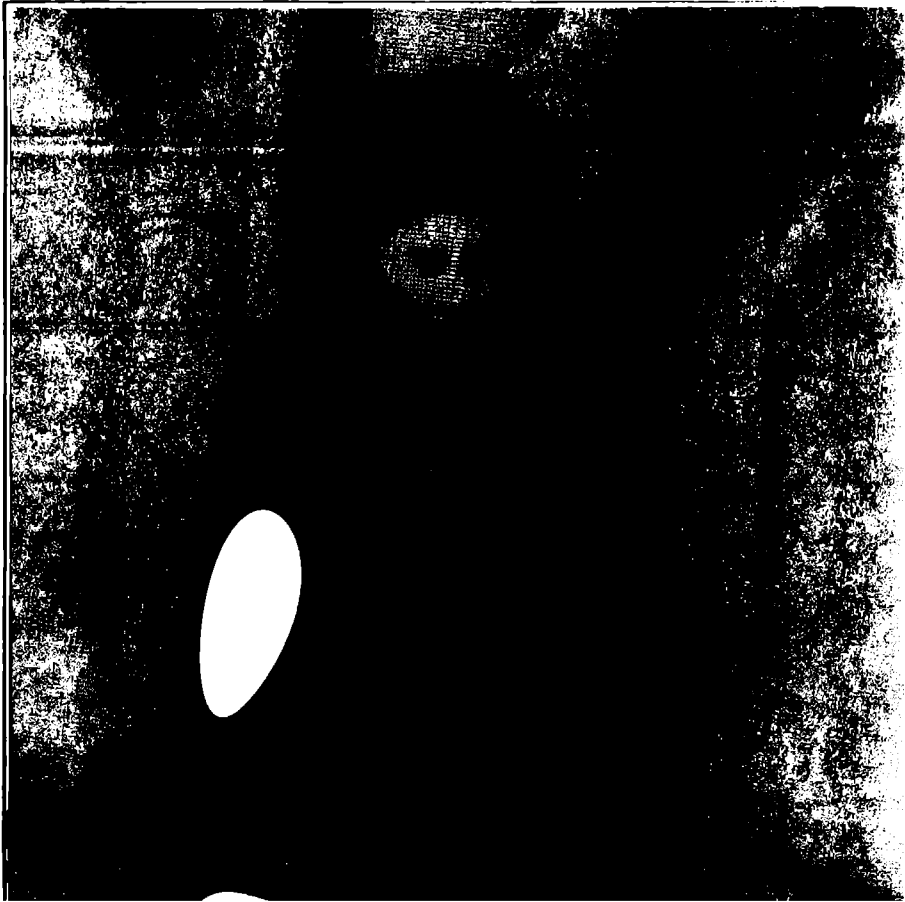
وفي تلك الفترة رسم الإستعمار سياساته الإستعمارية من أجل بسط هيمنة النفوذ البريطاني على مناطق أوسع، وطبقاً لهذه السياسات فقد أرسل جماعة تحت غطاء المبشرين المسيحيين الى المنطقة ليردوا ساحة الصراع تحت ستار الدين، وليتبنوا أسس السياسة الاستعمارية البريطانية، وليحقّقوا أهدافهم الخبيثة عبر تغيير الأفكار وحرّفها عن الطريق القويم.

غير ان آية الله الموسوي اللاري الذي كان قد وقف على هذه المؤامرة وفهم المراد منها، قد أرسل سبلاً جارفاً من الشعب الذي عبأ افراده، ووجّه هذا السيل نحو تلك المجموعة الإستعماريّة، ولم يكتف باحراق كتبهم، بل أخرجهم من المدينة أيضاً، وأمر ان يمنعوا من الدخول الى آية مدينة أخرى.

فلما فشلت المؤامرة وأخمدت نيران الفتنة، حرّكت الحكومة البريطانية أيديها الذين أجلستهم على كرسي الحكم في بلاط القاجار، وبلغ الأمر ان سافر عين الملك من طهران الى لار ليهدئ غضب الشعب، وان لم يوفّق في ذلك، فليأخذ -على أقلّ التقادير- ثمن الكتب التي أحرقت، والذي طالبت به حكومة بريطانيا الحكومة آنذاك. غير ان عين الملك لمّا ورد مدينة لار وواجه غضب الجماهير الهادرة، ووقف أمام هيبة آية الله الموسوي وحزمه لم ير بدّاً من ان يعتذر منه ويرجع الى طهران بخفي حنين.

في ثورة الدستور

منذ الأيام الأولى التي انطلقت فيها ثورة الدستور في ايران ودوى صداها التحق آية الله الموسوي اللاري بصفوف المجاهدين، غاية ما هناك انه - كالشهيد الشيخ فضل الله التوري - لما تنبه الى ان أيادي خفيّة تعمل على حرف الجهاد الاسلامي للشعب الايراني أوصل صوته الى الجميع بأنه دخل ميدان الجهاد من أجل قيام الدستور الشرعي، لامن أجل الدستور الذي يهمل فيه أساس الدين المبين، وان هدفه من وراء السعي للقضاء على حكومة القاجاريين الفاسدة هو إقامة حكومة اسلاميّة قوية وتطبيق أحكام الله في هذا البلد الاسلامي.



ومنذ ذلك الحين بذل قصارى جهده في هذا السبيل، فلاقى المصاعب، وتحمل أنواع العذاب، وهُدد مراراً، وبقي مرابط على خطوط النار، وجرت عدّة محاولات لإغتياله، لكنه لم يكف لحظة عن الجهاد ضدّ الاستبداد والاستعمار ومحاربة أعداء الإسلام، ولم يغفل عن هذا الأمر أنّاً حتّى آخر يوم من أيام حياته المباركة التي دامت (٧٨) عاماً.

الإرتحال:

وأخير انطفأت شمعة عمره المنيرة سنة ١٣٤٢ هـ في وقت ألقى فيه بذور الجهاد المثمر في أرض سكّان جنوب ايران المسلمين، بل وجميع المسلمين المجاهدين أنصار الحكومة الإسلامية ومريديها.

المدرّس، المجاهد الشهير (المقتول ١٣٤٨ هـ. ق)

السيد حسن المدرّس هو أحد أشهر العلماء المجاهدين في العصر الأخير، فهو مقاتل استشهد في سبيل عقيدته وإيمانه. ذلك الرجل الذي سطع اسمه في تاريخنا المعاصر، وله مكانته وتقديره الخاص، وتتجلى هذه المكانة أكثر فأكثر عندما نقرأ آراء عظماء التاريخ الآخرين ووجهات نظرهم فيه. ففي إحدى خطبه التي ألقاها في المسجد الأعظم بقم وصف آية الله العظمى الامام الخميني رحمته الله السيد حسن المدرس بقوله:

«أتظنون ان بالامكان جعل علماء الإسلام كعلماء المسيحية؟ لايمكن ذلك أبداً، فعلماء الشيعة مستقلّون ولايستندون الى أحد، واذا إدّعيتم ذلك فلن تجدوا مصداقاً لما تدّعون. إنّ هؤلاء العلماء المستقلّين الذي لم يستندوا الى أحد، وهؤلاء الطلبة المحترمين يعيشون بثلاثين أو أربعين تومانياً في الشهر، ويتحمّلون المشقة في ذلك، وهذا لايساعد على ان يكونوا مؤيدين لدولة أخرى. أنّهم مستقلّون، ويخرج من بينهم اناس فضلاء، ومنهم يظهر أمثال السيد حسن المدرّس».

ولم ينفرد القائد الكبير وزعيم الثورة الإسلامية بوصف السيد حسن المدرس بمثل هذا الوصف، وإنّما ذكره رجال السياسة والدبلوماسيون كقدوة ونموذج.

فرجل كالدكتور مصدّق، رجل السياسة وقائد النهضة الوطنيّة في ايران، والذي يعد بنفسه خلال فترة البهلوي الأول والثاني، قدوة للمقاتلين وقدوة للمحاربين المستميتين، يتحدّث عن المدرس وكأنّه مريد يتحدّث عن مراده الكبير، فقد كان كلّما أراد ان يتحدّث عن شخص باعتباره مثلاً للجهاد المتواصل المرير،

فأنه يذكر السيّد حسن المدرس.

وذات مرّة وقف خلف الحاكية في جلسة يوم ١٩٤٣م باعتباره نائباً في الدولة الرابعة لمجلس الشورى، وكان ينتقد أعمال الدولة في ذلك الحين، فقال: «ألم يصفع المدرس في هذا المكان؟ ألم يكن موته في هذا المجتمع بسبب المصاعب والمشاق التي لاقاها؟ ألم يستشهد؟».

هذه كلمات قيلت في المدرس بعد موته، بعد استشهاده في سبيل العقيدة، وكان في زمان فارق فيه المدرّس هذه الدنيا الفانية، بعد سنوات طوال من الجهاد التاريخي المتواصل، وخلّد اسمه الناصع في سجل التاريخ كاسم بارز عظيم. غير أنه حتّى في الوقت الذي لم يصبح مشهوراً في التاريخ، بل ولم يكن قد وضع قدمه على طريق الجهاد التاريخي بعد، أي عندما كان شاباً قليل التجربة، كان شخصية قل نظيرها، وأظهر جوهر وجوده بحيث إنّ العلماء والعظماء في ذلك العصر علموا بأهميته ومكانته وجوهره، فكانوا يذكرونه بكل عزة وإحترام وتبجيل.

فكرة دراسته

لقد أظهر السيّد قدر وجوده أثناء تحصيله العلوم في العتبات المقدّسة، وبلغ هذا الإظهار لحقيقة وجوده حدّاً، بحيث لفت انتباه مرجع الشيعة الكبير وزعيم الجهاد ضدّ الاستعمار والاستبداد في مرحلة الارهاب والدكتاتورية في ظل حكم الطاغية ناصرالدين شاه، ألا وهو المرحوم الميرزا الشيرازي الأوّل، حتّى ان القائد العظيم والأستاذ الجليل كتب بخطّ يده مثنياً على تلميذه:

«إنّ لهذا السيّد من ذرية الرسول ﷺ طهارة أجداده، وربما أذهلني ذكاؤه وفراسته أحياناً، فقد تفوّق في مدة قصيرة على جميع أقرانه في الدرس، كما فاق جميع أصحابه في الفقه والأصول، أمّا قوة قضائه فهي في حدّ الكمال وغاية الورع والامانة والتقوى».

وقد قام المحقّقون والمؤرّخون بتحقيقات كثيرة حول السيّد حسن المدرس، وقد كتبوا كتباً ورسائل ومقالات كثيرة جدّاً حول حياته وأفكاره ومعتقداته وجهاده



ونشاطاته، وكذلك حول تأثيراته البناءة في حياته وفي الأجيال التي تلتها، وفي السياسة الشباب الذين كانوا أثناء أوج جهاده أطفالاً أو يافعين، أو ربّما لم تكن أعينهم قد رأت نور الحياة بعد. وأحد هؤلاء المحققين هو المرحوم (مهدي بامداد) الكاتب المعاصر الذي جمع نتيجة نصف قرن من تحقيقاته حول الرجالات والسياسيين في فترة المائتي سنة الأخيرة في كتاب أسماه (تاريخ رجال ايران) وقد ذكر في هذا الكتاب مطالب مهمّة تلفت النظر حول السيّد حسن المدرس. وبالرغم من أنّ المحققين والمؤرخين الآخرين قد انتقدوا فيما بعد كتاب (مهدي بامداد) التاريخي، وقالوا إنّ كثيراً من الحقائق قد أهملت ولم تؤخذ بنظر

الاعتبار في هذا الكتاب، وبالرغم من أنّ في هذه المجموعة نفسها قالوا: «انّ المرحوم بامداد لم يستطع ان يآرخ كثيراً من المطالب، وخاصّة فيما يخص أولئك الذين جاهدوا رضا شاه، وذلك نتيجة الارهاب والاضطهاد الذي كان حاكماً على ايران عند صدور كتابه».

وبالرغم من أنّ هؤلاء قد قالوا أيضاً: «بان ما يخصّ السيّد حسن المدرس لم يُعط حقه كما يستحقّه، فتد تجاوز أهمّ مراحل حياته التي تشتمل على جهاده السياسي وخدماته الإسلامية والاجتماعية، والتي أدت الى استشهاده في نهاية المطاف، ومزّ عليها مرور الكرام من دون تحليل وتحقيق كاف، ولم يذكر كثيراً من النكات وأخفاها».

مع كل هذه النواقص فإنّ ما كتبه المرحوم (بامداد) حول المدرس كان كتاباً تحقيقيّاً وثائقيّاً، وهو جدير بالاهتمام لا يمكن التفاضي عنه وتجاهله بسهولة. ولهذا فإننا ننقل هنا جوانب مما كتبه (بامداد) حوله، بنفس اللفظ، من أجل ان نفتح أبواب التعرّف على حياة المدرس وجهاده وخدماته.

مقالة بامداد

«ولد السيّد حسن المدرّس - المشتهر بالمدرّس - ابن السيّد اسماعيل سنة ١٢٧٨ هـ في قرية (سرابه كجويه) من نواحي اردستان - والتي تسمى الآن بحيّ المدرس - غير أنّ أباه وجدّه - وكانا من خطباء المنابر - كانا من أهالي (زواره) ويعيشان في قمشه (شهرضا)، وفي سن السادسة عشرة رحل الى اصفهان للاستمرار في تحصيل العلوم، وبقي فيها (١٣) سنة، وكانت دراسته في هذه الفترة على يد الملا عبدالعلي الهرندي (١٣٠٦ هـ) وجهانگیرخان القشقائي (١٣٢٨ هـ). وفي سنة ١٣٠٩ هـ رحل الى العتبات المقدّسة لإكمال دراسته، وبقي هناك سبع سنين حضر فيها درس الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني، والسيّد محمد كاظم اليزدي، وفي سنة ١٣١٦ هـ ورد اصفهان قادماً من العراق، واشتغل بتدريس الفقه والأصول في مدرسة (جده كوچك)، ولمّا كان يدرس هذه العلوم اشتهر لذلك

بالمدرّس. وخلال فترة وجوده في اصفهان قرّر مخالفوه ومعاندوه قتله، وأطلقوا عليه أربعة عيارات نارية في مدرسة (جده بزرگ) لكنّهم لم يوفقوا في اغتياله، فعاد الى النجف الأشرف واستمرّ في تحصيل العلوم العالية.

وبعد التغييرات التي حدثت في اصفهان بعد تحوّل شكل الحكومة من المستبدّة الى الدّستورية، رشح في الدورة الثانية لمجلس الشورى الوطني سنة ١٣٢٨ من قبل هيئة علماء النجف، وذلك للإشراف على قوانين المجلس، وطبق احد مواد الدّستور، ف جاء الى طهران وعرّف نفسه كعضو من أعضاء اللجنة العلمية التي كانت إحدى لجان المجلس. وفي الدورة الثالثة سنة ١٣٣٢ أُنتخب عضواً من قبل أهالي طهران، واشتهر في طهران.

في محرّم سنة ١٣٣٤ هـ حيث كانت الحرب العالمية الأولى مشتعلة، هاجر برفقة عدد من أعضاء المجلس الى العراق وسوريا وتركيا، واستمرّت الهجرة سنتين، وفي نفس هذه السنة تشكّلت حكومة في المهجر برئاسة (رضا قلي خان ما في نظام السلطنة)، شغل المرحوم المدرس فيها منصب وزير العدل، ثم عاد مع باقي المهاجرين الى ايران، وكان عضواً في المجلس في دوراته المختلفة.

كان المدرس يحيا حياة بسيطة ولم يكن يعبأ بالمأكل والملبس، ويقنع بأقلّ ما يُقنع به. وكان ثقة ورعاً جداً، ذكياً حاضرَ الذهن والجواب.

وعاش السيّد منذ نعومة أظفاره في عائلة تعيش حياة قاسية وبسيطة، فقد كان أبوه رجلاً متديناً لايهتمّ بمال الدنيا، وعلمَ عائلته وأولاده هذا المسلك والعقيدة، وكان يرغب في ان يكون أولاده قنوعين - مثله - بعيدين عن الحرص والطمع، زاهدين في مال الدّنيا، مجاهدين للظلم والجور، لا يستسلمون أمام قوة الظلم، شجعان ذوي شهامة، لا يبيعون شرفهم وقيمهم الانسانيّة بالذهب والمال، ولا يستسلمون أمام منطق القوّة، وان يكونوا مستعدين للجهاد من أجل الحق والحقيقة، وان يتخلوا في هذا الجهاد والحرب عن راحتهم وأهليهم، بل وإن اقتضى الأمر لا ييخلون بأنفسهم وإنّما يضحون بها في سبيل الحقّ.

في مدرسة علي عليه السلام

يقول السيّد حسن المدرّس نفسه:

«لقد علّمنا والدنا في الصغر كيف نقنع بوجبة طعام واحدة طوال اليوم والليلة، وكيف نحافظ على نظافة ملابسنا لئلا نكون أسرى الحصول على لباس جديد، فقد جعل أجدادنا الطاهرين قدوة لنا نعتبر بهم ونهتدي بهداهم، وكان يقول: نحن نتعلّم الحلم والصبر من جدّنا العظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والشهامة والقناعة من جدّنا الطاهر علي بن أبي طالب عليه السلام، ومواجهة الظلم والجور وعدم الاستسلام له من جدنا الشهيد سيّد الشهداء عليه السلام.

كان أبي يقول دائماً: ان من لم يتعوّد الإفراط في الأكل والنوم، واجابة نداء بطنه كلّما دعته الى الأكل لن يستسلم أمام الجور والظلم، ولن تأسره زبارج الدنيا أو يضعف أمامها. وكان يأتي بجدّنا الأطهر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كمثال، وكيف أنه لما كان بضيافة ابنته المحترمة أمّ كلثوم في آخر ليلة قبل إصابتها، وأتته بافطاره، وكان لبناً وملحاً، اعترض علي ابنته بأنّ متى كنت أتأدم بإدامين حتّى أتيتيني بهما؟ ولما أرادت رفع الملح من على المائدة، قال الإمام عليه السلام بأنّ من الأرجح ان ترفعي اللبن وترسليه الى عائلة فقيرة ليس لديها ما يكفيها من الطعام، وأوضح انّ فلسفة الصوم هي أن يقتنع الإنسان بوجبة طعام ويمنحها الضعفاء.

وكان أبي يقول: ان من بلغ هذا الحد من القناعة في حياته لن يتقاضى عن عزّته وكرامته الانسانية أو يستهين بها من أجل الطعام الجيّد.

وكان المثال الآخر للحياة بالنسبة الى والدي هي حياة جدّي العظيم سيّد الشهداء عليه السلام وجهاده، حيث وعده يزيد بمال وفير، وعيش رغيد، مقابل بيعته له، لكن الامام تجاهل كل هذه الوعود ولم يعبأ بها في سبيل الجهاد من أجل الحقّ والحقيقة، والدفاع عن عقيدته وإيمانه، وضحى بنفسه وأهله، بل وحتّى شبانه ورضيعه».

وإذا كان هذا الاب يربّي أولاده منذ طفولتهم في مدرسة أئمّة ديننا العظام، وأكابر رجال تاريخ الحياة البشرية، فلا بدّ ان تنتظر ثورة ولد كالسيد حسن

المدرس.

لقد كان المدرس طوال عمره يلقن نفسه ويذكرها بنصائح أبيه ومواعظه ولم ينحرف قيد أنملة عن الخط الذي رسمه له أبوه.

وتضمن كتاب صدر في شهر حزيران سنة ١٩٧٦ م - بصورة سرّية - برامج المدرّس وآثاره ومذكراته، إضافة الى رسائل ومقالات حول حياة هذا العالم الحر وجهاده، وجاءت فيه مطالب تلفت النّظر حول خصوصيات المدرّس هذه، ومن جملة مذكرات أحد أصدقاء المدرس والملازمين له في مراحل حياته المختلفة، فحول كيفة مجيء المدرس من اصفهان الى طهران كتب هذا الصديق القريب:

«وفي خبر جاء من أصحابه وأفرانه والمقربين منه أنّ السيّد الجليل القدر قد ركب عجلة ذات إطارين يجزها جواده الهزيل وغادر اصفهان في الصيف القائط متجها الى العاصمة، وعند وصوله نزل ضيفاً في دار إمام جمعة خوئي. وقد رحب إمام الجمعة به و كانت بينهما صداقة وألفة شديدة.

وبعد ان أقام عدة أيام في دار إمام الجمعة ذهب للبحث عن غرفة، فوجد غرفتين في مفترق طرق (أمين حضور) على مقربة من إمام الجمعة طلب صاحبهما ٣٠ ريالاً كبديل إيجار عن احدهما و٣٥ ريالاً عن الأخرى، فاختر السيّد ذات الـ (٣٠) ريالاً، فقالوا له: أتريد ان تقتصد بهذه الخمسة ريالات؟ فأجابهم: ان الحاجة هي التي تذهب باستقلال العقيدة والإرادة، ولا أريد ان أحتاج إلى شخص أو أشخاص، ويجب ان أقيم أسس حياتي لا أحتاج الى الناس ولا أكون أسير فضل أحد، ولا ينقص من قوّة أخلاقي شيئاً.

ثمّ أضاف باللهجة الإصفهانية: «أيها السادة، إتي لست من أولئك الذين يأخذون العطايا ليسكتوا، أريد ان أكون حرّاً، ويكون لساني الذرب حرّاً».

تفصيل الحال بقلمه

إن أقوى ما بين أيدينا من الكتابات تخصّ تحليل حياة السيّد حسن المدرّس وجهاده وخدماته، هي مقالة قصيرة بقيت من السيّد نفسه، ومع أنّ هذه المقالة تمتاز

بكونها فهرسة شخصيّة، ولا تشير الى شيء من نشاطاته وجهاده، ولا تحتوي إلا على ولادته ونضجه وحياته الظاهرية، غير أنّها مدخل مناسب وجدير بالإهتمام بالنسبة الى الدّخول في مبحث جهاده وخدماته، ولذلك فلا بأس ان نلقي نظرة على هذه المقالة الوجيزة:

«كانت ولادتي في حدود سنة ألف ومائتين وثمانية وسبعين للهجرة، وأكون قد أمضيت من عمري الى الآن ما يقرب من الستين عاماً. ولدت في قرية (سرايه) من توابع اردستان. أبي اسماعيل، وجدّي المير عبدالباقي من طائفة مير عابدين الذين يسكن أكثرهم الآن في تلك القرية. وأنا من السّادة الطباطبائيين. وكان عمل أبي وجدّي تبليغ أحكام الله.

كان جدّي المير عبدالباقي يعتبر من الزّهاد، وقد اصطحبني معه الى (قمشه) لتربيتي وانا في السادسة من عمري، وقد قضيت صباي مع هذا السيّد الجليل، وقد فارق الحياة وعمري (١٤) عاماً تقريباً.

وطبقاً لوصيّة جدّي الفقيه فقد وردت اصفهان لتحصيل العلوم وأنا في السادسة عشر من عمري، وبقيت فيها ثلاثة عشر عاماً وأنا مشغول بالدراسة.

في سنّ الحادية والعشرين توفي والدي كان مدّة مكوثي في اصفهان قرابة الثلاثة عشر عاماً، وأدركت في هذه المدّة ما يقرب من ثلاثين أستاذاً في العلوم العربية والفقه والأصول والمعقول، وكان أبرزهم في علوم العربية المرحوم الآقا ميرزا عبدالعلي الهرندي النحوي، الذي عمّر حوالي الثمانين عاماً، وله تصانيف كثيرة، لكنّه بقي مغموراً لعدم إقبال الدّنيا عليه. وفي علوم المعقول كان الأبرز المرحومين جهانگيرخان القشقائي والآخوند الملا محمد الكاشاني، اللذين قضيا عمريهما في مدرسة صدر باصفهان، وفارقا الدنيا زاهدين فيها.

بعد واقعة الدخانيات (واقعة رجي وتحريم التبغ) تشرّفت بالذهاب الى العتبات المقدسة، وبعد ان تشرّفت بالحضور لدى آية الله الحاج الميرزا حسن الشيرازي رحمة الله عليه لتلقّي الدروس اخترت البقاء في النّجف الأشرف. وقد حضرت دروس علماء ذلك الزمان وأعاضمه تيمناً وتبرّكاً، واستفدت العلم من

أكثرهم، غير ان جلّ دراستي كانت على يد المرحومين المغفورين الحجّتين الكاظمين: الخراساني واليزدي.

وقد دامت إقامتي في العتبات المقدسة ما يقرب من سبع سنين، ثم رجعت الى اصفهان، واشتغلت بتدريس الفقه والأصول في مدرسة (جده كوچك) وهي مدرسة في اصفهان تعرف بهذا الاسم، وأنا الآن مشغول بذلك في مدرسة (سبه سالار) وأرجو من الله ان يوفّقني الى قضاء بقيّة عمري في هذا السبيل.

بعد رجوعي من العتبات المقدسة الى اصفهان اقتصرت على الأمور الإجتماعية والمباحثة والتدريس، حتّى قام الدستور محلّ الاستبداد فاستجدت أوضاع أخرى، حتّى أنه يمكن القول: اتّسع الخرق على الراقع، وامتنالاً لأوامر حجج الإسلام في العتبات المقدسة، ودعوة الدورة الثانية لمجلس الشورى الوطني لي لأكون كمشرف من الطراز الأول على مجلس الشورى الوطني، أتيت الى طهران وكنت في دورات المجلس الى الآن.

رأيت ما يجدر النظر اليه، وسمعت ما يستحقّ السماع خلال سنوات الثورة، ومن جملة ما جرى عليّ من حوادث الهجرة مع المجاهدين الايرانيين في الحرب العالمية الى عراق العرب وسوريا واسطمبول والتي طالّت سنتين، ويتطلّب تفصيلها مجالاً أوسع.

وقد كنت هدفاً لرصاص المهاجمين مرّتين: الأولى في مدرسة (جده بزرگ) باصفهان، حيث أطلقوا عليّ أربع عيارات نارية في وضح النهار، لكنّهم لم يوفّقوا في إغتيالي ولم أطاردهم.

والثانية في السنة الماضية (وهذه المقالة كتبها المدرّس قبل ٧٠ سنة تقريباً) حيث كنت متّجهاً الى مدرسة (سبه سالار) عند طلوع الشمس للتدريس، فأحاط بي عشرة أشخاص جنب المدرسة - وفي مثل هذه الأيام تقريباً - وأطلقوا عليّ الرصاص، وقد أطلقوا كثيراً من الرصاص لكن لم تصبني إلا أربع رصاصات، ثلاثة منها أصابت يدي اليسرى قرب الخصر، وكان بعضها الى جنب بعض: تحت المرفق وأعلاه وتحت الكتف. وفي الحقيقة كان الرمي جيّداً، واستهدف قلبي ولم يخطئه،

ولكن مشيئة الله عطلت التأثير. كما أصابت مرفق يدي اليميني اطلاقاً واحدة. لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم».

لقد كتب السيد حسن المدرس هذه الترجمة بقلمه في السابع من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ هـ أي قبل أكثر من سبعين عاماً، وذلك في السنوات الأولى لصدور صحيفة إطلاعات، وقد كتبها نزولاً عند رغبة مدير تلك الصحيفة وطلبه منه ذلك، فكتبها وسلمها الصحيفة، ولا تزال النسخة الأصلية لهذه المقالة محفوظة في أرشيف الصحيفة.

حياته السياسية

بالرغم من ان السيد حسن المدرس كان من الشخصيات المعروفة في فترة حكومة القاجاريين، كما كان دائماً في صف المجاهدين في ثورة الدستور، ومن مجاهدي نهضة الايرانيين الكبرى ضد الاستعمار الانجليزي واستبداد القاجاريين، لكن حياته السياسية المشحونة بالحوادث قد بدأت في الواقع منذ تسلط رضاخان ميربنج.

عندما هب الشعب الايراني المحروم المضطهد ضد ظلم القاجاريين وجورهم، وضد الاستعمار البريطاني واستغلال أذنايه، وقام بأول ثورة له بقيادة الزعيم العظيم الميرزا الشيرازي الأول، كان المدرس شاباً مملؤه الحماس والفتوة، فلم يكن متحملاً لمقدمات ثورة الدستور، وكان له الدور المؤخر فيها وحسب، بل كان بعد ذلك، حينما دخل جهاد الشعب المستميت من أجل إقتلاع جذور الاستبداد وإقامة حكومة الدستور مراحل الجدية، مجاهداً ثائراً شجاعاً لا يعرف الخوف.

وكان عمره عندما وقع مظفرالدين شاه على قرار الدستور (٣٧) عاماً، حينما عرف طريقه في الحياة، وخطا في هذا الطريق خطوات مؤثرة، ففي أوج نشاطات أنصار الدستور كان السيد في اصفهان، وكان مجاهدوا اصفهان يشعرون بان روحاً جديدة تدب فيهم وتدفعهم للاستمرار في الجهاد، وذلك من خلال كلمات السيد النارية وخطاباته المثيرة.

وقد وسع من طريقه في مسيرة ثورة الدستور حتى أنه وصل الى (دار الشعب) في الدورة الثانية لوضع القوانين في مجلس الشورى الوطني. أما في فترة حكومة رضا شاه الاستبدادية الارهابية فقد أظهر شخصيته الراقية وجوهر وجوده، وأثبت اسمه في تاريخ ايران المعاصر كأحد أجمع رجال القرن الأخير.

وفي أوج قوة رضاخان أظهر شهامة وصراحة عجيبة في التصريح باعتراضاته الأساسية ضدّ الشاه - وفي الواقع ضدّ الانجليز الذين أجلسوا رضاشاه على كرسيّ الحكم وساندوه بكل قواهم - حتى انه شلّ أجهزة حكومة رضاشاه - كما يقول ذلك أصحاب السيّد ورفقاؤه في الجهاد - وكانت هذه الاعتراضات والمخالفة المتواصلة هي السبب في إثارة عداة رضاشاه وحماته للمدرس.

وأخيراً بلغ في نشاطاته وجهاده - الذي كان يحفّ به الأعداء الألداء المعاندون - حدّاً ان أعلن رضاشاه وحماته بان السيّد إمّا ان يكفّ عن نشاطاته المدمرة ويغيّر مسلكه، أو ان يفقد حياته في هذا الطريق. ومعلوم أنّ رجلاً مجاهداً كالمدرّس أيّ طريق سيختار: طريق الشعب.

وبذلك كان السيّد حسن المدرّس مستمراً في طريق عقيدته وايمانه، وساعياً من أجل الحفاظ على المعايير الإسلامية، ومن أجل نيل الحرّية والحفاظ على مكتسباتها، واستمرّ في هذا السبيل حتى أحاط به خطر رضاشاه وأسياده وحماته الانجليز، وأخيراً ضحى بحياته، فبقيت صورة عالم حرّ طالب للحقّ والحقيقة خالدة في عالم الذكرى^(١).

في السنوات التي أدخلت القوى البريطانية المستعمرة رضاخان الى الساحة السياسية الايرانية كعميل مطيع لها، وجعل الارهاب والضغط والقضاء على الأحرار أوّل أعمال برنامجه، ثار المدرّس باعتباره وجهاً تاريخياً محبوباً، فكان يعلن في المجلس ما يريده بكلّ صراحة، ويدلي برأيه في تأييد نزع الحكم من القاجاريين ومنحه الى رضاخان، وبشهامة خاصة لا تبدؤ إلا من رجل كالمدرّس، يقف اليوم ليعلن مخالفته للارهاب والدكتاتورية الجديدة وليدافع عن الحقّ والحقيقة.

ومع أنّ القضاء على المخالفين وإخماد أصواتهم كان أمراً في غاية البساطة بالنسبة الى عملاء الاستعمار، لكن نداء المدرّس قد تخطّى حدود مجلس الحكم ذاك ودوّى في أرجاء البلاد، وخلال فترة وجيزة تلقّى الشعب الواعي هذا النداء، وأطلق صرخاته من أجل إيصاله الى الهدف، وفجأة تحوّل هذا الصراخ الى صدئٍ مدوّ لصوت مطالبة أمة وعت الأمور بالحقّ والحقيقة.

لقد جرت نداءات الجهاد التي أطلقها المدرس في أعماق التاريخ، وأخذت مكانها في قلوب الناس وشعوبهم، حتّى أثبت في التاريخ مرّة أخرى حقيقة العشق والوفاء. أثبت حقيقة أنّ الشعب المضحي لا ينسى أبداً أبناءه العظماء.

مقالة آية الله الطالقاني

ذكر المجاهد الصابر التقدير آية الله السيّد محمود الطالقاني المدرّس بقوله:
«لقد فتح المرحوم السيّد حسن المدرس طريق الجهاد ضدّ الاستعمار، وطرح فكرة أنّ (لا الروس ولا الإنجليز)، وإنما الأمة هي التي يجب ان تقرّر مصيرها بيدها، وتختار طريقها وتسير فيه».

النيابة في المجلس

في سنة ١٣٣٢ هـ انتخب السيّد حسن المدرس ممثلاً في مجلس الشورى الوطني لأوّل مرّة، وكان ذلك في زمان التهمت فيه نيران الحرب العالميّة الأولى الدنيا، وكانت الدول الإستعماريّة - وخاصة بريطانيا - تنتهب خيرات الشعب الايراني المحروم وتأخذها غنيمة لها. في مثل هذه البرهة هبّ المدرس بايمان راسخ وإخلاص قلّ نظيره للجهاد ضدّ المستعمرين، وسار في درب عقيدته وهدفه، واستمرّ في صراعه الذي لا يعرف المهادنة واللين مع الإنجليز.

لقد استمرّت نشاطات السيّد واتّسعت أطرافها حتّى شملت دورة المجلس، فطرحت مسألة تغيير نظام القاجاريين بحكومة رضاخان، وفي نفس تلك الفترة بدأ صراعه المرير ضدّ حكومة البهلوي وبلغ أوجه في مدّة قصيرة.

في الاجتماع التي عقدت يوم السبت ١٩ من شهر آبان سنة ١٣٠٤ هـ. ش طرح إقتراح من قبل عدّة من نواب المجلس يطالب بتغيير الحكم، فخالف المدرّس هذا الإقتراح أشدّ مخالفة، ولمّا كان المدرّس ومصدّق وأفراد - لايتجاوزون أصابع اليد- يشكّلون الأقلية المخالفة لهذا الإقتراح، فقد قام المدرّس بمناورات برلمانية من أجل إيجاد جوّ مناسب يؤدّي الى تحقيق هدفه، ويكون جابراً لنقص القوى الإنسانية التي تؤيّده في موقفه.

في تلك الجلسة، وعندما كان البحث والنقاش على أشده، نهض المدرس فجأة وصاح بصوت عال:

أيها الرئيس، لديّ إعتراض قانوني.

فالتفت (تديّن) وكان رئيس المجلس آنذاك، اليه بتعجّب وقال: آية مادة؟ فقال المدرّس الذي لم تكن في ذهنه آية مادة قانونيّة ليطبّقها على ما يجري في المجلس ويستفيد منها لصالح عقيدته وهدفه:

المادة هي انّ هذا العمل يخالف الدستور!

صحيح انّ عملاء النظام وباعة الضمير من النوّاب لم يسمحوا للمدرس ان يتمّ كلامه، غير أنّه نهض من مكانه وغادر المجلس كإعتراض على ما يجري في المجلس مما يخالف مصالح الأمة والوطن، وفي أثناء مروره أمام النوّاب وهو في طريقه الى خارج المجلس قال بصوت عالٍ: اذا أعطوا ألف رأي موافق بانّ هذا العمل سيبقى مخالفاً للدستور.

يعتبر عمل المدرس هذا وحركته السريعة عملاً جبّاراً في ذلك الوقت، اذا أخذنا بنظر الاعتبار الأوضاع السائدة آنذاك، والقوّة التي حصل عليها رضاخان بمعونة الانجليز ودعمهم، وكان يستخدمها في أبعاد جهنميّة. وقد أثبت بهذا العمل انّ الانسان حيّ بعقيدته ورأيه، ويجب ان يجاهد من أجل عقيدته حتّى اذا استلزم الأمر بذل حياته: قف عند رأيك في الحياة مجاهداً - إنّ الحياة عقيدة و جهاد.

لقد تلقّى السيّد حسن بسبب جهاده المتواصل ضدّ (رضاخان ميربنج) -والذي يعدّ في الحقيقة جهاداً ضدّ قوة بريطانيا الاسطوريّة آنذاك - مصاعب كثيرة

من رضاخان، حتى حاول أزالاه اغتيال السيّد عدّة مرات، وأخيراً نفي بتحريك من رضاخان وتأمّره الى مدينة (خواف) وهي مدينة بعيدة قرب حدود أفغانستان، ولاقى في منفاه أنواع العذاب والظلم والجور، وبعد مدّة نقلوه من خواف الى كاشمر، وقتل هناك تحت وطأة تعذيب نظام رضاخان.

الخصائص الأخلاقية

إضافة الى جميع الصفات اللامعة التي تمتّع بها السيّد المدرّس، فقد كان قدوة لمعاصريه وللأجيال اللاحقة في تواضعه. التواضع الذي يعدّ بنفسه درس عبّرة في التعليم والتعامل، ودرس من الاخلاق والخصائص الإنسانية وخاصّة لجيل الشّباب.

ويروي (باستاني باريزي) الكاتب والمؤرخ المتتبّع في هذا المجال قصّة ذات عبّرة عن المدرّس، فقد كتب:

«كما هو معلوم، فان الحرب العالميّة الأولى وتشكيل حكومة مؤقتة في غرب ايران قد أدّى الى هجرة بعض اعضاء الحكومة المؤقتة الى اسطنبول. وفي موعد الحركة من داخل تركيّة لم يكن في القطار ما يكفي من المكان، لأن القرار كان فجائياً، فأمرت الدولة العثمانية - رعاية لحال المهاجرين واحتراماً لشخص السيّد المدرّس - باضافة عربّة أخرى الى القطار تكون خاصّة بهم، كما عيّنت عدّة ضبّاط للمحافظة على هذه المجموعة.

وكان المرحوم المدرّس منظماً ذا ذوق؛ لتعوده على حياة طلبة العلوم، فكان يهتئ مستلزمات حياته بنفسه، وفي أثناء الطريق ارادوا ان يستريحوا قليلاً فنهض المدرّس وأوقد نرجيلة نظيفة وهياً لهم شاياً طيب الرائحة، وحمل أمير خيزي - راوي هذه القصّة - عدّة أقداح من الشاي ونرجيلة الى الضبّاط، فأعجب الضابط بالشاي كثيراً، ولما نظر الى هيئة المرحوم المدرّس البسيطة وكيفية خدمته ظنّ ان عمله هو تهية الشاي، فأمره بالإشارة أن يأتيه بقدر آخر، فأتاه المرحوم المدرّس به، ووجّهه في غاية الطلاقة. وعندما اقتربوا من اسطنبول تقدّم رئيس الضبّاط وقال

لأمير خيزي: أتّي أريد ان أدفع ثمن الشاي، فأخبره أمير خيزي بأنّه لا ضرورة لذلك، وأصرّ الضابط على أنّه لا يريد ان يضربّ بعامل الشاي العجوز هذا.

في هذه الأثناء توقّف القطار عن الحركة، وكان جماعة قد جاءوا لإستقبال الهيئة فاستقبلوا المدرّس وحفّوه في مسيره بالسلام والصلّوات، وكان الضابط ينظر بتعجّب وحيرة، فسأل من أمير خيزي أن يبيّن له الأمر، فقال له: إنّ هذه العربية انما أضيفت الى القطار احتراماً للسيد المدرّس. فحجل رئيس الضباط من سماع هذا الخبر ورؤية ذلك الاستقبال الحافل، فأدار وجهه الى اصحابه وقال وهو في أشدّ العجب: أقسم بالله إنّي ما رأيت بعد عُمر رجلاً بهذه العظمة».

ويضيف باستاني باريزي في ذيل مقاله: «لعلّ ما قيل في المجلس - من أنّ المدرّس عمري من نسل علي - إشارة الى هذه الحادثة التاريخية».

الكدح من أجل المعيشة

إنّ التواضع اللائق بطالب العلم، والكدح من أجل المعيشة كأبسط العمّال كان درساً تتعلّمه المدرس في مدرسة مولاه عليّ بن ابي طالب عليه السلام، وقد جعل هذا الدرس أوّل برامج حياته، ويذكر نفسه به من طفولته وشبابه، ونذكر هنا قصّة أخرى من حوادث حياة المدرس كمثل لذلك:

وتبدأ القصة في أنّ المرحوم السيّد حسن المدرس كان يقول دائماً لتلك الجماعة من أهالي اصفهان، التي كانت تذهب اليه ليحلّ لهم مشاكلهم أو ليرشدهم في قضاياهم: أرجو من الله ان لا يطلب أحد أبناء محمّد رضاخان سرهنگ گزي (جدّ بيت الأصفهاني الجليل) منّي شيئاً فاضطرّ الى تنفيذه، ولو طلب أخي منّي شيئاً لم أجيبه اليه. وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب:

«عندما كنت شاباً غادرت قرية سرايه كجويه الى اردستان، ومن هناك الى اصفهان، واشتغلت بتحصيل العلم، وكنت مضطراً الى الذهاب الى القرى والعمل بأعمال البناء ونقل الأمتعة في أيام العطلة الأسبوعية، وذلك من أجل تأمين المصاريف اليوميّة ونفقات الدراسة للاسبوع القادم. وفي يوم من الأيام ذهبت الى

(كز) وهناك إستاجرني وكيل محمد رضاخان سرهنگ، على عمل فأشار الى جدار بستان وقال: هدم هذا الجدار وخذ عند العصر (قرانين) أجرة عملك، فقبلت العمل وشرعت فيه.

وعند الظهر جاء فارس ووقف الى جانبي وقال: يا هذا ساعدك الله، أترك باقي الجدار ولا تهدمه! فقلت له: أني لا أعرفك أيها السيد، وقد أمرني شخص آخر بهدم هذا الجدار، ويجب ان أقوم بعملي، ثم تناولت المعول وبدأت أضرب الجدار بضربات أشد، فقال ذلك الرجل، والذي علمت فيما بعد أنه صاحب الملك: ألا تفهم ما أقول، هذا البستان لي وأنا أقول لك لا تهدم جداره، فقلت له: قد تكون صاحب البستان ولكني لا أعرفك، وقد أمرني رب العمل ان اهدمه، وهو الذي يجب ان يقول: لا تهدمه، لاشخص آخر.

فغضب ذلك الفارس وقال: يريد ابن السبيل مني الوثيقة الرسمية على ما أقول. فقلت: لست كما تقول. البيّنة على من إدعى واليمين على من أنكر. فرجع الى نفسه قليلاً، رفع رأسه ثم أطرق ثانية، وبعد ذلك ضرب جواده وابتعد من هناك، وذهب الى داره، وعدت الى عملي.

وفجأة جاء جنديان فارسان وذهبوا بي الى بيت محمد رضاخان سرهنگ، فقال لي: يا هذا، أتدري لماذا لم أعاقبك على وقوفك بوجهي هناك؟ قلت: لا، لا أعلم.

قال: لأنّ أحد لم يقف أمامي الى الآن، وفي تلك اللحظة شعرت بأنني كائن ضعيف، وفي الوقت نفسه علمت من خلال هذا المنطق والمحاورة أنك لست عاملاً، فقل لي ما هو عملك؟

فأجبته: أني الميرزا حسن، وأنا طالب علم، وإنما آتي الى أطراف اصفهان لتأمين مصاريف الدراسة، ثم فتحت صرة صغيرة كانت معي وأريت له ملابسني التي كنت ألبسها في المدرسة والعمامة التي أضعها على رأسي، فطلب المرحوم محمد رضا خان أحد موظفيه وأمره ان يكتب حوالة على أحد تجار اصفهان المعروفين بهذا المضمون: مادام السيد حسن المدرّس طالباً في المدرسة فاذهب اليه بنفسك

وسلّمه ثلاثة توأمين شهرياً في حجرته، ولا حاجة لوصل الاستلام. ثم أتونا بالغداء وأكلنا معاً، وبعدها رجعت الى اصفهان.

لهذا أقول اليوم: أرجو من الله ان لايراجعني أحد أقرباء محمد رضاخان سرهنگ گزى ولايطلب منّي توصية أحد، فأني سأكون مضطراً عند ذلك الى ان أعمل حسب ما يريد ولا استطيع ردّ طلبه».

انّ حياة المدرّس حافلة بهذه القصص التي ملؤها العبرة والعظة، ومع انه كان بإمكانه ان يستعين بالمساعدات التي كانت تنهمر على طلبة العلوم الدينيّة، ويعيش عليها، لكن لم يكن يرى العمل عاراً، وكان يسعى الى ان يؤمّن معاشه من عرق جبينه وكّد يمينه، ويجب ان يتعب ويجهد في هذا الطريق، والأسمى من ذلك انه كان يوضح أنّ تحصيل العلم وسلوك طريق العلم والفضيلة لا يتمّ بسهولة ويسر.

نهاية المطاف:

وكانت آخر أيام المدرس أليمة جدّاً، فعندما بلغ جهاده ضدّ الاستعمار البريطاني، ومجاوبته استبداد رضاخان أوجه، قرّر رضاخان القضاء عليه، نزولاً عند رغبة أسياده الانجليز الذين رأوا المصلحة في ذلك.

في البدء أودعه السجن ثم نفاه، وبعد ان أنزل صنوف العذاب بهذا المجاهد المسنّ أرسله الى سجن كاشمر.

وقد أرسل المدرّس من معتقله رسالة الى أصدقائه ومريديه يخبرهم فيها بأن مدّة سجنه ستمّر سريعاً، وبعد إطلاق سراحه سيبدأ من جديد جهاده ضد الانجليز ورضاخان، وسيمضي قدماً هذه المرّة حتّى يقضي على رضا خان، أو يبذل نفسه في هذا السبيل.

غير انّ رضاشاه اطّلع على هذه الرسالة، فأمر بالقضاء على المدرّس، وأصدر الأوامر بقتله سنة ١٣٤٦، فقتل أفراد شرطة رضاشاه الجلّادون هذا المجاهد الشجاع في سجن كاشمر.

لم يجد السيّد الفرصة للقضاء على رضاشاه، لكن جهاده الذي بدأه وأصحابه

قد قضى على عائلة رضاشاه أخيراً، وأثمر الثورة الإسلامية في إيران.

السيد جمال الدين الواعظ الاصفهاني

في النهضات من أجل الحرّية، والثورات الانسانية والشعبية، وخاصة اذا كانت جذور تلك النهضة إسلامية، يجب ان لا يهمل الحقّ الكبير المهمّ لجماعة لها تأثيرها ونفوذها، ألا وهي مجموعة الوعاظ والخطباء والمتكلمين الإسلاميين، فإنّ دورهم توعية الناس وتعلّمهم وتحريضهم، ولهم دورهم الفاعل والمصيري في خلق موجات الاعتراضات والهتافات وطلب الحقّ والحقيقة، والمطالبة بالحرّية والحقوق.

لقد استطاع الخطباء والمتكلمون الاسلاميون - نتيجة قريهم من الناس، والحياة بين أوساط الشعب المختلفة، والتحدّث المستمر معهم، والاحترام الذي تولّيه اياهم الفئات المختلفة - انّ يوجهوا الشعب الذي بيده القوة الأساسية الفاعلة لكلّ مجتمع، نحو المسير الذي تتطلّبه المرحلة التاريخية ويطوّرونه نحو الأفضل. وحيثما التحق العلماء الواعون المجاهدون، وحتّى على المستويات العليا للعلماء، بجماعة الخطباء والذاكرين والوعاظ المرتبطين بالمجتمع دائماً، واستغلّوا الامكانيات الموجودة لدى هذه الطبقة، فإنّهم استطاعوا ان ينبّهوا فئات مختلفة من الشعب ويطلّعوهم على ما ينبغي ان يطلّعوا عليه، وبعد هذه التوعية ساقوهم نحو ما يجب ان يثوروا عليه ويمحوه.

وفي تاريخ ثوراتنا التحرّرية المناهضة للإستبداد لمعت شخصيتان من هذه الجماعة الواعية الموعية، وغلب نور اسميهما وذكرهما المقترن بالعظمة والاحترام بقية أقرانهما، وهما: السيد جمال الدين الواعظ الاصفهاني وملك المتكلمين البهشتي.

وللنظرة - وإن كانت قصيرة عابرة - إلى حياة هذين العالمين وجهادهما ودورهما البناء في تاريخ نهضات إيران، ضمن تحليل دور العلماء المجاهدين في هذا القرن، ضرورة تاريخية.

دور الخطباء

حول دور الخطباء والوعاظ كتب أحد الكتاب الإسلاميين قائلاً: «إن أعظم رسالة هي رسالة الذاكرين، وهم الذين يستطيعون مقارعة الظلم، ومحاربة من يوجّه التاريخ في مصلحة الأقوياء، والوقوف أمام المؤرخين والكتّاب والمبلفين والعلماء الذين ارتبطوا بأجهزة الأنظمة الحاكمة، فلا تراهم يتحدثون عن الحقائق المصادرة المضاعة، وهم يتجاهلون الحوادث والمجازر، وإنما يدور حديثهم حول أصحاب القصور وجباة الضرائب، وكأنهم لسانهم الناطق.

الذكر هو ذكر ما يقع من المظالم .. ذكر أعظم حادثه وقعت في التاريخ .. ذكر أعظم جناية حدثت على يد خلفاء رسول الله، وبتوى من العلماء التابعين للخلفاء .. وذكر الجنابات التي كانت تقع وتقع اليوم دائماً بحق الشعب وطبقاته المحرومة». «هكذا كان الشيعة ذاكرين للمظالم التي مرّت، ويذكرها (الذاكرون) في محلّها وفي غير محلّها .. يذكرون في كلّ مكان وزمان آية دماء قد أريقّت؟ وأية دماء تراق من أجل إخعاد صوت المذهب والدين والعدالة؟».

«فاذا أردت ان أصدّق أنّك منّا، فيجب عليك ان تُعرج على كربلاء عندما تتحدّث عن محمد ﷺ، وعندما تتحدّث عن علي عليه السلام تتحدّث عن الأئمة عليهم السلام، عن القرآن وعن كلّ شيء.. يجب ان يكون توقيع كربلاء على كلّ ما تعمل، وكلّ ما تقول؛ ليكون ذلك مسنداً وأقبله».

«أنتي أقبل محمداً ﷺ الذي تجلّت رسالته في عاشوراء ...

واقبل النبوة التي كملت رسالتها ونداؤها في كربلاء ...

وقرآني هو القرآن المتصل بكربلاء ...

وابراهيمى هو ابراهيم المرتبط بالحسين ...



واسماعيلي هو اسماعيل الذي يصل الى الحسين (ع) .
بعد هذه النظرة الجميلة التي نظرها كاتب ومعلم حريص الى الذاكرين
والواعظ والخطباء الاسلاميين، نلقي نظرة على حياة واعظين وخطيبين اسلاميين
رفيعين، ومجاهدين شهيدين من شهداء التورات الإسلامية والشعبية في ايران:

الابن يتحدث عن أبيه

كتب السيد محمد علي جمال زاده، الكاتب المعروف ومؤسس الأدب المنثور
في باب (القصة القصيرة) وبأسلوبها البسيط والطريقة العالمية المعاصرة، في ايران،

حول السيّد جمال الدين الواعظ:

«السيّد جمال الدين الواعظ مثال كامل للأشخاص الذين طووا الطريق الصعب بنجاح، منذ القدم الأول حتّى الأخير، فقد طووه برجولة خطوة فخطوة، بكل حبّ وحماس، ومن دون أدنى تردّد وتريث وندم.

ويعد هذا السيّد الجليل - من دون شكّ - من زمرة النوادر والأعاجيب من الرجال، فقد قام بأعمال جذرية انطلقت من شرارة أعماقه الملتهبة وهمتة العالية وارادته المتواصلة، وعدم تزلزله أمام الصعاب، وبعون إيمانه الحديدي، فبلغ مقاماً سامياً، وكان عاقبة أمره ان نال الشهادة في سبيل هدفه المقدّس.

وتتجلّى حقيقة هذا المدعى وتصبح متيقّنة عندما ننظر الى طفل السيّد ملازاده البالغ من العمر ستة أشهر أو سبعة، أصبح يتيماً في مدينة همدان، بعيداً عن أقاربه المعدودين، الذين تفرّقوا في أطراف العالم، أي في جبل عامل بلبنان وبين النهرين واصفهان وأماكن أخرى من إيران والحجاز، ولم يكن معه أحد في هذه الدنيا إلا أمّه الشابة الفقيرة الأميّة العاطلة عن العمل ولا أحد لديها.

ثم ننظر في عالم الذهن الى هذا الشخص بعد ستّ وأربعين سنة وهو سجين في إحدى أقبية أمير أفخم الهمداني بمدينة بروجرد، وهو يرقب الموت في كلّ آن، في حين أدّت عباراته الواضحة وبيانه البليغ وكلامه النافذ المؤثر الذي ألقاه في آلاف الخطابات الملتهبة التي كان قد ألقاها في مدّة زادت على العشرين عاماً في أرجاء إيران، وخاصّة في أعظم اجتماعات العاصمة، حيث اجتمع فيها آلاف المواطنين من بني جنسه، ولما كانت خارجة من القلب فقد دخلت القلوب، ونتيجة للنشاطات والتضحيات المختلفة التي قام بها السيّد مع جماعة من مؤيّديه في الفكرة والعقيدة، فقد حطّوا الحكومة المطلقة للحكّام المستبدّين، وحدّدوا من إطلاق صلاحيّاتهم وفعلهم ما يشتهون.

ويستمرّ السيّد محمد علي جمال زاده - وهو ابن السيّد جمال الدين وبقية مثل هذا الرجل - في حديثه حول والده، فيقول:

«لقد تصدّى السيّد جمال الدين الاصفهاني لوحده في أوج الاستبداد

السياسي والاجتماعي، وتكلم مع الناس بالأسلوب الذي يفهمونه، وقد جذب قلوب الناس اليه وحاز على محبتهم؛ لأنه أظهر محبته وتحرقه الحقيقي وعشقه الصادق الذي لا تشوبه شائبة من الرياء، وكمرّب خير رحب الصدر، أرشد أبناء وطنه الى الوعي خطوة فخطوة، وعلمهم حقوقهم، وهياً الأرضية المناسبة للثورة، ولم يكتف بذلك، وإنما كان بنفسه من طلائع الثورة وقادتها، واستشهد أخيراً في سبيل الثورة.

ولد السيد جمال الدين حوالي سنة ١٢٧٩ هـ في همدان، وأثناء فترة الرضاعة فقد أباه، فأنت به أمه الى طهران. وفي الخامسة من عمره أرسلته الى الكتاب وبعد سنتين أو ثلاثة، وبمجرد ان تعلّم الطفل شيئاً من القراءة والكتابة أرسلته الى معمل صنع السلاسل التابع لزوج أختها. لكنّ السيد جمال الدين الذي كان مولعاً بالدراسة وعاشقاً للاستمرار فيها أصّر ورجى وبكى وتضرع كثيراً، وطلب ممن حوله، وخاصة أمه وخالته وزوجها، أن يأذنوا له في الاستمرار في الدراسة، حتّى لانوا أخيراً لهذا الاصرار والتضرع، فأرسلوه الى الكتاب مرّة أخرى، وهو في سنّ الرابعة عشر.

وقد بلغ عشق السيد للدراسة انه لم يكن يرفع رأسه عن الكتاب لحظة وهو بين يدي الكتاب، واذا رجع الى الدار فانه كان يقضي بقية يومه مع كتابه ودفتره، وحتّى في ظلمة الليل فانه كان يطالع الكتب على ضوء السراج الزيتي الخافت، وعلى ضوء القمر والنجوم من منتصف الليل حتّى الصباح، وكان هذا الإفراط في المطالعة سبباً في ضعف عينه، وهو في عنفوان شبابه، وفي أواخر سني عمره فقدت إحدى عينيه القدرة على الابصار تماماً.

وعندما بلغ السيد جمال الدين سنّ الثانية والعشرين كان في مصاف رجال العلم وفاق جميع أقرانه الذين كانوا معه. ولما كانت اصفهان قد اشتهرت آنذاك كدار للعلم في البلاد، ولما كان جماعة من أقربائه، وخاصة أولاد عمومه يسكنون فيها، فقد شد الرحال مع والدته إليها. ولما كان أقرباؤه قد سلكوا مسلك العلماء في اصفهان، ولهم شهرتهم وتقديرهم، فقد رغبوا السيد ان يتبع عائلته وأجداده الذين

كانوا مفوهين ومن رواد المنابر، فسلك هو أيضاً هذا المسلك.

لقد رضي السيّد هذا الطريق، ولما كان رجل علم ودراسة وتفّرّس، ويكلم الناس بأسلوب بسيط عذب يفهمه الجميع، ويستند فيه الى علمه بالآيات القرآنية والأحاديث والروايات المعتبرة والكتب القيّمة، وي طرح مطالب جديدة لم تسمع من قبل، لكنّها جذّابة متينة؛ لما كان هذا مسلك السيّد وأسلوبه، فقد لفت أنظار أهل اصفهان، وأطبقت شهرته المدينة في مدة قصيرة، بل وتعدّت شهرته حدود اصفهان وذاع صيته في البلدان الأخر.

وفي تلك الأيام، حيث صمّم السيّد، على البقاء في اصفهان بين كل أولئك الأصدقاء والمريدين، تزوّج من بنت اسمها (مريم) وهي من عائلة سراج الملك المعروفة باصفهان، وكان السيّد محمد علي جمال زاده ثمره هذا الزواج. وعلى حدّ تعبير ولده الكاتب، فإنّ «تفصيل حال السيّد جمال الدين مقترن بتاريخ ثورة الدستور في إيران، فقد امتزجت حوادث حياته بحوادث ثورة الدستور في إيران بحيث يصعب التفكيك بينهما».

في اصفهان، وبناء على طبيعته الفكرية وآدابه وعاداته ومعتقداته، وكذلك معنوياته الجهاديّة، وعدم استقراره وتحركه ضدّ الاستبداد، عثر على جماعة من ذوي التفكير الحرّ والمجاهدين والموافقين له في فكره، ومن جملتهم الحاج الميرزا نصرالله البهشتي (ملك المتكلمين)، الذي أصبح من كبار خطباء حركة الدستور، ومن المجاهدين ضدّ الاستبداد، والذين لا يعرفون الهدوء والدعة، ومن المقاتلين المعوقين والشهداء المؤمنين الثابتين، وقد ضحى بنفسه في هذا السبيل. ومنهم الشيخ أحمد مجد الا سلام الكرمانى، والسيّد عبدالوهاب الإمامي الشهير بآية الله. انّ الالفه والعشرة الدائمة للسيّد جمال الدين مع هؤلاء النفر المتفقيين في الفكر والهدف والعمل، خاصّة وانهم كانوا يتمتّعون جميعاً بأفكار واضحة وروح جهاديّة ضدّ الاستبداد، قد جعلت منهم شموعاً تضيء محافل الأحرار وطلائع المجاهدين، حتّى انهم قذفوا الرعب في قلوب عملاء الاستبداد، وخاصة مسعود الميرزا ظلّ السلطان الذي كان يتولّى حكومة اصفهان، لكنّه في الحقيقة قد تجاوز

حدود صلاحياته كحاكم على منطقته، فشكّل لنفسه أجهزة حكوميّة مستقلة، لم تقل في قسوتها واستبدادها عن الأجهزة المستبدّة لنفس الملك القاجاري المستبد. ومن هنا كانت أجهزة الحكومة تسعى، وبمعاونة العملاء والمرتبطين بهم من وعاظ السلاطين وباعة الضمير، الى منع إقامة مجالس الوعظ والارشاد وإلقاء الكلمات من قبل هذه المجموعة، وخاصة السيد جمال الدين، ما أمكن الى ذلك سبيلاً، وخاصة في شهري محرم وصفر، فقد كانوا يجبرونه على مغادرة اصفهان والذهاب الى المدن والقرى النائية؛ ليمتنع من جمع الناس وإلقاء الخطب المنوّرة للفكر عليهم، ولذلك فإنّه اضطرّ في تلك السنوات الى السفر الى شيراز ثلاث مرّات، والى تبريز مرّتين، وبعدها سافر مرّة واحدة الى مشهد سنة ١٣٢٢، وهي السنة التي عرفت بعام الوباء.

وفي طهران أصبح السيد جمال الدين خطيب مسجد الشاه، واستطاع ان يجد له الآلاف من الأنصار المؤيدين المؤمنين بكلماته وأقواله بسرعة، وكانوا مستعدّين للتضحية حتّى بالنفس في السبيل الذي كان يرشدهم إليه.

رأي براون

يقول «ادوارد براون المستشرق الانجليزي المعروف في كتابه (ثورة ايران) متحدثاً عن السيد جمال الدين الواعظ:

«كان السيد جمال الدين قد حصل على نفوذ لا حدّ له بين أوساط القرويين وذوي الحرف والطبقة المستضعفة، وذلك أنه كان يتكلم بأسلوب العوام، ولهذا جذبوا إليه وأحبّوه، وعن هذا الطريق كان يوضح لهم هذا النوع من الانائيّة الواضحة والمخالفة للانسانية، التي كان الايراني مبتلى بها، وكيف ان الشاه قد خرج ليلة للصيد والسياحة، فاذا بالثلوج تنهمر، وهبت رياح شديدة أوشكت معها خيمة الملك على السقوط، فأرسل عدّة جنود الى خارجها وأمرهم ان يمسكوا بأطنائها لئلا تسقط، وفي صباح اليوم التالي حملوا الأجساد الجامدة لأولئك الجنود، فقال: ان هؤلاء أقدم ضحايا الملك!».

مؤامرة الاغتيال

في خضم أيام جهاد الشعب، وعندما اشتدَّت حركة الدستور، فرضت تلك الأوضاع على العلماء الواعين المجاهدين ان يتصدَّوا لقيادة النهضة وان يكونوا طلائعها وروادها، وفي تلك الفترة أيضاً بدأ السيّد جمال الواعظ نشاطاته الواسعة ضد الشاه والحكّام وأذناهم من المستبدين، ولذلك اشتدَّ غضب السلطة عليه، فوضعت خطة مؤدّاهَا ان السيّد إذا ما صعد المنبر وشرع في الخطابة والوعظ والارشاد، تثار ضجّة تملأ المسجد صراخاً وضوضاء، وأثناء تلك الضجّة يُقضى على السيّد، غير أنه بفطنته وتضحية مؤيِّديه، نجى من هذه المؤامرة، وحمله أبناء السيّد محمد الطباطبائي - أي الأقا ميرزا محمد صادق والميرزا عبدالمهدي - على أكتافهما وأخرجاه من المسجد، وذهبا به الى دار والدهما.

وحول هذا الموضوع يضيف السيّد محمد علي جمال زاده قائلاً:

«لقد غادر علماء القوم وزعماءهم مسجد الشاه وذهبوا الى السيّد عبدالعظيم واعتصموا هناك، لكن لما كانت حياة السيّد مهدّدة بالخطر، فقد أخفوه في طهران في منزل ناظم الإسلام الكرمانى، كاتب السيّد الطباطبائي ومدير مدرسة الإسلام، الذي أصدر فيما بعد كتاب (تاريخ بيدارى ايرانيان).

وقد بذل أفراد الدولة جهوداً كبيرة من أجل إلقاء القبض على السيّد، ولذلك كان مضطراً الى تغيير مكان اختفائه كل عدّة ليال، وأخيراً رأى انّ منزلنا في محلة السيّد ناصرالدين آمن من أيّ مكان آخر، فغيّر ملابسه وذهب ليلاً الى هناك، واختبأ في الطابق العلوي. وفي ذلك الوقت أيضاً أظهر أهالي طهران حبّهم الشديد ومشاعرهم المخلصة.

وكان اليوم الذي كان فيه العلماء في طريق عودتهم من السيّد عبدالعظيم، وخرج فيه السيّد من الدار ليذهب الى السيّد عبدالعظيم، وليعود بمعيّتهم الى المدينة يوماً مشهوداً، فقد أحاط به عامّة الناس يقبلون يديه ويهتفون بحياته ويرفعون أصواتهم بالصلوات، حتّى كسرت العربة فحملوه بعض الطريق على الأيدي والأكتاف وهم يقولون: «جاء السيّد صاحب المنبر».

الهجرة الى قم

ولما كان شهر محرّم على الأبواب، وكان هناك قلق من ان يتكلّم السيّد جمال الدين على المنبر كلمات تثير الصخب والحماس والثورة، فقد اجتمع العلماء ورجال الدولة على ان لا يبقى السيّد في طهران، وأنما يذهب الى قم، فأرسلوا إليه عربية ملكيّة مع ألف تومان، فقبلها السيّد أول الأمر، غير أنه استرجع ورقة الاستلام بحجّة أنه يريد تغيير عبارتها فمزقها وأعاد المال وقال: لا أريد مالاً ولا عربية، وفي نفس ذلك اليوم استأجر عربية واتّجه نحو قم برفقة خادم اسمه مهدي، وكاتب هذه السطور.

بقي السيّد جمال الدين الواعظ مدّة في قم، وهناك أيضاً تعرّف على كثير من الاصدقاء والمريدين والمؤيدين له بقوة، فقد أثارت كلماته النارية وخطاباته الموعية للشعب أمواجاً غاضبة ضد الاستبداد، وتطالب بالحرية، وكان يلهبها ويزيدها غضباً يوماً بعد آخر، فكان رؤساء الحكومة يقولون: حيثما حلّ السيّد جمال الدين فُقد الأمن والهدوء.

وعندما انقضى شهر محرّم، اطمأن أولئك الذين كانوا يعتبرون وجود السيّد في طهران خطراً الى أنهم في مأمن الآن من خطر وعظ السيّد وخطاباته الملتهبة الى محرم القادم، ففكروا في إرجاعه، وهذه المرة بعث مظفرالدين شاه بنفسه برقية يأذن له فيها في الرجوع الى طهران.

وعاد السيّد الى طهران وسط استقبال الشعب الحافل، وبدأ وعظه وإرشاده في مدرسة الشيخ عبدالحسين المعروفة بمسجد الاتراك في سوق (باچنار)، وفي ذلك الوقت كانوا يكتبون محاضرات السيّد بسرعة ثم ينشرونها كصحيفة باسم (الجمال) ويبيعونها على الناس ومؤيدي السيّد في الأزقة والأسواق.

تأسيس البنك الوطني

كان لكلمات السيّد وخطاباته اثرها البالغ في إثارة الحماس بين الناس، حتّى أنّه لما طرحت مسألة تأسيس البنك الوطني في ايران، وطلب السيّد - وهو على

المنبر - من الناس المساهمة في هذا الامر ودعمه، هب الشعب الى ذلك، غنيهم وفقيرهم، كل يساهم بأقصى ما يستطيع، حتى ان نساء طهران القين باقراطهن وخواتيمن وأسورتهن الى جانب منير السيد؛ ليستفاد منها في تأسيس البنك.

وعندما وصل محمد علي الميرزا الى السلطة بعد وفاة مظفرالدين شاه بعد توقيع الموافقة على الدستور، ووضع أسس مخالفته للدستور وأنصاره، أحرق الخطر بحياة السيد جمال الدين كباقي أنصار الحرية الآخرين.

لقد كان محمد علي شاه يعرف السيد جمال الدين جيداً منذ ان كان ولياً للعهد، وذلك بسبب أسفاره المقترنة بالضجيج والصخب، والتي قام بها السيد الى تبريز، وقد سعى كثيراً الى استمالته عن طريق الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ليجعله سامعاً لأمره مطيعاً له، غير أنه فشل في ذلك، ولهذا صمم على ان يأتيه من باب القسوة والخشونة والاضطهاد.

الأيام الاخيرة

وفي هذا الباب كتب السيد محمد علي جمال زاده حول أواخر أيام جهاد والده:

«يوم حوَّص مجلس الشورى الوطنى بالمدافع، كان السيد - مع بقية طلائع حركة الدستور - الذين سجَّلت اسمائهم فرداً فرداً في تاريخ ايران - وسيكونون لأزمانٍ ودهورٍ طويلة محلّ تكريم وتعظيم كلِّ ايراني ومحبِّ لايران - داخل المجلس، وهو الذي قال لتقي زاده: «أنت أصغر منا سنّاً، وتستطيع عمل شيء ما، فلاتبق هنا لتقتل» ووجهه نحو منزله.

والتجأ السيد مع البقية الى بستان أمين الدولة الواقعة خلف المجلس، وخرجوا من هناك وتفرَّقوا، ولما كانت رجلا السيد لا تعيناه على الفرار والعدو، فقد أسند ظهره الى جدار في مفترق طرق ووقف مترقباً الحوادث، واذا بباب دار تفتح وتخرج منها امرأة، فما ان وقعت عينها على السيد عرفته فأدخلته الدار، وكانت الدار دار اعتماد الدولة خال الشاه، والمرأة زوجته.

قضى السيد تلك الليلة ضيفاً على تلك المرأة الطيبة الشجاعة وولدها، وفي اليوم التالي غير ملابسه وغادر طهران الى العتبات المقدسة عن طريق قم وهمدان برفقة أحد أقرباء زوجته ويدعى الميرزا أسدالله خان.

وكانت حكومة همدان آنذاك بيد مظفرالملك، وهو من أصدقاء السيد القدامى، فلما وصل السيد همدان شعر بالاطمئنان حيث أنه عبر حدود طهران بمعونة مظفرالملك وسيوصله الأخير الى عمه السيد اسماعيل الصدر العاملي (والد الشهيد الصدر)، الذي كان مرجع تقليد في العتبات المقدسة وله احترامه ومكاتبته، لكن للقدر رأي آخر.

فبعد ثمانية عشر يوماً من مغادرة السيد طهران ذاع في الآفاق ان السيد قد ألقى القبض عليه في همدان، فقد كان مقيماً في منزل خباز في محلة (دباغ خانه) بهمدان، عندما جاء نائب مظفر الملك المدعو بـ(رضا كچل) وألقى القبض عليه ونقله الى غرفة في الأسطبل أبقاه هناك خمسة أيام.

وفي ليلة دخل عليه أخو مظفر الدين شاه مستنيراً بضياء الفانوس وضربه على رأسه، وأخذ السيد الى دار مظفر الملك، حيث بقي السيد هناك الى العاشر من رجب، حيث عومل بكل إحترام ومحبة وتقدير. وفي هذا التاريخ توجه مظفر الملك ورجاله الى (شورين) وبقي السيد في همدان، فجاءه ابن أمير أفخم المدعو بحسام الملك وأراه برقية محمد علي شاه القاضية بتسليم السيد الى أمير أفخم وأخذ تأييد بالاستلام، فذهبوا بالسيد الى شورين، ونزل هناك في دار سعيد خان اغاباشي منير الدوله (أمير أفخم) وكان الجنود يحرسونه ليلاً وهم على السطوح، وبقي هناك عدة أسابيع وكان السيد ينزل كل أسبوع مرة أو مرتين للموعظة والارشاد.

وأخيراً أركبوا السيد بغلاً وشدوا رجله الى بطن البغل وأخذوه الى بروجرد فألقوه في السجن، وبعد مدة قتلوه ظلماً في تاريخ لايعلم على وجه الدقة.

المشهور أنه سقي قهوة في بادىء الأمر، ثم خنقوه بالحبال. ويعتقد البعض ان شهادته كانت ليلة السادس والعشرين من شهر رجب، أي قبل ليلة من ليلة قتل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، لكن هذا التاريخ غير متيقن هو الآخر».

وبذلك، فإنّ واعظاً آخر، ومجاهداً في سبيل عقيدته وإيمانه، قد جاهد طويلاً
واستمرّ حتّى ضحى بنفسه دون ان يتراجع خطوة عن الطريق الذي اختطه لنفسه.
فطوبى له وحسن مأب.

* * *

ملك المتكلمين، الخطيب الشجاع (المقتول ١٣٢٤ هـ.ق)

هو الحاج الميرزا نصرالله البهشتي، المشتهر بملك المتكلمين، وكان من أصحاب السيد جمال الدين الواعظ في الفكر والهدف والجهاد. وهو من الخطباء المشهورين، ومن الوعاظ الذين ذاع صيتهم، ومن المجاهدين العظماء في مرحلة نهضة الدستور. وكان أثره في إيقاظ الشعب الإيراني وإثارة روح الحماس والثورة في أيام ثورة الدستور العظيمة أثراً هاماً وفعالاً.

وقد بلغ إيمانه بهدفه والسبيل الذي اختطه لنفسه القمة، ولم يعرف الهدوء والسكينة، بل وأثر بتحركه ونشاطه هذا على عائلته وأولاده، ولم يخش ان يكون هو وجميع أقربائه قرابين على طريق حرية أبناء وطنه ونيلمهم لحقوقهم الانسانية. وعندما بدأ السيد جمال الدين الواعظ نشاطه وجهاده في اصفهان من اعلى منابر المساجد، تعرّف عليه ملك المتكلمين، فسارا جنباً الى جنب في طريق الجهاد ومقارعة الظلم.

مقالة ناظم الإسلام

لمّا كان مؤلّف كتاب (تاريخ بيدارى ايرانيان) ناظم الإسلام الكرمانى -والذي كان لسنوات كاتباً لمجاهد ثورة الدستور العظيم السيد محمد الطباطبائي - معاصراً لأوضاع ثورة الدستور ومنظماً لبعض برامجها الثورية، وكانت له معرفة وثيقة بكثير من أقطاب حركة الدستور وأنصاره والمجاهدين في سبيل تحقيقه، فقد جمع أحداث تلك الأيام، يوماً بعد آخر، في كتاب يعدّ من أكبر وثائق تاريخ الدستور في

إيران قيمة واعتباراً. وحول ملك المتكلمين كتب مؤلف هذا الكتاب:
 «يوم الخميس غرة محرّم الحرام سنة ١٣٢٥. المجلس - أي مجلس
 الشورى الوطني - مغلق، والناس منشغلين بمراسم العزاء. أقام السيد جمال الدين
 الأصفهاني وملك المتكلمين والشيخ علي الزرندي مجلس العزاء في المجلس
 ودعوا الناس الى العدل وحفظ القانون ورغبوهم في ذلك»^(١).
 وكتب في موضع آخر من الكتاب:

«يوم الاربعاء ١٩ صفر سنة ١٣٢٥. المجلس اليوم معطل عن العمل. في هذه
 الأيام يرتقي السيد جمال الدين الاصفهاني الواعظ وملك المتكلمين المنبر ويتقدان
 المستبدين علناً وصراحةً ويتقصوهما»^(٢).

لقد كانت أقواله المنطقية والمستندة الى الدليل وفضحه الأوضاع بهذا
 الأسلوب توقظ الشعب، وترشدهم الى حقوقهم الإنسانية والاجتماعية، وكانت
 تهيوهم من أجل الثورة والوقوف في صفوف المجاهدين من أجل إحقاق حقهم
 وإلقاء الرعب في قلوب المستبدين والهاضمين لحقوقهم، وليسلبوا النوم من أجفان
 المسيئين وأعداء العدل والقانون».

مقال من التاريخ

يذكر أحمد كسروي في كتاب (تاريخ مشروطه ايران):

«والأسوء من ذلك جميعاً أن اللجان والاتحادات في طهران قد اجتمعت تلك
 الأيام، وبعد ان دارت المباحثات بين أعضائها أرسلوا مذكرة الى الشاه طالبوا فيها
 باخراج سعد الدولة وأمير بهادر من البلاط، وهددوا فيها بأنه ان لم يخرجهما فإنهم
 سيثيرون أبناء الشعب للمطالبة بذلك، وبعد ذلك كانت هذه التجمعات والاتحادات
 تجتمع كل يوم في مدرسة (سبه سالار)، وكان ملك المتكلمين والسيد جمال الدين
 يلقيان الخطابات التي تنتقد الشاه وبلاطه وتسيئ اليه، كما كانا يرسلان النداءات اليه

١- المصدر المذكور: ج ٢ ص ٨٦.

٢- المصدر السابق ج ٢ ص ١٣١.

موقّعةً باسم الشعب»^(١).



ومع أنّ ملك المتكلمين كان هدفاً لغضب مظفرالدين شاه ومن بعده غضب محمد علي شاه الذي لأحد له، غير ان حقد محمد علي شاه على ملك المتكلمين يعود الى زمان كان فيه وليّاً للعهد، وذلك بسبب جهاده المتواصل من أجل إقامة الدستور وتحطيم بنيان الظلم والجور والاستبداد القاجاري.

ويقول المؤرّخ المذكور في كتابه الآنف الذكر: «لَمَّا كان ملك المتكلمين يعدّ أحد خطباء الشعب فإنه كان مضطراً الى انتقاد محمد علي الميرزا ودّمّه أثناء كلماته

١- تاريخ مشروطه ايران. الطبعة الحادية عشرة ج ١ ص ٥٠٣.

- ولكننا لم نسمع منه كلاماً غير متزن - فإنَّ حقد محمد علي الميرزا كان ناشئاً من أمر آخر، فقبل سنوات الدستور كان ملك المتكلمين قد ذهب الى كردستان عندما كان في جهاز سالار الدولة.

ولما كانت بين عين الدولة في زمن رئاسته للوزراء وبين محمد علي الميرزا عداوة، فأنه كان يريد عزله من ولاية العهد وينصب محلّه أحد أولاد مظفرالدين شاه، فأرسل سالار الدولة ملك المتكلمين الى طهران ليسعى في تحقيق هذا المطلب، ومن هنا كان ممثلاً عن سالار الدولة في طهران، لكن لما حدثت حركة الدستور فقد نسي ما كلفه به سالار الدولة ورفقته، لكن محمد علي الميرزا لم يكن قد نسي حقه».

قصف المجلس بالمدفعية

ولهذا الحقد والعداء كان محمد علي شاه يتحين الفرصة للانتقام من ملك المتكلمين، وقد حانت هذه الفرصة حينما قصف المجلس بالمدفعية. ففي يوم الثلاثاء ٢٣ جمادى الأولى قصف المجلس بالمدفعية بأمر من محمد علي شاه، وكذلك حبس بأمره السيدان الجليلان زعيما حركة الدستور: الطباطبائي والبهباني مع جماعة كثيرة من العلماء والمجاهدين في حديقة الشاه بطهران، وفي اليوم الثاني وتنقيداً للخطة التي كان وضعها من قبل للقضاء على زعماء النهضة، فقد أُلقي القبض على ملك المتكلمين، اللسان المعبر عن الحقيقة والعدالة، والميرزا جهانگیرخان مدير صحيفة صور اسرافيل ونقلوا الى حديقة الشاه.

القبض على ملك المتكلمين

وذكر كذلك في الجزء الأول من كتاب (تاريخ مشروطه ايران) حول هذا الموضوع:

«وكان لجماعة أخرى - وهم الميرزا جهانگیرخان وملك المتكلمين والقاضي الارداغي وجماعة آخرون ، والذين رافقوا سيّدين آخرين الى حديقة

أمين الدولة - قصّة مؤلمة أخرى ينبغي ان نذكرها هنا. ولما كُنّا قد سمعنا هذه القصة من الميرزا علي أكبر خان الارداعي الذي كان أخو القاضي، وكان مرافقاً له في جميع الأوقات والأماكن، فأتنا نذكر هنا ما قاله، فهو يقول:

«لما كان أخي القاضي من جملة الذين التجؤوا الى المجلس مع الميرزا جهانگیر خان وملك المتكلمين وآخرين، وكان هناك ليلاً ونهاراً، فقد كنت مضطراً الى جلب غدائه وعشائه وأذهب الى هناك عدّة مرّات في اليوم.

وفي اليوم الثاني من شهر «تير» ذهبت كعادتي كل يوم، وما ان وصلت الى المجلس منعني القزاقون - وهم طائفة من الروس - ولم يأذنوا لي بالدخول. وفي هذه الأثناء وصلت عربية السيّد البهبهاني فواقفت عن المسير، وكان جماعة قد حقّوا بها، ولما لم يعبأ هؤلاء بممانعة القزاقين، فقد استمروا في مسيرهم، فأدخلت نفسي معهم ووصلت الى المجلس، وقد بقيت هنا برفقة أخي والآخرين حتّى ابتدأت الحرب.

ولما همّ السيّد البهبهاني والآخرين بالخروج تبعناهم جميعاً، وقد أسكنونا في دار في الطابق الثاني تقع في حديقة أمين الدولة، وكنا آنذاك ملك المتكلمين والميرزا جهانگیر خان وأخي القاضي ومحمد علي ابن ملك المتكلمين وأنا. وزارنا أمين الدولة وأظهر محبّة ولفظاً، غير أنّ البهبهاني طلبه على انفراد، ولما ذهب وعاد قال: إنّ السيّد يقول: ان الشاه يطارد هؤلاء النفر ويشدّ عليهم، وقد رأى الناس أنّهم أتوا الى هذه الدار، فربّما سيبلغون هذا الخبر فيأتون لإلقاء القبض عليهم، فمن الأفضل ان ترسلهم الى مكان آخر.

قال أمين الدولة ذلك وأنزلنا الى الأسفل، وسلّمنا بيد أحد الخدم لينقلنا الى مكان آخر، فجاء بنا الى الباب وأشار الى عمارة نصف مبنيّة كانت هناك وأخبرنا أنّها مكان آمن، قال ذلك ورجع وأغلق الباب بوجوهنا. ولما لم نكن نظنّ ان في الأمر شيئاً آخر إتجهنا نحو تلك العمارة، وعندما وصلنا اليها ورأيناها مفتوحة من جميع الجوانب، وجميع المارّة يروننا، فعلمنا انّ هدف أمين الدولة كان إخراجنا من هناك.

وكانت دار السيّد حسن مدير (حبل المتين) بطهران قريبة منّا، فأرسلنا أحدنا خلفه، ولما جاء ورآنا بتلك الحال اغتمّ كثيراً، فذهب بنا الى داره، ولما أحسنا بشيء من الطمأنينة هناك بدأ ملك المتكلمين والميرزا جهانگیر وأخي بالتفكير في حلّ لما نحن فيه، فقال أحدهم: نذهب الى سفارة بريطانيا، فلم يرضَ أخي بذلك وقال: لن أكون تحت لواء الأجنبي، وبعد مباحثات طويلة قرّروا ان يبقوا هناك حتّى غروب الشمس، فاذا جنّ الليل خرجوا فرادى ليوصلوا أنفسهم الى السيّد عبدالعظيم عبر الممرات والصحراء، ثمّ يعتصمون هناك.

لكن لم تمضِ فترة حتّى ثار صخب ووضواء في الخارج، فأخبروا ان القزّاقين قد أحاطوا بالدار، فقال أخي وملك المتكلمين والميرزا جهانگیر جميعاً: لقد جاء القزّاقون للقبض علينا، وليس من المناسب ان يدخلوا الدار ويرعبوا النساء والأطفال، وبعد هذه المقالة قاموا جميعاً وخرجوا من الدار بأنفسهم، فأمر رئيس القزّاقين - وكان أمير بنجه قاسم آقا - ان يردف كل قزّاق واحداً من ملك المتكلمين والميرزا جهانگیر خان وأخي على فرسه، وان لا يؤذوهم أبداً، أمّا أنا ومحمد علي فقد ألحقونا بالحاج محمد تقي بنكدار، الذي ألقي القبض عليه في مكان آخر، وجاؤوا به معهم، وأمرونا بالسير على الأقدام مع أحد خدم البلاط، وقد خلع هؤلاء ملابسنا بعنف، كما نزعوا أحذيتنا وجعلونا أمامهم عراة حفاة، فسرنا والقزّاقون مع أولئك الثلاثة أمامنا، ونحن مع هذه الجماعة خلفهم، حتّى أوصلونا الى معسكرهم. وفي حديقة الشاه ذهبوا بنا الى خيمة كان فيها الكثير من أنصار السيّد البهبهاني والطباطبائي وآخرين، فأخذنا مكاننا بينهم. وعندما أرخى الليل سدوله جاء شخص وعزل ملك المتكلمين والميرزا جهانگیر وأخي القاضي ثم أخذهم. وتيقنا أنّهم يأخذونهم للقتل، فدخّلنا من ذلك غمّ عظيم، لكن لم تمضِ ثلاثة أرباع السّاعة حتّى أعادوهم.

وقال الذي أعادهم للقزّاقين: إنّ أمر اللواء يقول: إنّ هؤلاء المعتقلين هنا في أماني، ولا يحقّ لأحد ان يؤذوهم، بل يجب ان تحافظوا عليهم، وتقوموا بخدمتهم وضيافتهم. ويقول أيضاً: ان أمر هؤلاء الثلاثة يختلف، فلا يكونوا مع الآخرين في

مكانٍ واحد. وكانت هذه الرسالة في محلّها، حيث أنّ القزّاقين كانوا يكثرون الأذى قبلها، أمّا بعدها فقد اتبعوا أسلوب المحبّة والرأفة، وأتونا بالتبغ وورق السجائر، كما جعلوا ملك المتكلمين والميرزا جهانگیر وأخي القاضي في مكان بعيد عنّا.

وبعد مدّة جاءت مجموعة من القزّاقين يمشون مشية عسكريّة وهم يتّجهون نحونا، فلما اقتربوا منا توقّفوا عن المسير ثمّ أحاطوا بنا وقالوا: انهضوا جميعاً وسيروا، فنهضنا وسرنا، وكانت أبدان الكثير منا ترتجف، فقد ظننا أنهم يأخذوننا ليقتلونا في هذه الظلمة، لكننا رأينا أنهم أتوا بنا الى بناية، وأدخلونا الى غرفة كبيرة أحضروا فيها طعام العشاء، ثمّ أجلسوا كلّ ثمانية أشخاص داخل سلسلة متّصلة حول الغرفة، ثمّ دقّوا المسامير في وسط الغرفة وقالوا: ناموا، وسيطلق الرصاص على كل من ينهض من محلّه، فاستلقينا ونمنا، ويعلم الله أيّة ليلة قد مرّت علينا».

الشهادة في سبيل الحرّية

وفي صبيحة تلك الليلة قتل ملك المتكلمين مع الميرزا جهانگیرخان الشيرازي مدير الصحيفة الفاضحة، وكاتب المقالات اللاذعة الثورية، بأبشع صورة وأفجع قتلة.

وقد ذكر ناظم الإسلام الكرمانى التفاصيل الأليمة لإعدام هذين المجاهدين في كتابه (تاريخ بيدارى ايرانيان) فقال:

«كان ملك المتكلمين صاحباً لمدير صحيفة صوراسرافيل جهانگیرخان في الجهاد والسّجن، وتعرّضا مرّات عديدة للاهانة والتعذيب. وقد كان الاثنان يسحبان بالسلاسل، ويضربان بالسلاسل وأخمص البندقية. وكان (بالكنيك) الأجنبي -والذي كان مديراً لشرطة المدينة - قد زار مجلس هذين، فالتفت الى ملك المتكلمين وقال:

قل لي الآن ماذا عملت لك، لتذكرني بسوء على المنبر؟

فأنكر ملك المتكلمين ذلك وأخبره، بأنّه لم تكن له أيّة علاقة به لستكلم حوله، ثمّ التفت الى بالكنيك وقال: اني أطلب منك ثلاثة أشياء:

١ - أنّ مصيرنا سيّضح يوم غد، ولهذا فاتّنا ضيوف عليكم هذه الليلة فقط،

فأوص ان يأتونا بأمعتنا، طعامنا وشاينا ونرجيلتنا في وقتها.

٢- ان تأمر القزاقين ان لا يكثروا من سبنا وإهانتنا والأساءة إلينا، وان يراقبوا كلماتهم.

٣- ان في أبداننا جروحاً، وفي رقابنا جراح، وهبوب الرياح يؤذيها، فامّا ان يأتونا بشيء يهدئ آلامنا أو يغيروا محلنا هذا.

فالتفت بالكنيك الى أحد رؤساء القزاقين وقال: هؤلاء نفر ضيوفي هذه الليلة، ولا يحق لأحد ان يؤذيهم أو يسيء إليهم القول، وعليكم ان تكونوا دقيقين في تقديم الشاي والنرجيلة وان يغيروا البرنامج السابق.

وفي اليوم الثاني جاؤوا إليهم ليذهبوا بهم الى خشبة الاعدام، فطلبوا منهم ان يظهروا الندم على ما فعلوا، فأجابهم ملك المتكلمين بكل شجاعة وبمعنوية عالية يتصف بها الربانيون: اني أفتخر أن أموت في سبيل الوطن، ولست نادماً على ما عملت أبداً.

الشهادة:

وعندما وضع جلاّد و بلاط القاجاريين الحبل، حول رقبته قال: لئن تركتموني حياً فإنّ ذلك في مصلحة الدولة والشعب.

لاشك ان حياة العلماء والرجال الشجعان تعني حياة الشعب، غير ان الدكتاتورين والمستبدين لا يفهمون الحياة، وللحياة المثلى في منظار هؤلاء مفهوم آخر، وهي الحياة الحيوانية.

وأستشهد في يوم الأربعاء ٢٤ جمادى الاولى عام ١٣٢٤ هـ. ق، فصعدت روحه وخلد ذكره»

الشيخ محمد الخياباني المقاتل الأذربيجاني

(المقتول في ١٣٣٨ هـ.ق)

لقد سجّل اسم الشيخ محمد الخياباني التبريزي في تاريخ النهضات التحرّرية في ايران باعتباره اسماً لامعاً له دوره في التاريخ وتقرير المصير.

ولقّب الشيخ محمد بالروح الواعية، والبطولة الرائعة لأذربايجان. وقد سار منذ شبابه في طريق مقارعة الظلم والجور، نشأ في احضان المنطقة التي ربت الأبطال وأنجبت الرجال، ألا وهي آذربيجان.

كان فتى يافعاً عندما عرف ما يجري في بلاده من الظلم والإضطهاد، فأدرك بروحه واحساسه المرهف أنّ الجبارين قد أنشبوأ أظفارهم الدموية في أعماق الشعب، وجثم أولئك الطغاة على صدور أبناء وطنه، وخاصّة في مسقط رأسه وأرض أجداده، كما أدرك أنّ الاستعمار الخارجي قد اتّحد مع الاستبداد الحاكم في داخل البلاد، فلم يبقيا من الحياة والحرية إلا شبحاً جريحاً مدمى.

وسلك الشيخ محمد الخياباني منذ سني طفولته مسلك العلم والعلماء، فكان في شبابه طالب علم واعياً شجاعاً مجاهداً، لم يعرف السأم أو اليأس في جهاده؛ من أجل تحقيق الأهداف الانسانية في المجتمع البشري.

وكان في أوج الجهاد من أجل الدستور، شاباً حماسياً، ومع أنّه كان شاباً فقد اشترك في نشاطات ثورة الدستور باعتباره احد قادة هذه الثورة، وكان عمره حين موافقة مظفرالدين شاه على الدستور (٢٧) عاما فقط. وقد ثار في أحلك الفترات التي مرّت بها ايران وفي أكثر المراحل السياسية والاجتماعية عناء وشقاء في هذا

البلد، فأنقذ آذربيجان من تهلكة الاضطراب والتشتت.
 وحول حياة الشيخ محمد الخياباني، كتب الأستاذ الشهير المرحوم كاظم زاده
 في مجلة (ايران شهر) قائلاً:

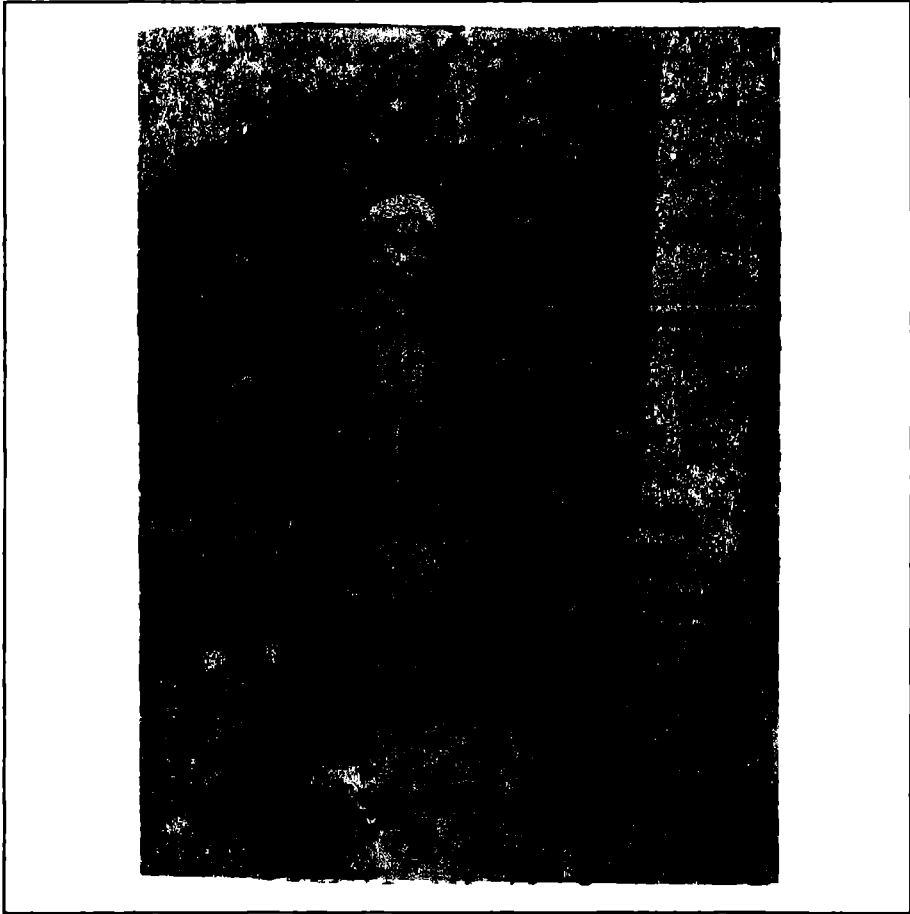
«كان أحد نواذر الرجال في العصر الأخير، فقد كان عالي الهمة، متحرراً في
 الفكر، ذا تصميم ورأي واردة، وقد جعل نفسه هدفاً للأخطار والمهالك؛ من أجل
 إنقاذ ايران، فكان بذلك مثلاً وقدوةً للأجيال القادمة».

ولد الشيخ محمد سنة ١٢٩٧ هـ. ق في قصبه «خامنه» من نواحي تبريز (و
 هي محل ولادة أسرة قائد الثورة الاسلاميّة في ايران و الخياباني من منسوبي القائد
 الاسلامي آية الله السيّد علي الخامنه اي حفظه الله تعالى) وأتم دراسته الابتدائية فيها،
 ثم درس الفقه والأصول على يد المرحوم آية الله الحاج الميرزا أبي الحسن آقا
 انگجي المجتهد - الذي كان أحد المجاهدين الكبار في منطقة آذربيجان - وقضى
 سنة ونيفاً من عمره في منفاه في مشهد «سندج» ووصل بسرعة الى مقام علمي
 عال.

كان الشيخ من أبرز طلاب حلقة درس آية الله الحاج الميرزا أبي الحسن
 الانگجي، ونظراً لوقادة ذهنه وكثرة ممارسته وبحثه، فقد نال درجة الاجتهاد في مدة
 قصيرة. وتعلّم علم الهيئة والنجوم والحساب من المرحوم الميرزا عبدالعلي المنجم
 المعروف، وقد فاق أقرانه في هذا الباب أيضاً. كما كان ماهراً في علم الحكمة
 والآداب، وتميّز بالزهد والتقوى والصفات الإنسانية.

كان طالب علم شاباً عندما تولّى إمامة الجماعة في المسجد الجامع بمدينة
 تبريز نهراً، وفي مسجد كريم خان بمحلّة (خيابان) ليلاً، وبذلك فقد حاز على
 مكانة اجتماعيّة وجاه يعتدّ به. وبسبب هذه الشهرة والإعتراف أنتخب ممثلاً عن
 أهالي تبريز في مجلس الشورى الوطني سنة ١٣٢٧ هـ وكان له من العمر ثلاثون
 سنة.

وعندما طرحت قضية انذار دولة روسيا وتهديدها في المجلس، هبّ الشيخ
 الى مخالفتها بشجاعة أذهلت الآخرين وأرعبتهم، واعلن مخالفته في كلمة شديدة



اللهجة، واستمرّ في اعلان مخالفته لهذا الإنذار حتّى نفي من طهران؛ لعلمهم يتخلّصون من حملاته الكلاميّة التي كان يشنها، ومن انتقاداته القويّة الصارمة. من هنا اخمدت شعلة انطلاقته التي خلقت موجاً هادراً، وعرفت في التاريخ المعاصر باسم (نهضة الخياباني)، ومنذ تلك اللحظة لم يركن الى الراحة والدعة لحظة، ولم يكف لحظة عن مقارعة الإستعمار والإستبداد حتّى آخر عمره. ويشير مؤلف كتاب (از صبا تا نياما) الى نهضة الخياباني فيقول:

«بعد ذلك انهارت الحكومة الروسيّة المستبدّة في سنّة ١٩١٩، فساد الأمل في ان يحترم الانجليز استقلال جميع ايران، غير انّ هذا الأمل كان في غير محلّه،

فبمجرد ان غادرت روسية الأراضي الايرانية حلّت بريطانيا - التي انتصرت في الحرب، وكانت قلقة تجاه الحوادث التي كانت تقع في روسية وتخشى عواقبها - محلها بكل هدوء، واقتربت من حدود القفقاز وآسيا الوسطى، وحفاظاً على امبراطوريتها فقد سالمت حكومة وثوق الدولة، وفرضت على ايران اتّفاقية ١٩ اغسطس سنة ١٩١٩ (١٣٣٧ هـ).

وبموجب هذه الاتّفاقية خضع أهمّ ركنين للدولة - وهما الجيش والمالية - لاشراف المستشارين البريطانيين، واقرت السيطرة التامة للانگليز على ايران. وقد أثارت هذه الاتّفاقية موجة من عدم رضى الشعب وسخطه واعتراضه الشديد. في يوم ١٧ فروردين سنة ١٢٩٩ هـ ش بدأت في تبريز الثورة المسلّحة ضدّ حكومة وثوق الدولة الرّجعية والامبريالية البريطانية، وسرت الى بقية مدن



آذربيجان، فاحتلّ الثّوار بقيادة المجاهد الغيور الشّيخ محمد الخياباني دوائر الدولة، وسيطروا على آذربيجان.

في البداية صمد الشيخ محمد الخياباني امام ضغوط الروس القياصرة، وبعد الثّورة الروسيّة عمل على الوقوف أمام نفوذ المدّ الشيوعي، فقد كان عاشقاً للوطن، مولعاً بترابه ولم يتلوّث بالآفاق الضيقة».

كتب نفيسي في مقدّمة كتاب (قيام شيخ محمّد خياباني):
«كان الخياباني لسنوات عديدة أحد أكثر الرجال تأثيراً في سياسة ايران، وكانت آراؤه مؤثّرة في حوادث طهران وتبريز الى حدّ بعيد. كان بإمكانه انّ يستغلّ هذه الامكانيات، لكنّه مع كلّ ذلك عاش حياة بسيطة تكاد تقرب من العدم، ويوم فارق الحياة لم يكن يملك حتّى الشيء البسيط الذي يملكه الآخرون».

اذا قيل: انّ منطقة آذربيجان كانت مهد الحرّية وحصناً ربّى المجاهدين الفيارى المضخّين، فلا يكون هذا القول مبالغة وهراء. فعلى مدى النشاطات والمجاهبات الإسلاميّة والوطنية كان لأهالي هذه المنطقة دور حسّاس وبنّاء لا ينسى، غير انّ جهود العلماء وطلبة العلوم المجاهدين الآذربايجانيين ومساعدتهم الحثيثة كان لها دور آخر، حيث سجّلت أسماء لها أمجادها: كالحاج الميرزا حسن آقا مجتهد، وإمام الجمعة، والحاج الميرزا صادق آقا، وثقه الإسلام أعلى الله مقامهم، الى جانب اسماء المجاهدين الآخرين من أبناء هذه الارض، وخاصّة في تاريخ ثورة الدستور، فقد افتتحوا بأنفسهم، وبدعم الشعب اللامتناهي، فصلاً جديداً في تاريخ جهاد فئات الشعب ونهضاته الفدائية.

لقد كتب مؤرّخو نهضة الدستور والنهضات التحرّرية الأخرى في ايران والمحققون في شؤونها: انّ جهود ستارخان حامل اللواء الوطني وباقرخان الزعيم الوطني، وبطولاتهما مستلهمة من تعليمات العلماء الأعلام وارشادات العلماء الواعين المجاهدين وأنهما لا يرفعان قدماً إلاّ باجازة العلماء الأحرار.

كما اتفق المؤرّخون والمحققون على انّ دور الشيخ محمد الخياباني في هذه



لجنة من علماء أذربيجان المجاهدين من بينهم آية الله السيد ابوالحسن الانكجي وابنائهم الفضلاء السيد حسن والسيد محمد علي وجمع آخر من منفي «سنندج»

الأحداث كان من الأهمية بمكان، بحيث لا يمكن ان يمرّ عليه مرور الكرام أو تجاوزه حتّى في المقالات التاريخية المختصرة والمركزة، ومن هنا كان الكلام عن خدمات المرحوم الخياباني وجهاده ونشاطاته حديثاً موجزاً عن تاريخ حياة هذه الشخصيات المجاهدة ونشاطاتها.

كتب المرحوم البادامجي - وهو من أصدقاء الشيخ محمد الخياباني المقرّبين - متحدّثاً عن صديقه المجاهد، في رسالة ارسلها الى كاظم زاده ايراني: «عندما تغيّر النظام في ايران سنة ١٣٢٤ هـ وحلّت الحكومة الدستورية محلّ الحكومة المستبدّة، كان المرحوم الخياباني يحمل بندقيته على عاتقه؛ ليدافع عن الدستور والحريّة جنباً الى جنب مع المجاهدين في مواضعهم، وعندما أحسّ بشيء من الضعف والفتور يدب الى المجاهدين، شجّعهم على مواصلة الجهاد بكلماته الجميلة و اقواله المثيرة، وبنفخ روحاً جديدة في ابدانهم الخاملة، وفي الوقت نفسه كان عضواً في لجنة الولاية وأحد اعضائها المؤثّرين المتخذين للقرارات.

وبعد انتهاء الإستبداد الصغير لمحمّد علي الميرزا انتخب من قبل أهالي آذربيجان في الدورة الثانية لوضع القانون، وهبّ للدفاع عن حقوق الشعب».

المجاهد المرشد

كتب الاستاذ محمد رضا الحكيمي الكاتب الاسلامي الشهير صاحب الذوق والأسلوب، في مؤلّفه القيم (بيدارگران اقليم قبله) حول الشيخ محمد الخياباني: «انّ رجال الفضيلة والمنادين بالحقيقة يتمتّعون دائماً بقلب شجاع وفؤاد مطمئن، وروح ملؤها الشهامة، والشيخ محمد الخياباني مثال للعلماء المسلمين الواعين المجاهدين، فقد كان يطمح الى تشكيل قوّة اسلامية، وعبر نشرها في ارجاء ايران تتكون نواة اسلامية حرّة مصونة من كلّ انواع النفوذ الاجنبيّ. ويوم اعتقل صمّ بشهامة وصلابة فريدة على ان لا يكلم أصحاب المناصب العثمانيّين كلمة واحدة ولا يجيب على اسئلتهم، وختم كلامه بقوله: «الموت بعزّ خير من الحياة بدلّ» وألقى بروحه الغالية وسط أمواج الخطر.

لقد خاطب الشباب في إحدى خطاباته قائلاً: «أيها الشباب، يا أمل المستقبل لهذا الوطن: اعلموا أنّ الأمجاد الحقيقيّة تكمن في التضحيات والمخاطرات، والشرف الواقعي نصيب من يضحي من أجل راحة الاخرين، ولا يفترّ من هجمات

الأبّام ونوابب الدهور، وهو في ميدان النشاطات الاجتماعية، ولا تهزمه المصائب المضنية...»

كان مجاهداً من أجل الحرّية، وجندياً مضحياً في سبيل الإسلام، دعا الامة الى العودة الى نفسها، وحامى حرمة الأصلة والحقائق الوطنية. جعل الحربة والتربية القومية ونصرة الدين والعدالة وحفظ الحقوق الانسانية في مقدّمة نشاطاته، وكان يسعى دائماً الى ان تعرف الفئات والتجمعات الإسلامية معناها الحقيقي جيداً؛ لتحلّ المعايير والمثل الإسلامية محل المعايير الغربية الكاذبة الخداعة، فلا يعتمد على الشرق ولا على الغرب، لا على الروس ولا على الانجليز، كما كان يعتقد ان قدرة الشعب واستعداداته ومعرفة هويته وذاته ونيله لأهدافه لا يمكن ان يتم إلا عن طريق الثورة والإعتماد على القوة الوطنية.»

المجاهد من أجل الإسلام

بالرغم من انّ لأحمد كسروي، المؤرخ المعروف، انتقاداته المعروفة حول الشيخ خاصّة، وطبقة العلماء عامّة في بعض آرائه التي يطرحتها، لكنّه يعترف بصراحة فيقول: «والحق انّ الخياباني لم يكن يميل الى البلاشفة، ولم يكن يتعدّى أفكاره.»

كان أحد أشدّ مخالفي معاهدة وثوق الدولة وحامل راية المعارضة، وبسبب المحبة والشهرة الفائقة التي نالها في ارجاء ايران، وخاصّة في آذربيجان فقد التحق به أهالي آذربيجان الشجعان وآزروه، وقاموا بنزع السلاح من يد فصائل الجيش الحامي لمصالح الاجانب والمتذلّل لهم، كما أخرجوا أفراد الحكومة المركزية من بلادهم.

لقد كانت هذه الثورة - التي هبّ اليها أهالي آذربيجان الغيارى المجاهدون بكل وجودهم وأعماقهم - ثورة ضدّ الاستعمار بالرغم من أنها هُزمت أمام مؤامرات أعداء الشعب وقدراتهم الجهنمية، والدسائس الداخلية وتعاون باعة الوطن وتواطأ الخونة وعبدة الأجانب والمنافقين، واستشهد الشيخ محمد نفسه في اشتباك بينه

وبين قوى العدو، لكنّه وضع أسس أحد ألمع النهضات التحرّرية في التاريخ، وعلمّ الناس طريق الجهاد ضد الايادي الاستعماريّة الداخلية والخارجية، كما طرح للناس قدوة ودرس عبرة؛ ليعلموا ان عليهم الثبات حتّى الرمق الأخير في سبيل الوصول الى الأهداف الوطنيّة.

أقوال وارشادات

لقد تركت الافكار الاصلاحية والأفكار الإسلامية السامية والانسانية للشيخ محمد آثارها واضحة على كلماته وخطاباته الحماسيّة وبقيت حيّة في التاريخ، وقد جمع (كاظم زاده ايران شهر) جوانب من هذه الافكار نشير الى نماذج منها:

«انّ ثورتنا تهدف الى إقامة وضع ثابت ومحكم في ايران لا يرتبط وجوده واستقراره بهيئات أو أشخاص معيّنين، ولا يستطيع أيّ فرد ان يغيّره أو يحرفه عما هو عليه، ونحن نتصوّر انّ مثل هذا الوضع الثابت الذي لا يتزلزل لا يكون إلّا في قالب حكومة عادلة».

«انّ التغييرات التي تطرأ على وضع الحياة الإجتماعية لشعب ما لا يمكن ان تكون موافقة لآمال عامة الشعب وتمنياتهم، وخاصّة في الدولة التي ظلّت الامتيازات والتفاوت حاكماً عليها ورائجاً فيها لآلاف السنين، وفي النتيجة ستظهر طبقة من المحافظين الذين يسعون الى القضاء على الأوضاع الجديدة التي تعارضهم ليبقى الوضع على ما كان عليه».

«ان تهيوّ الأرضية لتقبّل الظلم خيانة عظمى بحدّ ذاته، والسكوت على الظلم خيانة أخرى، واتّحاد أفراد الشعب وذوبانهم بعضهم في البعض كما يذوب السكر في الحليب سيمنح الشعب قوّة وشجاعة».

«انّ القضية التي لا يمكن التهاون فيها أو تخطّيها هي الدفاع عن حقوق الشعب، فحيثما رأيتم شعباً أو قوماً لا يدافعون عن حقوقهم فاعلموا انّ تلك الأمة لا تعلم بحقوقها، فانّ الأمة المتقدّمة تعرف قيمة حقوقها وأهميّتها، واذا لزم الأمر فإنّها تحافظ عليها».

الشهادة

وأخيرا حيكت المؤامرات الخارجية والدسائس الداخلية على قتله في أثناء المعارك التي حدثت بين قواته والجيش المطيع للأجانب الخادم لمصالحهم، فنال شرف الشهادة في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ هـ، وبذلك فقد إنتهت حياة اسطورة مقاومة آذربيجان والشعب الايراني العظيم.

اتّساع جهاد العلماء في الآفاق الاخرى

مع ان شرارة الجهاد الشامل للعلماء الواعين قد انطلقت في داخل الحدود الايرانية، غيّر انها لم تتأطر بهذه الحدود وأنما عبرت الحدود وانتقلت الى بقية الاقطار الإسلامية، ففي الوقت الذي هزّ جهاد الشعب الايراني المسلم المتواصل بزعامة علماء الدين أركان الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي في ايران، انطلقت الحركات الثورية في البلدان الإسلامية الأخرى، وخاصة الدول الإسلامية في الشرق الاوسط.

وكان لتلك الحركات التي بدأت في مصر والجزائر ومراكش والسودان وليبيا وتونس واندونيسيا ولبنان والعراق والسعودية، وتقدّمت بقيادة العلماء ورجال الفضيلة والتقوى، ارتباط وثيق بالنهضات الايرانية، فما ان دوى صوت الصرخات التحرّرية الايرانية في هذه الدول؛ حتّى أيقظ شعوبها وعلمها انّ عليها الثورة من اجل تحطيم جدار الظلم والجور، وان تقف صفاً واحداً من أجل تقدّمها وتحقيق أهدافها، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإنّ الأفكار والعقائد الثورية للعلماء، قادة المجاهبات والنهضات الايرانية، قد تركت تأثيراً عجبياً في أفكار قادة تلك الدول وشعوبها، سواء كان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حتّى أنّ عدداً من قادة الحركات في هذه الدول كانوا على إتصال وثيق بعلماء ايران الواعين وقادة النهضات الشعبية.

والمثال الواضح لذلك هو الشيخ محمد عبده الذي كان لسنوات طويلة تلميذاً للسيد جمال الدين الاسدآبادي، وعندما أقدم السيد في مسير جهاده ونشاطاته على

اصدار مجلة العروة الوثقى تولى الشيخ محمد عبده - باعتباره الرفيق الملازم للسيد ملازمة الظل - ادارة أمور مجلته الثورية، وسار في نفس الخط الذي اتخذه السيد لنفسه.

ومن أجل الإستمرار في التحقيق حول النهضة الإسلامية وجهاد العلماء الواعين، نرى من الضرورة ان نلقي نظرة سريعة على ما حدث في الدول الإسلامية الأخرى، ومن هنا ندير الطرف الى هناك اكماً للبحث، ومن أجل عدم الاطناب في الكلام فأتنا نختار من بينهم عدّة شخصيات كانت أشهر وألمع من الآخرين وهم: الشيخ محمد عبده والكواكبي والشيخ محمود شلتوت وسيد اسماعيل البلخي الأفغاني والسيد محمد باقر الصدر و كاشف الغطاء و الإمام موسى الصدر وعدّة أخرى، وهم من مصر وسوريا و افغانستان و لبنان و العراق، وهي شخصيات عظيمة معروفة لها شهرتها واعتبارها في بلادنا أيضاً.

المصلح الكبير آية الله العظمى الشيخ

محمد حسين بن علي كاشف الغطاء

(١٢٩٤ - ١٣٧٣ / ١٨٧٧ - ١٩٥٤)

آية الله الشيخ محمد حسين^(١) بن علي فقيه بارع و اصولي و أديب و مؤرخ و

١ - آل كاشف الغطاء من الأسر الاصيلة و العريقة في العراق نبغ منهم رجال حملوا لواء العلم و الدين في القرون ١٥ - ١٤ - ١٣ و تنسب الي قبيلة «بنى مالك» المعروف بمالك الاشر النخعي من اشهر خواص امير المؤمنين (ع) و من آل كاشف الغطاء علماء معروفون لكل منهم آثار علميه و سياسية اديبة مهمة منهم:

(١) جعفر بن خضر بن يحيى الحلبي النجفي رأس آل كاشف الغطاء و الشهير بالشيخ جعفر الكبير و شيخ المشايخ صاحب كاشف الغطاء.

(٢) موسى بن جعفر فقيه و اصولي و اديب و شاعر و هو النجل الاكبر للشيخ جعفر له منية الراغب.

(٣) علي بن جعفر فقيه، اديب و شاعر درس علي والده و نال درجة الاجتهاد صاحب كتاب الخيارات.

(٤) حسن بن جعفر فقيه و اصولي و شاعر درس علي ابيه مقدمات العلوم ثم حضر دروس فيه أخيه له النوار الفقاهة.

(٥) مهدي بن علي فقيه، اصولي و مرجع تقليد و من آثاره الخيارات في شرح الشرائع.

(٦) عباس بن علي من آثاره موارد الانام في شرح شرائع الإسلام.

(٧) محمد رضا بن موسى له حاشية على كتاب بغية المطالب لجدّه الشيخ جعفر.

(٨) عباس بن حسن فقيه، شاعر، اديب من آثاره الفمام في شرح شرائع الإسلام...

(٩) مرتضى بن عباس فقيه، اصولي له فوز العباد في المبدء و المعاد...

(١٠) هادي بن عباس فقيه اصولي، مؤرخ، اديب له آثار متنوعه منها المقبولية الحسينية و...

(١١) علي بن محمد رضا عالم و اديب و مؤرخ شاعر له الحصون المنيعه في طبقات الشيعة

(١٢) موسى بن محمد رضا فقيه و اديب تدرس علوم عصره على علماء النجف

(١٣) احمد بن علي فقيه و مرجع تقليد له آثار منها احسن الحديث في احكام

محدّث و محقق و كاتب و خطيب المعى من العلماء المناضلين و المشهورين من آل كاشف الغطاء. ولد في النجف و درس مقدمات العلوم و الآداب و الهيئة و الرياضيات أتمّ الدروس العليا في الفقه و الأصول على آية الله السيّد كاظم اليزدي و الشيخ الآغا رضا الأصفهاني و الآخوند الخراساني، و الكلام على ميرزا باقر الاصطهباناتي و الشيخ أحمد الشيرازي و الشيخ محمد رضا النجف آبادي، و الحديث على الحاج ميرزا حسين النوري و أصبح من الفقهاء الأصوليين و العلماء المحققين الكبار. و كان موضع اهتمام آية الله السيّد محمد كاظم اليزدي الذي كان يحيل اليه الجواب في كثير من الأسئلة العلمية و الفقهية. و بعد وفاة أخيه الشيخ أحمد آل كاشف الغطاء و رغم مرجعية آية الله العظمى السيّد أبي الحسن الأصفهاني العامة فقد نال درجة المرجعية و قلده جماعات في الهند و ايران و القطيف و أفغانستان و مسقط و السواحل و العشائر العراقية.

و أجازته في الرواية عنه: ميرزا حسين الخليلي النجفي و الشيخ علي الخاقاني و الشيخ عباس بن الشيخ حسن آل كاشف الغطاء و الشيخ عباس بن الشيخ علي آل كاشف الغطاء و الحاج ميرزا حسين النوري. و كان يحضر عدد من الطلاب و العلماء حلقة دروسه الفقهية التي كانت تعقد على الأكثر في الجامع الهندي أو مقبرة الميرزا الشيرازي.

رجل السياسة

كان الشيخ محمد حسين يتّصف بوعى ديني و سياسي و عرفان ديانة الإسلام و تاريخ الأمة الإسلامية من جهة و عارفاً في الوقت نفسه بأوضاع زمانه و سياسة حكّام عصره من جهة أخرى. و في الوقت الذي كان يقضي حياته في

(١٤) محمد رضا بن هادي فقيه اديب و شاعر. آثاره في اكثر المطبوعات.

(١٥) محمد رضا بن هادي فقيه و اديب، ولد في النجف، و تلقى العلوم على والده و عدد من علماء النجف. و كان اديباً بارعاً، نشر آثاره في أكثر المطبوعات. توفي في بيروت، و دفن في النجف.



القضايا السياسية و الاجتماعية الأساسية و توعية المسلمين و النضال ضدّ الامبريالية و الصهيونية لا يغفل عن أداء و اجباته كعالم ديني. و كانت رحلاته الى البلاد الإسلامية إحدى أساليبه العلمية لتوعية الأمة الإسلامية و تمثل جانباً من اهتمامه بشؤون المسلمين. فقد سافر لأول مرّة إلى الحجاز عام ١٣٢٨/١٩١٠، ثم إلى الشام و بيروت. و في خلال لقاءاته المتعددة في هذه الرحلة بمختلف العلماء و المفكرين، قام بطبع بعض كتبه في لبنان. ثم توجه الى مصر و التقى فيها بالعلماء و تباحث معهم، و ألقى دروساً على طلاب الأزهر، كما ألقى كلمات في عدد من كنائس القاهرة. و كان من رحلاته المهمة سفره الى فلسطين عام ١٣٥٠/١٩٣١

للاشتراك في «المؤتمر الإسلامي» و كان قد عقد هذا المؤتمر في القدس بمناسبة بعثة رسول الإسلام (ص) و حضره ١٥٠٠ من علماء المسلمين، و مثل علماء العراق فيه الشيخ محمد حسين حيث اقام الصلاة في المسجد الأقصى و ائتم به آلاف المسلمين و منهم علماء المذاهب المختلفة، الأعضاء في المؤتمر. و في الاجتماع الثاني عشر للمؤتمر ألقى خطاباً مؤثراً كان له صدى واسع فيه و في العالم الاسلامي، فقد تحدت فيه عن ماضي المسلمين و حاضرهم. و ما وصل إليه هؤلاء المسلمون من تأخر و تدهور و ضرورة الإتحاد بينهم و الابتعاد عن التفرقة. و قد تم طبع الخطاب هذا في القدس. و زار في هذه الرحلة مدن فلسطين الأخرى مثل حيفا و نابلس و يافا، و حينما عاد الى العراق استقبله الأهالي بحفاوة بالغة، و في تلك الفترة ألقى في جامع الكوفة و بحضور عدد كبير من المسلمين الذين أثارهم خطابه في القدس، كلمة مسهبة تعتبر من خطابه التاريخية. تحدت فيها عن عظمة ماضي الإسلام و ما حلّ بالمسلمين من تأخر في العصور الأخيرة.

و في ١٩٣٣/١٣٥٢ سافر لأول مرة إلى ايران، و أقام فيها حوالي ثمانية أشهر زار خلالها أكثر المدن الايرانية الكبرى ككرمنشاه و همدان و طهران و شاهرود و خراسان و شيراز و بوشهر. و تحدت إلى الناس في كل مكان باللغة الفارسيّة و سعى لتوعية المسلمين و إيقاظهم، و دعاهم للنهوض و الثورة للقضاء على الاستعمار. ثم عاد إلى العراق عن طريق البصرة. كما زار ايران ثانية في ١٩٤٧/١٣٦٦ و للمرة الثالثة في ١٩٥٠/١٣٦٩. و في ١٩٥٢/١٣٧١ عاد فزار سورية و لبنان ثانية. و في نفس هذا العام دعي للاشتراك في المؤتمر الاسلامي في كراتشي بباكستان و ألقى فيه خطاباً، كما زار أهم مدن باكستان. و علاوة على ذلك ساهم في الحروب المسلّحة ضد الاستعمار البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) و كذلك في الثورة التي قام بها الشعب العراقي عام ١٩٤١/١٣٦٠ ضد الانجليز (ثورة رشيد عالي الكيلاني في ربيع الثاني - جمادى الأولى ١٣٦٠ / نيسان و أيار ١٩٤١) و أصدر في هذه الحرب فتوى صريحة بالجهاد ضد المحتلين الانجليز و طلب من أبناء الشعب المساهمة في الحرب

باعتبارها تكليفاً شرعياً.

و حينما اعلن عن تأسيس دولة اسرائيل في الشرق الأوسط عام ١٩٤٨/١٣٦٧ بدعم من الدول الغربية نهض الشيخ محمد الحسين لمواجهتها بصراحة و استغلّ مكانته و نفوذه الدينيين و السياسيين في هذا الشأن. و كان يعتقد بأن حكّام الدول العربية ليسوا جدّيين في حربهم مع إسرائيل.

الآثار والتأليف

كان من أعمال الشيخ محمد الحسين المهمّة كتابة المقالات و الكتب. و يقال إنّ آثاره بلغت ثمانين مؤلّفاً (آغا بزرك، طبقات اعلام الشيعة، ٦١٩) و رغم أنه أصيب في أواخر حياته بامراض مختلفة فقد واصل الدراسة و التحقيق و التأليف. و كان يستوحي آثاره من حاجات عصره الفكرية هادفاً إبناء الشعب، و يمتاز بعضها بأهميّة تاريخيّة خاصة، و كان يتمتّع خاصّة بقدرة أدبيّة فائقة و أسلوب رائع في الكتابة، حيث كان نثره شيقاً و شعره قوياً و رقيقاً و لذلك فإن لآثاره قيمة أدبيّة كبيرة فضلاً عن مكانتها العلمية و الاجتماعية.

من آثاره المطبوعة: الآيات اليّنات، في نقد آراء الوهابيين و البهائيين. ١٩٢٦/١٣٤٥ أصل الشيعة و أصولها. صيدا. ١٩٣٢/١٣٥١. طبع هذا الكتاب مراراً و ترجم إلى مختلف اللغات و منها الفارسية؛ التوضيح في بيان ما هو الانجيل و من هو المسيح^(١) مجلّدان، المجلد الأول: صيدا، ١٩١٢/١٣٣١، المجلد الثاني: بغداد ١٩٢٨/١٣٤٦.

الدين و الإسلام، مجلّدان، المجلد الأول: ١٩١١/١٣٣٠، المجلد الثاني: صيدا، ١٩١٢/١٣٣١؛

المراجعات الريحانية، مجلّدان، ط بيروت و صيدا، ١٩١٢/١٣٣١؛ و جيزة الأحكام، رسالة عملية بالفارسية و العربية، طبعت مراراً في النجف؛ عين الميزان، في نقد مقالة «ميزان الجرح و التعديل» لجمال الدين القاسمي الدمشقي. صيدا،

١- ترجمنا هذا الكتاب الى الفارسيّة مع مشاركة الأخ الاستاذ السيد هادي خسروشاهي.

١٩١١/١٣٣٥؛ الفردوس الأعلى، النجف، ١٣٧١ هـ تبريز، ١٣٧٢ هـ المثل العليا في الإسلام لا في بحدون، نجف، ١٣٧٣ هـ المواكب الحسينية، النجف. ١٣٤٥ هـ نبذة من السياسة الحسينية، ط النجف، ١٣٧٣ هـ نظم كشف الأستار عن وجه الغائب عن الأبصار، تبريز، ١٩٣٩ م؛ الأرض و التربة الحسينية، النجف، ١٣٦٥ هـ جنة المأوى، تبريز، ١٣٨٠ هـ حاشية عين الحيات (بالفارسية) بمباي، مبادئ الايمان، النجف ١٣٧٨ هـ المحاوراة مع السفيرين الأمريكي و البريطاني، النجف، ١٣٧٣ هـ ميثاق الوطن العربي، النجف، ١٣٧١ هـ الحاشية على تبصرة المتعلمين، بغداد، ١٣٣٨ هـ تحرير المجلة، ٣ مجلدات. النجف، ١٣٥٩ هـ زادالمقّلدین (بالفارسية) طبع مراراً في النجف و ايران؛ سؤال و جواب، طبع مراراً، النجف؛ نقد كتاب ملوك العرب، تأليف الريحاني و الذي نشر في مجلة النجف^(١).

الوفاة:

توفى في ١٣٧٣ هـ ق. بعد ما اودع آثاراً جلييلة و ودائع ثمينة. رحمه الله تعالى.



الشيخ محمد عبده رجل الفكر و العملاق

كان الشيخ محمد عبده - الذي كان له الدور الأساس في وضع أسس التمدن والحضارة المصرية الجديدة - من جملة تلاميذ السيد جمال الدين الاسدآبادي في البدء، ونظراً لتقارب أفكارهما وعقائدهما واشتراكهما في كثير من الآراء المستقبلية وأسلوب التفكير، فقد أصبح في صف أصحاب السيد ورفاقه في الجهاد بسرعة. وكان لعبده توجه خاص نحو التمدن والثقافة والافكار المذهبية للمسلمين، ولهذا كان يسعى بكل ما يمتلك من جهد وطاقة الى التوفيق بين التعليمات الاسلامية ومقتضيات الحضارة الحديثة، وإيجاد جسر يربط بينهما. وفي ذلك الوقت كانت الافكار السطحية والجمود الفكري مسيطراً على بعض علماء مصر، فلم يخطوا خطوة نحو الأمام، بل وكانوا يعدون أنفسهم عائقاً كبيراً أمام تقدم المجتمع المصري وتكامله، فعمل الشيخ محمد عبده على الغاء هذه الأفكار القشريه والجمود الفكري، وحمل القوى الإسلامية البناء الاصيل على التحرك والنشاط.

لهذا فإنه اضافة الى الإستفادة من أفكار السيد جمال الدين المتطورة الحديثة والداعية الى التجديد والتغيير، طرح بعد مدة، أموراً جديدة لم يتطرق اليها حتى الاستاذ نفسه، فقد كان يسعى الى ان يثبت للعالم ان الإسلام قادر على ان يكون مذهباً كاملاً وفكرةً جامعةً تنير البشر وترشده الى الصواب، وأنه الدين الذي يقود بني الانسان نحو سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

رأي الشهيد المطهري

يقول فقيده العلم والفلسفة، آية الله المطهري في أحد مؤلفاته:

«يختلف عبده مع أستاذه السيّد جمال الدين من وجهتين:

الأولى: إنّ السيّد كان يفكر تفكيراً ثورياً، أمّا عبده فيذهب الى الإصلاح

التدريجي والتتيف الإجتماعي.

والأخرى: ان السيّد كان يولي محاربة الاستبداد والاستعمار الأهميّة القصوى، ويجعلها في مقدّمة برامجها، وكان يعتقد أنّه يجب أولاً اقتلاع جذور الفساد وإلقاءها بعيداً. أمّا عبده فقد كان يعتقد أنّ تعليم المجتمع وتربيته تربية دينية مقدّم على التّعليم والتربية السياسيّة والحركة الثّورية»^(١).

والنقطة التي يمكن اضافتها الى ما كتبه الاستاذ المطهري هي ان سبب فشل السيّد، وقتله أو موته الغامض، قبل ان يرى ثمار جهوده ومساعيه وأفكاره الثّورية في ايران وسائر الدول الإسلاميّة، كان اتّجاهه نحو الرّؤساء والملوك ومن بيدهم أزمّة الأمور دائماً، فقد كان يهدف من خلال نصحتهم وابقاظهم الى ايقافهم على ضرورة رعاية الحقوق الإنسانيّة والحريّات الإجتماعية لمن تحت أيديهم وسيطرتهم من الشعب، وبهذا فقد كان غافلاً عن عامّة الشعب الذين يعتبرون النواة المركزيّة للثورات والمحور الاساس للحركات.

ويكمن سبب فشله في هذه النقطة، وذلك لأنّ التحوّل والتغيير اذا اهدي وبدأ من الأعلى فلن يصل الى معناه الحقيقي، في حين انّ أساس حركة الشعوب أساس محكم وثابت. وفي هذه النقطة أيضاً يختلف الشيخ محمد عبده مع أستاذه، فانه كان يبحث عن هدفه وسبل تحقيقه بين أوساط الشعب؛ ولذلك كان توجّهه الخاصّ اليهم بدل التوجه نحو الحكّام والملوك والقادة.

يقول الأستاذ الدكتور حميد عنايت في كتابة حول هذا الموضوع:

«كانت نتائج اعمال السيّد وعبده تختلف كثيراً من حيث تأثير الاثنين في

تاريخ يقظة المسلمين، فقد كان السيّد رجل عمل ومثابرة غالباً، أمّا عبده فهو رجل



فكر وإعتدال. وكان السيّد يعتقد أنّ تحرير المسلمين هو السبيل الوحيد لتحرّكهم الفكري، بينما يعتقد عبده أنّ السبيل الوحيد هو تربية المسلمين اخلاقياً ودينياً. ووسع السيّد من نطاق عمله فجعله يشمل أنحاء العالم الاسلامي تقريباً، أمّا عبده فقد اقتصر غالباً على إصلاح المصريين.

وربما كان علينا ان نقول: ان نتيجته عمل السيّد ونتيجة عمل عبده يكمل بعضها بعضاً لهذا التفاوت، خاصّة وأنهما متفقان على ضرورة الرجوع المباشر الى المصادر الأصيلة للفكر الديني، والتوجيه العقلي لأحكام الشريعة، والتوفيق بينها وبين مسائل العصر الحديث، والابتعاد عن الفرقة والتبعثر، والضّغط وتوجيه

الضربات الى رؤوس الاستبداد، وخاتمة القول: انّ الذي يستطيع الوقوف أمام الاستبداد هو الشعور والوعي السياسي والاجتماعي لدى الناس، ومراقبتهم لأعمال الحاكم، فاذا وجد مثل هذا الشعور والاحساس والوعي لدى الناس فإنّ شعبان الاستبداد الأسود سيقيد.

ولا يعني هذا اهمال كَيْفِيَّة النظام، وليكن كيفما كان، وأنما يعني ان النظام الجيّد يكون مفيداً عندما يرتفع مستوى الشّعور السياسي لدى الناس، ولذلك فإنّ الكواكبي - كالسيد جمال الدين، وعلى خلاف عبده - كان يرى أولويّة النشاطات السياسيّة، ورفع مستوى الشعور السياسي لدى الشعوب المسلمة، وتقديم ذلك على سائر الأمور الإصلاحيّة لحياتهم، كما كان يعتقد أنّه يجب نشر الشعور السياسي بين المسلمين بالإستعانة بشعورهم الدّيني .

انّ إحياء الاجتهاد والسعي من أجل معرفة روح الدين الاسلامي وجوهره؛ ليخلف القواعد الجافة والنظرة القشريّة لوعاظ السلاطين، كانا مقترنين، وكانت هذه الآمال والمطالب هي التي قُبلت باعتبارها الأصول الأساسية لانصار التجديد من السنة»^(١).

الشيخ محمود شلتوت

(شيخ جامع الأزهر)

أما الشيخ محمود شلتوت فهو المفتي الكبير ورئيس جامعة الأزهر الإسلامية العظيمة، الفقيه المجاهد والمجتهد الثوري الجليل، الذي بذل قصارى جهده وجاهد في سبيل وحدة العالم الإسلامي واتحاد المذاهب الإسلامية، واستبدال تفرق أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة باتحادهم وتآلفهم، وقد بلغ في جهاده حدّ التفاني والتّضحية.

وهو الذي أصدر فتواه الثورية التاريخية بالاعتراف بالفقه الجعفري في عالم التسنن لأول مرة، ونظراً لمنطقه الحرّ ودرايته العلمية الخاصة فإنه رجح بعض آراء الفقه الجعفري، وخاصّة في المسائل العائلية والأحوال الشخصية، على آراء فقهاء السنة، كما طبع الكتاب الفقهي (المختصر النافع) هذا الأثر النفيس للمحقّق الحلّي (المتوفى ٧٢٦ هـ. ق)، على نفقة الأوقاف المصرية ووضعه تحت تصرّف طلبة الفقه في جامعة الأزهر؛ وذلك من أجل ان يسير المسلمون في طريق الوحدة والأخوة عن طريق العلاقات العامّة والتّقافية، ويتعرف بعضهم على البعض الآخر أكثر فأكثر، وعن هذه الطريق سيظهرون قوتهم وعظمتهم وقدرتهم السياسيّة والاقتصادية والعسكرية في هذا العالم القائم على أساس النهب والاستغلال، وليصنعوا من أنفسهم قوّة عظمى في مقابل القوى العظمى في العالم.

الاتصال بمركز الفقه الشيعي

وكانت لديه علاقات اخوية و ودية وثيقة مع زعيم عالم التشيع آية الله العظمى الحاج السيد حسين الطباطبائي البروجردي، بحيث كان المبعوثون العلميون والإسلاميون لهذين العظميين يقومون بزيارات متبادلة، وأدوا خدمات جليلة من أجل التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية.

والذي منح الشيخ محمود شلتوت، العالم المجاهد الواعي من أبناء العامة، مكانة خاصة بين الشيعة في العالم، مضافاً الى اعترافه رسمياً بأصول الفقه الجعفري كقيّة الطرق الاستدلالية لأهل السنة، وفتواه التاريخية الثورية التي أصدرها في هذا الشأن، هو سعيه الحثيث من أجل تأسيس (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية).

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية جمعيتي تأسست باقتراح آية الله القمي وتأييد آية الله العظمى الحاج السيد حسين البروجردي، وحسن نيّة الشيخ محمود شلتوت وخطواته القيّمة، وسعت الى وضع أسس الاتحاد والتضامن بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة؛ ليقف مسلموا العالم صفّاً واحداً - تحت راية الأخوة والوحدة - بوجه أعداء الإسلام.

وكان الشيخ محمود شلتوت هو الذي رحّب بهذا الاقتراح بحسن نيّة تدعو الى التقدير والاحترام، وباعتباره المفتي الأكبر لعالم لأهل السنّة فقد سعى من أجل الاسراع في تحكيم أسس هذه الجمعيتي؛ لتكون منعطفاً في تاريخ حياة اتباع المذاهب الإسلامية المختلفة.

وتعدّ جهوده في هذا الباب جهاداً علمياً منطقياً عظيماً ضدّ القشريين والمتعصّبين من أهل السنّة في مصر وبقية الدول، الذين لا يدركون ضرورة الحياة العصرية وقد تحمّل الشيخ شلتوت في هذا السبيل المصائب والمحن الكثيرة.

أمّا المرحوم آية الله العظمى البروجردي فإنه أصيب عدّة مرات في أواخر عمره الشريف بحالة الإغماء وفقدان الوعي، وعندما استعاد وعية في إحدى هذه النوبات كان آخر ما تكلم به - وهو أهمّ ما يتكلّم به الانسان عادة من الأهداف والقيم - هو: «كان من المقرّر ان يسافر السيد القمي الى مصر ليلتقي بشيخ الازهر

ليأخذوا التدابير اللازمة حول دار التقريب، فهل ذهب أم لا؟».



خلاصة المقال أنّ الشيخ شلتوت من أوائل من دَعى الى الوحدة و الإعتصام بحبل الله تعالى حيث يقول الله تعالى: «و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرّقوا و اذكروا نعمة الله اذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً...» صدق الله العليّ العظيم

السيد عبدالرحمن الكواكبي

المكافح السورى

أسرة الكواكبي من الأسر القديمة والأصيلة التي هاجر أجداده من إيران الى حلب قبل أربعة قرون وأقاموا فيها. ولهذه الأسرة جذرة عميقة ومقام شامخ. ينتهي نسبها الى السيد ابراهيم الصفوي، وكان أحد كبار أمراء اردبيل. وقد تركت هذه الأسرة آثاراً معروفة منها المدرسة الكواكبية التي خرجت جماعة كثيرة من العلماء ورجال الادارة والسياسة، وأحد هؤلاء هو العالم المفكر الفقيه السيد عبدالرحمن الكواكبي.

ولد في حلب سنة ١٢٦٥ هـ وكان أبوه السيد أحمد الكواكبي من مدرّسي الجامع الأموي. وقد تعلّم السيد عبدالرحمن مقدّمات العلم في بعض المدارس الوطنيّة، ودرس العلوم الشرعية في المدرسة الكواكبيّة، كما أتقن أدب اللغة العربية والتركية، واطّلع على اللغة الفارسية في الجملة، كما وقف على الرياضيات والطبيعيّات وغيرها من العلوم التي تعتبر علوماً حديثة.

وكان يرغب كثيراً في الكتابة منذ نعومة اظفاره، وأصبح وهو في سنّ السابعة والعشرين من كتاب صحيفة (الفرات) التي كانت تصدرها حكومة حلب. واستمرّ في عمله هذا خمس سنين، وفي هذا الإتّجاه أصدر بنفسه جريدة باسم (الشعباء) وأصبح في سلك الدولة، فتسّم مناصب عديدة سواء كانت علميّة أو اداريّة. وقد مدحه أرباب الفكر والعلم في كل عمل من أعماله، صغيراً كان أم كبيراً، وذلك لأنّ كفاءة الرجال العظماء ودرابتهم تتجلّى في أعمالهم الصغيرة والكبيرة.

كما كان مغرمًا بالاصلاح الاجتماعي وسيادة الحرية في الأقوال والأفكار، وكان هذا الحب يتجلّى من خلال كل عمل يقوم به.

لكن هذه الافكار والمعنويات لم تتسجم مع آراء بعض المسؤولين، ولذلك وشوا به، فقامت الأجهزة الحكومية بسجنه عمداً وصادرت أملاكه. غير ان هذه المصائب لم تؤثر في همته العالية قيد شعرة، ومن أجل الحصول على حرّيته فقد اختار مغادرة الوطن ليهاجر في أرض الله.

جاء الى مصر، ومن هناك غادرها بهدف السياحة فزار بلدان زنجبار والحبشة وكثير من بلاد أنهار شرقي آسيا وغربها ثم عاد الى مصر.

وأكثر ما يستحق الذكر من حياته هو السفارة العلمية التي قام بها، والتي يندر ان يقوم بها أحد غيره، فقد ذهب الى الأراضي التي في وسط الجزيرة العربية وقضى ما يقارب الثلاثين يوماً وهو على ظهر البعير، وقطع صحراء (دهنارا) في اليمن، ولا نعلم اليوم ماذا أتى به من صيد في هذه السفارة من الاكتشافات التاريخية والتحقيقات العلمية، ولعل النتائج العلمية لهذه السفرات قد حفظت مع ما تركه.

وبعد القيام بهذه السفارة سافر الى الهند ونواحي شرقي افريقيا، ثم عاد الى مصر مرّة ثانية حيث كان الموت بانتظاره.

كان الكواكبي يتمتع بسعة صدر وكثرة تحمّل وصبر، كما كان معتدلاً في كلّ عمل وكلّ شيء، رحيماً بالضعفاء والمساكين حتّى سمّاه أهل حلب (ابا الضعفاء).

وجاء في صحيفة (الرائد) المصرية انه كان يمتلك مكتباً للمحاماة في مدينته يقضي فيه أكثر ساعاته، وكان ينظر في هذا المكتب الى ما فيه مصلحة الناس، فيرسل من أصدقائه من يدافع عن الضّعفاء والمظلومين في المحكمة.

وكان له سعة اطلاع في تاريخ الشرق وخاصة تاريخ الدولة العثمانية، كما كان يظهر حرصه الشديد على العمران. وقد قام الكواكبي بتأليف كتب لم يطبع منها إلا كتاب (طبائع الاستبداد) الذي لا يوجد له نظير في بابه، وكتاب (أمّ القرى).

وبالإضافة الى كونه مسلماً طاهر العقيدة، وكان يطالب بالحقوق الإسلامية دائماً، ويلقي بنفسه في أحضان التعب والمشقة من أجل نصره الإسلام، فقد كان



بعيداً عن التّعصب، فقد كان المسلم والمسيحي واليهودي يجلسون في مجلسه أخوة متحابين يأنس بعضهم ببعض، رحمه الله وشمله بلطفه ورأفته^(١).
ومع ان الكواكبي كان من العامة إلا أنه كان يعتقد بوحدة الدين والسياسة كمفكرٍ الشيعة، ويرى ان الدين الإسلامي دين السياسة، وكان يعتقد انه لو فهم التوحيد الاسلامي جيداً، وعرف الناس حقيقة معنى (لا اله الا الله) التي تعني سلب القدرة والسيطرة عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى، فإنهم سيصلون الى أقوى المواضع التي تحارب الاستبداد وتقف بوجهه.
ان معنى تلك الكلمة الطيبة هو ان أي موجود سوى الله الواحد لا يستحق

١- مجلة (راهنماي كتاب) العدد ١-٢، السنة (١٥) مقالة السيد رضواني ص ٤٠.

الخضوع له، وكلّ خضوع لا يكون في امتثال أمر الله وطاعته شرك ووثنية. ويرى الكواكبي أنّ التوحيد الاسلامي لا يعني التوحيد الفكري والنظري والعقائدي وحسب، بل يوسّعه الى مرحلة العمل والتطبيق الخارجي، ويطالب بإقامة نظام العدل التوحيدي.

كان الكواكبي من المجاهدين والمطالبين بالإصلاح في عالم الإسلام، ومن المؤسسين للنهضات الإسلامية، وسجّل اسمه في التاريخ في مصاف العلماء المجاهدين الحقيقيين. وكان السيّد عبدالرحمن الكواكبي من أنصار السيّد جمال الدين الأسدآبادي.

ومع ان الكواكبي - الذي ينتهي نسبه بعدة أجداد الى الشيخ صفي الدين الاردبيلي، وهو من أهل سوريا - لم يعمر إلا خمسين عاماً، إلا ان اسمه لمع، وكان له تأثير عجيب في تاريخ النهضات الإسلامية والحركات الفكرية في العالم الاسلامي خلال عمره القصير.

ولمّا كان عارفاً باللغة التركية والفارسية أيضاً، فقد أودع أفكاره الاصلاحية وعقائده التقدمية المناهضة للاستبداد في كتابين قيّمين:

الأول: (طبائع الاستبداد) الذي ترجم الى الفارسية في أوائل ثورة الدستور في ايران، فاضافة الى تأثيره البناء في أوساط الشعوب العربية كان له أثره الفاعل في إنارة أذهان الايرانيين وتعليمهم مبادئ أصول الحرية ومعاييرها في الاخير في اوائل الثورة الإسلامية ترجم الى الفارسية و استفيد منها.

الثاني: كتاب (ام القرى) الذي ضمنه آراءه وأفكاره الإصلاحية.

رأي الأستاذ المطهري

وللأستاذ المطهري كلمة حول الكواكبي حيث يقول:

«كان الكواكبي مفكراً اسلامياً يناهض الاستبداد، وقد قارع استبداد الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون سورياً بكل صلابة ورجولة.

وكان الكواكبي - كالسيد جمال الدين - يعتبر الوعي السياسي واحباً على

المسلمين، ويعتقد انّ النظام السياسي - سواء كان دستورياً أم شيئاً آخر - لا يقوى لوحده، ان يقف أمام الاستبداد»^(١).

الشيخ عز الدين القسام السوري

مبتكر التنظيم الاسلامي

هو من العلماء المكافحين و المجاهدين فى سبيل الحرّية و الدّفاع عن الوطن الإسلامى و هو أوّل من بدء التفكير جدياً بالكفاح المسلّح لمواجهة السّلطة الإستبدادية و العصابات الصهيونية التى واصلت تهريب السلاح من الخارج تحت بصر الحكومة و سمعها و كان أوّل تنظيم عربى مسلّح هو تنظيم الشيخ عزّ الدين القسام فى مدينة حيفا رأى القسام ان المؤامرة البريطانية - الصهيونية فى فلسطين تستهدف من قراه و اراضيهم لتسليمها لليهود و ادرك بوعيه السياسى و ايمانه الدينى العميق ضرورة حمل راية الجهاد و اعتمد فى تنظيمه السّرى على الفلّاحين و العمّال الّذين اعدّهم اعدادياً عقائدياً و سياسياً تمهيداً لإعلان الثورة المسلحة.

و الف لجاناً للدعاية و التدريب العسكرى و التمرين و الاستخبارات و الإتصالات الخارجية لهذه الغاية و غادر حيفا فى ١٢ تشرين الثانى نوفمبر ١٩٣٥ الى غايات «يبعد» و اتّخذها مقرّاً له و بدأ اتصالاته بأهالى جنين و القرى المحيطة بها يدعوهم الى الإستلحاق به.

و لكن حادثاً عرضياً ادى اصطدام مجموعة من اعدائه بقوة شرطة بريطانيا فى ١٤ تشرين الثانى نوفمبر و وقع حادث يماثل بعد ذلك بعد ثلاثة ايام فاستقرت السلطات البريطانية قواتها و حاصرت المنطقة فى ١٩ تشرين الثانى و قضت على قواته القليلة العدد و العدة و انتهت هذه المحاولة الاوّل لثورة المسلحة نهاية مفجعة غير أنّها مثّلت انعطافاً جزرياً فى اسلوب الكفاح الوطنى الفلسطينى و نقلته من

تقديم المذكرات و العرايض و تنظيم المظاهرات و المهرجانات الى الكفاح المسلح.
ادركت القيادات الوطنية العربية خطورة التحرك الشعبى المسلح فوحدت صفوفها بعد فترة طويلة من التنافس و الصراعات الحادة و لما نشطت حركة الاضراب العام الشامل التى انطلقت من يافا و نابلس يومى ١٩ و ٢٠ نيسان / ابريل ١٩٣٦ سارعت القيادات الى تأليف اللجة العربية الأولى من زعماء الاحزاب السياسية يتولى قيادتها.



مقال الغدرى

يقول الكاتب الغدرى^(١) في حركات الفلسطينيين و يقول «اخطر منظمة سرّية و اعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الفلسطينية و هى حركة القساميين و هو يؤكّد معرفة الحاج امين بالشيخ القسام و التقارب بينهما و تولى الاخير مهمة تأسيس منظمة بمعرفه الحاج امين، وضع لها ميثاقاً دينياً وطنياً و انظمة و قوانين داخلية جاءت شيئاً جديداً فى عملية التنظيم السرى و كانت الإتصالات بين الحاج امين و العصابة تتم سرّية كان الشيخ الكامل القصاب ينقل للشيخ القسام توجيهات المفتى و احيطت عمليات القساميين بالكتمان و انكشف عمل التنظيم بعد خمس سنوات من تأسيسه حتّى عزم الشيخ على اعلان ثورة مكشوفة و اقر المفتى الخطورة و باركها و بعد معركة الاستشهاد استمرّ القساميون بالعمل و انضموا الى ثورة ١٩٣٦ و يعتبر الغدرى ان وثبة القسام على الحكم البريطانى دفعت الشعب الى المزيد فى التصميم على خوض غمار الجهاد^(٢)

مقال الشقىرى

يقول الشقىرى فى كتابه «فلسطين فى القلب» عن نضال الشعب الفلسطينى «اول مواجهة مسلّحة جريئة لسلطة انتداب البريطانى و ان الفضل للشعب الاصيل فهو لحركة القسام هو الذى حمل السلاح و منه سقط الشهداء و اتبعوا النضال على عام ١٩٣٧.^(٣)

مقال زعيتر

يؤمن اكرم زعيتر بضرورة كفاح مسلّح فيقول: لاحد الزعماء بعد ثورة القسام

١- مذكرات الغدرى تحتوى مئة صفحة على «الاحداث» من ايار / مايو تشرين الثانى نومبر

١٩٣٦ يورد فى كتابه خلاصة عنها.

٢- (الموسوعة الفلسطينية ج ٣ قسم ثانى ص ٧٩٩ و ٨٠٠)

٣- فلسطين فى القلب.

فليس من سبيل الى الخلاص الاّ الجهاد الدامى و قد فتح فقيدنا القسّام الباب لنلجه
وإنّا لفاعلون^(١)

نضالاته

هو رائد المجاهدين فى بلاد الشام، فى القرن العشرين مسقط رأسه: بلدة
جبلّة الواقعة على الساحل السورى درس فى الأزهر الشريف الذى كان منارة علم
و جهاد، فأخذ منه العلم و الجهاد معاً، بعد ان تتلمذ على ايدى فطاحل العلماء و
الثائرين على الجهل و التخلف و الفساد و الإستعمار، ثم عاد الى بلدته التى كانت
كسائر بلاد العرب و المسلمين، تنن تحت وطأة الجهل و التخلف، ليعمل بعقله
المستنير، و روحه المتوثبة، على انتشال العمال و الفلاحين و التعمساء و المنحرفين
من وحدات البؤس و الإمية و الإنحراف من خلال المدرسة الليلية و الى جانب
(الكتاب) الذى كان يعلم فيه الصغار فى النهار حتّى اذا ما غزى الجيش الفرنسى
سورية شمّر الشيخ عزالدين عن ساعد الكفاح فحمل السلاح و قاد الثورة ضد
الاستعمار الفرنسى ثم انتقل الى حيفا فى فلسطين ليُنظّم و يعلم و يدرّب الشباب ثم
يقودهم فى الجبال فى حركة جهادية استهدفت اليهود و الاستعمار البريطانى
المتعامل مع اليهود.

و من اعماله الإجتماعية التأييد الإسلامى لجمعية الشبّان المسلمين و
استقطبت جمعيات شبّان المسلمين عدداً كبيراً من الشبّاب المثقّف^(٢).

١- الموسوعة ج ٣ ص ٨١٧.

٢- الموسوعة الفلسطينية ج ٣ ص ٢٢١.

السيد شرف الدين العاملي

العالم المجاهد الذي ذهب لقتال العدو بأسلحة العدو

اذا صحّت المقولة: «انّ شخصيّة كل فرد يجب ان تعرف مما يشع من مرآة أفكاره» فإن العالم المجاهد الذي نتناوله الآن قد شعت في مرآة أفكاره، صور مختلفة ومتنوّعة بحيث نقف فجأة أمام رجل ذي شخصيّة متعددة الجوانب، واذا أردنا ان نخنار بُعداً واحداً من هذه الأبعاد المختلفة، فيكفي ان ننظر الى ذلك البعد من شخصيته الذي يوضح كيف انّ شخصاً واحداً قد خلق مذهباً ومنهجاً أثمر الجهاد الفكري والمعنوي ضدّ أعداء الإسلام والمجتمعات الإسلاميّة القدامى، واستطاع ان يكون بمفرده ممثلاً عن جيل نائر، فوقف شامخاً وصلباً أمام كلّ ما يحارب الإسلام ويريد النيل منه، في فتره مضطربة من فترات تاريخ حياة المسلمين.

واذا أردنا البحث عن نافذة للدخول الى العالم الواسع لهذا المذهب الفكري والمعنوي والثقافي، فأننا وان كنّا سنواجه بحراً متلاطمًا من آثاره الفكرية والكتابية، لكننا سنصل الى هذه النافذة عبر الوقوف على جملة قصيرة، تلك الجملة التي كانت بداية فصل لامع لأحد الإبعاد الواسعة المثمرة في عالم فكره العميق ونشاطاته الاساسية البناءة.

أنه يوضح في هذه الجملة ضرورة الإستعانة بالمباني الفكرية والثقافية الاسلاميّة، فيقول:

«لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال».

وبذلك فانه كان يهدي السائرين في وادي الحيرة، والذين فتنتهم المكائد الرذيلة التي دبرها العالم المعادي للإسلام، نحو طريق لا ينبعث نوره إلا من شمس العلم والفكر والايان، والثقافة والمعنويات.

يقول، ويصرّ على قوله بكلّ إيمان واعتقاد واخلاص وحماس: انّ سراج الهداية لا يتقدّم ولا ينتشر ضوئه إلا من تلك النقطة التي عمّتها ظلمة الضلال، فأين تقع هذه النقطة؟

يجيب عالمنا الصّبور: أنّها المدارس ومراكز التعليم و الجامعات و مراكز التربية.

وقد أنفق عمره المبارك في السعي من أجل إثبات صحّة هذا المعتقد، وكان يقوي تلك النقطة على مدى حياته الشريفة، ويعرف العالم الاسلامي بانه لم يكتف بقضاء عمر كامل في التّعليم والتّهديب في مراكز التعليم التي كان يدعو اليها - وهي المدارس والمراكز التي تعنى بتعليم العلوم والثقافة الإسلامية - وأنما كان يسعى بنفسه سعيًا حثيثاً في سبيل ايجاد مثل هذه المراكز وتقويتها وتكثيرها وتوسيعها.

ولذلك فأنّه لم يذع صيته في آفاق البلدان الاسلاميّة في حياته وحسب، وإنّما أبقى ذكرى خالدة خلّدت اسمه بعد وفاته ما خلّد العالم الاسلامي، وخاصة عالم التشيع. ذلك الاسم الذي لا يزال يدوي في الآذان، وجعل القلوب والأرواح تهتف باسم السيّد شرف الدين العالمي!

أجل، كان شرف الدّين، الرجل المنحدر من أصل الشرف والعراقة يقول، وهو مؤمن بقوله :

«يجب ان تبدأ محاربة العدوّ من حيث بدأ العدو»، وكان هذا ما فعله طوال حياته، اذ كان يتّجه دائماً الى ساحة الحرب لمحاربة الأعداء بنفس السّلاح الذي يتسلّحون به.

نجمٌ من لبنان

كما ظهر جماعة كانوا من ابرز رجال العلم والفضيلة، وكلّ منهم كالنجمه في



سماء الثقافة والفكر الاسلامي والجهاد الشيعي من أجل تهذيب النفوس، بزغ نجم السيد شرف الدين في سماء لبنان، وبعث نوره من سماء هذه البلاد - التي كانت على مرّ التاريخ مهذاً لتربية الرجال العُظماء، واليوم أيضاً تكتب أوراق كتاب تاريخها المليء بالحوادث بحبر الدم المراق على أرض النار - الى أنحاء العالم.

نعم، إنّ شرف الدين نجمة من التّجوم اللامعة في سماء لبنان. ولبنان بلد يعيش لسنوات في جحيم النار والدم، فمن كلّ زاوية من زواياه ينطلق لهب الفتنة المدمر، وبعد الحرب العالمية الثانية سمّاها عبّاد الهوى والمخاعون الدوليون (عروس العالم)، وسعوا تحت هذا الاسم البراق الى تغيير وجه

المسلمين المجاهدين، وتبديل المهتمّ بالجهاد والمطالبة بالحق الى وجه يهتمّ بالزينة والالوان الغريبة الجذّابة، وتبديل هويّة الشعب الغاضب الهادر الى شعب يقنّدي بباريس ولندن ونيويورك. وقد سخرت وسائل الاعلام الامبريالية العالمية طاقاتها من أجل إضلال المسلمين المجاهدين وابعادهم عن هويّتهم الأصيلّة عبر التركيز على هذا الاسم والعنوان - عروس العالم - لعلّ العالم الاسلامي ينسى انّ هذه الارض أرض مقدّسة تترنّم أسحارها بنداء (الله اكبر) الذي يدوي في أرجائها، ولغروبها شفق بلون دماء شهداء التاريخ الاسلامي و من جنوبه نشاء علماء افاذاذ و فقهاء اجلة كأمثال الشهيدين الأوّل والثاني و الشيخ البهايي و امثالهم.

لكن على الرغم من هذا الاعلام الخداع، فان العالم الاسلامي، أي الشعوب المستضعفة المضطّهدة في الدّول الإسلاميّة - والتي كانت على خلاف الحكومات العميلة والأنظمة الرجعية السفاكة للدماء، واعية نائرة مجاهدة دائماً - أعرضت عن هذا الاسم، وأثبتوا للعالم، وخاصة المستعمرين، انّ لبنان بلد كباقي البلدان الإسلاميّة. بلد يدويّ فيه نداء (الله اكبر) وليس هو عروس الدنيا. وأثبتوا أيضاً انّ هذا الاسم كاسم (باريس الشرق الاوسط) لا يليق إلا بمن وضع هذه الاسماء والصفات لهذا البلد.

نعم، لم يكن لبنان عروساً، ولا أصبح باريس، بل كان منذ قدم البشرية وأغوار التاريخ مهدياً لتربية رجال الحضارة الإسلاميّة، ورجال العلم والفضيلة، ومشاهير التحقيق والتتبع، والدّائبين في ولاية أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، والسّائرين بكل عزم وصلابة في السبل التي عبّدها أئمة الإسلام الطاهرين بدمائهم الزكية، كما ربّى لبنان العلماء العرفاء المجاهدين، الذين وسعوا أبعاد جهادهم فشملت جميع الأبعاد والمجالات المختلفة، بدأ من المجابهات السياسيّة والاجتماعية وانتهاءً بالمواجهات الثقافيّة والمعنوية، ولم يغفلوا لحظة عن إيقاظ الشعوب المخدرة المستغفلة، وتوعية الشعوب الإسلاميّة المستضعفة.

والحق، يجب ان نقول: ان لبنان جذوره العميقة في الإسلام والمجد المؤثّل في حبّ عليّ وأهل بيته عليهم السلام وأتباعهم، وخاصة في مدن صور وصيدا وجبل عامل

التي كانت كل واحدة منها - ولا تزال - مراكزاً غنيّة محكمة، تبتث العلوم الإسلامية وتوسع من آفاقها، وتربّي العلماء ومشاهير رجالات الإسلام.

إنّ تاريخ رجالات الإسلام يوضح بان شخصيّات جلييلة قد تربّت في أحضان هذه المراكز القيمة البناء، وقدم هؤلاء خدمات جلييلة للأمة الإسلامية المجيدة. وحتى إذا أردنا ان نذكر مثلاً لهؤلاء الرجال البارزين العظماء، فأتنا نضطر الى ذكر الكثيرين منهم، أمثال: الشهيد الأول والشهيد الثاني والمحقق الكركي، والنجوم المنيرة أمثال الشيخ البهائي وغيره، ومن المتأخّرين الأكابر كالسيد محسن الامين العاملي والشيخ محمد جواد مغنّية والامام موسى الصدر، وعشرات الأمثلة الأخرى التي يسطع اسم (شرف الدين) بينهم.

هو السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي العاملي، المجاهد الشجاع، والعالم الطاهر، والنجم المنير. المجاهد الواعي الثابت المرابط الذي لا يعرف اليأس والتعب، والذي خطا خطوات واسعة بناءة في سبيل الحفاظ على دقائق الإسلام وحقائق التشيع الأصيل، وإيضاح الصراط المستقيم، في عالم طغت فيه الضلالة والفتن والمادّيات والخدع المختلفة لمدّعي الديمقراطية الغربية.

وقد بذل جهوداً جبّارة في سبيل وحدة العالم الاسلامي، بكلّ ايمانه وغيرته وحميته الشيعية، واستهلكت هذه الجهود السنوات السّتين التي تكون عمره المبارك. تلك الستون سنة التي انطوت في طريق الجهاد ضدّ الامبريالية العالمية، الشرقية منها والغربية، وضدّ مصاصي دماء الشعوب المناهضين للإسلام، وضدّ الاقطاعية والرجعيّة المحليّة.

نظرة سريعة الى هويّته الشخصية

ولد في أواخر القرن الثالث عشر الهجري سنة ١٢٩٠ هـ بمدينة الكاظمية، وأسرته من أعرق الأسر العلميّة و العملية في جميع القرون والأعصار الإسلامية، أو كما يعبر الشاعر سعدي (كانت كل عشيرته من علماء الدين). وقد أثار الحماس فيه حبّه الشديد لاعلاء كلمة الإسلام، وإحياء الحضارة الإسلامية، والتعلّق باهل بيت

العصمة عليه السلام، فتعلم من ذلك عدم الركون الى الدعة والراحة. ولم يكن أبوه سيداً وحسب، وإنما كانت أمه أيضاً علوية، ومن أسرة آل شرف الدين العريفة الفاضلة، أمه السيدة الفاضلة المتديّنة زهراء الصدر - وهم فرع من آل شرف الدين - وهي أيضاً من أسرة علمية فاضلة، فأبوها آية الله السيد هادي الصدر الذي كان له - إضافة الى هذه البنت الفاضلة - ولد جليل ربّاه في مدرسته التهذيبية، وصنع منه عالماً دينياً قلّ نظيره، ألا وهو آية الله السيد حسن الصدر، ذلك الرجل العظيم، العالم المنتبج المحقق، ورجل الفكر الذي يكفيه ان يخلد اسمه سفره الخطير الموسوم بـ (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام)، فضلاً عن مصنفاته الكثيرة القيمة.

وكان والده الجليل السيد يوسف شرف الدين عالماً واعياً تقياً أيضاً. ويتصل نسب السيد عبدالحسين الاصيل عن طريق والده بالامام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام سابع أئمة أهل البيت عليهم السلام، واسطورة الشجاعة والمقاومة، عبر (٣٢) جد.

يقول الشيخ آقا بزرك الطهراني:

«السيد عبد الحسين بن السيد يوسف بن السيد جواد بن السيد اسماعيل بن السيد محمد بن السيد شرف الدين الموسوي العاملي من كبار المسلمين ومن عباقرة الشيعة في هذا العصر، نسبه من أصحّ الأنساب واشرفها، وهو أشهر من ان يحتاج الى ذكر، وأجلّ من ان يفتقر الى توثيق، وهو منشور في غير واحد من الكتب قديماً وحديثاً وفي مؤلفات أعلام الأسرة ومؤلفاتهم»^(١).

عندما ولد السيد عبد الحسين كان أبوه السيد يوسف مشغلاً بتحصيل العلوم الدينية في العراق، ولما أكمل دراسته ومنحه أكابر العلماء وعظماؤهم هناك اجازة الاجتهاد، كان السيد عبدالحسين قد بلغ الثامنة من عمره، وهنا عزم السيد يوسف على العودة الى مسقط رأسه وموطن أجداده (جبل عامل)، ومع ان أم السيد عبدالحسين كانت ترغب في ان يبقى ولدها في العراق ليتلمذ على يد الأساتذة

والعلماء في هذا البلد ويستفيد منهم العلوم، لكن الأب قرّر اصطحاب ولده الى جبل عامل، ولذلك رافق السيد عبدالحسين عائلته الى (عاملة) وبقي هنا تسع سنوات. وفي هذه الفترة كان يدرّس دروسه الابتدائية خارج الدار، ويستفيد داخلها من أبيه العالم الجليل، فتعلّم في مدرسة أبيه الصرف والنحو والمقدمات وسطوح الفقه والأصول والمنطق والمعاني والبيان.

ولما بلغ السابعة عشر من عمره إتّجه الى النجف الأشرف لرغبة أمّه ورضى أبيه، فبدأ مواصلة دراسته العلمية في الحوزة العلوية بالنجف الاشرف. وقد نهل العلم في تلك السنوات التي قضاها هناك من أساتذة عظام وعلماء أجلّة، كالآخوند الخراساني، والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ حسن الكربلائي والشيخ محمد طه نجف والسيد اسماعيل الصدر وشيخ الشريعة والسيد حسن الصدر، وقد تسنم الدرجات الرفيعة في الفضل والكمال، في الفقه والاصول والحكمة والتفسير والحديث.

وحثّى في سني شبابه - أي عندما كان عمره (١٧) سنة عندما غادر عاملة واتجه نحو النجف - فاق السيد عبدالحسين أقرانه، ودوّى صدى علمه وفكره ونبوغه الفكري في أنحاء الحوزة العلمية في النجف.

قضى السيد قرابة (١٥) سنة في تلك الديار، لكنّه لم يركن الى الهدوء والدعة فيها، بل كان يستغلّ أية فرصة تسنح ليذهب الى كربلاء والكاظمية وسامراء ليحضر حلقات درس وبحث أساتذة تلك الحوزات، وليقطف ثمار العلم من أولئك العمالقة. وإضافة الى ذلك فأنّه كان يستفيد كثيراً من درس آية الله السيد هادي الصدر - جدّه لأّمّه - الذي كان من أكابر العلماء آنذاك، وكان السيد عبدالحسين مسافراً ظمّاناً في ديار العلم، ينهل من كلّ عين، لكنّه لم يكن يروي وحسب، وإنما كان يظمّ أكثر فأكثر، ويتلّهق للشرب من العيون الأخرى، وحقاً كيف يمكن إرواء ظمّاً الفضل والعلم والكمال، ومتى؟

وأخيراً فلمّا ساد صدى علمه وكماله الحوزات العلمية، وثبتت كتاباته العميقة المفيدة في المباحث الفقهية مكانته، فأنّه عاد - كوالده - الى موطن أجداده جبل

عامل، وكان عمره آنذاك (٣٢) سنة، بعد ان حصل على عدّة اجازات اجتهاد من أبرز علماء الحوزات العلميّة.

ومنذ ذلك الحين بدأت مرحلة الأبداع والانتاج والعطاء في حياته العلمية، فأطبقت آثاره العلمية والتحقيقيّة والعقلية والاجتهادية وتبعه، الآفاق الإسلامية. ففي مدّة قصيرة بلغت مقالاته ومصنّفاته حدّاً من الأهمية والاعتبار في محافل الخبراء بالعلوم الإسلامية، بحيث تجاوزت مرحلة القبول والاهتمام، وأصبحت مصدراً يستند اليه، وذلك لأنّه أورد في الابواب المختلفة معلومات واسعة تستند الى ثقافة عجيبة وتحقيق وتتبع واضح الفكرة. تلك المعلومات التي كانت تحكي عن تمرّسه واحاطته التي لا تقبل النقاش في الفقه والأصول والحكمة والتفسير والحديث والمنطق والكلام والتاريخ والرجال والدراية والمناظرة والاخلاق والنقد والشعر ومعرفته، والتأليف في كل أبواب الادب.

مقالة الشيخ اقا بزرك

ونستعين مرّة أخرى بكلام أكبر محقّق ومنتبّع في القرن الماضي، والذي كان من أكابر علماء حوزة الفكر والثقافة الإسلامية، أعني كلام الشيخ آقا بزرك حول شرف الدين وسعة اطلاعه العميق، حيث سطر هذا الكلام في كتبه، فهو يقول :

«فماذا يقول الواصف فيه: أهو مجتهد فاضل أم متكلّم بارع، أم فيلسوف محقّق، أم أصولي ضليع، أم مفسّر كبير، أم محدّث صدوق، أم مؤرّخ ثبت، أم خطيب مصقّع، أم باحث ناقد، أم اديب كبير؟

نعم، هو كلّ ذلك، أضف إليه انه ذلك المجاهد الدائب على المناضلة دون الدين، والمكافح المتواصل دفاعه عن المذهب الحقّ، تشهد له بذلك كله المحابر والمزاير، والكتب والدفاتر، والخطب والمنابر، وأعماله الناجعة، ومحاضراته البديعة، وحجابه الدامغ»^(١).

بسعة المعلومات هذه، وبهذا العشق الرامي الى توسيع حدود العلوم

الإسلامية على أساس الخلفيات الذهنية للمسلمين، وخاصة علماء الإسلام، وضع السيد شرف الدين قدمه في هذا الطريق، ومع أنه كان يحارب الفئات والقوى المناهضة للإسلام في جميع المجالات، غير أن أكبر جهوده وأهم مساعيه كانت منصبة على هذا المجال، حيث كان يسعى بكل ما أوتي من قوة الى تسليح العالم الاسلامي بسلاح العلم والوعي، ومن هنا اشتغل منذ البداية بالنشاطات الإجتماعية في مدينة صور، كما بدأ الى جانبها نشاطاته الإسلامية القيمة واستمر فيها.

كان السيد يعتقد أن أعداء الإسلام، وخاصة الإستعمار الشرقي والغربي، كان ينفث سمومه عبر أجهزة الاعلام العظيمة، التي تحت سيطرته، سواء الإذاعية منها أم الكتب والمنشورات، ويصدرها الى الدول الإسلامية قبل أيّ زمان آخر؛ من أجل تلويث أذهان الشباب الخالية البسيطة، خاصة وان هذه القوى الشيطانية كانت تسعى من خلال عملائها وأذئابها في الدّاخل الى استبدال المدارس الإسلامية بمدارس مخزية ساقطة، وضعوا لها البرامج المضلّة، التي تفقد الانسان هويّته، فيكون الشباب المسلم، بل وحتى الكهول، غرباء عن الحضارة الاسلاميّة المجيدة البتّة.

كان يعتقد أنّ هذا أمضى سلاح بيد أعداء الإسلام، ولا سبيل لنا إلا ان نذهب للقاء العدو بنفس هذه الأسلحة، وبعبارة أخرى يجب علينا ان نغذي الشباب بحضارتهم الانسانية السامية من خلال إيجاد المدارس الإسلامية والحفاظ عليها، وتوسيعها وتقويتها، وطرح الآفاق الواسعة للعلوم والمفاهيم الإسلامية، وان نسلّحهم بدينهم وحضارتهم، حتّى لا يتأثروا بالاعلام المعادي والمفاهيم الالحادية المضلّة، بل ويقفون أمامها ويفندونها أيضاً.

لهذا فقد بدأ نشاطاته على أوسع الأنطقه، وبهذا المنظار بدأ بحماس ملتهب وتضحية عظيمة تأسيس المدارس الإسلامية ومراكز تعليم العلوم الدينية للاحداث المسلمين، ووضع بهمته العالية أسس الإنارة والإيقاظ على نطاقه الواسع؛ لكي يغمر نورها أقصى نقاط الدول الإسلامية في العالم، وشمر عن ساعد الجدّ في سبيل تقويتها.

أمّا كتبه ومؤلفاته النفيسة فإن أحد أهمّ الأسس الفكرية في القرن الأخير من التاريخ الاسلامي قام على أساسها وما تحتويه.

وكتاب (المراجعات) أحد هذه الكتب النفيسة المنيرة، فهو مجموعة رسائل بلغت (١١٢) رسالة، وهي رسائل تبادلها السيّد وشيخ الإسلام سليم البشري، المفتي والرئيس الأسبق لجامع الازهر. ويعكس الكتاب مدى سعة إطلاعه وحبّه الشديد لاتّحاد العالم الاسلامي، ونال في العالم الاسلامي - سواء عالم الشيعة أم السنة - قيمة واعتباراً، بحيث سجّل اسم شرف الدين بحقّ كأحد أبرز أبطال العلم والبيان والوحدة.

بان أفكاره الصائبة السامية المرشدة الى الصواب والتي اودعها هذا الكتاب، تبين مدى الجهود التي بذلها في سبيل إيجاد التفاهم بين الفرق الإسلامية، وسعيه المتواصل من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية بين جميع الشعوب الإسلامية. ويمكن الوقوف على حماسه وايمانه بمسألة الوحدة الإسلامية حتّى من خلال عدّة عبارات مذكورة في المراجعات، فهو يقول في هذه العبارات الموجزة الغنيّة المحتوى:

«بوحدة الكلمة وحدها يمكن التنسيق في العمران، وتوفير مستلزمات التطور، وتتجلّى روح الحضارة، ويشع ضوء الهدوء والإطمئنان في آفاق الحياة، وترفع قيود الرقّ والعبوديّة عن رقاب الجميع. عندما توجد وحدة الكلمة وتتحدّد الارادات وتأتلف القلوب، وتتوحد القرارات، يمكن الثورة من أجل رفع شأن الأمة الإسلامية، وايصال المسلمين في العالم الى المقام الذي يجب ان يبلغوه»^(١).

ويقول: «بان الوضع ان لم يكن كذلك، وبقي المسلمون يغطّون في نومهم وغفلتهم، فإن كل ناهب ومستغلّ سيجعل منهم لقمة سائغة، وهدفاً لسهمه، وكلّما ظهرت قوّة جديدة، فإنّها تحتاج الى قوم يسكنون في أوطان الذلّة والمهانة والفقير، ويكون في قبضة الشقاء والموت والمصائب، فلا لهم منظمات اعلامية وقيادته، ولا لهم قوّة مركزية مهابة تكون لهم رداء وسنداً، فأيّ مصير سينتظرهم؟ وأيّة عزّة

سيفقدونها؟ فاحذروا الفرقة أيها المسلمون»^(١).

وإذا كان السيد قد خطا خطوة واحدة في سبيل وحدة المسلمين عبر جهوده العلمية، فسوف لن ينسى أجره في تاريخ الإسلام وسيحفظ له، فكيف وقد خطا خطوات بلغ بها القمّة في هذا المضمار؟!

السيد اسماعيل البلخي

المجاهد الأفغاني المعاصر

إنّ جهاد العلماء المتصدّين والمسؤولين لا يقف عند نقطة ما، وإنما يتّسع
بإتساع فضاء العالم الاسلامي المترامي الاطراف، وفي آفاق العلماء المجاهدين
الأحرار نلقي نظرة على افغانستان.. هذا البلد المظلوم المضطهد المبتلى، وخلال
هذه النظرة الإجمالية سنواجه وجوهاً نورانيّة في سماء علماء الدين الرّبانيين
الحقيقيّين في تلك الديار.

وجه عالم مجاهد ملتزم ثار في أحلك فترة مرّت على افغانستان، وأزاح
الحجب والستر المتراكمة للارهاب والاضطهاد، بالرغم من أنّ هذه النهضة قد
استتبت سنين طويلة من السّجن. ولنلق الآن نظرة على حياته السياسية.
في أوّل لقاء التقيت فيه به كانت هالة من العظمة تحيط به، وتطفح على وجهه
سيماء الرجولة والشجاعة، فيجذب الناظر إليه. ان ما يتمتّع به من جاذبيّة وقوّة روح
تهيمن على كلّ من يراه لأول مرّة، فتبعث هيئته الروحانية ووجهه الملكوتي مظهرًا
وتجليًا خاصًا في الناظر إليه، وإذا ما تكلمم بأنّ السكوت يسود المجلس كأنّ على
رؤوس الحاضرين الطير.

في ذلك اليوم كان يتحدّث في جمع من فضلاء وعلماء الحوزة العلمية بقم في
(دار التبليغ الاسلامي) حول عظمة العلم والمقام الشامخ لعلماء الدين، وكان يبيّن
بكل حرص واهتمام الواجبات الحياتيّة الملقاة على عاتقهم آنذاك.

ولا يزال يرن في آذني صدى كلماته الجذّابة وصوته الدافئ، الذي يدخل القلوب. تلك الكلمات والأشعار التي كان ينشدها بلهجة مؤثرة جداً، والتي كان يطرحها ضمن حديثه عن دور الاعلام واستخدامه، وواجبات المجاهدين، فسيطر بذلك على قلوب الحاضرين، وكان الجميع رجل واحد لا غير.

الجهاد في سبيل العقيدة

لقد حملته تخلف المجتمع الشيعي في افغان، ذي الأربعة ملايين إنسان آنذاك -والذي يشكّل اليوم العمود الفقري لجهاد المسلمين الأفغان ضدّ التجاوز الأجنبي - على ان يدخل باب النشاطات الاجتماعية، ويتحمّل المشاق العظام في هذا السبيل. وقبل ذلك مرّت سنون طوال لم يستطع شيعة أفغانستان خلالها - وذلك لأسباب كثيرة خرجت من كم للإستعمار العالمي ومن جملتها ما أثاره أعداء الإسلام من فتن أرادوا من خلالها تفريق صفوف المسلمين وقتل روح الوحدة بينهم - ان يقيموا مراسمهم المذهبية بحرية، أو يتسّموا مناصب عالية في الدولة، أو يستطيع أبنائهم الذهاب الى المدارس والجامعات، ويشغلوا المناصب العسكرية التي كان يشغلها الآخرون، وبعبارة مجملّة: كان الشيعة في افغانستان يعيشون كما يعيش الأجنبي في المنفى.

وهنا دخل السيّد الجليل مع آخرين من أكابر افغانستان - كالسيد حسين حاكم المزارى وغيره - حلبة الصراع الأصولي والمنطقي من أجل إقتلاع جذور الظلم والتفّاق في أكثر مراحل الحكم الظالم لمحمّد ظاهر شاه حسّاسية، ولاقوا في هذا الطريق عوائق كثيرة ومصاعب جمّة، فقد قضى خمسة عشر عاماً، منذ سنة ١٣٢٩ - ١٣٤٣ - في السجن الإنفرادي بسجن (دهمرنگ) بكابل في سبيل تحقيق مطالب الشيعة المشروعة، وبعد هذه السنين أطلق سراحه، وهو في قمّة العزّة والإحترام، في حين كان الشيعة قد حصلوا على حريّة العمل، كما اعترفت الحكومة آنذاك بالمذهب الشيعي رسمياً وأدرجته في الدستور.

وفي اعضاء الحكومة كان هناك عدّة وزراء من الشيعة، وورد عدّة نواب الى



المجلس، كما كان منهم اساتذة وجامعيون، وكلّ هذه الانجازات والمكاسب رهينة جهود ذلك المجاهد العظيم وجماعة آخرين من العلماء المجاهدين. غير انّ هذه الامور لم تُتل بسهولة، وإّما كانت لا تزال بحاجة الى جهاد ومعاناة، فبعد ان أطلق سراح السيد الجليل بعد تلك السنوات الطويلة، ونتيجة لضغوط الشيعة، لم يستجب محمد ظاهر شاه إلا لبعض مطالب الشيعة، بهدف خداعهم وإسكات قادتهم الدينيين، وخاصة السيد البلخي، وبالطبع كان السيد ممنوعاً من الإتصال المباشر بالشيعة، وتوجيه بياناته وإرشاداته لهم، حتّى لا يقوى على إثارة غضب الشاه من جديد، غير أنّه كان قد اتخذ أسلوباً جديداً؛ للاستمرار

في جهاده وقيادة الشيعة، وخطط لهذا الأمر من قبل، حيث وضع رمزاً جديداً لطيفاً بأنكم اذا رأيتموني قد أطلق سراحي من السجن فلا تظنوا ان كل مطالبيكم قد تحققت، بل اني سأبقى في هذا الدرب حتى نصل الى جميع مطالبينا، واني وان كنت لا استطيع الإتصال بكم عن قرب، ولكنني سأطلعكم على كل شيء من بعيد، والرمز بيني وبينكم اني لن اقصر من لحيتي حتى نصل الى ذلك اليوم الذي تتحقق فيه طلباتنا.

كان الشيعة يرون لحيته تطول يوماً بعد آخر حتى قاربت ركبتيه، فلم يكف الشيعة عن جهادهم، وكانت صرخاتهم تتعالى، حتى أحس محمد ظاهر شاه بالهزيمة، فأصل بالسيّد مرّة ثانية، وحقّق جميع طلبات الشيعة هذه المرّة، وعند ذلك، وبعد ان ترجاه شخصياً قصّر السيّد لحيته بعد سنوات، ووصل الشيعة الى النّصر والظّفر.

ذكرى السجن

كانت الذكرى الواحدة التي حملها من سجنه الإنفرادي الذي دام خمس عشرة سنة، وفي ظلّ تلك الظروف القاسية الصعبة، هي حفظه للقرآن الكريم، فقد أخبر بنفسه: اني قرأت القرآن بدقّة الفأ وسبعمئة مرّة، واتّضحت لي حقائق كثيرة، وبعد ذلك نظمت خمسة وسبعين الف بيت من الشعر في الأخلاق والموعظة وهي ديوان كامل. ولما لم يكن معي في السجن كتاب إلا القرآن الكريم، فلم يكن يطفئ لهيب أحاسيسي الجريحة، إلا إنشاد الشعر.

السفر الى إيران

بعد ان أكمل دراسته في مشهد كان سفره الأوّل الى إيران في خمسين من عمره، وسفره الآخر كان قبل سنوات، فبعد عودته من مكّة المكرّمة أقام أياماً في قم وطهران ومشهد، جدّد العهد باصدقائه فيها، وقد أثر ببيانه الجميل في جمع العلماء والفضلاء، الذين كانوا يحضرون الجلسات العديدة التي كانت تعقد احتفالاً

بمقدمه، فيعجبون بأخلاقه وسجاياه الروحية.

وبعد ان رجع من ايران لبي المجاهد القدير المرحوم حجة الإسلام والمسلمين السيد اسماعيل البلخي الأفغاني نداء ربه، فخيم على المجتمع الشيعي غمٌ وهمٌ عظيم، وجلسوا للجزاء والمصاب، ومن المسلم ان الشعب الأفغاني المسلم لن ينسى الخدمات الجليلة والنشاطات القيمة التي قام بها ذلك الرجل المتأله العظيم.

المتلبسون بالعلم من الأفغانيين

في مقابل الجهود الجبارة التي بذلها ويبدلها المجاهدون الصابرون أمثال الشهيد السيد اسماعيل البلخي ومئات العلماء المجاهدين الأحرار، الذين يرايطون الآن، وفي هذه المرحلة الحساسة، في مواضع الجهاد في جارتنا افغانستان المسلمة، يحاربون رؤوس الكفر والالحاد الشيوعي ورموز الامبريالية الشرقية. في مقابل هؤلاء نرى أناساً قد تلبسوا بلباس العلم في زوايا تلك البلاد، وهم يسعون الى تشويه سمعة العلم والعلماء وأهدافهم المقدسة، وهم يستبدلون المنحة الالهية والسمة المعنوية لهذه الطبقة بالمكاسب والمناصب المادية، ونحن هنا نتحدث حول هذه العناصر الفاسدة:

ان اخوتنا الأفغانيين المسلمين يقفون كالأبطال الذين حملوا الأرواح على الأكتف - كاخوتهم الايرانيين، سواء كان ذلك أثناء أيام الثورة أو بعد ذلك - يدافعون عن ايمانهم، ويرخصون أرواحهم ونفوسهم في سبيل إقامة حكومة الله في بلادهم، وفي كل يوم تتكرر مشاهد وحوادث من تاريخ البشر في ساحة صراعهم وأرض بلادهم.

ان فلاسفة التاريخ الذين يعتقدون بانّ التاريخ يعيد نفسه، لا يعني أنهم يرون انّ الأصول والحوادث العظيمة والمصرية في تاريخ البشر هي التي تتكرر، وإنما يرون ان هذه الإعادة والتكرار ينتهي على الفروع والجزئيات التي تحيط بالأسس والنواة المركزية للوقائع المهمة والعظيمة.

ومن أجل توضيح هذه المسألة يمكننا ان نأخذ أوضح الأمثلة من تاريخ الأديان فنقول: ان ظهور موسى عليه السلام وثورته العجيبة على فرعون، لم ولن تتكرر أبداً، أما الحوادث التي رافقت ثورته والنتائج التي ترتبت عليها، كتغلغل المنافقين والمتلوّنين بين صفوف من آمن به، وخيانتهم، وأفعالهم الهدّامة، وتجاهلهم لأحكام الله، فإنّها قد تكرّرت على مدى التاريخ.

أو انّ ظهور عيسى عليه السلام كان حادثة عظيمة في تاريخ العالم لم يُر لها نظير، أما إعداؤه وأنصاره، وظهور الخائنين أمثال (يهودا الاسخريوطي) الذي أصعد رسول الله الى خشبة الصليب، فإنّه أمر تكرر كثيراً، حتّى كأنّه قانون لا يقبل التغيير في تاريخ حياة البشر.

والأهمّ من ذلك انّ أصل ظهور خاتم الانبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم كان نقطة النهاية في مسيرة النبوة، ولذلك لا يمكن تصوّر تكرار النبوة بعده في سنة الرسالة الإلهية، أما ظهور المنافقين والخونة، والناكثين للعهد، ومثري الحروب، وعبيد الدنيا، ومتبّعي النفس الأمارة بالسوء والأهواء المضلة المدّلة، فلم يكن قد تكرر قبل ذلك مراراً وحسب، وإنّما تكرر بعد عصر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم مرات ومرّات، وقد سوّدت بقع الخيانة والضلالة والحقارة صفحات التاريخ.

والآن، إذا نظرنا بالمنظار والقانون الاسلامي، واتّبعنا جوهر التعليمات الإسلامية، وتجاهلنا الحدود السياسية الموجودة بين البلدان الإسلامية، وجعلنا جميع البلدان الإسلامية بلداً واحداً، وكلّ الأمم الاسلاميّة أمة واحدة، فسوف نرى انّ ما حدث في افغانستان وما يجري على الأمة الأفغانية المسلمة، هو تكرار لتلك الحوادث التي جرت في ايران، والظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية هنا، قبل الانتصار الرائع للثورة الإسلامية في ايران.

ان ما جرى على ايران والاييرانيين في ظلّ حكومة محمد رضا خان، وما جرى في افغانستان في ظلّ الحكومات الاستبدادية والاستعمارية لأذئاب الاتّحاد السوفيتي، أمثال بابر كاركمل ونجيب الله وأمثالهما، يوضح هذه المسألة جدّاً.

ونتجاوز الجزئيات، ونشير الى نقطتين أساسيتين:

١ - فالشعب الايراني المسلم، بل وكل العالم الاسلامي، يعلم اليوم بانّ النظام البهلوي المقبور، كان قد صبّ كل جهوده على زلزلة أركان الإسلام، وإحلال الثقافة الالحادية محلّ الثقافة الإسلامية، غير أنّ الملفت للنظر أنّ كلّاً من الديكتاتوريين البهلويين، وبالاسلوب الذي وضعه لهم أسيادهم، كان يظهر نفسه بأنه الملك الملجأ للإسلام، بل ويفوق حتّى المؤمنين والمتشرّعين المتعصّبين في هذا التظاهر.

لم ينس التاريخ أنّ رضا خان كان يشارك في مراسم الغزاء التي تقام على الحسين عليه السلام في أوائل حكومة نظامه العميل، ومن أجل ان يظهر في أكمل صورة كان يمشي حافياً مع الهيئات والمواكب الحسينيّة، ويصب التراب والطين على رأسه، ويلطم على صدره ورأسه ويرفع صوته بالبكاء والأنين.

وكذلك كان حال ولده محمد رضا خان، فعندما كان يحسّ بالخطر ينبعث من جانب الأمة الإسلامية الثورية، تراه يتّجه نحو مجالس الغزاء، وينكس أعلام بلاطه الفرعوني، ويضع الأضرحة ويرسلها الى المراقد المطهرة، ويزور العتبات المقدسة، بل يصف نفسه بانه مورد رعاية صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه) وأنه مستعين بعليّ بن أبي طالب عليه السلام.

والذي يبعث على الأسف أكثر من أيّ شيء آخر هو أنّ البهلويين لم يكونا لوحدهما في تنفيذ هذه المسرحية الساخرة، وانما كانا يسخران جماعة من المتلبّسين بلباس الدّين والعلم، والذين هم بحقّ «وعاظ السلاطين»، من أجل اضعاف الشرعية على أعمالهم الخداعة، وفتحاً لخزائن الأوقاف بوجوههم، ليملؤوا جيوبهم منها، فيؤيدوا اعمالهما المسرحية ويؤكدون صحّة حمايتهما للإسلام!

لم تنس أمتنا الإسلامية المراسم الطاغوتية البائدة التي كانت تقام باسم (تحيّات الأعياد الدينية) والحقد الدفين يملأ القلوب، وكيف أنّ صفّاً ممن تلبّس بالعبائة والعمامة كانوا يشاركون دائماً - باعتبارهم ممثّلين عن علماء البلاد - في هذه المراسم ويدعون بسلامة (الملك الناصر للإسلام) وطول عمره ودوام سلطنته الجائرة!

ولن ننسى أيضاً أنّ محمّد رضا خان قام بسفرة دعائيّة الى مشهد الامام

الرضاء عليه السلام في أوج أيام الثورة والنهضة الدموية للشعب الإيراني المسلم. في تلك الايام الدامية الملتهبة، التي كان فيها أفضل أبناء الإسلام المجاهدين، يمطرون بوابل من الحديد والنار، فيقعون جماعات جماعات مضرّجين بدمائهم. تفقّد خلالها بعض وعاظ السلاطين الداعين للشاه المقنن والمثمين عليه، وفي مقابل ذلك وصف باعة الضمير والدين وطلاب الدنيا هؤلاء، ثورة المسلمين الدامية بأنها أفعال هدامة للرجعية السوداء، واطمأنوا خاطر الملك، ودعوه الى ان لا يدع للخوف من هذه الأعمال الصبيانية الى قلبه سيلا، وليطمئن الى أنه سوف يبقى مورد رعاية صاحب العصر (عجل الله فرجه) ومستعينا بعلي عليه السلام والمتولي لحرم الامام الرضاء عليه السلام، وسيقضي على الرجعية السوداء، وسيستمر في السير على أجساد الشهداء الطاهرة، وسيقرع كؤوسه بكأس كارتر ومارگریت تاتشر والرفيق برجنيف، وسيشرب الانتخاب إبتهاجاً بسلامتهم.

٢- ولننظر الآن الى ما جرى ويجري في أفغانستان ولناخذ حكومة طالبان كمثال، فإنّ هذا الأخير سار في نفس الطريق الذي سار فيه محمد رضا خان، والذي يؤدي الى جهنّم وبئس المصير، باختلاف انّ محمدرضا كان أكثر ليونة ودهاء من طالبان و اعوانه إذ لم يكنف بالاطمئنان الى أنه ثبت دعائم حكومته عبر الخمسين سنة المتصلة من الإستبداد والإضطهاد، بل أنّه كان قادراً على مغازلة جميع أسياده وساسة الشرق والغرب المتسلطين على العالم واستمالتهم نحوه، والحصول على دعمهم واسنادهم عبر دفع الأتاوي لكل منهم.

غير ان طالبان المسكين لم يكن يمتلك امتداد خمسة سنة من الدكتاتورية والأرهاب ليدعم حكمه من جهة، ومن جهة أخرى فانه إطمأن نفسه واكتفى بحماية واحد من هؤلاء الأسياد، ألا وهو الرفيق كلينتون وأجهزته وحكومته الغادرة، ولا يخفى عدم تمكّن حكومته من الصمود والبقاء لمدة طويلة.

لكنّ الطريقة في هذا الموضوع، والتي دفعت طالبان الى تغيير الأسلوب كمحمدرضا خان، هو اضطراره الى الظهور بمظهر الناصر للإسلام، وتمثيل مسرحية الحصول على الدعم والتأييد من باعة الضمير والوجدان والدين، ممن تلبس بلباس

العلم والدين، وكان كلاً منهما قد جمع جماعة من هؤلاء حوله؛ ليحصل على فتوى منهم - باعتبارهم زعماء الدين والمسلمين - ليطعن بها الإسلام في الصميم. لقد شاهد تاريخ الإسلام والعالم الإسلامي، الكثير من أمثال هؤلاء المتلبّسين، وفي ثورتنا كان أمثال هؤلاء في طريقنا، والى الآن يوجد منهم أحياناً من يقع في الزوايا والخبايا، لكن رأينا ونرى كيف انّ سيل أبناء الإسلام المضحين العرم قد اكتسح هؤلاء، وألقوهم خارج حريمهم، كما تلقى القمامة، ولا يزالون يلقون من تبقى منهم.

هذا هو السبيل الذي يمهد الإسلام الحقيقي لأبنائه، وهو السبيل الذي سيسلكه أبناء أفغانستان المجاهدون، مقتفين في ذلك، أثر العلماء المجاهدين الواقعيين، وسوف لن يخافوا وجود بعض من تلبّس بالعلم والدين، وباع نفسه وضميره طلباً للدنيا والحكم. انّ الله وعد من يجاهد في سبيله بالنصر، وهذا وعد الله، ولن يخلف الله وعده.

نهضة العلماء المعاصرين

لم تسلك أوروبا المستعمرة الانتهازية مسلك الاحترام المتبادل، ولم تتبّع أصول إحترام الحقوق البشرية مع الإسلام والمسلمين أبداً، بل بدأت ضغوطها وحملاتها الشعواء الخبيثة، وأعملت قوّتها في فرض الاستعمار واستغلال ثروات الدول الإسلامية والسيطرة عليها منذ حوالي القرنين.

ومن أجل الوصول الى أهدافهم وتنفيذ مخطّطاتهم المعادية للإسلام فقد بدأوا أولاً بتحطيم الشخصيات الدينيّة والوطنية عن طريق الاهانة والتحقير والخطّ منها، وبعد ذلك سلكوا طريق الاستهزاء بالعقائد والأفكار الإسلامية والسعي الى تخطئتها وازعافها، ثمّ اتبعوا اسلوب السيطرة الاقتصادية والعسكرية وجلب مستشاريهم العسكريين بأعداد ضخمة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر أزاح غلادستون - الوزير الانجليزي في عهد الملكة فيكتوريا - الستار عن سياسة الكرّ والفرّ هذه بكل صراحة، فرفع مصحفاً في يده أمام نواب مجلس العموم وقال: (مادام هذا الكتاب مرشداً ودليلاً للمسلمين فلن يقوم لسياستنا أساس في أوطانهم).

وقد ختم كلمته المطوّلة، والتي لها أهميتها الخاصة في تاريخ البرلمان البريطاني، بهذا التحذير، حيث قال: (إنّ سرعة نفوذ بريطانيا العظمى الى ايران وسائر الدول الإسلامية، تتوقف على سعينا لمحو هذا الكتاب وإلغاء تأثيراته في المسلمين عبر البرامج والخطط الدقيقة الخاصة، وإلاّ فإننا لن نتصر أبداً).

الاشعار المرشدة

أشار المرحوم مير زاده عشقي، الشاعر الحرّ واللسان الناطق بحقوق الشعب الإيراني المحروم، إشارة تحذيرية واعية الى هذه المسألة في قصيدته التي نظمها ضد اتفاقية (١٩١٩)، لوثوق الدولة حيث يقول:

إذا ما قابلنا هذا الجلابد فماذا سيفعل؟

فقد قلت: يجب ان يمحي القرآن

فالويل لهذا الضيف الذي لم يضع قدمه في البيت بعد

فاذا به يريد ان يخرج صاحب الدار منها

انّ حالنا مع الانجليز شبيه بقصة الفأرة والقطة

فاذا امسكت القطة بالفأرة، فهل ستركها؟

وإذا كنّا أسوداً فانه ثعلب الدهر

ومن المعلوم انّ الثعلب يخدع الاسد ويغلبه

وبعد مقالة غلادستون، السياسي البريطاني القديم، أعلن وجه عسكري مشهور هو الجنرال «اللورد آلن بي» بعد سيطرته على القدس في الحرب العالمية الأولى بكلّ صراحة: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

انّ هاتين الوثيقتين مع عشرات بل ومئات الوثائق السريّة غير المعلنة الأخرى توضح جيّداً على أيّ أساس وأرضيّة، ومن أجل أيّ المؤامرات، قد وضعت أهداف السياسات الخارجيّة للدول الاستعماريّة الاستغلاليّة في البلدان الاسلاميّة؟

فأول خطوة خطاها هؤلاء هي أضعاف العقائد والمباني الإسلاميّة، وتمزيق العلاقات والروابط العقائديّة بين الناس، وذلك عن طريق تخطئة المقدّسات الدينيّة، وإزالة احترامها وتقديسها، وإهانة رجال العلم وعلماء الدين، وإثارة الشكوك حولهم، ثم أنهكت قوى الشعوب الإسلاميّة عبر الهجمات العسكريّة، والاستثمارات الإقتصاديّة.

فهم يطرحون الإسلام بدون العلماء يوماً، وهذا الحال يشبه الصفّ من دون

معلم والمستشفى من دون طبيب، ويصفون الدين الاسلامي القويم، بأنه افيون المجتمع يوماً آخر؛ وذلك ليختطفوا أدمغتنا المفكرة في اليوم التالي، ويسرقون نطقنا وغازنا ونحاسنا والمعادن والمحاصيل الأخرى، وليستعمرونا ويستغلّونا بنفس أموالنا وثرواتنا هذه.

ومع كلّ ذلك فإنّ العلماء الواعين المجاهدين قد هبّوا للوقوف بوجه هذه السياسات والمؤامرات والقوى الخارجية وأذناها في الداخل، ولم يأذنوا أبداً للشعب المسلم ان يركع أمام هذه المؤامرات ويستسلم لها.

وبالرغم من انّ جهوداً جبّارة قد بذلت في الدور المعاصر من أجل عزل العلماء عن الساحة السياسية والمسائل الوطنية والاجتماعية - وذلك طبقاً للسياسة التي كان رضا شاه قد بدأها والتي وضع أطرها أسياده الانجليز - واحباط جهود العلماء ونشاطاتهم، عبر المكائد والمؤامرات الدقيقة، غير انّ المجتمع المجاهد الواعي لم يستسلم أبداً أمام هذه الدسائس، فقد تجلّت موارد وأمثلة ساطعة لجهاده الثابت المتواصل ضدّ الاستعمار الخارجي والإستبداد الداخلي، طوال الخمسين عاماً التي حكم فيها البهلويّان حكمهما الإستبدادي المطلق.

كانت هذه المجاهبات وحركات الجهاد علنيّة في بعض الموارد - كمواجهات المدرّس وآية الله الكاشانيّ والخياباني وثقة الإسلام، وأبرز موارد جهاد الامام الخميني ونهضته العظيمة - وفي بعضها الآخر اتّخذت أسلوب تهيئة الأرضيّة اللازمة واقامة أسس الجهاد، والحفاظ على تماسك أصول الدين الاسلامي وموازينه، وقوّة المذهب الشيعي اللامتناهية في المحافظة على وحدة الشعب المسلم وتلاحمه، وإيقاظه وتوعيته، وذلك من أجل ان يكون مستعداً لخوض الجهاد والثورة وقت الضرورة، ومثال ذلك الجهود العظيمة التي بذلها آية الله البروجردي وبقية المراجع المعاصرين العظام، الذين كان لهم القدر الكافي من السعي والدقّة والمراقبة الإسلامية في ايقاظ المسلمين و تثقيفهم.

في الاونة الاخيرة قام جمع غفير من العلماء الأعلام على توعية الأمة الإسلامية في اقطار الإسلام و المسلمين لايمكن حصرهم و حتّى احصاء اسمائهم

في هذا المجال فنكتفي بسرد بعض الشخصيات البارزة فمنهم:

آية الله السيّد ابوالقاسم الكاشاني

المكافح ضدّ الإستعمار البريطاني

يبدأ جهاد العلماء العلني والسري في زماننا المعاصر باسم آية الله الكاشاني، وما كان كلامنا قد دار حول سعي القوى الإستعمارية الحثيث من أجل تشويه الشخصيات المجاهدة الوطنية والعلمائية، فلنا كلام حول هذا العالم المجاهد الشهير. بعد آية الله الكاشاني، الذي له اسمه وتاريخه المشرق في تاريخ الجهاد الاسلامي والوطني في الزمن المعاصر، أحد الشخصيات المجاهدة، ومن العلماء الحقيقيين المتصدّين في العصر الاخير، والذي أبتلي بمثل هذا المصير من قبل المتآمرين الشرقيين والغربيين، بالرغم من كل جهاده وجهوده المتواصلة، وخاصة جهاده من أجل فكرة احياء الحكومة الإسلامية، والجهد العلمي والعملية في سبيل تحقيق هذا الهدف السامي، ولا عجب ان نسمع كلمات متناقضة ومقالات تشير روح البحث والتحقيق حوله.

فهو أوّل عالم مجاهد حطم جدار الصمت الذي استمرّ لسنوات، وثار بكلّ شجاعة، بعد كل ذلك الإعلام المشؤوم الداعي الى فصل الدين عن السياسة، والذي كان قد طرح في فترة حكم رضا شاه، وأسند ودُعم من قبل المستعمرين الأجانب، وفي أوج محاولة القضاء على المقدّسات الإسلامية من قبل الغرب الغازي. لقد ثار في زمن بلغت فيه حكومة الارهاب أوجها، ووضع أسس النهضة الوطنية والإسلامية، وضم تحت لوائه جماعة المقاتلين والفدائيين المسلمين.

ولمّا كانت مساعٍ عظيمة قد بذلت من أجل إبعاد العلماء عن الساحة

السياسية، وفقاً للبرامج والخطط الدقيقة التي وضعها الإستعمار البريطاني ونفذها رضا شاه بقوته وديكتاتوريته، فإن أحد الأمور التي أولاهها آية الله الكاشاني اهتمامه، هو كسر حصار فصل الدين عن السياسة، وترغيب العلماء ودعوتهم الى التدخّل الجدي الواسع النطاق في الأمور السياسيّة والاجتماعيّة.

ولمّا كان قد بدأ جهاده السياسي ضدّ الاستعمار والإستبداد منذ سني شبابه في بلاد العراق الإسلاميّة، واكتسب في هذا المضمار تجارب كثيرة قيّمة، فإنّه لما استمر في جهاده في ايران حصل على تأييد ودعم مختلف طبقات الشعب، حتّى أنّ كلّ كلمة كان يتفوّه بها كانت لدى الناس كالفقوى واجبة التنفيذ، وفي تلك الفترة شخصت الأمة الايرانية بابصارها نحو شفطي آية الله الكاشاني، لتنفذ بكلّ وجودها كلّ ما يقوله ويريده.

صورة مجملته عنه

ولد آية الله الكاشاني سنة ١٣٠٣ هـ بمدينة طهران، وعندما بلغ من العمر (١٦) سنة سافر الى العراق سنة ١٩١٩ برفقة والده آية الله السيّد مصطفى، واستمرّ في دراسته في مدينة النجف الأشرف، وكان أحد طلاب المدرسة التربوية للمرحوم الآخوند محمد كاظم الخراساني، وقلّ نظيره في حلقة درس ذلك الأستاذ، وتسمّى مراتب عالية حتّى نال درجة الاجتهاد، وهو في عنفوان شبابه حيث كان عمره (٢٥) عاماً، وهذا بنفسه شاهد صدق حيّ على أصالة الروح الإسلاميّة والأفكار الدينيّة والقوّة الروحية التي يتمتّع بها هذا العالم المجاهد.

وعندما اضطرت نار الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٤م، وهجم الجنود البريطانيون على العراق، شارك في الحرب واستطاع ان يوقف تقدّم القوى المهاجمة لمدة (١٨) شهراً في منطقة الكوت، وذلك من خلال الجهود العظيمة التي بذلها؛ التضحية التي قام بها بمعونة الشعب العراقي ومساندة بقيّة العلماء المجاهدين.

وضمن مجموعة المدافعين عن بلد العراق الاسلامي كان للشخصيّات المجاهدة الكبيرة أمثال آية الله السيّد مصطفى الكاشاني (والد السيّد الكاشاني) وآية



الله شيخ الشريعة الأصفهاني وآية الله السيّد علي الداماد وآية الله السيّد محمد سعيد الحَبّوبي - وكلّهم من علماء الطبقة الأولى - مشاركتها الفعّالة والمؤثّرة. وكان آية الله الكاشاني أصغر هؤلاء القادة الدينيين المجاهدين سنّاً وأكثرهم حيويّة، وكان في الصّفّ الأوّل للمجاهدين، وتحمّل في هذا السبيل مشاكل جمّة، ولم يتراجع خطوة حتّى آخر أيام الحرب.

وقد دعت جماعة العلماء المجاهدين الشعب العراقي الى التّوجه الى جبهات القتال من خلال إصدار حكم الجهاد والتعبئة العامّة، وقد تقدّموا بأنفسهم قبل الآخرين نحو مجابهة القوى الاجنبيّة الهاجمة والدفاع عن ثغور هذا البلد المسلم.

وأثارت المشاركة الفعّالة والمؤثرة لجماعة القادة الدينيين في هذا الصراع الحماس في نفوس أبناء الشعب، وكانوا يبثون فيهم كل لحظة روحاً جديدة تعينهم على الجهاد، ولهذا استطاع هؤلاء عبر العمليات العسكرية والتحرّك الخارق الذي كانوا يقومون به ويخلقونه لدى الآخرين، ان يشلّوا الجيش البريطاني القوي ويجعلوه عاجزاً أمامهم.

وبعد ان وضعت الحرب أوزارها وخمد لهيبها، استمرّ آية الله الكاشاني في جهاده، وقد استهدف هذه المرّة، القوى الاستعمارية الغربيّة التي كانت تريد ان تنشب أظفارها الدمويّة في جسد الشعوب المستضعفة - وخاصة الشعوب الاسلاميّة - وتضيق الخناق عليها.

واستمراراً في مسلسل الجهاد هذا ورد آية الله الكاشاني ايران، واستمرّ في مواجهته في هذا البلد الذي تحوّل الى منطقة خاضعة لسيطرة الإستعمار الغربي وخاصة البريطاني، وقد اتّصفت هذه المواجهة بالشموليّة وسعة النطاق.

وكان دوره الفعّال وجهوده المتواصلة في سياسة ايران ملحوظة للعيان وملفتة للنظر، وبعبارة أخرى يمكن تسميته بمفتتح الجهاد ضدّ الإستعمار البريطاني في ايران. ولما كان وجهاً معروفاً في هذا المضمار، وباعثاً للخوف والرعب في نفوس القوى الاستعمارية الاجنبيّة، فقد أُعتقل بعد احتلال الحلفاء لايران من قبل الانجليز، الذين كانوا قد وضعوا خططاً شاملة لتصفية معارضيه، وقضى مدّة سنتين في سجون اراك ورشت وكرمانشاه، وقد عومل طوال هذه المدّة معاملة قاسية مقرونة بالأذى والعذاب.

وبعد ان أُطلق سراحه من سجون الحلفاء، لم يكف آية الله الكاشاني عن نشاطاته، ونتيجة لإستمراره فيها فقد أُعتقل مرّة أخرى في زمن رئاسة قوام السلطنة للوزارة، وحكم هذه المرّة بالنفي من طهران، فقضّى مدة (١٨) شهراً في قزوين.

وفي سنة ١٣٢٧ هـ.ش، وأثناء رئاسة ساعد للوزراء تعرّض محمد رضاشاه محاولة إغتيال في جامعة طهران لكنّه نجا منها، ونتيجة لهذه المحاولة الفاشلة، أُعتقل آية الله الكاشاني مرّة أخرى وسجن فترة في قلعة فلك الأفلاك، ثمّ أبعده الى

لبنان.

كان السيد الكاشاني يعتقد بفكرة إتحاد الدين والسياسة، ويرى أن الفصل بينهما من مخططات الاستعمار الغربي الخطيرة.

وبعد عودته من منفاه في لبنان تابع من جديد نشاطاته على مستوى أوسع وبصورة أكثر جدية وتتابعاً، حيث أنه وضع الحجر الأساس لإنتصار النهضة الوطنية في إيران من خلال التعاون مع الدكتور محمد مصدق وأنصاره.

ولم يقطع اتصالاته بالشعب الإيراني طوال الـ (١٨) شهراً التي قضاه في لبنان، بل كان يدعو الشعب إلى الثورة الإسلامية، عبر النداءات والبيانات التي كان يرسلها، ولدى عودته إلى إيران استقبل استقبالاً عجبياً، حتى أن أعداءه ومخالفيه قالوا: إن هذا الاستقبال العظيم يبين أن آية الله الكاشاني هو القلب النابض للنهضة الوطنية، وهو قادر على أن يهدي أمواج الشعب الهادر نحو ساحل النصر.

وبعد هذه العودة المظفرة تولى قيادة جانب مهم من النهضة الوطنية وفق برنامج دقيق، حتى قيل: إن آية الله الكاشاني كان أحد أقطاب نهضة تأميم النفط، بحيث أنه لو لم تكن النهضة الإسلامية الكبرى التي كان قد وضع أسسها، لم يكن بالإمكان هزيمة الإنجليز المستعمرين، وليكن ذلك أمراً صعباً بعيد المنال.

لقد قامت النهضة الوطنية في إيران على قدميها قبل حوالي الأربعين سنة، وقبل خمسة وثلاثين سنة، وعندما بلغت أوجها وكانت تسير نحو النصر النهائي، سقطت وفشلت نتيجة الانقلاب الأمريكي.

لقد وضع الدين كفة بكف السياسة من أجل إقتلاع جذور الظلم والاستبداد الداخلي، والضغط الذي يوجهه الاستعمار الخارجي، فقد ثبت الدكتور محمد مصدق عمود السياسة، فيما رسخ آية الله الكاشاني دعامة الدين، غير أن تلاحم هذين المجاهدين لم يدم للأسف، فقد زعزعت السياسات الاستعمارية والمؤامرات الأجنبية أركان مودتهما، وكانا في البدء قد أحكما الأسس، حتى أن ألد الأعداء الخارجيين والمعاندين الداخلين وأسوأهم ظناً، لم يشكوا أبداً في انتصارهما.

وفي هذا المسير أدت النهضة الوطنية الإيرانية إلى إيجاد واقعة (٣٠) تير سنة

١٣٣١ هـ. ش التاريخيّة العظيمة، وقد أثبتت للمستبدين وعملاء الإستعمار لأوّل مرّة، وبصورة جدّية، أنّ أفراد الشعب اذا اتّحدوا واتّفقوا، فإنهم سيكونون أقوى قوّة مدمرة للظلم، ومعمرة للبلد، ومحكمة للحرّية.

في واقعة (٣٠ تير) أركعت قوّة الشعب المتّحد، الشاه وحماته واسياده، وأسقطت قوام السلطنة رئيس الوزراء، الذي فرضه الأجنبي ودعّمه الشاه فاضطر، الى ترك ميدان السياسة مع حكومته غير الشعبيّة؛ ليحلّ محله الدكتور مصدق وأصحابه المجاهدون المخلصون. ويجب ان تذكر هذه الحادثة باعتبارها منعطفاً في تاريخ النهضات الوطنية والاسلامية الايرانية، وكان أحد أقطابها وعواملها المهمّة آية الله الكاشاني ونفوذه المعنوي بين أوساط الشعب.

ونظراً لثقة الناس العظيمة بأنّ آية الله الكاشاني مؤيّد ومدافع عن فكرة إتحاد المسلمين - كالسيد جمال الدين الأسدآبادي وكثير من شخصيّات الدين والسياسة المتفوّقة - فقد فكر في إقامة مؤتمر اسلامي في فترة النهضة الوطنية، غير أنّه، وبالرغم من تهيئة المقدمات الأولية لعقد هذا المؤتمر، قد ظهرت الاضطرابات المتوالية في أوضاع الدولة وأمورها، فلم تسمح بتحقيق هذا الأمل والفكرة، وبإلها من حسرة، إذ لم تصل هذه الفكرة الى مرحلة التطبيق.

لقد كان لنشاطات آية الله الكاشاني وقع مؤثّر في حكومة الشاه الإستبداديّة، وكان لها أثرها المدمر الفعّال، بحيث انّ الشاه لم يكتف بالسعي الحثيث بكلّ ما يمتلك من قوّة، وبدعم أسياده الأجنبي، من أجل مواجهته والقضاء عليه، وأنما لم يمتنع منذ سنوات سبقت وفاة آية الله عن توجيه الكلام البذيء، بل وحتى كلّ السباب لهذا العالم المجاهد. وقد بلغ حقد الشاه على آية الله الكاشاني ان حرّم على الجميع ذكر اسمه، أو التحدّث بكلمة عنه، وذلك ابان حكومته الجهنمية، بل وأمر ان ترفع صورته من بين صور رؤساء مجلس الشورى الوطني، والتي كانت موجودة في بناية المجلس.

وبالرغم من انّ الانقلاب الأمريكي العار في ٢٨ مرداد سنة ١٣٣٢ هـ قد تسبّب في ان يسود جوّ الإرهاب في ايران، وبسيطرة الحكومة التي أتت بها

المؤامرة سجن رجال السياسة وقيدوا أو قتلوا أو عزلوا عن الساحة السياسية، فان آية الله الكاشاني لم يكف عن نشاطه وجهاده في ذلك الجو الأسود الرهيب، فعندما عازمت حكومة زاهدي - رئيس وزراء الانقلاب - على إعادة العلاقات السياسية مع انجلترا، أثار آية الله الكاشاني - وفي أحلك الظروف - الشعب المسلم ضد مظالم حكومة زاهدي العميلة للاجنبي، وضد استبداد الشاه، وأوصل صرخاتهم المنادية بالحقوق والحرية الى عنان السماء.

وفي سنة ١٣٣٤ هـ.ش وبعد ان نجح إنقلاب ٢٨ مرداد الدموي، والذي ثبت دعائمه على جماجم الشعب ودمائهم، تهيأت الفرصة لاستغلال هذا الانتصار العسكري الأمريكي في ايران، فسيطر الامريكيتون على السلطة عبر أحد عملائهم القدامى، وهو الفريق زاهدي، وأعادوا الشاه مرة أخرى ليمتلك زمام الأمور من جديد، وينفذوا كل ما يريدون في ايران من خلال سيطرته وحكومته، وليعبروا حدودها الى حيث يريدون، وهم الآن يريدون ان يروا ثمرة الأموال التي أنفقوها، والقوى الانسانية التي سخروها، وبلاحظوا ذلك على هيئة أرقام ملموسة ومحسوسة، ومن هنا طرحت قضية اتفاقية كنسر سيوم النفطية.

لقد نظمت هذه المعاهدة تنظيمياً يفضي على كل الجهود والتضحيات التي قام بها مصدق، من أجل تأمين النفط، وإيصال موارده ومنافعه الى أبناء الشعب الايراني، فهذه المعاهدة تذهب بجميع تلك المرارات والنشاطات والمجاهات، وكل تلك الجهود المبذولة والتضحيات، وتضعها، وبدل ذلك تصب جميع موارد نפט ايران في جيوب الأسياد الأمريكان ورؤساء الامبريالية والصهيونية.

ومع ان الانقلاب العسكري الأمريكي قد أربع الشعب الإيراني الواعي، وحبس صراخهم في صدورهم، غير أنه علم بان معاهدة كنسر سيوم ستمتص دماءه، وتهدر ما حققته سنوات السعي والجهاد والتضحية من مكاسب، وستصب مواردها في جيوب الأسياد، لكنه لم يدر ماذا يفعل في مقابل ذلك؟ وما هو السبيل الى المقاومة والصمود؟

مرة أخرى أحس الشعب الايراني بحاجته الى قيادة العلماء المجاهدين

الواعين وفوّتهم وفطنتهم، مرّة أخرى هبّ عالم مجاهد الى نصره هذه الجماعة الواعية المستضعفة، والتي جرت الى الاستضعاف بذكاء. مرّة أخرى نهض المجاهد الشهير والعالم الثائر آية الله الكاشاني، وكان هو الذي رأى ان واجبه الديني والتاريخي والوطني والاجتماعي يحتمّ عليه ان يتّجه الى الميدان؛ ليفضح الوجه الحقيقي لاتّفاقية كنسر سيوم، وليضعها أمام الجميع ليحكموا فيها.

في هذه المرّة أيضاً أدان آية الله الكاشاني اتّفاقية كنسر سيوم بشدّة، وذلك من خلال البيانات والنداءات الشديدة التي أصدرها، وأعلن للعالم عدم إعراف الشعب بهذه الإتفاقية، وفقدانها لأيّة أهميّة في نظرهم. بل وخطا خطوة أوسع من ذلك وأعلن أنّ الشعب الايراني لن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه الإتفاقية، ولن يسكت عنها، بل وسيمتلك القوّة اللازمة بسرعة، وسيعاقب - بالاستناد الى حقّ الحكومة الوطنية التي اخذت منه بقوّة السلاح - كل الخائنين الذين أضاعوا مصالح الشعب، وسحقوها بتوقيعهم هذه المعاهدة.

وقد استمرّ جهاد آية الله الكاشاني ضدّ اتّفاقية كنسر سيوم ونتائجها سنة كاملة بنفس القوّة والفاعليّة، حتّى أصدر الشاه أوامره باعتقاله مرّة أخرى سنة ١٣٣٥ هـ.ش

كانت هذه هي المرّة الاخيرة التي أعتقل فيها آية الله الكاشاني، فقد خطّط الشاه للقضاء عليه، وأمر بأنّ يقضى عليه في السجن؛ لتطمئنّ خواطر من واجهوه لسنوات، ونهيا جلاّدا سجون الشاه لتنفيذ أوامر سيّدهم، حينما علم علماء الطبقة الأولى بفطنتهم ووعيهم الدائم بالامر، فحدّروا الشاه بانه انّ أقدم على هذا الأمر فسيحول البلاد الى مقبرة، لأنّه سوف لا يستطيع حينئذ إسكات الشعب الذي فقد زعيمه السياسيّ الديني.

وقد أثارت ضغوط علماء الإسلام، وتعبئة الرأي العام، والمظاهرات العظيمة التي قام بها الشعب، وصدور البيانات والمنشورات الليلية التي تدور حول هذا الموضوع، الرعب والرهبه في نفس الشاه، فعزف عن قتل آية الله الكاشاني. ومع ذلك فلم يبق الكثير من العمر الطبيعي لآية الله الكاشاني، فقد لبّي نداء

ربه في سنة ١٣٨٢ هـ . ق وفارق هذه الدنيا.

لم يمتلك آية الله الكاشاني شيئاً من حطام الدنيا حين وفاته، فقد فارق الحياة في نفس الدار التي ولد وترعرع فيها، والتي انتقلت إليه بالإرث، وله معها ذكريات أكثر من نصف قرن من حياته وجهاده. في هذه الدار التي ولد فيها قضى آخر أيام حياته حتى أغمض عينيه، وكان ذلك والدار مرهونة في المصرف مقابل عشرة آلاف تومان!

نعم، هكذا يحيا الأعظم والكبار، فهم يحيون حياة البساطة والزهد في مال الدنيا، ولكنها حياة مليئة بالدلائل والعلامات التي تتعلّق بالحياة المعنوية للبشر.



العلامة الفيلسوف الاسلامي الكبير

آية الله الشهيد مرتضى المطهري

هو من أحد العلماء المكافحين في جهتي العلم والعمل الكاتب العبقرى والخطيب المتضلع والأستاذ فى الجامعة والحوزة العلمىة، الواعظ البارع والفيلسوف الأوحى رجل الدين والمنطق والفصاحة، الخبير بالشئون الإسلامىة الذى قضى عمره المبارك فى تمييز الأفكار المنحرفة غرباً وشرقاً عن الفكر الإسلامى الأصىل والذى كان بفضل خصائصه المختلفة كجسرٍ بين رجال الدين ورجال الجامعة والمتقّين لأنه الأستاذ والمحقق من جانب، وواعظ و مرّبى بين عامّة أفراد المجتمع من جانب آخر.

ولادته ونشأته

ولد الأستاذ الشهيد فى ١٣ بهمن ١٢٩٨ (هـ ش) الموافق ١٣ جمادى الأولى ١٣٣٨ هجرىة قمريّة فى قرية «فريمان» من قرى محافظة خراسان. عن والد عالم و فقيه الشيخ محمد حسين المطهري، كان رجلاً ورعاً تقياً وأ نموذجاً فى التقيد بالسُنن و الادب الإسلامىة.

لقد تربّى الأستاذ فى حجر هذا الوالد المتقى وكان يمتاز منذ طفولته عن الآخرين. فكان مُحبباً للطهارة والتقوى، مُتجنباً الأعمال المشينة تواقفاً إلى العلم والمعرفة ذكياً نافذ البصيرة. وإبتداً الأستاذ دراسته فى مدرسة فريمان (مدرسة فريمان من المدارس القديمة التى كانت تدرس فيها القراءة والكتابة والسور القصار

من القرآن الكريم ومقدمات في الأدب العربي).
ومنذ ذلك اليوم كلما إرتقى الأستاذ في مدارج العلم والتقوى إزداد حُبّه وتعلّقه بالمسائل الإسلامية. وتوازن هذه العوامل أدّى إلى هذا الإنتاج الخصب والآثار الجليلة التي قدّمها الأستاذ الشهيد طيلة حياته.

دراسة الأستاذ في الحوزة العلميّة في مشهد

كان الأستاذ يتلهّف شوقاً إلى دراسة العلوم الدينيّة وهو في دور الصبا. ولذلك هاجر إلى مشهد المقدّسة في سنة ١٣١١ هجرية شمسيّة وعمره إثنا عشر سنة ودرس هناك مقدمات العلوم الدينية من المنطق والفلسفة والحقوق في الإسلام والأدب العربي.

وفي هذه المرحلة من حياته تجيّش في نفسه فكرة تسيطر على كيانه وجميع أفكاره وأعماله وحركاته وهي فكرة إثبات وجود الباري جلّ وعلا التي هي أهمّ وأدقّ موضوع مثير حامت حوله الأفكار وحارت منذ فجر التاريخ. يقول الأستاذ في بعض ملاحظاته:

(أتذكّر أنني في بداية دراستي للعلوم الدينيّة حيث كنت أدّرس العلوم العربيّة في مشهد حيث كانوا أعظم الفلاسفة والعرفاء والمتكلمين - وإن لم أكن بعد قد إنقبت بأفكارهم - أكثر علماً في نظري من غيره من العلماء والمخترعين والمكتشفين. ولم يكن ذلك إلا بسبب أنني كنت أجدهم أبطال هذه المعركة. وأتذكّر تماماً أنني في تلك الأعوام حيث كان عمري بين الثالثة عشر والخامسة عشر أجول بين علماء الحوزة العلميّة في مشهد وفضلائها ومدّرسيها فكان الرّجل الذي يبرز في عيني أعظم من الآخرين وكنت أحبّ الجلوس في محضره والتّظر إلى وجهه والتأمّل في شمائله وحركاته وأتمنّى أن يأتي اليوم الذي أحضر مجلس بحثه هو المرحوم الميرزا مهدي الشهيدي الرضوي مدرس الفلسفة الإلهيّة في تلك الحوزة).

وقال الأستاذ في موضوع آخر حول هذه العاصفة الفكرية في نفسه:

(أتذكّر فيما يمكنني أن أتذكّره من حالاتي النفسية أنّي في الثالثة عشر من

عمرى أحسست بهذا الشعور فى نفسى وحصل لى شعور مرهفٌ بالنسبة إلى المسائل الالهية وأخذت تتوارد على ذهنى الأسئلة المتتالية على مستوى تفكيرى



آنذاك. وفى السنين الأولى لهجرتى إلى (قم) حيث لم أكن قد إنتهيت من دراسة العلوم العربية كنت غارقاً فى خضم هذه الأفكار بحيث كنت شديد الحب للعزلة والانفراد فلم أكن أتحمّل وجود شريك لى فى حجرة المدرسة فاستبدلت الغرفة الممتازة فى الطبقة فوقانية بحجرة صغيرة محفّرة بغية الإنفراد واللجوء إلى أفكارى الخاصة. وكنت لا أرغب فى ساعة الفراغ أن أفكر فى موضوع آخر وفى الواقع إنى كنت أرى التفكير فى أى موضوع قبل الانتهاء من حلّ مسائل هذا الموضوع تضييعاً

للوقت. وإنما كنت أدرّس المقدمات من الأدب العربي والفقه والأصول والمنطق لأتّهيأ شيئاً فشيئاً لدراسة أفكار الفلاسفة الكبار حول هذا الموضوع).

دراسة الأستاذ في الحوزة العلمية بقم

هاجر الأستاذ المطهري إلى قم الحوزة العلمية في سنة ١٣١٦ هجرية شمسية، الموافق لعام ١٣٥٨ هـ ق. وعمره آنذاك سبعة عشر عاماً وهو يحمل في قلبه شوقاً عظيماً إلى كسب المعارف الإسلامية.

كانت الحوزة العلمية العريقة في القدم تواجه صعوبات ومشاق من جراء الضغط والظلم من قبل السلطات الرضاخانية^(١) بل كانت على شرف الإنهيار والانحلال. وكانت المصائب تتوارد في تلك الظروف العصيبة على العلماء ورجال الدين وكان الأستاذ يرى بعينه هذه الفجائع ولكنها لم تحل بينه وبين ما عزم عليه من الهجرة إلى قم. وهكذا ازداد حبه للعلم وتلهفه إليه حتّى وفق أخيراً للهجرة إلى الحوزة العلمية الكبرى بقم

وابتدأ هناك بالحضور في مجالس بحث الفقه والأصول لثلاثة من رجال الدين الأكابر: (آية الله الصدر. آية الله السيّد محمد المحقق وآية الله السيّد محمد الحجة).

وفيما بين سنة ١٣١٩ الموافق لعام ١٣٦١ هـ ق. حضر مجلس بحث الامام الخميني في يومي الخميس والجمعة حول مواضيع الفلسفة والعرفان. وهنا عثر - كما يقول - بضالته المنشودة في شخصيّة عظيمة.

قال الأستاذ وهو يشرح مدى شوقه لمباحث الفلسفة الالهية:

(أما درس الأخلاق الذي كنت أحضره لدى الشخصية المحبوبة عندي يومي الخميس والجمعة فكان في الواقع درساً في المعارف الالهية ومنهجاً للسير والسلوك العرفاني لا الأخلاق بمفهومه الجامد العلمي، فكنت أتمتع به غاية التمتع ولست مبالغاً إذا قلت أنّ هذا الدرس كان يطربني بحيث لم يزل تأثيره العميق في

١- رضا خان هو رضا بهلوي الشاه الأسبق (المترجم).

روحي إلى يومي الاثنين والثلاثاء من الأسبوع التالي.
 وكان لهذا الدرس والدروس التالية التي تلقيتها من ذلك الأستاذ الالهي طيلة
 إثني عشر عاماً الأثر العظيم في صياغة شطر كبير من شخصيتي الفكرية والنفسية.
 وإني لأجد نفسي دائماً مديناً له بذلك. حقاً إنه كان صنيعه الروح القدسية
 الإلهية^(١).

وكان الأستاذ المطهري يستفيد إلى جانب دراسته للفلسفة والعرفان خلال
 ثمانية أعوام من سنة ١٣٢٣ الموافق لعام ١٣٦٩ هـ ق من محضر بحث آية الله
 البروجردي رحمته. وكان زميله في الحجرة، الفقيه المتضلع آية الله المنتظري. فقد
 استحكمت بينهما أواصر الودّ والصدقة منذ بدء تعارفهما وإستمرت تزايد بسبب
 الأسفار واللقاءات والمكاتبات حتى حالت بينهما شهادة الأستاذ.

وقد التقى الأستاذ المطهري في صيف عام ١٣٢٠ هجرية شمسية الموافق
 لعام ١٣٦٢ هـ ق بالمرحوم الحاج ميرزا علي الشيرازي الاصفهاني وتعزّف عليه في
 إصفهان بواسطة زميله الجليل المذكور، وكان هذا اللقاء والمعارفة سبباً لتعزّف
 الأستاذ على معارف نهج البلاغة، الأمر الذي كان لديه ثميناً غالياً جداً.

كان الأستاذ المطهري شديد الحبّ والولاء لأمر المؤمنين علي عليه السلام ولكتاب
 نهج البلاغة وكان ينبّه دائماً على أنه مختلف الجوانب ويحدّر الشباب من النظر إليه
 من جانب واحد. وقد آلف في هذا الموضوع كتاب (سيري در نهج البلاغة) أي
 (مرور على كتاب نهج البلاغة) وهو شطر يسير ممّا كان يودّ أن يقدمه من عمل في
 هذا المجال ولم يوفقه القدر لاكماله. فالواقع أن سنة ١٣٢٠ (١٣٦٢ هـ ق) تشكّل
 منعطفاً تاريخياً هاماً في حياة الأستاذ الشهيد.

وكان الأستاذ إلى جانب حضوره مجالس بحث الامام الخميني وآية الله
 البروجردي والعلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي مشغولاً بالتدريس وكان يعدّ
 من المدرسين المشاهير في الحوزة. فكان له مجالس بحث (المطوّل) في الأدب

١ - يشير الأستاذ هنا بوجه لطيف، إلى أستاذه؛ وأنّه هو الامام الخميني، وذلك لأن كتابه هذا
 ألفه في العهد البهلوي الأسود (المرجم).

العربي و (شرح المطالع) في المنطق و (شرح التجريد) في علم الكلام و(الرسائل) و (الكفاية) في علم الأصول و (المكاسب) في الفقه و (شرح المنظومة) في الفلسفة. وقد تعرّف الأستاذ المطهري من سنة ١٣٢٥ الموافق لعام ١٣٦٧ هـ.ق. على المدارس الفلسفية المادّية عن طريق كتاب الدكتور تقي آراني وبعض الكتب الأخرى التي أصدرها الحزب الشيوعي (توده). وحيث كان شديد الميل إلى الأبحاث الفلسفية وقد تبينّ تضلّعه في هذا المضمار إهتمّ بمطالعة تلك الكتب بدقّة وإمعان. وكان لهذه المطالعات نتائج ثمينة حيث إستمرّ الأستاذ إلى النهاية في التحقيق عن الكتب الفلسفية سواء منها كتب الفلسفة الالهية وكتب الفلسفة المادّية، وإستطاع بذلك أن يبيّن فوارق الفلسفتين ويقارن بين التفسير الالهي للكون والتفسير المادّي له ويقوم بتشديد أركان التفسير الإسلامي للكون وحمائته من هجوم التيارات الفكرية اللاحادية.

وإشترك الأستاذ في سنة ١٣٢٩ الموافق لعام ١٣٧١ هـ.ق. في محضر بحث المرحوم الأستاذ العلامة الطباطبائي وقرأ لديه فلسفة ابن سينا. وعقد أستاذه له مجلس درس خاصّ للتحقيق عن الفلسفة المادّية فكانت أبحاثه الحجر الأساس لتأليف كتاب (أصول فلسفة وروش رئاليسم) الذي كان له الدور المصيري في هذه السنوات العشرين في تنفيذ أسس الفلسفة المادية. ويُعدّ هذا الكتاب من أعمق وأدقّ آثار الأستاذ المطهري.

والجدير بالذكر أن مرحلة دراسة الأستاذ في حوزة قم كانت تفتح عليه أفقاً جديداً في حياته له أهميته الخاصة وهو التعرّف على مشكلات المجتمع الإسلامي والنشاطات السياسيّة والإجتماعية. فمثل الأستاذ المطهري الذي لا يترك مسألة إلا ويفكّر فيها ويحاول حلّ مشكلاتها ومن جانب آخر حُبّه العميق للإسلام والمجتمع الإسلامي ولذلك كان يهتمّ جدّاً بكل موضوع يرتبط بمصير الإسلام والمسلمين - لا شكّ أنه كان يفكّر في المشاكل السياسيّة والإجتماعيّة.

ومن جهة أخرى كان الأستاذ قد تربّى في حوزة درس الامام الخميني الذي كان يدعو تلاميذه دائماً إلى الجهد في إصلاح شؤون المجتمع الإسلامي والمحاولة

لتطبيق الإسلام وأحكامه المقدسة في المجتمع فلا شك أن ذلك كان عاملاً قوياً يبعث الأستاذ على التفكير في مشاكل المجتمع الاسلامي ومحاولة حلها.

وفي سنين (٢٧، ٢٧، ٢٩) أي في سنين (١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١ هـ ق) حيث اجتاحت جميع أرجاء ايران موجة النضال من أجل الحرّية تشكّلت في قم أيضاً حركات ومنضّمات منها حركة (فدائيان إسلام) التي كانت تمارس الكفاح المسلّح وكان للأستاذ المطهري دور في هذه النشاطات فكان مرتبطاً بجميع تلك الجمعيات التي كانت تدعو إلى حركة ثورية لاصلاح المجتمع بما فيها وكان الأستاذ بصورة سرّية يشاركونهم في الفكر ويرشدهم إلى مصالحهم.

كان لا يترك فرصة تسنح له إلا ويتنزهها للهداية والإرشاد والتثقيف الاجتماعي والثوري، كما كان يفعله أثناء الدرس وبعد الفراغ منه وفي لقاءاته وزياراته. وفي أيام العطلة الدراسيّة وفي اللحظات اليسيرة التي كان الطلاب ينتظرون مجيء المدرّس وفي خطبه في مدرسة الفيضيّة وفي صحن السيّدة معصومة (سلام الله عليها) ونحو ذلك. وإذا تجمّع طلاب العلوم الدينية في أيّ حلقة تجمعهم، فلو كان بينهم المطهري لوجدته غالباً هو المتحدّث، فكان حديثه البديع ومنطقه القوي يجذب نحوه الشّباب من الطلبة.

هجرته إلى طهران:

هاجر الأستاذ المطهري في سنة ١٣٧٣ هـ. ق من قم إلى طهران. وفي تلك السنة تزوّج كريمة أحد مشاهير علماء خراسان. ومنذ بدء هجرته إلى طهران أي في نفس السنة عقد حوزة تدريس في مدرسة (مروي) وإشغلت بتدريس الكتب الفلسفية المختلفة كشرح المنظومة والشفاء لابن سينا و (دانشنامه علائي). وفي سنة ١٣٣٢ الموافق لعام ١٣٧٤ هـ ق نشر أوّل مقالة له في مجلة (حكمت) التي كانت تصدر في قم.

وفي سنة ١٣٧٦ هـ ق. أصدر أوّل جزء من كتاب (أصول فلسفه وروش رئاليسم) الذي كان أصله للأستاذ المرحوم العلامة الطباطبائي وتوضيحاته وتعليقه

القيمة المفصلة له وفي هذه السنة بالذات أرسلت إليه جامعة طهران دعوة ليقوم بالتدريس في كليّة الالهيّات والمعارف الإسلاميّة. فأجاب الدعوة وقام بتدريس الفلسفة الإسلاميّة وغيرها من العلوم الإسلاميّة وإستمرّ في تدريسه وأبحاثه وتحقيقاته هناك إلى سنة ١٣٩٨هـ.ق.

وفي خلال هذه المدة ٢٢ عاماً قام إلى جانب التدريس والتثقيف في الجامعة خارجها، بالبحث بشوق وافر حول المواضيع المختلفة في الثقافة الإسلاميّة وأخذ يؤلف ويحقّق في المباحث المختلفة الفقهية والأدبية والفلسفية والإجتماعية والعرفانية والتاريخية وكان دائماً يبذل قصارى جهده في تنشئة و تثقيف الشباب من طلاب الجامعة وطلبة العلوم الدينية وسائر طبقات المجتمع، أضف إلى ذلك خطبه العديدة حول المواضيع المختلفة الإسلاميّة في الجمعيات الإسلاميّة الجامعية والمجامع العلميّة. والمساجد والتكايا الحسينية.

وقد نشر خلال هذه المدة عدّة كتب منها كتاب (آشنائي باعلوم إسلامي) الذي يشتمل على سنّة مباحث في المنطق والفلسفة والكلام والعرفان والفقه وأصول الفقه ومنها تصحيح وتعليق على كتاب التحصيل (للهمنيار) نشاطات الأستاذ في سنة ١٣٨٤هـ.ق. وما بعدها:

توسّع النشاط السياسي للأستاذ المطهري في الحركة الثورية الإسلاميّة التي قادها الامام الخميني في ١٥ خرداد سنة ١٣٤٢هـ.ش. وكان لرجال الدين في هذه الحركة دور خاصّ، ولذلك ألقت السلطات القبض على عدّة من رجال الدين والخطباء والمشاهير في طهران وأودعتهم السجون. ومن هؤلاء الأستاذ المطهري الذي أُلقي القبض عليه بسبب نشاطه القوي في منتصف ليلة ١٥ خرداد ١٣٤٢هـ.ش. وبقي في السجن ثلاثة وأربعين يوماً. وأطلق سراحه الضغط المتواصل من الجماهير وهجرة علماء البلاد إلى طهران.

وفي هذه المدّة حيث حالت السلطات بين الجماهير وأمامهم كانت المسؤولية الكبرى لملقاة على عواتق شخصيات كالأستاذ المطهري. وإبعاد الامام الخميني في آبان ١٣٤٣هـ.ش، الموافق لعام ١٣٨٥هـ.ق. تشكّلت (جمعية رجال

الدين المناضلين) أو (جامعة روحانيت مبارز) وكان الأستاذ الشهيد من أعضائها النشيطين. وكان أيضاً ممثلاً للامام في الحوزة العلميّة في طهران وتردّدت بينهما المراسلات.

ويعدّ الأستاذ - في الواقع - من مؤسّسي فكرة (جمعيّة رجال الدين المناضلين) ومنظّمها ولذلك نشر آراءه حول تنظيم الحوزة الدينيّة ضمن مقال في كتاب (مرجعيت وروحانيت).

وبذل الأستاذ غاية جهده خلال السنين السوداء أي (١٣٨٥ - ١٣٩٨ هـ ق) لتوضيح الإيديولوجية الإسلامية الأصلية ضمن خطبه العديدة في الكليات والجامع الإسلامية والمساجد وضمن المقالات والكلمات التي كان ينشرها. وقد أوعز الامام إليه مسؤوليّة قيادة الجمعيات المؤتلفة الإسلامية وهدايتها فأدّى الأستاذ المطهري دوره في هذا المجال أيضاً. وتحملّ أعباء المسؤوليّة بعد أن تقلت بسبب أبعاد الامام إلى تركيا في أعقاب مسألة الكايبيتالسيون (الحصانة الأمريكية).

وفي شهر رمضان من ذلك العام حيث أُغتيل «منصور» رئيس الوزراء آنذاك على يد محمد بخارائي وألقي القبض على زعماء الجمعيات المؤتلفة إنكشفت روابط الأستاذ معهم وأصبحت جميع أعماله تحت المراقبة الشديدة من قبل السافاك. ولكن المطهري البطل إستمرّ في نشاطه للحفاظ على أصالة الحركة الإسلامية وتوسيع دائرتها فأدّى دوره كرجل دين ملتزم شاعر بالمسؤوليّة.

وفي سنة ١٣٩٨ هـ. ق حيث إزداد لهيب الثورة، إستند نشاط الأستاذ في مجال السياسة فكان أحد أركان جمعيّة رجال الدّين في طهران والرابط بينهم وبين الامام الخميني. ولم يصدر بيان سياسيّ عن جمعيّة رجال الدين ولم يتّخذ قرارها من قبلهم حول المسيرات والمظاهرات ونحوها إلّا بعد موافقة الأستاذ عليه. وبعد أن هاجر الامام إلى باريس سافر الأستاذ والتقى بالامام وتحدّث معه حول مختلف مسائل الثورة وتلقّى منه آراءه القيّمة ونظراته الصائبة.

وهنا أوعز الامام إليه بمسؤولية تشكيل مجلس قيادة الثورة وقام الأستاذ

المطهري بهذا الواجب خير قيام، حتّى رجع الإمام إلى طهران. وكان بعد ذلك وبعد إنتصار الثورة إلى جانب الامام يتعاون معه في شتّى المجالات السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة حتى وصل أمنيته المنشودة في ليلة ٤ جمادى الثانية ١٣٩٩ هـ ق. حوالي الساعة العاشرة والنصف فكأنه ترنّم بقول علي عليه السلام: (فزت وربّ الكعبة).

ملاحظات حول طريقة التفكير وخصائص النشاط العلمي لدى الأستاذ الشهيد
تمتاز طريقة التفكير والنشاط العلمي لدى الأستاذ المطهري بخصائص لا توجد إلّا في رجالٍ أمثاله، وهذه الخصائص بعضها فطريّة وبعضها كان الأستاذ قد إكتسبها بالرياضة وتربية النفس، تربية إسلاميّة. وفي هذا الفصل نحاول أن نذكر بعض هذه الخصائص:

١ - البحث والتحقيق والمطالعة القيّمة والواسعة في المسائل الاجتماعية والعقائدية التي يهتمّ بها عامّة الناس. وقد عرف عنه أصدقاؤه ومريدوه وقرّاء كتبه ومستمعوا خطاباته أنّه يهتمّ جدّاً بالمواضيع التي تليق بالبحث والتحقيق ويحتاج المجتمع إلى حلّ مشكلاتها. هذه المباحث كانت إجتماعية ودينيّة.

فمنها موضوع حقوق المرأة الذي إهتمّ بإثارتته في تلك الأيام ذووا الأغراض والأطماع السياسيّة وملئوا المجلات والصحف والاذاعة والتلفزيون بمقالاتهم التي ما أرادوا بها إلّا تضليل الشباب وتحريف أفكارهم. فقام الأستاذ بمواجهة هذا التيار وكشف القناع عن الواقع في خطبه وفي كتابيه: حقوق المرأة في الإسلام (حقوق زن در اسلام) و الحجاب (بوشش زن).

ومنها موضوع القوميّة الايرانية حيث كان يثار في ذلك العصر عواطف القوميّة والشعوبية لفصل الفكر الإسلامي عن الدوافع الوطنيّة بغية تضعيف الروح الدينيّة في الشعب الايراني. فنهض الأستاذ وألّف كتاب (خدمات متقابل اسلام وايران) وأوضح فيه إنّ الايمان والعقيدة الإسلامية لا تعارض حبّ الوطن كما كان أجدادنا الايرانيون يسدّون أجلّ الخدمات للدين الإسلامي عن طرق مختلفة منها نشر المعارف والعلوم الإسلامية.

قال الأستاذ في ذلك الكتاب:

(إن المسائل المشتركة بين الإسلام وإيران تعدّ من مفاخرهما معاً. أما الإسلام فلأنّه هو الدين القوي الذي جذب نحوه بسبب محتواه القيم شعباً ذكياً متحضراً مثقفاً وأما إيران فلأنه الشعب الذي فاق سائر الشعوب في تجنّب العصبية والخضوع للحق والتضحية في سبيله بما له من روح باحثة عن الحقيقة محبة للثقافة).

وكذلك بحث في كتاب (علل غرايش به ماديجيري) أي أسباب إعتناق المذهب المادي حول موضوع الالحاد والمادية تحت عنوان (ماترياليسم در ايران) المادي في ايران نظراً إلى الحوادث الجارية في ذلك العصر.

٢ - إستعداده لاستماع وقراءة كلّ النظريات والآراء الفلسفية والاجتماعية والدينية. وهذه الصفة ضرورية لكلّ باحث منصف ملتزم حيث لا بدّ له من التزام جانب الحياد في البحث والتنقيب عن الأفكار والعقائد والمدارس المختلفة ثمّ النقد والزّد على الآراء الباطلة المضلّة والإجابة الصحيحة عليها. وكان هذا هو طريقة الأستاذ كما يلاحظ ذلك من جميع آثاره.

٣ - أمانة النقل عند بيان الآراء المخالفة. كان الأستاذ مشتغلاً بالتحقيق عن المدارس والمكاتب المختلفة ولذلك كان يواجه دائماً آراءهم وأفكارهم وكان لا بدّ له من نقل نظرياتهم والذي يلفت الإنتباه في جميع كتبه وآثاره هو أمانته في نقل وبيان تلك العقائد المخالفة.

٤ - كان الأستاذ المطهري من المتحمسين لحرية الفكر والعقيدة. وكان يدرك بوضوح أنّ صيانة كيان الإسلام كعقيدة لا تكمن إلا بقوة العلم ومنح الحرية للأفكار المعرضة ومواجهتها بصراحة.

وقد ألقى الأستاذ كلمة في بهمن ٥٧ (١٣٩٩هـ). أي بعد إنتصار الثورة في كلية الالهيات حول موضوع الحرية وشريطه المسجل موجود، قال فيها:

«كلّ مدرسة تؤمن وتعتقد بايدولوجيتها لا بدّ لها من حماية حرية الفكر والعقيدة، وبالعكس فكلّ مدرسة لا تعتمد ولا تؤمن بايدولوجيتها تمنع من حرية

الرأي. إن مثل هذه المدارس تريد ان تحصر الناس في إطار خاص وتمنع من رشدهم الفكري. إنني أعلن إنه لا يوجد في نظام الجمهورية الإسلامية أي حصار للأفكار ولن يكون فيه شيء من تحديد الآراء.

نعم كل الناس أحرار في عرض نتائج أفكارهم وآرائهم. ولكني أُنَبِّه أن هذا لا يشمل المؤامرة والنفاق. فالمؤامرة ممنوعة ولكن عرض الأفكار الواقعية مسموح.

إنني أعلن لجميع الأصدقاء غير المسلمين انّ الفكر حرّ من وجهة النظر الإسلامية. فكل ما بدا لكم أن تفكروا فكروا. وكيف ما أردتم أن تعلنوا عن عقائدكم - بشرط أن تكون عقائدكم واقعا - أعلنوا عنها. وكيفما أردتم أن تكتبوا. لن يمنعكم عن ذلك أحد.

إنّ السبب في بقاء الإسلام هو هذه الحرّيات. فلو كان الأمر في بداية الإسلام بحيث لو أنكر أحد وجود الله تعالى حكم عليه بالضرب والقتل لم يبق من الإسلام شيء فسّر بقاء الإسلام هو مواجهته بكلّ شجاعة وصراحة للأفكار المختلفة. وهكذا استطاع الإسلام أن يحفظ كيانه. وفي المستقبل أيضاً لن يستطيع الإسلام أن يستمر في حياته إلاّ مع المواجهة الصريحة لكلّ العقائد والأفكار المختلفة.

وإنّي أحذر الشباب المتحمّس للدين الاسلامي أن لا يظنوا إن السبيل الوحيد لصيانة العقيدة الإسلامية هو منع الآخرين مع إظهار عقائدهم. ان القوة الوحيدة التي تحرس كيان الإسلام هو العلم ومنح الحرّية للأفكار المخالفة ومواجهتها بكلّ صراحة ووضوح».

٥ - كان الأستاذ يتمتّع بقوة الإبداع في عرض المشكلات وحلّها في المسائل الفلسفية والعلمية والدينية والاجتماعية والخلقية وكان يستعمل طريقة الاستدلال البرهاني ويحفظ الأصول العقلية في إثبات العقائد الأصولية الاسلامية وتبين هذه الملاحظة بوضوح من خلال آثاره القيمة.

وكان ذكاؤه القوي وذهنه الحادّ يساعد في درك عويصات المسائل حتّى قال

في حقه أستاذه العلامة المرحوم السيد محمد حسين الطباطبائي: (إني كلما كنت أبيت في الدرس من مشكلات العلوم الإسلامية كنت واثقاً إذ كان المطهري كان في غاية الذكاء والبراعة ..).

٦- كان الأستاذ معتمداً على معتقداته على أساس الاستدلال، ولربما يكون العالم المحقق يبحث ويدرس لمجرد إظهار علومه ومعارفه. ولكن العالم الملتزم المشفق الذي يتألم من جهل الآخرين وضلالهم لا يستطيع أن يكتفي بالتعليم على المنهج المدرسي. وكان الأستاذ المطهري يبحث عن صميم إيمانه وعقيدته سواء في المجال الفلسفي أو في المسائل الاجتماعية والدينية. فكان يفتح عيناً ليراقب ناهي الإيمان وعيناً أخرى يحرس به الشباب حذراً من وقوعهم في مهاوي الهلكات.

٧- ولكن هنا ملاحظة أساسية يجب الانتباه لها وهي أن الانسان إذا لم يترك نفسه من الجانب الروحي والمعنوي ولم يكتسب مكارم الأخلاق ولم يباشر تربية نفسه ولم يتحرر من قيد عبودية الأهواء وملذات الدنيا لن تنفعه جهوده في التحرير والتزكية النفسية فكان حكيماً جامعاً للفضائل حائزاً على العلم والتقوى. واثقاً بأن الانسان لا يبلغ الكمال والحقيقة إلا بالمعرفة والظاهرة.

ومع إنه كان مشغول البال بالعرفان والمعنوية لم يفته في نفس الوقت أن يفكر بالمسائل الاجتماعية والسياسية. وكان يرى لزاماً على نفسه أن يستجيب إذا طلب منه التدريس في مختلف الموضوعات والمسائل، بل كان لا يأبى الاشتراك في بحث خاص إذا وجدته نافعاً ومؤثراً. ومع ذلك فقد كان كاتباً مكثراً وكان عازماً على ملأ الفراغ والاجابة على الشبهات.

كان متواضعاً للغاية فمع تضلعه وسعة إطلاعه في العرفان والمسائل الاجتماعية والسياسية لم يحاول إظهار معلوماته والكشف عنها وإنما كان يتبين أن له رأياً في تلك المسألة على سبيل الصدفة.

مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء

ينبغي أن ننظر إلى التاريخ بمنظار هذا الحديث. فنجد دماء الشهداء تفور من

جانِبٍ ومن جانب آخر تموج بحار الآراء والأفكار وهما يصنعان التاريخ ويتلوان أناشيد الحماس والحركة تارة متلاحمين متداخلين وأخرى منفصلين متجاورين. والأستاذ الشهيد مرتضى المطهري الذي تلقى العلوم الإسلامية من الفلسفة والأصول والكلام والحديث والتاريخ والمعارف الإلهية من منابعها العيون الصافية الزاهرة وحضر خلال السنين الطوال مجالس درس المشايخ والمدرّسين الكبار في الحوزة العلمية (بقم) ومن بينهم الامام الخميني الذي لم يكن مدرّسه فحسب، بل كان مراده، إمامه ومقتداه (وقد تبين هذه الملاحظة عند رأينا إهتمام الامام وعنايته التامة بالنسبة إلى هذا العالم الجليل وتأثره وأسفه العميق بعد إستشهاده) أنه بسبب أتعابه ومساعيه المتأصلة أصبح بحراً عميقاً وخضماً محيطاً من العلم والمعرفة الإسلامية الواقعية فكان دائماً يكافح الأفكار المستوردة المنحرفة التي تظهر كلّ يوم في صورة جديدة ويقف أمامها كالجبل الراسخ معتمداً على الأسس القويمة للفكر الفلسفي والثقافة الإسلامية.

ولكي ندرك طريقة مكافحة الأستاذ في المجال الايديولوجي ينبغي أولاً أن نعرف المسائل والمشاكل التي كان يواجهها الأستاذ طيلة حياته الكفاحية وقبل ذلك لابد من دراسة الأوضاع الاجتماعية الوخيمة في ذلك العصر. نجد في هذا العصر أنّ الميل إلى الحضارة الغربية قد تعمقت جذوره وإجتاحت جميع أبعاد المجتمع يتباعد عن ثقافته الأصيلة ويتحوّل إلى مجتمع ممسوخ فاقد الهوية. وحان الآن موعد حصاد الإستعمار ما زرعه منذ أوائل الحكومة القاجارية وأخذت آثار الدسائس والمكائد الطويلة الأمد التي أسسها الإستعمار تظهر تدريجياً وتبدل الشعب الشجاع البطل وارث الحضارة العريقة إلى شعب نجيب مطيع ممسوخ الهوية والثقافة والمستهين بالقيم الانسانية، فقدت الحوزة الدينية تكتلها النسبي وتضامنها وأخذ الشعار الاستعماري القديم حول فصل الدين عن السياسة يستقرّ في المجتمع بسبب إنتشار دعايات السوء ضدّ رجال الدين وعدم تمكنهم عن أداء دورهم في قضية الحركة الوطنية. وهكذا أقصى الإسلام عن ساحة النضال الاجتماعي حتّى إنّ بعض رجال الدين أيضاً إستسلموا

لهذه الفكرية وظنوا أن التدّخل في الشؤون السياسيّة والاجتماعية لا يليق بهم ولا يصلحون له.

إن التسليم لهذا التحقير المفجع أدّى إلى إنحصار الفكر الاسلامي والثقافة الدينية في إطار الأحكام والمسائل العباديّة الفردية التي آلف فيها الرسائل العملية وحذف عنها مسائل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولاء والبراءة. وأصبحت الجامعة أجنبية عن الدّين وإعتبر الدين في الجوّ الجامعي علامة الرجعيّة ومعاندته علامة الرقي والتقدّم. وسيطرت الثقافة الغربية على المجتمع مما أدّى إلى ظهور الحركات الانحرافية فانتشرت المدارس الأجنبية كالماركسية والوجوديّة حتى الفرويدية أتباع الانحلال الجنسي وتولّدت الحركات القومية والالتقاطيّة وهكذا...

ووصل الفقر الثقافي غايته حتّى أنّ كلّ نوع من التفكير يستورد من الغرب مهما كان مضحكاً ومستهجناً وان كان ساقطاً حتّى في المجتمع الذي أصدره فانه سيجد في هذا المستنقع الراكد أرضية مساعدة للنموّ والبروز.

وأخذ النظام الحاكم بعد تحكيم مواضعه حوالي سنة ١٣٣٢هـ ش، الموافق لعام ١٣٧٤هـ ق. وبعد سيطرته الكاملة على الأوضاع أخذ ينفذ المخطّط الإستعماري المرسوم لاستمرار مؤامرة المسخ الثقافي. وكانت هذه المكائد تظهر في كل عصر بصورة جديدة.

فكان من أهم برامج النظام البهلوي الأسود في سبيل القضاء على الفكر الاسلامي في ايران هو: إثارة الشعور القومي الكاذب والتأكيد على الأيديولوجية الامبراطورية وتشديد الدعاية ضدّ أحكام الشريعة الإسلامية في الصحف العملية ومواصلة النضال ضد حجاب المرأة. وتأسيس مراكز البغاء ودفع المجتمع نحو الحياة الاستهلاكية الغربية والدعاية للغرب والدفاع عن الحركات الثقافية المستسلمة للغرب وتشديد دعايات السوء ضد رجال الدين والمناضلين الأحرار.

نزل المطهري إلى المجتمع ودخل ساحة النشاط الاجتماعي وأمامه هذا الوضع الذي بيّناه وكان يدرك تماماً أنّ هذه الأوضاع مترابطة بعضها مع بعض سواء

ما كان منها ينفذه النظام الحاكم وما كان منها يحدث بصورة طبيعية. فالنظام لا يمكنه - في رأي الأستاذ - ان يوافق لتنفيذ مؤامراته إلا أن تكون جذورها وأسبابها متعمقة في خبايا المجتمع. وكان يرى الأستاذ وراء هذه الأوضاع نظاماً دقيقاً وثقافة معتمدة على أساس فلسفي خاص.

وسرعان ما تطفن الأستاذ إلى أن مكافحة هذه الظواهر لا تمكن إلا مع مكافحة الأساس الفكري والفلسفي للثقافة الغربية المسيطرة فلا بد من تأسيس نضال جذري وهذا يتطلب تنظيماً دقيقاً طويل الأمد وكفاحاً مستمراً لنفي أساس الثقافة الإلحادية وتبديلها بأساس فلسفي ونظام فكري أصيل قادر على المقاومة أمام التيارات الثقافية المهاجمة. كفاحاً في سبيل العودة إلى الطابع الثقافي الأصيل قادر على المقاومة أمام التيارات الثقافية المهاجمة. كفاحاً في سبيل العودة إلى الطابع الثقافي الأصيل لشعب منى بالتحقير بعد سنين قضاها في مكائد الاستعمار وخذعه. كفاحاً من أجل العودة إلى ذاتيتنا الثقافية التاريخية.

ولكن يجب أن لا ننسى إلى جانب هذا النضال مشاكل المجتمع والحركات الفكرية فيه وذلك لأن النظام الحاكم كان ينتهز الفرصة فيقوم بإثارة موجة من الهجوم الدعائي ضد القيم الإسلامية وكان كل منها كافياً للقضاء على العقيدة الإسلامية وممهّداً لتنفيذ الخطط الإستعمارية المشؤومة التي يرسمها النظام الحاكم. وكان الأستاذ المطهري بالرغم من تخطيطه لبرنامج كفاحي طويل الأمد في المجال الأيديولوجي يقوم في مثل هذه المواقع بهجوم مضاد إستراتيجي لتخفيف الصدمة الواردة على إيديولوجية المجتمع ودفع الشبهات التي تتعقب هذه الحملات الدعائية. ولهذا نجد ان المواضيع التي بحث حولها الأستاذ متفرقة متشعبة. فالآثار التي خلفها على قسمين، قسم يبحث المواضيع الأساسية حسب البرنامج طويل الأمد وقسم آخر يبحث المواضيع المؤقتة.

وقد شرح الأستاذ هدفه من كفاحه الأيديولوجي في كتاب (عدل الهى) فقال: (منذ عشرين عاماً حيث مسكت القلم وكتبت المقالات والكتب لم يكن لي هدف من كل ما كتبتة إلا حلّ المشاكل والجواب على الأسئلة المطروحة في عصرنا في

مختلف المسائل الإسلامية. وقد كتبت في الموضوعات الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية والفقهية والتاريخية.

ومع إن مؤلفاتي تختلف من حيث الموضوع تماماً ولكن الهدف العام من جميعها أمر واحد فحسب. إن الشريعة الإسلامية المقدسة مجهولة لدى العامة. وقد حرّفت حقائق هذا الدين في أنظار الناس تدريجياً. والسبب الأساسي في تفرّق جمع من الناس عن هذا الدين هو التعاليم الخاطئة التي أُلقيت إليهم باسم الدين. وإن هذا الدين المقدّس في الوقت الحاضر يصاب بالصدمات والضربات من جانب بعض المدّعين حمايته أكثر من غيرهم.

فالهجوم الإستعماري الغربي مع عملائه المعروفين والمجهولين من جهة والقصور أو التقصير الصادران من المدعين لحماية الإسلام في هذا العصر من جهة أخرى كانت السبب في الهجوم التدريجي على الأفكار والنظريات الإسلامية في مختلف المجالات من الأصول والفروع. ولهذا فأنني - وأنا عبد ضعيف - رأيت من واجبي أن أقوم بما أستطيع إسدائه من خدمة في هذا المجال).

وأما كفاحه الأيديولوجي المؤقت فكان في الموارد التي يقوم فيها النظام الملكي البائد بايجاد العقوبات في طريق المناضلين المسلمين للمنع من تقدّم الثورة الإسلامية ونجاحها فكان الأستاذ يقابل هذه الدسائس بكفاح مؤقت. وكانت العوامل التي تدفع الأستاذ لكفاحه الطويل الأمد أربعة:

أ - الخطّ الالتقاطي الغربي.

ب - الخطّ الالتقاطي الشرقي.

ج - الماركسية واللينينية.

د - تعريف الناس بالمعارف الإسلامية.

وإليك الآن تفصيل الكلام حول هذين النوعين من الكفاح الايديولوجي:

١ - الكفاح الايديولوجي المؤقت:

كان النّظام الحاكم في كل فترة من الزّمان يشير موضوعاً على أيدي عملائه وكان يبدأ الهجوم بتحريف الأحكام والقوانين الإسلامية عن طريق تأليف كتاب أو

نشرة في الصحف. فيوماً تهتمّ الجرائد بالتحدّث عن موضوع الحجاب ويوماً يرثى لحال المرأة وحقوقها الضائعة في الإسلام ويوماً يبكون فيه على الحضارة العظمى والثقافة الأصيلة الإيرانية التي سحقها العرب المسلمون. ويوماً يندبون فيه أكبر مكتبة في العالم أحرقتها العرب المسلمون في إيران وهكذا دواليك ...

وكان النظام الحاكم يهدف في هذه المناورات المؤقتة إلى أمرين مهمين:

١ - تقدير الوضع الاجتماعي تمهيداً لتنفيذ الأهداف المشؤومة الطويلة الأمد ومحاسبة درجة الشعور الديني في المجتمع تجاه المكائد الاستعمارية الذي أوعز إليه بتنفيذها.

٢ - إيجاد الأرضية المساعدة لفصل الإسلام عن شؤون المجتمع وتبديله بالقومية الكاذبة في إطار الثقافة الإمبراطورية. وكان الأستاذ المطهري يدرك تماماً الأهداف الشيطانية للنظام الحاكم فكان إلى جانب برنامج الطويل الأمد لنفي النظام الفكري الموجود يقوم بالدفاع أمام هذه الهجمات لمنع من إتساع رقعة التخريب. ففي تلك الفترة التي أصبحت قصة حرق العرب للآثار الثقافية والعلمية الإيرانية لدى فتح إيران موضوع الصحف والجرائد العميلة بل أصبحت مادة تدرس في الكتب المدرسية، قام الأستاذ بتأليف كتاب (إحراق الكتب في إيران ومصر) كمؤرخ متضلع أخذ بالبحث والتنقيب عن هذه المسألة وأثبت أنه كذب محض وإفتراء مشين كشف القناع في آخر الكتاب عن وجه الإستعمار الكالغ فقال:

(إنّ دعاية إحراق الكتب في إيران والإسكندرية أصبحت تدريجياً فناً من فنون الهجوم ولكن وراء الأمر سبباً و عوامل. فهي لعبة الإستعمار الثقافي. فالإستعمار لن يوفّق في الجانب السياسي والإقتصادي إلا إذا وفّق في الاستعمار الثقافي. والعامل الأساسي للتوفيق في ذلك هو سلب علاقة الناس بثقافتهم وبتأريخهم. وقد تفتنّ الاستعمار وتيقنّ بتجاربه إنّ الثقافة التي تعتمد عليها الجماهير المسلمة والايديولوجية التي يعتزّون بها هي الثقافة الأيديولوجية الإسلامية ...).

وعندما حاول النظام الحاكم بالمسخ الثقافي للمجتمع وتحقير الحجاب

(حصن عفاف المرأة) أن يصنع من المرأة المسلمة المتحررة بضاعة جوفاء فارغة في خدمة الشهوات الحيوانية وأن يفرغ الأسرة (حصن مقاومة المجتمع) من القيم الإسلامية وأن يبذل الانسان المسلم إلى مستغرب خائر القوى ليتمكن من أسرهِ ونهب ثرواته. حينذاك لم يمكن للأستاذ أن ينظر إلى المعركة مستهيناً بالأمر فقام مرة أخرى ينطق مدافعاً عن الموقع الرفيع للمرأة وعن كرامتها الإلهية (الحجاب) الذي ألفه في سنة (١٣٨٩هـ ق) جاء في موضع منه:

(لا شك أن ظاهرة (التعري) مرض هذا العصر. وسوف تعرف هذه الظاهرة بعنوان، المرض عاجلاً أو آجلاً. ولو فرضنا أننا قلدنا الغرب تقليداً أعمى ولكن الغربيون المتقدمون في هذا المضمار سيعلمون حقيقة هذه الظاهرة. ولكنني أخاف إذا إنتظرنا إعلانهم أن يفوت الوقت).

وقال في موضع آخر من الكتاب حول موضوع الحجاب:

(الحجاب مصطلح جديد تقريباً، إذا إستعمل في الثوب الساتر للمرأة. والفقهاء يستعملون كلمة الستر بدلاً من كلمة الحجاب بمعنى اللبس وبمعنى الستار والحاجب وأكثر إستعماله في مورد الستار لا الثوب الساتر..

... وستر المرأة في الإسلام هو أن تستر المرأة جسمها إذا جالست الرجال ولا تظهر مفاتها... والحجاب في الإسلام يتفرع من أصل أساسي عام وهو أن الإسلام يرى ان التمتع الجنسي يجب أن يختص بالبنية العائلية وفي إطار الزواج القانوني ويبقى جوّ المجتمع مجال العمل والنشاط الإجتماعي. وهذا الرأي الصائب في طرف النقيض للنظام الغربي المعاصر الذي يخطّ العمل والنشاط الاجتماعي بالتمتع الجنسي).

وكذلك قام الأستاذ المطهري في كتاب (نظام حقوق المرأة في الإسلام) بعرض إحدى أهمّ المسائل الحيويّة في المجتمع أي مسألة نظام حقوق المرأة. وفي هذا الكتاب القيمّ إبتداً كعاداته في سائر آثاره الثمينة بالبحث عن علل عرض هذا الموضوع وجذوره. وبعد ذلك أشار إلى نظام حقوق المرأة في القرآن الكريم ثمّ شرع في البحث عن أصل الموضوع من الجوانب المختلفة فلسفياً وسيكولوجياً

وإجتماعياً، وإعتمد في ذلك أيضاً على القرآن والسنة النبوية وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وحينما عرضت صحف النظام الحاكم موضوع إستقلال الثقافة الإيرانية الأصيلة وفضلها عن الإسلام ونضال الشعب الإيراني في صيانة موارثه الثقافية من نفوذ الثقافة الإسلامية وتداولت هذه المسألة محافل المتقنين ومجالسهم وبادر المحققون والأساتذة المتخصصون في شؤون إيران - كما يزعمون - إلى البحث والتحقيق عنها آلف الأستاذ كتابه القيم (الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران) وأوضح في هذا الكتاب جذور الشعار الإستعماري الذي ينادي بالقومية وأثبت فيه إيمان الإيرانيين وتحمسهم للإسلام بعد خلاصهم من قيود الإستضعاف الساساني وإنهم جاهدوا في صيانة الثقافة الإسلامية وإستغنائها وإستند في ذلك إلى الآثار والشواهد التاريخية المسلمة في إثبات مسائله قد بلغ حدّاً يفضح وإلى الأبد هذه أنشعارات المشؤومة التي ينادي بها القوميون الوطنيون ويثبت أنها نداءات فارغة وإستعمارية. قال الأستاذ في فصل من هذا الكتاب:

(لم يجد الإستعمار لتنفيذ خطته المعروفة (فرّق تسود) وسيلة أقرب من إلفات أنظار الشعوب الإسلامية المختلفة إلى قوميّتهم وعنصريّتهم وأن يشغل بالهم بمجدهم الموهوم. فيقول للهنود إنكم شعب عريق في كيت وكيت، ويقول للترك هياًؤ أسسوا حركة الشباب الترك والقوميّة التركيّة ويقول للعرب - وهم مستعدّون لقبول هذه التعصّبات أكثر من غيرهم - إعتمدوا على العروبة والقوميّة العربيّة. ويقول للإيراني: إنك من الشعب الآري فيجب أن لا تقيس نفسك بسائر الشعوب وخصوصاً العرب فإنّهم من الشّعوب السّامية ...).

وقال في موضع آخر من الكتاب:

(إن الشؤون المشتركة بين الإسلام وإيران تُعدّ من مفاخرهما معاً. أمّا الإسلام فلأنّه الدين الذي إستطاع بمحتواه القويم أن يجذب إليه شعباً ذكياً متحضراً مثقفاً وأمّا إيران فلأنه شعب ترك التعصّب وخضع للحق وضحّى في سبيله أكثر من غيره من الشعوب بمقتضى روحه الساعية وراء الحق والمحبة للثقافة).

وكذلك تجلّى كفاحه الأيديولوجي المؤقت في كُتبٍ من قبيل (ختم النبوة) و(الرسول الأمّي) و(السلوك الجنسي في الغرب).
ففي هذه الكتب قام الأستاذ أيضاً بالردّ على الشبهات التي كان يلقيها النظام الحاكم لتضعيف الدين الإسلامي.

٢ - الكفاح الايديولوجي الطويل الأمد:

كان الوجهة الأصيلة لكفاح الأستاذ نفي الأساس الفكري العقائدي للثقافة الأجنبيةّة و سحق جميع مظاهر الشرك والانحراف والالتقاط في المجتمع. ولا شكّ أنّ المطهري ما كان يكتفي في كفاحه بمجرد نفي الأسس الفكرية الثقافية الأجنبيةّة إذ لا يمكن الحصول على النتيجة المطلوبة بمجرد المواجهة السلبية لتلك الأفكار بل لابدّ مع الجانب السلبي من كفاح إيجابي أيضاً وهو عرض نظام فكري وأساس فلسفي قويّ وأصيل يمكنه المقاومة تجاه الثقافة المهاجمة.

وكان الأستاذ واثقاً من إنّ الإسلام هو الطريق الوحيد لإنقاذ الشعوب المحرومة من مخالب الإستعمار والإستثمار فالواجب هو تعريف المجتمع بالفكر الإسلامي. وكان بإمكانه بفضل قدرته العلميّة ونظرته الناقبة أن يفتح أبواب الحوزة العلميّة على المجتمع المثقّف ويكشف، الستار عن وجه العلوم الإسلامية وأن يعرض على المجتمع الأصول الفكرية والعقائدية للإسلام كنظام فكريّ وذلك بالإستعانة بالمنايع والذخائر العظيمة القيّمة الموجودة في الحوزة العلميّة.

هذا في حين ان الأغلبية من أصحاب القلم والبيان من رجال الدّين كانوا بين من لم يدرك الوضع الخطير الفجيع الذي يهدّد كيان الإسلام وبين من لم يستطع المواجهة الصحيحة للوضع الحاضر الذي أوجدته المخطّطات الدقيقة المرسومة من قبل النظام من جانب والحركات الإنتقافية من جانب آخر، فالكتب والمقالات المنتشرة كانت إمّا سطحية، ومكرّرة وأما فاقدة للأصول الأساسيّة في الفكر الإسلامي.

والأستاذ أقدم على ملء هذا الفراغ في برنامج طويل الأمد كما يلي:

١ - مواجهة الخط الإنتقافي مع الغرب:

كان الأستاذ يدرك تماماً أنّ كلاً سييلي الالتقاط اليميني واليساري تنصل جذورهما بالإعجاب المفرط بالعلم والنظرية الحسية ولذلك كان يعلن مخالفته للإعتماد على التجربة بصورة مطلقة وكان يرى ذلك خطراً عظيماً على الفكر الديني. وكان يعلم بأنّ هذا النوع من التفكير يمهد السبيل للتفسير المادي للقرآن والأحاديث.

قال الأستاذ لأحد الأخوان في لزوم المعارضة مع الخطر الالتقاطي الغربي:
(إنّ هذه الحركة الفكرية لا تنحصر في إيران فحسب بل لها سوابق ممتدة في الدول العربية فالمفكّرون المسلمون العرب من قبيل سيد قطب وفريد وجدي وأبو الحسن الندوي و... كانوا ينادون بهذا النوع من التفكير.

إنّ البلدان العربية سبقونا في هذا المجال حوالي ٥٠ سنة وتأثروا بالثقافة الغربية وتدنّست ثقافتهم بها وقد راجت هذه الأفكار بينهم بسبب بعض المسائل الثقافية). فلا بدّ من مكافحة هذه الأفكار بأسلوب صحيح مع ملاحظة الظروف الخاصة و مع صيانة أصالة لصيانة الفكر الاسلامي. والأستاذ في مواجهته مع الأفكار الانحرافية غالباً ما كان يأخذ بالبحث والنقد أسس تلك الأفكار ومبانيها فينضب الجدول الانحرافي من المنبع. فحينما شاع التفكير الالتقاطي الغربي بين المتديّنين وإشتدت الهجمات على الفكر الفلسفي من قبل هذا الخط وعرف المنطق التجريبي بأنّه الطريق الوحيد لمعرفة مضمّن القرآن، نشر الأستاذ المجلّد الأوّل من كتاب (أصول الفلسفة) وكانت هذه أوّل خطوة قام بها المطهري في طريق الكفاح الطويل.

وهذا الكتاب (أصول الفلسفة) يشرح بلسان مبسّط أهمّ مسائل الفلسفة الإسلاميّة، ويشتمل على تعاليق مفصّلة وعميقة من الأستاذ إلى مطالب أسس العلامة الطباطبائي الأمر الذي زاد في قيمة الكتاب مضموناً ودقّة، وقد أوضح فيه أصالة الفلسفة الإسلاميّة وإستغناءها من حيث المحتوى، بالنسبة إلى المكاتب الفلسفية الغربية والشرقيّة وذلك بأسلوب المقارنة والتطبيق. وبعدّ هذا الكتاب من أعمق الكتب الموجودة وأعلاها مضموناً، ويعتبر حتّى الآن أرقى كتاب فلسفيّ

يستفيد منه المتعطشون للحقيقة.

وقد قام الأستاذ في هذا الكتاب مسaireً للأصل بتعريف الفلسفة الإسلامية وتوضيح قصور المنطق الحسي والتجريبي في تبين قسم من المجهولات البشرية. كتفسير الكون والمعارف الإلهية. وبين فيه خصائص العقل والتفكير الفلسفي في هذا المجال. قال الأستاذ حول مضمون الكتاب:

(هذا الكتاب يشتمل على مجموعة المسائل الفلسفية بصورة مختصرة. ويبين فيها أهم المسائل الفلسفية مع محاولة تبسيط الأسلوب والبيان حدّ الإمكان ليستطيع كل أولئك الذين يتمتعون بذوق فلسفي ومعلومات مختصرة أن يستفيدوا منه كل بقدر إمكانياته. ولذلك تجنّبنا سرد الأدلة والبراهين المتعددة في كل مورد. وإكتفينا لإثبات كل دعوى بذكر أبسط الطرق والبراهين).

وقد دون هذا الكتاب ودرس في البداية من قبل المرحوم العلامة الطباطبائي على صورة مقالات متعدّدة ولكنه كان صعب التناول بسبب إجمال المطالب وتعقيد بيان العلامة في اللغة الفارسية. ولذلك طلب العلامة من الأستاذ المطهري أن يشرح مطالب المتن ويعلق عليها حتى يكون الكتاب مبسطاً سهل التناول لعامة المثقفين وقام الأستاذ بهذه المهمة خير قيام، ونشر كتاب (أصول الفلسفة) بهذا الوجه المقبول.

وفي مواجهة للأستاذ مع أصالة الإنسان والفكر الإنلطاقي الغربي أخذ بالنقد والبحث عن أسس معرفة الإنسان في المدرسة الغربية وأوضح نقاط التناقض فيها. والذي يدلّ على شدة إهتمامه بهذا الموضوع الهامّ هو خطبه ومقالاته العديدة حول الانسان وكرامته في الإسلام والمقارنة بين التفسير الاسلامي للانسان، ومسلك أصالة الإنسان.

إنّ هذا المسلك يقول بذاتية الانسان وأصالته تجاه الباري جلّ وعلا. وبعبارة أخرى يقول باستقلال الانسان وأصالته الذاتية في حدّ نفسه وهذا يناقض التفسير الاسلامي للانسان الذي يقول بأنّ أصالة الانسان ترتبط بتعلّقه بالله وهجرته عن ذاته وأنّ كرامته منحة من الله ومن إفاضة مقام الخلافة الإلهية له. وقد أثبت الأستاذ

إن الأساس الفلسفي لمسلك أصالة الإنسان ينتهي أخيراً إلى تحقير الإنسان ومسخه وعبوديته، قال الأستاذ حول هذا الموضوع:

«إنّ هذه النظرية لا تؤدّي إلى نفي أصالة التمايلات الفطرية في الانسان كحبّه للحقيقة والخير والجمال والخالق فحسب بل تؤدّي أيضاً إلى نفي أصالة الميل إلى الواقع في ملاحظة الإنسان للكون والواقع الخارجي^(١)».

وقال في موضع آخر حول هذا المسلك:

(إن أمثال اوغست كونت الذين يبحثون عن دين الانسانية يربون هذا الفكر في أذهانهم وهذا هو مسلك أصالة الإنسان الذي أصبح فلسفة العصر تقريباً وينادي به - على الأغلب - المثقفون.

هذه النظرية ترى الإنسان أمراً وحدانياً وراء الطبقات والقوميّات والثقافات والأديان والألوان والشعوب والأقوام وتنفي كلّ تمييز وتفاوت. وعلى هذه الفلسفة تعتمد البيانات الصادرة باسم حقوق البشر في العالم وتنتشر هذا الأسلوب من معرفة الذات. ولكنّها في الواقع - مع أنّها تظهر منطقيّة أكثر من غيرها ومع كلّ ما إنتشر لها من دعاية - أبعد الفلسفات عن الواقع. لماذا؟.

إنّ السرّ يكمن في كفيّة وجود الإنسان وحقيقة ذاته. فهو يختلف في كفيّة وجوده وحقيقته عن جميع أنواع الموجودات من الجماد والنبات والحيوان. وذلك من جهة ان كل شيء يوجد ويخلق في هذا الكون فماهيته وواقعه إنّما هو ما تصنعه عوامل الخلقة، ولكنّ الانسان بعد خلقه يبدأ مرحلة الكينونة بأنّ على أي وجه فالانسان ليس هو الشيء الذي خلق بل هو الشيء الذي يريد أن يكون. وهو الشيء الذي تصنعه مجموعة من العوامل التربوية ومنها إرادته وإختياره^(٢).

وقال في موضع آخر حول سخافة هذه النظرية الغربية:

(إنّ برتراند راسل) الفيلسوف والرياضي البريطاني المعروف وجان بول سارتر الفيلسوف الوجودي الفرنسي من الشخصيات البارزة القائلة بأصالة الانسان

١ - كتاب الإنسان والإيمان.

٢ - نقلاً عن كتاب الانسان في القرآن.

في عصرنا الحاضر. ومن الغريب أنّ راسل بنى فلسفته الأخلاقية على أساس يتناقض مع أصالة الانسان، فإنّ مبنى فلسفة اخلاقه هو المصلحة الشخصية أي انه يرى أساس الأخلاق، كسب المصلحة الأكثر والأرقى في ظلّ الأصول الخلقية ولا يقول بفلسفة أخرى للأخلاق وهنا نجد أنّ أصالة الانسان لدى راسل كيف إنتهت إلى عبودية المصلحة الشخصية واما أصالة الإنسان لدى سارتر فالنتيجة البارزة لها هو دموع التماسيح التي يصبها بين فترة وأخرى على مظلومية إسرائيل وتآلمه من الظلم الذي جرى عليه من قبل العرب وخصوصاً (من اللاجئين الفلسطينيين). نقلًا عن كتاب (الانسان في القرآن).

ولم يكتف الأستاذ بتأليف الكتب الكثيرة في سبيل إيقاف حركة الإلتقاط والأفكار الغربية بل بذل غاية جهده عملياً في توجيه أفكار المثقفين. ولهذا السبب بالذات إختار جامعة طهران كموقع إستراتيجي ليكون مرتبطاً دائماً بالمثقفين المتدينين والمستغربين المغفلين على حدّ سواء.

وكان منذ عام (١٣٧٩ هـ . ق) حتى سنة ٣٥٠ (١٣٩٢ هـ ق) بل بعده أيضاً من خطباء الجمعية الإسلامية للأطباء بصورة دائمية تقريباً. وأكثر مؤلفات الأستاذ من نتاج تلك الخطب.

ومن جهة أخرى كان الأستاذ باستقراره في الجامعة كان همزة وصل بين الحوزة العلمية والجامعة وكم من رجال جامعيين جذبهم الأستاذ نحو الحوزة للتعليم والتعلم. وهكذا كان العلامة المطهري أحد الرجال الذين فتحوا باب كلّ من هذين المركزين الاجتماعيين العظيمين تجاه الآخر.

ب - مواجهة الخط الالتقاطي مع الشرق:

مع تصاعد أمواج الثورة وإزدياد سرعة الحركة النضالية لم تتمكن حركة الالتقاط مع الغرب من الاستمرار، نظراً إلى عدم تطابقها مع الظروف النضالية، فخرجت من ساحة المعركة وخلفت بعدها الفكر الالتقاطي مع الشرق. وهذا الفكر بسبب أرضيته المساعدة إنتشر بسرعة بين الشباب ولذلك كان خطره أكبر من الفكر السابق، ومن هنا إهتمّ الأستاذ بهذا الخطّ أكثر من الخطّ الالتقاطي الغربي.

ولم يتهاون الأستاذ في مسير هذا النضال المستمر الطويل بفضل عزمته القوية وقدرته الفائقة. وتلقى في هذا السبيل أنواع التهم والتهمك من أصحاب الأفكار الملققة مع الفكر الشرقي وأمام هذه الهجمات كان كالأب الشفيق يمسح يد العطف والرحمة صابراً محتسباً على مفارق الشباب المغفل الذي لم يجد له ملجأً ولم يعتمد على ركن وثيق.

وكان واتقاً مطمئناً بأصالة الإسلام وعظمة مبانيه الثقافية والعقائدية وغلبته على الايديولوجيات الشرقيّة والغربيّة ولذلك لم يمتنع بكلّ شهامة ورحابة صدر من ترغيب الشباب على إبداء شكوكهم وأراد بذلك أن يهدم وإلى الأبد البناء الفكري القديم البالي الذي إكتسبه الشباب من الإسلام التقليدي والسنن الخرافية والذي يعتبر أهمّ العوامل لنموّ الأفكار الانحرافية. فإذا تهدّم هذا البناء بالشكوك أمكن أن يبنى مكانها البناء العقائدي الاسلامي الأصيل عظيماً متماسكاً لا تهدمه الزلازل المرجفة. يقول الأستاذ: قال الأستاذ في هذا الموضوع:

«إنّ هذا العصر عصر الاضطراب والشكّ في المسائل الدينيّة خصوصاً بالنسبة إلى طبقة الشباب. فهذه المجموعة من الأسئلة والشكوك الحديثة من متطلبات العصر ومقتضيات الزمان بل قد تجددت بعض الأسئلة القديمة أيضاً. فهل تستوجب هذه الشكوك والوساوس والأسئلة التي ربما تصل حد الافراط أن تتأثّر ونأسف أم تستوجب أن نستقبلها مغتبطين فرحين؟ إنني أعتقد أنّه لا داعي للقلق والتأسّف فإنّ الشكّ مقدّمة اليقين، والسؤال مقدّمة الوصول، والإضطراب مقدّمة الاطمئنان. فالشكّ معبر وطريق حسن وضروري. ولكنّه مسكن ومنزل غير مناسب. والإسلام حيث يكثر الدعوة إلى التدبّر والتفكّر يعلمنا ضمناً أنّ الحالة الأولى للبشر هي الجهل والشكّ والترديد وأنّه يصل إلى مرحلة اليقين والإطمئنان بفضل التدبّر والتفكير الصحيح. قال أحد الحكماء:

«يكفي في فائدة الكلام أن يكون موجباً للشكّ والترديد فيبعثك إلى البحث عن الحقّ واليقين» الشكّ هو القلق ولكن ليس كل إرتياح مفضلاً على هذا القلق، فالحيوان لا يشكّ ولكنّه هل يصل إلى مرحلة اليقين والايمان؟ فهذا النوع من

الارتياح في مرتبة دون الشك ولكن إرتياح أهل اليقين فوق الشك»^(١).
 كان الأستاذ يتألم جداً من وجود الأفكار التلقيفية والانحرافية، وبقول:
 «كل حركة إجتماعية لابد لها من الإعتماد على حركة فكرية وثقافية وإلا
 فستقع في شباك الحركات التي تتمتع برصيد ثقافي وتنصر فيها فتغير مسيرها لا
 محالة. كما رأينا الجماعة الذين لا يملكون من رصيد الثقافة الإسلامية شيئاً كيف
 وقعوا كالذباب في نسيج العنكبوت».

ومن جهة أخرى لابد لكل حركة ثقافية إسلامية تريد أن تكون رصيد
 الحركة الإجتماعية أن تغدئ وتنشأ من متن ثقافتنا العربية لا الثقافات الأخرى فلا
 يكفي أن نلتقط أصولاً من سائر الثقافات كالفلسفة الماركسية كان يحاول أن
 يستخرج إجابة المسائل من ذخائر الثقافة الإسلامية الثمينة وبيئتها ويشرحها. وقد
 وفق في هذه الطريقة للحصول على نتائج عظيمة.

وحول نظرية المعرفة عرض الأستاذ بتفصيل جميع جوانبها من وجهة النظر
 الإسلامية. والمباحث التي بيئها في الخطب التي ألقاها بصدد تشريح نظرية المعرفة
 تبين لنا بوضوح مدى شخصيته العظيمة وثباته أمام الأمواج الالتقاطية والتشقيفية
 المعاصرة. وقد إعتد الأستاذ في هذه الخطب على الآيات والروايات والفلسفة
 الإسلامية وبيّن المعرفة علمي أساس الاعتقاد بالنفس المجردة. فعرض الأبحاث
 الفلسفية حول الوجود الذهني وإتحد العاقل والمعقول وتقييم المعلومات البشرية
 وغير ذلك في أسلوب شيق، وأخذ يعدّ منابع المعرفة وأسبابها. وأكد على حصول
 المعرفة عن طريق القلب ودور التقوى والتركية وصفاء الباطن في المعرفة وذلك في
 ذلك الجو الساخن بالنظريات الحسية والمادية حيث لم يكن يجرؤاً أحد على
 الإعراف بوسيلة للمعرفة خارجة عن نطاق التجربة إلا وتنصب عليه اللعنات من
 جانب إله العلم التجريبي.

وعندما كان الأستاذ يبيّن الأفكار الالتقاطية لنقدها والردّ عليها لم يكن
 يكتفي بذكر أدلتهم التي يستندون إليها بل كان يأتي بدلائل جديدة لإثبات عقائدهم

لم تصل إليها عقولهم القاصرة ثم يأتي عليها جميعاً فينفذها واحدة تلو الأخرى. وتتبين هذه الملاحظة الدالة على عمق تفكيره وحدة نظره بمراجعة مقالته^(١). وأبحاث الأستاذ حول مسألة الكون والوجود كثيرة جداً. فكتاب (أصول الفلسفة) وأكثر خطبه ومقالاته تدور حول هذا المحور. وقد جمع مختصراً من كليات تلك الأبحاث يكمن في مسلكه الفلسفي حول الكون والوجود ومعرفة الكون.

والمطهري في صراع دائم مع الأفكار المنحرفة، وقد ألف كتابيه (التفسير التوحيدي للكون) و (الحياة الخالدة) بصورة مختصرة وجامعة وفي ضمنها الأبحاث الطويلة الفلسفية والفقهية والتفسيرية ونحوها وذلك بصدد عرض مسائل الكون والوجود بصرة منتظمة.

وقد أوضح في كتاب (التفسير التوحيدي للكون) نظرة الإسلام إلى العالم وبهذه المناسبة عرض فيه مسائل التوحيد والعدل والحكمة البالغة الإلهية. فابتدأ فيه بتعريف تفسير الكون ثم تعرض لأهمية هذا التفسير وأن جميع الأديان والشرائع والمدارس والفلسفات الاجتماعية تعتمد على نوع من تفسير الكون. وبعد ذلك أشار إلى الفرق بين تفسير الكون والاحساس به ثم إستنتج من مجموع ذلك قوله: (إن كل تفسير للكون إنما يمكن أن يقع عماداً لايدولوجية أو سنداً لايمان إذا كان يعتمد على الدين في صياغتها وصبغتها).

وفي النهاية تعرّض لموضوع الإنسان ووصول الواقع الوجودي له إلى مرحلة الاتحاد، وكذلك بلوغ المجتمع البشري إلى مرحلة الإتحاد والتماسك في نظام إجتماعي متضامن متكامل. وتعرض أيضاً لثلاث نظريات في هذا الموضوع: المادية، والمثالية، والواقعية، وجعلها مورداً للبحث والمقارنة وإختار أخيراً النظرية الواقعية التي هي نظرية الإسلام فقال:

«أن المراد بالمجتمع اللاطبقي الإسلامي هو المجتمع بدون تمييز وبدون محروم وبدون طاغوت، والمجتمع العادل بدون ظلم لا المجتمع بدون إختلاف فإنه

بنفسه نوع من الظلم وسلب العدالة. فهناك فرق بين التمييز والاختلاف كما أنّ نظام الكون فيه إختلاف أيضاً وهذه الاختلافات هي التي أضافت على الكون الجمال والتنوّع ودفعتّه إلى التطوّر والتكامل. ولكن ليس فيه تمييز. فالمدينة الفاضلة الإسلامية ضدّ التمييز لا ضدّ الإختلاف. المجتمع الاسلامي مجتمع التساوي والتعادل والأخاء).

وقال في موضوع آخر:

(المجتمع الاسلامي مجتمع طبيعي لا مجتمع تبعيسى ولا مجتمع التساوي المنفي. وشعار الإسلام: العمل بمقدار القدرة. والاستحقاق بمقدار العمل).

وأبدى الأستاذ المطهري نظريات جديدة أيضاً في مسألة المجتمع والتاريخ. وبدأ الأستاذ بحثه في كتاب (المجتمع والتاريخ عن بدء نشوء المجتمع ونوعيته تركيبيه من الأفراد. ثم أثبت مستنداً إلى الآيات القرآنية والأحاديث أنّ النظريات الإلتقاطية حول هذا الموضوع مرفوضة من قبل القرآن الكريم.

وكما قلنا فإنّ مواجهة المطهري للثقافة الغربية والأفكار الإلتقاطية كانت دقيقة مدروسة فلم يكن يكتفي بنفيها وردّها بل كلّما أعلن عن فكر إنحرافي عقبته فوراً بأرائه النظرية الصحيحة في ذلك الموضوع بالذات. وبعبارة أخرى كانت مواجهته مع الإنحراف والالتقاط مواجهة إيجابية أكثر من كونها سلبية. وقلنا أيضاً أنّ هذه الميزة التي كان يتمتع بها الأستاذ إنّما كانت بسبب علوّ مقامه العلمي وعمق تفكيره في المعارف الإسلامية. فهذا العمق والمحتوى من جانب والایمان والالتزام والشعور بالمسؤولية من جانب آخر مع سعة إطلاعه في المشاكل الإجتماعية صنعت منه معلماً إيديولوجياً بارزاً. فكان يواجه المشاكل بقوة الفقاهة والإجتهد ويدخل المعركة في كلّ المجالات وهو غنيّ من العلوم.

وللأستاذ أيضاً تحقيقات واسعة حول الإقتصاد والملكية. ولكنه - مع الأسف - إستشهد قبل أن يتمّ عمله في هذا المجال. ولقد أبدى الأستاذ المطهري حول ملكية الآلة الصناعية احتمالاً يفتح باباً فقهياً جديداً في حلّ المشكلات الإقتصادية العصرية.

وقد ذكر هذا الإحتمال في بعض ملاحظاته التي سجّلها حول الإقتصاد الاسلامي ولكنها بقيت غير منقّحة ومنظّمة ولذلك لم تطبع حتى الآن.

ج - مواجهة الماركسية:

كانت الحركات الالتقاطية تهدد الإسلام دائماً بالأيدولوجية الماركسية، فلم تمكن معارضة الالتقاط إلا مع مواجهة منطقيّة مع الأصول الفكرية الماركسيّة التي كانت منبع الالتقاط ومن هنا كان الأستاذ يهتمّ بهذه الفلسفة أكثر من أيّ أيدولوجية أجنبية أخرى.

كان الأستاذ يعرف الماركسية جيّداً بسبب تبحّره في الفلسفة ومعرفته للفلسفة الأوربية. ومن هنا كان الأستاذ أوّل من عرض فكراً جديداً في النقد والبحث الفلسفي حول الماركسية فهناك الخطب والمقالات التي خصّصها بالمادية والماركسيّة مضافاً إلى شريط مسجل يبلغ ثمانين ساعة حول ماركس والماركسية يعدّ من أعمق الأبحاث في هذا الموضوع.

وقد بدأ الأستاذ نضاله ضدّ الماركسية من كتابه (أصول الفلسفة) حوالي سنة ١٣٨٢ هـ. ق وإن كان الكتاب أثنى بكثير من أن يخصّص بالردّ على الماركسية - كما أشار إليه الأستاذ في مقدّمة الكتاب - ولكن على كلّ حال ففي كل موضوع يتعرّض له الكتاب بعد ذكر آراء الفلاسفة المسلمين يذكر في التعليقة نظريات سائر المدارس الفلسفيّة بها فيها الماركسية ويعقبها بالبحث والنقد.

إنّ التحقيق حول الماركسية يعدّ جانباً من إختصاص المطهّري فقد قضى شرطاً كبيراً من عمره في المطالعة والتنقيب عن الماركسية وعرف بوضوح وجوه إفتراقها عن الفلسفة الالهية. كما بحث أيضاً عن أسباب التمايل نحو المادية والماركسيّة في ايران والعالم وسجّلها في كتابه (أسباب التمايل نحو المادية) وتعرّض فيه لهذا الموضوع من الجانب الفلسفي والديني والتاريخي والإجتماعي والإقتصادي. ولم يغفل الأستاذ أن يعدّ من الأسباب الهامة التي أدت إلى هذا التمايل ضعف المتديّنين وجمودهم ولم يدافع أمام هذا الالحاد وشرك القرن العشرين عن جمود الأفكار المتحجّرة. قال الأستاذ في كتابه المذكور:

«إن العلل والأسباب التي ذكرناها من قبيل قصور مفاهيم الكنيسة أو قصور المفاهيم الدينية... إما إنها مختصة بالعصور السابقة ليس لها دور في تمايلات عصرنا نحو المادية أو إنها من الأسباب المشتركة بين القديم والجديد ولا يختص بعصرنا وهنا نريد أن نذكر أسباب التمايلات المادية الخاصة بعصرنا.

ففي هذا العصر نجد إن المادية لها نوع من الجاذبية تقريباً ولكن ليست من نوع الجاذبية التي كانت لها في القرنين السابقين من جهد تلازمها المزعوم مع العلم والثقافة. ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ظهرت موجة دعائية من جراء قصور المفاهيم الكنيسية والفلسفة الأوربية بأن الإيمان بالله والدين لا يجتمعان مع العلم، فإما هذا وإما ذلك. ولكن هذه الموجة لم تدم طويلاً فتبين إن هذه الدعاية لا أساس لها. فجاذبية المادية في عصرنا من جهة أخرى وهي الطابع الثوري والجدلي والنضالي الذي عرفت به»^(١).

ثم أشار الأستاذ إلى إن أكثر الثورات المعاصرة أما إنها ماركسية أو متمايلة إليها وفي قبال ذلك ليس للدين في هذا الزمان تلك الروح الحماسية للنضال مع الإستثمار والاستبداد. وفي ذكر أسباب هذه الظاهرة قال المطهري:

(... حقاً إن هذا لعجيب ممن يدعون متابعة القرآن. ونحن نرى أن خروج المؤمنين بالله من ساحة المعركة وإحتلالها من قبل أتباع المادية لكل منهما سبب خاص. فالساحة إنما خلت من المؤمنين حينما أصبح المدعون للقيادة الدينية يطلبون العافية. وبعبارة أصح إنما حدثت هذه الظاهرة حينما جاء بعض الطالبين للعافية والحياة العادية - وتعبير الدين - بعض أهل الدنيا وإحتلوا مقام الأنبياء والأئمة وإشتبه الأمر على الناس فاعتبروهم ممثلين وخلفاء للأنبياء والأئمة مع إن سلوكهم ونفسياتهم في طرف النقيض لسلوك الأنبياء والأئمة وأتباعهم الحقيقيين ونفسانياتهم وإذا كان هناك تشابه بين الفريقين فإنما هو في شيء يسير من المظهر الخارجي»^(٢).

١- نقلاً عن كتاب التمايل نحو المادية.

٢- نقلاً عن كتاب أسباب التمايل نحو المادية.

د - التعرف على العلوم الإسلامية:

كان المجتمع الإيراني قبل الثورة بسنين لا يملك عن الحوزات العلمية الدينية إلا تصوّرات مبهمّة كالشيخ ولا يعلم ماذا يجري هناك. وقلّما كان من يعرف مواضيع العلوم الإسلامية والمسائل التي تدرس في الحوزات العلميّة وما هي المقدمات التي يتوقّف عليها البحث عن القرآن الكريم ودرك معانيه والتعرّف على الأبعاد المختلفة للفكر الإسلامي.

وبعد أن شاعت الأفكار الالتقاطية حدث في المجتمع هذا التصوّر الخاطيء وهو أن بإمكان كلّ أحد يملك قرآناً مع ترجمته الفارسية ومعجماً مفهوساً أن يفسّر الآيات القرآنية بلا تردّد ويشرح الأحكام الشرعية.

ومن الواضح إنّ هذا الاستخفاف بالحقائق القرآنية والإسلاميّة كان يشكّل خطراً عظيماً وفي هذا المجال قام الأستاذ بتعريف المجتمع على العلوم الإسلامية ليعرّف الناس وخصوصاً الشباب أولاً ماذا يجري في الحوزات العلمية وثانياً ما هي الوسائل التي لا يستغني عنها الباحث عن المواضيع الإسلاميّة. ولذلك آلف الأستاذ كتاباً لتعريف العلوم الإسلاميّة وحاول فيها أن يشرح ببيان مبسّط حد الإمكان، الأصول والمواضيع الكليّة لمباني التفكير الإسلامي بما فيها الفلسفة والكلام والمنطق والفقه وأصول الفقه والعرفان و... ومراجعة هذه المجموعة من كتب الأستاذ بالرغم من صغر حجمها واختصار مطالبها التي هي مجرد تصوير إجماليّ للمعارف الإسلاميّة لجديرة بأن تؤدّي دوراً هاماً في منع الإنحراف الناشيء من عدم التأمل وعدم نضج التفكير وكذلك في توطيد المباني الفكرية والعقائدية.

ونحن إذا تأملنا آثار المؤلفين المسلمين وجدناها ضعيفة جداً من حيث أسلوب البيان وبساطة التعبير وقلّما نجد في الكتب لايدئولوجيّة كتاباً سهل التناول يكون في نفس الوقت عميقاً في المطالب قوياً في الاستدلال. ومع هذه الملاحظة إذا لاحظنا كتب الأستاذ من قبيل الفقه وأصول الفقه والمنطق والفلسفة و (العرفان) و... التي دونّها بتعبير بسيط وهي متن أبحاثه في الجامعة لرأينا فيها دقّة النظر ورقة البيان وعظمة الفنّ وشفقة الأستاذ.

ولا يسعنا إلا أن نتحسّر على الأستاذ المطهري الذي بيّن المجدين والفضيلتين مداد العلماء ودماء الشهداء والتحق في هذا الطريق بشهداء الشيعة الأماجد كالشهيد الأول والشهيد الثاني... ولئن إستشهد فإنّ شمس دمائه المشرقة زادت سماء الإسلام مجدداً وعظمة. وأفاضت بالنور والطاقة على الثورة الإسلاميّة فمُنحتها حياة وحركة جديدة. وعاد الناس يلجأون إلى الإسلام الأصيل وينتفعون من عيونهم البكر الصافية. ويتطهرون منها روحاً وحسماً لدى شروق فجر الأفكار من القمم العالية للفلسفة والعرفان ...

آثاره القيّمة

- ١ - أسباب التمايل نحو المادّية.
- ٢ - المادّية في ايران.
- ٣ - الإمدادات الغيبية في حياة البشر.
- ٤ - لن تغرب شمس هذا الدين. طبع منضمّاً إلى الكتاب السابق.
- ٥ - الرشد الإسلامي. طبع منضمّاً إلى الكتاب السابق.
- ٦ - الإدارة والقيادة في الإسلام.
- ٧ - نظام حقوق المرأة في الإسلام.
- ٨ - مسألة الحجاب.
- ٩ - السلوك الجنسي في الإسلام والغرب.
- ١٠ - الخدمات المتبادلة بين الإسلام وايران.
- ١١ - الخدمات المتبادلة بين الإسلام وايران ج ٢.
- ١٢ - العدل الالهي.
- ١٣ - مرور على نهج البلاغة.
- ١٤ - الانسان والمصير.
- ١٥ - جذب الامام علي عليه السلام ودفعه.
- ١٦ - ثورة الامام المهدي عليه السلام من وجهة نظر الفلسفة والتاريخ.

- ١٧- الولاية والولاية طبع منضماً إلى كتاب الخلافة والولاية الطبعة الأولى.
- ١٨- ختم النبوة. طبع منضماً إلى كتاب خاتم الأنبياء المجلد الأول.
- ١٩- النبي الأُمِّي ﷺ طبع منضماً إلى كتاب خاتم الأنبياء المجلد الثاني.
- ٢٠- الحركات الإسلامية في القرن الأخير.
- ٢١- التكامل الاجتماعي في الإسلام.
- ٢٢- إحراق الكتب في إيران ومصر.
- ٢٣- الإنسان والايمان (مقدمة على التفسير الاسلامي للكون ج ١).
- ٢٤- تفسير الكون (مقدمة على التفسير الاسلامي للكون ج ٢).
- ٢٥- الوحي والنبوة (مقدمة على التفسير الاسلامي للكون ج ٣).
- ٢٦- قصص أهل الحق - الجزء الأول.
- ٢٧- قصص أهل الحق - الجزء الثاني.
- ٢٨- مجموعة من المقالات.
- ٢٩- عشرون مقالة (مجموعة من خطبه المذاعة).
- ٣٠- عشرة مقالات (قسم من مقالاته في كتاب: مقال الشهر و...).
- ٣١- التَّحْصِيل (تصحيح وتعليق على كتاب بهمنيار).
- ٣٢- أصول الفلسفة ج ١ (مقدمة وتعليق على أبحاث العلامة الطباطبائي).
- ٣٣- أصول الفلسفة ج ٢ (مقدمة وتعليق على أبحاث العلامة الطباطبائي).
- ٣٤- أصول الفلسفة ج ٣ (مقدمة وتعليق على أبحاث العلامة الطباطبائي).
- ٣٥- أصول الفلسفة ج ٤ (مقدمة وتعليق على أبحاث العلامة الطباطبائي).
- ٣٦- أصول الفلسفة ج ٥ (مقدمة وتعليق على أبحاث العلامة الطباطبائي).
- ٣٧- المجتمع والتاريخ.
- ٣٨- الحياة الخالدة أو الدار الآخرة.

ب - الكتب التي لم تنشر:

لقد ترك الأستاذ كتباً وأبحاثاً كثيرة لم تطبع قيل إنها أكثر من أربعين كتاباً والآن تطبع وتنشر تحت إشراف نخبة من العلماء والمفكرين في إطار خاص

الشهيد مرتضى المطهري ٢٨٣

وإنتشرت أربعة عشر مجلدا منها على نسق خاص و طباعة انيقة فى مؤسسة
«صدرا».

الشهيد الرابع

السيد محمد باقر الصدر

(الشهادة في ١٣٩٩ هـ . ق)

الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر سليل العترة الطاهرة نسباً
وجهاداً وفكراً وأصالتاً، فقد تولّى هذا المرجع الدينيّ الكبير قيادة المسيرة الإسلامية
في العراق المضطهد ورفدها بالفكر النير الذي طرح الإسلام من خلال
«إيدولوجية» متكاملة تعالج مشاكل الحياة من كلّ جوانبها، وتقدّم في ذلك الحلول
الكافية، واستلم من جهة أخرى زمام المجابهة السياسية مع رموز الكفر التي توالى
على حكم العراق، وأبدى على هذا الصعيد صموداً رسالياً رائعاً، ولا نغالي إذا قلنا
أنّه أدخل الرعب في قلوب البعثيين وأذناهم يوم انطلق يساند ويبارك ثورة الإمام
الخميني الكبير معلناً في الأثناء أن الانتماء إلى حزب البعث غير جائز في شريعة
الإسلام حيث توجّج مواقفه المشرّفة في هذا الخصوص بإعلانه الثورة الإسلامية في
العراق، وقد اتخذ من قائد المستضعفين الامام الخميني، سنداً وقُدوةً وكاد نصر الله
أن يتحقّق لولا ان باغته صدام العميل فقتله وقتل أخته العالمة الفاضلة «بنت
الهدى». أفاضه الله على تربتهما شبابيب الرحمة و الرضوان
حقاً وكما قال امام الأمة كان الشهيد الرابع أمل المسلمين في التقدّم
والازدهار، إذا هدر البعثيون دمه الزكيّ فسيبقى صوته مدوياً إلى الأبد.

سؤال وجواب:

في هذا المجال سؤال عن ناحية جمع من العلماء الأحرار في لبنان وجواب عن ناحية الشهيد الرابع، وفي هذا الجواب، كفاية عن أهدافه وأفكاره وجهاده العلمي ومستوى فكره الرشيد. يحتوي هذا المقال على جواب الرسالة التي وجهها جماعة من علماء المسلمين في لبنان إلى سماحة آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر ليستوضحون فيها فقهيّاً عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية في إيران، وهذا نصّ الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر دام ظلّه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد:

لا يخفى عليكم أنّ اطروحة الجمهورية الإسلامية التي رفع رايها سماحة آية الله العظمى الامام الخميني دام ظلّه قد هزّت الدنيا وكان لها وقع إيجابي عظيم في أرجاء العالم الإسلامي بل في العالم كلّ غير أنّها تواجه تحدياً من مصادر الفكر العلماني التي لا ترى معنى لهذه الاطروحة التي تدمج الدولة بالاسلام وتربطها بالسماء وتدّعي انّ الدولة من صنع الأرض ولا ربط لها بالسماء، وان أيّ محاولة لهذا الربط تبقى شعاراً بلا مضمون، فالمرجو من سماحتكم بحكم ما يعرفه العالم الإسلامي كلّ عن تبخّركم في الفقه وكلّ فروع المعرفة الإسلامية، وقيومتكم الرشيدة على أفكار العصر أن تنفّعونا بما يلقي ضوءاً في هذا المجال وتمدّونا بانطباعات عمّا تقدرونه من التصورات الأساسية، للشعب، الإيراني المسلم بهذا الصدد.

السيد محمد الغروي

الشيخ محمد جعفر شمس الدين

الشيخ حبيب سويدان

الشيخ حسن عواد

الشيخ علي طحيني

الشيخ علي ضياء

الشيخ راغب حرب

الشيخ عبدالأمير شمس الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على قائد البشرية محمد وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين والخيرة من أصحابه الصالحين.

وبعد فإننا إذ ننمّن اهتمامكم المسؤول بالاطروحة المباركة التي رفع سماحة آية الله العظمى الامام الخميني رايته فانعشت قلوب المسلمين جميعاً وأنارت نفوسهم نحاول فيما يلي أن نتحدّث إليكم بوضع كلمات قد تلقي ضوءاً في هذا المجال وتساعد على طرح أفكار بمستوى مفاهيم الإسلام وافتراضات قابلة للتطبيق اسلامياً مع التأكيد على أن هذا الامام المجاهد الذي رفع هذه الراهة واستطاع أن يحقق النصر هو صاحب الكلمة العليا وسيد الموقف الفصل بشأنها وكلنا ثقة بأن نجاحه العظيم في تجسيدها وتطبيقها، سوف لن يقل روعة عن جهاده العظيم في نسف الطاغوت واخراج إيران من ظلمات الطغيان.

إن الدولة ظاهرة اجتماعية أصيلة في حياة الإنسان وقد نشأت هذه الظاهرة على يد الأنبياء ورسالات السماء واتخذت صيغتها السوية ومارست دورها السليم في قيادة المجتمع الإنساني وتوجيهه من خلال ما حققه الأنبياء في هذا المجال من تنظيم اجتماعي قائم على أساس الحق والعدل يستهدف الحفاظ على وحدة البشرية وتطوير نموها في مسارها الصحيح.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أوتوه مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ. وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ﴿١١﴾

ونلاحظ من خلال هذا النص أن الناس كانوا أمة واحدة في مرحلة تسودها الفطرة ويوحد بينها تصورات بدائية للحياة وهموم محدّدة وحاجات بسيطة ثم نمت من خلال الممارسة الاجتماعية للحياة - المواهب والقابليات وبرزت الإمكانيات

المتفاوتة واتسعت آفاق النظر وتنوعت التطلّعات وتعقدت الحاجات فنشأ الإختلاف وبدأ التناقض بين القوي والضعيف وأصبحت الحياة الاجتماعية بحاجة إلى موازين تحدّد الحق وتجسّد العدل وتضمن استمرار وحدة الناس في إطار سليم وتصبّ كل تلك القابليات والامكانيات التي نمتها التجربة الاجتماعية في محور إيجابي يعود على الجميع بالخير والرخاء والاستقرار بدلاً عن أن يكون مصدراً للتناقض وأساساً للصراع والاستغلال، وفي هذه المرحلة ظهرت فكرة الدّولة على يد الأنبياء وقام الأنبياء بدورهم في بناء الدولة السليمة ووضع الله تعالى للدّولة أسسها وقواعدها كما لاحظنا في الآية الكريمة المتقدّمة الذكر.



وظلّ الأنبياء يواصلون بشكل آخر دورهم العظيم في بناء الدولة الصالحة وقد تولّى عدد كبير منهم الاشراف المباشر على الدولة كداوود وسليمان وغيرهما وقضى بعض الأنبياء كل حياته وهو يسعى في هذا السبيل كما في حالة موسى عليه السلام واستطاع خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يتوجّج جهود سلفه الطاهر بإقامة أنظف وأطهر دولة في التاريخ، شكّلت بحق منعطفاً عظيماً في تاريخ الإنسان وجسّدت مبادئ الدولة الصالحة تجسيداً كاملاً ورائعاً.

وعلى الرغم من أنّ هذه الدولة قد تولاها في كثير من الأحيان بعد وفاة الرسول الأعظم قادة لا يعيشون أهدافها الحقيقية. ورسالتها العظيمة فإن الامامة التي كانت امتداداً روحياً وعقائدياً للنبوة وورثتها لرسالات السماء مارست باستمرار دورها في محاولة تصحيح مسار هذه الدولة وإعادتها إلى طريقها النبويّ الصحيح وقدم الأئمة عليهم السلام في هذا السبيل زخماً هائلاً من التوضيحات التي توجهها استشهاد أبي الأحرار وسيد الشهداء أبي عبدالله الحسين مع الصفوة من أهل بيته وأصحابه في يوم عاشوراء.

وقد امتدّت الامامة بعد عصر الغيبة في المرجعية كما كانت الامامة امتداداً بدورها للنبوة وتحملت المرجعية أعباء هذه الرسالة العظيمة وقامت على مرّ التاريخ بأشكال مختلفة من العمل في هذا السبيل أو التمهيد له بطريقة أخرى. وقد عاش العالم المسلم الشيعي دائماً مع كلّ الصالحين وكلّ المستضعفين من أبناء هذه الأمة الخيرة عيشة الرفض لكلّ ألوان الباطل والإصرار على التعلّق بدولة الأنبياء والأئمة بدولة الحق والعدل التي ناضل وجاهد من أجلها كلّ أبرار البشرية وأخيارها الصالحين.

وقد استطاع الشعب الإيراني المسلم أن يشكّل القاعدة الكبرى لهذا الرفض البطولي والثبات الصامد على طريق دولة الأنبياء والأئمة والصدّيقين باعتباره الجزء الأكبر إلتحاماً مع المرجعية الدينية وأسسها الدينية والمذهبية وقد بلغت هذه القاعدة الرشيدة بفضل القيادة الحكيمة للمرجعية الصالحة التي جسّدها الامام الخميني دام ظلّه قمةً وبعها الرسالي والسياسي الرشيد من خلال صراعها المرير مع طواغيت

الكفر ومقاومتها الشجاعة لفرعون ايران الحديث، حتى استطاعت أن تلحق به وبكل ما يمثله من قوى الإستعمار الكافر أكبر هزيمة يمني بها المستعمر الكافر في عالمتنا الإسلامى العظىم.

وكان من الطبعى أن يزداد الشعب الإيرانى المسلم إيماناً برسالتة التارىخىة العظىمة وشعوراً بأن الإسلام هو قدره العظىم لأنّ بالإسلام ويزخم المرجعية التى بناها الإسلام وبالخمىنى القائد استطاع أن يكسر أثقل القيود ويحطّم عن معصىمه تلك السلاسل الهائلة فلم يعد الإسلام هو الرسالة فحسب بل هو أيضاً المنقذ والقوة الوحىدة فى المىدان التى استطاعت أن تكتب النصّر لهذا الشعب العظىم.

ومن هنا كان طرح المرجعية الرشىدة للجمهورىة الإسلامىة شعاراً وهدفاً وحقىقة تعبيراً حياً عن ضمىر الأمة وتتويجاً لنضالها بالنتىجة الطبعىة وضماناً لإستمرار هذا الشعب فى طرىق النصّر الذى شقّه له الإسلام.

والشعب الإيرانى العظىم، بحمله لهذا المنار وممارسته مسؤولىته فى تجسىد هذه الفكرة وبناء الجمهورىة الإسلامىة يطرح نفسه لا كشعب يحاول بناء نفسه فحسب، بل كقاعدة للإشعاع على العالم الإسلامى وعلى العالم كله فى لىظات عصىبة من تارىخ هذه الإنسانىة يتلفت فىها كل شعوب العالم الإسلامى إلى المنقذ من هىمنة الإنسان الأوروبى والغربى وحضارته المستغلة وىتحسّس فىها كل شعوب العالم بالحاجة إلى رسالة تضع حدّاً لإستغلال الإنسان للإنسان.

وعلى هذا الأساس يقوم الشعب الإيرانى المسلم فى هذه اللىظات الزاخرة بالتارىخ والغنىة بمعانى البطولة والجهاد والمفعمة بمشاعر النصر وإرادة التغىىر.

يقوم هذا الشعب بدوره التارىخى فىصنع لأول مرّة فى تارىخ الإسلام الحدىث دستور الجمهورىة الإسلامىة وىصمّم على أن ىجسّد هذا الدستور فى تجربة رائعة ورائدة وكما هزّ هذا الشعب العظىم ضمىر العالم وزعزع مقابىسه المادىة بقىمه التى جسّدها فى مرىلة المبارزة كذلك سىهزّ ضمىر الإنسانىة المضلّلة ووجدان الملاىىن المعدّىن وىغمر العالم بنور جدىد هو نور الإسلام الذى حجبّه الإنسان الغربى وعملاؤه المثقّفون وبذلوا كل وسائلهم من الإحتلال العسكرى إلى

التشويه الثقافي والتحريف العقائدي في سبيل ابعاد العالم الإسلامي عن هذا النور لكي يضمّنوا لأنفسهم السيطرة عليه ويفرضوا عليه التبعية.

إن الإسلام الذي حجزه الإستعمار عسكرياً وسياسياً في قمم ليصبح العالم الإسلامي بما يشاء من ألوان قد انطلق من قممه في إيران فكان زلزالاً على الظالمين ومثلاً أعلى في بناء الشعب المجاهد والمضحي وسيفاً مسلماً على الطغاة ومصالح الإستعمار وقاعدة لبناء الأمة من جديد. ولم يبرهن الامام الخميني بإطلاقه للإسلام من القمم على قدرته الفائقة وبطولة الشعب الإيراني فحسب بل برهن أيضاً على ضخامة الجناية التي يمارسها كل من يساهم في حجز الإسلام في القمم وتجميد طاقاته الهائلة البناء وإبعادها عن مجال البناء الحضاري لهذه الأمة.

وهذا النور الجديد الذي قدر للشعب الإيراني أن يحمله إلى العالم سوف يعرّي أيضاً تلك الأنظمة التي حملت اسم الإسلام زوراً بنفس الدرجة التي يدين بها الأنظمة التي رفضت الإسلام.

وفيما يلي نستعرض عدداً من الأفكار الأساسية في مجال التمهد لمشروع دستور للجمهورية الإسلامية في ايران مستبطنين الحالة المعنوية للشعب الإيراني على ضوء تعاليم الإسلام. يؤمن الشعب الإيراني العظيم إيماناً مطلقاً بالإسلام بوصفه الشريعة التي يجب أن تقام على أساسها الحياة.

وبالمرجعية المجاهدة بوصفها الزعامة الرشيدة التي قادت هذا الشعب في أحلك ظروف المبارزة حتى حطم الطاغوت وحقق النصر.

وبالإنسان الإيراني وكرامته وحقه في الحرية والمساواة والمساهمة في بناء المجتمع.

وعلى أساس هذا الإيمان يقرّر الأمور التالية :

١- إن الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات جميعاً.

وهذه الحقيقة الكبرى تعتبر أعظم ثورة شنتها الأنبياء ومارسوها في معركتهم من أجل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان.

وتعني هذه الحقيقة أن الإنسان حرّ ولا سيادة لإنسان آخر أو لطبقة أو لأي

مجموعة بشرية عليه وإنما السيادة لله وحده، وبهذا يوضع حدّ نهائي لكل ألوان التحكّم وأشكال الإستغلال وسيطرة الإنسان على الإنسان.

وهذه السيادة لله تعالى التي دعا إليها الأنبياء تحت شعار (لا إله إلا الله) تختلف اختلافاً أساسياً عن الحقّ الإلهي الذي استغلّه الطغاة والملوك والجبابرة قروناً من الزمن للتحكّم والسيطرة على الآخرين فإنّ هؤلاء وضعوا السيادة إسمياً لله لكي يحتكروها واقعياً وينصبوا من أنفسهم خلفاء لله على الأرض.

وأما الأنبياء والسائرون في موكب التحرير الذي قاده هؤلاء الأنبياء والأمناء من خلفائهم وقواعدهم فقد آمنوا بهذه السيادة وحرّروا بها أنفسهم والإنسانية من ألوهية الإنسان بكل أشكالها المزوّرة على مرّ التاريخ لأنّهم أعطوا لهذه الحقيقة مدلولها الموضوعي المحدّد المتمثّل في الشريعة النازلة بالوحي من السماء فلم يعد بالإمكان أن تستغلّ لتكريس سلطة فرد أو عائلة أو طبقة بوصفها سلطة إلهية.

وما دام الله تعالى هو مصدر السلطات وكانت الشريعة هي التعبير الموضوعي المحدّد عن الله تعالى فمن الطبيعي أن تحدّد الطريقة التي تمارس بها هذه السلطات عن طريق الشريعة الإسلامية.

٢ - إنّ الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع بمعنى أنّها هي المصدر الذي يستمد منه الدستور وتشرّع على ضوءه القوانين في الجمهورية الإسلامية وذلك على النحو التالي:

أولاً - أنّ أحكام الشريعة الثابتة بوضوح فقهي مطلق تعتبر بقدر صلتها بالحياة الإجتماعية جزءاً ثابتاً في الدستور سواء نصّ عليه صريحاً في وثيقة الدستور أو لا.

ثانياً - أنّ أيّ موقف للشريعة يحتوي على أكثر من اجتهاد يعتبر نطاق البدائل المتعدّدة من الاجتهاد المشروع دستورياً ويظلّ اختبار البديل المعين من هذه البدائل موكولاً إلى السّلطة التشريعية التي تمارسها الأمة على ضوء المصلحة العامة.

ثالثاً - في حالات عدم وجود موقف حاسم للشريعة من تحريم أو إيجاب يكون للسّلطة التشريعية التي تمثّل الأمة أن تسنّ من القوانين ما تراه صالحاً على

أن لا يتعارض مع الدستور وتسمى مجالات هذه القوانين بمنطقة الفراغ وتشمل هذه المنطقة كل الحالات التي تركت الشريعة فيها للمكلف اختيار اتخاذ الموقف فان من حق السلطة التشريعية أن تفرض عليه موقفاً معيناً وفقاً لما تقدره من المصالح العامة على أن لا يتعارض مع الدستور.

٣ - أن السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية قد أسندت ممارستها إلى الأمة فالأمة هي صاحبة الحق في ممارسة هاتين السلطتين بالطريقة التي يعينها الدستور وهذا الحق حق استخلاف ورعاية مستمد من مصدر السلطات الحقيقي وهو الله تعالى. وبهذا ترتفع الأمة وهي تمارس السلطة إلى قمة شعورها بالمسؤولية لأنها تدرك بأنها تتصرف بوصفها خليفة الله في الأرض فحتى الأمة ليست هي صاحبة السلطان وإنما هي المسؤولة أمام الله سبحانه وتعالى عن حمل الأمانة وإدائها وإنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴿.

والأمة تحقق هذه الرعاية بالطرق التالية :

أولاً - يعود إلى الأمة انتخاب رئيس السلطة التنفيذية بعد أن يتم ترشيحه من المرجعية كما يأتي في الأمر الرابع ويتولى الرئيس المنتخب بعد ذلك بنفسه تكوين أعضاء حكومته.

ثانياً - ينبثق عن الأمة بالانتخاب المباشر مجلس وهو مجلس أهل الحل والعقد ويقوم هذا المجلس بالوظائف التالية: -

أولاً - إقرار أعضاء الحكومة التي يشكّلها رئيس السلطة التنفيذية لمساعدته في ممارسة السلطة.

ثانياً - تحديد أحد البدائل من الاجتهادات المشروعة.

ثالثاً - ملأ منطقة الفراغ بتشريعات قوانين مناسبة.

رابعاً - الإشراف على سير تطبيق الدستور والقوانين ومراقبة السلطة التنفيذية ومناقشتها.

٤ - أن المرجعية الرشيدة هي المعبر الشرعي عن الإسلام والمرجع هو

النائب العامّ عن الامام من الناحية الشرعية وعلى هذا الأساس يتولّى ما يلي:
 أولاً - إنّ المرجع هو الممثل الأعلى للدولة والقائد الأعلى للجيش.
 ثانياً - المرجع هو الذي يرشّح أو يمضي ترشيح الفرد أو الأفراد الذين يتقدّمون للفوز بمنصب رئاسة السلطة التنفيذية ويعتبر الترشيح من المرجع تأكيداً على إنسجام تولّي المرشّح للرئاسة مع الدستور وتوكيلاً له على تقدير فوزه في الانتخاب لإسباغ مزيد من القدسيّة والشرعية عليه كحاكم.

ثالثاً - على المرجعيّة تعيين الموقف الدستوري للشرعية الإسلاميّة.
 رابعاً - عليها البتّ في دستوريّة القوانين التي يعيّنّها مجلس أهل الحلّ والعقد لملأ منطقة الفراغ.

خامساً - إنشاء محكمة عليا للمحاسبة في كلّ مخالفة محتملة في المجالات السابقة.

سادساً - إنشاء ديوان المظالم في كل البلاد لدراسة لوائح الشكاوى والمتظلمين واجراء المناسب بشأنها.

ويقوم المرجع بتأليف مجلس يضمّ مائة من المثقّفين الروحانيين ويشتمل على عدد من أفاضل العلماء في الحوزة وعدد من أفاضل العلماء الوكلاء وعدد من أفاضل الخطباء والمؤلفين والمفكرين الإسلاميين على أن يضمّ المجلس ما لا يقل عن عشرة من المجتهدين وتمارس المرجعيّة أعمالها من خلال هذا المجلس.

والمرجعيّة حقيقة اجتماعيّة موضوعيّة في الأمة تقوم على أساس الموازين الشرعية العامّة وهي كتطبيق تتمثّل فعلاً في المرجع القائد للانقلاب الذي قاد الشعب قرابة عشرين عاماً وسارت الأمة كلّها خلفه حتّى حقّق النصر وأما كمقولة عليا للدولة الإسلامية على الخط الطويل فيجب أن يتوفّر في الشخص الذي يجسّد هذه المقولة:

أولاً - صفات المرجع الديني من الاجتهاد المطلق والعدالة.
 ثانياً - أن يكون خطّه الفكري من خلال مؤلفاته وأبحاثه واضحاً في الايمان بالدولة الإسلامية وضرورة حمايتها.

ثالثاً - أن تكون مرجعيته بالفعل في الأمة بالطرق الطبيعية المتبعة تاريخياً.
 رابعاً - أن يرشحه أكثرية أعضاء مجلس المرجعية ويؤيد الترشيح من قبل عدد كبير من العاملين في الحقوق الدينية - يحدّد دستورياً - كعلماء وطلبة في الحوزة وعلماء وكلاء وأئمة مساجد وخطباء ومؤلفين ومفكرين إسلاميين.
 وفي حالة تعدّد المرجعيّات المتكافئة من ناحية هذه الشروط يعود إلى الأمة أمر التعيين من خلال استفتاء شعبيّ عام.

٥ - إنّ الأمة كما تقدّم هي صاحبة الحق في الرعاية وحمل الأمانة وأفرادها جميعاً متساوون في هذا الحق أمام القانون ولكلّ منهم التعبير من خلال ممارسة هذا الحق عن آرائه وأفكاره وممارسة العمل السياسيّ بمختلف أشكاله كما أنّ لهم جميعاً ممارسة شعائرهم الدينية والمذهبية.

وتتهدّد الدولة بتوفير ذلك لغير المسلمين من مواطنيها الذين يؤمنون بالانتماء السياسي إليها والى إطارها العقائدي ولو كانوا ينتسبون دينياً إلى أديان أخرى.

٦ - للجمهورية الإسلامية الإيرانية أهداف تاريخية بحكم رسالتها ومسؤوليتها العظيمة وهي أهداف تقوم على أساسها خطوطها السياسية ومناهجها في مختلف المجالات ففي الداخل تستهدف :

أولاً - تطبيق الإسلام في مختلف مجالات الحياة.

ثانياً - تجسيد روح الإسلام بإقامة مبادئ الضمان الاجتماعي والتوازن الاجتماعي والقضاء على الفوارق بين الطبقات في المعيشة وتوفير حدّ أدنى كريم لكل مواطن وإعادة توزيع الثروة بالأساليب المشروعة وبالطريقة التي تحقّق هذه المبادئ الإسلامية للعدالة الاجتماعية.

ثالثاً - تثقيف المواطنين على الإسلام تثقيفاً واعياً وبناء الشخصية الإسلامية العقائدية في كلّ مواطن لتتكوّن القاعدة الفكرية الراسخة التي تمكّن الأمة من مواصلة حمايتها للثورة. وفي الخارج تستهدف الدولة:

أولاً - حمل نور الإسلام ومشعل هذه الرسالة العظيمة إلى العالم كلّ.

ثانياً - الوقوف إلى جانب الحقّ والعدل في القضايا الدولية وتقديم المثل

الأعلى للإسلام من خلال ذلك.

ثالثاً - مساعدة كلّ المستضعفين والمعدّيين في الأرض ومقاومة الإستعمار والظغيان وبخاصّة في العالم الإسلامي الذي تعتبر إيران جزءاً لا يتجزأ منه. إنّ دولة القرآن العظيمة لا تسند أهدافها لأنّ كلمات الله تعالى لا تنفذ والسير نحوه لا ينقطع والتحرّك في إتجاه المطلق لا يتوقّف.

وهذا هو سرّ الطاقة الهائلة في هذه الدولة وقدرتها على التطوّر والإبداع المستمرّ في مسيرة الإنسان نحو الله ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١).

وتستطيعون أن تستخلصوا على ضوء ما تقدّم أنّ الصورة التي أعطيناها تقوم على المبادئ التشريعيّة التالية في الفقه الإسلامي :-

- ١ - لا ولاية بالأصل إلّا لله تعالى.
 - ٢ - النيابة العامّة للمجتهد المطلق العادل الكفوء عن الإمام وفقاً لقول امام العصر عليه السلام (وامّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فإنّهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله) فإنّ هذا النص يدلّ على أنّهم المرجع في كل الحوادث الواقعيّة بالقدر الذي يتصل بضمان تطبيق الشريعة على الحياة لأنّ الرجوع إليهم بما هم رواة أحاديثهم وحملة الشريعة يعطيهم الولاية بمعنى القيمومة على تطبيق الشريعة وحقّ الاشراف الكامل من هذه الزاوية.
 - ٣ - الخلافة العامّة للأمة على أساس قاعدة الشورى التي تمنحها حقّ ممارسة أمورها بنفسها ضمن إطار الاشراف والرقابة الدستوريّة من نائب الامام.
 - ٤ - فكرة أهل الحل والعقد التي طبّقت في الحياة الإسلامية والتي تؤدّي بتطويرها على التحو الذي ينسجم مع قاعدة الشورى وقاعدة الاشراف الدستوري من نائب الإمام إلى افتراض مجلس يمثّل الأمة وينبثق عنها بالانتخاب.
- ويتاح لكم من خلال هذه الخطوط الموجزة أن تقارنوا في المجال الفقهي للقانون الدستوريّ بين المواقف الآتفة الذّكر ومواقف المذاهب الإجتماعية الأخرى

في أهمّ النقاط التي درسها القانون الدستوري الحديث.

فمن ناحية تكوّن الدولة ونشوتها تاريخياً ترفض إسلامياً نظرية القوّة والتغلّب ونظريّة التفويض الإلهي للجبارين ونظريّة العقد الاجتماعي ونظريّة تطوّر الدولة عن العائلة وتؤمن بأنّ الدّولة ظاهرة نبويّة وهي تصعيد للعمل النبوي بدأت في مرحلة معيّنة من حياة البشرية.

ومن ناحية وظيفة الدّولة نرفض إسلامياً المذهب الفردي أو مذهب عدم التدخّل المطلق (اصالة الفرد) والمذهب الاشتراكي أو اصالة المجتمع وتؤمن بأنّ وظيفتها تطبيق شريعة السّماء التي وازنت بين الفرد والمجتمع وحمت المجتمع لا بوصفه وجوداً هيغلياً^(١) مقابلاً للفرد، بل بقدر ما يعبر عن أفراد وما يضمّ من جماهير تتطلّب الحماية والرعاية.

ومن ناحية شكل الحكومة تعتبر الحكومة قانونيّة أي تتقيّد بالقانون على أروع وجه، لأنّ الشّريعة تسيطر على الحاكم والمحكومين على السّواء.

كما أنّ التّظرية الإسلامية ترفض الملكية أيّ النظام الملكي وترفض الحكومة الفردية بكل أشكالها وترفض الحكومة الارستقراطية وتطرح شكلاً للحكم يحتوي على كل النقاط الايجابية في النظام الديمقراطي مع فوارق تزيد الشكل موضوعيّة وضماناً لعدم الانحراف، فالأمة هي مصدر السيادة في النظام الديمقراطي وهي محط الخلافة ومحط المسؤولية أمام الله تعالى في النظام الاسلامي، والدستور كلّ من صنع الإنسان في النظام الديمقراطي ويمثّل على أفضل تقدير وفي لحظات مثالية تحكّم الأكتريّة في الأقلية، بينما تمثّل الأجزاء الثابتة من الدّستور شريعة الله تعالى وعدالته التي تضمن موضوعيّة الدستور وعدم تحييزه.

فالشّريعة الإسلاميّة التي وضعت مثلاً مبدأ الملكية العامّة وملكيّة الدولة إلى جانب الملكية الخاصّة لم تعبر بذلك عن نتاج صراع طبقي أو تقديم لصالح هذا الجزء من المجتمع على ذلك الجزء وأتما عبّرت عن موازين العدل والحقّ ولهذا سبقت بذلك تاريخياً كل المبرّرات المادّية أو الطبقيّة لظهور هذا اللون من التشريع.

١- نسبة إلى الفيلسوف الديالتيكي هيغل.

ومن ناحية تحديد العلاقات بين السلطات تقترب الدولة الإسلامية من النظام الرئاسي ولكن مع فوارق كبيرة عن الأنظمة الرئاسية في الدولة الرأسمالية الديمقراطية التي تقوم على أساس الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية. وكان التطبيق العملي للحياة الإسلامية دائماً يفترض الدولة ممثلة في رئيس يستمد شرعية تمثيلية من الدستور - النصّ الشرعي - أو من الأمة مباشرة - الانتخاب المباشر - أو منهما معاً.

ولا مجال في هذه العجالة للدخول في تفاصيل الفرق بين تنظيم السلطات وتحديد علاقاتها في الصورة الإسلامية المقترحة وتنظيمها وتحديد علاقاتها في النظريات والتطبيقات الأخرى.

هذه فكرة فقهية موجزة أيها العلماء الأعلام قد تفي باختصار في الجواب على سؤالكم الكريم وتكوين نظرة إجمالية عن فكرة الجمهورية الإسلامية التي طرحها الشعب الإيراني المسلم بقيادة الامام الخميني دام ظلّه ونحن نقدمها بوصفها مجرد اقتراحات نظرية قابلة للدرس والتطبيق وتلقي ضوءاً إسلامياً على الموقف. نسأل المولى سبحانه أن يحفظكم ويوقّقكم لخدمة الإسلام ورفع رايته والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النجف الأشرف محمد باقر الصدر

ربيع الأول / ١٣٩٩ هجري

هذا هو المنطق الإلهي الذي إنجزّ بشهادته الكريمة على أيدي الطغاة و الظلمة.

حجة الاسلام و المسلمين السيد حسن الشيرازي

شهيد الإسلام والثورة الاسلاميّة

هو العالم الجليل والكاتب المتفنّن حجة الاسلام و المسلمين السيد حسن بن المرحوم الفقيه الزاهد الورع آية الله العظمى المرجع الديني الكبير السيد ميرزا مهدي بن السيد حبيب الله الحسيني الشيرازي من أحفاد الثائر العظيم سيد شباب أهل الجنة الامام أبي عبدالله الحسين بن علي عليه السلام.

ولد في مدينة النجف الأشرف بالعراق عام ١٣٥٤ هـ. ق نشأ وترعرع في بيت القدس والتقوى والفضيلة وتربى تحت ظلّ والده الكريم، وفي مطلع حياته هاجر إلى كربلاء المقدّسة بصحبة والده الجليل وعاش بجوار مرقد جدّه العظيم الإمام الحسين بن علي عليه السلام مستلهماً منه روح الجهاد والكفاح ودروس الفضيلة والايمان.

دراسته

تلمذ على يد كبار العلماء والفقهاء وفي طليعتهم والده الكريم و أخيه الفقيه حتّى بلغ المرحلة العالية في الفقه والأصول والدّرجة العليا في العلم والاجتهاد والاستنباط.

درس العلوم الحديثية إلى جانب دراسته للعلوم الشرعية الدّينية، كما نبغ في المعارف الأخرى كالأدب والشعر والبلاغة.

جهاده

قضى حياته بالجهاد والنضال ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وعلى أثر ذلك قضى فترة غير قصيرة من حياته في السجون والمعتقلات ولاقى أشنع أنواع التعذيب الروحي والجسدي على يد جلاوزة البعث الملحد في العراق، كما قضى الفترة الأخيرة من حياته مشرّداً عن وطنه بعيداً من مسقط رأسه.

هجرته

هاجر إلى لبنان في ١٣٩٠ هـ واتّخذ منه قاعدة انطلاق لأعماله ونشاطاته الدّينية والسياسيّة، كما كانت له سفرات سابقة إليه.

مؤسّساته

أسّس بمكانته الاجتماعيّة والروحانيّة مجموعة كبيرة من المؤسّسات الخيريّة والدّينية والتربويّة والصّحيّة في كلّ من العراق وسوريا ولبنان وأوربا وأفريقيا، كما أسّس «مدرسة الامام المهدي (عج)» في بيروت، واستدعى أساتذة من العراق وايران لكي يقوموا بتدريس وتوجيه وتربية الجيل الصاعد، وكانت هذه المدرسة بمثابة النواة الأساسيّة لتأسيس حوزة علمية في لبنان.

وفي عام ١٣٩٣ هـ أسّس حوزة علمية زينيّة لطلبة العلوم الدّينية في دمشق بجوار الحرم المقدّس للسّيّدة زينب بنت الامام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد لاقى عليه السلام في سبيل توطيد هذه الحوزة العلميّة وتركيزها أنواعاً من المصاعب والمشاكل المرهقة وكان يتلقّاها بصدرٍ رحب وإيمان ثابت وعزمٍ راسخ وتحدٍّ مدهش، ولا تزال الحوزة العلميّة تواصل طريقها على نهج مؤسّسها الشهيد.

وفي عام ١٣٩٧ هـ أسّس مكتب «جماعة العلماء» في لبنان وترأسه بنفسه وكان هذا المكتب يقوم بمختلف النشاطات الدّينية من سياسيّة وثقافيّة وغيرها على السّاحة اللبنانيّة والعالميّة مستلهماً برنامجاً من الشهيد السعيد.



مواقفه السياسية

كان الشهيد الشيرازي يمارس نشاطاته السياسيّة إلى جانب مسؤوليّاته الدينيّة بصفته «رجل دين» باعتبار ان السياسة النقيّة المسؤولة جزء لا يتجزء من الإسلام.

فمثلاً قام بدور كبير في الدفاع عن الجنوب اللبناني وبذل جهوداً واسعة من أجل المحافظة على وحدة لبنان وعدم افساح المجال للأحزاب العميلة التي تسعى إلى تمزيقه وتجزئة أراضيه، كما دافع عن المحرومين والمضطهدين وساعد العوائل المشردّة من الجنوب وواساهم مادياً ومعنوياً ووضع بعض البرامج الدينيّة لتثقيفهم

وتسليحهم بسلاح العقيدة والدين صوناً لهم من الانحراف والضياع والعمالة للأجانب.

أعلن مراراً بأنه يشجّع حركات التحرّر الإسلاميّة ويؤيّدّها وأنّه يدعو إلى إسقاط حكومات العمالة وإقامة حكومات إسلاميّة عادلة.

حارب الاستعمار الصهيوني المتمثّل في حكومة إسرائيل الفاصبة بقلمه ولسانه، في شعره و نثره و بيانه وكان يدعو المسلمين إلى الاتّحاد والتّضامن من أجل تحرير القدس الإسلاميّة وفلسطين المسلمة من أيدي الاحتلال الصهيوني الحاقد على الإسلام والمسلمين، وكان يبتّ روح الرجاء والأمل في نفوس المسلمين ويعدّهم بالتّصرّ الأكيد على العدوّ الاسرائيلي. ومن ذلك قوله في إحدى قصائده الرائعة التي ألقيت في إحدى المهرجانات العامّة في العراق:

سَيُرْدُ القدس بالايمان والعزم المنيع

راية الإسلام تعلو في فلسطين الصريع

ونحبي أرض سينا بأزهار الربيع

سوف يقضي موكب النور على جيش الظلام

أمّة الإسلام سيرى دائماً نحو الامام

واجهدي للحقّ كيما تلبسي بُرْدَ الكرام

واحمل القرآن في كفّ، وفي الأخرى الحسام

كي تعيدي مجدك الغابر من أيدي اللئام

كما وقف موقف الرفض والاستنكار لمعاهدة الاستسلام الخائنة التي وقّعها

العميل الأمريكي في الشرق الأوسط «أنور السادات» مع زميله الحاقد مناخيم بيغن في كامب ديفيد وأصدر بياناً بشأن ذلك.

ساند المسلمين المضطّهدين في افغانستان في مقاومتهم للشيوعيّة الحاقدة

التمثّلة في الإتحاد السوفياتي المعتدي، وقد ساعد عليه الرحمة هذه المقاومة المسلمة مادياً ومعنوياً واعلامياً.

وكان ينتظر اليوم الذي ينتصر فيه الشعب الأفغاني المسلم على الغزو

السوفياتي الحاقِد ويَطرد القُرود السوفياتية والذئاب الشيوعية من الأراضي الإسلامية ويقيم الشعب بنفسه حكومته الإسلامية في أفغانستان.. وان النصر لقریب إن شاء الله .

مؤلفاته:

قام الشهيد الكبير بتأليف وكتابة مجموعة كبيرة من الكتب الإسلامية والعلمية والدينية والتوجيهية والأدبية، وتمتاز كتاباته بقوة التعبير وجمال الأسلوب وعمق المعنى وأهمية الموضوع، ومن أبرز مؤلفاته «موسوعة الكلمة» التي تشكّل من تسع عشر كلمة في تسعة عشر مجلداً، طبع منها:

- كلمة الله.
- كلمة الإسلام.
- كلمة الرسول الأعظم ﷺ.
- كلمة الامام الحسن عليه السلام.

هذا، وليست هذه الكلمات مجرد جمع أقوال وأحاديث أولئك العظماء من الأنبياء والأئمة عليهم السلام وغيرهم، بل تمتاز بأمرين:

الأول: ان السيد الشهيد كتب لكل كلمة تجهّزت للطبع مقدّمة رائعة تصلح أن تكون كتاباً مستقلاً وموضوعاً كاملاً لتلك الشخصية التي جمع كلماتها وأحاديثها.. وقد أسهب الله في الحديث عن الامام المهدي (عجل الله تعالى ظهوره) ما لم يسهب في الكلمات الأخرى، وذلك لما في موضع الامام الغائب من استراتيجية خاصة تستدعي الشرح والتفصيل..

الثاني: إنّ الشهيد السعيد وضع تنسيقاً بديعاً وترتيباً رائعاً للكلمات والأحاديث ممّا لم يسبق له نظير بهذه الصورة.

هذا وله رضوان الله تعالى عليه كتب وتأليفات أخرى في مواضيع مختلفة كتفسير القرآن الحكيم والاقتصاد الإسلامي والعمل الإسلامي والأدب الموجه والتوجيه الديني والشعائر الحسينية وإله الكون وحديث رمضان وغير ذلك، وقد

طبعت مجموعة كبيرة من كتبه وبقيت مجموعة أخرى تنتظر الظهور إلى عالم النور.

رحلاته

قام رحمته بعدة رحلات دينية وتبليغية إلى الفازة الافريقية والاوربية والكويت والبحرين وغيرها، وعين في بعض هذه البلاد علماء دين يقومون بنشر الإسلام وخدمة المسلمين.

قصائده وأشعاره

كان الشهيد العظيم رحمته إلى جانب علومه الدينية - أديباً بارعاً وشاعراً عملاقاً، يُجيد من الشعر صناعته بقسميه الحرّ والمقفى وينساب من فكره الثاقب على يراعه ما يبهر الألباب ويثير العواطف ويلهب النفوس...

وقد اشترك في الكثير من المهرجانات الدينية العظيمة التي تقام في العراق وخارجه بمناسبات دينية مختلفة، وتلقى فيها كلمات وقصائد رائعة حتى صارت حديث المجالس وفاكهة المحافل وقد جمعت قصائده في مجموعة دواوين متعدّدة وهي جاهزة للطبع ويتجاوز عددها العشرين ديواناً صغيراً وكبيراً.

تدريسه

بدأ رضوان الله تعالى عليه بتدريس المرحلة العليا في الفقه والأصول الشرعية بحث الخارج حسب الاصطلاح التدريسي على طلاب العلوم الدينية في الحوزة العلمية الزينية التي أسسها بنفسه.

شهادته

كان لآية الله الشهيد السيّد حسن الشيرازي نشاطات دينية وسياسية واسعة في كلّ من سوريا ولبنان، ولهذا كان رحمته يقضي بداية كل اسبوع - غالباً - في سوريا ونهايته في لبنان لكي يواصل نشاطاته في البلدين.

يوم الاغتيال

وفي يوم الاغتيال كانت الساعة تشير إلى السادسة من مساء يوم الجمعة ٢ / ٥ / ١٩٨٠م عندما غادر الفندق الذي يقيم فيه أثناء اقامته ببيروت قاصداً مدرسة الامام المهدي الدينية الواقعة في منطقة برج الراجنة للمشاركة في مجلس الفاتحة الذي أقامه سماحته بمناسبة شهادة آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر وشقيقته الكريمة على أيدي الحزب الوحشي الكافر والبعثي في العراق. إلا أنه قبل وصوله إلى مجلس الفاتحة نال الشهادة وحلقت روحه الطاهرة إلى جوار أجداده الطاهرين محمد وأهل بيته المعصومين عليهم السلام وقطعت إذاعة لبنان وسورية وبعض الاذاعات العربية الأخرى برامجها لتعلن فجأة نبأ اغتيال الشهيد السيد حسن الشيرازي في بيروت^(١).
عاش سعيداً ومات شهيداً رحمه الله تعالى.

١- بقلم السيد عبدالله الهاشمي من كتاب حضارة في رجل.

الحوزة العلمية بقم

و مدى تأثير طلابها على الجهاد والكفاح

كان للثورة الإسلامية المجيدة في ايران من العظمة والقوة والعمق ما جعلها فريدة في بابها، ولا يمكن أن يوجد لها نظير على مدى التاريخ الطويل على الرغم من كثرة النهضات والثورات العالمية فيه ويكمن السر في تفرد هذه الثورة بهذه العظمة في عاملين أساسيين:
الايمان والوحدة.

فالعامل الأول: هو قوة الايمان اللامتناهية .. الايمان بالله الذي لا إله إلا هو ..
الايمان بالخالق القديم الذي تجلّت عظمة إسمه قبل (١٥٠٠) عام في غار حراء لمحمد بن عبدالله ﷺ، وعند ذلك جعل ذلك النبي الأوحّد - الذي إنحدر من السلالة النبوية الإبراهيمية - هذا الاسم العظيم يدوي في شبه جزيرة العرب أولاً ثم في أنحاء العالم وكأفة نواحي حياة البشر، وكلّ وجود وكيان البشر. وبعد ١٥٠٠ عام. إنبعث هذا النداء الإلهي من جديد في زاوية من الدنيا إستمرّ فيها الإمامة و الولاية كسرّ من الأسرار، وشعّ نوره في أمة ووطنت نفسها وأعدّت قلبها لمقارعة الطواغيت والقضاء عليهم وإقتلاع جذور الظلم الذي أحاط بالتشيّع المجاهد، لا تشيّع البكاء والندب.

لقد ألتقّت قوة الايمان هذه، والتي كان يقودها عالم نوراني مجاهد ذكّر وحمل شعلة حكومة علي عليه السلام وشهادة الحسين عليه السلام وإمامة المهدي الموعود عليه السلام لجميع الأعصار والأمكنة .. ألتقّت قوة الايمان هذه التي إمتلكك كيان الشعب بحمم غضبها

على قصور الظلم والجور فلم تبق منها إلا هشيماً تذروه الرياح.
لقد كانت قوة الإيمان الإلهي هي التي أوجدت سيل الشعب الغاضب في جميع المدن والقرى، جميع الشوارع والأزقة، وسال في كل مكان كان فيه بشر ووجدت فيه البشرية والإنسانية .. ذلك السيل الشعبي الهادر الذي غمر التوحيد، القلوب فيه، وجرى التكبير على الألسن، وتقدّم إلى الميدان بأكف خالية لكن بقلوب ملؤها الإيمان، ليعت من جديد نداء الدّم وشهادة الحسين بن علي عليه السلام، وليثبت مرة أخرى بأنه حيثما صرخ الحق فإنّ الباطل سيخرس، وحيثما ساد الايمان فإنّ الدّم ستنصر على السيف.

أما العامل الثاني: فقد كان الوحدة العظيمة العجيبة التي إتسم بها هذا الشعب المسلم المجاهد الذي تلقى إرشادات قائده المؤكّدة على ضرورة إتّحاد جميع طبقات الشعب وأن يكونوا كرجل واحد ويسيروا في إتّجاه واحد، بكلّ كيان الشعب وأعماقه، وجد معنى الاتّحاد كما أراد الإمام القائد، ثمّ دخل حلبة الصراع بهذه الروح الوجدوية، فترى الجامعي إلى جانب طلبة العلوم الدينية، وهو إلى جنب العامل، والثلاثة إلى جنب الكاسب، والأربعة إلى جنب الفلاح، والجميع تحت لواء الإسلام العظيم، وفي ظل قيادة عالم واع مجاهد، فوقفوا بوجه المدفع والدبابة والسلاح الأبيض، وهتفوا بصوت واحد مطالبين بالاستقلال والحرّية والجمهورية الإسلامية.

ومع الاقرار بالدور الفعّال الذي لا يمكن إنكاره لجميع طبقات الشعب وجميع الفئات في إنجاح هذه الثورة وتحقيق الأهداف الإسلامية العظيمة، فيجب أن نبيّن بأنّ تخصيص هذا الفصل بتبيان دور العلماء المجاهدين في هذه الثورة العظمى لا يعني سلب دور الفئات الأخرى، وإنّما الهدف هو تبيان أحد أركان الثورة وإظهار الشخصيات المجاهدة البناءة التي يمكن أن تكون - بل ويجب - قدوة للآخرين في العمل على الرغم من الإعلام المضاد للآخرين الذين يريدون سلب هذا الحق المشروع عنهم، وتغطية أصالة جهادهم والتقليل من أهمّية دورهم ومساعدتهم. وفي الوقت نفسه فإنّ هذا الكتاب حينما يوضح ويفصل جهاد العلماء والدور البناء لهذا

الركن المهمّ من أركان الثورة، يسعى جهد الإمكان إلى التحدّث عن نشاطات الفئات الأخرى وتضحّياتها، والإطّلاع الكامل على محتوى الكتاب شاهد صدق على هذا المدّعى.

ومن جهة أخرى فإنّ عظمة الدور الذي قامت به الفئات الأخرى ومختلف طبقات الشّعب جعلت القلم عاجزاً عن بيانه، ولا تقوى المجلّدات من الكتب على وصفه وتبيان تلك التضحّيات الجسيمة والنشاطات العظيمة، وكلّ ما يطمح إليه هذا الكتاب هو محاولته محاولة متواضعة لتكريم وتعظيم الدور الفعّال للعلماء الأعلام، والتجليل لأرواح آلاف الشهداء والمعوّقين الأبطال، والابتهاال إلى الله تعالى أن يتغنّد برحمته وأرواحهم الطّاهرة، وطلب العزّة والرفعة للمجروحين والمعوّقين، وإتّاناً على يقين من أن الله تعالى مجيب لدعوات المظلومين المتعبين.

ومن العسير جدّاً أن يتحدّث إنسان في هذا الجهاد العقائدي الدّيني ويعطي البحث حقّه، وإنما يقدر على تبيان جانب ضئيل من جهاد العلماء ومساعدتهم، سواء كان ذلك في مجال مواجهة الظّلمة والطواغيت، أو على مستوى إيقاظ عامّة الشعب ودفعهم نحو التمرد على الطواغيت والثّورة ضدّهم.

والذين إطلّعوا على الأجزاء الأولى من هذا الكتاب يعلمون جيّداً أن هذا الكتاب قد تناول المسيرة التاريخيّة والطبيعية لجهاد العلماء منذ بداية حركة التبغ، وأنّه بحث في هذا الدور الواعي والبتّاء على مدى قرن كان وإستمرّ حتى توضيح ملامح العلماء المجاهدين المعاصرين وعكس بالخصوص الصورة الثوريّة لآية الله العظيم الإمام الخميني.

وبذلك فإنّ مطالعة الفصول المتتابعة لهذا الكتاب ستبيّن أنّ قيادة الثورة هذه وإرشاد الشعب وإيقاظه وإثارته ضدّ الطواغيت والجائرين لم تكن وليدة ساعتها أو أنها حصلت فجأة، وإنما كان لها جذورها الممتدّة إلى قرون - وخاصّة القرن الأخير - في تاريخ بلادنا، وإستمرّت حتى قطف الجيل المعاصر للشّعب الإيراني المسلم - في ثمره ذلك الجهاد وليذوق طعم إنتصار الثّورة الإسلاميّة المقدّسة في إيران والتي تعني إنتصار الحقّ على الباطل وإنتصار الإسلام كلّه على الكفر كلّه، وإقتلاع

جذور الطواغيت من هذه الأرض، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لإكمال هذه الخدمة المتواضعة، إنه سميع مجيب.

الثورة الأصيلة:

إن دور الزعماء الدينيين والقادة الواعين في النهضات والحركات التي قامت في القرن الأخير - سواء التي في إيران والشرق العربي الأوسط أو التي في أي نقاط العالم الأخرى - من الأمور التي لا تقبل الشك، وإن مجرد نظرة خاطفة على تاريخ هذه النهضات والحركات وحوادثها تكفي لايضاح كثير من النكات الخفية في هذا الباب.

وإلى جانب كل تلك النهضات والثورات الإسلامية الكثيرة التي قامت في القرن العشرين في أرجاء الشرق الأوسط وكافة بقاع العالم العربي، فإن أجيال آبائنا وجيلنا المعاصر، بل وحتى الشباب، في إيران قد شهدوا حركات إسلامية عظيمة إذا ما تغافلت عنها أقلام المؤرخين المأجورة وتجاهلها مؤرخو الظلمة وأعوان الباطل، فإن أثر هذه الثورات قد كتبت في تاريخ القلوب وأعماق أرواح الأجيال وخطت على صفحات القلوب الثائرة بقلم التضحية والثورة ومداد الدم الأحمر .. ذلك التاريخ الذي لن تأكل النار صفحاته، ولن يمحو السيل كلماته.

أما الثورة المعجزة التي أشعل فتيلها العلماء وقادها المجاهد الكبير ومؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران المرجع الاسلامي العظيم آية الله العظمى الإمام الخميني، والتي بذر بذورها في (١٥ خرداد سنة ١٣٤٢هـ ش) وسقيت شجرتها حتى آتت أكلها في (بهن سنة ١٣٥٧هـ ش) وألقت ظلالها واسعة على هذا البلد الإسلامي .. أما هذه الثورة فلها في القلوب والأرواح حكاية أخرى، ولها روايتها الخاصة في التاريخ الدامي ..

لقد كانت هذه الثورة الإسلامية الأخيرة إحدى أهم النهضات الإسلامية في العصر الأخير وأكثرها سعة حماسة ومعنوية .. هذه الثورة التي إستندت إلى عمود الدين الإلهي وإتخذت إيمان المسلمين محورها لها ولم ترتبط أدنى إرتباط بالشرق

أو الغرب، وقامت بذاتها معتمدة على نفسها وأرتوت من المبادئ والموازنين الإسلامية السامية، فتزوّدت من هذا المعين العظيم وقامت على محور أصالة الحركة الإسلامية، وكان الضامن لإنتصارها إتّحاد جميع المراجع المعاصرين ووقوفهم صفّاً واحداً، إضافةً إلى وعي فئات الشعب وطبقاته وأفراده، وإتّحاد كل من إنطوى قلبه على التوحيد ونظقت شفاهه بالتكبير.

والآن وفي هذه المرحلة الحساسة التي يئن فيها الشرق والغرب من جراحاتهم التي تلقّوها من ثورة الإسلام وبدأوا يكيّدون لنا المكائد ويحيكون ضدنا الدسائس، فإنّ الواجب يحتمّ علينا الدفاع عن مكتسبات ثورتنا وإنجازاتها من دون حاجة إلى نقاش وجدال، والأمر يتطلّب السعي الحثيث والجهود الجبّارة بل وحتى التضحية بالنفس من أجل الذود عن حياض هذه الثورة العظيمة ومن أجل الحفاظ على المسيرة التكامليّة لهذه الثورة الدامية وللحفاظ على حرمة دماء آلاف الشهداء الذين سقطوا مضرجين في سبيل تحقيق الأهداف الإنسانيّة والإسلاميّة، ولئلا تحجب شمس الإسلام الساطعة غيوم الكدر والجهل أو الخداع والخيانة التي يخطّط لها في أنحاء ايران ومن بعد في أنحاء العالم.

وفي هذا الخضم يعلم الواعون جيّداً، وعلى غيرهم أن يعلموا أيضاً، أنّ أهمّ وأقوى عامل في حفظ منجزات ثورتنا العظيمة هو الإلتفات الإيماني إلى دور القيادة ورعاية حرمتها وعظمتها. ومن المسلّم أنّه لا يمكن إنكار أنّ قيام الثورة وإستمرارها حتّى النصر النهائي كان نتيجةً للدور الفعّال الذي أدّاه جميع أفراد الشعب بمختلف طبقاته وفئاته، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، وأنّ هذه الشجرة التي نشرت ظلّالها الواسعة لم ترو إلا من دمائهم الزكيّة، لكن من الذي لا يعلم، أو يعلم وينكر، أنّ الحزم العلوي ووضع الروح على الأكفّ كما هو شأن الروح الحسينية، والمكانة المتميّزة للقيادة لم تسرّع في أحداث الثورة وحسب، وإنما كانت الركن الحصين والمحور الأساس الذي لا يعرف الهزيمة ومنها إستمدّت الثورة صمودها وشموخها.

إنّ تاريخ العالم يبيّن أنّ أساس قيام الثورات في العالم هو تغيير الأنظمة

الحاكمة، وفي جميع الدول التي مرّت بهذه المرحلة، وربما قدمت الملايين أو مئات الآلاف من الشهداء والضحايا، فإنّ الثورة إمّا أن تهزم في بداية الطريق أو في وسطه، أو أن تمرّ السنين المتطاولة ولم تصل إلى المرحلة التي تستقرّ فيها الحكومة الثوريّة على ما ينبغي أن تكون عليه. إنّ التاريخ يتحدّث عن ثورات مرّت عليها عشرون سنة بل وربما نصف قرن وهي لا تزال عرضة للاضطرابات والأحداث التي تهدّد كيانها كلّ يوم ولحظة.

أمّا الثورة الإسلاميّة في إيران فلا اضطرابات تهدّدها، ولا تهزم في بداية الطريق ونهايته وإذا ما ظهرت أحياناً بعض المشاكل فإنّها سرعان ما تمرّ ولن تبق حجرة أمام مسيرة الثورة، ولا يتصور لها إمكانيّة البقاء والإستمرار، ولم يكن كلّ ذلك إلا ببركة قوّة العلماء الواعين المجاهدين ونفوذ كلمتهم ووقوف الشعب بجميع طبقاته موقف الإتحاد إلى جانب زعيمه الكبير الذي كان يلقي بظلاله عليهم ويمنحهم الهدوء والطمأنينة من جهة ويبيّث فيهم روح الجّد والمثابرة من جهة أخرى، وقد عبّأ الشعب كلّ قواه وسار خلف إمامه ليحطّم الحكومة الطاغوتيّة المتجيرة وليركعها أمام إرادته من دون إتلاف شيء من الوقت أو القوّة.

في هذه البرهة من الزمن، وفي هذا الوضع التاريخي المصيري، فإنّ الضرورة تحتمّ التوجّه إلى إرشادات القائد والإيمان بها، والأخذ بنظر الاعتبار جهود القيادة ومساعدتها الجبارة المتواصلة من أجل الحفاظ على منجزات ثورتنا ومبادئها.

وكذلك فإنّ تبيان هذا الظرف الحساس، وبملاحظة جذور الحوادث والوقائع التاريخيّة وعللها، قد دفعنا إلى ترتيب قسم آخر يهدف إلى تبيان هذه النكات بحسب الطّاقة والقدرة، وجعلتنا الثورة نشعر بضرورة ذلك.

وهكذا كان الأمر، فإنّنا في هذا الأثر الحقيقي - التاريخي، قد أخذنا بنظر الاعتبار نهضات المائة سنة الأخيرة وإعتبرنا نهضة تحريم التبغ وإلغاء إمتياز تالوت، نقطة إنطلاق الثورات والحركات الإسلاميّة بقيادة العلماء الأحرار، وقسمنا مسيرتها التكامليّة إلى مراحل كان أفضل تقسيم لها هو جعلها في ستة أدوار تاريخية متميزة، وقد أظهر البحث في جزئيات هذه الأدوار تأليف أجزاء أخرى من

كتاب مائة سنة من جهاد العلماء الأحرار كضرورة تأريخية حساسة.
والمراحل الستة للحركات الإسلامية في المائة سنة الأخيرة هي بهذا
الترتيب.

١ - نهضة تحريم التبغ وإلغاء إمتياز التبغ والتي إستمرت حتى بداية حركة
الدستور.

٢ - ثورة الدستور.

٣ - الفترة بين ثورة الدستور إلى إنقلاب عام ١٢٩٩هـ ش.

٤ - مرحلة حكم رضا خان وجهاد العلماء وكان أهمّ الأدوار ما لعبه السيّد
حسن المدرّس.

٥ - الفترة منذ سقوط رضا خان حتى إنقلاب ٢٨ مرداد سنة ١٣٣٢هـ ش.

٦ - الفترة منذ إنقلاب ٢٨ مرداد حتى ثورة الإمام الخميني وقيام الثورة
الإسلامية الكبرى في ايران.

ملجأ الشعب المظلوم

بالرغم من إن دور العلماء والمرجعية كان حاسماً ومؤثراً على مدى هذه
المراحل الستة، إلا أنه كما يظهر إيجابياً حازماً أحياناً فإنه بدأ سلبياً في بعض
الأحيان وذلك لأنّ العلماء كانوا فيها عرضة للتغييرات نتيجة لضغوط العوامل
الداخلية والخارجية ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جوانب من كلا الدورين.

لقد كانت المرجعية وعلماء الشيعة أعظم حصن يلجأ إليه المضطهدون
والمستضعفين من الناس طوال تاريخ التشيع، وحينما ضاقت نفوس الناس وقرّروا
الثورة ضدّ الجائرين والطواغيت فإنهم كانوا يلتجؤون إلى المراجع والعلماء من دون
أدنى تردد أو شك، وذلك لأنهم يعتبرونهم حصنهم وملجأهم وحاملي ألوية الثورات
والحركات المناهضة للظلم والجور.

ويطالعنا التحقيق في التاريخ الاسلامي على حقائق هامة في هذا الباب، غير
أنّ المرور السريع والنظرة العابرة على النهضات المعاصرة في ايران توضح بصورة

أجلنى المقام الرفيع والتاريخي الهامّ للرجعيّة والآثار التي تركتها قيادة العلماء، وتوقفنا على الجذور الشعبية والإلهيّة للرجعية في أوساط الشعب بحيث تغنينا عن الخوض في التفاصيل.

منطلق الثورات المنظّمة:

ولا نكون مبالغين إذا قلنا أنّ الحركات والنهضات المنظّمة والمؤثّرة وأسس الثّورة الإسلاميّة الواسعة في بلادنا قد بدأت طريقها الحقيقي منذ تأسيس الحوزة العلميّة في قم.

ومثلاً لا شكّ فيه، وهو أمر يقضي به الذين يحكمون على الوقائع التاريخيّة بإنصاف، أنّ العلماء قد أصبحوا المحور وقطب الرّحى للجهد المتواصل والمطالبة بالحقّ وبدأوا طريقهم المضيء والجهد ضدّ الظلم والجور منذ أن ظهرت الحوزة العلميّة في قم كقاعدة إسلامية وإنسانيّة يلجأ إليها الشعب المظلوم، وإليه شخصت أبصار في هذا الجزء من كتاب كفاح علماء الإسلام نشاطات وجهود هذا المعقل الإنساني الذي يرّبي أبناء الانسانية ويطمح إلى إقامة العدل.

ومع أننا سوف لن نجانب الانصاف في هذا المسير، وسنذكر عدداً ممّن تربّوا في أحضان الحوزات العلميّة الأخرى، فإنّهم جميعاً نجوم تأخذ نورها من شمس واحدة ويرجعون جميعاً إلى مصدر واحد، غير أن المصادر والمراجع تحكم بأنّ نقض لحظات أكثر مع تلاميذ المدرسة التهذيبية للحوزة العلميّة في قم ونحن نسير في هذا السبيل.

ضرورة الاهتمام بهذه المسائل

مع أنّ التعرف على حياة العلماء الأحرار الواعين المجاهدين، وتحليل أساليب جهاد أبطال الفضل والجهاد هؤلاء يستطيع - بل ويجب - أن يهيء موضوعاً لتحقيقات جامعة منيرة، غير أنّ النكتة الجديرة بالذكر هنا هي أنّ تبيان حال هؤلاء العلماء المجاهدين وترجمة حياتهم وذكر جهاد رجال العلم والتقوى

وقدوة المجاهدين في سبيل الحرية والفضائل الانسانية لم يسطر في كتاب كما يليق بهم وبشأنهم الشامخ، ولم يكن ذلك إلا نتيجة للضغوط السياسية والارهاب الداخلي والخارجي والذي أدى إلى أن تودع الخدمات الجليلة والمسعى والنشاطات العظيمة التي قامت بها هذه الطبقة المهمة من المجتمع في بوتقة التسيان أو الإجمال والاقتراب، وذلك لأن السياسات الاستعمارية كانت تهدف إلى أن تبقى مسالك حياة أعظم الدين والمجتمع هؤلاء خافية على جيل الشباب، لتربي الشباب جيلاً بعد جيل على أن العلماء لا يصدر عنهم إلا الخضوع والعجز والضعف، ولا يعرفون إلا الدعاء والمناجاة والبكاء.

لكن الثورة الإسلامية العظيمة في ايران قد أبطلت هذا التصور الباطل، وقلبت معايير التقييم وأسس المعرفة، فقد أزاحت الستار وكشفت حقائق هذه الأنفس النورانية، فرأى جيل الشباب فجأة أن العلماء الحازمين المجاهدين وذوي الأوجه الإلهية النورانية والمراجع العظام والمجاهدين في سبيل الله من أجل دين الله والحرية والشرف الانساني يتقدمون صفوف الثائرين، وقد حيروا الدنيا بجهادهم وإستعدادهم للشهادة، كما أن دفعة قيادة هذه الثورة وجموع المتسابقين إلى الشهادة كانت بيد كفاءة لمجتهد عظيم ومرجع رباني وزعيم كبير هو آية الله العظمى الإمام الخميني الذي قاد الثورة الإسلامية العظمى لشعب ايران المستضعف وفق الأساليب والأفكار الإسلامية الأصيلة و بعد في يد خلفه الصالح المكافح سماحة آية الله السيد على الخامنهئي حفظه الله ورعا.

وهكذا تبدلت المعايير والموازين اليوم، وتغيرت الصورة في أذهان الشعب الايراني المظلوم وخاصة جيل الشباب عن العلم والعلماء، وبذلك رغب في معرفة الدور الحقيقي لهم، ومن هنا أصبح البحث والتحليل في خدمات العلماء الأحرار المجاهدين، المناضلين ضرورة ملحة أكثر من أي وقت مضى.

وقد قام الأجزاء الأول من هذا الكتاب بهذه المهمة بمقدار إستطاعة الكاتب وطول إنارة القارئ، وقد فصل القول في المرحلة منذ ثورة تحريم التبغ حتى مراحلها الأخيرة وهي بداية الثورة الإسلامية الكبرى في ايران، ولكن لما كان

الفحص والبحث الدقيق في ثورتنا الإسلاميّة الكبرى بحاجة إلى فرصة أكبر ومجال أوسع فأننا قد أجملنا الكلام حول جزئيات هذه المسألة في نهاية القسم السابق، وها نحن قد سنحت لنا فرصة التفصيل في الكلام فشمّرنا عن ساعد الجدّ لتناول جهاد العلماء المجاهدين الواعين المعاصرين ومن خلال ذلك سنتعرف على جذور الثورة الإسلاميّة العظيمة في إيران.

حراسة المذهب التربوي وتجديده

رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحقّ يجتمع معه قوم كزبر الحديد لا تزلهج الرياح العواصف ولا يملّون من الحرب ولا يجنبون وعلى الله يتوكلون والعاقبة للمتقين.

الإمام الكاظم عليه السلام

إنّ الله احتجّ ببلدة قم على سائر البلاد، وبأهلها على جميع أهل المشرق والمغرب، وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجّة على الخلائق وذلك في زمان غيبة قائمنا (عجل الله فرجه).

ستخلوا الكوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تأزر الحيّة في حجرها ثم يظهر العلم ببلدة يقال لها «قم» وتصير معدّة للعلم والفضل^(١).

الإمام الصادق عليه السلام

إنّ هذين الحديثين - خاصّة وإنهما جاءا كتنبؤ عجيب في وضوحه، ووردا عن شخصيّتين الهيئتين شامختين وإمامين معصومين من أئمة الشيعة وهما الإمام السادس والإمام السابع - مسكّن للقلب وحياة للروح بالنسبة للمؤمنين وحيرة وشكّ للمكذّبين والمشكّكين، فإنّ الإمام السادس وهو مؤسس مذهب التشيع وزعيم المذهب الجعفري - وإبنه السابع قد تحدّثا قبل ما يقرب الألف وثلاثمئة عام عن مكانة قم الحالية، وبصيغة لا يعترها أدنى شكّ أو تردّد، وبشرا سكاّن الأرض بقيام رجل من الدّار الإسلامي بقم.

واليوم حيث يقف الإسلام كلّه في مقابل الكفر كلّه في حرب غير متكافئة فإنّ الجميع يرون بوضوح ويستبشرون بتحقيق تلك البشريّ الملكوتية وذلك الوعد السماوي، فإنّ مدينة قم لم تعدّ مقرّ الثورة الأصيلة للشعب الايراني ومصدر قوّة الدين والعلم والأفكار الخلاقة وحسب وإنما أصبحت منطلقاً لمكافحة الجهل والفساد، وقلعة للشرف والفضيلة ومحوراً لجميع الحركات البشرية والإسلامية.

إنّ الإسلام يرى اليوم، وتدب فيه روح جديدة بهذه الرؤيا كما يرى الكفر فيضطرب لها، أن ألفاً ثلاثمائة عام تمرّ على تلك البشريّ الملكوتية فينهض عالم متأله عظيم كآية الله العظمى الامام الخميني، وكما قال الامام السادس عليه السلام فإنّه دعا الناس إلى الحق والحريّة وأجاباه الناس بعزم راسخ.

إنّ العالم بأسره يرى اليوم أنّ نداء المطالبة بالحقّ الذي أطلقه هذا العالم العظيم قد دوّى في أرجاء المعمورة، وبعث الحياة والحماس في جميع مسلمي العالم، بل وجميع المستضعفين من غير المسلمين في دنيانا المليئة بالظلم والجور، وكما قال ذلك الامامان الهمامان عليهما السلام فإنّ مدينة قم لم تعدّ مناراً للشعب الايراني وحسب، وإنما أصبحت محطّ أنظار وآمال جميع المسلمين والمستضعفين في العالم.

وفي هذه البرهة الزمينة نلقي نظرة خاطفة على مدينة قم، هذه المدينة المباركة التي أضحت مركزاً للأفكار الانسانية السامية والحركات الإسلامية، وقد بلغت مكانتها اللاتقة بها بوجود المرقد الطاهر لشخصية إسلامية نبوية، تلك هي السيّدة الجليلة الطاهرة المعدن، والعالمة الفاضلة فاطمة المعصومة عليها السلام بنت الامام موسى بن جعفر عليهما السلام والتي أضفت على المدينة شرفاً وفضيلة، ومنذ ذلك التاريخ بدأت قم، تلك المدينة الصغيرة، مرحلة جديدة وتاريخاً بنّاءً.

إنّ بركة وجود تلك السيّدة الجليلة قد جعلت من قم ملجأً آمن لشيعه أهل البيت عليهم السلام ومركزاً إليه إهتمام الشخصيات الإسلامية اللامعة، ومنذ ذلك التاريخ أهوت إلى هذه البقعة أفئدة علماء الإسلام والمهتمين بشؤون الإسلام وعشاق عتره نبيّ الإسلام وعليّ عليه السلام وبذلك فقد ألقوا رحالهم في جوار قبر هذه السيّدة الكريمة،

وشيئاً فشيئاً نشأت في قم حوزات علمية مهمة لفتت الأنظار قامت بنشر الأفكار الإسلامية في مدينة قم المقدسة، وشكلت في مركز هذه المدينة حوزات علمية لها شأنها ومكانتها، وتزداد مكانتها وأهميتها يوماً بعد آخر، وخرجت من أحضانها المحدثين والفقهاء والمتكلمين والعلماء وخدمة العلم والمعنويات، والمراجع العظام وفضاحل العلماء الذين احتل كل منهم مكانه اللائق به في تاريخ الجهاد الفكري الاسلامي.

وقد أصبحت الحوزة العلمية في قم - والتي تأسست على ما هي اليوم عليه - على يد العالم الرياني آية الله العظمى المرجوم الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي - في الثمانين سنة الأخيرة أكثر المؤسسات الفكرية والعلمية في ايران والعالم الاسلامي تأثيراً وفعالية وقوة.

ومن هنا، ومع الالتفات إلى المسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتق الحوزة العلمية في قم خلال تاريخ الجهاد السياسي والاجتماعي والاسلامي في الستين سنة الأخيرة في ايران وجميع البلدان الإسلامية في العالم، فقد عزمنا أن نتناول في هذا القسم من كتابنا التاريخ العلمي بالتمرجات والمنعطفات لجهاد طلائع الحوزة العلمية في قم وأعاضها، فلمل هذا البحث والتحقيق سيوضح كثيراً من المسائل التي بقيت مبهمه ومجهولة بالنسبة للمؤرخين ورواد الجهاد في مجتمعنا، ويمكن لهذا التحقيق المتواضع أن يكون أساساً لتحقيقات أخرى تبنى عليه، فهو يبين بنفسه كيف أن الشعوب الإسلامية استطاعت باستنادها إلى الموازين الإسلامية العالمية الشاملة أن تحطم الفراعنة وتقضي عليهم في هذا العالم المتلاطم المليء بالنكبات والكوارث.

المنشور الانساني والثوري للحوزة العلمية بقم

لقد عبر آية الله الطالقاني - وهو من إحدى خريجي الحوزة وأحد نماذج الجهاد والتقوى والفضيلة الاجتماعية، والذي فكّر وجاهد من أجل الإسلام والانسان والشرف والكيان الإنساني حتى آخر لحظات عمره المبارك، وقد كانت

وفاته أيضاً سبباً لإتحاد القلوب وقد جلس جميع الشعب الإيراني للغزاء يوم وفاته وبكاه - تعبيراً جميلاً وعميقاً عن قم ..

وهنا نحن نعوص في أعماقنا لحظة ونتخلى بأنفسنا لنسمع دفء صوته وكلامه المثير حيث يقول:

«مدينة قم مدينة الثورة الإسلامية والإنسانية الأصيلة .. مدينة مذهب أهل البيت عليهم السلام .. المدينة التي كانت منطلق التحوّلات والتطوّرات التي حدثت في بقية مدن إيران. قم المهدي الذي ربّى أمثال الصدوق من المحدثين، وربّى العلماء والفلاسفة أمثال الملا صدرا والحائري حتى تصل النوبة إلى ثورة الشيخ محمد تقي اليزدي، أبي ذر زمانه ..

إنّ هذا الباب والجدار، وهذا الصحن الثّاني يمثّل ذكرياتي لخمسين سنة، وهي الآن توقظني .. فهي تعتصر قلبي وترتل في أذني نداء الغيب، فأنتم لا تعلمون كم أستلهم من باب قم وجدارها.

أصغوا إلى صرخة اعتراض ودوّي عظيم، وأنظروا الشيخ محمد تقي اليزدي - الباقي - داخل هذا الصحن.

داخل هذا الصحن تدوّي في أعماقي أصوات سياط الموت التي أهوى بها رضا خان، وعندما هجم أزلامه وجنوده بالمدافع والدبّابات على المرقد الطاهر حوصرنا بينهم، فضربونا، وطعنا، لكن صمدنا وجاهدنا».

حقّاً، ماذا كان يريد رضا خان أن يقول؟

يقول آية الله الطالقاني في بقية حديثه:

«بعد سنة أُطلق سراح هذا الشيخ الكبير أبي ذر زمانه .. هذا الإنسان الذي كان قوته الخبز اليابس، ونفي إلى مزار السيّد عبدالعظيم، فذهبت للقاءه، فأراني ساعديه، وكانت آثار السياط لا تزال عليها».

نعم، هكذا كان آية الله الطالقاني يتحدّث عن مدينة قم، وعن الرجال المجاهدون الذين رفعوا راية الجهاد، وبهذا الثناء كان يذكرهم.

والآن نريد التحدّث عن المدينة التي سمّاها آية الله الطالقاني بمدينة الثورة الإسلامية والانسانية الأصيلة، وعن حوزتها العلمية التي أضاءت آفاق الأمل في أعين الشعب الإيراني المضطهد في الفترة المظلمة لحكومة البهلوية.

كما قلنا، فإنّ روحاً جديدة دبت في الحوزة العلمية بقم منذ أن هاجر إليها آية الله العظمى الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري، ومنذ ذلك الحين بدأت عصرها الذهبي الذي تعيشه اليوم.

لقد كان وجود ذلك العالم الجليل مصباح محفل رجال العلم، والتقوى والفضيلة، والشعلة التي جمعت حولها أرباب الفضل والعلم. وقد ربّى ذلك المتأله، رجل العلم والجهاد، في مدرسته التربوية، الكثير من الفضلاء وأصحاب الكمال الذين وقفوا إلى جانب شيخهم في تلك الأيام السوداء التي أعلن فيها العداء ضدّ الإسلام والعلم والفكر .. تلك الأيام التي كان يسعى فيها رضا خان وأزلامه ومن سار في ركابه من عملاء الأجانب إلى سحق كل ما يمت إلى الدين والشرف الانساني بصلّة بأقدامهم .. في تلك الأيام وقف الشيخ وتلاميذه بكلّ جلاله وهيبته وعظمة يتحدّون الطغاة، وكان صفّ طلابه ستمائة رجل علم فاضل مجاهد وقف في وجه مؤامرات المستعمرين وظلم حكومة رضا خان وجورها، ولم يسبعوا دينهم بدنياهم.

ومع أنّهم جميعاً جديرون بكلّ إحترام وتقدير، لكن برز من بينهم رجال أعظم: كزعيم الثورة الإسلامية في ايران وبقية مراجع التقليد العظماء الذين يعدّون من المفاهير العالية للحوزة .. لقد هبّ هؤلاء وبقية الأساتذة وأساطين الفقه والفقاهة، والذين كان كل واحد منهم - ولا يزالون نبراساً للمجامع الإسلامية، وذلك لأنّ آية الله العظمى الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري كان قد جمع حوله في ذلك الزمان جميع عمالقة الفكر والمذهب والمبدعين فيه، وجعل من مدينة قم مركزاً لنشر الأفكار الإسلامية في جميع أنحاء ايران.

وفي الحقيقة فإنّ مدينة قم قد برزت كركيزة علمية وروحية للعالم الاسلامي، وطلّاب العلوم الإسلامية ورواد الفضيلة ومقرّ لمراجع الدين والقادة العلماء من يوم

أقام فيها الشيخ الحائري، وأصبحت الحصن الذي ورث النشاط والبحث من المدرسة العلوية، وورث الثبات والغور والتفحص والدقة في المسائل الإسلامية من الفقه الجعفري الجامع الغني.

هدف الحوزة العلمية

لقد إنصبَّ الهدف الأساسي والمخطَّط الرئيسي لهذه الحوزة العلمية التي عرفت بأنَّها معقل رجال العلم والجهاد، ومركز لإرشاد عالم التشيع، لأوَّل وهلة على الحفاظ على أصالة العلوم الإسلامية ومبادئها وتطوير المقاصد العلميَّة وإرشاد النَّاس وتعليمهم المسائل الإسلامية وإنارة أذهانهم وتوجيه أفكار المسلمين الوجهة الصحيحة في الحياة الاجتماعية والسياسية.

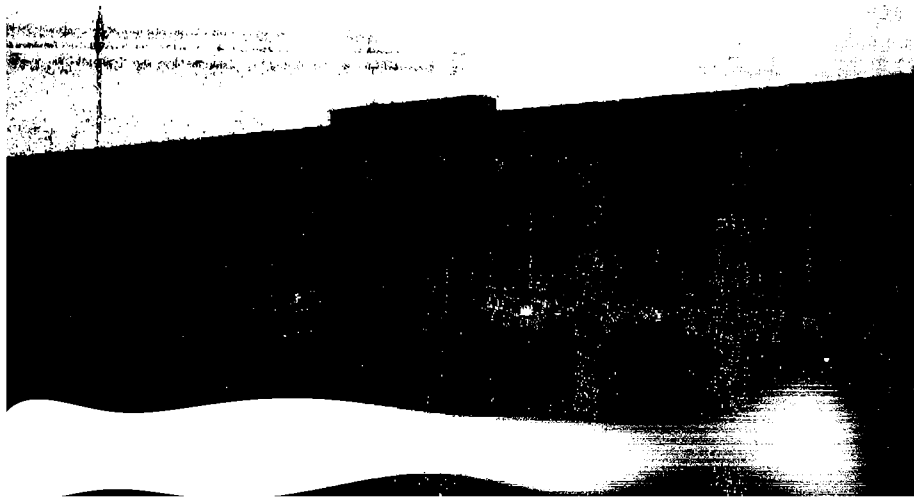
وإنطلاقاً من هذه الاطروحة فقد إتَّخذت المنهجية الرامية إلى تربية جنود العلم والحرية، وجيش التقوى والفضيلة في أجواء ذلك المهد الطاهر، وتخريج أفراد ذوي إختصاصات مختلفة من محقق ومؤرخ ومفسر ومحدِّث ومتكلّم وخطيب ومبلِّغ وفيلسوف و كاتب وكلَّهم مسلَّحون بسلاح العلوم الدينية لذلك المذهب السامي، لينتشروا بعد ذلك في أنحاء البلاد وليدافعوا عن المبادئ والحقائق الإسلامية.

إنَّ الحوزة العلميَّة بقم والتي لها إهتمامها الخاصَّ بالمتطلَّبات الإجماعية والاحتياجات الروحية للناس، وقد خطَّت إلى الآن خطوات مؤثِّرة في تربية الوعاظ والخطباء الدينيين والكتاب والمحقِّقين والواعين المطلَّعين - تمرُّ اليوم بأفضل مراحل حياتها وعطائها، وقد تولَّى برامجها الادارية والعلمية المراجع العظام الذين يبذلون قصارى جهدهم وكدهم من أجل تطوير برامج ذلك المذهب الذي يهدف إلى تهذيب الإنسان وتركيته.

وقد إستطاعت قم أن تظهر ماهيتها التاريخية والإسلامية والانسانية، حينما ظهر رضا خان على المسرح السياسي في ايران، وكان ذلك عندما تقلَّد آية الله الحائري الرجل المتألَّه، ورجل الأفكار المبدعة، وصاحب المدرسة الفكرية

والعقائدية التهذيبية، مقاليد المرجعية في عالم التشيع، وكان يقوم بمهامه العلمية والدينية في مجال زعامة الشيعة في العالم.

وتألفت الحوزة العلمية بقم في تلك الفترة وأعطت ثماراً يانعة، حتى عدت مضاهية للحوزات العلمية التي تولّاها الوحيد البهبهاني والشيخ الأنصاري، والميرزا الشيرازي، والآخوند الملام محمد كاظم الخراساني، وأستاذ المعاصرين ضياء الدين العراقي قدس الله أسرارهم، وذلك لأنّ رجالاً أعظم قد تخرّجوا على أيدي أولئك المتألهين، وكان كل منهم يشكّل منعطفاً في التاريخ وصاحب مدرسة فكرية وعقائدية عظيمة. ومجرد ذكر بعض أولئك العظماء يكفي في تبيان قيمة المدرسة التهذيبية والمقام العلمي الرفيع لذلك الرجل الملكوتي والشخصية الإسلامية البارزة:



آية الله العظمى الشيخ عبدالكريم الحائري

(المتوفى ١٣٥٥ هـ ق)

ولد مؤسس الحوز العلمية في قم المرحوم آية الله الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي سنة ١٢٧٦ هـ. ق في قرية مهرجرد بيزد.

وفي سنة ١٣١٦ هـ قصد أراك مليياً دعوة علمائها وأكابرها، وبقي فيها سنين، ثم شد الرحال إلى قم حيث استقرّ فيها حتى آخر عمره، وقد وضع الحجر الأساس للحوزة العلمية إلى جوار فاطمة المعصومة عليها السلام بعزم راسخ وإرادة حديدية، واستطاع أن يلفت أنظار جميع المحافل العلمية في العالم نحو هذا النبع الجديد في مدة قصيرة نتيجة الجهود الجبارة والمتواصلة التي بذلها في هذا السبيل.

وفي الحقيقة يمكن القول بأن إقامة آية الله الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي في مدينة قم وهمته العالية وعزمه وجهاده، من أجل تأسيس الحوزة العلمية فيها تعتبر فصلاً جديداً في مجال نشر الثقافة الإسلامية لهذه المدينة في عالم التشيع. وبهذا فإن مدينة قم التي كانت محط أنظار الأئمة وأعمدة التشيع منذ صدر الإسلام قد أضافت صفحة مشرقة أخرى إلى صفحات تاريخها المجيد حينما نشأت فيها الحوزة العلمية. وعندما التحق آية الله البروجردي بحوزة قم تمكنت أن تكون المحور الأساس لجميع الحوزات العلمية الإسلامية في العالم الشيعي.

ومع أننا لم نقصد هنا، وفي كافة صفحات هذا الكتاب إلى تفصيل جزئيات حياة هؤلاء الأعاظم وما جرى فيها يومياً، بل ولا سنوياً، وإنما سينصب إهتمامنا على نمط حياة هؤلاء المتألهين، وتأثير أفكارهم في تحقيق أهداف الإسلام ودور

النهضات والحركات الإسلاميّة، لكن لما كانت الحوزة العلميّة بقم تستقطب إهتمام النَّاس بصورتها الحاليّة اليوم فإننا نشير إلى بعض النقاط في هذا الباب من قبيل ذكر التّواريخ وأسماء الأفراد والأمكنة، كما أنّنا سنذكر مسيرة حياة آية الله الحائري منذ البداية وحتى تأسيس حوزة قم العلميّة، ومن التأسيس حتى وفاته نكتة فأخرى وليس جزءاً فأخر.

أنهى المرحوم الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري تحصيل المقدمات في أردكان بيزد على يد مجد العلماء الأوردكاني وباقي أساتذة أردكان وعلمائها آنذاك، وبعد ذلك قصد يزد ودخل مدرسة (خان) وسكن فيها وشمر عن ساعد الجدّ في



تحصيل المقدمات على يد المرحوم الحاج الميرزا السيّد حسن وامق، والسيّد يحيى المجتهد اليزدي.

وفي سني شبابه، هاجر إلى العراق وأقام في الحوزة العلمية العظيمة آنذاك، والتي يتزعمها ويديرها المرحوم آية الله الميرزا محمد حسن الشيرازي، واستمر في تحصيل العلوم الدينية العالية، وهناك نهل من معين جماعة من أكابر الأساتذة آنذاك ومنهم المرحوم السيد محمد الطباطبائي الفشاركي الأصفهاني.

وبعد رحلة هذين الجليلين حضر درس المرحوم الآخوند الملام محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية، والسيد محمد كاظم اليزدي صاحب العروة واستفاد الفائدة الكافية حتى نال درجة الإجتهد.

عند ذلك قصد كربلاء المقدسة وأقام فيها عدة سنين مشغلاً بتدريس طلبة العلوم الدينية وتربية جماعة من رجال العلم والتقوى، وقد استمرت هذه المرحلة من حياة المرحوم الحائري حتى سنة ١٣٣٢ هـ، وفي تلك السنة دعاه المرحوم الحاج السيد إسماعيل ابن المرحوم آية الله الحاج محسن العراقي إلى التوجه نحو أراك وتشكيل حلقة درس فيها، فقبل هذه الدعوة واشتغل ثماني سنين بإلقاء دروس الفقه والأصول على جماعة من فضلاء مدينة أراك وسائر المدن النائية الذين ما أن سمعوا بسفر الشيخ إلى أراك وتدريسه فيها حتى شدوا الرحال إليها.

وبعد أن قضى ثماني سنين من عمره المبارك سافر إلى قم سنة ١٣٤٠ هـ. ق في أيام نوروز لزيارة قبر السيدة معصومة عليها السلام وكانت هذه السفرة بداية مرحلة جديدة من حياة هذا الرجل العظيم، وفضلاً جديداً في تاريخ قم المجيد وحوزتها العلمية.

وقد بلغ علو شأن العالم الجليل آية الله الحائري وشموخ مقامه في ذلك الزمان حدّاً بحيث أن خبر مسيره إلى قم قد تناقلته الألسن وطار في الآفاق بأسرع من سير الشيخ نفسه، فعلم أهالي قم وحواليها بالخبر، ولذلك فإن جماعة من فضلاء قم وعلمائها العارفين بالمقام العلمي والروحي لهذا العالم الفاضل، وكانوا يأملون أن يعاشروه ويستفيدوا منه، رغبوا أهل قم في المسير إليه فهبوا جماعات جماعات لاستقباله.

وقد شارك في هذا الاستقبال المهيب أكثر علماء قم، كما شارك المرحوم

بأفقي - وكان من المخلصين في سبيل الله والسالكين إليه ومن رواد العلم - وكانت علائم الشوق تبدو أكثر من الباقين، وكان يحث الناس على عدم التخلي عن آية الله الحائري والطلب منه بإصرار أن يقيم أبدأ في قم.

وقد خرج الناس حتى مرقد السيد جمال على بعد ٤ كم من قم باتجاه أراك، ولدى وصول آية الله ومن معه استقبلوهم بحفاوة بالغة، وتوقف الركب هناك ساعة للإستراحة. وفي نفس تلك الساعة تكلمت الألسن بما انطوت عليه الصدور فرجوه أن يقيم في تلك المدينة ويؤسس فيها حوزة علمية لطلاب العلم والدين. وعند ذلك اتجه آية الله الحائري نحو قم يحفّ به المستقبلون فكأنه البدر تحفّ به النجوم أو الجوهرة تحفّ بها حلقة الخاتم، واختار منزل المرحوم آية الله الحاج الشيخ مهدي البائين شهري محلاً لإقامته.

وفي نوروز تلك السنة - والذي صادف أواخر شهر رجب المبارك سنة ١٣٤٠ هـ - اجتمع الكثير من أهالي مختلف المدن الإيرانية، إضافة إلى جماعة من العلماء والفضلاء ورجال الدين والعلم والتقوى، في مدينة قم المقدسة ليقضوا لحظات حلول السنة الجديدة في جوار مرقد السيدة معصومة عليها السلام، وقد حضر هؤلاء مع أهالي قم والفضلاء وعلماء الدين في هذه المدينة المقدسة لدى آية الله الحائري وأفصحوا بكل إصرار عن طلبهم منه أن يقيم في مدينة قم ويؤسس الحوزة العلمية فيها.

وخلال مدة وجيزة أصبح هذا الموضوع أمراً يذكر في المحافل الدينية، بل وجرى على ألسن الكسبة والعوائل في هذه المدينة، كما أن الخطباء قد حثوا الناس ورغبوهم أكثر فأكثر في زيارة آية الله، وأن لا يكفوا عن مطالبتهم حتى يوافق على البقاء.

وقد جاء في كتب التراجم أن المرحوم الحاج الشيخ محمد تقي الباقفي كان أشدّ المصريين في هذا الباب، وذلك لأنه كان يعرف آية الله معرفة تامّة منذ كان في النجف الأشرف، فهو يعلم جيداً مكانته العلمية وفضله وتقواه وإجتهاده، ولذلك فإنه بأسف لعدم تأسيس هذا المنبع الفياض لحلقة درس إلى جوار السيدة معصومة عليها السلام

ليبت من خلالها علمه وبرّي الطلبة، وهو يعتبر عدم ارتواء عشاق العلم من معين فضله وعلمه وأخلاقه وفضائله، خسارة ومدعاة أسف وألم.

يقول مؤلف كتاب (گنجينه دانشمندان) في الفصل الذي يتناول حياة آية الله المرحوم الحائري اليزدي: كان المرحوم الباقي يحدّثني وجماعة قائلًا: «مع أنّ المرحوم آية الله الحائري قد لاحظ عن كثب خلال سفرته إلى مشهد - وضع المدارس المهجورة والمتهدّمة في قم كالفيضية ودار الشفاء، وكيف أن الجامعة الروحية ومكان تدريس وإفاضات المرحوم المحدث الكبير الملامح محسن الفيض والملا عبد الرزاق فياض اللاهيجي و صدر المتألّهين الشيرازي وأضربهم قد تحوّلت إلى مقر للشحاذين والفقراء والمجانين، وأظهر أسفه الشديد لذلك وقال: ماذا لو أتقذت هذه المدارس من غربتها؟ مع كلّ ذلك فأنّه كان يرى من الصعب عليه أن ينقل الحوزة العلمية من أراك إلى قم.

ثم أضاف: وعندما أصرت عليه ذكر بعض الأسباب التي تعيقه من الإقدام على هذا العمل فأجبتة عنها، وأخيراً أقنعتة بهذه الكلمة وصرفت نظره عن الرجوع إلى أراك.

قلت له: لقد رأيتم الأخبار التي رويت عن الأئمة المعصومين عليهم السلام حول آخر الزمان، وأنّ مدينة قم ستكون مركزاً للعلم ومنها يفيض العلم إلى سائر البلدان، وإنّ العلم في ذلك الزمان يأزر عن الكوفة كما تأزر الحية في حجرها ويظهر في قم؟ قال: نعم، فقلت له: أتؤمن بها أم تشكّ؟ قال: بل أوّمن. فقلت له: ألا تريد أن يكون وضع حجر الأساس لهذا البناء على يديك وليبقى هذا العمل بإسْمك ومن الباقيات الصالحات لك؟ فقال: نعم، فقلت: اذن قرّر الوقوف هنا وأرسل إلى أراك أنّ من أراد أن يأتي إلى قم فليأت^(١).

وإضافة إلى المرحوم الباقي فإنّ جماعة آخرين من أكابر قم كالمرحوم آية الله الحاج ميرزا محمد أرباب، وآية الله الحاج الشيخ محمّد رضا الساوهي، والمرحوم الحاج السيّد حسن سادن الروضة الفاطمية المباركة، والحاج الميرزا

محمود الروحاني وآخرون. كان لهم تأثير أيضاً في هذا الأمر، مضافاً إلى الرغبة التي بدّأها أهالي قم وزوّارها في تلك السنة، كلّ هذه العوامل جعلت المرحوم الحائري في حالة تردّد، فقال: سوف أستخير الله فيما إذا كان الصلاح في البقاء في قم وأرسل إلى فضلاء وطلاب أراك الذين ينتظرون قدومي بأن يأتوا إلى قم. ومع أن المرحوم الشيخ كان قليل التفأل بالقرآن الكريم، لكنّه استخار بالقرآن عندما ذهب صباحاً إلى الحرم المطهر للسيدة المعصومة عليها السلام، فخرجت الآية (٩٣ من سورة يوسف):

﴿اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾^(١)

وكانت الجملة الأولى في صفحة القرآن هي آخر الآية ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾.

فقرّر الشيخ بعزم راسخ وقلب مطمئن أن يبقى في قم، فذهب إلى منزل المرحوم الحاج السيّد علي المصطفوي، التاجر القمي، حيث كان العلماء وطبقات التجار والأصناف الأخرى ينتظرون ما يقرّره الشيخ الحائري، فأعلن عزمه على البقاء، فسرّ الناس أشدّ السرور وخاطبه أحد أكابر العلماء:

وترتجيه من الرحمن سائله حتى استجيب لما ترجوه داعيها

وحذّثني المرحوم الحاج الميرزا عبد الحسين صاحب الدارين البروجردي - وكان موزّع رواتب المرحوم الحائري في أراك - : لما وصلت رسالة الشيخ الحائري إلى أراك كنت والسيّد الحاج الميرزا هداية الله وحيد الكلبايگاني أوّل من التحق به. فبعد أن ودّعت رواتب شهرين على طلبة حوزة أراك أتيت إلى قم وحضرت بين يديه فقال: إنّنا باقون هنا، فإن شئت أن تأتي بأهلك فأت بهم والله جواد كريم.

وبعد ذلك ذهب السيّد الحاج الميرزا هداية الله إلى أراك وأطلع رفقاء آية الله وأصحابه على الموضوع وأتى بعائلته وعائلتي إلى قم، ثم جاء أصحاب الشيخ إلى قم تدريجياً، وشيئاً فشيئاً تأسّست الحوزة العلمية في قم، وتحققت تنبؤات الأنمة

سلام الله عليهم...».

وهكذا كان اختيار آية الله الحائري اليزدي مدينة قم مقرّاً له وهو في أوج أفكاره الإسلاميّة والإنسانيّة فبعث بذلك روحاً جديدة في الحوزة العلمية لمدينة قم المقدّسة.

ومنذ ذلك الحين ظهرت قم كمركز للأفكار الإسلاميّة في عالم التشيع، وربّت حوزتها العلمية في أحضانها، أعظم وأكابر كان كلّ منهم مبدأً فصل جديد في عرضة التشيع المترامية الأطراف، وقمّة في ساحة جهاد العلماء الأحرار، ونوراً يقذف في القلوب الواعية.

الآثار والخدمات التي أسداها آية الله الحائري مؤسس الحوزة العلميّة إنّ ما أثمرته حياة آية الله الحائري المباركة وما خلفته وراءها من نفائس كريمة في مدينة قم، عظيم جدّاً، فبغضّ النظر عن السراج الوهاج الخالد لأفكاره والذي ينير آفاق الإسلام المترامية، وبغضّ النظر عن كتبه ورسائله القيّمة التي تعدّ مشاعل تضيء المحافل الروحيّة ومناراً لحلقات بحث طلبية العلوم الدينيّة، وبغضّ النظر عن الطلبة الأعظم الذين تربّوا في حجر حلقات درسه وتربيته ومدّ بهم عالم الإسلام والتشيع.. فبغضّ النظر عن كلّ ذلك فإنّه أسدى خدمته الكبرى للعالم الإسلامي والأمة الإسلاميّة حينما ميّز تشيع الاعتراض والثورة عن تشيع المأتم والعزاء والبكاء، وحينما أوضح مرّة أخرى مدى البون الشاسع والاختلافات الأساسية بين إسلام علي عليه السلام وإسلام معاوية، كما طرح العلماء الأحرار بشخصيّة وهويّة جديدة في المجتمع الإسلامي هي غير ما كانت قد بيّنتها الحكومات الاستعمارية الخارجية والداخليّة عن علماء الشيعة، وبصورة غير الصورة التي رسمتها تلك الحكومات لهم، حينما نشروا جماعة من المتلبسين بلباس الدّين ووعاظ السلاطين فشوّهاوا بذلك الوجه الناصع لصورة هذه الطبقة الأصيلية، وقد استطاع الشيخ بمساعيه الحثيثة وجهوده المتواصلة أن يزيح الستار والحاجز الذي وضعه الاستعمار الخارجي والعلماء الداخليون بين الناس والعلماء، كما أوضح مرّة

أخرى أنّ علماء التشيع يتبعون مذهب إمام كعلي عليه السلام الذي لم يكن بمعزل عن الناس أبداً، وأنه كان كعامة الناس يسكن بيتاً صغيراً، وحتى في زمن خلافته حيث كان بيت المال و ثروات الأمة الإسلامية تحت تصرفه المطلق فإنه لم يُرَ على مائدته إدامان قطّ.

مع كل ما مرّ فإننا إذا أردنا أن نفهرس آثار هذا العالم الجليل وخدماته الجليلة، بصورة مختصرة على النحو الذي ورد في الكتب والرسائل المختلفة، فإنها كما يلي:

١ - الحوزة العلمية الرسمية في قم، والتي ستبقى بإذن الله العليم القدير حتى ظهور صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه).

٢ - مستشفى السهامي والفاطمي، والتي تأسست بهمة آية الله الحائري العالية من ثلث المرحوم السيد محمد الفاطمي، وقد أسست لطلبة العلوم الدينية، ولا تزال موجودة إلى اليوم بجهود بقيّة مراجع التقليد الأعظم.

٣ - إقامة سدّ على نهر قم، وقد أحدث باهتمام آية الله الحائري ومعونة الناس بعد أن اجتاح السيل المدمر نهر قم، وقد أنزل خسائر كبيرة بالمدينة وترك آثار الخراب في الأزقة والدور وحتى في الحرم المطهرّ.

٤ - ترميم مدارس الفيضية ودار الشفاء، والتي أشرفت قبل مجيء آية الله الحائري على الانهيار والسقوط والتحوّل إلى خرائب لا يبقى منها بعد مدة قليلة أيّ أثر يذكر.

٥ - إنشاء مغتسل قرب نهر قم، وقد كان من النواقص الأساسيّة التي يشكو منها أهل قم حتى ذلك اليوم.

٦ - بناء قلعة مبارك آباد لإسكان الذين هدم السيل منازلهم، عندما اجتاح مدينة قم، وهذا المكان مشهور الى اليوم بقم ويعرف بزقاق رهبر.

٧ - تأليف الأثر النفيس (درر الفوائد) في علم أصول الفقه، والذي طرح فصوله وأقسامه المختلفة في حلقات درس أصوله غالباً.

٨ - تأليف كتابه القيمّ (الصلاة) والذي كان - لا يزال - دائماً مرجعاً مهماً

للفقهاء والعلماء.

٩ - تأسيس مكتبة المدرسة الفيزية، والتي تعدّ اليوم من أفخر وأنفس مكنتات إيران، كما أنّ كتبها القيّمة لا من حيث العدد فحسب، وإنّما في محتواها ولبابها وكيّفيتها يقلّ نظيرها في المكنتات المهمّة في العالم الإسلامي، وربّما لا نظير لها.

١٠ - مقبرة عامّة، والتي تعرف اليوم بمقبرة الحاج الشيخ.

١١ - المقبرة الجديدة.

١٢ - تلامذة آية الله الحائري:

الأثر الخالد:

أمّا الأثر الخالد الذي حاز على أهميّة خاصّة وعجيبة من بين آثاره وخدماته وثمرات حوزته العلمية ومدرسته التربوية والذي استمرّ كآيات أنوار الرحمة الإلهية فهو ما تركه من الذكريات البشرية والمعنوية، وبعبارة أخرى هم تلامذته الفطاحل الذين كان لكل منهم مدرسته الغنيّة وتلامذته الأفاضل، وبذلك فإنّ هذه السلسلة الطاهرة ستبقى بمرور الزمن وتعاقب الدهور وفناء الأجيال، بل وسوف يتّسع نطاقها العلمي والمعنوي حتّى يسود العالم.

وقد ذكر بعض الكتاب المعاصرين في هذا الباب أسماء هؤلاء الأعلام، وأضاف نكتة تلفت النظر نرى عدم ذكرها باعث أسف، فقد كتبوا: كان الحائري رحمه الله من نوابغ العلماء وفحولهم، وقد تخرّج من حوزته رجال الفضيلة وأعمدة الشرف ومجتهدون جامعون للشرائط وعلماء أكابر ومدّرسون كرام وأساتذة عظام. كما ذكر كاتب آخر في جانب من الكتاب أسماء معظم تلامذته مع محلّ سكنهم، ومع أنّ الكثير منهم قد فارق الحياة إلاّ أنّ البعض منهم لا زالوا على قيدها ويعتبرون من الزعماء والمراجع المعاصرين الأعظم وهم يديرون أمور الحوزة العلمية ويديرون أمور المسلمين في أنحاء العالم.

وقد ذكر المئات من تلاميذه الذين تفرّقوا في الأصقاع الإسلامية يهدون

العباد إلى سبيل الرشاد أو انتقلوا إلى جوار ربهم، ونحن في هذا الجزء من الكتاب سنتناول حياة نفر من أفاضل الدين والعلم والتقوى هؤلاء ونتطرق إلى جهادهم ونشاطاتهم، وخاصة أولئك الذين كان لهم دور بناء في توجيه النهضة والحركات الإسلامية في إيران في النصف قرن الأخير.

صور من أخلاقه وصفاته

إنّ طلابه ومن تربّوا في أحضان مدرسته العلمية والأخلاقية لا يفتنون يذكرونه بخير ويبجلونه ويعظمونه، ويقولون: إنّ خصائصه المعنوية وسجاياه الروحية قد بلغت حدّاً بحيث إنّ من يجالسه أو يتلمذ على يديه وينهل العلم من منبعه فأنّه يحسّ برابطة تشدّه إليه وربما أبدى إعجابه به:



وجهة نظر آية الله العظمى المعصومي

كان الأستاذ الجليل العالم الربّاني المرحوم الآخوند المّلا علي المعصومي الهمداني - وهو أحد المراجع ومن مفاخر الحوزة العلمية في قم، وكان مقيماً في همدان غرب البلاد - أحد الذين تربّوا في مدرسة الشيخ الحائري، ولم أجالسه جلسة يدور الحديث فيها عن الأخلاق والمعنويات إلّا وذكر أستاذه الجليل بقلب متحرّق وعشق لا يعرف

الحدود، ومجّده وبجلّه أعظم التبجيل، وتحدّث عن مدرسته التي يغمرها الايمان والأخلاق والإخلاص.

ومن جملة ما تحدّث به قصّة تحكي عن روح المحبّة والرغبة في تربية جيل

الشباب وتهيئة الأرضية لمن عرف لتوّه، وهذه القصة يمكن أن تكون مفيدة وبناءة عندما يحكم المجتمع جوّ لا يفكر فيه الإنسان إلا بنفسه ولا يعبأ بالآخرين.

حدّثني قائلاً: كنت قد رجعت توّاً من الحوزة العلمية في قم إلى همدان، وقد رمت مدرسة الآخوند الهمداني الواقعة في شارع شورين، وجمعت حوالي عدّة طلاب واشتغلت بالدرس والبحث، وما أقلّ من كان مطلعاً على أوضاعنا وما نغائيه، وكانت الأيام تمرّ وفق نظامها الطبيعي حينما دخل خادم المدرسة ذات يوم إلى حلقة الدرس وقال: إنّ رجلاً يريدكم، فقلت له: ليدخل، ولما أتى حلقة درسنا التي كان عدد أفرادها قليلاً جداً - وكان معه عدّة أكياس من المال، فقد كان أحد تجّار همدان المعروفين قال: أنّي قد أتيت من عند آية الله الحاج الشيخ عبد الكريم، وقد كنت ذهبت لأداء الحقوق الشرعيّة و واجباتي الماليّة، إذ كانت بذمتي مبالغ كبيرة، فسألني عن محلّ سكنائي فأخبرته بأنّي من همدان، فما أن سمع باسم همدان حتّى قال: لماذا تكلفّ المجيء إلى هنا وأتيت بالحقوق الشرعيّة وعندكم المعصومي؟! إذا أردت أن يتضاعف أجرك فردّها إلى همدان وأوصلها إلى الآخوند المعصومي، فإنّ له حوزة علميّة وهو محلّ ثقة وإعتماد، وكانت المبالغ التي أعادها آية الله الحائري لا بأس بها، وقد أعانتني في الأمور المالية فيما يخصّ همدان.

كما أدّى هذا العمل المرضي عند الله إلى أن يكون له صدقٌ واسعاً في غرب البلاد، فقد كان الرجل معروفاً وله علاقات ومعاملات مع بقية مدن البلاد الغربيّة، وقد أثمر عمل الشيخ هذا ومعونة ذلك الرجل الرّبّاني أن يكون في هذه الحوزة العلميّة اليوم ما يقارب الخمسمائة رجل من أهل العلم والطلبة وأئمّة الجماعات والوعاظ والمحقّقين، وفي الحقيقة فإنّ النواة الأصليّة والنقطة المركزيّة لها هي النيّة الخالصة والاحساس بالمسؤولية الذي كان يغمر كيان المرحوم الشيخ الحائري.

ومن الجدير بالذكر أنّ الحوزة العلمية في همدان قد خرّجت الكثير من أفاضل الطلبة ومشاهير العلماء وغزت بهم المجتمع، وإن كثيراً من أساتذة الحوزة العلمية في قم هم ثمرة المدرسة التربوية للآخوند الملائع المعصومي، ومن جملتهم الأستاذ الشهيد الدكتور محمد مفتح، والأستاذ الجليل آية الله الشيخ حسين

النوري، وحجة الإسلام و المسلمين الشيخ حسن النوري، وآخرون.
ومن الاثار الجليلة للمرحوم الآخوند الهمداني، والذي كان من عشاق
الكتاب والمكتبة، هي مكتبة الغرب التي انتهى بناؤها سنة ١٣٤٠ هـ.ش وتضمّ اليوم
أكثر من عشرين ألف كتاب نفيس في مختلف أبواب العلوم الإسلامية، كما أنّ فيها
الكثير من نفائس المخطوطات ومنها الرسائل الفلسفيّة لابن سينا والفارابي بخطّ
أيديهما وبقية الكتب الخطيّة التي كتب الدكتور المقصودي - مدير المكتبة السابق -
في التعريف بكنوزها الموجودة فيها، كما أنّ كاتب هذه السطور قد قضى وطراً من
عمره في ظلّ أغصانها الوارفة، وهو يأمل أن يتمكّن من قضاء بعض الأوقات بين
ظهرانها.

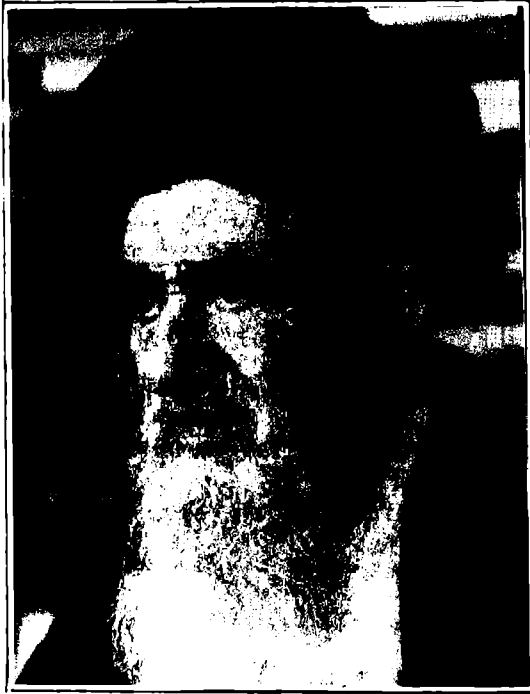
وفي الحقيقة يمكن القول بأنّ كلّ هذا، ثمرة النيّة الخالصة المرضيّة عند الله
للمرحوم الحائري، وأنّ تلك الشجرة الطيبة ستؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها.
وتحدّث عالم آخر ممّن تربّى في مدرسة آية الله الحاج الشيخ عبد الكريم
الحائري العلمية والأخلاقية قائلاً:

كان الشيخ يتمتّع بتقوى باطنيّة خاصّة لا يتظاهر بها أبداً، وكان متبحراً في
العلوم وخاصّة علم الفقه والأصول ويروي أحد الأكابر عن أستاذه المرحوم الميرزا
محمد تقي الشيرازي (الميرزا النائيني) بأنّه وإن كان يبلغ حدّ الوسوسة في الأمور
العلمية نتيجة لعمق نظره، فإنّه كان يقول بحقّ الشيخ: كنت ملازماً له عشرين سنة.
وأتى أراه مجتهداً عادلاً، وكان لطيف الطبع سمح الأخلاق، متواضعاً حسن الأخلاق
جداً، واستفدت منه ثماني سنين - أي هذا العالم - وربّما حضرت مجالس استفثائه
وشاركت فيها، فلم أره غاضباً ولو لمرة واحدة.

وعلى خلاف الشائعات التي أثيرت حوله ولاظهاره الذي كان يظهره من أنّه
لا يتدخّل في الشؤون السياسيّة، فإنّه كان مديراً عاقلاً، فإنّه ونتيجة للتجارب التي
اكتسبها في فترة نهضة الدّسنور - حيث كان في تلك الفترة في النجف الأشرف مقرّ
النشاطات الثّورية، ورأى التحوّلات والتغيّرات، وأيقن بأنّه كان ليد الأجنبي دور في
أغلب الأمور التي حدثت آنذاك، وحتّى في مسألة تهديم قبور أئمة البقيع فإنّه قال:

لقد جربنا حركة الدستور فرأينا أنّ الأكثر كان معنا ومع المسلمين غير أنّ الآخرين قد اقتطفوا الثمار - كان لا يرى الاستعداد الكافي والرشد المطلوب والاستفادة الصحيحة من امكانيات المسلمين، فلم يتكلّم في هذا الأمر، وأوحى ظاهرياً بأنّه لا يتدخّل في الأمور السياسيّة.

وجهة نظر آية الله العظمى السيّد المرعشي



يعتبر آية الله العظمى النجفي المرعشي أحد الطلبة المبرّزين للمدرسة التبروية لمؤسس الحوزة العلمية بقم، وعندما سأله عن وجهة نظره فيما يتعلّق بأستاذه الجليل قال باقتضاب: كان ذا صفات عظيمة، وأخلاق كريمة، وكان ظاهره كباطنه، يحبّ الطلبة، ويكرم أهل العلم والفضيلة، وكان يعتقد بحفظ أسرار العلماء.

وعندما أمر رضا شاه بالغاء الحجاب بعث ببرقية له، وسمع في جوابها الكلام البذيء الفاحش،

وواضح أنّ اعتراضه لم يكن ذا أثر، وقد اعتزل الناس في منزله ستّة أشهر في أواخر عمره وأصبح جليس داره، وقلّمًا كان يحضر في المحافل والاجتماعات، ويمكن القول بأنّه مات كمدًا لما رآه من الحكومة العميلة، وطالما سمع الاهانات نتيجة اعتراضه.

وجهة نظر آية الله العظمى الكلبيكاني



وفي المحاوراة التي أجريناها بتاريخ ٢٥ ذي الحجة سنة ١٤٠٠ هـ مع آية الله العظمى الكلبيكاني، والذي درس على يد مؤسس الحوزة العلمية ردحاً من الزمن، ويعتبر من تلامذته المبرزين، تحدّث حول أستاذه الجليل قائلاً:

كان المرحوم الحاج الشيخ (أعلى الله مقامه) يتمتع بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، وقد راض نفسه رياضة شاقّة لمدّة طويلة من أجل الوصول إلى مدارج الكمال، وإلا فإنّ طيّ هذه المراحل ليس بالأمر اليسير.

وقد كان قدوة في تواضعه، فلم يكن يعير أهمية لصدر المجلس ونهايته، وأنما كان متبّعاً لسيرة الرسول الأكرم ﷺ يجلس حيث استقرّ به المجلس دون أن يلقي نظرة على الصدر والنّهاية. كان صادقاً في علاقته مع أصدقائه وتلامذته، ولم يكن يهتمّ مطلقاً بتناول الأطعمة اللذيذة، وأنما كان يتعمّد تناول الطعام البسيط. وكانت التقوى تغمر وجوده وكيانه، وطالما كرّر قوله بأنّي لم أسخّ أبداً من أجل الرئاسة والرّعامة. وكان له ارتباط خاصّ وحبّ شديد لأهل العلم، ويعتبر حفظ شؤون العلم والعلماء، فريضة من الفرائض.

ذات يوم جاء رجل من أهل العلم - وهو المرحوم الشيخ محمد رضا ثابتي الساوجي - من ساوة وقال لأستاذنا: إنّ أهل ساوة عدلوا عن المرحوم آية الله المامقاني وقلّدوك، فانتفض الشيخ وصاح: من أين علم هؤلاء أعلمتيني وكيف حدّوها؟ فهل للأعلميّة مكيال تكال به حتّى يقوموا بهذه الأعمال بهذه السهولة؟

لم يكن أبداً ليتعطش إلى الرئاسة والمال والجاه، وأتما كان يعتبر أمر زعامته تكليفاً إلهياً.

ذات يوم جاء أحد التجار بمال كثير - وكان في حدود الثلاثين ألف تومناً - يكفي لتوزيع رواتب طلاب الحوزة لمدة ثلاثة أشهر وقدمه بين يدي الشيخ، وكانت الحوزة آنذاك بأمتس الحاجة إلى مثل هذا المال، غير أن الشيخ تحرى عن كيفة الحصول على هذا المال، وبعد أن علم بأنه لم يكتسب وفق ما أمر به الشرع تماماً رده، رغم أنه كان سيربح باله من تأمين رواتب الطلبة لمدة أشهر، وأبى أن يقبله وقال للتاجر: بإمكانك أن ترجع إلى السيد أبي الحسن الأصفهاني ولا حاجة إلى أن تفصل له الأمور.

وظاهر هذه القضية يوحي بأنه كان يرى أن لا يتحدث الناس بأن العلماء يحلون الأمور التي تكاد أن لا تحل وتعتبرها شبهة.

ومن جهة أخرى فأنها تعكس مدى تقواه وعدم اكتراه بالمسائل المادية والمعنوية بالرغم من حاجة الحوزة الشديدة، ووجود خطر إراقة ماء الوجه وفقدان اعتباره الظاهري إذا ما عجز عن دفع الرواتب الشهرية، وأعرض عن هذا المبلغ الضخم الذي كان سيربح باله لثلاثة أشهر، وذلك لوجود شبهة واحتياطه في أخذه، ويرجع الأمر إلى مرجع آخر قد لا يتشدد بهذا المقدار في شبهة والإحتياط.

ومن جهة ثالثة فإنه لا يأنف عن تمجيد وتبجيل من هو في مصافه في درجات العلم ومن كان معه في حلقة درس واحدة، وذلك لأنه يرى أن كليهما يجاهد من موقعه، وأن لهما هدفاً واحداً مشتركاً.
نعم، هكذا يكون طلاب مدرسة التوحيد.

وجهة نظر آية الله مرتضى الحائري حول أستاذه ووالده

للتعرف على صفات مؤسس الحوزة العلمية في قم وأخلاقه وفضائله قمنا يوم الجمعة ٢٦ محرم سنة ١٤٠١ هـ بزيارة لولده الأكبر آية الله الحاج الشيخ مرتضى الحائري في منزله الواقع في تكية السيد حسن، وهو أيضاً كان يعيش



كوالده المتوفى و طرحنا عليه بعض الأسئلة.

في البداية أعرض عن الجواب، لأنه كان يرى الاجابة عنها ووصف والده بمثابة مدح لنفسه وتنزيه لها، غير أننا سألتناه بصيغة أخرى وطلبنا منه التحدّث عن الشيخ لا باعتباراه والده وإنما باعتباراه أستاذه ومعلّمه الروحي وماذا عرف منه خلال مدّة تحصيله ليكون ذلك مفيداً للقراء ومرشداً لهم.

وقد ناولني دفتر كتب فيه ما يتعلّق بهذا السؤال، وكانت فيه ثلاثة نكات طريفة عن خصائصه الأخلاقية، يمكن أن تكون لنا عوناً في أيّامنا هذه التي لا يفكر المرء فيها إلا بنفسه:

١- الاهتمام بحقوق الزوجية

من الخصائص الأخلاقية التي كان يتمتّع بها الشيخ، والتي قد يبهت الإنسان أمامها وأمام ذلك التهذيب السامي للنفس وتربيتها التبرية الإسلامية الحقّة، أنّه كان يهتمّ في حياته العائليّة بأمر يغفل عنها أغلب الناس عادة، فمثلاً قبل أن يختار والدتنا شريكة لحياته كانت لديه زوجة فقدت بصرها، وقد كان يلي أمرها دون أن يلفت أنظارنا وبقية أفراد العائلة، ولم يغفل عن أداء حقوقها أبداً، وقد سمعت من المرحوم فريد الآراكي مراراً بأنّه قد رآه بنفسه وهو يأخذها إلى حيث تقضي حاجاتها الضرورية ويعتبر محلّها هنا وهناك، وربّما حملها إلى سطح الدار أيّام الصيف دون أن تشعر والدتي والأخوات بذلك، لئلا تتحرّك فيهن عاطفة النساء وغيرتهنّ.

٢- الايثار من أجل الآخرين

كان المرحوم السيد محمد الفشاركي - وهو أستاذ ضياء الدين العراقي وباقي أساطين الحوزة العلمية في النجف في الأصول والفقه - يعيش في ضنك وعوز مادّي شديد رغم علمه وفضيلته وعظمته، وقد تكفل المرحوم الوالد في فترة تحصيله بمصاريفه لعدّة سنوات، وبعد وفاته التزم بتأمين ما يحتاج إليه أولاده، وكان يؤثرهم على نفسه باليسير الذي كان يحصل عليه في حين أنه كان يعاني بنفسه، الفقر الشديد.

٣- جوع العائلة ليلة وفاة مؤسس الحوزة العلمية

وكان سؤالنا الثالث حول كلام ذكره زعيم الثورة سنة ١٣٨٢ هـ . ش قبل حادثة ١٥ خرداد ١٣٤٢ حيث ردّ فيها على مزاعم الشاه قائلاً:
«نحن الذين ليلة توفّي شيخنا المرحوم عبد الكريم الحائري لم يكن لدى أولاده عشاء تلك الليلة نأكل بالباطل أمّا أولئك الذين ملؤوا البنوك بالأموال ولم يدعوا الشعب وشأنه فليسوا أكلة بالمجان^(١)؟!»

وكان سؤالنا هو: لقد عرفنا مدى التقوى والإحتياط الخاصّ الذي كان يتمتّع به المرحوم مؤسس الحوزة العلمية في قم، لكن هل بلغ الحدّ أن لا يملك أولاد المؤسس المرحوم قوت يومهم؟ نرجو أن تبيّنوا ذلك.

فأجاب: الأمر كما قال زعيم الثورة، فإنّ الوالد كان قد وضع معايير خاصة في صرف الوجوه الشرعيّة، وكان يحتفظ بالأموال والحقوق الشرعية في أماكن خاصة دون أن يصرّفها في ما نحتاجه خاصّة، وقبل وفاته عيّن بكل وضوح موارد صرفها ولم يأذن لأحد أن يتصرّف فيها بغير ذلك، وقد كنّا يوم رحيله في ضائقة ماليّة شديدة حتّى أنّنا اضطررنا إلى أن نقترض من صديقنا السيّد أبي الفضل الزنجاني مبلغ خمسين تومان لنصرفها فيما نحتاجه، وبعد ذلك تحسّن حالنا بفضل الله.

لقد استفدنا وسمعنا هذه الأمور الثلاثة من آية الله الحاج الشيخ مرتضى الأنصاري، وهو أيضاً كوالده - زاهد في هذه الحياة الدنيا رغم مقامه العلمي وشهرته وفضيلته، فقد أعرض عن زخارف الدنيا وزبارجها وعاش في بيت صغير موروثي بُني من الطين، فكان بذلك مثلاً لحياة والده. نسأل الله تعالى أن يكثر في العلماء من أمثاله بمنه وكرمه.

الرحيل بعد ١٥ عاماً من السعي والجهاد

دامت حياة آية الله الحائري المليئة بالنشاط والسعي الحثيث والتي عجت بالجهاد فأثمرت أيماً ثمر (١٥) سنة في مدينة قم، فقد استمرت بين عام ١٣٤٠ - ١٣٥٥ هـ ق أو بين سنّ الثامنة والستين وسنّ الثالثة والثمانين من عمره المبارك. غير أنّ هذه السنين من حياة ذلك الرجل الربّاني وخريج مدرسة علي عليه السلام والمتمسك بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام والمعتمد بسيادة الحسين عليه السلام وشهادته كانت سنيناً حقت بها المصائب والمحن وطغى عليها الجدّ والسعي والجهاد.

لقد صادف مجيء الشيخ من أراك إلى قم مع المؤامرة الانجليزية التي جاءت برضا خان ميرينج، وبدء العداء والحقد على الإسلام والشعائر والعقائد الإسلامية، فقد كان الهدف الرئيسي للسياسات الاستعمارية الخارجية هو القضاء على مظاهر الإسلام ومعاييره ومبادئه من خلال الحكومة العميلة التي أتى بها، وانزال الضربة القاصمة بجسد المجتمعات الإسلامية والحوزات العلمية ومجامع العلماء والمساجد والتكايا وكل ما يذكر بالمظاهر الإسلامية - وخاصة التشيع الثوري المناهض للظلم - أو يحييها، فكانوا يتخذون كل يوم سياسة جديدة ضدّ الإسلام، ويقومون بالتشاطات المضادة ضدّ طبقة العلماء لاسيما الأحرار والمجاهدين منهم، وكانت الصعوبات والعراقيل تكثر يوماً بعد آخر، وكانت هذه السياسات المناهضة للإسلام تكفي لوحدها لأن يتحمّل رجال الله وعشاق مدرسة التوحيد ومذهب التشيع العذاب والألم والمصائب المزرية، وتعتصر قلوب أولئك الرجال وأرواحهم.

لكن آية الله الحائري لم يكن ذلك الرجل الذي يترك ميدان الجهاد خالياً أمام هذه السياسات ويسلم راية الدين والعلم بيد الشيطان والشياطين، ولذلك فإنه صمد أمام هذه البلايا والمصائب بشهامة وشجاعة تلقاها في مدرسة عليّ والحسين عليهما السلام واختار أسمى سبل الجهاد، ألا وهو تقوية الحوزة العلمية وتربية جنود الدين والفضيلة وطلاب العلوم الدينية ما أمكن، وصبّ كل إهتماماته وجهوده في هذا السبيل.

كان يرى أنّ القوى العظمى تشنّ الهجمات من كل جوانب، وتنفث سمومها لتقتل الأزهار العطورة لبستان الدين والفضيلة، ولتزرع الشوك محلّها، ومن هنا، ونتيجة لإدراكه الواقعي المستلهم من رسالته، رأى أن من الأصلح أن لا يدخل الحرب بمن معه من أفراد جيشه المصائب بسهام الأعداء، لأنّ كفتي الحرب غير متكافئتين، وستكون الهزيمة نصيبه منها، وأنما الصلاح في الحفاظ على أفراد جيشه وابقائهم سالمين، والسعي من أجل تقويتهم وبنائهم حتّى يبلغ هذا الجيش درجة من القوّة والكفاءة والاستعداد يكون قادراً معها على مقارعة الأعداء ومجاهبتهم.

غير أنّ هذه المواجهة التي اتخذت شكلاً سلبياً عقلياً، وإن كانت تنزل بقلبه وروحه كانت تجعله كئيباً حزيناً حتّى أنّه في أواخر عمره أثر الإنزواء والعزلة، وربما بلغ الهمّ والحزن أن كان يتمنّى موته إذا اجتمع ببعض أصحابه، وكان يطلب من ربّه القدير أن يعجّل في وفاته، لئلا يرى من عداة القوى الخارجية والمتسلّطين في الداخل للدين والمذهب أكثر ممّا رآه، وقال وقد قال مراراً لأصحابه بأنّه وان كان على يقين من انتصار الإسلام على الكفر في خاتمة المطاف، إلاّ أنا في سني الكهولة ولا يظنّ أنّه يبقى حيّاً حتّى يرى بعينه انتصار التوحيد على الشرك ولذلك فإنّه يرجّح الموت على البقاء حيّاً ورؤية الساسة الداخلين يشنّون الهجمات - وبدعم من القوى الاستعمارية الخارجية - ضدّ الدين الإسلامي المبين والقرآن الكريم ومذهب الحقّ ونواميس الإسلام والمسلمين، ولذلك فإنّ أصدقاءه والمقرّبين منه قالوا بعد وفاته - وأيد هذا القول أحد كبار مراجع الحوزة العلمية - بأنّه مات كمدماً وحزناً.

وبذلك فإنه قضى أواخر عمره في الجهاد الداخلي مع ضعف وهزال في الظاهر، وأخيراً فارق الحياة ليلة السابع عشر من ذي القعدة سنة ١٣٥٥ هـ. ق وهو في سنّ الثالثة والثمانين في أوج القوى المضادة للذّين والتي قادها رضا خان، والتي بثّت مظاهر الرعب في جميع الأرجاء ومكّنت مخالف السياسات الخارجية من الأخذ بخناق كلّ أركان الإسلام والتشيع ومظاهرها.

وكتب مؤلّف كتاب (كنجينه دانشمندان) و معاصر الشيخ في الفصل الذي يتحدّث عن آية الله الحائري متحدّثاً عن وفاة المرحوم الحائري والأثر العميق الذي تركته وفاته في المحافل العلمية والمجامع الإسلاميّة والشعب الإيراني المسلم الجريح آنذاك.

وكانت وفاة المرحوم آية الله الحائري في مثل هذه الفوضى وظلمة العصر - حيث تكالبت الأيادي الخفيّة والقوى المستعمرة وأعداء الدّين واستقلال البلاد ضدّ القرآن والإسلام، ولم يمرّ يوم دون أن تفرض بدعة جديدة ومنكر شنيع على الشعب الضّعيف الإيمان أعظم خسارة، وذلك لأنّهم قضوا على جميع العلماء والأكابر النشطين والمتعصّبين للحقّ إمّا بنفيهم أو بسجنهم أو بمحاصرتهم في بيوتهم أو أنهم قتلوهم، فكان الشيخ لوحده في ميدان الجهاد، وقد هزم بجهاده السلبي والايجابي الأعداء وعبّيد الأجنبي، ووقف سدّاً منيعاً أمام هجومهم الأساسي.

لقد ركّع آية الله الحائري بقوّته وثباته وتقواه وهدوئه في العمل العدوّ الذي كان يكرّر دائماً بأنّي قد قضيت على الجميع، لو أنّي كنت قد قضيت على هذا أيضاً لكنت في مأمن من الإسلام والدّين، ولتحرّرت من حدود وقيود الدّين والمذهب. كما أنّه بهره بما لديه من قوّة شخصيّة ورباطة جأش.

وفي صبيحة اليوم السابع عشر من ذي القعدة سنة ١٣٥٥ هـ حيث انتشر هذا الخبر المؤسّف في قم وأوصلته البرقيّات إلى طهران وسائر أرجاء البلاد، حزن الشعب لذلك واطلمت الدنيا في أعين الشعب المتديّن والشيعّة والمتعصّبين، وأحسّ بأنّ عليه أن يستعدّ للبلايا والمصائب.

كان تشيع الجنائز ممنوعاً آنذاك، كما منعت جميع التّظاهرات وعطلّت

المظاهر الدينية والشعائر المذهبية، غير أن عموم أهل قم، رجالاً ونساءً، خواصاً و عواماً وكلّ فئات الشعب المختلفة الحكومية وغيرها كانوا بدرجة من الحزن والاضطراب ويضربون وجوههم ورؤوسهم ويصرخون، كأنّ صاعقة من السماء قد نزلت وأحرقت الجميع، وفي تلك الفترة الرهيبة والأوضاع العجيبة والظروف الصعبة الحاكمة شيّعت جنازة المرحوم الحائري تشييعاً قلّ نظيره، وصلى عليه المرحوم آية الله الحاج الميرزا فخر الدين شيخ الإسلام بقم، ودفن في جوار مرقد السيّدة المعصومة عليها السلام حيث كان يقيم الصلاة ويلقي دروسه فيها.

تتكوّن أسرة المرحوم الفقيد - والذي تعدّ بحق بيت علم ودين وتقوى وفضيلة، وقد أينعت هذه الشجرة الطيبة وآتت أكلها وثمارها فكانت جميعاً سالكة نفس السبيل.. سبيل الدّين والعلم - من خمسة أفراد، ولدين وثلاث بنات، تربّوا جميعاً في أحضان العلم ومهد التقوى. ولداه هما الحضرات آية الله الحاج مرتضى الحائري، وحبّة الإسلام و المسلمين الدكتور الحاج مهدي الحائري. وبناته حسب تاريخ الولادة: زوجة المرحوم حبّة الإسلام الحاج الشيخ محمد التويسركاني، وزوجة المرحوم الحاج الشيخ أحمد الهمداني، وزوجة المرحوم آية الله الحاج السيّد محمد المحقق الداماد اليزدي.

وقد نظّمت قصائد كثيرة في حياة ذلك الشيخ الجليل المتّسمه بالزهد والقناعة والعفة، وقيلت فيه كلمات كثيرة ولكلّ من الشعراء والمتكلّمين شأن كبير، لكن لكلمات زعيم الثورة الإيرانية آية الله العظمى الامام الخميني الذي نهل من منهل أستاذه الحائري وتربّي في مدرسته، شأن آخر.

لقد تحدّث زعيم ثورتنا العظيمة في خطابه المعروف يوم عاشوراء المصادف ليوم ١٣ خرداد سنة ١٣٤٢ هـ.ش والذي ألقاه في ساحة المدرسة الفيضيّة وتحدّث فيه حول عداء الحكومة للدّين والمذهب والعلماء وطرح فيه مطالب مثيرة تهزّ الأعماق - وبعده هذا الخطاب بداية الحركة الإسلامية في إيران وتوجيه حركة المسلمين للسير نحو ثورتنا الإسلامية - وأشار فيه إلى الأكاذيب والأباطيل التي كانت الحكومة آنذاك تسعى إلى إشاعتها حول العلماء، حيث سمّت رجال العلم

والجهاد هؤلاء يأكلون بالمجان فقال:

انظروا إلى المدرسة الفيضية هذه، فتسرون فيها أناساً يقضون زهرة شبابهم وأعمارهم في غرف صغيرة ويحصلون العلم بكل جدية ولا يتقاضون سوى ثلاثين أو أربعين إلى مائة تومان شهرياً.. هؤلاء يأكلون بالمجان أما أولئك الذين يصرفون ملايين التومانات دفعة واحدة في الخارج وفي غير مكانها المناسب فليسوا بأكلة بالمجان! نحن الذين ليلة توفي أستاذنا الشيخ عبدالكريم الحائري لم يكن لدى عائلته عشاء تلك الليلة نعتبر أكلة بالمجان...!

نعم، هكذا كانت تعيش عائلة ذلك الفقيد متأسية بحياة والدها و مربيها المتسمة بالقناعة والعفة، لكن يجدر بنا أن نقول: أن أسرة آية الله الحائري لا تتألف من ابنين و بنات خلفهما، أو منهم ومن أولادهم وأحفادهم وحسب، وإنما يتسع نطاق أسرته فيدخل فيها تلامذته الأفاضل ورجال العقيدة والجهاد والشهادة، والذين ربّاهم في مدرسته السّامية، واليوم نرى تلامذته مع من ربّوهم من الطلبة قد أصبحوا جيشاً عظيماً، أفرادهم رجال التقوى والدين والعلم، وقد تفرّقوا في أرجاء إيران ليبتئوا الأنفاس القدسيّة لشيخهم الجليل و مربيهم الرّوحى المعنوي في أنحاء العالم الإسلامي.

مرحلة قيادة المراجع الثلاثة

في تفسير الجهاد الفكري والمسلك التكاملي لحوزة قم المقدّسة بعد رحيل مؤسسها الجليل نواجه ثلاثة مجتهدين أكابر من العلماء الأحرار والمتصدّين للمسؤولية لا يمكن أن نتجاهل أسماءهم المدويّة أو نتخطى خدماتهم الجليلة البناءة التي أسدوها حفاظاً على الحوزة العلمية في قم وإبقاء عليها، وهؤلاء الثلاثة هم:

١ - آية الله العظمى حجّت. ٢ - آية الله العظمى السيّد الصدر (والد الامام موسى الصدر وآية الله السيّد رضا الصدر). ٣ - آية الله العظمى السيّد محمد تقي الخوانساري.

لقد تحمّل هؤلاء الثلاثة الأكارب أعباء المسؤوليات العظيمة الملقاة على عاتق الحوزة العلمية بعد رحيل مؤسسها الجليل، وذلك في فترة اضطراب وأزمات، وفي فترة من الزمن كانت الحوزة الإسلامية الفتية بأمس الحاجة إلى الدعم الروحي والفكري للوقوف أمام حملات الأعداء الرامية إلى إضعاف البنية الفكرية والعلمية للحوزة، وفي فترة كان فيها طلبة علوم الدين فقدوا زعيمه بحاجة شديدة إلى رعاية روحية ومعنوية يبديها لهم الأعظم الحريصون عليهم.

ونحن نتناول هؤلاء الأجلة بإعتبارهم قد واصلوا الخدمات العلمية والاجتماعية والإنسانية للمرحوم المؤسس، وباعتبارهم حلقة وصل بين الماضي والفترة المعاصرة من تاريخ جهاد العلماء خلال مائة سنة، وتطرّق إلى بعض شأنهم بشيء من الإيجاز.

آية الله العظمى السيد محمدجّت مؤسس مؤسسة الثقافة الكبرى

كان آية الله حجّت فقيهاً ورعاً، ومجتهداً متبحّراً، وعالماً بالدراية الإسلامية، وكان شيخه الجليل مؤسس الحوزة العلمية بقم يوليه اهتماماً خاصاً في الفقه والأصول وفي درجات التقوى والورع، وقد نال محبته ورعايته، وكرمه أستاذه مراراً حتّى أنّه أخلّى له المكان الذي كان يصلّي فيه جماعة في الصحن المطهر، وكان أحد وصيه اللذين أناط بهما مهمّة القيام بالوظائف والواجبات.



وقد تحمّل أعباء زعامة الحوزة لمدة قصيرة في ظروف متأزّمة ومضطربة، وكان يرشد المتعطّشين إلى المعارف الإسلامية إلى منابع الإسلام الأصيلة عبر

طريقة علمية خاصّة وبأسلوب تدرسي شيق. وبعد رحيل آية الله الحائري مؤسس الحوزة العلمية بقم سنة ١٣٠٠هـ قام بزعامة الحوزة فكرياً وعلمياً بمعونة جمع من الأكابر.

ترجمة إجمالية

هو آية الله السيّد محمّد حجّت ابن المرحوم العالم الربّاني السيّد علي الكوه كمرّي من قرية كوهكمر من توابع تبريز، يتّصل بالامام السجادة عليه السلام عبر (٢٥) واسطة وينتمي إلى تلك الشجرة الطيبة.

بدأ دراسته في أذربيجان ثمّ في النجف الأشرف، وأخذ مراحل درّسه العالية عن آية الله شريعت الاصفهاني، وآية الله النائيني والشيخ ضياء العراقي في النجف الأشرف. كان من أهل المطالعة والتحقيق والغور والدقّة في المسائل، وقد نال درجة الاجتهاد في مدّة وجيزة. ونظراً لرداءة الماء والهواء في النجف الأشرف وضعف الحال والمزاج هاجر من النجف الأشرف إلى قم سنة ١٣٤٩هـ ونتيجة لما كان يتمتّع به من لياقة وفضل وعلم فإنّه أصبح محطّ اهتمام آية الله المؤسس الذي كان يعشق الفضيلة وأهلها حتّى أنّه أقامه مقامه في إقامة صلاة الجماعة في المسجد الموجود داخل الروضة الشريفة للسيدة معصومة عليها السلام وعيّنه للقيام بجميع الأمور والمسائل الدنيّة لعدّة أشهر وذلك قبل وفاته.

وكان متّقدّ الذهن وذا قوّة حفظ عجيبة وفكر صائب، فحول قوّة حفظه كان يقول: إذا كنت قد رأيت حديثاً في بحار الأنوار قبل عشرين سنة فأني -بفضل الله- أستطيع أن أذكر نفس الرواية وفي آية صفحة هي.

كما أنّه خلف آثاراً قيّمة منها احياء تفسير «التبيان» الكبير للشيخ الطوسي، ومن آثاره الخالدة تأسيس المدرسة الحجتية التي تبلغ مساحتها ثمانية آلاف متر مرّبع وفيها ١٢٦ غرفة مضاءة ومجهزة ينعم بها الطلاب حالياً.

ومنها أيضاً المكتبة النفيسة القيّمة التي تقع في قلب المدرسة، وقد أسست هذه المكتبة في زاوية من المدرسة سنة ١٣٥١هـ في أواخر عمره الشريف، وقد كان

للعالم المحترم الشيخ مهدي الحائري الطهراني اليد الطولى والمساندة القويّة في تأسيسها وإجادةها. وفيها اليوم قرابة العشرين آلاف كتاب متنوّع وقيم في الأبواب الدراسيّة التي درسها الطلّاب كال تفسير والأدب والأخبار والأحداث والرجال. وبإمكان سكّان المدرسة والآخريّن أن يستفيدوا من كتب المكتبة ليلاً ونهاراً^(١).

وبعد رحيل مؤسس الحوزة الكبير تحمّل أعباء مسؤوليات الحوزة، ولم يكن بمعزل عن الجهاد والنشاطات والمواجهات اليومية، فعندما فرض السفور والمشاركة الجبرية في أمور الدّولة وأعمالها بعث برسالة إلى الحكومة آنذاك بواسطة آية الله البهبهاني جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

نودّ إعلامكم بأنّ من المناسب جدّاً أن تذكروا أولياء الأمور بأنّه لا يمكن تطبيق أمر أحرزت مخالفته للشريعة من جهات عدّة في بلد إسلامي وسيؤدّي إلى إيجاد المفساد. نشكركم على مساعدتكم.

الأحقر محمد الحسيني الكوه كرمي^(٢).

وبهذه الصّراحة والشّجاعة يخاطب الحكومة التي كانت تتمتع بالدعم الكامل من قبل أمريكا والدول الغربيّة الأخرى.

وفي سنة ١٣٧٢ هـ ق انطفأت شمعة حياته فأثار الحزن والألم في عالم العلم والفضيلة.

آية الله العظمى السيّد محمد تقي الخوانساري

والزعيم الآخر من زعماء الحوزة العلمية في قم في مرحلة ما بعد رحيل مؤسسها هو المرحوم آية الله السيّد محمد تقي الخوانساري أعلى الله مقامه وكانت ولادته سنة ١٣٠٥ ووفاته سنة ١٣٧١ هـ

بعد أن أنهى تحصيله الابتدائي في مسقط هاجر إلى العتبات المقدّسة سنة

١- زير بنای تمدن و علوم اسلامی ص ١٨٥.

٢- نهضت دو ماهه روحانيت ص ٦٦.



١٣٣٢هـ وحضر في النجف الأشرف في درس آية الله الآخوند الملامحمد كاظم الخراساني وآية الله السيد محمد كاظم اليزدي، وبعد وفاتهما حضر حلقات دروس الأعظم أمثال: شريعت الاصفهاني وضياء الدين العراقي والشيخ علي القوجاني، وعندما قامت الثورة العراقية ضد الاستعمار البريطاني، والتي

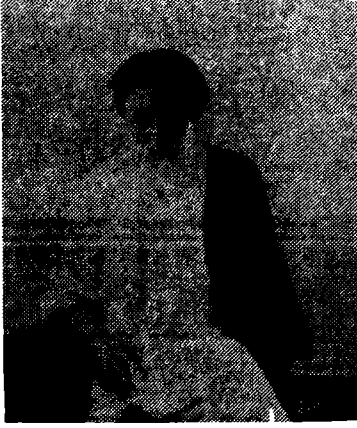
قادها العلماء المجاهدون، ثار هو الآخر بمعية آية الله الميرزا الثاني والمرحوم السيد مصطفى الكاشاني وشارك في الحرب ضد الانجليزيون المستعمرون، وقد ثبت مع جماعة من أقرانه العلماء والمقاتلين العراقيين لمدة شهرين في نقطة واحدة وقاوم بصبر وشجاعة التجهيزات الأوربية الحديثة فمنع من تقدّم القوى المعتدية.

وفي سنة ١٣٣٣ هـ نفي إلى الهند التي كانت مستعمرة بريطانية واسعة، وبعد أربع سنوات من البلاء والنفي عاد إلى إيران وتوجّه إلى بلدته خوانسار واستقبل استقبالاً حافلاً، وبعد أن أقام مدة قصيرة في خوانسار هاجر إلى قم وبذل مساعي حميدة في تأسيس الحوزة والحفاظ عليها، وبعد رحيل مؤسسها هبّ بمعونة صاحبيه في العمل والجهاد آية الله حجّت وآية الله الصدر إلى المحافظة على الحوزة ورعاية شؤون طلابها وأيتام آل محمد عليهم السلام وتربيتهم، ولم يغفل لحظة عن ذلك منذ رحيل الشيخ الحائري حتّى مجيء آية الله البروجردي، وقد ربّى أفاضل وعلماء في حوزته. وقد نظّمت في رثائه ومديحة قصائد كثيرة باللغتين العربية والفارسية.

وفي ليلة وفاته رأى آية الله العظمى البروجردي في المنام ان السيد المرتضى «علم الهدى» قد توفّي وجيء بجنازته إلى قم فحزن كثيراً، واستيقظ فرعاً من نومه وهو يتوقّع حدوث أمر ما، فلم تمض ساعة حتّى أخبروه هاتفيّاً بأنّ السيد

الخوانساري التحق بالرفيق الأعلى في همدان وأنّ نعشه سوف ينقل إلى قم. فدعى جميع العلماء والطلبة إلى الاستعداد لاستقبال نعشه وتشيعه، وشيّع في قم تشييعاً مهيباً ودُفن في الحرم الذي بجنب قبر السيّدة المعصومة عليها السلام إلى جانب قبر مؤسس الحوزة العلمية آية الله الحائري.

آية الله العظمى السيّد صدر الدين الموسوي



وهو أحد أكابر العلماء ومتمنّ تربوا في المدرسة التهذيبية للحوزة العلمية بقم، وقد هبّ بعد رحيل آية الله المؤسس إلى إدارة الحوزة العلمية والحفاظ على هذا الحصن الفكري والعلمي العظيم وذلك بمساعدة العالمين السالفي الذكر.

وبذلك فقد أتقذ الحوزة الفتيّة

وهي تسير مسيرتها التكامليّة من

عواصف الحوادث والآفات التي حقتّ بها، ودفع عنها خطر السقوط والإضمحلال، كما بذل قصارى جهده وبتمام الاخلاص في ترغيب الطّلاب في الاستمرار بدراساتهم، واجتهد كل الإجتهد في الذبّ عن هذا الكيان المقدّس والحفاظ عليه.

ولد سنة ١٢٩٦ هـ بالكاظميّة، ونشأ في بيئة علمية، وفي سنة ١٣٢٨ هـ قصد

النجف الأشرف لاكمال دروس المرحوم صاحب الكفاية والعلامة اليزدي، ثمّ هاجر إلى إيران، وبعد أن أقام فيها ستّ سنوات عاد مرّة أخرى إلى العراق، وفي سنة ١٣٤٩ هـ جاء إلى قم تلبية لدعوة المرحوم آية الله الحائري، وألقى فيها رحاله وأصبح محل اهتمام المؤسس الشيخ الحائري حتّى أنّه جعله أحد وصييه. وبعد رحيل مؤسس الحوزة الجليل تولّى أمر رعاية الحوزة بمعونة أخويه المجاهدين الآخرين.

خصائصه الأخلاقية

كان سامي الصفات صافي النية كامل الاخلاص رحب الصدر، وكان له اهتمام خاصّ بأمور الدين وتطبيقها وتحقيقها والسعي في أمور المستضعفين والمرضى والمحرومين، كان ذواقاً ومحبباً للأدب العربي، وكتب كتباً عديدة في مختلف المجالات، وهي تحكي عن سعة اطلاعه ومعلوماته. وإضافة إلى كتاب حاشية على كفاية الأصول فإنّ له الكفاية على الأصول وكتاب تاريخ الإسلام وأشعار وقصائد قيّمة ومراثي في أهل البيت عليهم السلام وهي تحكي عن عدم اكتراثه بالمنصب والمظاهر الاعتبارية، وله في رثاء جدّته الزهراء عليها السلام قصيدة بالعربية تعبّر عن مدى حزنه وألمه العميق.

عراقه أسرته

أسرة الصدر من الأسر العريقة في الإسلام، ولها انتشار واسع في الشرق الأوسط، ولها رجالات علميّة شهيرة في إيران ولبنان وفلسطين والعراق ومصر واليمن والسعوديّة وبقية أقطار الشرق الأوسط، وبرع منها شخصيات أمثال آية الله السيّد عبدالحسين السيّد شرف الدين العاملي والسيّد محمد الأمين والسيّد حسن الصدر والامام موسى الصدر وآية الله السيّد رضا الصدر - كانت ولا تزال نجوماً لامعة في سماء العالم وفي ميادين السياسة والإدارة الإسلاميّة، وهي مشاعل تنير الطريق لكلّ اقطار العالم الإسلامي.

الوفاة:

في صبيحة يوم السبت ١٩ ربيع الاوّل سنة ١٣٧٣ هـ. ق انتقل الى رحمة الله الواسعة دفن الى جنب قبر المؤسس في روضة سيده معصومة عليها السلام

الماضي التاريخي لحوزة قم العلمية

كانت مدينة قم منذ الماضي السحيق - أي منذ أن إعتنق الايرانيون الدين المحمّدي في إطار التشيع الأصيل، واتّخذوا مذهب الشيعة الاثني عشرية، مذهب المساواة والأخوة، وحبّ أهل بيت الرسالة والإمامة مذهباً لهم وقانوناً لحياتهم الروحيّة والمعنوية في الوقوف أمام الأجهزة الملكيّة الحاكمة وديكتاتورية الأمويين ومن بعدهم العباسيين، وبعبارة أخرى لمواجهة السلطة العربية الجديدة! مركزاً مهماً للتشيع.

لقد قام عماد مأمّن عشاق الامامة وملجؤهم هذا، وأصبح مركز قوّة شيعة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، وقد عرف سكّان هذا الموطن بحبهم وتفانيهم في الدفاع عن حريم التشيع حتّى أصبحت قم مبعث رعب الخلفاء الغاصبين المضيعين لحقوق العترة الطاهرة عليهم السلام، وبلغ الأمر أن خلفاء بني العباس الذين حكموا الدولة الإسلاميّة القوية على اتساعها، وتجبروا في حكمهم هذا فلم يتورّعوا عن اصدار أوامر القتل الجماعي بحقّ مخالفينهم، كانوا يتهيبون أهل قم، وكان هذا الرعب، هو السبب في عدم جرأتهم على تنصيب الامراء والحكّام والقوّاد من غير الشيعة على الرغم من رغبتهم الحقيقيّة في ذلك، ومن هنا فأتهم لم يكونوا يرون بدأً من التخلي عن انانيتهم وتجبرهم أمام اتّحاد أهل قم واستعدادهم للدّفاع عن حريم التشيع، وان يعاملوهم بالاسلوب المناسب باحترام الأفكار العامّة التي يعتقدون بها.

ومن الطبيعي أن تكون مدينة، بمثل هذه القوّة والاتّحاد والارعاب - منذ البدء - ملجأً ومأمناً لأكابر رجال الدين والعلم الذين يحافظ عليهم أهل قم

باعتبارهم جواهر كريمة ونفائس لا تثنى، وسيرون كل حفاوة وتكريم فيها، ومن هنا كانت قم منذ أيامها الأولى مهداً لتربية عظماء العلم والتقوى والايمان والفضيلة، وكعبة لآمالهم ومناراً لهم.

ان وجود العلماء والمحققين الكبار والمحدثين الأجلّة والشخصيات المؤثرة التي تخرّجت من قم أو تربّت فيها، وكذلك وجود الطلبة الأفاضل ومن ذابوا وتمسّكوا بسلالة الطهارة والامامة، وكذلك وجود المراكز العلمية والدينية والمكتبات النفيسة الغنية بكنوز العلم، والمدارس الدينية التربوية التي تخرّج من غرفها، أكابر رجال العلم والجهاد والتقوى.. ان وجود كل ذلك جعل من مدينة قم قلعة لا يمكن الاستيلاء عليها، تحمي حوزة التشيع وتذبّ عنه الأعداء.

وقد بلغ الأمر أن أحداً غير سليم القلب لو استطاع النفوذ إليها عبر المظاهر الخدّاعة ذات الباطن الخبيث، وأن ينفذ إليها مستغلاً نفوذ العلماء وهيمنتهم على القلوب فإن حركة صغيرة أو ايماء وإشارة، بل وحتى بيت شعر واحد يصدر عن صاحب بن عبّاد حيث قال يوماً:

أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم

يكفي لتعريفه ودفع شروره عن هذه الديار المقدّسة.. ديار الشرف والفضيلة، ولم يستطع أبداً أن يوجه ضربة إلى كيان الإسلام عبر وجوده المشؤوم أو أن يفرض نفسه دائماً على الواعين والعقلاء في قم، أو أن يخطو خطوة في سبيل خداعهم، ونظائر ذلك كثير.

قم، اشعاعاً من أنوار عظمة حفيده النبي ﷺ

لقد اكتسبت مدينة قم عظمتها وقدسيتها التي تقارن اسمها اليوم في أقطار العالم من أنوار وفضيلة سيّدة يعود أصلها إلى الامامة وتتحدّر من سلالة النبوة الطاهرة، فهي بذلك مثل للطهارة والفضيلة.. سيّدة يذكّر اسمها - فاطمة - باسم أظهر امرأة وأكرم من راه الدهر من النساء - ذلك هو اسم فاطمة بنت رسول الله ﷺ .
ان دراسة تاريخ الشيعة والغور في ثقافتهم وحضارتهم يوضّح أن لإسم

فاطمة في هذه الثقافة ذات الـ ١٥ قرناً مكانة واعتباراً خاصاً، وذلك لأنّ هذا الاسم لوحده كافٍ أن يُذكر بالأمجاد والقيم التي لا نظير لها، وبه تستعاد الذكريات العظيمة عن ألمع فترة من فترات مجد النساء المسلمات وعظمتهن وعفتهن.

وأول مرّة نطالع فيها هذا الاسم المبارك - من جهة عظّمته وإلقاء أنواره على تاريخ الشيعة لا من جهة الترتيب الزمني والتاريخي - هي بيت الرسالة وفي قمّة سلالة النبي الأكرم ﷺ الطاهرة، فهو يعرفنا ببنت نبي الإسلام الأكرم ﷺ الفاضلة، وثاني المعصومين في تاريخ البشرية، وأشرف امرأة في العالم، وأمّ الحسين عليه السلام.. أي الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام والبنت الوحيدة التي لُقبت بـ (أمّ أيها) السيّدة الطاهرة السامية الأصل التي قضت عمرها الشريف المبارك بطهارة وقدسيّة ومجد وعظمة، وفارقت الحياة لتلقى ربّها بشموخ وعزّة عظيمة.. السيّدة التي خلفت وراءها ديناً من الفضيلة والقدسية، وما سيرة حياتها وحياة أولادها المعصومين، الحسن والحسين وذريته إلّا صورة ناطقة ومثل مُعبّر عن عالم القدسيّة والفضيلة.

ونطالع هذا الاسم الجميل الطاهر في موضع آخر - ولاشك أنّ علينا أن نعود سنوات إلى الوراء من الناحية التاريخية - فنراه مقترناً باسم مولى المتّقين أمير المؤمنين وأول الأئمّة المعصومين لدى الشيعة وحسب، وأنّما كانت لها منزلتها العظيمة حتّى قبل ولادة ذلك الامام الهمام وخليفة النبي الحقّ، منزلة لم تبلغها امرأة حتّى ذلك اليوم ولم تبلغها بعده امرأة، وتلك هي انسها بالكعبة وحبّها العظيم لها وولها المحير بها، حتّى وضعت وليدها في جوف الكعبة فجعلت بيت الله بيتها وبيت ولدها. وكانت من الأوائل الذين أسلموا وآمنوا برسالة النبي الأكرم ﷺ وكانت الحادي عشر ممّن اقترنت أسماءهم باسم رسول الله ﷺ وحفر اسمها في صفحات التاريخ بأحرف من نور حين أسلمت وهي في تلك البيئة التي يحكمها الكفر والشرك والجهل.

فاطمة بنت أسد تلك السيّدة الطاهرة الجليّة التي قضى الرسول الأكرم سنوات من طفولته في أحضان محبّتها ورعايتها، وذلك في تلك الفترة التي تكفل

فيها أبو طالب - والد علي عليه السلام - رعاية ابن أخيه اليتيم، ولذلك كان النبي الأكرم يحب تلك السيدة الكريمة المضحية كأمه، حتى أنه بكى بكاءً مرّاً على جنازتها حين أدركتها الوفاة وكفنها بردائه وكبّر عليها أربعين تكبيرة، وأخيراً فإنه نزل في قبرها حين دفنها ليغمرها الأمان من فوادحه^(١).

فاطمة المعصومة عليها السلام

وفي سلسلة الفاطميات الطاهرات هذه، وبعد مضيّ ما يقرب من القرنين، تقف عند فاطمة أخرى.. عند اسم فاطمة بنت الامام موسى بن جعفر عليهما السلام.. هذا الاسم الجميل العظيم الذي هو ذكرى عطرة أخرى لسلالة العصمة والطهارة، وحبل يتصل بعترته النبي صلى الله عليه وآله والطاهرة.

جاء في تاريخ هذه السيدة الفاضلة: أنها نشأت في «مدينة» وفي عنقوان شبابها سافرت إلى إيران مواصلة للهدف السامي لأخيها الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام، غير أنها لما وصلت ساوة أصابها الحمى لشدة التعب وشقة السفر، وقد كان شوقها لرؤية أخيها قد هاج بها حتى أنها لم تستطع الصبر على ما بها من المرض فواصلت السير من ساوة إلى قم وهي في حالها، لكن مرضها قد اشتدّ فلازمت الفراش (١٧) يوماً، وفارقت الحياة وكلّها شوق لرؤية أخيها العظيم عليه السلام^(٢). وقد وردت في فضل زيارة هذه السيدة الجليلة المتّقية روايات كثيرة عن أخيها الامام الرضا عليه السلام ترغّب شيعة أهل البيت وتدعوهم إلى زيارتها بكلّ تعظيم وتبجيل^(٣).

قم حرم أهل البيت عليهم السلام

لقد اكتسبت قم - مدينة الدين وموطن العلم والمذهب، والتي كانت منذ (١٣)

١- سفينة البحار ٢: ٣٧٥.

٢- تاريخ قم، سفينة البحار ج ٢ مادة (فطم).

٣- المصدر السابق ٢: ٤٤٥.



قرناً ديار الفضيلة والمعنويات، وضمت ضريح السيّدة الطاهرة العظيمة فاطمة المعصومة عليها السلام فأضحت مزاراً للمؤمنين والمخلصين - بحق لقب مدينة الدم والتورة والاجتهاد، ومن هنا أصبحت هذه المدينة اليوم محطّ أنظار العالم ومورد اهتمام البشر أكثر من أيّ يوم مضى بحيث أنّ أخبارها تنصّد الأخبار والتقارير اليوم، وسادت الدنيا أحداثها وأنبأؤها.

لكن ينبغي أن نعلم بأنّ هذه المدينة المقدّسة منذ قديم الأيّام مورد اهتمام أئمّتنا المعصومين، حيث تحدّثوا عنها بأحاديث كثيرة وأخبروا بأمر تشير الإهتمام

يمكن أن تكون دليلاً على عظمتها الحالية.

ومن باب المثال نشير إلى عدّة أحاديث طريفة قيّمة:

١ - قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «انّ الله.. واحتجّ ببلدة قم على سائر البلاد وبأهلها على جميع أهل المشرق والمغرب. وسيأتي زمان تكون قم وأهلها حجّة على الخلائق، وذلك في زمان غيبة قائمنا. ستخلو الكوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تأزر الحيّة في حجرها ثمّ يظهر العلم في بلدة يقال لها قم وتصير معدن للعلم والفضل».

٢ - علي بن عيسى عن أيوب بن يحيى بن جندل عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام: «رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحقّ، يجتمع معه قوم كزبر الحديد لا تزلهم الرياح العواصف، ولا يملّون من الحرب ولا يجنبون وعلى الله يتوكلون والعاقبة للمتقين^(١)».

٣ - روى القاضي نور الله التستري أنّ الامام الصادق عليه السلام قال: انّ الله حرماً وهو مكّة، ألا أنّ لرسول الله حرماً وهو المدينة، ألا وانّ لأمير المؤمنين حرماً وهو الكوفة انّ هذه الكلمات المنيرة والمحذرة، وهي بصورة تنبؤ عجيب، وبهذه الدرجة من الوضوح، قد وردت عن شخصيتين ربانيتين عظيمتين، وإمامين معصومين للشيعة، وهما الامام السادس والامام السابع، وهي من جملة الأحاديث والروايات الإسلامية المعتبرة.

والحقّ، أنّه ممّا يزيد قلوب المؤمنين إيماناً وأرواحهم اطمئناناً، والمكذّبين والمشكّكين حيرة وضلالة وأسفاً أنّ يبشّر الامام السادس مؤسس المذهب الجعفري ورئيسه وابنه العظيم الامام السابع قبل ما يقرب من ١٣٠٠ سنة، وبهذه الصورة الجازمة التي ليس فيها أدنى تردّد أو شك، بمكانة قم الحالية، وظهور رجل من أهلها، ويبلغانها أهل الأرض والمسلمين.

واليوم، حيث يقف الإسلام كلّه أمام الكفر كلّه في حرب غير متكافئة، فإنّ العالم الإسلامي يرى بوضوح وجلاء تحقّق تلك البشارة الملكوتية والوعد

السمائي، إذ لم تعد مدينة قم في زماننا هذا منطلقاً للثورة الأصيلة لشعب إيران، وقلعة للدين والعلم والأفكار الخلاقية وموطناً لها وحسب، وأنما أصبحت خندقاً لمكافحة الجهل والفساد، ومقراً للشرف والفضيلة، ومحوراً لجميع الحركات البشرية والإسلامية.

اليوم يرى الإسلام كلّهُ فتدبّ فيه روح جديدة، ويرى الكفر كلّهُ فيضطرب ويتزلزل، بأنّ ألفاً و ثلاثمائة عام تمرّ على تلك البشارة الملكوتية يقوم عالم ربّاني كآية الله العظمى الامام الخميني، وكما قال الامام السابع فإنّه دعا الناس إلى الحق والحرية فأجابه الناس بعزم حديدي وإرادة ثابتة.

اليوم يرى العالم بأسره بأنّ نداء المطالبة بالحقّ الذي أطلقه هذا العالم العظيم قد عمّ الدنيا ودوى في الآفاق، وبعث الحياة والنشاط في جميع مسلمي العالم - بل وحتى جميع المستضعفين من غير المسلمين في دنيانا المليئة بالظلم والجور هذه - وكما قال إمامنا العظيم فإنّ مدينة قم لم تعد مناراً للشعب الإيراني وحسب، وأنما أصبحت كهف الامام وكعبة الأمانى لجميع المسلمين وكأفة المستضعفين في العالم.

مدينة فاطمة المعصومة عليها السلام

إذا ألقينا نظرة خاطفة فسنرى أنّ هذه المدينة المباركة قد أصبحت مركزاً للأفكار الإنسانية السامية والحركات الإسلامية، وبلغت ما بلغت من الرفعة والمكانة المرموقة منذ أن ضمت المرقد الطاهر لشخصيّة إسلامية رفيعة وسيّدة طاهرة عالمة عفيفة نقيّة الأصل سامية النسب، ألا وهي السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام، فقد منح وجود هذا المرقد المدينة شرفاً وفضلاً، ومنذ ذلك اليوم دخلت مدينة قم الصغيرة مرحلة جديدة من تاريخها، حيث جعل حلول تلك السيّدة الجليلة من مدينة قم ملجأً لشيعّة أهل بيت العصمة والطهارة، وكعبة تهوى إليها أفئدة الشخصيات الإسلامية العظيمة.

ومنذ ذلك الحين تعلقّ بها العلماء المسلمون وكبار المهتمّين بأُمور الإسلام والدين وعشاق عترة نبي الإسلام صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلي عليه السلام فألقوا رحال إقامتهم إلى جوار

مرقد السيدة الجليلة، فظهرت في قم تدريجياً حوزات علمية هامة سعت إلى نشر الأفكار الإسلامية.

وقد أسست بمرور الأيام حوزات علمية معتبرة في قلب هذه المدينة، وكانت أهمية هذه الحوزات ومكائنها تزداد يوماً بعد آخر فخرجت المحدثين والفقهاء والمتكلمين والعلماء العاملين والمجتهدين الأجلة، وكان لكل منهم مقامه المتألق في تاريخ الجهاد الفكري الإسلامي.

الضريح المشرق:

كما قلنا سابقاً فإن مدينة قم تتمتع بمكانة خاصة بسبب قدم وجودها وماضيها الممتد في أعماق التاريخ، إضافة إلى فضيلتها التي حصلت عليها بمدح الأنمة المعصومين لها وما تحدّثوا به حول مستقبلها، ومع ذلك فإن هذه المدينة قد اكتسبت اعتبارها ومكائنها المتسامية منذ أن أصبحت مضجعاً لسيدة عظيمة تنحدر من سلالة الرسالة والامامة، وهي السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام تلك السيدة النقية الطاهرة التي عمّ شعاع عظمتها وفضيلتها وقديستها العالم وأطبقت شهرتها الأفاق، بحيث أنه جذب إليه في مدة وجيزة طلاب العلم والفضيلة وعشاق التقوى والمعنويات، فامتألت المدينة بنفائس الجواهر والدرر، وأصبحت بمرور الأيام أضخم مقرّ علمي في العالم الإسلامي وأسمى قاعدة للعلم فيه.

كانت فاطمة المعصومة عليها السلام سليلة أهل بيت الإمامة الطاهر الفاضل، أوحديّة في الزهد والعبادة والتقوى والعفة من بين بنات إمام الشيعة السابع، فقد ربطتها بأخيها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام علاقة قويّة ومحبة ملتهبة واضحة منذ نعومة أظفارها، فقد كانت متواضعة أمام أخيها أشدّ التواضع.. تواضع الطالب المؤدّب أمام أستاذه القدير، وتسكن سكون الطفل الوديع أمام حبّ أبيه ورأفته، حتّى أنّها لم تغفل لحظة عن إظهار حبّها واحترامها له، ولم تدع فرصة تمرّ دون أن تنهل من بحر علمه وتقواه، ولذلك فإنّ هذه الأخت العظيمة لم تكن لتتحمل فراق أخيها العزيز لحظة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّها كانت تشعر دائماً أن تكون

تلميذة بارزة مقدّمة في مدرسة جهاد أخيها الفكري والمعنوي وتجاهد معه جنباً إلى جنب، ولذلك فإنّها تعيد إلى الأذهان - لدى ذوي الفضل والرأي - محبّة بطلة كربلاء زينب الكبرى عليها السلام وشهامتها وجهادها مع أخيها الشهيد الحسين بن علي عليهما السلام.

وعندما أتى بالامام الرضا عليه السلام إلى إيران في زمن خلافة المأمون العباسي غير الشرعية، اختار عليه السلام مدينة طوس موطناً له ليتابع جهاده الرّباني ويهدي الأمة الإسلامية إلى ما فيه سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، فإنّ أخته الفاضلة فاطمة المعصومة عليها السلام لم تنطق ألم فراقه، ولذلك فإنّها عازمت على المسير إلى أخيها الامام الرضا عليه السلام سنة ٢٠١هـ لتلتحق به وتشاركه في جهاده في سبيل الله. فشدّت الرحال وغادرت الحجاز متّهجة إلى إيران.

يوم غادرت السيّدّة المعصومة عليها السلام المدينة إلى مرو - مشهد اليوم - كانت في عنفوان شبابها، فلم تكن جاوزت سنّ الثامنة عشر، وإذا كان السّفر بين مدينتين متجاوزتين في تلك الأيام يصعب على الرجال ذوي المراس والتجربة - وذلك لوعورة الطرق وقلّة وسائط النقل ومستلزمات السفر - فلا تخفى مدى الصّعوبة في سفر تطول مدّته وتعظم مشقّته بالنسبة لفتاة شابّة، وكم عليها أن تتحمّل من المصاعب والمشاق؟

لكن وبالرغم من ذلك فإنّ تلك السيّدّة الكريمة قد هزّها الشوق لرؤية أخيها والإلتحاق بركبه والانخراط في مدرسته الجهاديّة، فتحملت كلّ تلك المصاعب والمشاق الكثيرة، وبعد أن سارت المسافات الشاسعة وقضت الأيام التي ملئت بالصعوبات وصلت مدينة (ساوه). غير أنّها، ونتيجة لكلّ تلك الآلام والمتاعب والسير هذه المسافات الطويلة الوعرة، لمّا وصلت ساوة أصابها حمى شديدة أشعلت جسدها المرهق فمرضت مرضاً شديداً.

ورغم كل ذلك فقد كانت مصرّة على مواصلة المسير، ولم تسمح لنفسها أن تتوقّف يوماً، إلّا أنّ من معها عرض عليها التوقّف والإستراحة هنيئة، فقد رأوا أنّ مواصلة السفر بهذا الحال من الضّعف والمرض لا يخلو من خطر، ومن الأفضل أن ينيخو ركبهم أيتاماً طلباً للراحة، وبعد أن تعود الصّحّة يواصلون مسيرتهم.

أمّا سليمة النبوة والإمامة، والتي كان يتحرّق قلبها شوقاً إلى رؤية أخيها، ولم تعد تطبيق فراقه، فإنّها رأت رأياً آخر، ففي بادئ الأمر سألت عن المسافة بين ساوة وقم، فلمّا علمت أنّها عشرة فراسخ طلبت من الغلمان أن يحملوها إليها على ما بها من الحمى لتستريح في قم - بدل ساوة - أيّاماً ثمّ تواصل رحلتها. وهذه المسألة تعبّر عن اهتمام تلك السيّدة الجليلة بمدينة قم، فهي تعكس بجلاء أنّ مدينة قم كانت مورد اهتمام أهل البيت عليهم السلام وأنّها معروفة لديهم رغم صغرها وانعدام ما يلفت الأنظار إليها، وإضافة إلى ذلك فإنّ هذه المدينة الصغيرة كانت ذات أهميّة خاصّة في نظر أهل البيت باعتبارها مدينة الإيمان والفضيلة، بحيث أنّها استحققت أن تكون محلاً لاقامتهم، ومن هنا اهتمّت بها السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام واختارتها محلاً لإقامتها.

يقول صاحب سفينة البحار: لما أخرج المأمون الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام من المدينة إلى مرو سنة مائتين خرجت فاطمة أخته في سنة إحدى ومائتين تطلبه فلمّا وصلت إلى ساوة مرضت فسألت كم بيني وبين قم قالوا عشرة فراسخ فأمرت خادمها فذهب بها إلى قم وأنزلها في بيت موسى بن خزرج فلمّا وصل إليها أخذ بزمام ناقتها وجرّها إلى قم وأنزلها في داره فكانت فيها ستّ عشر يوماً ثمّ مضت إلى رحمة الله ورضوانه وهي في الثامنة عشرة من سنّها (١٨٣ - ٢٠١) فدفنها موسى بعد التغسيل والتكفين في أرض له وهي التي الآن مدفنها إلى أن بنت عليها زينب بنت الجواد عليها السلام القبة. والمحراب الذي كانت فاطمة عليها السلام تصلي فيه موجود إلى الآن في دار موسى بن الخزرج ^(١).

وقد رويت أحاديث عدّة عن تلك السيّدة الجليلة ثبتت في الكتب الحديثيّة، ومنها حديث الفاطميّات الذي ورد اسم فاطمة في سنده مرّات وفي آخر السند فاطمة بنت رسول الله. وقد نقش هذا السند العظيم الذي يتحدّث متن حديثه عن منزلة الولاية وشأنها ومودة أهل البيت عليهم السلام على مزار السيّدة الكريمة فاطمة المعصومة عليها السلام.

الدور الأساس في تأسيس حوزة قم العلميّة

لقد بلغت السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام - النجم المشرق لأهل بيت الرسالة وسليّة آل العصمة والطهارة والمنحدرة من أسرة الإمامة، وهي مبعث فخر واعتزاز نساء العالم الإسلامي - مبلغاً عظيماً من عظمة الشأن وسموّ المنزلة وعلوّ المقام، حتّى أصبحت السند المعنوي والدعامة القويّة التي يستند إليها رجال العلم والفضيلة والمجتهدين في سبيل نشر الحقائق الإسلاميّة، وهي النواة المركزيّة والمحور الأساس لحوزة قم العلميّة، تلك الحوزة التي أخذت على عاتقها نشر الأفكار الإسلاميّة الصحيحة والأصيلّة، وغدت مركزاً لنشر الأفكار الحقيقيّة الواقعيّة للدين الإسلامي الحنيف في دنيانا المعاصرة، إضافة إلى تقدّم وتسامي أهدافها العلميّة ومقاصدها المعنويّة والإرشادية، وصمودها أمام الظلم والظالمين، وفضحها لمؤامرات أعداء الإسلام، والقيادة المحطمة للأصنام البشريّة التي تسلم زمامها أحد الأعظم الذين برزوا من هذه الحوزة، كلّ ذلك جعل تلك الحوزة تثير الحيرة في العالم، حتّى أنّ هذه الحوزة العظيمة التي لا نظير لها عرفت اليوم بأنّها مهد الحرّية وخذق الاستقامة والصمود وقلعة الايمان وسرّ عظمة دولة إيران الإسلاميّة الثوريّة. اليوم، وببركة وجود تلك السيّدة الجليلة، أصبحت مدينة قم ملجأ العلماء الأعلام والمراجع العظام والقادة المسلمين الأكابر في المجال الروحي والفكري و السياسي، وتحوّلت حوزتها العلميّة إلى مقرّ لقيادة العمليّات الإرشادية والمعنويّة، حتّى أنّ الجميع قد خضعوا وطأطؤوا أمام قدسيّة تلك السيّدة الكريمة التي أضاءت أنوارها هذه المدينة، وانطلقت أنوارها من المدينة لتعمّ أنحاء إيران وكافة الأقطار الإسلاميّة، وهم يهدونها التحية والسّلام المنبعث من الصميم أثناء الليل وأطراف النهار، وهم لا يغفلون لحظة عن أنّها النواة المركزيّة لدائرة العلم والايمان في هذا البلد الإسلامي الثوري، ويجتمعون حول سراجها كما يجتمع الفراش حول السراج إذا رآه، وذلك أنّهم رأوا رأي العين وأيقنوا بأنّ هذا الوجود المقدّس هو أساس المعنويّات ورمز الثبات والصمود وسرّ بقاء الحوزة العلميّة ونجاحها.

حوزة قم العلمية وآثارها

احتلّ المرقد الطاهر للسيدة المعصومة عليها السلام بنت الإمام السابع للشيعة قلب الحوزة المركزية لعلماء التشيع، وأصبح هذا المرقد مصدر قوّة وإلهام وحمود ومقاومة يحظى باحترام الآلاف من العلماء المسلمين ورجال العلم والفضيلة وزوّار ذلك المرقد وعشّاقه، فترى مواكب العشّاق الولهين بهذا الضريح المقدّس ينهالون عليه ليل نهار ويستنشقون عطر نسيمه الفوّاح فتنتعش أرواحهم وتسرّ قلوبهم، وهم يثنون الركاب عند أعتابه ليتعلّموا من مدرسته المتعالية، دروس الفضيلة والتقوى والجهاد في سبيل الله ويعلمونها الآخرين.

إنّ هذه الفئة المتعلّمة في ظل هذه المدرسة المجاورة لتلك البقعة المباركة ثبت كل ما تتعلّمه في آفاق المدن الأخرى وتنتشر في جميع المدن والأقضية والقرى الموجودة في أنحاء بلدنا الإسلامي، بل وتجتاز الحدود لتصل إلى مختلف نقاط العالم الإسلامي لتوضح بذلك مضمون الحديث الشريف «منها يفيض العلم إلى سائر البلدان» بأجلى الصور.

لقد إتخذ الآلاف من طلبة العلم والفضيلة مواضعهم في ذلك الخندق العلمي المقدّس، وهم يحامون عن المقام الشامخ للعلم والدين، ولم يقتصر الحال في الوقت الحاضر على أن يربّي رجال الايمان رجال العلم والفضيلة من الأجيال الصاعدة، وإنّما شمل الحال النساء أيضاً، حيث فتحت المدارس العالية المستوى (كجامعة الزهراء) والتي انخرطت فيها مئات النساء المتّقيات العفيفات، وهنّ يحصلن العلوم الإسلامية فيها تحت إشراف أساتذة أكفّاء أجلة، ليصبحن بعد إكمال فترة الدراسة خطيبات وكاتبات ومرّجات لأحكام الدين في الأوساط النسويّة في هذا البلد الإسلامي، وليتّجهن إلى أقصى نقاط البلاد ومختلف المدن والقرى لاداء رسالتهن وواجبهن.

الجامعة ذات الـ ١٣ قرناً من التاريخ المعنوي

مما يلفت النظر أنّ هذه الحوزة المقدّسة وان كان قد قصر تاريخها بوضعها

الحالي، غير أننا إذا نظرنا إليها باعتبارها جامعة إسلامية عظيمة فسنرى أنّ لها تاريخاً يمتدّ إلى ١٣ قرناً من الزمن.

وبعبارة أخرى فإنّ هذا الحصن العلمي والايماي المنيع قد استقطب أنظار رجال العلم والتحقيق منذ الأيام الأولى التي اشتهر فيها كبقعة ضمت المرقد الطاهر للسيدة المعصومة عليها السلام ومنذ ذلك الحين بدأت قوافل طلاب العلوم الدينية تأتي هذه المدينة من مختلف الأصقاع الإسلامية، فوضعوا بذلك الحجر الأساس لأعظم جامعة في العلوم الإسلامية.

وأما تأسيس الحوزة العلمية على ما هي عليه اليوم فقد تمّ على يد العالم الربّاني آية الله العظمى المرحوم الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي، وأصبحت في ستين سنة الأخيرة أحد أهم وأقوى المراكز الفكرية والعلمية في إيران والعالم الإسلامي وأعظمها حظاً بالاهتمام والتقدير^(١).

من هنا، ومع الأخذ بنظر الاعتبار المسؤوليات الثقيلة التي تحمّلتها الحوزة العلمية في قم طوال تاريخ الجهاد السياسي والاجتماعي والإسلامي في إيران

١ - كانت قم منذ القديم محطاً أنظار شيعة أهل البيت، وتخرّج منها علماء ومحدّثون أعظم، لكن عندما ظهر رضا خان على المسرح السياسي في إيران استطاعت أن تظهر بجلاء ماهيتها وهويتها التاريخية والإسلامية الإنسانية، وكان ذلك في زمن تحمّل فيه آية الله الحائري - ذلك الرجل الربّاني .. رجل الأفكار وصاحب المدرسة الفكرية والعقائدية التهذيبية، والذي ذاع صيته في الآفاق - أعباء المرجعية في عالم التشيع، وكان يؤدّي واجبه العلمي في قيادة الشيعة في العالم في مدينة قم.

وقد اكتسبت حوزة قم في تلك الفترة رونقاً وعظمة خاصة حتّى ضاهت حوزتها العلمية الحوزات العلمية التي أشرفت عليها شخصيات علمية مبرزة في العالم الإسلامي كالبهبهاني والشيخ الأنصاري والميرزا الشيرازي والآخوند الملامحمد كأظم الخراساني وأستاذ المتأخرين الشيخ ضياء الدين العراقي قدس الله أسرارهم، وذلك لأنّ مدرسة هذا العالم الربّاني قد خرّجت الفحول الذين كان لكل منهم دوره التاريخي المهمّ ومدرسته الفكرية والعقائدية العظيمة، وإذا عرفنا الشخصيات العلمية المعاصرة الشامخة التي حملت راية قيادة الأمة الإسلامية وإرشادها فسنعرف جيّداً قيمة المدرسة التهذيبية والمقام العلمي الرفيع لتلك الشخصية الإسلامية الجليلة، فإنّ أكثر الستمائة شخصية علمية وإسلامية بارزة - أو ما يقرب من الجميع - التي تربّت في الحوزة العلمية لآية الله الحائري أصبحت شخصيات شهيرة في العالم الإسلامي.

وجميع الأقطار الإسلامية خلال الستين سنة الأخيرة، نرى من المناسب أن نتناول ماضي هذه الحوزة العلمية المليء بالانتصارات والانتكاسات ونبحث في جهاد قادتها وحملة رايثها.

وقد أوضح هذا التحقيق والبحث كثيراً من المسائل التي بقيت مبهمة في ليل التاريخ البهيم لدى المؤرخين ورواد الجهاد في هذا المجتمع الثوري، وليكن هذا التحقيق على تواضعه وعدم ادعاء الكمال فيه، أساساً لتحقيقات أخرى يقدمها المحققون في هذا المجال، فهو يبين بجلاء، وحسب طاقته، كيف استطاع الشعب الإيراني المسلم أن يثور ضد المستعمرين الشرقيين والغربيين بقيادة العلماء المخلصين وينتصر عليهم في هذا العالم المضطرب الذي تحف به المؤامرات الخطيرة، وكيف أن بإمكان الشعوب الإسلامية الأخرى أن تستلهم العبر من هذه التجربة التاريخية الكبرى وتستند إلى المعايير الإسلامية العالمية الشاملة فتحطم فراغنة الزمان وتقضي على حكوماتهم.

البيان الإنساني والثوري للحوزة

تحدّث آية الله الطالقاني - وهو أحد نماذج الجهاد والتقوى والفضيلة، وأحد المترين في أحضان حوزة قم.. الرجل الذي فكر وجاهد من أجل الإسلام والإنسان والشرف الإنساني - بعد انتصار الثورة بحديث حماسي في المدرسة الفيضية بمدينة قم جاء فيه:

«.. مدينة قم مدينة الثورة الإسلامية والإنسانية الأصيلة.. مدينة مذهب أهل البيت.. المدينة التي كانت



منطلق التحوّلات والتطوّرات في بقية مدن إيران.. قم مهد تربية نظائر الصدوق

والمحدّثين والعلماء والفلاسفة، وأضراب الملاّ صدرا والحائري حتّى تصل النوبة إلى ثورة الشيخ محمد تقي اليزدي أبي ذر زمانه.

إنّ هذا الباب والجدار، وهذا الصحن الثاني يمثّل ذكرياتي لخمسين سنة خلت، فهو ينبهني الآن ويعتصر قلبي ويدوي نداؤه الغيبي في أذني .. أنّكم لا تدرّون أي حدّ أرى أبواب قم وجدرانها مصدر وحي وإلهام بالنسبة لي، فها هي صرخات الاعتراض التي أطلقها الشيخ محمد تقي اليزدي.. انظروا إلى هذا الصحن فستمسمعون فيه دويّ سياط رضا خان القاتلة، ووقع أقدام أزلامه الذين هجموا على هذا المرقد الطاهر بالمدافع والدبابات، وكنا في قبضتهم، ضربنا، طعنا، غير أنّا ثبتنا وجاهدنا، والحقّ، ما الذي كان يريد رضا خان أن يقول؟

ويسترسل آية الله الطالقاني في حديثه فيقول:

«.. بعد سنة أطلق سراح هذا الشيخ.. أبي ذر زمانه.. هذا الرجل الذي كان يقتات على الخبز اليابس، ونُفي إلى حرم السيّد عبدالعظيم، فذهبت للقائه، فحسر لي عن ذراعه وكانت آثار السياط لاتزال عليها».

نعم، هكذا كان آية الله الطالقاني يتحدّث عن مدينة قم والرجال المجاهدين الذين حملوا راية الجهاد، وأعاد إلى الأذهان كيف استطاعت هذه المدينة أن تؤدّي رسالتها الإلهية والإنسانية عبر أنواع العذاب هذه، ومن خلال تحمّل المصاعب والملمات.. والحوزة التي عانت الظلم والمشاق، هي التي أضاءت أفق الآمال والأمني أعين الشعب الإيراني المظلوم، وكشفت عن وجودها الثمين عبر ندائها وبيانها الإسلامي والإنساني والثوري الذي أعلنته في الفترة المظلمة للحكم البهلوي.

إنّ حوزة قم العلمية - وكما قيل - قد دبّت فيها روح جديدة منذ أن هاجر آية الله العظمى الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري إلى قم، وبدأت مرحلة جديدة من حياتها العظيمة اليوم.

وفي الحقيقة، فمنذ أن ألقى الشيخ رحاله في مدينة قم أصبحت مدينة الثورة هذه مركزاً ومجمعاً علمياً ومعنوياً للعالم الإسلامي ومقرّاً لمراجع الدين والقادة

الفكرين والاجتماعيين العظام، وأضحت قلعة استأثرت النشاط والبحث والتحقيق في المذهب العلوي، وورثت الثبات والدقة في المسائل الإسلامية في الفقه الجعفري الغني.

مشاهير تاريخ قم

إنّ الغور في تاريخ قم يوضح أنّ هذه المدينة المباركة كانت دائماً مهدياً لتربية الأكابر الذين كانت أسماؤهم تزيّن محافل العلم والأدب والتحقيق والفقه والفلسفة الإسلامية أمثال الشيخ الصدوق رئيس المحدثين وابن قولويه أستاذ الفقيه الأوحد الشيخ المفيد والبرقي البارع في أكثر العلوم والفنون، وحنين بن سهيل الفيلسوف الشهير الذي قال فيه ابن العميد الوزير: «إذا لم يظهر منّا إلا هو لكفانا ذلك». والخواجة نصير الدين الطوسي الذي اشتهر في شرق العالم وغربه، وابن العميد وزير ركن الدولة الديلمي، ومؤيد الدين القمي وزير خلفاء ثلاثة من خلفاء بني العباس، وتاج الملك أبي الغنائم القمي وزير ملكشاه السلجوقي، ومجد الملك البراوستاني الوزير علي، ونظام الكنجوي صاحب الديوان^(١).

الفقهاء والمحدثون

مدينة قم مدرسة تخرّج منها جماعة من أبرز الفقهاء والمحدثين المسلمين الذين ان أردنا مجرد ذكر أسمائهم وخصائصهم وفضائلهم لاحتجنا إلى مجلد كبير، ولذلك، ورعاية للاختصار، فأننا نكتفي بذكر أسماء بعضهم مع تعريف مختصر بهم.

* أبو الحسن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي: وهو من أبرز مشايخ الحديث ومن أكابر رؤساء المذهب الشيعي. توفي سنة ٣٢٩ هـ.

* أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي: المقلب بالشيخ الصدوق، رئيس المحدثين وإمام الفقهاء والمجتهدين، وباقرار علماء الرجال فإنه لا نظير له بين علماء قم في الحفظ وجزارة العلم.

١- تاريخ قديم قم - تاريخ قم وراهنماي قم.

* أبو عبدالله الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي: أخ الشيخ الصدوق، ويعدّ أيضاً من أكابر العلماء والمحدّثين، وله آثار قيّمة.

* أبو القاسم جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن قولويه القمي: وهو من أكابر المحدّثين وأبرزهم، ويعدّ من أساطين الفقه.

* أبو محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي: فقيه سامي المنزلة ومحدّث جليل، وهو ابن أخت ابن قولويه، ألف كتاباً في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام أورد فيه مائة منقبة أوردتها المخالفون.

* شاذان بن جبرئيل بن إسماعيل بن أبي طالب القمي: محدّث جليل له مكانته، وفقه مبرز كبير، وله تأليفات قيّمة منها زاد المسافر.

* سعد بن عبدالله بن أبي خلف الأشعري القمي: وهو من أصحاب الامام الحسن العسكري عليه السلام وكان عالماً جليلاً مبرزاً.

* محمد بن أبي القاسم القمي الملقب بـ (ماجيلويه): وهو صهر أحمد بن أبي عبدالله البرقي ويكفي في علمه وفضله أن قال فيه العلامة الحلّي: سيدنا من أصحاب القميين.

* محمد بن الحسن الصفّار القمي: وهو من أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام وكان فقيهاً جليلاً له تأليفات نفيسة قيّمة أحدها بصائر الدرجات.

* أبو عبدالله محمد بن خالد البرقي القمي: وهو من أصحاب الامام الرضا عليه السلام وكان فقيهاً جليلاً.

* أحمد بن محمد بن خالد البرقي: وهو من أكابر العلماء شيع جنازته أحمد بن عيسى - وكان فقيهاً جليلاً ورئيساً لقم - وهو حاسر الرأس حافي القدمين.

* السيّد صدر الدين بن محمد باقر الرضوي القمي: عالم شامخ المكانة وفقه كامل كان الأستاذ الأكبر من تلامذته وعبر عنه بالسيّد السند الأستاذ.

وجمع آخرون لا يحصون تضيق هذه الأوراق عن ذكر أسمائهم جميعاً.

فلاسفة قم

إضافة إلى الفقهاء والمحدثين والعلماء الجهابذة في العلوم الدينية، فإنّ مدينة قم قد ربّت في أحضانها فلاسفة أعظم يعدّون مفخر للفلسفة الإسلامية وكانت أفكارهم المتعالية مناراً للمحافل الفلسفية الإسلامية لقرون طويلة، ونحن نكتفي هنا بذكر أسماء بعضهم:

* أبو المحارب حنين بن سهل بن محارب القمي: وهو من فحول الحكماء وأعظم الفلاسفة المسلمين، وهو الذي كان ابن العميد الوزير يرى وجوده لوحده كافياً لأنّ يكون مفخرة لمدينته ودياره.

* الخواجه نصير الدين محمد بن محمد الجهرودي الطوسي: عالم قلّ نظيره، ومحقق لا ثاني له، وفيلسوف قدير قال فيه جرجي زيدان المحقق والكاتب العربي المسيحي في كتاب (آداب اللغة العربية): كان في مكتبته أكثر من أربعمئة ألف كتاب، جمع حوله الفلاسفة وعلماء النجوم والعلماء وأوقف عليه الأوقاف، وقد ازدهر العلم على يد هذا الرجل الفارسي في بلاد المغول وتألّق اشراقاً حتّى كأن نوراً قد مزّق ظلام الليل الدامس. من جملة آثاره النفيسة كتاب (تجريد الكلام) الذي شرحه جماعة من أبرز العلماء منهم العلامة الحلي، وشرح العلامة له يدلّ على أهمّيته أثر الخواجه وعظمته.

* القاضي سعيد محمد بن محمد المفيد القمي: من فحول العرفان ومبرزي الحكمة في القرن الثاني عشر، وقد عدّوه مؤيداً بروح القدس في استنباط الدقائق والنكات الحكيمية وكشف الأسرار المكنونة وقالوا: ان من المستحيل الوصول إلى ما وصل إليه من دون هذا التأييد^(١).

١- اعتمدنا في ذكر مشاهير قم وفقهائها ومحدثيها وفلاسفتها على كتب: تاريخ مذهبي قم، نامه دانشوران وراهنمای قم.

الإمام موسى الصدر

بطل العلم و العمل

من ابرز خرّيجي الحوزة العلميّة بقم المشرفّة السيد السّنّد موسى الصدر، هو ابن السيد صدرالدين بن السيد إسماعيل بن السيد صدرالدين محمد بن السيد صالح شرف الدين، من جبل عامل في جنوب لبنان.

ولد السيد صالح شرف الدين في قرية شحور قضاء صور سنة ١١٢٢، و اقام فيها، و كان عالماً دينياً جليلاً، و كان يملك مزرعة إسمها «شدغيث» بالقرب من معركة، و في هذه المزرعة ولد ابنه السيد صدرالدين.

تعرّض السيد صالح لإضطهاد أحمد الجزار، في اطار حملة الجزار الشاملة باضطهاد علماء المسلمين في جبل عامل فا قدم جنود الجزار على قتل ابنه الاكبر السيد هبة الله و كان في الحادية و العشرين من عمره أمام بيت والده في قرية «شحور» و بحضوره، ثم اعتقلوا السيد صالح و بقي تسعة أشهر في معتقله في عكا، الى أن تمكّن من الفرار الى العراق، حيث اقام في النجف الأشرف.

تبع السيد صالح النجف الأشرف أخوه السيد محمد الذي الحق به زوجته و ولديه السيد صدر الدين و السيد محمد على صار السيد صدرالدين من جهابذة علماء الدين و تزوّج ابنة المجتهد الأكبر الشيخ كاشف الغطاء، ثم نزع الى اصفهان، و انجب خمسة علماء دين، أصغرهم السيد إسماعيل الذي ترك اصفهان، و أقام في النجف الأشرف و عرف باسم السيد الصدر نسبة لأبيه، و انعقدت له المرجعيّة العامّة للشيعة، الى أن توفّي سنة ١٣٣٨ تاركاً أربعة أولاد صاروا علماء دين:



أوّلهم: السيد محمد مهدي، صار أحد مراجع الدين الكبار في الكاظمية، شارك في الثورة العراقية و ابن عمه السيد محمد الصدر الذي تولّى رئاسة الوزارة في العراق، و كان أحد قادة الثورة العراقية الكبار.

ثانيهم: السيد صدرالدين، والد السيد موسى الصدر قاد في شبابه حركة دينية تقدمية و ارتبط اسمه بالنهضة الأدبية العراقية، ثم هاجر إلى إيران و توطّن خراسان، ثمّ استدعاه المرجع العام الشيخ عبدالكريم اليزدي ليقم معه في قم معاوناً له في إدارة الحوزة الدينية، و صار أحد اركان الحوزة الكبار، و مرجعاً معروفاً و توفي

سنة ١٣٧٢.

نشأته وعلومه

ولد السيد موسى الصدر في ٥ أذر سنة ١٩٢٨ في مدينة قم، و تلقى علومه الابتدائية والثانوية، كما تلقى دراساته الدينية على عدة من أساتذة حوزتها. تابع دراسته الجامعية في كلية الحقوق في جامعة طهران، و حاز على الإجازة في الحقوق.

أتقن اللغة العربية مضافاً إلى الفارسية و ألم بالفرنسية و الإنكليزية. صار أستاذاً محاضراً في جامعة قم الدينية.

انتقل سنة ١٣٧٤ إلى النجف الأشرف، و بقى فيها عدة سنين حضر خلالها في الفقه و الأصول على كبار مراجع الدين، كالسيد محسن الحكيم، و السيد أبي القاسم الخوئي و غيرهما.

قدومه إلى لبنان

قدم لبنان - أرض أجدادها - أوّل مرّة سنة ١٣٧٤ فتعرّف على أسرته في صور، و حلّ ضيفاً في دار كبيرهم حجة الإسلام و المسلمين ، و الزعيم الديني آية الله السيد عبدالحسين شرف الدين الذي تعرف مواهبه و مزاياه، و صار يتحدث عنه في مجالسه بما يوحى بجدارته لأن يخلفه في مركزه بعد وفاته.

و بعد أن توفى حجة الإسلام السيد عبدالحسين شرف الدين، كتب اهالي صور رسالة إليه في قم تدعوه إليها ليتقلّد زمام الامور الروحية و المعنوية و حينما قدّم الى صور استقبلوه بحفاوة و قالوا ان السيد شرف الدين رجوع و عاد شاباً و حينئذ أهدى الشعراء المادحون احساساتهم و عواطفهم له و منها الشعر التالي:

يا «صور» شقى بالسناء الوضّاء

و تجملى بمطارف العلياء

و تبلّجى بالنيرات تبلّجت

تُهدى لافقك زاهر الأضواء

و تعطّرى بشذى الربيع فقد أتى
 يـحبور بوعك عاطر الأشـذاء
 و استلهمى وحي الكمال يشعّ من
 نور الهدى و الحكمة الغرّاء
 قد أن تجلى فراعنة الهوى
 و يزول سحر الغى و الأغواء
 فلقد أتى «موسى» الرّشاد يزيلها
 بعصا الفضيلة و اليد البيضاء
 فذّ تحرّر من سلالة أحمد
 و وصيّه و البضعة الزّهراء
 و بدى بأفاق السّيادة كوكباً
 للحقّ يجلو غيب الظّلماء^(١)
 و هكذا قدم لبنان في أوائل سنة ١٣٧٩ و أقام في مدينة صور.

نشاطاته قبل إنشاء المجلس الإسلامي

بدأ السيد الصدر الرعاية الدينيّة و الخدمة العامة في صور، موسعاً نطاق الدعوة و العمل الديني بالمحاضرات و الندوات، و متجاوزاً سلوك الإكتفاء بالوعظ الديني، الى الإهتمام بشؤون المجتمع، و تحرّك في مختلف قرى جبل عامل، ثمّ في قرى منطقة بعلبك و الهرمل، يعيش حياة سكّانها و معاناتهم من التخلف و الحرمان، ثم تجوّل في باقى المناطق اللبنانيّة، متعرفاً على أحوالها و محاضراً فيها، و منشئاً علاقات مع الناس من مختلف فئات المجتمع اللبناني و طوائفه، و داعياً الى نبذ التفرقة الطائفية، باعتبار أنّ وظيفة الدّين هي الإستقامة الأخلاقية، و أنّ الأديان واحدة الحضارات الإنسانيّة، و الى مكافحة الآفات الإجتماعية و الفساد و الإلحاد. و شارك مع الحركة الإجتماعية في عشرات المشاريع الإجتماعية، و ساهم

في العديد من الجمعيات الخيرية والثقافية، و أعاد تنظيم جمعية البرّ والإحسان في صور و تولّى نظارتها العامة، و جمع لها تبرّعات و مساعدات أنشأ بها مؤسسة إجتماعية لإيواء و تعليم الأيتام و ذوى الحاجات الإجتماعية الصعبة، ثم أنشأ مدرسة فنيّة باسم: بيت الفتاة.

و سافر إلى عدّة بلدان عربيّة وإسلاميّة و أفريقيّة و أروبيّة مساهماً في المؤتمرات لإسلامية، و محاضراً و متفقداً أحوال الجاليات اللبانية و الإسلامية، و دارساً معالم الحياة الأروبية، و متصلاً بذوي الفعاليات و النشاطات الإنسانية و الإجتماعية الثقافية.

و بعد أن وقف على أحوال الطائفة الإسلامية الشيعية و مناطقها و مؤسّساتها في لبنان، ظهرت له الحاجة إلى تنظيم شؤون هذه الطائفة، باعتبار أن لبنان يعتمد نظام الطوائف الدينية، و أنّ لكلّ من الطوائف الأخرى تنظيمات يختصّ بها، و كان قد أنشئ بالمرسوم الإشتراكي رقم ١٨ تاريخ ١٣/١/١٩٦٢، تنظيم خاصّ بالطائفة الدرزية، بحيث بقيت الطائفة الإسلامية الشيعيّة وحدها دون تنظيم.

فأخذ يدعو إلى أنشأة مجلس يرعى شؤون هذه الطائفة، أسوة بالطوائف الأخرى، و لقيت معارضة من بعض الزعماء السياسيين في الطائفة و من بعض القوى خارجها، و استمرّ متابعاً هذه الدعوة سنوات، و في مؤتمر صحفي عقده في بيروت بتاريخ ١٥/٨/١٩٦٦، عرض آلام الطائفة و مظاهر حرمانها، بشكل علمي مدروس، و مبنى على إحصائات، و بيّن الأسباب الموجبة للمطالبة بإنشاء هذا المجلس، و أعلن أنّ هذا المطلب أصبح مطلباً جماهيرياً تتعلّق به آمال الطائفة.

و أثمرت الدعوة نتائجها بإجماع نواب الطائفة الإسلامية الشيعيّة على تقديم إقتراح قانون بالتنظيم المنشود، أقرّه مجلس النواب بالإجماع في جلسة ١٦/٥/١٩٦٧، و صدّقه رئيس الجمهورية بتاريخ ١٩/١٢/١٩٦٧، بمقتضاه أنشئ المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، ليتولّى شؤون الطائفة و يدافع عن حقوقها، و يحافظ على مصالحها و يسهر على مؤسساتها و يعمل على رفع مستواها و نصّ القانون المذكور على أن يكون لهذا المجلس رئيس يمثله و يمثّل الطائفة، و يتمتع

بذات الحرمة و الحقوق و الامتيازات التي يتمتع بها رؤساء الأديان.

إنتخابه و ولايته

بتاريخ ١٩٦٩/٥/٢٣ إنتخب أوّل رئيس للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، و كانت ولاية الرئيس محدّدة في قانون إنشاء المجلس بسّت سنوات و نظراً لكون ولاية رؤساء الطوائف الأخرى تمتدّ مدى الحياة، فلقد جرى تعديل مدّة ولاية رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بحيث أصبحت لغاية إتمامه الخامسة و الستّين من العمر، و تمّ هذا التعديل وفقاً للأصول بعد موافقة الهيئة العاملة للمجلس بالإجماع بتاريخ ١٩٧٥/٣/٢٩.

برنامجه

أعلن برنامج عمله لتحقيق أهداف المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في خطاب ألقاه يوم إنتخابه، و في كلمته الترحيبية برئيس الجمهورية اللبنانية عندما قدم لتنهئته بتاريخ ١٩٦٩/٦/١٠، و في البيان الأول الذي أصدره بتاريخ ١٩٦٩/٦/١٠.

يتضمن هذا البرنامج الخطوط الرئيسية الآتية:
تنظيم شؤون الطائفة و تحسين أوضاعها الإجتماعية و الإقتصادية.
القيام بدور إسلامي كامل، فكرياً و عملاً و جهاداً.
عدم التفرقة بين المسلمين، و السعي للتوحيد الكامل.
التعاون مع الطوائف اللبنانية كافة، و حفظ وحدة لبنان.
ممارسة المسؤوليات الوطنية و القومية، و الحفاظ على إستقلال لبنان و حرّيته و سلامة أراضيه.

محاربة الجهل و الفقر و التخلف و الظلم الإجتماعي و الفساد الخلقى و الحرمان.

دعم المقاومة الفلسطينية، و المشاركة الفعلية مع الدول العربية الشقيقة لتحرير

الأراضي المغتصبة.

سعيه لحماية جنوب لبنان و صمود أهله.

صادف الأشهر الأولى من بداية ولاية السيد الصدر اعتداءات إسرائيلية على منطقة الحدود الجنوبية التي تقطنها كثافة شيعية، فقاد حملة مطالبة السلطات اللبنانية بتحسين قرى الحدود، و تسليح أبناء الجنوب و تدريبهم للدفاع و وضع قانون خدمة العلم، و تنفيذ مشاريع إنمائية فى المنطقة، و ذلك إلى جانب قيامه بحملة توعية حول الأخطار التي تهدد الجنوب، مع دعوة اللبنانيين لعدم النزوح من قراهم الحدودية، و لمجابهة الاعتداءات الإسرائيلية.

و تحت ضغط هذه الحملة، إتخذت الحكومة اللبنانية قراراً بتاريخ ١٢/١/١٩٧٠، بوضع خطة عامة لتعزيز أوضاع منطقة الحدود اللبنانية.

تحركه الشعبى لإنقاذ الجنوب

إنشاء مجلس الجنوب

تابع السيد الصدر بمحاضراته فى المناطق اللبنانية كافة، يطرح وضع الجنوب على المستوى الوطنى العامّ معبئاً المجتمع اللبنانيّ بأسره ليتحرك باتجاه إنقاذ الجنوب.

وعلى أثر العدوان الإسرائيلى بتاريخ ١٢/٥/١٩٧٠ على القرى الحدودية الجنوبية الذى ألحق خسائر جسمية بأرواح المواطنين الأبرياء، و متملكاتهم، و تسبب بنزوح أكثر من خمسين ألف مواطن من ثلاثين قرية حدودية، بادر السيد الصدر بتاريخ ١٣/٥/١٩٧٠ إلى دعوة الرؤساء الدينيين فى الجنوب من مختلف الطوائف، فأسس معهم هيئة نصره الجنوب، التى أولته رئاستها، و أولت نيابة الرياسة للمطران أنطونيوس خريش (بطريك الطائفة المارونية فيما بعد) و تبنت هذه الهيئة مطالب الصدر من أجل حماية الجنوب.

ثمّ دعاه الى اضراب وطنى سلمى شامل لمدة يوم واحد من أجل الجنوب، و

تجاوب كل لبنان مع هذه الدعوة، و نفذ الأضراب الشامل بتاريخ ١٩٧٠/٥/٢٦، و اعتبر حدثاً وطنياً كبيراً.

و اجتمع مجلس الجنوب في مساء اليوم ذاته، فأقرّ تحت ضغط التعبئة العامة مشروع قانون وضع أفكار الصدر، موضع التنفيذ، و يقضى بإنشاء مؤسسة عاملة تختصّ بالجنوب مهمتها تلبية حاجات منطقة الجنوب، و توفير أسباب السلامة و الطمأنينة لها، و صدر هذا القانون بتاريخ ١٩٧٠/٦/٢، و سنداً له أنشأ مجلس الجنوب، و ربط برياسة مجلس الوزراء، و تأمّنت لهذا المجلس واردات بلغ مجموعها لغاية منتصف سنة ١٩٨٠، أكثر من مئتي مليون ليرة لبنانية، خصّصت لتعزيز صمود الجنوبيين و للتعويض عن أضرار الاعتداءات الإسرائيلية، و للإنفاق على مشاريع و خدمات عامّة في الجنوب.

حركة من أجل المحرومين

مع استمرار الاعتداءات الإسرائيلية على جنوب لبنان في سنة ١٩٧١ و ما يليها، استمرّ الصدر حاملاً لواء الدفاع عن هذه المنطقة، و معلناً أنّ انهيارها يعني انهيار لبنان، و مؤكّداً مطالبته بالتجنيد الإجباري و تعميم الملاجىء و تحصين القرى و تأمين وسائل الدفاع الحديثة.

الى جانب مطالبته هذه، قاد حملة مطالبة السلطة اللبنانية بتنمية المناطق المحرومة، و إلغاء التمييز الطائفي و انصاف الطائفة الإسلامية الشيعية في المناصب الوزارية، و الوظائف العامة و موازنات المشاريع الإنمائية.

أنكر العهد الجمهوري الجديد في لبنان (عهد الرئيس فرنجية الذي بدأ في أيلول سنة ١٩٧٠ على المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى و رئيسه حقهما القانوني في تعاطي الشؤون العامة، فتجاهلت الدولة هذه الحملة.

أعلن الصدر بتاريخ ١٩٧٤/٢/٢ معارضته للحكّام المسؤولين في لبنان، لأنهم يتجاهلون حقوق المحرومين و واجب تعمير المناطق المختلفة و يهدّدون بسلوكهم أمن الوطن و كيانه.

صعد الصدر حملته من أجل المحرومين بمهرجانات شعبية عارمة، كان أضخمها مهرجان بعلبك بتاريخ ١٧/٣/٧٤ و مهرجان صور بتاريخ ٥/٥/٧٤. اللذين ضمّ كلّ منهما أكثر من مئة ألف مواطن أقسموا مع الصدر على أن يتابعوا الحملة و أن لا يهدأوا إلى أن لا يبقى محروم في لبنان أو منطقة محرومة. و هكذا ولدت حركة المحرومين التي رسم مبادئها الصدر بقوله إنّ حركة المحرومين تنطلق من الإيمان الحقيقي بالله و بالانسان و حرّيته الكاملة و كرامته، و هي ترفض الظلم الاجتماعي و نظام الطائفية السياسية، و تحارب بلا هوادة الإستبداد و الإقطاع و التسلّط و تصنيف المواطنين، و هي حركة وطنية متمسك بالسيادة الوطنية و سلامة أرض الوطن و تحارب الإستعمار و الإعتداءات و المطامع التي يعترض لها لبنان.

دوره في إنشاء أفواج المقاومة اللبنانية «أمل»

في خطاب ألقاه الصدر ٢٠/١/١٩٧٥ بمناسبة ذكرى عاشوراء، دعا المواطنين اللبنانيين الى تشكيل مقاومة لبنانية تتصدى للإعتداءات الإسرائيلية، و للمؤامرات التي تدبرها إسرائيل لتشريد اللبنانيين من أرضهم لأنّ الدفاع عن الوطن ليس واجب السلطة وحدها، و إذا تخاذلت السلطة فهذا لا يلغى واجب الشعب في الدفاع.

و في مؤتمر صحفي عقده الصدر بتاريخ ٦/٧/١٩٧٥ أعلن ولادة أفواج المقاومة اللبنانية (أمل) و قدّمها بانها (أزهار الفتوة و الفداء ممن لبّوا نداء الوطن الجريح الذي تسترت إسرائيل بالإعتداء عليه من كل جانب و بكلّ وسيلة) و أوضح أن عندما وَّجه لهذه الغاية دعوته إلى لبنانيين جميعاً بتاريخ ٢٠/١/١٩٧٥، في الأيّام التي بلغت فيها الإعتداءات الإسرائيلية على الجنوب ذروتها، و لم تقم السلطات المسؤولة بواجبها الدفاعي عن الوطن و المواطنين.

و برهن شباب أمل على أرض جنوب لبنان عن مواقف بطولية في عدة معارك مع العدو الإسرائيلي (معركة الطيبة مثلاً) و سقط منهم شهداء في الهجمات

الإسرائيلية المتكرّر على الجنوب، و كان لهم فضل كبير في منع صهانيّة القطاع الحدودي، و في تثبيت المواطنين في قراهم الجنوبية.

إنجازاته في المشاريع و تملك عقارات الأوقاف

في بدء ولاية عمل على تأمين مقرّ للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في بناء لائق يتألف من أربعة طوابق، و يقوم على عقار مساحته ٦٤٧٥ متراً مربعاً، و يحتوي على قاعات واسعة للإجتماعات العامة، و يقع في محلة الحازميّة بضاحية بيروت الشرقية الجنوبية، سجّلت ملكية هذا العقار باسم أوقاف الطائفة الإسلامية الشيعية.

سعيه لإنهاء الحرب الداخلية في لبنان

أدرك أنّ إنهاء الحرب في لبنان يتطلّب قراراً عربياً مشتركاً، و أنّ هذا القرار يجب أن يسبقه وفاق عربي، فانتقل إلى دمشق بتاريخ ٧٦/٨/٢٣ و منها إلى القاهرة بتاريخ ٧٦/٩/٢ عاملاً في تنقية الأجواء بين البلدين و توحيد موقفيهما من حرب لبنان من أجل إنهائها و استمرّ لغاية ٧٦/١٠/١٣، متنقلاً بين هذين البلدين، و بين السعودية و الكويت و متصلاً برئيس الجمهورية اللبنانية الجديد و بالمقاومة الفلسطينية ساعياً مع الملوك و الرؤساء و المسؤولين العرب لتحقيق تضامن عربي ينهي حرب لبنان، و أثمرت هذه المساعي مع مساعي مسؤولين عرب و انتهت بإنعقاد مؤتمر قمة الرياض بتاريخ ١٩٧٦/١٠/١٦ الذي تلاه مؤتمر قمة القاهرة بتاريخ ٧٦/١٠/٢٥ و فيهما تقرر إنهاء الحرب اللبنانية، و فرض ذلك بقوات الردع العربية.

مع دخول قوات الردع العربية، دعا إلى الخروج من أجواء الحرب، و الإلتفاف حول الشرعية اللبنانية، و التمسك بوحدة لبنان الواحد و صيانه كيانه و استقلاله و إعادة بناء الوطن و مؤسساته و أعلن بتاريخ ١٩٧٧/٥/١١، ورقة عمل بمقترحات الإصلاحات السياسيّة و الاجتماعيّة و المبادئ الأساسية لبناء لبنان

الجديد، متمسكاً بصيغة التعايش بين طوائفه الدينية و نادى بفصل الأزمة اللبنانية عن أزمة الشرق الأوسط و بوضع اتفاق بديل لاتفاق القاهرة فى تنظيم العلاقات بين الدولة اللبنانية و المقاومة الفلسطينية و دعا الحكم اللبناني لاتخاذ مواقف حازمة ممن يعرفلون مسيرة السلام و الوفاق.

سعيه لاتقاذ جنوب لبنان:

لم تدخل قوات الردع العربية جنوب لبنان، و لم تمكن السلطة اللبنانية من بسط سيادتها على هذه المنطقة، فانتقل إليها صراع الفئات و القوى التي كانت تتصارع على الأراضي اللبنانية الأخرى قبل دخول القوات المذكورة. و اشتدت محنة جنوب لبنان، و باتت هذه المنطقة مسرحاً لأحداث خطيرة تهدد مصيرها، فيما كان الصدر يتابع مساعيه مع المسؤولين و القيادات فى لبنان و رؤساء بعض الدول العربية و يرفع صوته فى الخطابات و الأحاديث الصحفية و المناسبات، ابتداءً من أواخر سنة ١٩٧٦ و طيلة سنة ١٩٧٧ و فى أوائل سنة ١٩٨٨، محدراً من كارثة فى جنوب لبنان، و من خطر تعريضه للإحتلال الإسرائيلى و لمؤتمرات التوطين و داعياً لتحقيق السلام فى هذه المنطقة، و لإعادة سلطة الدولة اللبنانية عليها.

و لما حصل الإجتياح الإسرائيلى لهذه المنطقة بتاريخ ١٤/٣/١٩٧٨ و استقر الإحتلال الإسرائيلى فى الشريط الحدودى من جنوب لبنان، قام بجولة جديدة على الدول العربية، يعرض خلالها على الملوك و الرؤساء العرب واقع الأوضاع فى هذه المنطقة مطالباً بإبعاد لبنان و يعمل على إنقاذه، و بعد أن زار لهذه الغاية سوريا و الأردن و السعودية و الجزائر، ثم انتقل إلى ليبيا بتاريخ ٢٥/٨/١٩٧٨.

إخفاؤه فى ليبيا

وصل إلى ليبيا فى التاريخ المذكور، يرافقه فضيلة الشيخ محمد يعقوب و

الصحفي الأستاذ عباس بدرالدين في زيارة رسمية، و حلّوا ضيوفاً على السلطة الليبية في فندق الشاطيء بطرابلس الغرب.

و كان قد أعلن قبل مغادرته لبنان أنّه مسافر إلى ليبيا من أجل عقد إجتماع مع العقيد معمر القذافي.

أغفلت وسائل الإعلام الليبية أخبار وصوله إلى ليبيا و وقائع أيام زيارته لها، و لم تشر إلى أيّ لقاء بينه و بين العقيد القذافي، أو أيّ من المسؤولين الليبيين الآخرين، و انقطع اتصاله بالعالم خارج ليبيا على خلاف عادته في أسفاره، حيث كان يكثر من اتصالاته الهاتفية يومياً بأركان المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان و عائلته.

شاهد في ليبيا مع رفيقيه لأخر مرّة ظهر يوم ١٩٧٨/٨/٣١. بعد أن انقطعت أخباره مع رفيقيه و أثّرت ضجّة عالمية حول اختفائه معهما، أعلنت السلطة الليبية بتاريخ ٧٨/٩/١٨ أنّهم سافروا من طرابلس الغرب مساء يوم ٧٨/٨/٣١ إلى ايطاليا على متن طائرة (إيطاليا).

وجدت حقائبه مع حقائب فضيلة الشيخ محمد يعقوب في فندق (هولياندى أن) في روما.

أجرى القضاء الإيطالي تحقيقاً واسعاً في القضية، إنتهى بقرار اتّخذه المدعي العامي الإستئنافي في روما بتاريخ ٧٩/٦/١٢ بحفظ القضية بعد أن ثبت أن الصدر مع رفيقيه لم يدخلوا الأراضي الإيطالية، و تضمّنت مطالعة نائب المدعي العام الإيطالي المؤرخة ١٩٧٩/٥/١٩ الجزم بأنهم لم يغادروا ليبيا، إنتهى.

آرائه و افكاره:

الامام موسى الصدر عالم مثقّف ذوراية و حزم هو عملاق من العمالقه له كلمات و آراء كلها في صدور ابناء لبنان و جنوب لبنان و أبناء المجلس الأعلى الشيعي و جنود أمل و منها:

«سأجعل من جنوب لبنان صخرة منيعة تتحطم عليها أحلام اسرائيل لن اتخلّى

عن القدس حتى و لو فعلها أبو عمّار»^(١)

«مكاني بينكم عرشي قلبكم، قوتى يديكم، حارسي عيونكم، مشاريعي تنفذ بواسطتكم، مجدى اجتماعكم، عدوى عدوكم، صديقي صديقكم، يدي يديكم، لأستبدل بكم احداً فى الدنيا، لاملكاً و لارئيساً ولا وزيراً ولا كبيراً ولا صغيراً»

الإمام موسى الصدر (فرّج الله عنه) بطل العلم و العمل و رجل الحرب و المحراب، علم من اعلام الشيعة، متفكّر اجتماعي، سياسي، كاتب متضلع جامعي، مثقف، خطيب بارع من المناضلين الأحرار و المكافحين فى سبيل الإنسانية و الإسلام مؤسس الامل و امل المستضعفين فى لبنان و فى جنوبه له مناضلات و مكافحات عظيمة و خدمات جليله فى مناطق ايران، لبنان. صور صيداء و جنوب لبنان و فى اى قطر من أقطار المسلمين و له شهرة واسعة فى أقطار العالم الاسلامى. ولد فى ايران فى اسرة جلييلة، علمية، اجتماعية مرجعية، نشأ و ترعرع فى احضان الحوزة العلمية و تحضّل على اعلى مدارج العلم و العمل فى الحوزة و الجامعة الى ان توفى الامام السيد عبدالحسين شرف الدين زعيم الحركة البنائة الاسلامية فى جنوب لبنان و ساير مناطقه صاحب المراجعات و عدّة كتب مفيدة أخرى و جعله نائبا فى مقامه «خير خلف لخير سلف» و عندما وصل السيد موسى الصدر فى ١٣٨٥ هـ. ق الى مدينة صور ليتقلّد زمام الامور الروحية و المعنوية.

آثاره الخالدة:

للسيد الإمام موسى الصدر له اعمال جلييلة و خدمات اجتماعية، سياسية، ثقافية انسانية فى المستوى العالمى هو الذى اتّس مراكز هامه، جوامع، و خدمات انسانية مفيدة خالدة و من اهمها خدمة الشيعة المحرومين و جعلهم فى المستوى اللايق بشأنهم فى جنوب لبنان و أعطى لهم هوية سياسية مشخّصة و منزلة رفيعة،

١- السيد خليل سلمانى الذى عاش مع الامام الصدر عشر سنوات.

عارض بفكر و عمل في طرد اسرائيل و اذنايه، و وَّحد صفوف المسلمين و غيرهم في لبنان و جعلهم في صفِّ واحد تجاه اسرائيل و العدو الصهيوني المدعم بالسلاح الامريكى و الانجليزى.

انَّ السَيِّدَ موسى الصِّدْرَ كان فريدة في خَلْقِهِ و خُلُقِهِ، في ورعه و ذكائه، في عقله و تدبيره، في معنويَّته و كياسته، في كماله و جماله مع الحفاظ على اصالته الروحانية.

آثار و تأليف:

للسيِّد الامام موسى الصدر مقالات متنوّعة و مكتوبات و آثار قيّمة طبعت و انتشرت في الافاق العربية و الاقطار الاسلامية نخصّ بالذكر:

- ١ - الاسلام و ثقافة القرن العشرين
- ٢ - تفسير سورة والعصر
- ٣ - الاسلام و التربية المدنية
- ٤ - الاسلام و المراتة ٥ - الاسلام و المعاملات الجديدة فى ضوء الفقه الاسلامى و غيرها...



آراء و اقوال في حقّه

رئيس تحرير مجلة الأمل:

الإمام موسى الصدر: العقل النير الذى لاينقطع عن القلب الودود انه الفكر المتلتزم بالضمير انه ضمير لبنان الواعى انه الابداع الذى انعم الله به على الانسان فى لبنان - انه الجدوة التى اوقدها العليم الخبير فى نفوس المتقّين و الخير أو المتفكرين.



الإمام شيخ مهدي شمس الدين:
تزامننا ثم تصادقنا تأخينا مع
الإمام موسى الصدر إن اهتماماته
العربية تتمحور حول القضية
الفلسطينية بشكل مركزي و مشكلة
لبنان التي بدأت في اوائل السبعينات
هذه المشكلة التي لانزال نحياها و

تطوّرت الى ان انفجرت سنة ٧٥ و لاتزال حتى الآن و هو ذهب ضحيتها، ضحية
هذه الاهتمامات.



نبيه برّي:

اننا على أرض الامام الصدر
الصلبة في موقع القسم - إنهم حاولوا
حرمان المحرومين من قائدهم الذي
حول الحرمان من حالة على حركة
مقاومة الى حركة تغيير، إن الامام

موسى الصدر قد اصبح حالة فكرية ذهنية خطت عميقاً في ذاكرة اوسع قاعدة
شعبية على مسافة الوطن...

الشيخ عبدالامير قبلان المفتي الجعفري في لبنان:



إن الإمام موسى الصدر أمة في
رجل بالعمل الدائم، و القلب النابض و
الفكر الخلاق و الانسان الشجاع
فدائى هذه الامّة صاحب الصدر
الرحب و الاخلاق المتواضعة الإنسان

الذي عاش هموم اهله تبنى انقاذه كان همّه الوحيد عودة هذا الشعب الى تراثه و
أصالته و جذوره...

الدكتور سليم الحصّ (رئيس حكومة لبنان السابق)



الإمام موسى الصدر كان إمام
بين قومه و عملاقاً في وطنه و منذاًن
غاب، غابت قيم كثيره كانت تحفظ
للعمل الوطني في لبنان سلامة الخط و
الرؤية و الممارسة..

الدكتور نزيه البزري:



الإمام القائد السيد موسى
الصدر هو الذي كان يتمّع بقدرة فائقة
على رص الصفوف و على الحوار
المنفتح بين كل فئات و الطوائف و
الفاعليات دون خوف او تستر او
تلكوء...



شيخ احمد الزين قاضي شرع صيدا:

يحار المرء من اين يبدأ
بالحديث عن الامام السيد موسى
الصدر؟

هو الظاهرة السياسيّة و القيادة
المتميّزة ملئت الساحة اللبنانية و

شغلت اقطابها على امتداد خمسة عشر سنة من عمر الوطن المنكوب...



المطران بولس الخوري:

في الليلة الظلماء يفتقد البدر
نحن بحاجة الى موسى ثان يضرب
بعصاه السحرية مياه البحر الأحمر
فيشطره الى شطرين لنعبر على اليابسة
الى الميناء الأمين...

نحن بحاجة الى قائد قوى
يحطم الرؤوس الفارغة التي خلقت
هذه الحرب القذرة و يقود الشعب

البريء الى النصر النهائي على اعداء الشعب الداخليين والخارجيين...

نحن بحاجة الى رئيس دين يعلم الناس أن الاديان كلها من الله. وإنها انزلت
للخير و البناء و ليس للشرّ و الهدم و الدمار و الإستعمار...

غيبوك أيها الامام الصدر و ظنّوا انهم قضاوا على مبادئ الوفاق و العيش

المشترك و لكن المبادئ الذي بشرت بها باقية لم تغيب...

هي باقية في المؤسسات الإنسانية التي أنشأتها و في حركة (أمل) التي

أسسناها...

الإمام الخميني^(١)

بطل الكفاح في القرن العشرين

الإمام الخميني فقيه بارع، فيلسوف الهى، عارف ربّانى،
مرجع تقليد للجماهير وقائد الثورة الإسلاميه وبنى
الحكومة في ايران.

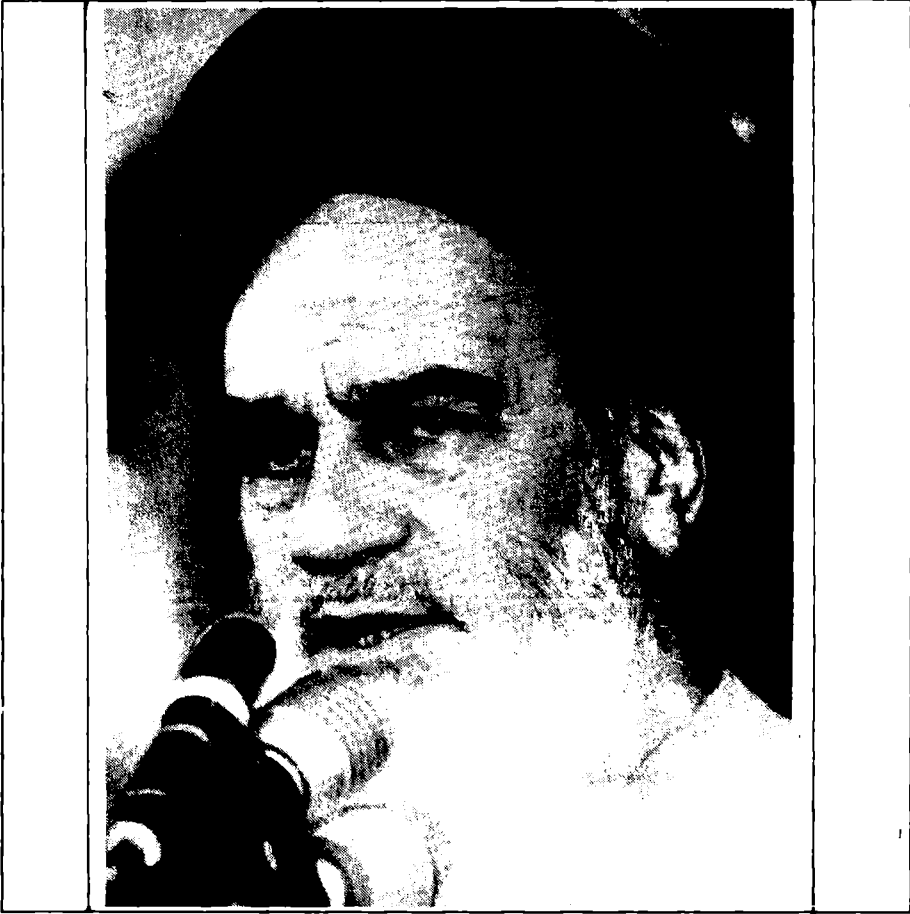
يوم الكوثر

في النصف الثاني من عام ١٣٢٠ هجري وُلد في ايران مولود غيّر فيما بعد
بثورته العملاقة مصير ايران وملامح العالم الإسلامي، و جعل جميع القوى العظمى و
جميع اعداء حرية الشعوب و استقلالها يقفون صفاً واحداً في مواجهته ساعين في
القضاء عليه، غير انه - و بفضل الباري - اصابهم جميعاً - و بعمله العظيم و افكاره
وعقيدته التي ينافح عنها و ينادي باسمها - بالعجز و الخيبة.

حفيده الكوثر

فى ٢٠ جمادى الآخرة يوم ولادة الصديقة الطاهرة ولد حفيده المجاهد، نعم
إنه العشرون من جمادى الآخرة عام ١٣٢٠ هجري (٢٤ سبتمبر ١٩٠٢ م) يوم من

١- قيسات قصيره من كتاب قيم لسماحة الفاضل النشيط و الرفيق الملازم لصاحب الترجمة السيد حميد
الأصاري نقل بإجازة مترجم العربية الفاضل الصديق السيد احمد قصير حفظه الله تعالى أخذنا اجازة
النقل في لبنان..



أيام الكوثر، اليوم الذي أطلَّ فيه روح الله الموسوي الخميني على هذا العالم في بيت من بيوت العلم و الهجرة و الجهاد و في عائلة تشرَّفت بالانتساب إلى الزهراء الطاهرة (سلام الله عليها) في مدينة خمين من توابع المحافظة المركزية (أراك) كان الإمام الخميني خير خلف لخبر سلفٍ بذلوا أقصى مساعيهم في هداية الناس و كسب المعارف الالهية فوزَّثوه هذه السجايا. أباً عن أبٍ و جدّاً عن جدّ عاصر المرحوم آية الله السيد مصطفى الموسوي والد الإمام الخميني المرحوم آية الله العظمى الميرزا الشيرازي (رض) زعيم الثورة المعروفة بالتبغ و درس العلوم و المعارف الإسلامية في النجف الاشراف لعدّة سنوات، و بعد ان بلغ مرتبة الاجتهاد

عاد إلى إيران ليقيم في خمين و يصبح ملجأ و ملاذاً و موجّهاً للناس في امور دينهم.

لم يُتم «روح الله» خمسة اشهر من عمره، حتّى قام الطواغيت و الباشوات المدعومين من قبل عملاء السلطنة آنذاك بالرّدّ على مساعي والده في احقاق الحق و الوقوف بوجه الظّالمين باطلاق النار عليه، فاستشهد على ايديهم الغادرة و هو في طريق من (خمين) إلى (اراك) و قد اصرت عائلة الشهيد على المطالبة بحقّها في القصاص من قاتله و اجراء العدالة، مما اضطرّ (دارالحكومة) آنذاك إلى النزول عند اصرارهم - بعد مراجعتهم ايّاها في طهران و انزال القصاص بحق قاتله. و بدأ يكون الإمام الخميني قد واجه و منذ طفولته قسوة اليتيم و التعرّف على مفهوم الشهادة.

بعد وفاة والده امضى الإمام الخميني طفولته في احضان والدته (السيدة هاجر) سليمة عوائل العلم و التقوى فهي من احفاد المرحوم آية الله الخونساري (صاحب زبدة التصانيف) - و رعاية عمّته الموقرة (صاحبة خانم) المرأة الشجاعة التقية، حتّى اذا ما بلغ الخامسة عشرة من عمره حرم هذين الحضنين الحنونين أيضاً. درس الإمام و اتمّ و منذ نعومة اظفاره - مستفيداً مما حياه الله به من ذكاء متدفق - قسماً المعروفة في الحوزات الدينية مثل آداب اللغة العربية، المنطق، الفقه، الاصول، على ايدي معلّمين و علماء منطقتهم كالميرزا محمود افتخار العلماء، و المرحوم الميرزا رضا النجفي الخميني و المرحوم الشيخ علي محمد البروجردي و المرحوم الشيخ محمد الكلبيكاني و المرحوم الشيخ عباس الأراكي و اخيه الاكبر آية الله السيد مرتضى بسنديه - الذي امضى عنده اكثر وقته المدرسي فسافر بعد ذلك و في عام ١٩١٩م إلى اراك ليواصل دراسته في حوزتها.

السفر إلى قم

بُعید انتقال آية الله العظمى الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي (رحمه الله) إلى قم، انتقل الإمام الخميني من اراك إلى قم في رجب المرجب عام ١٣٤٠ هـ فطوى سريعاً مراحل دراسته التكميلية في الحوزة العلمية في قم و على أيادي اساتذتها.

فقد اكمل كتاب «المطوّل» (في علم المعاني و البيان) على مرحوم الميرزا محمد علي الأديب الطهراني، كما اكمل السطوح على المرحوم آية الله السيد محمد تقى الخوانساري، والرحوم آية الله السيد علي اليربى الكاشاني كذلك فقد اتّم دروس خارج الفقه و الأصول على زعيم الحوزة العلمية في قم آية الله الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي (رضوان الله تعالى عليهم اجمعين).

انّ الروح المرهفة الوثابة التي كان الإمام الخميني يتحلّى بها دفعته الى عدم الاكتفاء باتقان آداب اللغة العربية و الدروس الفقهية و الاصولية، فقد توجه سماحته - و في غضون دراسته للفقه و الاصول على ايدي فقهاء و مجتهدين - لدراسة الرياضيات و الهيئة و الفلسفة على المرحوم الحاج السيد ابوالحسن الرفيعي القزويني، ثم واصل دراستها مع العلوم المعنوية و العرفانية على المرحوم الميرزا علي الاكبر الحكيمي اليزدي، كما درس العروض و القوافي و الفلسفة الإسلامية و الفلسفة الغربية على المرحوم الشيخ محمد رضا المسجد شاهی الاصفهاني، كما درس الاخلاق و العرفان على المرحوم آية الله الحاج الميرزا جواد الملكي التبريزي ثمّ درس اعلى المستويات من العرفان النظري و العملي، و لمدة ستة اعوام - على المرحوم آية الله الميرزا محمد علي الشاه آبادي - اعلى الله مقاماتهم اجمعين -

بعد وفاة آية الله العظمى الحائري اليزدي أثمرت الجهود التي بذلها الإمام الخميني مع جمع من المجتهدين في الحوزة العلمية في قم، دفع آية الله العظمى البروجردى^(١) (رض) لتسّم زعامة الحوزة العلمية في قم و خلال هذه المدة امضاها

١- هو السيد حسين بن علي بن الميرزا أحمد الطباطبائي الحسيني البروجردي. ولد في بروجرد سنة ١٢٩٢ هـ. ق. وانهى المقدمات في مدرستها ثم تابع تحصيله في اصفهان، حتى عام ١٣١٩ هـ. ق حيث سافر الي النجف الاشرف فحضر درس آية الله الآخوند، و ملا محمد كاظم الخراساني (صاحب كتاب كفاية الأصول) و شيخ الشريف آية الله شريعت الاصفهاني فنال اجازة الاجتهاد، و عاد الي بروجرد سنة ١٣٢٨ هـ. ق. و بوفاه والده لم يتمكن من العودة الي النجف، ذهب عام ١٣٤٤ هـ. ق حاجاً، و عاد عن طريق النجف فبقى فيها ستة اشهر، ولدئى عودته الي ايران سنة ١٣٤٥ هـ ق أوقف لمدة ثلاثة اشهر لما صادف من قيام و نهضة علماء اصفهان، و بعد الافراج عنه استقرّ في مشهد ما يتيف على العام. ثم عاد الي بروجرد، و في سنة ١٣٤٢ هـ سافر الي طهران للمعالجة و بعد شفائه، استقرّ في قم، و تسّم بعد وفاة

الإمام الخميني في قم كان قد عرف على أنه أحد المدرسين و المجتهدين من أولى الرأي في الفقه و الأصول و الفلسفة و العرفان و الاخلاق، و كان قد شاع عنه الزهد و التواضع و التعبد و التقوى بين القريب و البعيد.

ان هذه الخصال و السجايا الرفيعة التي تمكن الإمام من اكتسابها عبر سنوات طويلة من المجاهدة و الترييض الشرعي و امتحان المفاهيم و الاسس العرفانية في حياته العملية الشخصية و الاجتماعية، و المنحنى السياسي الذي انتحاه والذي اظهر من خلاله اعتقاده الراسخ بحفظ كيان الحوزات العلمية و ترسيخ قيادة الروحانية و الزعامة الدينية باعتبارها الملاذ الوحيد للناس في تلك الايام المضطربة الخطيرة، جعلته يوظف امكاناته العلمية و يبذل مساعيه و ما تميز به من الفضل و الشاخصية في تحكيم اسس الحوزة العلمية الفتية في قم، فوقت رغم مالدبه من لياقاتٍ يدعم مرجعية آية الله العظمى الحائري ثم آية الله البروجردي - اعلى الله مقامها - وحتى بعد وفاة آية الله البروجردي - و رغم التوجه الواسع من قبل الطلاب و الفضلاء و المجتمع الإسلامي نحوه لجعله احد مراجع التقليد - لم يخط الإمام الخميني آية خطوة يشتم منها رائحة السعي لكسب المقام و السلطة فكان يحث محبيه و مرديه دوماً على عدم الاهتمام بمثل هذه الامور. بل أنه اصّر على منحاه هذا حتى في الوقت الذي اجتمع حوله اهل الخبرة في المعارف الإسلامية باعتباره المنادى بالإسلام الحقّ و انه يمثل ضالّتهم المنشودة لتحقيق آمالهم لما كان عليه من التقوى و العلم و الوعي، فلم يغيّر من سيرته و منهجه قيد اذملة متمثلاً قوله الذي كان يكرّره

﴿

السيد ابوالحسن الاصفهاني مقام المرجعية فسعى في تشييت الحوزة و توسيعها. أسس و ساهم في تأسيس العديد من المدارس العلمية في قم و النجف و كربلاء، و بنى المسجد الأعظم في قم، و ساهم في بناء مسجد (هامبورك) الكبير في ألمانيا و عدة مساجد و حسينيات في أماكن متفرقة من العالم. من مؤلفاته: الحاشية على الكفاية، الحاشية على النهاية (للطوسي) كتاب كبير في الفقه، حواشي و مستدركات على فهرست الشيخ منتجب الدين الرازي، حواشي كتاب المبسوط، و رسالة في أسانيد الصحيفة السجادية، تجريد أسانيد الكافي و اصلاح و مستدركات رجال الشيخ و جامع احاديث الشيعة في ٢٠ مجلد كبير. توفى يوم الخميس ١٢/شوال / ١٣٨٠ هـ. ق عن عمر ينيف على التسعين، و دفن في حوزة مرقد السيدة المعصومة (عليها السلام) في قم رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

دائماً «إنتي اعتبر نفسي خادماً و حارساً للاسلام و الشعب»^(١)
 مارس الإمام - خلال سنوات طوال - التدريس في الحوزة العلمية في قم،
 فدرّس عدّة دورات في الفقه و الاصول و الفلسفة و العرفان و الاخلاق الإسلامية
 في المدرسة الفيضية و المسجد الاعظم و مسجد محمّدية و مدرسة الحاج ملا
 صادق و مسجد السلماسي في شارع إرم و غيرها، كما مارس تدريس الفقه و
 معارف اهل البيت (عليهم السلام) - و على ارفع المستويات - في النجف الاشرف - طرح
 و لأوّل مرّة مبادئه حول مسألة الحكومة الإسلامية عبر سلسلة دروس القاها في
 موضوع ولاية الفقيه.

و على ما نقله طلابه فإنّ حوزة الإمام الخميني كانت تعدّ من افضل المراكز
 التعليميّة، وقد قارب عدد من يحضرون درسه في بعض الدورات الدراسية - خلال
 السنوات التي قضاها في التدريس في قم - الالف و مائتي طالب، كان بينهم
 العشرات من المجتهدين المعروفين و المعترف باجتهداهم، فكانوا جميعاً ينتهلون
 من مدرسة الإمام الخميني في الفقه و الاصول. فكان من بركات ممارسته التدريس
 أن تمكّن سماحته من تربية المئات بل الالاف - اذا اخذنا بنظر الاعتبار طول
 سنوات الدراسة - من العلماء و الحكماء ممّن اصبحوا بعد ذلك مشاعلاً و اعلاماً
 في الحوزات الدينيّة، فهم الفقهاء المجتهدون و العرفاء المتميّزون ممّن يشار اليهم
 بالبنان اليوم في حوزة قم العلمية و في سائر المراكز الدينية، فمن مفاخره العلامة
 الشهيد الاستاذ المطهري و الشهيد المظلوم الدكتور البهشتي^(٢) أنهما كانا من

١- الكلمات القصار - الفصل الاخير.

٢- هو الشهيد الدكتور محمد حسين البهشتي من علماء الدين المجاهدين و من الوجوه العلمية و
 السياسية و الثورية الإسلامية. كان له دور في جمع السّاحات الثورية في تشكيل اطلق عليه اسم
 الحزب الجمهوري الإسلامي الذي أسس في الاشهر الاولى لانتصار الثورة الإسلامية بهدف مواجهة
 مؤمرات الاعداء. و الدكتور البهشتي أوّل شخص عينه الإمام في رئاسة ديوان القضاء العالي و ذلك
 لترتيب شؤون القضاء في البلاد على مختلف المستويات. استشهد الدكتور البهشتي في شهر سبتمبر
 عام ١٩٨١ مع جمع من مسؤولي نظام الجمهورية الإسلامية و ذلك اثر الانفجار الذي وقع في مقرّ
 الحزب الجمهوري الإسلامي بواسطة بعض العناصر من حركة المنافقين اثر عنه مؤلفات عديدة في
 مختلف المجالات.

المواظبين لسنوات على درس هذا العارف الكامل. و اليوم فإن الوجوه الوضائة من العلماء الربانيين الذين يقودون مسيرة الثورة الإسلامية و يسيرون نظام الجمهورية الإسلامية هم من طلابه و خريجي مدرسته الفقهية و السياسية.

في خندق الجهاد و الثورة

لقد كان لروحية المبارزة و الجهاد في سبيل الله جذور تمتد الى نوع الإعتقادات و التربية و المحيط العائلي و الظروف السياسية و الاجتماعية التي احاطت بحياة الإمام. فقد وسمت ملامح الجهاد شخصيته منذ الصبا و تواصلت عملية التكامل في شخصيته في ابعادها الروحية و العلمية جنباً الى جنب تطوّر الظروف و الاوضاع السياسية و الاجتماعية التي كانت تمرّ بها ايران و المجتمعات الإسلامية و في عام (١٩٦١ - ١٩٦٢) و في حادثة تعديل قانون المجالس المحلية (مجالس المحافظات و المقاطعات)^(١) سنحت الفرصة للإمام لأن يؤدّي دوره في قيادة نهضة العلماء فقد انطلقت حركة الخامس عشر من خرداد (٥ حزيران ١٩٦٣ م) - التي شارك فيها العلماء و ابناء الشعب - معتمدة على دعامين اساسيين، اولهما: قيادة الإمام المطلقة للحركة، و ثانيهما: اسلامية الباعث على الحركة، و اسلامية الشعارات المرفوعة و الاهداف المحددة - لتمثّل فصلاً جديداً في جهاد الشعب الايراني أثمر فيما بعد و عرف في العالم اجمع باسم الثورة الإسلامية.

لقد ولد الإمام الخميني في وقت كانت ايران تمرّ فيه باقسى ادوار تاريخها. فالحركة الدستورية تعرضت للضياع نتيجة دسائس و معارضات عملاء الانجليز في البلاط القاجاري و الخلاقات الداخلية و خيانة البعض من العملاء الفكريين للغرب و تعرّض العلماء - الذين كانوا يمثلون طليعتها - الى الاستبداد من ميدان

١- اقدمت الحكومة الايرانية في ١٠/٨/١٩٦٣ على المصادقة على لائحة خاصة بالانتخابات المحلية ثم من خلالها حذف شرط اسلامية الناخبين و المرشحين و استبدال القسم الدستوري الذي يؤدّيه المرشّحون الفائزون بالكتاب السماوي بدلاً من القرآن الكريم الامر الذي عارضه الإمام الخميني بشدة و جعل منه محفزاً لتحريك الشعب في مواجهة الحكومة.

الاحداث بمختلف انواع المكائد ليعود النظام ملكياً مستبداً مرّة اخرى. كذلك فإن البطانة العشائرية التي كانت تتسم بها العائلة القاجارية المالكة، وضعف الحكام المتوالين و عدم صلاحيتهم أدّى الى التدهور الإقتصادي و الاجتماعي الشديدين في ايران و مهّد السبيل لاطلاق ايدي الباشوات و الإقطاعيين و الاشرار لسلب الامن و الامان، وفي ظروف كهذه كان العلماء بمثابة الملاذ الوحيد للناس في مختلف المدن و المناطق. و كما اشرنا سابقاً فقد شهد الإمام الخميني في طفولة استشهاد والده بينما كان يدافع عن حقوقه و حقوق اهل منطقته و يقف بوجه الباشوات و الاقطاعيين و عملاء الحكومة آنذاك. إنّ أسرة الإمام تتميز بألفة فطرية للهجرة و الجهاد في سبيل الله.

يستعرض الإمام الخميني بعض ذكريّاته عن الحرب العالمية الاولى و كان حينها يبلغ من العمر اثني عشر عاماً - فيقول «أتني اتذكّر كلتا الحربين العالميتين... كنت صغيراً الاّ اني كنت اذهب الى المدرسة و قد رأيت الجنود الروس في المركز الذي كان في (خمين) رأيتهم هناك و اذكر كيف تعرضت بلادنا في الحرب العالميّة الأولى»

وفي موضع آخر يذكر سماحته هذا الامر متعرّضاً لذكر اسماء البعض من الباشوات و الإقطاعيين الظالمين الاشرار الذي كانوا يمارسون النهب و الاعتداء على اعراض الناس و اموالهم مدعومين من قبل الحكومة المركزية، فيقول «أتني في حرب منذ طفوليتي... فقد كنّا نتعرّض لهجمات من قبل امثال زلفى و رجب علي، و كنّا نمتلك بندقية، أذكر أنّي كنت اقارب البلوغ آنذاك فكنت اذهب مع البقية لإتخاذ مواقعنا في الخنادق المعدة للدفاع ضدّ هجوم اولئك الذين كانوا يقصدون الاغارة علينا، نعم كنّا نذهب هناك و نتفقد الخنادق»^(١)

و يقول في موضع آخر: «لقد كنّا مضطرين الى اعداد الخنادق في خمين - في المنطقه التي كنّا نعيش و كانت عندى بندقية، غير أنّي كنت لا ازال حينها صبيّاً، لم اناهز الثامنة عشرة بعد، و كنت اتدرّب على البندقية و احملها

و بما يتناسب مع سنِّي،... نعم كنا نذهب لنتحصّن في الخنادق و نواجه هؤلاء الاشرار الذين كانوا يغيرون علينا لقد كان الوضع مستمماً بالفوضى و الهرج و المرج، و لم يكن لدى الحكومة المركزية القدرة على السيطرة على الاوضاع... و فجأة سيطروا على خمين فهبّ الناس لمواجهتهم و حملوا السلاح و كنت أنا من بين من حملوا السلاح»^(١)

كان انقلاب الثالث من اسفند (٢٢ شباط) الذي قام به (رضا خان ميربنج)^(٢) معدداً و مدعوماً من قبل الانجليز كما تشير الى ذلك الوثائق التاريخية الثابتة - و رغم انه قضى على حكم القاجاريين و انهى عهد الباشوات و الخوانين و الاشرار، إلا انه اقام حكماً مستبداً حكمت تحت مظلته بضع مئات من العوائل مصير الشعب المظلوم و تصدّت العائلة البهلوية للعب دور الباشوات و الخوانين الغابرين.

لقد سيطر رضاخان طوال عقدين من حكمه على نصف الاراضي الزراعية في ايران و ثبت ملكيتها له رسمياً و شكل هيكلأ ادارياً لادارتها و المحافظة عليها يفوق في تشكيلاته هيكلية الوزارات الكبرى و سعى في هذا السبيل - ما وسعه السعي لحل المشاكل القانونية المترتبة على نقل ملكية الاراضي - حتى الموقوفة منها - فاصدر لذلك انتقل الإمام الخميني - الذي كان قد انهى و بسرعة دراسة المقدمات و السطوح في الحوزة العلمية في خمين و اراك الى قم و ساهم عملياً

١- صحيفة النورج ١٦ ص ٩٢.

٢- هو رجل قاس متجبر أسس في ايران حكومة ملكية عام ١٩٢٤ م، التحق بالمجموعات المسلحة الشقية المتجبرة و هو في الرابعة عشر من عمره، و سرعان ما بلغ أعلى مستويات القيادة لهذه المجموعات بسبب قساوة قلبه و تهوّر، فجذب انتباه البريطانيين و اهتمامهم، و بما أنهم كانوا يسعون الى ايجاد حكومة قويّة في ايران تحفظ مصالحهم، فقد وجدوا فيه ضالّتهم المنشودة. و بالفعل فقد استطاع و بمساعدة الانجليز أن ينهي حكم «القاجار» و أن يتربّع على العرش الملكي مدة ستة عشر عاماً، و عندما شاهد التقدم السريع لجيش هتلر، و سقوط الدول الأوروبية و استسلامها، بهت ذلك. و مدّ يده لهتلر طمعاً في أن يكون النصر حليفه. لكن دول الحلفاء اجتاحوا ايران، و عزلوا رضا خان، و نقلوه بسفينة بريطانية الى منفاه في «جزيرة موريس» شرق أفريقيا، ثم الى «جوهانسبرغ» جنوبي أفريقيا، الى أن مات في عام ١٩٤٤ م.

بدور فعال في تحكيم الحوزة الفتية في قم، و لم يمض وقت طويل حتى عدَّ الإمام الخميني من الفضلاء الأعلام في هذه الحوزة و إشتهر في مجالات العرفان و الفلسفة و الفقه و الاصول.

و كما اسلفنا الاشارة فإن حفظ كيان العلماء و المرجعية كان من أهم ما لزم المبادرة اليه - و ذلك لإفشال المخططات التي كان يعدها رضاخان و ابنه - و الحيلولة دون تحقيقهم اغراضهم المتوخاة. و على هذا الاساس نرى بأن الإمام - و رغم ما كان بينه و بين آية الله العظمى الحائري و من بعد آية الله العظمى البروجردى من اختلاف في وجهات النظر في بعض المسائل حول كيفية مواجهة الحوزات العلميّة و مراجع التقليد للظروف المستجدة، و حول دور العلماء في ذلك الخصوص - يقف على الدوام بقوة و حزم الى جانبها للدفاع عن المرجعية طوال فترة زعامتهما.

كان الإمام الخميني مولعاً بمتابعة المسائل السياسية و الإجتماعية. و كان رضاخان قد اقدم في تك السنوات و بعد ان فرغ من تثبيت دعائم حكمه - على تنفيذ مخطط واسع للقضاء على آثاره الثقافة الإسلامية في المجتمع الإيراني، فمارس انواع الضغوطات على العلماء، فأصدر الاوامر الرسمية بتعطيل مراسم العزاء و الخطابة الدينية، و منع تدريس المسائل الدينية و القرآن و إقامة صلاة الجماعة في المدارس، و روج للهمس حول نزع الحجاب عن النساء الإيرانيات المسلمات. و قبل أن يعلن رضاخان عملياً عن اهدافه على مستوى واسع بادر علماء الدين الإيرانيون الملتزمون للاعتراض على نتيجة معرفتهم بالاهداف غيرالمعلنة التي كان رضاخان ينوي تحقيقها. وللاعتراض على بعض هذه الممارسات اقدم بعض علماء اصفهان الملتزمون و بقيادة آية الله الحاج آقا نورالله الاصفهاني عام (١٩٢٧ م) على الهجرة الجماعية الى قم للاعتصام فيها، و تراكمت هذه الحركة مع هجرة العديد من العلماء من مدنٍ أخرى الى قم ايضاً و بالفعل فقد استمرّ هذا الاعتصام لمدة مائة و خمسة ايام (من ١٢ أيلول الى ٢٥ كانون الاول عام ١٩٢٧ م) انتهى بعدها بالانسحاب الظاهري من قبل رضاخان و نتيجة

المواجهة الامنية له من قبل الوزراء انذاك (مخبر السلطنة) الذي امر بمحاصرة المدينة لانهاء الاعتصام و تعهد بالاستجابة لشروط المعتصمين غير أن هذا الاعتصام لم ينجح عملياً في تحقيق النتائج المتوخاة و ذلك نتيجة استشهاد قائد الاعتصام في شهر كانون الاول عام ١٩٢٧.

و قد اتاحت هذه الحركة، الفرصة لطالب العلوم الدينية الشاب السيد روح الله الخميني الذي كان يتحلّى باللياقات و الاستعدادات اللازمة للمواجهة و التصدى، لان يطلع عن كتب - و من خلال حضوره المباشر في صلب تلك الحركة - على اساليب المواجهة، و ما يتعرّض له العلماء من ظلم، علاوة على التعف على ملامح شخصية رضاخان.

ثمّ وفي حادثة المشاجرة التي حصلت بين آية الله الباقي و رضاخان في قم و محاصرة هذه المدينة من قبل قوات الشرطة و تعرّض سماحة الباقي الى الضرب و النفي الى مدينة الريّ من قبل الملك. هذه الحادثة و الحوادث المشابهة و ما كان يحصل في المجالس التشريعية في تلك الايام - خصوصاً الحركة الجهادية الدؤوبة التي كان يمارسها المجاهد المعروف آية الله السيد حسن المدرس - تركت كلها الأثر على روح الإمام المرفهة الوثابة.

و حينما أصدر رضاخان امره بفرض الامتحانات على طلاب العلوم الدينية في الحوزة العلمية في قم هادفاً القضاء على الحوزة، انبرى الإمام الخميني لفضح الاهداف الخليفة لهذا الامر و تصدى لمعارضته و حدّر بعض العلماء المشهورين - الذين عدوا ذلك الأمر و نتيجة لسذاجتهم امراً اصلاحياً - من مغبة القبول به.

و للاسف فإن المؤسسة العلمائية الايرانية كانت تعيش آنذاك حالة الانزواء نتيجة الاعلام المكثف الذي كانت تمارسه اجهزة النظام الاعلامية و نتيجة للظروف و الاختلافات و الاحباطات التي نجمت عن الحركة الدستورية، الأمر الذي أدى الى معارضة البعض من المنحرفين فكرياً و طلاب الراحة و القشرين تدريس و دراسة بعض الموارد الدراسية الحوزوية كالعرفان و الفلسفة التي تؤدي بالنتيجة الى إثارة الوجدان و البحث في المسائل و المصائب الواقعة.

وقد بلغ الضغط بهذا الاتجاه حدًا عرّض الإمام الخميني الى تحمل ما لا يطاق من اجل تعطيل درسه في الفلسفة و العرفان و الاخلاق، الامر الذي اضطره الى اعطاء دروسه في الخفاء. فكان حصيلة تلك المساعي تربية شخصيات من امثال العلامة الشهيد آية الله المطهرى.

و نتيجة لذلك قد اظهر العلماء و الجماهير المقاومة في مواجهة رضاخان الذي سخرَّ جلَّ طاقاته للقضاء على الإسلام و نزع الحجاب و منع المراسم الدينية، الأمر الذي ادى الى فشله في الكثير من طروحاته و اجبره على الانسحاب احياناً. بعد وفاة آية الله العظمى الحائرى (١٩٣٧/١/٣٠ م) واجهت الحوزة العلمية في قم خطر الانحلال من جديد، فبادر العلماء الملتزمون ولمدة ثمانية اعوام لادارة الحوزة العلمية و هم ذوى السماحة: السيد محمد الحجت، السيد صدرالدين الصدر و السيد محمد تقي الخونسارى (رضوان الله عليهم) و في هذه الفترة و خصوصاً بعد سقوط رضاخان تهيأت الظروف للمرجعية الكبرى، فاقترح ان يرفع آية الله البروجردى الذي كان من أبرز الشخصيات العلمية لتسنّم مقام المرجعية خلفاً لآية الله الحائرى. و بسرعة تمّ متابعة هذا الاقتراح من قبل تلامذة آية الله الحائرى و من ضمنهم الإمام الخميني، فسعى سماحته شخصياً في إقناع آية الله البروجردى للهجرة الى قم و قبول المسؤولية الخطيرة المتمثلة في تزعم الحوزة العلمية.

لقد ادرك الإمام الخميني و من خلال إطلاعه على حساسية الظروف السياسية التي يمرُّ بها المجتمع و الوضع الذي تعيشه الحوزات العلمية و طبيعة حركة التاريخ التي كان يستلهمها من مطالعته المستمرة لكتب التاريخ المعاصره و المجلات و الصحف الدورية الصادرة في ذلك الوقت، و ما كان يقوم به من زيارات متوالية الى طهران و الحضور في مجالس العلماء الاعلام من امثال: آية الله المدرس مما يتيح له تكميل الصورة عن الواقع - أدرك بان المسألة التي تعطى املاً بالتححرر و النجاة من حالة النكسة التي تلت مرحلة الحركة الدستورية و فشلها - و بالخصوص بعد تولى رضاخان للسلطة - انما تكمن في تسليح الحوزات العلمية بالوعى، على ان يتم قبل ذلك ضمان استمرار و ديمومة وجود الحوزات العلمية و

تمتين عُرى الارتباط بين الجماهير والمؤسسة العلمانية.

و في هذا الاتجاه عكف الإمام الخميني - بعد هجرة آية الله البروجردى الى قم - باعتباره احد المجتهدين و المدرّسين المعروفين في الحوزة العلمية في قم - على تحكيم أسس زعامة و مرجعية آية الله البروجردى، وقد بذل في هذا السبيل مساع حثيثة، و استناداً لما ينقله طلابه فإنّ الإمام قد التزم حينها بحضور درس المرحوم آية الله البروجردى في الفقه و الاصول.

و رغبة منه في متابعة مسيرته في تحقيق أهدافه السامية اعدّ الإمام الخميني في عام (١٩٤٩ م) مقترحاً لإصلاح البنية العامة للحوزة العلمية، ساعده في ذلك آية الله الشيخ مرتضى الحائري نجل مؤسس الحوزة العلمية، و قام بتقديمه الى آية الله البروجردى (ره) فيما بعد، و قد حظى هذا المقترح باستقبال و دعمٍ من قبل طلاب الإمام الواعين.

و لو كان تمّ تطبيق هذا المقترح عملياً في تلك الظروف - التي ذكرناها - لأصبحت الحوزة العلمية مؤسسة ذات تشكيلات علمية واسعة تسهل عليها اداء دورها المطلوب، غير أن الخناسين و القشريين الذين رأوا ان هذا المقترح سيؤدى الى تعكير صفو اوضاعهم المترفة الهادئة، اصابوا بالاضطراب فانطلقوا يعارضون و يحبطون حتى بلغ الأمر ان غير آية الله البروجردى نظرتة الاولى و رغبته القلبية في ذلك فاشاح اخيراً عن قبول هذا المقترح.

و نتيجة ذلك تأثر آية الله مرتضى الحائري فسافر للاقامة في مشهد مدّة من الزمن، غير أنّ الإمام الخميني اصرّ على البقاء رغم اضطراب الظروف و رغم تألمه ممّا حدث و ممّا تلا ذلك من الحوادث، آملاً في حركة الوعي المرتقبة، الوقوع في الحوزة العلمية.

قبل ثمانية أعوام من ذلك التاريخ و في (١٩٤١ م) كانت ايران قد تعرضت للإحتلال من قبل جيوش الحلفاء، و قد استسلم المستبدّ - الذي أمضى عشرين عاماً في تجهيز قواته المسلحة منفقاً المبالغ الطائلة - أمام هجمات الغزاة و على ما أقرّ به ابنه محمد رضا فإن الجيش قد بادر للفرار في مختلف المناطق امام أوّل

الاطلاقات التي اطلقتها قوات الحلفاء^(١) بذلك فقد تنازل رضاخان عن العرش رغم كلّ إدعائه - و غادر البلاد مجبراً، و كان رد الفعل الشعبي متناقضاً فمن جانب كانت الجماهير تعيش الحزن و الانكسار نتيجة اجتياح قوات الحلفاء لاراضي بلادهم، و في وقت نفسه كانت مشاعر السرور و الفرح البالغ تعمّ الجميع نتيجة سقوط المستبد - الذي كانت امواله المنقولة التي جمعها من كدح الفقراء و من سنين النهب للثروات الوطنية - تُجاوز الستمئة و ثمانين مليوناً من الريالات الايرانية^(٢) (في ذلك الوقت) و ذلك ينطوي على حقائق كثيرة لامجال لتفصيلها هنا. صدر الأمر بتعيين الملك الجديد من السفارة الانجليزية، و بموافقة عضو آخر من قوات الحلفاء و هو روسيّا، و كان الاختيار قد وقع على محمد رضا بهلوي و بذلك ابتدأ فصل جديد من العذاب و العناء استمرّ لسبعة و ثلاثين عاماً تميّزت استقلال البلاد و عزتها.

الأ ان العامين الأوّلين من حكومة محمدرضا تميزا بالتزلزل و عدم الإستقرار، الأمر الذي اتاح الفرصة للجميع بأن يلتقطوا انفسهم، فبادرت الاحزاب و الشخصيات السياسية الى توضيح اهدافها و مراميها، فتوجّه البعض نحو القومية التي كانت تتناغم مع اهداف الملك الشاب، في حين توجّه جمع آخر من السياسيين نحو النفوذ في هيكل الدولة و التشكيلات التشريعية و شهدت الساحة آنذاك غياب بعض العلماء المجاهدين من امثال آيةالله المدرس الذين كان وجودهم في تلك الفترة يمثّل دعامة اساسية لخيمة الثورة الشعبية، فقد تعرض هؤلاء - و من مدّة - الى التصفية على ايدي ازلام رضاخان، كذلك فإنّ الشيوعيين و الاحزاب السياسية المرتبطة بالخارج كانت تعلن عن موافقها بناءً على الأوامر الصادرة من موسكو و غيرها.

أمّا الحوزة العلمية في تلك الأيام فقد كانت عاجزة عن تحمّل مسؤولياتها الاجتماعية و دخول ميدان الاحداث - كما اشرنا سابقاً - و ذلك نتيجة للحملات

١- مأمورية من اجل وطني (فارسي): ص ٨٨ و ٨٩.

٢- الكوثر - شرح وقائق الثورة الإسلامية ج ٣ ص ٦٩.

المستورة التي شنها رضاخان عليها و نتيجة لنفوذ الانتهازيين و المصلحين فيها ممن ساهموا في ازوائها و عزلها عن المجتمع.

و من الطبيعي ان لا تكون تلك حالة عامة شاملة، فقد كان جمع من الاخير المبارزين المجاهدين من امثال نواب الصفوى^(١) و انصاره - ممن كانوا يعتقدون بتشكيل الحكومة الاسلامية - يعدّون العدة في تلك الظروف المضطربة استعداداً للسير في طريق الجهاد المسلح البطولي.

و قد وصف الإمام الخميني في تلك الايام غربة المجاهدين في سنوات الكبت و الاختناق التي مرّ عليهم في عهد رضاخان بايات من الشعر قال فيها:

اين نتوجه للشكوى من جور رضا خان

و قد حبس الأنفاس في الصدور.

كيف نصرخ و لم يبق من الأنفاس ما يمكننا من الصراخ!^(٢)

غير انه - و في تلك الايام - بادر - مغتنماً الفرصة - لتدوين و نشر كتابه (كشف الاسرار ١٩٤٣ م) الذي تعرّض فيه لذكر المآسي التي تميّزت بها فترة الحكم البهلوي و التي استمرت لمدة عقدين من الزمان و دافع فيه عن الإسلام و المؤسسة العلمائية، و ازال الشبهات التي اثارها المنحرفون، و نوه في كتابه هذا الى فكره الحكومة الاسلامية و ضرورة النهضة لاقامتها.

ثم اصدر و بعد عام من ذلك التاريخ و في (شهر نيسان ١٩٤٤ م) ما يمكن اعتباره اول بيان سياسي له، طالب فيه - و بصراحة علماء الإسلام و الأمة الاسلامية بالثورة العارمة، و يمكن القول بان لهجة البيان و محتواه و طبيعة المخاطبين الذي خاطبهم تشير كلها الى أنّ الإمام كان يتوقع قياماً و شيكاً من

١- الشهيد السيد مجتبي نواب الصفوى، احد مؤسسي حركة «فدائيو الإسلام» التي تمّت تشكيلها في عام ١٣٢٣ هـ و حركة فدائيو الإسلام من الحركات الدينية العريضة التي تحلت باعتقادها الراسخ بالإسلام و دور علماء الدين في قيادة الجماهير. من ابرز اعمالها القيام بعملية اغتيال (عبدالحسين هجيري) و (سيهد رزم آرا) رئيساً ووزراء البلاط الملكي. في عام ١٣٣٤ هـ تمّ اعتقال الشهيد نواب الصفوى و سائر اعضاء هذه الحركة من قبل ازام النظام آنذاك و قدموا للمحاكم السريعة، التي قضت باعدامهم.

٢- ديوان الإمام الخميني - الملحق.

الحوزة رغم الظروف المؤسفة التي كانت تمر بها الحوزات، و كما كان متوقفاً فإن الإمام لم يتلق جواباً مناسباً على دعوته للثورة و القيام، غير أنه بصيصاً من الامل كان يشرق في ضمائر الطلاب الذين تحلقوا حول الإمام و عدوا جلسات دروسه بمثابة محافل حقيقية للانس.

و بعد المساعي الاخيرة التي بذلها الإمام ظهرت ملامح شخصيته و آرائه السياسية، و بناءً عليه فقد توضحت تدريجياً حلقة مؤيدي الإمام العقائدين من بين طلابه، الذين كان لاغلبهم ادوار هامة في أحداث (الخامس من حزيران) و في سنوات الاختناق التي تلتها، و باختصار فإنهم واصلوا مسيرتهم مع الإمام حتى ما بعد الثورة و خرج سالماً من المعتقلات و أنواع التعذيب - الذي كان المجاهدون يعرضون له - اذى دوره في المواقع الحساسة من هيكل النظام الإسلامي في أشد الظروف حساسية و حرجية.

على أية حال، فإن الوثائق التاريخية و المذكرات المكتوبة من قبل العديدين، تشير الى أن سماحة الإمام قد بذل جهده الجهد في المجال الحوزوي خلال فترة مرجعية و زعامة آية الله البروجردي (ره) - فضلاً عن ممارسته دوره المعهود في التدريس و البحث و سائر المجالات المختلفة للدفاع عن موقع المرجعية و الحوزات العلمية من جانب، و نشر الوعي السياسي و الاجتماعي و تحليلاته للمسائل السياسية الجارية و المبادرة لاطلاق التحذيرات في الاوقات المناسبة حول اغراض النظام الملكي و الحيلولة دون نفوذ العناصر المنحرفة و المترفة الى اواسط الحوزات العلمية من جانب آخر.

و في غضون ذلك فانه كان يواصل الاتصالات بالشخصيات السياسية الواعية في طهران من امثال آية الله الكاشاني، و يتابع - و بدقة - و عن طرق مختلفة - منها متابعة جلسات مجلس الشورى الوطني و النشرات المهمة التي كانت تصدر حينها - الأحداث الجارية.

فعندما تناثر الهمس حول تشكيل المجلس التأسيسي لتغيير الدستور و جعل النظام الملكي الحاكم نظاماً ملكياً مستبداً و ذلك في عام ١٩٤٩ م، اشيع بأن آية الله

العظمى البرجردي كان راضياً بتلك التغييرات المرتقبة و انّ مشاورات قد جرت بالفعل بينه و بين بعض المسؤولين الحكوميين حول ذلك الأمر، تأثر الإمام الخميني لهذه الشائعة فبادر للتحذير بصراحة و بالقول المباشر من مغبة هذا الامر، ثمّ طالب في رسالة مفتوحة - اعدها بالتعاون مع بعض المراجع و العلماء الاعلام حينها - آية الله البروجردى بتوضيح حقيقة الأمر. الامر الذي دفع آية الله البروجردى الى اصدار بيان كذب فيه وجود اى إتفاق. وفي الوقت نفسه فقد اصدر آية الله الكاشاني بياناً من منفاه في لبنان، طالب فيه بضرورة الوقوف بوجه القرارات و الخطوات التي يزعم الملك القيام بها.

و حينها جرت انتخابات الدورة السادسة عشرة لمجلس الشورى الوطني، و تمّ انتخاب آية الله الكاشاني من قبل اهالي طهران و قد ادى الائتلاف و التنسيق بين جناح آية الله الكاشاني و الجبهة الوطنية الى ترجيح كفة الميزان لصالح انصار نهضة تأميم النفط و لغير صالح الملك. كذلك فإن فدائيي الإسلام الذين كانوا يتمتعون بدعم آية الله الكاشاني قاموا بعدة عمليّات خاطفة لم يسبق لها مثيل تمّ من خلالها انزال ضربات مؤثرة في هيكل حكومة الملك. و اعتماداً على التأييد الذي توفر له استطاع الدكتور مصدق ان يتسّم قيادة البلاد، ثم قامت انتفاضة (١٢ تموز ١٩٥٢ م) في طهران، فتلفعت ايران بوشاح الفرح و السرور نتيجة تحقق مطلبها القديم بتأميم النفط، غير انه لم يمض وقت طويل حتّى ظهرت ملامح عدم الانسجام في جبهة الائتلاف و تفاقمت الاختلافات بين فدائيي الإسلام و آية الله الكاشاني وقيادة الجبهة الوطنية و الى حد وقوع المواجهات احياناً بين تلك الاطراف. فقد اصرّ المرحوم الكاشاني على رفض اقتراح دفع الغرامة للانجليز في مقابل تأميم النفط، فسماحته كان يعتقد بأنّ على الإنجليز أنفسهم ان يدفعوا الغرامة لإيران عن نههم النفط الايراني لمدة خمسين عاماً، و لهذا السبب فقد حذر سماحته الدكتور مصدق بشدة من مغبة التنازل أو المساومة على هذا المبدأ.

من جانب آخر فإن آية الله الكاشاني يعارض بشدة استبدال الانجليز بالامريكان و الشركات الامريكية في مجال تعدين النفط و سائر المجالاتته

الاقتصادية في البلاد. في حين ان الغالبية العظمى من المسؤولين في حكومة مصدق كانوا يميلون بصراحة نحو ذلك.

من جانب آخر فإن مشاركة بعض العناصر غير الاسلامية في نهضة تأميم النفط و الاعتماد على (حزب تودة) الشيوعي كان من جملة الامور المختلف عليها فقد ادى نفوذ تلك العناصر المتزاية جنباً الى جنب تنامي صلاحيات رئيس الوزراء، الى تنامي وتيرة الاعلام المبرمج المعادى للإسلام، و بلوغ خيانات حزب تودة الى اقصاها و ازواء التيار المتدين في النهضة مما اتاح الفرصة لامريكا للقيام بانقلابها الناجح في (١٩ آب ١٩٥٣ م) ليعود الملك ليمسك بزمام سلطنة لاينازعه عليها احد بعد قيامه بابعاد المعارضين.

و يستنتج من خطابات الإمام و كلماته التي القاها حول أحداث الإنتفاضة الوطنية بأن سماحته كان مطلعاً على عدم ثبات الائتلاف المقام حينها.

لقد مثلت نهضة تأميم النفط انعكاساً للظروف السياسية و الإجتماعية التي احاطت بالحركة الدستورية و بشكل مصغّر و اتسمت بنفس نقاط قوتها و ضعفها لذا فقد تعرضت لنفس المصير. فحتى التيارات الدينية ايضاً لم تكن تتمتع بوحدة النظر و الدعم الشعبي. فحركة فدائيو الإسلام و كذلك مساعي آية الله الكاشاني حرمت - و لاسباب - دعم و تأييد آية الله العظمى البروجردى المرجع و الزعيم القوى آنذاك - فضلاً عن ظهور الاختلافات الحادة بينهما ايضاً.

و في ظروف كهذه لم تتمكن الداعمة للتأميم و التي وقفها بعض الشخصيات المعروفة من امثال آية الله العظمى الخونساي في قم و المواقف الضمنية الداعمة من امثال الإمام الخميني من ترك اى أثر على مسير الاحداث.

على اية حال فقبل ان يتذوق الشعب الايراني حلاوة نهضة التأميم فوجيء بطعم المرارة الناجمة عن الإختلافات و الحوادث المريرة اللاحقة و التي ختمت بانقلاب (التاسع عشر من آب) و رغم أن فدائي الإسلام لم يلقوا السلاح إلا أنهم و بعد عامين اى في تاريخ (١٦ تشرين الثاني ١٩٥٥ م) تعرضوا و نتيجة فشل عملة الاغتيال التي قاموا بها لقتل حسين علاء - رئيس الوزراء آنذاك - بينما كان يهيم

بالسفر الى بغداد للتوقيع على معاهدة بغداد (الستتو) للاعتقال ثمّ الحكم على قادتهم بالإعدام في محكمة عسكريّة سريعة وذلك في شهر كانون الاول من عام ١٩٥٥ م. ولم تثمر مساعي الإمام الخميني و سائر العلماء للحيلولة دون تنفيذ حكم الاعدام بهم.

هذه الاحداث المريرة تركت اثرها على روح الإمام الخميني المرهفة، إلاّ انها شكّلت نوعاً من التجارب و الخبرات النافعة للمراحل اللاحقة من حركته الجهادية:

أمّا الملك و بلاطه فإنّهم أصبحوا بعد الانقلاب - و في ظروف تختلف عن العهد السابق للإنتقال - تحت أمر امريكا، فالانجليزيون قد اخلوا مواقعهم للامريكان. و بسرعة تمّ تأسيس دائرة الأمن (السافاك) عام (١٩٥٧م) و سادت أجواء القمع و الاضطهاد الشديدين في حقّ المعارضين و تلبّدت الاجواء بغيوم الكبت و الاختناق لتهيئة الظروف الاجتماعية المناسبة لإجراء الإصلاحات التي كانت امريكا بصدد المطالبة باجرائها. و تسابقت الشركات الأمريكية نحو الخليج الفارسي خلال العقدين السادس و السابع من القرن العشرين لاحتلال المواقع التي كان يتمتّع بها الإستعمار الانجليزي، كذلك فان اجواء الحرب الباردة بين امريكا و الاتحاد السوفيتي زادت من حساسية منطقة الخليج الفارسي الإستراتيجية، و قد سال لعاب البيت الابيض للثروات النفطية الإيرانية و الاقليمية، لذا فقد أقدم ساسة البيت الابيض على تفويض الملك لعب دور شرطي المنطقة و الحفاظ على مصالح الغرب فيها، و قد تمّ تريجيحه للعب هذا الدور على جميع الانظمة الاخرى في المنطقة من جميع الجهات. و كانت امريكا تسعى لتحقيق هدف آخر من توقيعها الاتفاقيات مع الملك و توفير الدعم له. فالمواجهة بين الدول الاسلامية و اسرائيل العاصبة كانت امراً لا بد منه، لذا فإن الطبيعة الخيانية للعائلة البهلوية و شخصية الملك محمد رضا، اعتبرت من قبلهم عوامل تساعد في امكانية الاستفادة من النظام الملكي لايجاد شرح في صفوف العالم الإسلامي، و كان للنفط في هذا المخطط دور اساسي ايضاً، فإن ازمة الطاقة كانت الامر الشاغل للغرب في حالة وقوع

مواجهة عسكرية بين الدول النفطية الاسلامية و اسرائيل، عليه فان توسيع عمليات التنقيب عن النفط في ايران، وزيادة استثماره و تقوية النظام الملكي كانت تعدّ الضمانة الوحيدة للتقليل من اثر الازمة المتوقّعة في تلك الظروف.

غير ان الهيكلية الاجتماعية و الاقتصادية التقليدية في ايران و المعتمدة على الزراعة بشكل اساسي كانت تعتبر عائقاً اساسياً امام اجراء الاصلاحات الامريكية في ايران. فإيران كانت تفتقر الى الاستعداد الكافي في تلك الظروف للتوسع في انتاج النفط و زيادة مدخولاتها النقدية من بيعه مستقبلاً - و هي الايرادات التي كانت يجب ان تنفق في شراء التجهيزات العسكرية و شراء السلاح و البضائع الامريكية الاخرى - لذا فقد انهالت اللوائح و الطروحات و الاقتراحات على مجلسي (الشيوخ و الشورى) لتغيير الظروف و تهيئة الارضية. لذلك و استناداً لما ورد في الاعترافات الصريحة التي ادى بها مسؤولو النظام السابق و كذلك ما اظهرته الوثائق و المستندات التي تمت مصادرتها من وكر التجسس الامريكي (السفارة الامريكية السابقة) في ايران، تدلّ بوضوح على ان اعداد مضمون اغلب تلك اللوائح كان يتمّ في امريكا أو في سفارتها في ايران. فكان مشروع الاصلاح الزراعي خطوة اختبارية اريد بها اعداد الارضية للمصادقة على اصول ثورة الملك البيضاء، نعم تمّ اختيار المشروع كأول خطوة مدروسة، فطرح ترافقه حملة دعائية مكثّفة و شعارات طنانة، كالوقوف بوجه الباشوات و الاقطاعيين، و تقسيم الاراضي بين الفلاحين المحرومين، و زيادة الانتاج الى ما شابه ذلك و بذا فقد كانت المعارضة للاهداف الخفية لمشروع الاصلاح الزراعي، تعدّ بمثابة الوقوف مع ملاك الاراضي الزراعية الكبار، و الاقطاعيين، لذا فإنها كانت تقمع بشدّة.

لقد تزامنت السياسة الامريكية و الملكية في عام (١٩٦١ م) مع وقوع حادثتين مؤسفتين هامتين، ففي الثلاثين من آذار ١٩٦١ م، التحق آية الله العظمى البروجردى بالرفيق الاعلى و الذي اعادت خدماته الجليلة و شخصيته العلمية للمرجعية موقعها المتميز باعتباره اهمّ ملاذ للجماهير في ميدان الحياة الاجتماعية في ايران فوجود سماحته بعدّ ذاته كان يمثّل عائقاً اساسياً يحول دون تحقيق

النظام الملكي لاغراضه. لذا فقد عُدت وفاته نازلة ثقيلة. و بعد عام تقريباً ودّع الحياة ايضاً العالم المجاهد آية الله الكاشاني، الذي كان اسمه ذات يوم يبعث القشعريرة في جسد الملك.

اما الإمام الخميني - و كما هو ديدنه - فإنه فلم يخطُ خطوة واحدة في سبيل المرجعية بعد وفاة آية الله البروجردى رغم التفاف مجتمع الحوزة العلمية و الجماهير حوله، بل انه رفض بشدة الاقتراحات و الخطوات التي قام بها بعض اصحابه و مريديه في هذا الاتجاه، و كان ذلك في الوقت الذي كان فيه الإمام الخميني قد اتمّ تعليقه على كتاب «العروة الوثقى» منذ خمسة اعوام قبل وفاة آية الله البروجردى و في تلك السنوات بالتحديد كان سماحته قد كتب حاشية على كتب «وسيلة النجاة» لتكون رسالته العملية.

انّ النظرة الزاهدة في الدنيا التي كان الإمام الخميني يتحلّى بها، و اعراضه عن المقامات و المناصب الاعتبارية الدنيوية يمكن استشرافها من بحوثه الأخلاقية و العرفانية العميقة و التي وسمت آثاره المكتوبة، كشرح الاربعين حديث و سرّ الصلاة و آداب الصلاة و التي كان قد كتبها قبل سنوات من ذلك التاريخ.

بعد ارتحال آية الله البروجردى و تجزأ المرجعية الكبرى، اظهر النظام الملكي نشاطاً أكثر و اندفاعاً في تحقيق الاصلاحات التي كانت امريكان ترغب فيها، كما أنّه سعى في الوقت ذاته لإخراج المرجعية من ايران. غير انّ النظام كان مخطئاً في حساباته.

في (٨ تشرين الاول ١٩٦٢ م) صادقت وزارة اسدالله علم على اصلاح لائحة المجالس المحلية، و تغيير بعض مضامينها - كاشتراط اسلامية المرشحين، و القسم بالقرآن الكريم، و اشتراط الرجولة في المرشحين و الناخبين، و قد اريد تمرير بعض الاهداف من خلال المصادقة على اشتراك النساء في الانتخابات، كذلك فإنّ حذف و تغيير شرطى الرجولة و الإسلام كان يراد منه بالضبط ادخال العناصر البهائية في المراكز الحساسة من هيكل النظام الحاكم.

كما اشرنا سابقاً ايضاً فإن دعم الملك للكيان الصهيوني و توسيع العلاقات

الإيرانية الاسرائيلية كانت شروطاً أمريكية في مقابل توفير الدعم للملك، و لتحقيق هذه الشروط كان لابد من زيادة نفوذ اتباع المسلك الاستعماري البهائي في السلطات الإيرانية الثلاث.

و بمحض انتشار خبر المصادقة على اللائحة المذكورة بادر الإمام الخميني و مجموعة من العلماء الاعلام في قم و طهران - و بعد التشاور - للاعتراض العامّ و الشامل علي هذا الامر.

و قد كان للإمام الخميني دور فعّال في توضيح الاهداف الحقيقية للنظام الملكي و التنبيه على خطورة دور العلماء الرسالي و الحوزات العلمية في تلك الظروف.

أدت البرقيات و الرسائل المفتوحة المعترضة التي بعث بها العلماء الى الملك و الى رئيس الوزراء، الى بثّ روح الدعم و التأييد في نفوس الجماهير. كما أنّ برقيات الإمام الخميني التي ابرق بها الى الملك و رئيس الوزراء تميّزت باللهجة الحادة و الحازمة و المحدّرة، يقول سماحته في احدي تلك البرقيات: «أنتي أنصحكم مجدداً بأن تطيعوا الله تعالى و تنصاعوا للدستور، و ان تحذروا العواقب الوخيمة لمخالفتكم للقرآن و احكام العلماء الاعلام و زعماء المسلمين و الدستور، فلاتعرضوا البلاد عمداً و بلا مبرّر للخطر، و الا فإنّ علماء الإسلام سيقولون رأيهم فيكم»^(١)

بادر النظام الملكي بادیء الأمر الى التهديد و تكثيف الاعلام المعادي للمؤسسة العلمانية. و صرح اسدالله علم في مقابلة اذاعية أجريت معه بالقول «إنّ الحكومة لن تتراجع عن تنفيذ مشروعها الإصلاحی الذي هي بصدد إعداده» و لكن رغم ذلك فإنّ الحركة الشعبية تزايدت باطراد، فمطلت الاسواق في طهران و قم و بعض المدن الاخرى و تجمّع الناس في المساجد للتعبير عن دعمهم لحركة العلماء.

و لم يمض اكثر من شهر و نصف على بداية الحادثة حتى انسحبت الحكومة

عن تنفيذ مشروعها، وابرق الملك و رئيس و زرائه برسالتيهما الجوابيّه الى العلماء هادفين ارضاءهم و تبرير الامر، غير أنّ النظام الملكي امتنع عن مخاطبة الإمام الخميني لما عرفه عنه من قوّة الشخصية و ثباتها.

رأى بعض العلماء في الحوزة العلمية بأنّ موقف الدولة هذا كافٍ لحسم النزاع، غير أنّ الإمام الخميني عارضهم بشدّة، فسمّاحته كان يعتقد بأنّ على الحكومة أن تبادر لالغاء لائحة المجالس المحليّة بشكل رسمي و علني، ففي البين من رسالته الجوابيّة على سؤال بعض الكسبة و التجّار من اهالي قم حول لائحة المجالس المحليّة كشف سمّاحته النّقاب عن الاهداف التي رامها النظام من وراء هذه اللائحة و اشار الى أنّ المقصود هو ادخال عناصر البهائيّين و الجواسيس الاسرائيليين في هيكل النظام الايراني، فقال في جانب من رسالته: «انّ الشعب المسلم لن يسكت ما لم ترفع هذه الاخطار، و لو أن أحداً رضي بالسكوت فإنّه سيكون مسؤولاً امام الله القادر، و سيحكم عليه بالزّوال في هذا العالم أيضاً»

كما حدّر سمّاحته في ذات الرسالة نوّاب مجلسي الشيوخ و الشورى من مغبّة التصويت لصالح هذه اللائحة فكتب يقول: «ان الشعب المسلم و علماء الإسلام أحياء و اعون، و انهم سيقطعون ايّة يدٍ خائنة تمتد للمساس باساس الإسلام و اعراض المسلمين»^(١)

و بالنتيجة فإن النظام الملكي قبل بالهزيمة، ففي ٢٨ تشرين الثاني ١٩٦٢ م، الفت الهيئة الحاكمة اللائحة السابقة، و ابرقت للعلماء و المراجع في طهران و قم تعلمهم بالأمر. غير أنّ الإمام الخميني أصرّ مجدّداً على موافقه السابقة و أعلن في اجتماع ضم العلماء الاعلام في قم بأن الغاء اللائحة بشكل سرّي أمرٌ غير كاف و أضاف بأنّ النهضة ستتواصل ما لم يُعلن أمر الإلغاء في أجهزة الاعلام.

و في اليوم التالي، أعلن خبر الغاء لائحة المجالس المحليّة في صحف النظام، و احتفلت الجماهير بأوّل نصر كبير تحقّق لها بعد نهضة تأميم صناعة النفط.

و في حديث له - في أيام الفرح تلك - قال الإمام الخميني: «الهزيمة الظاهرية ليست مهمة، المهم هو الهزيمة الروحية، و المرتبط بالله لا يُهزم، الهزيمة لأولئك الذين تمثّل الدنيا غاية آمالهم... فالله لا يهزم ولا تهنوا و لا تحزنوا... خلال الشهرين الماضيين اضطررتني الاحداث الى الاكتفاء بساعتين من النوم يومياً... و مرّة اخرى إذا رأينا شيطاناً من الخارج أراد استهداف بلادنا، فنحن كما نحن و الدولة كما هي... النصيحة من الواجبات... فعلى العلماء ان ينصحوا الجميع، بدءاً من الملك و حتى آخر فرد في البلاد...»^(١)

و بهذا فإنّ حادثة لائحة المجالس المحلية كانت تجربة ناجحة و هامة للشعب الإيراني خصوصاً و أنّه تعرف من خلالها على شخصية تؤهلها سجاياها لقيادة الأمة الاسلامية من جميع النواحي.

و رغم هزيمة الملك في حادثة المجالس المحليّة، إلا أنّ أمريكا واصلت الضغط عليه لتنفيذ الاصلاحات التي كانت تريدها. و في مطلع عام ١٩٦٣ م عدد الملك الاصول الاصلاحية الستة و طالب بطرحها للاستفتاء الشعبي فاعلنت الاحزاب القومية عن موافقتها برفعها شعار «نعم للاصلاحات، لا للاستبداد» كما أنّ الشيوعيين أيضاً و اعتماداً على تحليلهم بأن الاصلاحات الملكية ستسرع من مسير ديالكتيكية النظام الاقطاعي نحو النظام الصناعي و الرأسمالي - اعلنوا عن موقفهم - المنسجم مع الموقف الذي اعلنته اذاعة موسكو - و اعتبروا بأنّ اسس الثورة البيضاء اسس تقدمية - و اولئك هم انفسهم هم الذين عدّوا نهضة الخامس من حزيران حركة رجعية قامت للدفاع عن الاقطاعيين.

كانت الرسائل المتبادلة بين الطرفين (الملك و العلماء) ترسل بواسطة ممثلين للتفاوض و في عدة مراحل مكوكية. و في لقائه لآية الله كمالوند، هدد الملك بأنّ الاصلاحات سيتم تنفيذها باى ثمن و لو كان بسفك الدماء و تخريب المساجد^(٢)!

١ - صحيفة النور ج ١ / ص ١٦.

٢ - دراسة و تحليل لنهضة الإمام الخميني ج ١ ص ٢٢٣.

في الاجتماع اللاحق للعلماء الاعلام في قم، طالب الإمام بتحريم المشاركة في الاستفتاء الشعبي الذي طرحه الملك، لكنَّ الجناح المحافظ الذي كان حاضراً في الاجتماع، عدَّ المواجهة في تلك الظروف بمثابة «نطح الصخرة من قبل الوعل» واعتبرها أمراً عديماً الجدوى و رغم ذلك - و نتيجة لاصرار الإمام الخميني و ثباته على موقفه - تقرر ان يقوم المراجع و العلماء بمعارضة الاستفتاء بصراحة و تحريم المشاركة فيه. و في الثاني و العشرين من كانون الثاني عام ١٩٦٢ م اصدر الإمام بياناً شديد اللهجة^(١) ادى انتشاره الجماهير في تظاهرات معارضة، و هجوم رجال الشرطة على جموع المتظاهرين. و مع اقتراب موعد الاستفتاء المفروض اتخذت المعارضة الجماهيرية ابعاداً جديدة. مما اضطر الملك - و لاجل التخفيف من حدّة المعارضة - الى السفر الى قم.

و قد كان الإمام الخميني معارضاً بشدّة لفكرة قيام بعض العلماء باستقبال الملك، بل انه حرّم الخروج من المنازل و المدارس يوم وصول الملك الى قم. و كان تأثير هذا التحريم كبيراً الى درجة جعلت المتولّي لحرم حضرة المعصومة عليها السلام و الذي يعتبر اهمّ منصب حكومي في المدينة - يمتنع عن الخروج لاستقبال الملك الامر الذي ادى الى عزله عن منصبه.

و لدى وصوله عبر الملك عن غضبه من علماء الدين و الجماهير - من خلال خطابه الذي القاها في جمع من الموظفين الحكوميين و عملاء النظام الذين اصطحبهم معه من طهران بأشدّ العبارات ركّة و فضاضة.

و بعد يومين من زيارة الملك لمدينة قم، اجري الاستفتاء في وضع مؤسف اذ لم يشارك فيه غير عناصر النظام و أزماله.

و قد سعى النظام من خلال وسائل اعلامه - التي كرّرت اذاعة برقيات التهئة التي بعث بها المسؤولون الامريكان و الاوروبيون - الى اخفاء فضيحتة المتمثلة في اعراض الجماهير عن المشاركة في الاستفتاء.

واصل الإمام الخميني اغراضه و مقاصده من خلال الخطابات و البيانات،

فكان من ضمن ما أصدره بيان حازم و مستدل عرف فيما بعد «بيان التسعة»^(١) و استعرض فيه مخالقات الملك و حكومته للدستور، و توقّع فيه ان تؤدى الاصلاحات الملكية الى تدهور الزراعة و ضياع استقلال البلاد، و رواج الفساد و الفحشاء كنتائج قطعية.

و قبولاً باقتراح الإمام الخميني فقد حُرّم الاحتفال بعيد النوروز لعام ١٣٤٢ (٢١ آذار ١٩٦٣ م) اعتراضاً على ممارسات النظام و قد أطلق الإمام الخميني في بيانه الصادر بهذا الخصوص عبارة: «الثورة السوداء» على ماسمى «بالثورة البيضاء» كما أنه فضح انصياع الملك للمخططات الامريكية الإسرائيلية، قال سماحته في هذا البيان: «واتى لا ارى حلاً سوى أن يُصار الى اقالة هذه الحكومة المستبدّة بجريرة مخالفة أحكام الإسلام و تجاوز الدستور، ثم يتمّ تشكيل حكومة مستندة الى أحكام الإسلام تتمتع بعمق شعبي لدى الشعب الايراني. اللهم لقد اديتُ تكليفي؟ اللهم قد بلغت؟ و اذا مُدّ في عمري فإني ساواصل اداء تكليفي باذن الله»^(٢)

إن ادراك اهمية هذا الكلام لايتسنّى الا لاؤلئك المطلّعين على السجون الرهيبة و الجوّ الخانق الذي كان سائداً في تلك الايام، و الذين يدركون كيف كان يؤدى اقلّ انتقاد الى مواجهة السجن و التعذيب و النفي.

من جانب آخر فإنّ الملك الذي كان قد أكّد لواشنطن بأن المجتمع الايراني مهياً لتقبّل الاصلاحات الأمريكية و اطلق على اصلاحاته اسم «الثورة البيضاء» رأى بأن معارضة العلماء له ستكلّفه ثمناً باهظاً، لذا شرعت اجهزة الاعلام حملتها الواسعة ضدّ العلماء و الإمام الخميني فقد قرّر الملك القضاء على النهضة.

١- وقع على هذا البيان ذوى السماحة: «مرتضى حسين اللنجرودى، احمد الحسينى الطهرانى، محمد حسين الطباطبای، محمد الموسوى البيزدی، محمد رضا الموسوى الكلبيكاني، السيد محمد كاظم الشريعتمدارى، روح الله الموسوى الخميني، هاشم الآملى، مرتضى الحائرى» و للإطلاع على متن البيان الكامل و كيفة توافق العلماء على امضائه راجع كتاب دراسة و تحليل لنهضة الإمام الخميني ج ١ ص ٢٩٤-٣٠٢.

٢- صحيفة النور ج ١ ص ٢٧.

في جلسة آية الله الكلبايكاني

ففي الثاني من فروردين ١٣٤٢ ش (٢٢ آذار ١٩٦٣ م) - الذي صادف ذكرى استشهاد الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) هاجم ازلام النظام المسلّحين متنكرين بملابس مدنيّة تجمّع طلاب العلوم الدينية في المدرسة الفيضية ثم تلا ذلك دخول قوات الشرطة المدرسة الفيضية مستخدمين اسلحتهم النارية لتنفيذ هجومهم الوحشي فقتلوا وجرحوا الكثيرين من الطلاب. و في الوقت ذاته تعرّضت المدرسة الطالبية في تبريز لهجوم مماثل.

و في غضون تلك الاحداث كان منزل الإمام الخميني يستقبل كلّ يوم مجاميع كثيرة من الثوريين و الجماهير الغاضبة التي كانت تأتي للتعبير عن تضامنها و تعزيتها و دعمها للعلماء و للإطّلاع على آثار جريمة النظام في قم.

و في خطابه الذي القاه في الاول من نيسان عام ١٩٦٣ م انتقد بشدّة سكوت علماء قم و النجف و سائر البلاد الاسلامية ازاء جرائم الملك الأخيرة، فقال: «أنّ السكوت اليوم يعنى التّضامن مع النظام المتجبر»^(١)

و في اليوم التالي اى في الثاني من نيسان عام ١٩٦٣ م اصدر الإمام بيانه المعروف تحت عنوان «محبّة الملك تعنى التدمير» و قد وضع الإمام بيانه هذا - الذي يعدّ من اشدّ بياناته لهجة - الملك في قفص الاتهام و أكّد في ختامه على تحريم التقية في تلك الظروف و على أنّ اظهار الحقائق واجب (و لو بلغ ما بلغ) كتب الإمام الخميني في بيانه هذا مخاطباً الملك و ازلامه يقول: «لقد أعددت اليوم قلبي لتلقّي طعنات حراب ازلام الملك راضياً بذلك، و لكنّي لن ارضى بقبول الظلم و لن ارضى بالخضوع أمام تجبر النظام»^(٢)

لقد اختار الإمام الخميني طريقه بوعى. فقد صار يمتلك حصيلة من التجارب السياسية و المواقف الجهادية الحلوة و المرّة و يرى أنّ بانتظاره وقائع خطيرة و طريقاً محفوفاً بالمخاطر. غير انه لا يتحرك بناءً على ما لديه من حصيلة من الماضى

١- الكوثر شرح وقائع الثورة الاسلامية ج ١ ص ٦٧.

٢- صحيفة النورج ١ ص ٣٩.

ولا على أساس ما ينتظره في المستقبل. انه يفكر دوماً بأداء تكليفه رافعاً شعار «العمل بالتكليف و لو بلغ ما بلغ».

ان الإمام الخميني يرى بأن معنى «الهزيمة و النصر يختلف عما شاع لهما في عرف السياسيين المحترفين» فهو - و خلافاً للكثير من المناضلين المشهورين و القادة والاعلام من سياسى العالم، و الذين يدخلون الميدان السياسى بأى وسيلة ثم يحرصون على مظهرهم السياسى و شخصيتهم في وسط ذلك الميدان المضطرب - قد دخل الميدان السياسى و قام باداء دوره القيادى للثورة الإسلاميه في عام ١٩٦٣ م بعد أن طوى العديد من مراحل التهذيب و كسب الفضائل المعنويه والمعارف الحقيقيه بسطوحها العاليه و مارس الجهاد الأكبر لسنوات طويله. فالإمام يعتقد بأن بناء النفس و الجهاد الباطنى مقدم على الجهاد الخارجى حتى أنه كان يقول دوماً بأن العلوم المختلفه بما في ذلك علم التوحيد - اذا لم تكن توأمًا مع تهذيب النفس فإنها لن تكون سوى حجاب و لن تؤدى الى الوصول الى الحقيقه.

ان العبارات الحاده التي اطلقها الإمام في بيانه الصادر في ٢ نيسان ١٩٦٣ م و اشباهها التي وسمت الكثير من تراثه السياسى، لم تكن مناورة سياسيه لاجراج مناوئيه من الميدان، بل أنها كانت عرضاً لحقايق تتبع من عمق وجود شخصيه ترى أن العالم محضر الله. فالامام لم يكن يكنُّ لاحد من خصومه من امثال محمد رضا أو صدام أو كارتر أو ريغان و غيرهم ممن وقفوا بوجهه خلال جهاده، حقدًا او عداً شخصياً، فهو كان حريصاً على انقاذ المجتمع البشرى من سلطه اتباع الشيطان و إعادة البشرية الى هويتها الفطريه الالهيه - الرحمانية. و قد حرص على الاعتقاد و العمل بهذه المبادئ قبل ان يدعو غيره اليها.

و للوقوف على سرّ موقفيّة الإمام الخميني ينبغى البحث في جهاده الطويل لنفسه و سعيه لبلوغ المعرفة الشهودية الحقيقيه. فلا يمكن فهم دوافع الإمام الخميني و اهدافه من نضاله السياسى دون التأمل في مراحل تكامل شخصيته الروحية و المعنوية و العلمية.

لقد رأى العالم الكثير من العناصر التي ميّزت جهاده و ثورته، إلا أن ما يميّز

ما قام به الإمام الخميني وما يميّز ثورته عن سائر الثورات. و يجعلها متّصلة بثورات الأنبياء، هو أنّ من تصدّى للثورة الاسلامية في القرن العشرين لم يترك - على قول من رافقوه طوال فترة ما قبل النهضة حتّى انطلاقها و من ذلك الوقت حتّى رحيله عن الدّنيا - نافلة صلاة الليل و الدعاء ليلة واحدة، ناهيك عن الفرائض و الواجبات. إنّ ذلك الرجل الذي جلس يرُدُّ على اسئلة العشرات من الصحفيين والمصوّرين الذين اجتمعوا من انحاء العالم في آخر لقاء صحفي له في محل اقامته في (نوفل لوشاتو)^(١) و ما ان مرّت بضعة دقائق و حان موعد الصلاة، حتّى قام ليؤدّي صلاته غير مكترث لذلك الجمع.

و للوقوف على سرّ التأثير المميّز لبيانات الإمام و كلامه في الاستحواذ على مخاطبيه و الى الحدّ الذي يدفعهم الى التّضحية بارواحهم ينبغى البحث في أصالة الفكر هذا، و الحزم في الرأى و الصّدق الخالص معهم.

إنّ من أهمّ المزايا التي وسمت نهضة الإمام الخميني: الاعلان عن مسارٍ في نضاله، اتخاذ مواقف واضحة و الثبات عليها، و الحزم في التحرك نحو الاهداف، و هي الامور التي اقربها العدوّ و الصديق.

إنّ دراسة البيانات و المواقف السياسيّة التي صدرت عن الإمام خلال فترة النهضة التي قادها في مواجهة النظام الملكي و أمريكا و مقارنتها مع ما صدر عن

١- في ضاحية نوفل لوشاتو الواقعة على بعد (٢٥) كيلومتراً من العاصمة الفرنسية باريس وُضع منزلان صغيران تحت تصرف الإمام الخميني (س) و مرافقيه.

المنزل الاوّل كان صغيراً جداً و كان يعيش فيه الإمام مع افراد عائلته. أمّا المنزل الثاني - و كان يقع في الجهة المقابلة للمنزل الاول - فقد كان مخصصاً للاجتماعات و للطلبة الجامعيّين الايرانيين و لاعضاء مكتب الإمام، و كان الإمام يقيم فيه صلاة الجماعة كما كان يصلّي فيه نافلة الليل. كما استأجر محل آخر كفضة لإستراحة الطلبة الجامعيّين و الضيوف الذين كانوا يأتون لزيارة الإمام الخميني، و كان الشهيد مهدي العراقي يتولّى مسؤولية ادارة هذا المحلّ. و بسبب ضيق المكان كان يقضى عشرون الى ثلاثين شخصاً ليلتهم في غرفة واحدة.

و كان القادمون لزيارة الإمام يستطيعون البقاء في هذا المكان لمدة ليلتين و الجدير بالذكر هنا أنّ الإمام الراحل كان لايسمح بدفع قيمة ايجار هذا المحلّ من سهم الإمام (الخمس) لما عُرف به من دقّة في صرف الحقوق الشرعيّة. لذا كان المتمكّنون ماليّاً من الايرانيين يتولّون دفع قيمة الإيجار توسعة على الطلبة الجامعيّين الايرانيين.

بعض الشخصيات العلمائية و السياسية و الاحزاب و التجمعات و التيارات السياسية الاخرى، تظهر بوضوح مدى ثبات الإمام على المضي نحو تحقيق اهدافه و عزمه الراسخ على مواصلة النهضة بالنسبة لمدعى القيادة و الرئاسة الآخرين.

إنّ الوثائق التاريخية تدلّ بوضوح على كيفية نزول بعض الجماعات و الافراد من اعلام السياسة و الدين في الانتفاضة التي وقعت بين الأعوام ١٩٦١ - ١٩٦٣ م الى ميدان الاحداث و كيف أنّهم كانوا يتمسكون بشدّة المواقف السياسية حدّةً، و كيف أنّهم - و بمحض تعرضهم لأوّل ردّ فعل من النظام الملكي - تراجعوا عن كل موافقهم و اختار البعض منهم الانزواء و السكوت الطويل الذي - استمرّ حتى أيام بلوغ الثورة ذروتها في عام ١٩٧٩ و انتصار الثورة، كذلك فان عدداً منهم أيضاً حاول الابتعاد لمسافة كبيرة عن المواقف التي اتّخذها قائد النهضة و اختاروا - و بدلاً من الجهاد و الوقوف بوجه السياسات الاستعمارية الامريكية في ايران، و معارضة النظام الملكي المستبد على اعتبار انه السبب الاساسى لتسليط الاجانب على البلاد - الانشغال بالمسائل الجزئية المعاصرة و رفع الشعارات الفضاضة المطالبة بحريّة الانتخابات او تطبيق الدستور مثلاً.

و لا يخفي على المطلعين على احداث التاريخ الايراني المعاصر بأن رفع امثال تلك الشعارات في تلك الايام لم تكن له نتيجة غير حرف المسمار الجماهيري للنهضة عن مواجهة الاسباب الاصلية، لذلك ايضاً نرى بأن دائرة الامن (السافاك) بادرت الى ترسيخ تلك التوجهات و تشجيعها.

و في هذا الوسط اصرّ الإمام الخميني و انصاره على مواصلة مسيرتهم و الثبات على موافقهم. و المربطة على مواضعهم رغم تعقيد الظروف و التحولات السياسية التي كان الواحد منها يكفي لأن يكون سبباً مقبولاً لتغيير المواقف و اختياره العزلة و السكوت و التسليم أمام السلطة. و بدأ فقد قدم الإمام و انصاره التضحيات و اصرّوا على ما اعلنوه من المواقف الجهادية، الأمر الذي لم يكن يتحقّق دون الثبات و الاستقامة و الايمان بالاسس و الحقائق التي تسمو على مقتضيات الظروف السياسيّة و الاجتماعيّة آنذاك.

أُطلِّ عام ١٣٤٢ ش (١٩٦٣ م) ليقترن بتحرى مراسم الإحتفال بعيد النوروز (الربيع) و ليصطبغ بدماء المظلومين التي أريقت في الفيضية.

من جانب اصّر الملك على تنفيذ الاصلاحات التي كانت تطالب بها أمريكا، و من جانب آخر اصّر الإمام الخميني على توعية الجماهير و استنهاضهم للوقوف بوجه التّدخلات الأمريكية في الشؤون الداخلية و الخيانات التي يرتكبها الملك.

في الثالث من نيسان ١٩٦٣، أبرق آية الله العظمى الحكيم من النجف الى العديد من العلماء و المراجع في ايران يطالبهم بالهجرة الجماعية الى النجف الأشرف، موضحاً بأنّ الهدف من هذا الاقتراح، الحفاظ على حياة العلماء و كيان الحوزات العلمية، و قد عبّر النظام الملكي - و عبر العديد من الممارسات عن غضبه و استنكاره لدعم علماء النجف و كربلاء و آية الله الحكيم لهضة العلماء في ايران، و من اجل خلق جوّ من الرعب و الحوول بين العلماء و بين الاجابة على برقية آية الله الحكيم، فقد بادر النظام الملكي الى ارسال افواج من قوات الامن الداخلي الى مدينة قم، كما ارسل في الوقت ذاته و فداً رسمياً أخذ على عاتقه نقل رسالة التهديد الملكية الى مراجع التقليد. و قد امتنع الإمام الخميني عن استقبال هذا الوفد. و قد اشار سماحة الإمام الخميني الى هذه القضية في خطابه الذي القا في (١٩٦٣/٥/٢) مشيراً الى الملك بكلمة «التافه» فقال: «ان هذا التافه، رئيس هذه الحكومة الخبيث، أرسل و فداً من الشرطة الى منازل المراجع طبعاً انا لم استقبلهم، و ليتنى فعلت، ليتنى يومها سمحت لهم بدخول المنزل ثم هشمت اسنانهم! يرسل الى منازل المراجع من يقول: انّ الملك قد أمر بارسال من يقوم بهدم بيوتكم و قتلكم و انتهاك اعراضكم اذا تبسّمتم ببنت شفة في القضية الفلانية»

و قد ابرق الإمام برسالة جوابية الى سماحة آية الله العظمى الحكيم غير عابىء بتلك التهديدات و أكدّ في تلك البرقية على أنّ السفر الجماعي من قبل العلماء و اخلاء مواقعهم في الحوزة العلمية في قم أمر يتعارض مع المصلحة الاسلامية. كتب الإمام في جانب من هذه البرقية يقول: «اننا سوف نوّدى تكليفنا

الالهى ان شاء الله و سوف نوفق لإحدى الحسينين، إِمّا قطع ايدى الخونة عن الاسلام و القرآن الكريم، او مجاورة رحمة الحق جلّ و علا و اتى لأرى الموت الا سعادة و الحياة مع الظّالمين إلا برما»^(١)

و في بيانه الذي اصدره بتاريخ ٢ نيسان ١٩٦٣ بمناسبة اربعينية فاجعة الفيضية، أكدّ على وقوف العلماء و الشعب الايراني الى جانب قادة الدّول الاسلامية و الدول العربية ضدّ اسرائيل الفاصبة. و ادان الاتفاقيات المبرمة بين الملك محمد رضا واسرائيل^(٢). و بذافقد اوضح - و منذ الايام الاولى لانطلاق نهضته بأنّ النهضة الاسلامية، أنّما كانت طلباً لاصلاح في كل العالم الإسلامي غير محدودة بحدود ايران الجغرافية. كتب الإمام الخميني في معرض رسالة وجهها الى العلماء يقول: «إنّ الخطر الاسرائيلي على الإسلام و ايران و شيك للغاية، فالمعاهدة مع اسرائيل في مقابل الدول الاسلامية إِمّا انها ابرمت أو انها على و شك ذلك... و بالسكوت و الاعتزال سنضيّع كل شيء، انّ للاسلام علينا حقاً، فعلى علماء الإسلام و المتمسكين بالديانة المقدّسة ان يؤدّوا ما عليهم من دين لدينهم في هذا الزمان الذي تتعرّض فيه كل الجهود المضنية التي بذلها ذلك العظيم(ص) للزوال. لقد صممت على عدم التراجع حتّى الزم هذا النظام الفاسد حدّه»^(٣)

انتفاضة الخامس من حزيران

و في حزيران عام ١٩٦٣ م اطلّ شهر محرّم الحرام. فبادر الإمام الخميني لتحقيق أقصى استفادة من هذه الفرصة في تحريك الجماهير و دفعها لمواجهة النظام الملكي المستبدّ. و في (عاشورا) انطلق مئات الآلاف من المتظاهرين في طهران و

١- للاطلاع على نصّ البرقية و تفاصيل الأمر، دراسة و تحليل لنهضة الإمام الخميني ج ١ ص ٣٩٨ - ٤٠٥.

٢- صحيفة النور ج ١ ص ٤٦.

٣- صحيفة النور ج ١ ص ٤٤.

هم يحملون صور الإمام، و تجمّعوا امام (قصر المرمز) (محل إقامة الملك) و رددوا لأول مرّة في العاصمة شعار «الموت للمستبدّ» ثم تلتها مظاهرات اخرى في الايام اللاحقة، تجمّع فيها المتظاهرون في الجامعة و السوق المركزي و في مقابل السفارة البريطانية معلنين عن دعمهم لهضّة الإمام.

و في عصر يوم عاشوراء لعام ١٣٨٣ ق (٣ حزيران ١٩٦٣ م) القى الإمام في المدرسة الفيزيية خطابه التاريخي القيم والذي كان بداية لقيام الخامس من حزيران. و قد خصّص سماحته القسم الأعظم من خطابه لإستعراض المصائب التي الحقها العائلة البهلوية بالبلاد. و فضح العلاقات السريّة بين الملك و اسرائيل. و في هذا الخطاب كان الإمام يصيح مخاطباً الملك بالقول: «ياسيد! انصحك! يا جناب الملك! يا حضرة الملك! إنّي انصحك، فلتكفّ عن ممارستك هذه! انهم سيتغفلونك ياسيد. و لست ارغب ان يبادر الجميع للتعبير عن شكرهم لله في اليوم الذي يتقرّر فيه أن تُنحى عن مقامك... فإذا كانوا يلقونك ما تقول، فلتفكر قليلاً... و استمع لنصيحتي... فما هي العلاقة بين الملك و اسرائيل حتى تطالب مديرية الامن بعدم التعرّض لاسرائيل... فهل إنّ الملك، اسرائيلي؟»^(١)

لقد وقع خطاب الإمام كالمطرقة على روح الملك - و قد كان ما اصيب به من جنون القدرة و التكبر الفرعوني حديثاً للقريب و البعيد- لذا فقد اصدر اوامره بكم صوت الثورة هذا، فبادرت قوات امه اولاً لاعتقال جمع من انصار الإمام في ليلة الرابع من حزيران، ثم وفي فجر يوم الخامس من حزيران داهم المئات من رجال الكومندو الذين تمّ ارسالهم من طهران، منزل الإمام الخميني لاعتقاله في الوقت الذي كان يؤدّي فيه نافلة صلاة الليل و تمّ نقله على الفور الى طهران ليودع في معتقل (باشگاه افسران) نادى الضابط ثم نقل في غروب ذلك اليوم الى (سجن القصر).

و بسرعة انتشر خبر اعتقال الإمام في مدينة قم و ضواحيها، فانطلق الرجال

١- ظهور و سقوط سلالة البهلوي (فارسي) ج ١ ص ٥١٠.

و النساء من القرى من مدينة قم نحو منزل قائدهم و هم يرددون شعار «الموت أو الخميني» الذي ملأ أرجاء المدينة و قد بلغ الغضب الشعبي حداً دفع رجال الشرطة في البداية نحو الفرار إلا أنهم عادوا لمواجهة الجماهير بعد ان تسلّحوا بمختلف التجهيزات العسكرية و بعد أن استقدمت قوات دعم عسكرية من المعسكرات الواقعة على اطراف المدينة.

و بينما كانت جموع الجماهير تغادر حرم حضرة المعصومه (عليها السلام) فتحت قوات النظام التي استقرت خارج الحرم المطهر نيران اسلحتها الاوتوماتيكية، و لم تمض عدّة ساعات على المواجهة بين الجماهير و قوات النظام، حتى دار حمام من الدم في المدينة، و لم يكنف النظام بذلك، فقد ارسلت عدّة طائرات مقاتلة لتحقيق في سماء المدينة و اختراق حاجز الصوت لادخال الرعب و الهلع على قلوب الجماهير و تمّ مواجهة الانتفاضة بالسلاح للسيطرة على الاوضاع.

بعدها بادرت العجلات العسكرية لجمع اجساد الشهداء و الجرحى من الشوارع و الازقة لنقلهم بسرعة الى اماكن غير معلومة. و في غروب ذلك اليوم كانت مدينة قم تعيش حالة النكبة و الحزن.

في صباح يوم الخامس من حزيران كان خبر اعتقال الإمام قد وصل الى طهران، مشهد، شيراز و سائر المدن مما فجر اوضاعاً مشابهة في تلك المدن. فقد انطلقت مجاميع الناس من اهالي (ورامين) و المناطق السكنية في ضواحي طهران نحو العاصمة، و لما كانت دبابات النظام و آلياته و قواته المسلحة قد احاطت بالعاصمة للحيلولة دون وصول المعارضين اليها، فقد اشتبكت تلك القوات مع تلك المجاميع في تقاطع (ورامين) مما أدى الى سقوط العديد من القتلى و الجرحى من الاهالي.

كذلك فإن تجمّعاً كبيراً كان قد حصل في السوق المركزي في طهران و في وسط المدينة مردداً شعار «الموت أو الخميني» ثم توجه الجمع نحو قصر الملك. كما انطلقت سيول الجماهير من جنوب مدينة طهران متوجهة نحو مركز العاصمة و كان بينهم: طيب الحاج الرضايي و الحاج اسماعيل الرضائي - و هما اثنان من

فتوات منطقة جنوب طهران - مع مجموعتهم، وقد اعتقل هذين الاخوين فيما بعد وفي ٢ تشرين الثاني ١٩٦٣ م تمّ اعدامهما و نفي انصارهما الى مدينة بندر عباس على اية حال، فقد أعلنت الاحكام العرفية في الخامس من حزيران في كل من طهران و قم، و على الرغم من ذلك فإنّ تظاهرات واسعة انطلقت في الأيام اللاحقة و ان كانت تنتهي كل مرّة بالمواجهة الدامية.

لقد كان الخامس من حزيران ١٩٦٣ يوم انطلاق ثورة الشعب الايراني الاسلامية.

بعد تسعة عشر يوماً من الاعتقال في سجن القصر، تمّ نقل الإمام الخميني الى معتقله الجديد في (معسكر عشرت آباد).

بعد يومين من انتفاضة الخامس من حزيران، وصف الملك ذلك القيام الشعبي بأنه مصيبة و عمل وحشى نجم عن اتحاد الرجعية السوداء و الحمراء و سعى لربط ما حدث بالخارج و صرح بأنّ هناك آيادٍ حركت الاحداث من امثال جمال عبدالناصر^(١). و لم يخف على احد حينها تهافت الادعاءات التي اطلقها الملك. و على العكس تماماً من ادعاءاته تلك فإن حزب تودة و سائر الشيوعيين الايرانيين قد اصروا في كتابتهم و مواقفهم المعلنة على اعادة و تكرار وجهة نظر موسكو حول أحداث الخامس من حزيران و التي كانت تصرح بها من خلال الاذاعة و الصحف الصادرة في الاتحاد السوفيتي و المتمثلة في اعتبار تلك الانتفاضة حركة رجعية عمياء للوقوف بوجه الاصلاحات التقدمية التي كان الملك يرغب في تنفيذها.

كذلك فإن احداً لم يصدّق الادعاء الكاذب للملك و الذي اراد من خلاله توجيه الاتهام الى جمال عبدالناصر رغم سعى السافاك و دسائسه التي حاكها في هذا السبيل. فالاستقلال التام لانتفاضة الخامس من حزيران ظهر بجلاء و وضوح للجميع الى درجة لم تتمكن معه امثال هذه الحصيات الصغيرة من توجيه ادنى

١- احد رؤساء جمهورية مصر العربية تولّى الحكم عام ١٩٥٤، و بعد عامين من توليه الحكم يبادر الى تأميم قناة السويس، دخل حرب السنة أيام في مواجهة العدو الصهيوني. توفى عام ١٩٧٠ و دفن في محل عمله.

ضربة لها.

و باعتقال قائد النهضة و ممارسة القتل الوحشي بحق الجماهير في الخامس من حزيران عام ١٩٦٣ م، فإن النهضة تكون قد اجهضت في الظاهر. و في محبسه امتنع الإمام الخميني عن الرد على اسئلة ضباط التحقيق، معلناً بوضوح و شجاعة بأنّ الهيئة الحاكمة في ايران و القوّة القضائية تفتقد باجمعها الى الرصيد القانوني و الصلاحية الرسمية و في زنزانتها الانفرادية في (معسكر عشرت آباد) لم يفرط الإمام الخميني بالفرصة التي سنحت له فراغ يكثر من مطالعة كتب التاريخة المعاصر و ما كتب عن الحركة الدستورية في ايران، و بعض ما كتب عن (جواهر لال نهرو).

بعد اعتقال سماحته ايضاً انطلقت الأصوات المعارضة الواسعة من قبل علماء الدين و مختلف طبقات الشعب و من مختلف انحاء البلاد مطالبة باطلاق سراح قائدها. فقام جمع من العلماء الاعلام بالسفر الى طهران و الاعلان عن معارضتهم لاعتقال الإمام. و كان توقع اقدام النظام على تصفية الإمام يشير القلق بين الجماهير و يدفعها لظهور ردّ فعل قوي. عموماً فقد تعرّض العلماء الذين تجمعوا في طهران لهجوم ازلام السافاك، فتمّ اعتقالهم و ايداعهم السجن لمدة من الزمن.

و عندما رأى الملك بأنّ انتفاضة الخامس من حزيران ووجهت ضربة للاستقرار والضمانات التي اعطاها لامريكا، حاول ان يقلل من أهمية تلك الانتفاضة و يُظهر بأنّ الاوضاع عادية و تحت سيطرته. من جانب آخر كان الغضب الجماهيري نتيجة استمرار اعتقال الإمام في تنام مضطرد، عليه اضطر النظام في الثاني من آب ١٩٦٣ م الى نقل الإمام من معتقله ليوضع تحت اقامة الجبرية في منزل تحاصره قوات الامن في (منطقة الداودية) في طهران، و بمجرد اطلاع اهالي طهران على انتقال القائد، توجهوا نحو منطقة الداودية، و لم تمرّ عدّة ساعات من تجمّع الاهالي حتّى اضطرّ النظام الى تفريق الجموع و محاصرة المنزل بشكل علني بواسطة رجال الشرطة.

في مساء الثاني من آب نشرت صحف النظام خبراً مفتعلاً اشارت فيه الى

إبرام اتفاق بين الإمام الخميني والمسؤولين في الحكومة، و لم يكن ممكناً بالنسبة للإمام الخميني الإطلاع على الخبر أو تكذيبه، غير ان العلماء الاعلام كذبوا من خلال بياناتٍ اصدروها آنئذٍ وقوع أى اتفاق أو تفاهم بين الإمام و النظام و قد تميّز البيان الذي اصدره آية الله المرعشي النجفي(ره) بحدّة اللهجة و التأكيد على فضح اساليب النظام مما جعله من البيانات البالغة التأثير.

بعد ذلك تمّ نقل الإمام مستوراً الى منزل في محلة قيطرية في طهران و بقي تحت الاقامة الجبرية هناك الى يوم اطلاق سراحه ٧ نيسان ١٩٦٤ م.

و في الثلث الاول من عام ١٩٦٤ تصوّر النظام بأنّ الشدّة التي واجه بها الجماهير في حادثة الخامس من حزيران، قد أدّت الى تنبيه الجماهير و دفعت المجاهدين الى اختيار جانب السكوت، لذا فقد حاول النظام الايحاء بأن وقائع العام الماضي قد تمّ نسيانها.

و في مساء السابع من نيسان ١٩٦٤ م تمّ - و بلااطلاع سابق - اطلاق - سراح الإمام الخميني و نقله الى قم. و بمحض اطلاع الجماهير على الامر عمّت مظاهر الفرح الفيزية و سائر الاماكن و دامت عدّة ايام.

و لم تمرّ ثلاثة ايام على اطلاق سراح الإمام الخميني حتّى بادر سماحته الى ابطال كافة التصورات و الدعايات التي تمسك بها النظام و ذلك من خلال خطابه الثوري الذي القاه فور اطلاق سراحه. فقال سماحته: «لا معنى للاحتفال اليوم. فما دام للشعب عمر يحياه، فإنّه غارق في حزنه على مصيبة الخامس من حزيران» و رد على ما نشرته الصحف الاجيرة من اكاذيب فقال: «كتبوا في مقالة صحفية ان تفاهماً قد حصل مع علماء الدين، و ان علماء الدين يؤيدون ثورة الملك و الشعب البيضاء. آية ثورة هذه؟ و أى شعب؟... أن الخميني لن يساومهم حتّى و ان اعدموه... و لا يمكن تنفيذ الإصلاحات تحت أسنّة الحراب»^(١)

و لما كان السافاك قد اقدم على مؤامرة بثّ الفرقة و ايجاد شرح في صفوف

المجاهدين في الحوزة العلمية - و ذلك من خلال ايجاد الخلافات بين العلماء و المراجع - تعرّض الإمام الخميني في خطابه الذي القاه في المسجد الاعظم في قم بتاريخ ١٥ بتاريخ ١٥ نيسان ١٩٦٤ م الى هذه المسألة هادفاً لإفشال تلك المؤامرة فقال: «إذا وجه أحدهم إهانةً لى، بل اذا لطمنى على وجهى، او ضرب احد اولادى على وجهه، اقسام بالله تعالى بأنى لا ارضى ان يهتّب احدٌ لمواجهته و الدفاع عنى، لست ارضى، اننى اعلم بأن البعض يهدفون - إمّا عمداً أو جهلاً منهم - الى بثّ الفرقة في هذا المجتمع... اننى و من موقعى هذا أقبل ايادى جميع المراجع، من كان منهم هنا أو في النجف أو في سائر البلاد، مشهد، طهران، و اينما كانوا انى اقبل ايادى جميع علماء الإسلام. ان هدفنا اسمى من هذه الامور انى امدّ يد الاخوة الى جميع الشعوب الاسلامية، و الى جميع المسلمين في مشارق الارض و مغاربها»^(١)

و في هذا الخطاب كشف الإمام، الثّقاب عن العلاقات السريّة بين الملك و اسرائيل و صاح بأعلى صوته: «أيتها الجماهير! ايتها العالم! اعلّموا بأنّ شعبنا يخالف اىّ اتفاق مع اسرائيل، انّ من يقوم بذلك ليس شعبنا، ليس علمائنا، فان ديننا يمنعنا من ابرام اىّ اتفاق مع اعداء الإسلام».

و في هذا الخطاب ايضاً عبّر سماحته عن الملك بكلمة «النافقة» فقال موجهاً الخطاب اليه فقال: «لا تشتبهوا فحتى لو داهنكم الخميني، فإنّ الامّة الاسلامية لن تداهنكم. لا تشتبهوا! فنحن في نفس خندقنا الذى كنا فيه، نعارض كل اللوائح المخالفة للإسلام، و نقف بوجه كلّ تجبركم... ان شعبنا المجيد مستاءً غاية الاستياء من اسرائيل و عملائها و من الحكومات الّتي تصالح اسرائيل»^(٢) و في الذكرى السنوية الاولى لاتنفاضة الخامس من حزيران اصدر الإمام و سائر المراجع بياناً مشتركاً، كما صدرت بيانات مستقلة عن الحوزات

١- الكوثر - شرح وقائق الثورة الاسلامية ج ١ ص ١١٢.

٢- الكوثر - شرح وقائق الثورة الاسلامية ج ١ ص ١١٢.

العلمية تم فيها تجليل ذكرى الانتفاضة و اعلن يوم ذكراها يوم حداد عام^(١)

اعتقال آية الله الطالقاني:

و في شهر تموز عام ١٩٦٤ م تمّ اعتقال المجاهد الكبير آية الله الطالقاني المجاهد الكبير^(٢) و المهندس مهدي بازركان احد علماء الدين الملتزمين و المجاهدين كان له دور بارز في الجهاد الشعبي الإسلامي الايران ضدّ الإستبداد و الإستعمار. سافر - بعد اتمام دروسه في حوزة قم العلمية - الى طهران ليؤدّي دوره في التبليغ بالإسلام و ذلك عام (١٩٣٨ م) اعتقل في عام (١٩٣٩ م) بتهمة معارضة النظام البهلوي و اودع السجن فترة من الزمن كان مكان درسه في مسجد (هدايت) في طهران منذ عام ١٩٤٨ م فما بعد، فأصبح مكان درسه محلاً لتجمع العناصر المثقفة المتديّنة و الطاقات الملتزمة من اعضاء الجبهة الوطنية، الأمر الذي انتهى فيما بعد الى تأسيس حركة «نهضة الحرية». سافر في الاعوام ١٩٥١ و ١٩٥٢ م الى مصر و الاردن، ساهم في حركة المطالبة بتأميم النفط، و اعتقل بعد انقلاب (٢٨ مرداد) بتهمة التستر على نواب الصفوى، زعيم حركة فدائيي الإسلام. و من ضمن نشاطاته السياسيّة البارزة مساهمته في تأسيس حركة نهضة الحرّية في عام (١٩٦٥ م) كعضوٍ اساسي، الحركة التي يمكن اعتبارها انشقاقاً عن الجبهة الوطنيّة. غير أنّه و قبل احداث الخامس من حزيران تمّ اعتقال مؤسسي حركة نهضة الحرية ثمّ تمّ تقديمهم للمحاكمة بعد نهاية الاحداث و صدرت بحقهم احكام مختلفة بالسجن لمدّة لم تزد عن العشرة اعوام. و في عام (١٩٦٧ م) تمّ اطلاق سراح السيد الطالقاني ثم لجأ النظام الى نفيه الى مدينة «زابل» ثمّ الى مدينة بافت كرمان في عام ١٩٧١.

و في عام ١٩٧٥ م القى القبض عليه مجدّداً بسبب خيانة أحد المنافقين و

١ - صحيفة التورج ٢ ص ٨٣ و الموقعون على هذا البيان هم ذوى السماحة: «روح الله الموسوي الخميني، محمد هادي الحسيني الميلاني، شهاب الدين النجفي المرعشي، حسن الطباطبائي القمي».

٢ - آية الله السيد محمود الطالقاني (١٩٠٥ - ١٩٧٩ م).

حكم عليه بالسّجن لمُدّة عشرة اعوام. و بقي في محبسه حتّى (٩ / ١١ / ١٩٧٨) حيث اطلق سراحه مع عدد من السجناء السياسيين.

امّا بعد انتصار الثورة الإسلاميّة فقد تم اختياره لرئاسة شورى الثورة و عضويّة مجلس خبراء الدستور. كما أمّ سماحته - و بأمر من الإمام أوّل صلاة جمعة بعد انتصار الثورة في جامعة طهران و ذلك في شهر تموز ١٩٧٩ م. ترك تأليف و آثار فكرية مختلفة في مجال تفسير القرآن و مختلف المعارف الإسلامية و الموضوعات الاجتماعيّة و السياسيّة.

مواجهة «لائحة الحصانة القضائيّة»

و في جانب آخر، كان الملك - و تحت الضغط الامريكى - مصمماً على تنفيذ الاصلاحات التي اعدّت في البيت الابيض متصوراً ان المذابح و المعتقلات و المحاكمات، قد أدّت الى ازاحة ثقل قوات المقاومة من طريقة. و لمّا كانت الاصلاحات يجب ان تؤدّى الى تحقيق النفوذ الشامل لامريكا في البلاد و تمكّنها من الإيفاد المباشر لخبرائها للحضور في مختلف المجالات الإقتصادية و العسكرية و في مختلف المواقع الحساسة في النظام الملكي، لذا وجب ان يكون الشرط الأوّل لتحقيق ذلك هو ازالة الموانع الحقوقيّة و القانونيّة امام حضور القوات الأمريكية في ايران و ضمان أمنها و اطلاق العنان لها.

و بدأ تمّ احياء الحصانة السياسية و الدبلوماسية و القضائيّة للمواطنين الامريكان في ايران فكان اقرار لائحة الحصانة من قبل مجلسى الشيوخ و الشورى رصاصة الخلاص التي اطلقت على استقلال ايران الذي كان يعيش مقيداً مضطهداً. و من أجل تنفيذ ذلك، بادر النظام الى مواجهة المجاهدين بوحشيّة و القاء العديد منهم في السجون أو نفيهم، وقد أدّت ممارسات الحكومة البوليسيّة للملك حبس الأنفاس في الصدرو و منع اى أحد من المعارضة او المخالفة.

و مرّة أخرى و في هذا الجوّ المضطرب، صمّم الإمام على اداء رسالته التاريخيّة فانبرى للقيام للمجدّد، و للبدء في ذلك اختار الإمام الخميني يوم السادس

والعشرين من تشرين الاول من ذلك العام (و هو يوم ميلاد الملك، الذي اقترن باقامة الاحتفالات المفروضة و انفاق الاموال الطائلة) فأرسل الرسائل و نشر البيانات التي حثت العلماء في مختلف المدن على التجمع في قم. و من اجل اخافة الإمام الخميني و ثنيه عن عزمه على اللقاء خطاب في ذلك اليوم، قام الملك بارسال مبعوثه الخاص الى قم غير ان الإمام رفض استقباله، فقام المبعوث بابلاغ رسالة الملك الى السيد مصطفى نجل الأمام الاكبر.

و في اليوم الموعد، و دون الاكتراث بالتهديدات، التقى الإمام الخميني خطابه في حشد كبير من علماء الدين و اهالي مدينة قم و سائر المدن. كان ذلك الخطاب التاريخي في الحقيقة محاكمة للهيئة الحاكمة في امريكا على تدخلاتها غير القانونية في شؤون البلد الإسلامي ايران، و فضحاً لخيانات الملك، و قد ابتدأ الإمام و بصلابة لا توصف خطابه بهذه الكلمات: «... لقد سُحقت عزتنا لقد انهارت عظمة ايران و مجدها... لقد سُحقت عظمة الجيش الايراني. فقد طرحوا على المجلس قانوناً جديداً، يُلحقنا بمعاهدة فينا... فيكون لجميع المستشارين العسكريين و عوائلهم، و موظفيهم الفنيين، و موظفيهم الإداريين و خدامهم... حصانة اذا ارتكبوا اية جنائية في ايران... أنى أحذركم ايها الجيش الايراني انى احذركم... ايها السياسيون الإيرانيون، انى احذركم... اقسم بالله مآثوم من لا يصرخ... والله ان من لا يصيح يرتكب كبيرة... يا قادة الإسلام، انقذوا الإسلام. يا علماء النجف انقذوا الإسلام... يا علماء قم انقذوا الإسلام».

و في هذه الخطابات بالذات قال الإمام الخميني مقولته المشهورة: «امريكا أسوأ من انجلترا... انجلترا أسوأ من امريكا... و الإتحاد السوفيتي أسوأ من كليهما، بعضهم أسوأ من بعض، بعضهم أخبث من بعض، غير أننا اليوم مضطرون للوقوف بوجه هؤلاء الخبثاء، بوجه امريكا... فليعلم الرئيس الأمريكى بانه اشد الناس بغضاً في اعين ابناء شعبنا... كل مصائبنا بسبب امريكا، كل مصائبنا بسبب اسرائيل، واسرائيل ربيبة امريكا»^(١)

و في ذات اليوم (٢٦ تشرين الاول ١٩٦٤ م) اصدر الإمام الخميني بياناً ثورياً كتب فيه: «ليعلم العالم بأنّ كلّ المصائب و المشكلات التي يتعرض لها الشعب الايراني و الشعوب الإسلامية. انما هي من الأجانب و من امريكا. إنّ الشعوب الاسلامية مستاءة من الاجانب عموماً و من امريكا خصوصاً... امريكا التي تدعم اسرائيل و انصارها، امريكا التي تجهز اسرائيل بالقوة و القدرة لتشرّد العرب المسلمين»^(١)

و بدا فقد اثمرت جهود الإمام الخميني لفضح مؤامرة الحصانة في دفع ايران الى حافة الثورة من جديد في تشرين الاول من عام ١٩٦٤ م، غير أن الملك بادر و بسرعة لمواجهة الموقف مستفيداً من تجربته في انتفاضة الخامس من حزيران هذا و من جانب آخر كان العديد من العناصر الدينية و السياسية البارزة و المدافعة عن نهضة الإمام يقعون في تلك الايام في السجن او المنفى. كذلك فإنّ عدداً من مراجع التقليد و العلماء الاعلام ممن ساهموا في أحداث الخامس من حزيران كانوا قد انسحبوا من الميدان تدريجياً و التزموا الصمت يدفعهم الى ذلك الحفاظ على مصالحهم، الأمر الذي استمرّ ايضاً الى عام ١٩٧٩ سنة انتصار الثورة.

الخطر الاساسي الذي هدّد النظام الملكي هو وجود الإمام الخميني، الذي لم تنفع أية حيلة لاجباره على السكوت فهو الآن قائد محبوب و معروف لجميع المجاهدين من الشعب الايراني، و هو مرجع تقليد للكثير من المسلمين، و لما كانت التجربة السابقة قد أثبتت بأنّ اعتقاله في داخل البلاد سيضعف من مشاكل النظام مئات المرأت و لما كان الاقدام على تصفيته جسدياً سيؤدي الى تفجير اوضاع لايمكن السيطرة عليها، إتخذ النظام قراراً بنفيه الى خارج البلاد.

نفي الإمام الى تركيا

و في فجر الرابع من تشرين الثاني من عام ١٩٦٤ م داهم رجال الكوماندو الموفدون من طهران منزل الإمام الخميني في قم بعد محاصرته - و الملفت أن

سماحته كان يؤدّي مراسم المناجاة و صلاة الليل تماماً كما كان حاله لدى اعتقاله في العام الماضي - و تمّ اعتقال الإمام و نقله مباشرة الى مطار (مهرآباد الدولي). حيث كانت طائرة عسكرية بانتظاره فأقلته مخفوراً من قبل رجال الأمن و الشرطة الى (أنقرة) و في عصر ذات اليوم نشر السافاك في الصحف المحليّة خبر نفي الإمام بتهمة التآمر على النظام!.

و رغم الجو الخانق الذي كان سائداً آنذاك فقد انطلقت موجات من الإحتجاجات. فقد خرجت مظاهرات في السوق المركزي في طهران، تمّ تعطيل الحوزة لدروسها لمدّة طويلة، و ارسلت الطوامير و الرسائل الى المؤسّسات الدوليّة و الى مراجع التقليد.

و كان آية الله الحاج السيّد مصطفى الخميني قد اعتقل في نفس يوم اعتقال الإمام و اودع السجن و في ثالث من كانون الثاني عام ١٩٦٥ م تمّ نفيه إثر والده الى تركيا أيضاً. و قد كانت فترة نفي الإمام الى تركيا عصيبة للغاية. فقد منع الإمام هناك حتّى من ارتداء الزى الروحاني غير أنّ اياً من تلك الضغوط الجسدية و الروحية لم تتمكّن من اجبار الإمام على الاستسلام.

كان أوّل محل لإقامة الإمام في تركيا هو فندق (بولوار بالاس) في (أنقرة) (الغرفة رقم ٥١٤ من الطابق الرابع) و لأجل اخفاء محلّ إقامة الإمام، تم في اليوم التالي نقله الى شارع آتاتورك. ثم في ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٦٤ م - و لاجل ازوائه و قطع اىّ نوع من الإرتباط معه تمّ نقله الى مدينة (بورسا) الواقعة على بعد ٤٦ كم غرب أنقرة.

و في تلك المدّة سلب الإمام امكانيّة اىّ تحرك سياسىّ و وضع تحت مراقبة مباشرة و شديدة من قبل رجال امن ايرانيين تم ارسالهم لهذا الغرض و بالتعاون و التنسيق مع قوات الأمن التركيّة.

دامت إقامة الإمام في تركيا مدّة احد عشر شهراً، قام النظام الملكي خلالها - و بسرعة منقطعة النظر - بتصفية بقايا المقاومة في ايران، و بادر الى تنفيذ الإصلاحات التي رغبت امريكا في تنفيذها في فترة غياب الإمام.

وقد اضطرّ النظام - واستجابة لبعض الضغوط التي مارستها الجماهير و بعض العلماء - الى السماح بسفر بعض الممثلين عن الجماهير و العلماء للإطمئنان على صحّة الإمام و سلامته.

و خلال مدّة اقامته في تركيا اشار الإمام من خلال الرسائل التي بعث بها الى أقاربه و مؤيديه و علماء الحوزة - تلميحاً و اشارة و غير التماس الدعاء - الى ثباته على موافقه الجهادية، كما طلب ارسال بعض كتب الأدعية و الكتب الفقهيّة اليه.

كانت فترة الاقامة الاجبارية في (تركيا) فرصة ثمينة للإمام اغتنمها في تدوين كتابه القيم (تحرير الوسيلة) و هو الكتاب الحاوي لفتاوى الإمام الفقيهية، ذكر فيها - و لأول مرة في ذلك الوقت - مسائل تتعلّق باحكام الجهاد و الدفاع و الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و المسائل العلميّة الهامّة الاخرى الامور التي كانت حتّى ذلك الوقت منسيّة لا يتعرّض لذكرها احد.

من الجدير بالذّكر آراء الإمام الاجتهادية في الفقه و الاصول كانت قد نشرت - و منذ سنوات قبل رحيل آية الله البروجردى - في العديد من الآثار و المؤلفات التي نشرت عن الإمام الخميني و سوف نشير في هذه الوجيزة الى تلك الآثار و المؤلفات.

النفى المجدد من تركيا الى العراق

في الخامس من تشرين الاول من عام ١٩٦٥ م، تمّ نقل الإمام الخميني بمعيّة نجله آية الله الحاج السيّد مصطفى الخميني من تركيا الى منفاه الجديد في العراق. و لا يسعنا في هذا المختصر التعرض بتفصيل الى علل و اسباب تغيير محل منفي الإمام الخميني. و لكن نشير باقتضاب الى أنّها تتركّز فيما يلي: الضغوط التي مارسها المتديّنون و الحوزات العلمية في داخل البلاد و المساعي و التظاهرات التي قام بها المسلمون في خارج البلاد من اجل اطلاق سراح الإمام، سعى النظام الملكي لاظهار الأوضاع بالمظهر العادى و الاشارة الى قدرة و ثبات نظامه لجلب

المزيد من الدعم الامريكى لنظامه المشاكل الأمنية المتفاقمة في تركيا و تزايد الضغوط الداخلية من قبل الإسلاميين على الحكومة التركية، واهم من كل ذلك تصوّر النظام الملكي بأن الهدوء و عدم وجود الرغبة في التدخل في الامور السياسية و الذي كان يسود الحوزة العلمية في النجف الاشرف، و وضع النظام الحاكم في بغداد ستصبح كلها حواجز كبيرة تحدّ من فعاليات الإمام الخميني.

بعد وصوله الى بغداد توجه الإمام الخميني لزيارة مرافد الائمة الأطهار (عليه السلام) في الكاظمين و سامراء و كربلاء، ثم سافر بعد اسبوع واحد الى محل إقامته الجديد في مدينة النجف الاشرف.

و قد اثبت الإمام الخميني منذ بداية وجوده في العراق و من خلال لقاءه المقتضب مع ممثل الرئيس العراقي آنذاك (عبد السلام عارف) و رفضه الاقتراح القاضي بعقدة مؤتمر صحفي و تلفزيوني، بأنه ليس ذلك الشخص الذي يرضى بان يجعل من اصالة ثورته الإلهية ثمناً للمصالحة بين نظامي بغداد و طهران.

و قد بقي هذا المنحى من - السير المستقيم - صفة تصف منهج الإمام طوال فترة إقامته في العراق، و بدأ فقد اثبت الإمام الخميني بأنه احد أندر القادة السياسين في العالم ممن لم يقبلوا - و هم في اشدّ حالات التعرض للمضغط و المشكلات - بالدخول في المهارات السياسية المتعارفة و المساومة على اهدافه.

لقد كان يكفي - بعد ظهور المناوشات السياسية بين حكومتى بغداد و طهران - ان يعطى الإمام الخميني موافقته المبدئية حتى تنهال عليه انواع الامكانيات لتوظيفها في مواجهة النظام الملكي الايرانى غير ان الإمام يمتنع عن الاقدام على ذلك و حسب، و انما كان يقف في تلك المواطن على جبهتين لممارسة دوره الجهادى حتى أن الامر قد بلغ في عدّة مرّات حدّ المواجهة و القيام ضدّ النظام الحاكم في بغداد ايضاً.

و بلا شك فلو لم يستخدم الإمام الخميني ذكاهه و حيظته لكادت الثورة الاسلامية أن تسير منذ ذلك الوقت في الطريق الذى طوته غالبية الحركات و الجبهات و الأحزاب السياسية الإيرانية عدّة مرات، و الذي لم ينته بها إلا إلى

الإرتباط و الخذلان.

انّ الفترة الطويلة - و التي ناهزت الثلاثة عشر عاماً - التي امضاها الإمام الخميني في منفاه في النجف الاشرف بدأت في ظروف - و ان كانت ظاهراً تخلو من الضغوط و الفيود المباشرة التي تعرض لها في ايران و تركيا - إلا ان المعارضات و التحييطات و الكلام الجارح - الذي انطلق من العلماء القشريين و اهل الدنيا المتخفين في لباس اهل الدين لا من جبهة العدو كانت واسعة و مؤلمة الى درجة جعلت الإمام يتحدّث رغم ما عرف عنه من صبر و حلم عن ظروف الجهاد العصبية في تلك السنوات بمرارة بالغة كلما ذكرها.

لكن ايّاً من تلك المصائب و المصاعب لم تستطع ثنيه عن مواصلة الطريق التي اختارها بوعى و ادراك.

كان الإمام قد ادرك مسبقاً بأنّ الحديث عن الجهاد و الدعوة للقيام في ذلك الجوّ عملٌ لاجدوى منه. فقد كان يتوجّب عليه البدء من نفس النقطة التي ابتداءً منها في سنوات ما قبل انتفاضة الخامس من حزيران في ايران و الحوزة العلمية في قم بمعنى البدء بالاصلاح و التغيير التدريجي للظروف و تربية و تعليم جيل يمكنه حمل رسالته.

و من هذا المنطق شرع الإمام بتدريس خارج الفقه في مسجد الشيخ الأنصاري في تشرين الثاني عام ١٩٦٥ م رغم الجهود المغرضة التي بُذلت من اجل ثنيه عن ذلك. الامر الذي استمرّ حتّى فترة ما قبل سفره الى باريس.

و قد أدت المباني المتقنة للإمام في الفقه و الاصول و تسلّطه على مختلف فنون و اقسام المعارف الاسلامية الى جعل درسه و حوزته من ابرز الحوزات الدّراسية في النجف الاشرف كمّاً و كيفاً و بعد مدّة قصيرة و رغم ما بذله الرجعيون من جهود مشبّطة محبّطة. فقد حضر درسه الطلبة الايرانيون، الباكستانيون، العراقيون، الافغان، الهنود و الخليجيون و غيرهم لينتهلوا من نبع علومه المغداق. و قد رغب انصار الإمام و محبّوه ممن كانوا في ايران في الهجرة الجماعيّة الى النجف الاشرف، غير أنّ توصيات الإمام الخميني و الخاصّة بلزوم الثبات و حفظ الحوزات العلمية

في إيران منعتهم من تنفيذ رغبتهم، و ان كان العديد من عاشقى الإمام الخميني قد انطلقوا نحو النجف الاشرف ليساهموا في تنشيط مجمع الثوريين المعتقدين بنهج الإمام و الذين حملوا على عواتقهم فيما بعد مسؤولية التبليغ برسالة الإمام في سنوات الثورة فيما بعد.

و منذ وصوله الى النجف الاشرف لم يقطع الإمام الخميني ارتباطه بالمجاهدين في داخل ايران، فقد اتخذ من المبعوثين و الرسائل وسيلة لحفظ ارتباطه ذلك. و قد حرص على تضمين رسائله، التوصيات القيمة حول ضرورة الثبات على مواصلة النهضة لتحقيق أهداف انتفاضة الخامس من حزيران. و العجيب ان الكثير من الرسائل التي كان الإمام الخميني يرسلها كانت تتضمن الاشارة الى قرب وقوع انفجار عظيم على المستوى السياسى و الاجتماعى في ايران و مطالبة المجتمع العلمائى الايرانى باعداد العدة لتحمل مسؤولياته في هداية المجتمع في المستقبل، في وقت كانت ظواهر الامور تشير الى انعدام الأمل بتغير الظروف السياسية و الاجتماعية، و في حال كان النظام الملكي يبدو فيها اكثر اقتداراً نتيجة قضائه على جميع جيوب المعارضة الشعبية.

و بنفي الإمام الخميني و ممارسة القمع و الاضطهاد الشديدين بحق المعارضة، ابتداءً اسوأ فصول حكومة الملك البوليسية. فقد تحول (السافاك) الى وسيلة لممارسة القدرة الملكية المطلقة، حيث بلغ الأمر حدّاً جعل توظيف اصغر موظف في ابعد نقطة من البلاد مرتبطاً بموافقة جهاز السافاك. و لم يبق في هذا العهد من السلطات الثلاث إلا اسماءها، فقد كان الملك و عدد من حواشى البلاط و ازلامه من الرجال و النساء هم المسؤولون عن كل نشاطات البلاد.

و ان كانت اعترافات الملك - التي سطرها في آخر كتاب أصدره و اللقاءات التي اجريت معه - و ما كتبه اقرباؤه و المنسوبون اليه من موظفي و حواشى البلاط و من امراء الجيش و اقطاب النظام الآخرين و التي نشرت بعد سقوط النظام الملكي في ايران، و كذا الوثائق التي تمت مصادرتها من السفارة الامريكية في ايران، تشير كلها - و بما لا يقبل الشك - الى انّ الملك و البلاط ايضاً لم يكونا سوى آلات

مسئولية الارادة لاغير، فقيادة الامور و ما كان يصدر عن البلاط و النظام الملكي، حتى تعيين الوزراء و قادة الجيش و تنظيم اللوائح المهمة كان يتم بواسطة السفارة الامريكية - و الانجليزية احياناً - و نكتفي هنا بالاشارة الى مقطعين مما كتبه الملك للتدليل على ذلك، كتب محمد رضا يقول: «ان سفراء انجلترا و امريكا كانا يؤكدان لنا في كل لقاء بأنهم يدعموننا و خلال خريف و شتاء ١٩٧٨ - ١٩٧٩ م، شجعونا كثيراً على ايجاد جوّ سياسى مفتوح... غالباً ما كنت استقبل السياسيين أو المبعوثين الامريكان، و كانوا يشجعوننى على الثبات على موقفي و لكن عندما سألت السفير الامريكى عن ذلك، اجابنى بأنّه لم يتلق حتى الآن أمراً بذلك... و قبل ذلك بعدة اسابيع، و عند ما استقبلت مسؤول المخابرات الامريكية الجديد في طهران، اصابتنى الحيرة من تصريحاته، تحدثنا قليلاً عن الجوّ السياسى المفتوح و اذا بسى انظر ابستامة عريضة ترسم على محياه... على أية حال، فإن اولئك الذين كانوا لسنوات طويلة اصدقائنا الأوفياء، كانوا يخفون لنا من الغرائب الكثير مما فاجئونا به بعد ذلك»^(١)

و الملفت انّ الملك سعى من خلال هذا الكتاب الى الايحاء بانّ هذه العوامل و الاسباب المفاجئة الخارجية، هي التي ادّت الى سقوط نظامه، حتى أنّه صرح بأن الجنرال ريبعى - قائد القوة الجوية - قال للقضاة قبل اعدامه: «ان الجنرال هايزر،لقى بالملك خارج البلاد كما يُلقى بفارة ميتة!»^(٢) و الحال ان حديثه هذا يعتبر بحدّ ذاته تحريفاً للتاريخ، فطبقاً للوثائق و المستندات التي لاتحصى و اهمّتها و اوضحها اعترافات الجنرال هايزر نفسه في كتابه^(٣) فإنّ من المؤكد انّ الجنرال هايزر كان قد وفد الى طهران من أجل الحفاظ على النظام الملكي الذي كان يتهاوى تلك الايام، و كان بصدد تنظيم انقلاب عسكري للسيطرة على الأوضاع في

١- جواب للتاريخ (فارسي) ص ٣٤٢.

٢- جواب للتاريخ (فارسي) ص ٣٤٧.

٣- مأمورية في طهران (فارسي) (مذاكرات الجنرال هايزر).

تلك الفترة الحرجة.

و على فرض قبول ادّعاءه، فإنّ الملك و خلافاً للاسم الذي اختاره لكتابه، لم يعط اىّ جواب للتاريخ، و إلاّ فهل يمكن مع كلّ تلك الادّعاءات التي كان يدّعيها من امثال: «لينم كورش رعداً، فنحن يقظون!!» و غيرها ممّا اطلقه طوال ٣٧ عاماً من حكومته - ان يتعامل مع استقلال بلاده بتلك الطريقة، بحيث يتمكّن جنرال امريكى من الطراز الكذائى و من خلال اقامته في طهران لعدّة أيام من إلقاءه الميثة خارج البلاد!!؟؟

على اية حال، فبعد ضرب انتفاضة الخامس من حزيران، و نفي الإمام من البلاد لم ير الملك حينها اىّ مانع امامه يحول بينه و بين تحقيق مقاصده. فقد وصلت البلاد الى وضع اصبحت فيه بعض نساء البلاط يمارسن دورهن في عزل و تنصيب الوزراء و النواب والقضاة و لقيت فيه (اشرف بهلوى) اخت الملك بلقب (الكلّ بالكل) في حين ان فضائحتها الاخلاقية و مسارها الاخلاقي المنحرف و ترأسها لعدّة عصابات تمارس تهريب المواد المخدرة كانت تملأ الصحف و المجلات الأجنبية، و اختيار احد البهائيين (امير عباس هويدا) الذي كان يردّد مقولته المشهور دوماً: «روحي فداء لجلالة الملك» و بقائه على مسند صدارة الوزارة الشكّلية لم يعن سوى انعدام استقلال السلطات الحاكمة، وانعدام اىّ اثر و على اوطاً المستويات لحاكميّة الجماهير في السلطة.

كان الملك يسعى بقوة نحو التمدّن العظيم الذي كان يتخيّله، فقد اسس للتمدّن المستند على ترويج الثقافة الغربية، و شيوع التحلل و التفسخ الاخلاقي و الإغارة على الثروات الوطنية و الاروبية في ايران، و تخريب البنية التحتية للزراعة الايرانية المستقلة نسبياً، و ترحيل القوى المنتجة الايرانية الى اطراف المدن و تحويلها الى قوى معطلّة و مستهلكة، و توسيع الصناعات التجميعيّة المرتبطة و غير الضروريّة، و تجهيز و نصب محطات الانذار المبكر و محطات التنصت و الجاسوسية والقواعد العسكرية الأمريكية في ايران و في منطقة الخليج الفارسي، من جيب الشعب الايراني.

و خلال الفترة من عام ١٩٧٠ الى ١٩٧٧ أنفق مبلغ ٢٦/٤ مليار دولار من عائدات النفط على الواردات التسليحية الإيرانية من أمريكا، و خلال عام ١٩٨٠ كان الملك قد أبرم اتفاقاً لاستيراد ما قيمته ١٢ ملياراً دولار من الاسلحة الأمريكية^(١) الامر الذي اريد من خلاله - و بناءً على سياسة البيت الابيض - الحافظ على المصالح الامريكية في منطقة الخليج الحساسة، و هي مهمة انيطت ايضاً بالمستشارين الامريكان الذين بلغ عددهم آنذاك (٦٠) الف مستشار.

كان النظام الملكي و في اوج ثباته و دون ان يعانى من اية مشكلة خارجية يبيع يومياً ٦ ملايين برميل من النفط الذي تجاوزت قيمته الثلاثين دولاراً للبرميل الواحد، و ذلك لاسباب متعدّدة منها الحرب العربية الاسرائيلية و المساعى الغربية لتخزين كمّيات اكبر من النفط لاجل مواجهة التوقف المحتمل في تدفق النفط الإسلامي نحو الغرب و احتمال تعاضد الدول الاسلامية المنتجة للنفط بوجه الغرب، و في الوقت الذي لم يتجاوز عدد نفوس ايران الثلاثة و ثلاثون مليوناً، في حين أنّك ترى آنذاك بان العديد من الطرق الرئيسية غير معبّدة، و القسم الاعظم من ابناء الشعب محرومين من نعمة الطاقة الكهربائية، بل من ابسط الحاجات الاساسية و المستوى الصحى.

في ذلك الوقت و بينما كانت مناطق واسعة من البلاد تعاني من ظروف كالتى ذكرنا، كان عشرات الرؤساء والقادة و الوزراء من البلدان الاخرى يجتمعون في العاصمة طهران لمشاهدة الاحتفالات بمرور الفين و خمسمائة عام على بداية الامبراطورية الفارسية ليستعدّوا برؤية تلك الاحتفالات الاسطورية، و لما كان المئات من العمّال و العشرات العاطلين المشرّدين يعيشون في الاقبية و الاكواخ المعدّة من الصفيح في جنوب و شرق و غرب طهران و في وسطها في حالة يرثى لها من الفقر و التردى الصحى. و لما كان هذا الامر من السعة و الانتشار في طهران إلى درجة كبيرة، فقد اجبر النظام اثناء تلك الاحتفالات على القيام باحاطة هذه الاحياء -- خصوصاً الواقعة منها على جانبي الطّرق التى تمرّ منها الوفود الأجنبية -

١٠ - «نفوذ امريكا في ايران» - الفصل المرتبط بشراء الاسلحة، نقلًا عن الاحصائيات الرسمية.

باسوار جميلة و مطلّية حتى لا تظهر آثار التمدّن العظيم للعيان!!
و في تلك الأيّام كانت العديد من المحلات السكنيّة في جنوب وغرب
طهران تفقد الى الماء الصالح للشرب، وكان قد وضع لكل مائة عائلة مأسورة ماء
واحدة ليشربوا منها. وكان معدل الامية في عام ١٩٧٦ ما يعادل ٥٩/٩ % بين من
تتراوح اعمارهم بين السابعة و ما فوق^(١) و حينما فرّ الملك من ايران في عام
١٩٧٨ م كان قد مضى على ثورة البيضاء و الاصلاحات المدعومة من قبل امريكا
خمسة عشر عاماً، و خلال تلك المدة - و رغم انتاج و بيع النفط و سائر الثروات
الوطنية بشكل مسرف و رغم دعم الدول الاجنبية النظام فإن ايران لم تفشل في
تحقيق استقلالها و حسب، و انما كان الارتباط الإقتصادي و الزراعي و الصناعي
بالخارج يزداد يوماً بعد آخر و بازائه كان التدهور الاقتصادي و الفقر و ضياع
العدالة يزداد باضطراد. أما من الناحية السياسيّة فقد حوّل الملك ايران الى اكثر
بلدان العالم عمالة للغرب و خصوصاً امريكا.

و على رغم الظروف الصعبة و المعقّدة التي كان الإمام الخميني يمرُّ بها منذ
نفيه، فإنّه لم يكف عن الجهاد و الوقوف بوجه النظام الملكي. فكان يبعث - و من
خلال خطاباته و بياناته - الأمل بالتّصر المؤزر في النفوس. فقد كتب في ١٦ نيسان
١٩٦٧ في خطاب وجهه الى الحوزات العلميّة في ايران يقول: «أنّني اطمئنكم ايّها
السادة المحترمون و اطمئنّ الشعب الإيراني بانّ النظام سيواجه الهزيمة، فان
اسلاف هذا النظام قد تلقوا الضربة المناسبة من الإسلام، و هؤلاء ايضاً
سينالون نصيبهم. استقيموا و لاتستسلموا في مواجهة الظلم... و هؤلاء
سيرحلون و انتم الباقون... انّ هذه السيوف الصدئة سوف تعود الى
اغمادها...»^(٢)

و في ذلك اليوم ايضاً كتب الإمام رسالة مفتوحة الى رئيس الوزراء (امير
عباس هويدا) استعرض فيها ممارسات النظام المجرمة و حدّره من الوقوف الى

١- «اقتصاد ايران» مؤسسة الدراسات و التحقيقات التجارية ص ٥٩.

٢- دراسة و تحليل لنهضة الإمام الخميني ج ٢ ص ٢١٤.

جانب اسرائيل في مقابل الدول الاسلامية فقال: «لاتعقدوا عهد الأخوة مع اسرائيل عدوة الإسلام و المسلمين، والتي شردت اكثر من مليون مسلم، لاتمسوا عواطف المسلمين، لاتطلقوا يد اسرائيل و عملائها الخونة في اسواق المسلمين اكثر من هذا، لا تعرضوا اقتصاد البلاد للخطر لأجل اسرائيل و عملائها، لاتجعلوا من ثقافتنا فداءً للاهواء... فلتخشوا غضب الجبار، و لتحذروا غضب الشعب... إن رَبَّكَ لبالمرصاد»^(١)،^(٢)

غير انَّ الملك لم يكثر لتحذيرات الإمام الخميني، و رغم كون البلدان الإسلامية في حالة حرب مع اسرائيل كانت البضائع و السلع الاسرائيلية راتجة في السوق الايرانية و تتمتع بدعم خاص من النظام، فكانت انواع الفواكه و المواد الغذائية تعرض في الاسواق الايرانية بأسعار متدنية نافست المنتجات الداخلية و عرضتها للبوار.

و في (٧ حزيران ١٩٦٧ م) اصدر الإمام فتواه بتحريم اى نوع من الارتباط التجارى و السياسى من قبل الدول الاسلامية مع اسرائيل، و حرّم شراء البضائع الاسرائيلية، و ذلك بمناسبة حرب الأيام الستة بين العرب و اسرائيل الامر الذي أنزل ضربة قويّة في العلاقات المتنامية بين النظام الملكي و اسرائيل.

كذلك فإن العلماء و طلبة العلوم الدينية في ايران قاموا بتوزيع بيان جعل النظام يتقرض لضغط شديد. ممّا دفعه بالنتيجة الى الانتقام، و ذلك بالهجوم على منزل الإمام الخميني في قم و مصادرة الكثير من الوثائق و الكتب الخاصة به، ثمّ الهجوم على المدارس الإسلامية في قم و جمع آثار و صور الإمام الخميني و قد تمّ خلال هذه الهجمات القاء القبض على نجل الإمام الخميني حجة الإسلام السيد احمد الخميني، و كذا حجة الإسلام الحاج الشيخ حسن الصانسي و المرحوم آية الله الإسلامي (ممثّل الاستفتاءات الشرعية للامام). فقد ادّت جهودهم مع سائر انصار الإمام الخميني الثوريين الى افشال مخططات و ممارسات السافاك و النظام الملكي

١- آية ١٤ من سورة الفجر.

٢- صحيفة النور ج ١ ص ١٣٢.

التي هدفت الى قطع المرتبات الشهرية الموزعة من قبل الإمام، و الحؤول دون ارسال الحقوق الشرعية من قبل الجماهير الى مرجعهم.

و كان السيد احمد (نجل الإمام) قد تعرّض قبل مدة من ذلك للاعتقال اثناء عودته من النجف و ذلك عند الحدود العراقية الإيرانية بعد ان كان قد سافر من قم الى النجف لاستلام رسائل و اوامر الإمام الخميني حول مواصلة النهضة و كيفية ادارة منزله في قم. و قد سبق بعد اعتقاله الى سجن (قرل قلعة) و ذلك اوائل عام ١٩٦٧ م.

و استناداً الى الوثائق التاريخية التي تمّ الحصول عليها من مؤسسات السافاك، فإنّ جهود منظمة الأمن قد تركّزت في تلك الفترة على قطع الارتباط بين الإمام و مقلّديه في ايران و الحيلولة دون قيام الإمام بدفع المرتبات الشهرية الى طلبته في الحوزة العلمية في قم. و قد تظافرت و تواصلت في غضون ذلك جهود وكلاء الإمام الشرعيين في ايران من امثال ذوى السماحة: الإسلامي التبرتي، والحاج الشيخ محمد صادق الطهراني (الكرباسجي) و آية الله البسنديدة (شقيق الإمام الخميني الاكبر) رغم التهديدات التي عرضهم النظام لها، و رغم تكرار اعتقالهم و ابعادهم. و كذلك فقد بذل المسؤولون عن ادارة منزل الإمام في قم و الذي اصبح مقراً لادارة النهضة - و كان يُدار من قبل نجل الإمام الخميني - الجهود التي ساهمت في منع النظام من تحقيق اهدافه.

و قد اتسمت تصرّفات المسؤولين في جهاز الامن (السافاك) بالحساسيّة تجاه النشاطات الهادفة الى احياء اسم الإمام الخميني و ذكره و تنشيط دور منزله في قم، الى درجة دفعتهم الى وضع منزله تحت المراقبة المتواصلة عبر مجموعة من عناصره و بعض عناصر الشرطة التي كانت تراقب المنزل طوال ساعات النهار و قسماً من ساعات الليل، و تحول دون تردد المراجعين و المقلّدين على المنزل. غير انّ المراجعين و المقلّدين كانوا يفتدون على منزل الإمام في ساعات متأخرة من الليل و ذلك بعد ذهاب المأمورين، للحصول على الأجوبة و التوجيهات اللازمة.

في تلك الايام (حزيران ١٩٦٧ م) ايضاً فشل مشروع النظام في إعادة نفي

الإمام الخميني مجدداً من النجف الى الهند، وذلك نتيجة قيام العديد من مؤيدي الإمام والتيارات السياسية بمواجهة ذلك وفضحه داخل البلاد وخارجها.

و بمجيء حزب البعث (١٧ تموز ١٩٦٨ م) الى السلطة في العراق تضاعفت الضغوط و المشاكل امام نهضة الإمام الخميني، و ذلك للطبيعة العدائية التي يكتنّها حزب البعث للحركات الاسلامية. غير أنّ الإمام لم يكف ايضاً عن مواصلة النهضة. فقد مهّدت اقامته في النجف، و نهضة العالم الإسلامي في قضية الحرب بين العرب و اسرائيل، الفرصة امام الإمام لتوسيع نطاق جهاده المتمثّل في احياء الاعتقاد الديني في عصر مظلومية الدين والعثور على الهوية و استعادة الامجاد السابقة و تحقيق وحدة الأمة الاسلامية و عدم تحديده في مواجهة الملك الايراني.

و قد اوضح الإمام الخميني في لقائه مع ممثل حركة فتح الفلسطينية في (١١ تشرين الاول ١٩٦٨ م) آرائه حول مختلف المسائل التي تُهمُّ العالم الإسلامي و حول جهاد الشعب الفلسطيني، و أكّد في ذلك اللقاء على وجوب تخصيص جزء من الزّكوات، للمجاهدين الفلسطينيين^(١)

في اوائل عام ١٩٦٩ م تزايدت الخلافات بين النظام الملكي الايراني و نظام حزب البعث الحاكم في العراق حول الحدود المائيّة المشتركة بين البلدين. و قد بادر النظام العراقي آنذاك على ترحيل اعداد كبيرة من الايرانيين المقيمين في العراق جاهداً لاستغلال العداء بين الإمام الخميني و النظام الايراني في تلك الظروف. من جانب آخر فان الملك الايراني كان يتحجّن الفرصة للحصول على اقلّ مبرّر للنيل من استقلال نهضة الإمام الخميني، لكنّ الإمام و بوعيه وقف امام الدسائس التي كان كلا النظامين يحوكانها. و قد قام آية الله السيد مصطفى الخميني ممثلاً عن والده بتسليم مذكرة احتجاج على ترحيل الطلبة و الكسبة الايرانيين المقيمين في العراق - و التي تضمّنت رفض ايّ نوع من المصالحة و التنسيق بين الإمام الخميني و النظام العراقي - الى الرئيس العراقي أحمد حسن البكر و سائر المسؤولين ممّن حضروا اللقاء.

في ٢١ آب ١٩٦٩ م قامت مجموعة من الصهاينة المتطرفين باحراق جانب من المسجد الأقصى و على الفور تطوَّع الملك في ايران بقبول اقتراح ترميم المسجد نتيجة للضغط الذي كان يتعرَّض له من الرأى العام، فقد انبرى لمساعدة اسرائيل للتخفيف من غضب المسلمين. و على الاثر اصدر الإمام الخميني بياناً فضح فيه مكائد الملك و اقترح في المقابل: «ما دامت فلسطين محتلة، فعلى المسلمين ان لا يقوموا باعادة بناء المسجد الاقصى و ترميمه، فليتركوا هذه الجريمة التي ارتكبتها الصهيونية ماثلة امام انظار المسلمين لتكون سبباً لدفعهم نحو تحرير فلسطين»^(١)

لقد استطاعت اربعة اعوام من التدريس و مساعى التوعية التي مارسها الإمام الخميني تغيير وضع الحوزة الى حدّ ما ففي عام ١٩٦٩ م اصبح لدى الإمام مخاطبين جدد من العراقيين و اللبنانيين و من سائر بلاد المسلمين ممن إتخذوا من نهضة الإمام الخميني أسوة لهم، علاوة على الاعداد الكبيرة من المجاهدين داخل البلاد.

و في مطلع عام ١٩٧٠ م شرع الإمام بتدريس سلسلة مباحث حول الحكومة الاسلامية او (ولاية الفقيه) و قد أدّى نشر هذه المجموعة من الدروس في كتاب تحت عنوان (ولاية الفقيه أو الحكومة الاسلامية) في ايران و العراق و لبنان و في موسم الحج - الى تفجير موجة جديدة من الحماس في صفوف المجاهدين. لقد عرض هذا الكتاب و على لسان قائد الثورة - ابعاد الجهاد و أهداف النهضة و المباني الفقهيّة و الأصوليّة و العقلية للحكومة الإسلاميّة و المباحث النظرية المربوطة باساليب الحكومة الاسلامية.

في نيسان ١٩٧٠ م نشرت الصحف الامريكية خبر وصول هيئة رفيعة المستوى من الرأسماليين الامريكان برئاسة روكفلر الى ايران. و قد وصلت هذا الوفد لتحرّي الطريقة التي يتمّ من خلالها إعادة النفط الايراني الى امريكا، فتلك

١- دراسة و تحليل لنهضة الإمام الخميني ج ٢ ص ٤٥٨ نقلاً عن صحيفة الجمهورية الصادرة في بغداد العدد ٥٨٨ بتاريخ ١٠/٢٣/١٩٦٩.

العائدات كانت قد بدأت منذ ذلك العام بالتزايد بشكل جنوني، لذا صار لازماً معرفة أسلوب مشاركة الشركات الأمريكية في تلك السفارة العامرة!

و رغم ان السافاك منع - و منذ عدّة أشهر - العديد من العلماء من ارتقاء المنبر، إلا أنّ علماء الدين الملتزمين - ممن اطلعوا على آراء الإمام في مسألة الحكومة الاسلامية - دفعه الحماس الى فضح المخططات الملكية و معارضة تزايد النفوذ الامريكى في ايران. و كان آيةالله السعيدى من أشدّ مؤيّدى الإمام معارضة لما كان يجرى، مما عرضه الى الاعتقال في نفس شهر نيسان ١٩٧٠ م و لم تمض عليه اكثر من عشرة أيام حتّى فارق الحياة نتيجة شدّة التعذيب الذي مورس معه في دهايز السافاك في سجن قزل قلعة.

و على أثر شهادته اصدر الإمام الخميني بياناً تأييداً خلد فيه جهاد هذا الرجل مؤكداً من خلاله: «إنّ المرحوم السعيدى ليس وحده الذي سقط في سجنه معارضاً لهذا الوضع المؤسف» و قد جاء في هذا البيان ايضاً: «إنّ الخبراء و اصحاب رؤوس الأموال الامريكان هجموا على ايران باسم - اكبر توظيف لرؤوس الاموال الأجنبية في البلاد - و ذلك لتكريس أسر الشعب الايراني المظلوم... انّ أى اتفاق يبرم مع اصحاب رؤوس الاموال الامريكان و سائر المستعمرين يخالف ارادة الشعب و أحكام الإسلام»^(١)

الإمام الخميني و مواصلة الثورة (١٩٧١ - ١٩٧٧ م)

في اواخر عام ١٩٧١ م تصاعدت وتيرة الخلافات بين نظام البعث العراقى و النظام الملكي الايرانى الأمر الذي اسفر عن ترحيل الآلاف من الإيرانيين المقيمين في العراق الى بلدهم. و قد ابرق الإمام الخميني ببرقية اعتراضية الى الحكومة العراقية ندد فيها بشدّة بعملية التهجير تلك، و اعتراضاً منه على ما حصل قرّر الإمام مغادرة العراق، غير انّ النظام الحاكم في بغداد - و نتيجة معرفته بالنتائج التي تترتب على هجرة الإمام - منع من اصدار الموافقة على سفره.

من جانب آخر و تزامناً مع زيادة انتاج النفط و ارتفاع اسعاره في سنة ١٩٧١ م و ما بعد، احسّ الملك بقدرة اكبر، فضاعف من وحشيتته في قمع و اضطهاد المعارضين، و دخل في سباق مجنون في شراء التجهيزات العسكرية و السلع و البضائع الإستهلاكية الامريكية، و سرّع من ايجاد القواعد العسكرية العديدة للأمريكان في داخل البلاد و زاد من مستوى الروابط و العلاقات التجارية و العسكرية مع اسرائيل. و حملّ الشعب الايراني نفقات هائلة لإقامة الاحتفالات الاسطورية في ذكرى مرور الفين و خمسمائة عام على نشوء الملكية في ايران^(١) و التي كان يحضرها العديد من قادة و رؤسا دول العالم، و قد جعل الملك من هذه الاحتفالات استعراضاً للقدرة و الثبات الذي يتمتّع بهما النظام الملكي.

و قد ندّد الإمام الخميني - و من خلال العديد من البيانات - بهذه

١- بعد إعتقال الإمام الخميني و نفيه في عام ١٩٦٣ م، بادر معارضو النظام الملكي الإيراني الى انتحاء جانب السرية في اعمالهم التنظيمية، و منذ عام ١٩٦٦ م حرص الملك و لأجل اظهار قوته و سطوته و لأجل الهاء الجماهير - على اقامة الإحتفالات في مختلف المناسبات، و من ابرز و اضخم الإحتفالات التي اقامها، الإحتفال بمرور الفين و خمسمائة عام على الامبراطورية الفارسية، فلإقامة هذا لإحتفال الذي وصف بانه اضخم استعراض في العالم - أمر الملك باقامة مدينة كاملة في الصحراء بالقرب من آثار (تخت جمشيد) و حضر الإحتفال ٩٠ ملكاً و خمس ملكات و ٢٦ أميراً و عدداً كبيراً من رؤساء الجمهوريات و رؤساء الحكومات و معاونيهم. و قد تمّ في ايام الإحتفال تقديم الاطعمة المعدة في مطاعم (ماكسيم) الفرنسية، على اطباق و اواني و اباريق من اجود و اغلى الانواع المعروفة، كما أعدت في تلك المدينة الاسطورية الآف القصور السيارة و المخيمات المجهزة بأرقى الوسائل و المستلزمات و الاثاث و الديكورات. كل ذلك و الغالية العظمى من ابناء الشعب الايراني كانت تنفق الى اسط الامكانيات الرفاهية كالماء و الكهرباء و الدواء.

في عددها الرابع الصادر في شهر آب عام ١٩٨٠ م كتب مجلة التايم تقول: «حتى شهر زاد القاصة لا يمكنها وصف الأبهة التي اقيمت في احتفالات احياء الذكرى الألفين و خمسمائة عام على الامبراطورية الفارسية الايرانية و التي اقيمت الى جانب خرائب تخت جمشيد، حتى و ان استخدمت كل العبارات و الاوصاف الاسطورية التي ذكرت عنها في قصص الف ليلة و ليلة.

و عندما اقام الملك الايراني هذه الاحتفالات قدّم نفسه كوارث لأعرق امبراطورية في العالم تمكّنت من البقاء لقرون طويلة، بل أنه رغب في الإشارة الى أنها ستبقى الى آخر التاريخ، فمن ذا الذي خطر في ذهنه من الضيوف الموقرين، او تصوّر حتى بانّ هذا التاريخ الامبراطوري الايراني سيختم بشخص محمد رضا!!»

الإحتفالات المفروضة على الشعب و كشف النقاب عن تخلف البلاد و الحقائق المرّة التي حكمت المجتمع الإيراني.

و خلال الحرب الرابعة بين العرب و اسرائيل - و بينما كان الملك يمثل الحامي المقنن لاسرائيل - طالب الإمام الخميني - و من خلال بيانه اصدده في تشرين الثاني ١٩٧٣ م الشعب الإيراني في الوقت بوجه اعتداءات الكيان الصهيوني، كما أفتى في هذا البيان بوجوب دعم الشعوب الإسلامية للمجاهدين الفلسطينيين مادياً و معنوياً و ذلك عبر التبرع بالدم و ارسال الاسلحة و الذخائر و المواد الغذائية الى المجاهدين المسلمين^(١) كما أكد سماحته في بيان آخر على ان: «الأمة الإسلامية لن ترى يوماً سعيداً ما لم تقتلع جرثومة الفساد هذه (اسرائيل) من جذورها، و ان إيران لن تشم نسيم الحرّية ما دامت مبتلاة بهذه العائلة (البهلوية) الفاسدة»^(٢)

و في اواسط شهر آذار ١٩٧٤ م، اوصل الملك استبداده الى الحد الاقصى، حينما اعلن عن تشكيل حزب البلاط (رستاخيز) (و يعنى البعث!) و اعتمد سياسية الحزب الواحد. فقد اعلن من خلال حديث تلفزيوني بانّ على جميع أبناء الشعب الإيراني ان ينسبوا الى هذا الحزب و انّ على المعارضين ان يأخذوا جوازات سفر بسرعة و يغادروا البلاد^(٣) و على الفور اصدر الإمام الخميني فتواه فقال: «نظراً لمخالفة هذا الحزب للإسلام و مصالح الشعب الإيراني المسلم، يحرم على جميع أبناء الشعب الانتماء اليه، و أن الأتماء اليه يعدّ إعانة للظالم و مشاركة في القضاء على المسلمين، كما ان معارضته من ابرز مصاديق النهي عن المنكر»^(٤) و قد جاءت فتوى الإمام الخميني و بعض علماء الإسلام مؤثرة، فعلى رغم الاعلام المكثف للنظام للتشجيع على تقوية الحزب، إلا أنّ النظام اعلن عن

١- صحيفة النور ج ١ ص ٢٠٩

٢- صحيفة النور ج ١ ص ٢٠٦

٣- الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية ج ١ ص ٢٧٣.

٤- صحيفة النور ج ١ ص ٢١١

هزيمته رسمياً بحلّه الحزب بعد عدّة سنوات.

في نفس ذلك البيان كتب الإمام الخميني يقول: «أننى و أنا في غربتى هذه، يعصرنى الألم و الحسرة على الوضع الموسف الذى يعيشه الشعب الإيرانى، فما احلى ان اكون في هذه الظروف الحساسة بين أبناء الشعب، اساهم معهم في هذا الجهاد المقدّس من أجل انقاذ الإسلام و ايران»^(١)

و في عام ١٩٧٥ و في ذكرى انتفاضة حزيران، شهدت الفيضيّة مجدداً قيام الطلاب الثوريين و انطلقت صرخات «يعيش الخميني» «الموت لسلالة البهلوي» لترن في أرجاء المدرسة لمدة يومين، و لما كانت الحركات و المنظّمات الفدائية قد تلاشت، و انّ الشخصيات الدينيّة و السياسية المجاهدة كانت تترشح في سجون النظام، فقد مثلت هذه الحركة الثورية صدمة للملك و السافاك.

على ايّة حال، حاصرت قوات الشرطة، المدرسة الفيضية ثم انهالت على الطلاب بهجوم وحشى و الفت القبض على جميع المعترضين و اقتادتهم الى السجون.

و في بيان اصدره الإمام الخميني بهذه المناسبة اشار سماحته الى تفاؤله فقال: «رغم جميع المصائب فإنّ صحوة الشعب تهبنا الأمل. ان نهوض الجامعيين في مختلف انحاء ايران - و بناءً على اعتراف الملك نفسه - و العلماء الاعلام و طلاب المدارس و مختلف شرائح الشعب، رغم جميع الضغوط و التجبّر، يمثل بداية للحصول على الحرّية و الانعتاق من قيد الاستعمار»^(٢)

و في البيان الذي بعث به الإمام الى المؤتمر السنوى للإتحادات الاسلامية للجامعيّين الدارسين في امريكا و كندا و ذلك في ٢٤ ايلول ١٩٧٥ م، كتب سماحته يقول: «ان نقطة الامل المضيئة التي اراها في أواخر عمري، هي هذا الوعي و الصحوة التي يتحلّى بها الشبان، و نهضة المثقّفين التي تتنامى بشكل سريع و

١- صحيفة النور ج ١ ص ٢١١.

٢- صحيفة النور ج ١ ص ٢١٥.

التي ستحقّق هدفها - باذن الله تعالى - في قطع ايادى الاجانب و بسط العدالة الاسلامية»^(١)

مضياً منه على سياساته في قمع الاديان، غيّر الملك في آذار عام ١٩٧٥ و بشكل وقع - التاريخ الرسمي المعتمد في البلاد من التاريخ الهجرى الى التاريخ الملكي لملوك الهخامنشة. و في ردّ سريع منه، أفتى الإمام الخميني بحرمة استخدام التاريخ الملكي.

و كما استقبلت الجماهير فتواه في تحريم الانتماء الى حزب (رستاخيز) فإنّها استقبلت ايضاً تحريمه للتاريخ الملكي الموهوم، و اصبحت الحادثنان عاراً على النظام الملكي، فقد بادر النظام في عام ١٩٧٨ م الى الانسحاب مجدداً و الغاء استخدام التاريخ الملكي.

من جانب آخر، انتهت اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ م و التي وقعت بين الملك و صدام حسين (نائب رئيس الجمهورية العراقية آنذاك) العلاقات بين البلدين بشكل مؤقت، فقد رأّت امريكا أنّ المنازعات و المناوشات بين بغداد و طهران في ذلك الوقت امرٌ يعرض الثبات في المنطقة و في الخليج الى الخطر. لذا فقد تمّ عقد تلك الاتفاقية بشكل رسمي بتدخل الرئيس الجزائري و الرئيس المصري انور السادات الصديق الحميم للملك الايراني.

و قد أدّت اجواء التآلف بين حكّام بغداد و طهران لتعقيد الظروف امام مسير جهاد الإمام الخميني، غير أنّ هذه الموانع لم تتمكّن من ثنيه عن مواصلة جهادة الذي ابتدأه.

في تلك الايام كتب السفير الايراني في العراق تقريراً و جهّه الى قادة النظام الملكي يقول: «ان آية الله الخميني، لم يكف عن ممارسة نشاطاته في العراق، فهو ناشط جداً في العمل على مواجهة النظام، يرجى اصدار أوامركم في هذا الخصوص لكي يتّضح تكليفنا». و في معرض جوابه على هذا التقرير كتب الملك

بغضب - : «لقد كررت القول بوجوب خنق هذا الصوت»^(١) غافلاً عن أنّ المقادير الإلهية اقتضت مصيراً آخرًا لرسالة الإمام الخميني «يُريدون لِيُطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمُّ نُورِهِ»^(٢) في عام ١٩٧٦ وصل الديمقراطيون الى البيت الابيض الامريكى، وضاعت سدى المعونات النقدية التي قدّمها الملك الايرانى الى الجمهوريين الأمريكان. وانتصر كارتر يحمل شعار حقوق الانسان، و الحد من تصدير الاسلحة الى الخارج. و واضح أنّ هذه الشعارات انما رفعت لاجل الحدّ من احساس النفرة من امريكا و التي كانت تجتاح البلدان الاخرى كأيران مثلاً و التعظيم على الازمنة الاقتصادية التي كانت تعصف بأمريكا و زيادة الضغط على الإتحاد السوفيتى (السابق) للحصول النووية (سالت) و التي كانت جارية آنذاك بين الطرفين.

بعد اتّضح سياسات الديمقراطيين في امريكا، قام الملك بالإعلان عن سياسة الجوّ السياسى المفتوح! و اقدم على القيام بتغييرات و تبديلات في بيادقه. و تشير الوثائق التي نشرت من وكر التجسس الأمريكى (السفارة الامريكية في طهران سابقاً) بأنّ السياسة الأمريكية فيما يخصّ ايران - و التي كانت تضع اطاره العام وزارة الخارجية الامريكية و وكالة المخابرات الامريكية CIA، و كانت تبلغ للسفارة في طهران - لم تتغيّر، فامريكا تدعم الملك و نظامه بالكامل، و ان الديمقراطيين ايضاً يرون - و كما هو الحال في السابق - بأنّ الملك يمثل عاملاً اساسياً لحفظ المصالح الامريكية في منطقة الخليج الفارسى، لذا فإن ايران استثنيت من حالة الحدّ من صدور السلاح اليها ايضاً.

و قد دُلّ سفر كارتر و زوجته الى طهران و الحديث الذي ادى به و التصريحات التي اعلن من خلالها على الدعم المطلق الذي يوفّره البيت الابيض للملك، على أنّ الجوّ السياسى المفتوح انما كان حركة تمثيلية سريعة المرور.

١- ن. ك الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية: ج ١ ص ٢٧٣ وكذلك صحيفة "ان" ٢٧/٢/١٩٨٠م.

٢- من الآية ٨ من سورة الصحف.

اشتداد الثورة الاسلامية في عام ١٩٧٧ م.

تمكّن الإمام الخميني - الذي كان يتابع التحوّلات و الاحداث الجارية في ايران و في العالم بدقّة متناهية - من اغتنام الفرصة التي اتاحت له محققاً الاستفادة الفصوى منها. فقد اعلن في بيانه الصادر في آب ١٩٧٧: «الآن و نتيجة للاوضاع الداخلية و الخارجية، و انتشار انباء الجرائم التي يرتكبها النظام الملكي، في المحافل الدولية و الصحافة الأجنبية، فإنّ الفرصة سانحة للمنظمات العلمية و الثقافية و الوطنيين و الجامعيين الدراسين في الخارج و الداخل، و الاتحادات الإسلامية اينما كانت، للمبادرة للقيام - دون خوف - و الاستفادة من هذه الفرصة»

و جاء في جانب آخر من البيان ذاته: «انّ التجاوز على حقوق مئات الملايين من المسلمين و تحكيم حفنة من الاوباش على مقدّراتهم و اتاحة الفرصة للنظام القانوني الإيراني و للكيان الاجوف الاسرائيلي ان يفتصبا حقوق المسلمين و يصادرا الحريات، و يتعاملا مع الناس معاملة و حشية، كلها جرائم ستثبت في ملفات رؤساء جمهور امريكا»^(١)

في شهر تشرين الاول ١٩٧٧ م، تحوّلت شهادة آية الله السيد مصطفى الخميني^(٢) و المراسم التأيينية المهمة التي اقيمت له في ايران الى نقطة انطلاق لقيام

١- صحيفة النور ج ١ ص ٢٤٣.

٢- الحاج السيد مصطفى الخميني، النجل الاكبر للإمام الخميني (١٩٣٥ - ١٩٧٧ م) ابتدأ دراسته العلوم الاسلامية لما ناهز الخامسة عشر من عمره فبلغ مرتبة الاجتهاد قبل ان يتم عقده الثالث. و قد تمكّن في شبابه من التبجّر و الامام الكامل الشامل في مختلف العلوم الاسلامية. تتلمذ سماحته على حضرة الإمام و المرحوم آية الله البروجردي و المرحوم الحاج السيد محمد الداماد. في ١٩٦٤/١١/٤ صدر الأمر بالقاء القبض عليه من قبل النظام الملكي و اودع سجن (قرل قلعة) فبقى هناك قرابة الشهرين، ثم اطلق سراحه و اعيد الى قم ليجدد في استقباله حشوداً من علماء و طلبة و جماهير مدينة قم الذين خرجوا لاستقباله بمجرد سماعهم نبأ اطلاق سراحه.

عرف عن سماحته - كما هو الحال مع والده - روحيته المجاهدة المقدمة - و اعتقاده الراسخ بحتمية اسقاط الحكومة البهلوية من خلال القيام الشعبي و العلمائي الشامل و بذل في هذا السبيل مساع حثيثة و قد نفي بعد ذلك مع والده الى تركيا ثم العراق. و هناك و نتيجة لاطلاع النظام العراقي على الاوضاع

الحوزات العلميّة مجدّداً، ونهضة المجتمع الديني الإيراني. وقد عبّر الإمام الخميني عن تلك الحادثة (بالألفاظ الإلهيّة الخفية) - الأمر الذي يثير التعجب! وقد حاول النظام الملكي حينها الانتقام من الإمام بنشر مقالة موهنة في صحيفة اطلاعات، غير أنّ السحر انقلب على الساحر فقد انتهت هذه المقالة الى نهضة التاسع من كانون الثاني عام ١٩٧٨ من مما أدى الى استشهاد جمع من الطلاب الثوريين. و مرة أخرى كانت قم هي فتيل النهضة، ولم تمض سوى مدّة قصيرة - وفي ظروف تختلف تماماً عن الظروف التي انطلقت فيها انتفاضة حزيران ١٩٦٣ - تناغمت حركة الجماهير في مختلف انحاء البلاد. حيث أدّت إقامة مراسم العزاء المتتالية في الثالث والسابع و الاربعين من سقوط الشهداء، الى سريان شعلة الثورة الى مناطق اخرى من بلاد كتبريز و يزد و جهرم و شيراز و اصفهان و طهران. و طوال هذه المدّة كانت البيانات المتواصلة الصادرة من الإمام الخميني و اشربة تسجيل احاديثه و خطاباته - و التي كان يدعو فيها الجماهير الى الثبات و مواصلة النهضة حتّى القضاء على النظام الملكي و تشكيل الحكومة الإسلامية - تستنسخ و تُكثّر على ايدي مؤيديه و انصاره و يتمّ توزيعها على مختلف مناطق البلاد^(١).

و لم يتمكنّ الملك - رغم اقدامه على تنفيذ المذابح الجماعية - من اطفاء شعلة الثورة المشتعلة، فقد كانت احاييله و دسائسه السياسيّة و مناوراته العسكريّة - و قبل ان تساهم في تهدئة الغضب الجماهيري - تبوء بالفشل نتيجة صدور

﴿

استدعاه اقطاب النظام في عام ١٩٦٩ م الى قصر الرئاسة في بغداد. فالتقاء هناك الرئيس العراقي احمد حسن البكر، و طالبه مهدداً اياه - بالموافقة على التعاون مع النظام البعثي العراقي لمواجهة النظام الملكي الإيراني. الا ان سماحة السيد مصطفى رفض المقترح العراقي كلياً و ان كان النظام الإيراني قد اشاع حينها اخباراً تشير الى تواطئه مع النظام العراقي. استشهد الحاج السيد مصطفى قبل عام واحد من انتصار الثورة الاسلامية عن عمر يناهز الثامنة و الاربعين.

١- للاطلاع على سير احداث النهضة من ١٩٧٨/١/٩ م و حتى السقوط الكامل النظام الملكي في ١٩٧٩/٢/١١ م و المواقف التي اتخذها الإمام الخميني في تلك المدّة، راجع الكتاب الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية، المجلدات الاول الى الثالث.

بيانات الإمام التي كانت تكشف الخفايا و ترشد الجماهير الى اتخاذ ما يلزم من الخطوات.

و لما ينفع تنصيب احد التكنوقراطيين المتغربين (جمشيد آموزكار) رئيساً للوزراء بدلاً عن (هويدا) - الذي عمل في خدمة الملك ثلاثة عشر عاماً - في حلّ المعضلة التي يتعرّض لها النظام، أبدل الاول من جديد بأحد اعضاء المحافظ الماسونية الإستعمارية في ايران فجاء (جعفر شريف امامي) رافعاً شعار «حكومة المصالحة الوطنية»

و في عهد حكومته، (شريف امامي) نُفِذت المذبحة الوحشية من قبل قوات الجيش بالجماهير العزل في ميدان جالة (الشهداء حالياً) في طهران في الثامن من ايلول. فاعلنت الاحكام العرفية في طهران و احدى عشرة محافظة من المحافظات الكبرى في ايران و لمدة غير محددة.

غير أنّ الجماهير لم تكثرت للاحكام العرفية مع وصول بيانات الإمام الخميني، و استمرت التظاهرات ليلاً و نهاراً و في توسع مستمر. فقد كانت ندائات (الله اكبر) (الموت للملك) (يعيش الخميني) تسمع على مدار الساعة و ترافقها احياناً رشقات الأسلحة الأوتوماتيكية و هي تنطلق من كل زقاق و زاوية.

لقد ترعّم الإمام الخميني نهضته منذ البدء مستنداً الى قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» مؤكداً على تقديم الثقافية على القيام بالثورة السياسيّة و التحوّل الاجتماعي بواسطة الجماهير، و كان يعتقد بعدم جدوى النضال من خلال الأحزاب أو البرلمانات، و كذا بعدم جدوى الكفاح المسلّح إذا هي حرمت دعم الجماهير في تلك الظروف التي كانت تمرّ على إيران. و كان يرى الجهاد العام و المسلح آخر حلّ يتمّ اللجوء اليه اذا ما فكرت امريكا بالانقلاب العسكري.

كانت المساجد و المراكز الدينيّة بمثابة المعادل الأساسية للثورة الإسلامية الإيرانية و المنطلق لتحرك الجماهير و تجمّعها. و كانت الشعارات التي تردها الجماهير مزيجاً من التعاليم الدينية و ارسادات الإمام الخميني. و خلال عامي

١٩٧٧ و ١٩٧٨ م، و عندما بلغت الثورة الإسلامية أوجها عادت الاحزاب و الجمعيات السياسية للظهور من جديد و باعداد كبيرة جداً، و اتباع قليلين للغاية مما جعلها تعيش في جذبٍ حرمها امكانية التأثير في مجرى الامور تماماً و اضطرها بالنتيجة الى متابعة الحركة الجماهيرية الواسعة.

في ذلك الوقت نشطت الحركات و المجاميع المسلحة الجهادية و التي تشكيها على اساس اهداف اسلامية و اعتقادات راسخة بنهج الإمام الخميني. فكانت نشاطاتها تعبّر عن اسلوب جهادي مستقل، بل أنّها كانت تمثل حركة حماية و تقوية لثورة الشعب العارمة.

و كان من الأساليب الموقفة التي اتبعتها الإمام الخميني في الجهاد ضدّ النظام الملكي، دعوته الجماهير الى الإضرابات العامة و توسيع رقعتها. فقد شملت الاضرابات في الأشهر الاخيرة من الثورة مختلف اركان النظام من وزارات و ادارات و مراكز عسكرية حتّى امتدّ الأمر الى عمّال و موظفي شركة النفط و البنوك و مراكز الدولة الحساسة الأمر الذي وجّه الضربة الاخيرة الى جسد النظام.

من العراق الى باريس:

تمّ الاتفاق في الاجتماع الذي عقد بين وزيرى خارجيّة العراق و ايران في نيويورك على اخراج الإمام الخميني من العراق.

و في الرابع من ايلول ١٩٧٨ م، حوَصر منزل الإمام الخميني في النجف من قبل قوات أمن النظام العراقي، مما فجّر غضب المسلمين في ايران و العراق و سائر البلدان. و عند لقائه بالامام صرح رئيس دائرة الأمن العراقيّة للامام بأنّ شرط اقامته في العراق هو الكفّ عن حركته الجهادية و عدم التدخل بالسياسة. و قد ردّ الإمام بحزم على هذا الاقتراح منوهاً الى احساسه بالمسؤولية قبال الأمة الإسلامية الأمر الذي يمنعه من السكوت أو عقد أيّ نوع من المصالحة^(١)

١- للإطلاع على تفاصيل الموضوع و البيانات التي اصدرها الإمام الخميني مخاطباً الوفد الكويتي، راجع كتاب الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية ج ٣ ص ٥٢٢.

في الرابع من تشرين الاول من نفس العام، غادر الإمام الخميني النجف الأشرف متوجّهاً إلى الكويت، غير أنّ الكويت امتنعت عن استقباله بايعاز من النظام الإيراني، عندما اقترح البعض السفر إلى سوريا أو لبنان، غير أنّ الإمام الخميني - و بعد التشاور مع نجله حجة الإسلام الحاج السيد احمد الخميني - قرّر السفر إلى باريس^(١) و في السادس من تشرين الاول عام ١٩٧٨ وصل الإمام الخميني إلى باريس و انتقل بعد يومين من وصوله إلى منزل أحد الإيرانيين المقيمين في نوفل لوشاتو (في ضواحي باريس).

بعدها قام موظفوا قصر الاليزية بابلاغ الإمام الخميني بوجهة نظر الرئيس الفرنسي (جيسكار ديستان) المتمثلة بضرورة اجتناب الإمام الخميني لأية فعالية سياسية، و قد ردّ سماحته بحزم بأنّ ذلك ينافي الادعاء بالديمقراطية، و أنّه اذا اضطرّ للسفر من مطار إلى مطار و من بلد إلى بلد فإنّه لن يكفّ عن جهاده لتحقيق اهدافه.^(٢)

كتب الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان في مذكراته بأنّه كان حينها قد اصدر الأمر باخراج الإمام الخميني من فرنسا، لكنّه عدل عن قراره في اخر لحظة عندما حذره ممثلو النظام الملكي الإيراني و السياسيون الذين كانوا يعيشون اقصى حالات القلق و الاضطراب، من مغبة وقع ردّ فعل جماهيري يستحيل السيطرة عليه، و أنّهم غير مسؤولين حينها عمّا سيقع في إيران و في أوروبا^(٣)

و خلال مدّة اقامة الإمام في (نوفل لوشاتو) و التي دامت اربعة اشهر، تحوّلت تلك المدينة الصغيرة إلى أهمّ مركز خبري في العالم، و عرض الإمام الخميني من خلال اللقاءات الصحفية المتعددة التي اجريت معه، مختلف وجهات نظره حول

١ - للاطلاع على كيفية هجرة الإمام الخميني من التّحجّ إلى الحدود الكويتية ثم عودته إلى بغداد و السفر من هناك إلى باريس و الحوادث التي وقعت في الاثناء - كما رواها السيد احمد الخميني (نجل الإمام) - راجع الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية ج ١ ص ٤٣٤.

٢ - المصدر السابق.

٣ - «القدرة و الحياة» مذكرات الرئيس الفرنسي (فاليري جيسكار ديستان) ترجمة محمود طلوعى (إلى الفارسية) ص ١٠٢.

الحكومة الإسلامية و أهداف نهضته المستقبلية امام العالم اجمع، و بدأ تعرف الكثيرون على فكر الإمام و ثورته، و من هنا ابتدأت قيادته لأصعب المراحل في النهضة الإسلامية الإيرانية^(١)

لم تستطع حكومة (شريف امامي) الصمود اكثر من شهرين، و بعد سقوطها كلف الملك (ازهاري) بتشكيل حكومة عسكرية. فأزدادت و تيرة المذابح الآ انها لم تستطع السيطرة على الجماهير. فطالب الملك - بعد ان أصيب بالانهيار - السفيرين الامريكى و البريطانى بحلّ للامنة. إلا ان أياً من الاقتراحات التي قدمت من قبلهما لم تجد نفعاً^(٢)

و في يومى تاسوعاء و عاشوراء انطلقت المظاهرات المليونية في طهران و سائر المدن الأخرى، و التي اشتهرت فيما بعد باسمه (الاستفتاء غيرالرسمى من قبل الجماهير ضد سلطة الملك).

بعد وقع اختيار الدوائر الامريكية على شابور بختيار (احد قادة الجبهة الوطنية) - و الذي اشتهر عنه قوله بعدم قانونية قيام قيام الجماهير على سلطة الملك - كآخر بيدق لرئاسة الوزراء، ففي اجتماعهم الرباعى في (غوادلوب) اتفق قادة الدول الصناعية على دعم وزارة بختيار^(٣) و بعد ذلك وصل الجنرال هايزر (معاون قيادة حلف الناتو) الى طهران في مهمة سرية استغرقت شهرين و قد كشف النقاب في اعترافاته فيما بعد عن أن مهمته كانت تتمثل في توفير دعم و حماية العسكريين لبختيار و توفير الأمن لوزارته و كسر الإضرابات، و اخيراً الاعداد لإنتقال عسكري لاعادة الملك الى السلطة بشكل مشابه لما تم في انقلاب ١٩ آب ١٩٥٣ م^(٤). غير ان بيانات الإمام الخميني التي اكّدت على وجوب مواصلة الجهاد احوالت جميع المخططات إلى نقش على الماء.

١- مجموعة بيانات، لقائات و خطابات الإمام الخميني خلال مدة إقامته في (نوفل لوشاتو) موجودة في

صحيفة النور المجلد الثالث و الرابع.

٢- جواب للتاريخ، الصفحات ٣٥٠ - ٣٤٤.

٣- ن.ك «القدرة و الحياة»

٤- ن.ك «مهمة في طهران» مذكرات الجنرال هايزر.

في مطلع عام ١٩٧٩ شكل الإمام الخميني شورى قيادة الثورة. كذلك فإن الملك ايضاً و بعد تشكيل شورى السلطنة التوصية بالثقة على وزارة بختيار فرّ في ١٦ كانون الأوّل من البلاد. و انتشر ذلك الخبر في طهران، ثم سائر انحاء ايران و خرجت الجماهير الى الشوارع ترقص و تعبر عن فرحها.

من جانب آخر لم تستطع اجتماعات هايرز المتواصلة بالمستشارين العسكريين الامريكان و امراء الجيش الملكي من مساعدة بختيار في التغلب على الاضرابات و انتهاء الثورة الجماهيرية.

عودة الإمام من منفاه بعد ١٤ عاماً

شاع في أواخر شهر كانون الاول خبير تصميم الإمام الخميني على العودة الى ايران. و لم يتملّك من سمع بالخبر غير البكاء شوقاً. لقد تحمّلت الجماهير أربعة عشر عاماً من الإنتظار. و لكنّ الجماهير و المحبّين كانوا في قلق على حياة الإمام الخميني، ذلك لوجود الحكومة العميلة للملك و لكونها حكومة عسكرية ايضاً. لذلك فقد أوصى أصدقاء الإمام بتأخير السفر قليلاً لتأمين الظروف المناسبة لحمايته.

من جانب آخر فإنّ عودة الإمام الى ايران في تلك الظروف و اتّصاله بالجماهير المليونيّة الثائرة كان يعين - من وجهة نظر امريكا - النهاية الحتمية للنظام الملكي. لذا فقد اتّخذت خطوات عديدة، بدءً من التهديد بتفجير الطائرة التي تقل الإمام، و انتهاءً بالقيام بانقلاب عسكريّ، كلّ ذلك لدفع الإمام الى تأخير سفره. حتى ان الرئيس الفرنسي آنذاك توّسط لدى الإمام يطلب منه ذلك^(١) لكنّ الإمام كان قد اتّخذ قراره النهائي و اعلن عبر بيانات اصدرها للشعب الايراني بأنّه يرغب

١- للاطلاع على تفاصيل لقاء ممثلى قصر الاليزيه بالإمام الخميني في (نوفل لوشاتو) و محادثاتهم معه. راجع كتاب الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية ج ٢ ص ٥٨١ كذلك فقد اشار الإمام الخميني في حديثه الذي القاه بتاريخ ١٩٧٨/٦/٢٥ في الرقود الكويتي، الى تلك المحادثات. ن. ك المصدر اعلاه ج ٣ ص ٥٤٥.

ان يكون مع شعبه في هذه الايام المصيرية و الخطيرة.
 اقدمت حكومة بختيار - بالتعاون مع الجنرال هايزر - على اغلاق مدارج المطار بوجه الطائرات، و توجّهت الملايين من مختلف أنحاء البلاد، لتشارك في التظاهرات التي انطلقت في طهران لمطالبة بفتح المطار. كما اجتمع جمع من العلماء و الشخصيات السياسية في مسجد جامعة طهران و أعلنوا عن إعتصامهم هناك حتى تفتح مدارج المطار، و لم تتمكن حكومة بختيار من الصمود أكثر من عدّة أيام ثم رضخت لمطالب الجماهير.

اخيراً و في مطلع شهر شباط عام ١٩٧٩ وصل الإمام الخميني إلى ايران بعد اربعة عشر عاماً من فراق الوطن. و قد كان استقبال الجماهير لقائدهم عظيماً و منقطع النظير الى درجة لم تستطع حتى الشبكات الإعلامية الغربية من انكاره، فقد قدرت وسائل الاعلام الغربية عدد المستقبلين بين (٤ - ٦) ملايين نسمة

و ما ان وصل الإمام حتّى توجّهت الجموع من مطار طهران الى مقبرة جنة الزهراء حيث مزار الشهداء، لتصغى لحديث قائدها التاريخي. في ذلك الحديث صرح الإمام بالقول: «سوف أقوم مدعوماً من هذا الشعب، بتشكيل الحكومة»^(١) في بداية الامر اعتبر بختيار بأن الإمام يمزح! غير أن اياماً قلائل لم تمر حتّى تم ترشيح المهندس البارزگان من قبل (شورى الثورة) رئيساً مؤقتاً للحكومة و ذلك في الخامس من شباط ١٩٧٩ م، و المهندس البارزكان وجه متدين معروف، له ماض جهادي و تجربة في نهضة تأميم صناعة النفط.

و في (حكم التنصيب) الذي اصدره الإمام الخميني طالب سماحته المهندس بارزكان بتشكيل وزارته دون الأخذ بنظر الاعتبار العلاقات الحزبية و ذلك لتهيئة المقدمات لاجراء إستفتاء شعبي ثم اجراء الانتخابات^(٢).

مطالباً الجماهير الايرانية التعبير عن رأيها من خلال الانتخابات المزمعة،

١- للإطلاع على تفاصيل خطاب الإمام الخميني في (مقبرة جنة الزهراء) و تفاصيل الحوادث و النتائج التي ترتب على ذلك، راجع كتاب الكوثر- شرح وقائع الثورة الإسلامية ج ٣ ص ١٨ - ٤٧.

٢- المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٨ - ١٥٥.

فبادرت الجماهير للانطلاق في مظاهرات حاشدة شملت البلاد بأسرها للاعلان عن دعمها و تأييدها لقرار الإمام الخميني.

أما الاحزاب و الفصائل السياسيّة الاخرى - و التي كان قادتها و مسؤولوها و اعضائها القليلون يخرجون من سجنهم و معتقلاتهم ببركة نهضة الجماهير و على عدّة مراحل فقد وقفوا - و الشعب يقف على بوابة النصر - يدعون إرثهم للثورة و يطالبون بالسّهم الأوفر، و منذ تلك الأيام إبتداء الاصطفاف بوجه الثّورة الإسلاميّة بصفوف إمتلأت بعملاء نظام الملك و ازلام السافاك و الشيوعيّون و مجاهدي خلق (المنافقين).

انتصار الثورة الاسلامية (يوم الله ١١ شباط)

في الثامن من شباط ١٩٧٩ جاء منتسبو القوّة الجويّة لمبايعة الإمام في محلّ اقامته في (المدرسة العلوية في طهران) و اصبح الجيش الملكي على حافة السقوط الكامل، و قبل ذلك كان العديد من الجنود و المراتب من المؤمنين قد تركوا المعسكرات التزاماً بفتوى الإمام و التحقوا بصفوف الجماهير.

في التاسع من شباط قام منتسبو القوّة الجوية في اهم قاعدة لهم في طهران بالتمرد، و بادرت قوات الحرس الملكي للقضاء على التمرد، فهبت الجماهير لدعم القوّة الثّورية في القاعدة. و في العاشر من شباط كانت اغلب مراكز الشرطة و مراكز الدولة الاخرى قد سقطت الواحد تلو الآخر بأيدي الجماهير. و في بيان عسكري اعلن القائد العسكري لمدينة طهران عن تمديد ساعات منع التجوال الى الساعة الرابعة بعد الظهر. و تزامناً مع ذلك عقد بختيار اجتماعاً طارئاً لمجلس الأمن و اصدر أوامره في القيام بالإنقلاب العسكري الذي كان معداً سلفاً من قبل الجنرال هايزر - من جانب اخر اصدر الإمام الخميني بياناً دعا فيه الجماهير في طهران - و لاجل الحيلولة دون نجاح المؤامرة المزمعة - بالنزول الى الشوارع و الغاء قرار منع التجوال بشكل عملي. فاندفعت الجماهير شبيهاً و نساءً و شباناً و اطفالاً نحو الشوارع و ابتدأت باعداد الخنادق. و ما ان غادرت طلائع القوات

الإنقلابية فواعدها حتى سيطرت الجماهير عليها و منعتهما من مواصلة مسيرها. ففشل الانقلاب منذ ساعاته الأولى و بدأ فإنّ آخر معاقل النظام الملكي سقطت، و في صباح الحادى عشر من شباط أشرقت شمس النصر لتعلن عن إنتصار نهضة الإمام الخميني و الثورة الإسلامية و انتهاء عهد حاكمية الملوك الظالمين في ايران^(١)

الحكومة الإسلامية و اصطفاف الدول الاستعمارية ضدها

لم يكن تحقّق الوعود التي اعطاها الإمام الخميني و انتصار الثورة الاسلامية في ايران حادثة داخلية لتغيير نظام سياسى معين، بل ان ذلك كان - و كما عبّر عنها كثير من ساسة امريكا و اسرائيل و اوروبا في مذاكراتهم التي كتبوها عن تلك الايام - زلزالاً مدمراً لعالم الغرب^(٢)

فناهيك عن ان امريكا فقدت بنجاح الثورة أهمّ موقع جغرافي و اقتصادى و عسكري لها في احدى أشدّ مناطق العالم حساسية و في بلد كان يمتلك اطول حدود مشتركة مع منافسه الشرقى (الاتحاد السوفيتى السابق) فإن امواج هذا الانفجار الهائل، هزت الانظمة العميلة في البلدان الإسلامية و العربية و اصابتها بالذعر الشديد.

لقد كانت رسالة الثورة الاسلامية الأصيلة ذات ماهية ثقافية بنيت على الفكر الدينى و القيم المعنوية. بدأ فإنّ انتصار الثورة كان يعنى صدور رسالتها و قيمها لتفجير موجة من النهوض و التحرّر في البلدان الإسلامية في العالم الثالث. و في

١- للإطلاع على تفصيل الملاحم المنقطعة النظير و التي سطرها الشعب الايرانى و التي انتهت بسقوط النظام الملكي في يوم ١١/٢/١٩٧٩ راجع كتاب الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية الصفحات ٢٦١ - ٣١٥.

٢- ن.ك «مؤامرة في ايران» تأليف سايروس فانس (وزير خارجية امريكا الاسبق) و زيبغنيو برنجسكى (مستشار الامن القومى الامريكى). ترجمة محمود مشرفى (الى اللغة الفارسية) طبع انتشارات الاسبوع ١٩٨٣ م - و كذلك (مأمورية في ايران) و يليام سولفيان - ترجمة مشرقى - طبع انتشارات الاسبوع ١٩٨٢ - و كذا «مأمورية في طهران» - مذكرات الجنرال هايزر - ترجمة حسين عادلى. نشر مؤسسة الخدمات الثقافية (رسا) ١٩٨٦ م - و «القدرة و الحياة» جيسكار ديستان - ترجمة طلوعى، طبع دار الترجمة ١٩٨٩ م.

نفس الفترة التي حققت فيها الثورة الإسلامية في إيران النصر، سقط النظام العميل الأمريكي في (نيكاراغوا) و في أفغانستان اضطرت حكومة الاتحاد السوفيتي الى القيام بانقلاب دموي ثم دفع قواتها العسكرية لإحتلال تلك الدولة رغبة منها في السيطرة على التحرك الإسلامي. كذلك فإن الجماهير الثورة الإسلامية في إيران و ابتدأت مرحلة جدد من الجهاد، مستلهمة من الثورة الإسلاميه في مصر، تونس، الجزائر، السودان ، الحجاز، تركيا.

بعد الحرب العالميّة الثانية حُكم العالم بنظام غير عادل. فقد تمّ تقسيم مختلف مناطق العالم بين القوتين الغالبتين (الشرقية و الغربية) و اوكلت مهمة الحفظ على هذا النظام المقيت الى حلفي (وارشو) و (الناتو). و لم تستطع اية حركة أو ثروة في العالم الثالث من تحقيق أيّ هدفٍ لها خارج هذا الاطار و دون الارتباط باحد القطبين الحاكمين. في حين انّ انتصار الثورة الإسلامية في العالم المعاصر - و في منطقة كان يعلّمها الغربيون منطقة آمنٍ لهم - تمّ على اساس رفعها لشعار «لاشرقيّة لاغربيّة»

لقد وقفت الإمام الخميني و بشكل مباشر بوجه الامبريالية الامريكية و الحققت الهزيمة بها، الأمر الذي جرّد الشيوعيين من سلاحهم الذي كانوا يلوحون به (الوقوف بوجه الامبريالية) و لأول مرة في العصر الحاضر، طُرح الدين على انه عامل محرك في عمق كفاح الشعوب.

و رغم جميع المشكلات، و رغم جميع تلك المساعي التي بذلت على المستوى الدّولي للحفاظ على النظام الملكي و للحيلولة دون تحقيق الإمام الخميني النصر في نهضته، حققت الثورة الإسلامية النصر في المرحلة الاولى، و لهذا فإنّ انتصارها كان يعدّ معجزة اكثر منه تحوّلاً عادياً. و عدا الإمام الخميني و الجماهير المليونية التي آمنت بوعوده خارج إطار التحليلات العادية، فإنّ سائر المحلّلين السياسيين و جميع المهتمّين بالحوادث و الوقائع التي كانت تقع في إيران كانوا يرون هذا الانتصار - حتّى في أواخر ايام النظام البائد - امراً مستحيلاً.

و هكذا و منذ صباح الحادي عشر من شباط ١٩٧٩ م. ابتدأت مشاعر

الخصومة و العداء للنظام الاسلامي الفتى بالظهور و التوسع. و قد قادت امريكا جبهة الاعداء - و كان لبريطانيا و بعض دول أوروبا و جميع الانظمة العميلة للغرب المشاركة الفعالة في تلك المواجهة - كذلك فإنّ الاتحاد السوفيتي و من يدور في فلكه ايضاً، وقفوا مع الأمريكان في العديد من المواقف العدائية و دعموا موقفهم نتيجة عدم إرتياحهم لما وقع في ايران و ما أدى اليه من حاكمية الدين و المذهب. و النموذج البارز لهذه التحالفات، ما حصل من تحالف اليسار و اليمين ضدّ الثورة داخل البلاد، الأمر الذي اظهرت الوثائق - فيما بعد - ارتباطه بسفارة الإتحاد السوفيتي و أمريكا^(١).

و ابرز من هذا، التعاون الشامل بين الشرق و الغرب في تسليح صدام و دعمه في حربه المفروضة على الجمهورية الإسلامية.

غير أن الإمام الخميني مارس دوره القيادي بنفس المنطق الذي ابتدأ به قيادة التّهضة وحيداً قبل سنوات، فقد قاد سفينة الثورة و هي تعيش في خضم الفتن و الضغوط الخارجية. رافعاً شعار «انتصار الدم على السيف» كما كان يعتقد بأنّ المجتمع الذي يؤمن بأنّ الشهادة تمثل اعلى درجة من الكمال الروحي للانسان و يجاهد في سبيل الله لا بدّ و ان ينتصر.

و كان الإمام الخميني بصدد تشكيل تعبئة عامّة من الشعب الايراني لبناء البلاد و طرح نموذج عن المجتمع الديني السالم و المتقدّم امام العالم. و ابتدأ جهاد الشعب تحت اسم (جهاد البناء) و انطلق الآلاف من المتخصّصين و المؤمنين بالثورة الى مختلف المناطق المحرومة و القرى المبتوثة على طوال البلاد و عرضها، ليبدأ و اكبر حركة اعمارية من مدّ الطرق و بناء المراكز الصحيّة و ايهال الماء و الكهرباء الى مختلف مناطق البلاد. غير أنّ زمناً طويلاً لم يمرّ حتّى تتالت امواج الفتن و الضغوط

١- ن. ك «كي جي بي في ايران» فلاديمير كوزيجفين (ضابط سابق في المخابرات السوفيتية) ترجمة اسماعيل زند و الدكتور ابوترايان طهران ١٩٩١، وكذلك مجموعة وثائق وكر التجسس الامريكى في ايران، ترجمة و تنظيم الطلبة المسلمون السائرون على نهج الإمام الخميني، طبع مركز نشر و تائق وكر التجسس الامريكى - طهران.

الخارجية تنهال على البلاد. فقد صممت أمريكا على الإستفادة من طابورها الخامس في إيران لإشغال النظام الإسلامي بمشكلات داخلية و بثّ الفرقة و الخلاف لإيجاد الفرصة المناسبة لإسقاط النظام الفتى.

و قد عملت السفارة الأمريكية بفعالية - و عن طريق بعض عناصر الحكومة المؤقتة - لفتح الطريق للنفوذ من أجل مشاريعها المستقبلية و قد حققت بعض النجاح في ذلك ايضاً، فقد كانت حكومة السيد البازركان تتألف من افرادٍ اتسم اكثرهم بالتوجهات الوطنية المحافظة^(١) و هؤلاء لم يكن بمقدورهم هضم الظروف و الضّروقات الثورية و درك الارشادات و الأفكار السامية للإمام الخميني. بذّا فقد ادى ضعف الحكومة المؤقتة و روح المماشة التي كانت تتسم بها الى تنظيم المجموعات المعادية للثورة صفوفها بسرعة مستفيدة من المعونات الخارجية التي كانت تتلقاها، ثم المبادرة الى خلق التشنجات في كنب و كردستان و سائر المناطق. كذلك فإنّ النظام البعثي العراقي - و الذي اصيب بالذعر أكثر من غيره من الانظمة العربية من انتصار الثورة الاسلامية نتيجة خوفه من امكانية قيام شعبه على نظامه - بادر الى تسليح العناصر المعادية للثورة في جنوب البلاد و في كردستان. كما كان للسفارتين الامريكيتين و السوفيتية نشاط فعّال في جمع افراد السافاك و بعض عناصر النظام السابق و تحريك المجموعات الشيوعية و مجاهدي خلق (المنافقين) للقيام بأعمال مؤذية ضدّ الثورة. فقد قامت (مجموعة الفرقان) باغتيال العلامة و عضو شورى الثورة الشيخ مرتضى المطهري (١٩٧٩/٥/٢) و آية الله القاضي الطباطبائي (١٩٧٩/١١/١) و الدكتور المفتاح (١٩٧٩/١٢/١٩) و الحاج مهدي العراقي و نجله (١٩٧٩/٨/٢٦) و اللواء القرني رئيس اركان الجيش (١٩٧٩/٤/٢٣) و فشلت في اغتيال الشيخ هاشمي الرفسنجاني و الموسوي الأردبيلي.

١- كان تشكيل الحكومة المؤقتة و التي ضمت اكثرية مطلقة من اعضاء نهضة الحرية و الجبهة الوطنية خلافاً لحكم الإمام الخميني و الإتفاق المبدي، حول هذا الموضوع راجع التفاصيل في كتاب الكوثر - شرح وقائع الثورة الإسلامية - ج ٣ ص ٣٥٩ - ٣٦٣.

وكان الإمام الخميني يعتقد - لمعرفته بخفايا الامور - بضرورة القضاء بحزم وبسرعة على اعداء الثورة خصوصاً في الاضطرابات التي وقعت في كردستان. غير انّ الحكومة المؤقتة ضيّعت الفرصة بانشغالها بالمفاوضات العقيمة في كردستان و تعاملها اللين مع مثيري الاضطرابات و هيأت عملياً الارضية لتفاقم الاوضاع. من جانب آخر فإنّ الاقتصاد الأحادي الذي ورثه النظام الملكي و المعتمد كلياً على واردات النفط، دفع امريكا و اوروبا - المطلعتين على هذه الحقيقة - الى دعم موقف النظام السعودي و مؤيديه في منظمة أوبك لتخفيض اسعار النفط الى ادنى مستوى لها مما الحق الضرر بسوق النفط الايراني.

ومع وجود جميع هذه المشاكل لم يدعن الإمام الخميني و لم يرضخ لقبول المصالحة و لم يتراجع عن موافقه حتّى خطوة واحدة. فبادر الى تشكيل المؤسسات الثورية لترميم ضعف الحكومة المؤقتة و لضمان ديمومة الثورة. و قد وقفت الجماهير الايرانية بعزم و فداء دفاعاً عن الثورة و لم يمض اكثر من شهرين على انتصار الثورة حتّى صوت ٩٨ و ٢٪ من الجماهير في الاستفتاء الشعبي الذي أُجرى في (الأوّل من نيسان ١٩٧٩ م) لصالح الجمهورية الاسلامية، في واحدة من اكثر الانتخابات حرّية في تاريخ ايران، و بعدها اجريت الإنتخابات المتوالية لتدوين و التصويب على الدستور، و انتخابات نواب مجلس الشورى الإسلامي. و كان الإمام الخميني يتحدث الى محبيه الذين كانوا يزورونه يومياً في مقرّ اقامته في قم، و في المدرسة الفيضية ليدعم و يرسخ اركان النظام الإسلامي و يبيّن الاهداف و الأولويات في الحكومة الإسلامية و يدفع الجماهير للحضور الدائم في ميادين الاحداث. فقد سافر سماحته من طهران الى قم في الفاتح من آذار ١٩٧٩ و بقي هناك حتّى ابتلى بمرض قلبي (٢٢ كانون الثاني ١٩٨٠) و بعد تسع و ثلاثين يوماً من العلاج المتواصل في مستشفى القلوب في طهران، أقام سماحته في منزل يقع في منطقة دربند ثمّ انتقل في ١٩٨٠/٥/٢٧ - و نزولاً عند رغبته - الى منزل بسيط يمتلكه أحد علماء الدين (حجة الإسلام السيد مهدي امام جماراني) في منطقة جماران و بقي هناك حتّى مفارقة الحياة.

احتلال وكر التجسس الأمريكي في إيران

أدى نجاح الانتخابات و مشاركة الجماهير الواسعة فيها الى تبديد الآماني الأمريكية الموهومة في قرب سقوط النظام الإسلامي، و الذي كانت تكرر الاعلان عنه عبر وسائل الاعلام الغربية و عبر البيانات التي كانت تصدرها التيارات المعادية للثورة في الداخل. و لم تمتنع أمريكا و اوروبا من النزول عند مطالب الشعب و الحكومة الإيرانية المشروعة باسترداد الاموال و الموجودات الايرانية المجمدة في تلك البلدان التي تقدر باكثر من ٢٢ مليار دولار فحسب، بل أنها وضعت امكانات واسعة تحت تصرف اقطاب النظام الملكي البائد اللاجئين لديها، لتوظيفها في مواجهة النظام الإسلامي الفتى. و قد اثارت هذه التحريكات الامريكية و الممارسات العدائية للبيت الابيض غضب الشعب. ففي عام ١٩٧٩ و على اعتاب الذكرى السنوية لنفي الإمام الخميني الى تركيا (٤ تشرين الاول) شاع خبر اللقاء السري بين بازركان و بريجنسكي (مستشار الامن القومي الامريكي) و الذي جرى في الجزائر، مما دفع مجموعة من الجامعيين المسلمين الثوريين - الذين اطلقوا على أنفسهم اسم (الطلبة الجامعيين السائرين على نهج الإمام الخميني) باحتلال السفارة الأمريكية في طهران و بعد القضاء على مقاومة حرس السفارة، قاموا بالقاء القبض على الجواسيس الأمريكان. ثم عكفوا بعدها على نشر الوثائق التي عثروا عليها في السفارة الامريكية في خمسين كتاب سميت «وثائق وكر التجسس الأمريكي في ايران» و قد كشفت هذه الوثائق الدامغة، النقاب عن اسرار الجاسوسية الامريكية و التداخلات التي قامت بها الإدارة الامريكية في مختلف نقاط العالم و اعلنت اسماء العديدين من الرابطين و الجواسيس لأمریکا في مناطق العالم، المختلفة.

لقد كان إحتلال سفارة أمريكا - و التي عرفت لدى الجماهير الايرانية الثائرة بوكر التجسس - عملاً مذبلاً للحكومد الأمريكية.

بعد يوم واحد من احتلال السفارة الأمريكية قدمت حكومة السيد بازركان استقالتها و قبلها الإمام بعد ان توقع بازركان ورد فعل آخر من الإمام يتمثل في

ضغطه على الطلبة الجامعيين لاختلاء السفارة الأمريكية، غير أن الإمام الخميني قبل استقالة الحكومة فور تقديمها غير مفرطٍ بهذه الفرصة السانحة و التي سستيح له دفع الثوريين الى سدّة السلطة وكفّ ايدي التيار المحافظ الذي عرض البلاد خلال مدة قصيرة الى خطر اعداء الثورة نتيجة اسلوبه الضعيف في التعامل مع الاحداث. دعم الإمام الخميني حركة الطلبة الجامعيين الثورية و عدّ عملهم ثورة تفوق في اهميتها الثورة الاولى. و الحق أنّها كذلك. فقد كانت امريكا تقف الى جانب النظام الملكي في الثورة الاولى و كانت تعلن رسمياً عن مواجهتها و عداها للثورة الاسلامية، في حين أنّ الوثائق المصادرة من وكر التجسس الأمريكي كشفت النقاب عن الدسائس التي حبكت ضدّ الثورة في الخفاء و فضحت عملائها في الداخل.

بعد احتلال السفارة الامريكية حاولت امريكا و بمختلف الطرق و الأساليب دفع ايران الى الانسحاب عن موقفها فقامت بفرض الحصار الإقتصادي و السياسي رسمياً على ايران من قبلها و من يدور في فلکها، و ابتدأت الجماهير مرحلة مواجهة الحصار الاقتصادي و السياسي مستندة الى توجيهات الإمام الخميني دون ان تفكر في الإستسلام. و فشلت عملية اطلاق سراح الرهائن الامريكان و بشكل إعجازي بعد تحطّم الطائرات الامريكية في صحراء طبس.

في الرابع و العشرين من نيسان ١٩٨٠ م قامت ستّ طائرات سمتية من طراز C130 بالهبوط في احدى القواعد الامريكية السابقة في صحراء طبس الواقعة شرقي ايران و قد وقعت هذه الحادثة خلال رئاسة ابي الحسن بنى صدر.

و كان المقرّر ان تقوم تلك الطائرات - بعد التزوّد بالوقود و وصول سميتيات خاصة بذلك النوع من العمليات - بالتحليق نحو طهران، ثمّ تقوم - و بالتعاون مع بعض العملاء المخفيين - بقصف منزل الإمام الخميني و المراكز الهامة الاخرى، غير انّ عاصفةً هبت في الصحراء ممّا اجبر بعض الطائرات على العودة الى حاملة الطائرات (نيميتس) و اضطرّ الباقيات الى الهبوط الإضطراري في الصحراء، و نتيجة لسوء الظروف التي حاولت فيها الطائرات الهبوط ارتطمت أحداها بطائرة أخرى فانفجرت كلتاهما، و بالنتيجة قُتل في هذه الحادثة ثمانية أشخاص من العسكريين

الامريكان الغزاة و اضطرّ جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الى الإعلان عن ايقاف العمليّة الفاشلة^(١).

و في ٢٧ تموز ١٩٨٥ انتفي - بوفاة الملك محمد رضا في مصر - وبشكل عملي احد الشروط الايرانية المتمثلة في استرداده باعتباره أحد المجرمين الاصليين في المذابح الجماعية التي وقعت في ايران. و اخيراً و بعد ٤٤٤ يوماً تمّ الافراج عن الجواسيس الامريكان بعد توسّط الجزائر و بعد تصويت اعضاء مجلس الشورى لصالح الامر، و بعد التوقيع على اتفاقية الجزائر بين إيران و امريكا، و التي تعهدت امريكا بموجبها بعدم التدخّل في الامور الداخلية لأيران و إعادة الارصدة و الاموال الايرانية المجمّدة في مصارفها. الامور التي لم تلتزم بايّ منها.

انّ اهمّ ما افرزته حادثة احتلال وكر التجسس الامريكى يتمثّل في كسر الغرور الفرعونى الامريكى و بعث الامل في نفوس شعوب الثالث بامكانيّة الوقوف بوجه القوى العظمى، هذا علاوة على ضمانة ديمومة الثورة الإسلامية في ايران. بعد تلك الواقعة، انهارت الابهة الامريكية و القدرة الوهميّة - التي أنفق من اجل اظهارها المبالغ الطائلة و الجهود الاعلامية المكثّفة - و تعرضت امريكا صعوبات و مشاكل عديدة للسيطرة على العالم الثالث فيما بعد.

في أول انتخابات لرئاسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية (١٩٨٠/١٥/٢٥) و التي جرت في وقت كان الإمام الخميني طريح الفراش في مستشفى القلب في طهران، فاز السيد ابوالحسن بنى صدر على منافسيه، و كان ابوالحسن قد عاد الى ايران قبيل إنتصار الثورة الإسلامية، و قدّم نفسه من خلال خطاباته و كتبه على أنّه شخص متديّن و متخصص اقتصادى لامع. و في مراسم اداء القسم الدستورى لتولّي مهامه قال الإمام: «أنتى أوصى السيّد بنى صدر بوصيّة واحدة، و هي موجّهة

١- بعد هذه الاحداث، نشرت كتب عديدة في الخارج، و قد تمّت ترجمة البعض منها الى اللغة الفارسية و يمكن من خلالها الوقوف على الاحداث و الاهداف غير المعلنة و مدى الفضيحة التي لحقت بالبيت الابيض ن. ك «الهدف: طهران» تأليف جوليتو غيزا، ترجمة سهرابى، الدار الجديدة ١٩٨٣ م - «الأزمة» هيلتون جرون، طبع دار الكتاب ١٩٨٣ م، «أمريكا في القيد» سالينجر، طبع دار الكتاب ١٩٨٣، و «٤٤٤ يوم» تيم ويلز، ترجمة ابوترايان، طبع دار الثقافة رجا ١٩٧٨ م.

لجميع ايضاً، اقول: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»^(١)

غير أنّ غرور بني صدر و رغبته في التسلّط حالت دون التزامه بهذه النصيحة. ومنذ بداية حكومته إعتد معارض خط الإمام و العلماء. و قد كان يعتقد - كما هو حال الحكومة المؤقتة - بضرورة مصالحة الدول الكبرى، و اعتماد اسلوب المناورات السياسية معها. اما على الصعيد الداخلي فقد بادر فوراً الى عزل الطاقات الثورية و احلال العناصر المرتبطة بالجماعات المعادية للثورة محلها.

و في عهده احتلّ العراق مناطق شاسعة من الاراضي الإيرانية، و على الاثر قامت العناصر المرتبطة برئيس الجمهورية - و التي كانت ترى أنّ وجودها مرتهن بزيادة المشكلات و ايجاد جوّ من التوتر امام النظام الإسلامي - بالحيلولة دون اداء المدافعين عن البلاد لدورهم بشكل مناسب، و منع تسليح الجماهير و إتاحة الفرصة للحرس الثوري باداء دوره الفاعل مستفيدين في كل ذلك من منصب بني صدر الذي كان قائداً عاماً للقوات المسلّحة. و بدأ تعرّضت الوحدة الوطنية الى الخطر نتيجة الخلافات التي أثارها بني صدر، و اخيراً اصدر الإمام الخميني حكمه المقتضب في ١٠ حزيران ١٩٨١ و القاضي بعدم كفاءة بني صدر^(٢).

بسقوط بني صدر، بادر أعضاء و مؤيّدی منظمة مجاهدي خلق (المنافقين) - و الذين استغلّوا فرصة ما بعد انتصار الثورة الإسلامية و ضعف الحكومة المؤقتة و ما وفره لهم بني صدر من الدعم و الحماية لتقوية تشكيلاتهم و توسيعها لإدارة اضطرابات دميّة الآ انّ جماهير طهران تمكّنوا من القضاء على مثيرى الاضطرابات و تمّ اعتقال العديد منهم. و منذ ذلك الوقت أقدم المنافقون رسمياً على القيام باعمال مسلّحة و اغتيالات، و في الوقت نفسه بادر قادة التنظيم للاختفاء في أوكارهم و قد تصدّر حزب الجمهورية الإسلامية قائمة المستهدفين من قبل المنافقين.

تمّ تأسيس حزب الجمهورية الإسلامية بعد انتصار الثورة الإسلامية بهمة المخلصين من ذوى السّماحة: آية الله الخامنئي، الدكتور البهشتي، الدكتور الباهر،

١- راجع الاصول من الكافي، كتاب الإيمان و الكفر - باب حب الدنيا و الحرص عليها، الحديث.

٢- صحيفة النور ج ١٤ ص ٢٧٤.

هاشمى الرفسنجاني، الموسوى الاردبيلى بهدف تنظيم الطاقات المؤمنة بنهج الإمام الخميني، و مواجهة تحركات التيارات السياسية العادية للثورة و قد استطاع هذا الحزب المدعوم من قبل الإمام من كسب اعداد كبيرة من المؤيدين في مختلف انحاء البلاد و بسرعة كبيرة، و اصبح سداً بوجه العناصر المعادية للثورة.

في السابع و العشرين من حزيران ١٩٨١ جرح آية الله الخامنئي على اثر انفجار قبيلة زرعها المناقون بينما كان يخطب بالجماهير المحتشدة في مسجد ابي ذر في غرب طهران. و في اليوم التالي وقعت فاجعة رهيبه على أثر انفجار قبيلة قويّة زرعها احد عملاء منظّمة المناقين في مقر حزب الجمهورية الإسلامية، و ذلك خلال اجتماع اعضاء الحزب، ممّا أدى الى استشهاد اثنين و سبعين من خيرة الطاقات الثورية من عناصر النظام الإسلامي و من أنصار الإمام الخميني، كان بينهم رئيس ديوان القضاء الدكتور الهشتي و عدد من الوزراء و نواب مجلس الشورى الإسلامي و جمع من مسؤولى السلطة القضائية و عدد آخر من المفكرين و الكتاب و الطاقات الثورية الأخرى.

بعد شهرين من هذه الفاجعة، و في الثلاثين من شهر آب ١٩٨١ استشهد السيد محمد على الرجائي - الوجه الثوري المحبوب من قبل الجماهير و الذي انتخب لرئاسة الجمهورية بعد عزل بنى صدر - و الدكتور محمد جواد الباهر (رئيس الوزراء) بينما كانا في مقر عملهما اثر انفجار قبيلة اخرى.

و كان لسرعة الإمام و حزمه في إتخاذ القرار بانتخاب و تنصيب المسؤولين لسد الفراغ الحاصل نتيجة سقوط ذلك العدد من الشهداء كان له الأثر البالغ في تهدئة الاوضاع و إدخال اليأس على نفوس الاعداء و إصابة المحافل الخيرية و السياسيّة العالمية بالحيرة و الذهول.

و لو لم يكن إيمان الإمام الخميني و صلابته المذهلة، و وعى الجماهير الإيرانيّة المؤمنة، لتمكّنت واحدة من هذه الوقائع لوحدها من إسقاط النظام الإسلامي. غير أنّ بيانات الإمام الخميني و خطاباته كانت بعد كلّ واحدة من هذه الحوادث تهدأ روح الجماهير و تسهّل عليها تحمّل المصائب و تزيد من تصميم

الجماهير على مواصلة طريقها.

بعد شهادة الدكتور البهشتي هتفت الجماهير بشعار «ماذا تريد أمريكا، ان إيران مليئة بامثال البهشتي» و الذي استلهمته من حديث الإمام الذي كشف من خلاله، النقاب عن ان الايادي الخفية للعدو الاصلى (امريكا) تكمن وراء هذه الاغتيالات. من جانب آخر فإن الإمام كان قد أكد مراراً على ان الثورة الإسلامية لا تقوم على الاشخاص مهما كانت مواقفهم واهميتهم، وان ما يحفظ الثورة، إنما هو الله و ايمان الجماهير المؤمنة.

إنّ أهمّ ما وفق فيه الإمام الخميني هو قدرته على تنمية الشعور و الوعي العام لدى الجماهير و ايجاد الإحساس بالمسؤولية و القدرة على التحليل السياسي لدى ابناء الشعب إزاء الوقائع و الأحداث المعاصرة.

لسنوات طوال كانت وسائل الأعلام الغربية تعدّ الناس بحتمية سقوط النظام الإسلامي بعد وفاة الإمام الخميني، و قد طُرح هذا الموضوع الإسلامي بعد وفاة الإمام الخميني، و قد طُرح هذا الموضوع حتّى في المؤتمرات التي عقدها المفكّرون الغربيّون لدراسة الثورة الإسلامية، و الاجتماعات السياسيّة و المفاوضات التي كانت يجريها الساسة الغربيون - و بشكل جدّي، و تمّ القبول به، و على هذا الاساس ايضاً قُبعت المجموعات المعادية للثورة في الداخل في مكانها بانتظار ذلك اليوم الموعود، غير ان الدّنيا شهدت كيف ان النظام الإسلامي لم يتعرض لأدنى ضرر بعد إرتحال الشخصيات السياسيّة و العناصر الرئيسيّة و بدأ تبدّدت احلام و آماني السنوات، و السبب في ذلك هو ما ذكرناه، فقد تمكّن الإمام الخميني من تربية الجيل الخامل اللامبالي نتيجة خمسين عاماً من الجرائم و الخيانات التي مارسها النظام الملكي البهلوي باليأس و عدم الأكرات بطريقة جعلته قادراً و في زمان قصير من تبديل عاداته و علاقاته الاجتماعيّة السابقة و الاعتقادات الخاطئة الرّاسخة، نحو القيم و المثل السامية الجديدة و في مختلف مناحي الحياة. و مئات الآلاف من الشبّان الذين واجهوا العدوّ البعثي المعنّدى في جبهات القتال لمُدّة ثمانية أعوام متواصلة - متطوّعين مختارين في ذلك و مع امتلاكهم لا على درجة من

المعنويات و الوعي - دليل على هذا المعنى و النماذج الكثيرة على مستوى وعيهم وشعورهم و مستوى إيمانهم و معنوياتهم يتضح في الوصايا المطبوعة للشهداء منهم، و هؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا و إلى ما قبل إنتصار الثورة الإسلامية بقليل في معرض الوقوع في مختلف انواع المفساد، يتحرّكهم إعلام السوء و تتجاذبهم انواع القوى التخديرية.

و لعلّ البعض ممّن لم يعاصروا مجتمع الإمام الخميني عن قرب يعتبرون هذا الحديث نوعاً من المبالغة في عرض الحقائق، و أنّه امر ناشئ عن فرط المحبّة للإمام و للثورة الإسلامية، لكنّ الأمر ليس كذلك، فكثير من الشواهد لازالت حيّة و الوثائق والمستندات الدامغة من الكثرة بحيث أنّ إثبات هذا الامر لن يحتاج الى طويل بحث أو مناظرة.

فإلى الآن لازالت الثقافة الاجتماعية الايرانية الجديدة تدفع الناس الى تهنئة من فقد ابناً في طريق تحقيق اهداف نهضة الإمام الخميني بدلاً من مواساته. الى الان مازال الكثير من الآباء و الأمهات في ايران ممّن فقدوا عدّة ابناء في هذا الطريق يجيبونك حينما تسألهم عن شعورهم: بأنّ ذلك فخر للعائلة و أنّه نعمة من الله.

و لعلّ من غير المعقول بالنسبة للغربيين انّ يقوم بعض افرادٍ العالية عن محلاتٍ اختفاء العديد من العناصر المضادة للثورة و الارهابيين المنافقين من أبنائهم و قيام الآباء و الأمهات بمساعدة قوى الامن لالقاء القبض عليهم.

و تتضح اهمية هذا الاحساس حينما يؤخذ بنظر الاعتبار شدة الترابط العاطفي في العائلة الايرانية و الذي لايمكن مقارنته - و على أي مستوى مع ما هو موجود من الروابط الباردة الخالية من الروح في العائلة الغربية مثلاً.

الى الآن اذا سألت أياً من عشرات الآلاف من المقاتلين - الذين لازالوا يتذكرون أيام الجبهة - عن اشدّ ايام وجوده في الجبهة قسوة؟ لأجابه أنّه يوم اعلان الموافقة على القرار الدولي و وقف اطلاق النار، فإنّ وصف احسامات قوات التعبئة بالحزن العميق و الألم في ذلك اليوم لايمكن وصفها إلا بالمشاهدة و المعاينة.

القريبة، كل ذلك لاحساسهم بأنّ «باب جنة الشهداء» قد اغلق امامهم، وأنهم فقدوا الأمل في الالتحاق بقافلة الشهداء.

من روح روح الله:

إنّ ايجاد تحول روحيّ كهذا في مجتمع ما، و تحريك امواج التعلّق بالإسلام في روح أمة ما، ليس بالعمل السهل و العادي.

لبنان و ملحمة حزب الله فيها، نموذج آخر يدلّ على هذا التحوّل الذي ذكرناه. و خلافاً لما يدّعيه الغرب من خلال اعلامه، فإنّ تدخّل ايران و دعمها لم يكن هو السبب في ايجاد هذا التحوّل، ذلك لأنّ لامريكا و اوروبا و الاتحاد السوفيتي(السابق) حضور عميق و واسع و مباشر في لبنان، أثناء الاحداث التي وقعت في لبنان. لقد كانت لبنان و حتى وقت قريب اكبر سوق للسياسات الغربية في الشرق الاوسط، فما الذي ادى الى ان يتمكن مجتمع صغير - قياساً الى اعدائه و في بلد محاصر من جميع الجهات، و له حدود مشتركة مع اسرائيل، و رغم قلّة امكاناته الدفاعية - من الوقوف بثبات و قوّة بحيث يستطيع دفع القوات الغربية الى الاعلان رسمياً عن فرارها من المنطقة، و اضطرارها الى ترك البلاد و اليوم أيضاً و رغم وجود مختلف الضغوط الاقتصادية الشديدة، و القصف و الاعتداءات الإسرائيلية المتكرّرة، ترى حزب الله يثبت وجوده امام الغرب و يقاوم بشكل منقطع النظير.

إنّ السبب الحقيقي في ذلك هو انّ مسلمي لبنان و بناءً على علاقاتهم الثقافية و العقائدية القديمة، استطاعوا معرفة الإمام و تلقّوا رسالته اسرع من سائر البلدان الإسلامية.

و بعد لبنان، تجيء فلسطين التي افرزت و بسرعة (حركة حماس) و الحركات الإسلامية في سائر بلدان المسلمين... كلّها نتيجة التأثير المباشر أو غير المباشر لأفكار الإمام الخميني و رسالته الجهادية. و السبب في ايجاد تحوّل كهذا لا ينحصر في الفكر السياسي للإمام الخميني و نوعية جهاده السياسي، فمدرسة

الإمام الخميني التربويّة وقدرته في معرفة الانسان و في معرفة المجتمع هي التي ساهمت في ايجاد الأرضية المناسبة لوقوع مثل هذه التحوّلات. وللأسف فإنّ ابعاد نظرات الإمام و آرائه حول الانسان و المجتمع و التاريخ و ما قاله في التربية لم تنزل حتّى الآن متناثرة غير مدوّنة و غير معروفة كما ينبغي، فمدرسة الإمام في التربية و علم الاجتماع تختلف كثيراً عمّا يدرس تحت هذه العناوين في جامعات دول العالم الثالث و البلدان الإسلامية.

إنّ الاساس الذي ابتنت عليه نهضة الإمام الخميني إنما يمتدّ الى منهج الأنبياء، ذلك المنهج الذي استطاع ان يخلق من بعض العبيد المغمورين و المظلومين شخصيات من امثال ابي ذر الغفاري و سلمان المحمّدي. و من المجتمع الجاهلي الذي كان آنذاك، قائداً للمدنيّة و الحضارة الإسلامية فيما بعد. فيما أنّ هذا المنهج اصبح في عصرنا الحاضر منسياً، و ما نعرفه اليوم تحت عنوان العلوم الإنسانية المعاصرة انما يهتمّ بتعريف الانسان و العلاقات الإنسانية من وجهة نظر المدارس الوضعية (غير السماوية) الليبرالية و الغربية، والذي نتج هو الآخر عن عصر النهضة الصناعية و نتيجة الضياع و فقدان الهوية الذاتية و الإصالة و القبول باصالة المادة و حاكمية الآلة على الانسان.

اعود مجدداً للحديث حول كيفية قيادة الثورة في السنوات المشحونة بالإضطراب ممّا تلا الثورة الإسلامية بعد فاجعة الثامن و العشرين من حزيران ١٩٨١ م و استشهاد العشرات من انصار الإمام و من المسؤولين في نظام الجمهورية الإسلامية و تمكّن قادة مجموعة المناققين من الفرار من البلاد متوجهين الى باريس برفقة رئيس الجمهورية المعزول، و ذلك بارتدائهم الملابس النسائية و بالتعاون و التنسيق مع بعض العملاء المندسين في مطار طهران. فالطيار الذي قاد الطائرة كان من الطيارين الخاصين بالملك المخلوع و الموثوقين لديه و هو الذي قاد طائرة الملك حينما فرّ من البلاد قبل سنوات.

و خلافاً لادّعاتها في احترام حقوق الإنسان و مواجهتها للإرهاب، اعطت فرنسا حق اللجوء السياسي لأولئك الذين اعترفوا بأنفسهم في البيانات التي

اصدروها بصلوعهم - بل بمسؤوليتهم - عن عمليات الاغتيال و التفجير في الاماكن العامة التي وقعت في ايران.

بعد ذلك التاريخ اصبح المنافقون الهاربون الى مختلف الدول الاوروبية و في امريكا يتمتعون بدعم و حماية تلك الدول، ثم انهم و اثناء الحرب العراقية الايرانية، اتخذوا من العراق قاعدة اساسية لهم، بعد ان عقدوا صفقة مع صدام، فانقلوا الى العراق، و كانوا طوال فترة الحرب جواسيس و مرتزقة يضعون كل معلوماتهم و امكاناتهم تحت اختيار الجيش البعثي. و قد انحصرت مهمتهم الاساسية في جمع المعلوما عن الجبهات الإيرانية بواسطة عملائهم الموثقين في الداخل، و اعطاء المعلومات حول مواضع سقوط الصواريخ العراقية المطلقة نحو المناطق السكنية في إيران و التحقيق مع الاسرى الإيرانيين و المشاركة في العمليات العسكرية العراقية.

و في عام ١٩٨٨ م و بعد اعلان نهاية الحرب العراقية الايرانية قاد المنافقون هجومهم الهادف للدخول الى عمق الأراضي الإيرانية، الا انهم واجهوا عمليات (المرصاد) التي حالت دون تحقيقهم أية نتيجة، بعد ان خلفوا اكثر من الف قتيل على ارض المواجهة.

كذلك و علاوة على استشهاد ٧٢ شخصاً من أشد شخصيات النظام محبوبة لدى الناس في انفجار مقر حزب الجمهورية الإسلامية، و استشهاد رئيس الجمهورية و رئيس الوزراء اقدم المنافقون على اغتيال العديد من الشخصيات، كآية الله الصدوقی امام جمعة يزد (١٩٨٢/٧/٢) و آية الله اشرفي الاصفهاني امام جمعة كرمانشاه (١٩٨٢/١٠/١٥) و آية الله دستغيب امام جمعة شيراز (١٩٨١/٩/١١) و آية الله القدوسي و اللواء الدستجردی (١٩٨١/٩/٥) و حجة الإسلام هاشمی نجاد (١٩٨١/٩/٢٩) و عشرات الشخصيات من العلماء، ممن كانوا يهيمنون على قلوب الناس في كل منطقة من المناطق التي كانوا يمارسون نشاطهم فيها و ممن كان لهم السهم الوافر في نهضة الإمام الخميني.

و علاوة على الوجوه السياسية و الدينية و مسؤولي النظام الإسلامي، فإن

اعداداً كبيرة من الناس العاديين سقطوا مخضيين بدمائهم في الأزقه و الشوارع بجرم الدفاع عن ثورتهم و حمايتها و نتيجة لعمليات ارهابية و تفجيرات قام بها المنافقون في الاماكن العامة (و كان آخرها القتل المفعج الذي مارسه المنافقون بحق اثنين من القساوسة المسيحيين، و تفجير قنبلة في يوم عاشوراء جوار مرقد الإمام الرضا (عليه السلام) في مشهد خلال العام ١٩٩٤)

و الجدير بالملاحظة أنّ امريكا و اوروبا و المنظمات الدولية لم تختر السكوت امام كلّ تلك الجرائم فقط، و أنّما كانت قدم للارهابيين الملجأ و الامكانيات لمواصلة نشاطاتهم الإرهابية. و لقد اتخذوا موقفاً مشابهاً من جرائم الملك رغم أنّ ذلك يخالف ادّعاءاتهم، ولهذا السبب بالذات فإن الإمام الخميني لم يتخذ من آراء و مواقف الدول الاجنبية و المنظمات الدولية مبنى للتقييم أو للمواقف التي يتخذها سواء قبل إنتصار الثورة أو بعدها، فقد كان سماحته يعتقد - و قد صرّح بذلك مرّات عديدة عبر خطاباته - بأنّ هيئة الامم المتحدة و مجلس الامن، و منظّمة الدفاع عن حقوق الانسان ليست سوى الآت بايدي المتسلّطين الدوليين، تماماً كما أنّ ادّعاء الشيوعيين و الاتحاد السوفيتي بحريّة الشعوب و مناهضة الامبريالية، لا يهدف منه سوى تلك الاهداف. و ابعد من هذا فإن الإمام الخميني - و بناءً على هذه الحقائق - علم مسؤولي النظام الإسلامي معياراً ملفتاً لتقييم مستوى أدائهم فقال: «في اليوم الذي تبادر فيه المؤسسات الدولية و امريكا و الغرب الى مدحك و الاعتراف طواعية بموجوديتكم و بثورتكم، فعليكم يومها ان تشكّوا في سلامة مساركم و حقانيتكم».

الحرب المفروضة و الدفاع المقدّس

ادّى الفشل الذريع لمشروع القضاء على النظام الجمهوري الإسلامي من خلال الحصار الاقتصادي و السياسي و الذي حاولت امريكا تطبيقه، و فشلها في عملياتها العسكرية لتحرير الجواسيس الأمريكيين - بالهبوط في صحراء طبس بعد احتلال و التجسس الامريكى - و عدم النجاح في فصل كردستان عن الحكومة

المركزية، الى لجوء الحكومة الامريكية في عام ١٩٨٥ لتجربة الهجوم العسكرى المباشر. بيد أن الموازنات الدولية بين الشرق والغرب في تلك الأيام حالت دون تمكّن امريكا من الهجوم المباشر بقواتها، فالرأى العام العالمى قد تأثر نسبياً بافكار الإمام الخميني و نشاطاته السياسية التي اطلع على جزء منها في فرنسا و في الحوادث التي تلت انتصار الثورة الاسلامية، ممّا ساهم في كشف النقاب عن مظلوميّة ايران و حقّانية الشعب الايرانى في مطالبه، و دفع الرأى العامّ العالمى بالنتيجة الى التعاطف مع الشعب الايرانى، كذلك فإن لمواجهة ردود الفعل الناجمة عن الهجوم الامريكى المباشر.

لكلّ ذلك تمّ اختيار العراق للقيام بدور النيابة في اشعال هذه الحرب و هو اختيار محسوب من كافة النواحي فالعراق بلد يسير في ركاب الإتحاد السوفيتى و الكتلة الشرقيّة. و دخوله في حرب مع ايران سيؤدّى الى وقوف الاتحاد السوفيتى و الشيوعيين الى جانب صدام، و بالنتيجة الى جانب امريكا و أوروبا مما سيمنع من ظهور اية ردود فعل سلبية. كذلك فإن العراق يعدّ ثانى بلد في المنطقة من حيث الامكانيات التسليحية، و هو بلد نفطى يمكنه الصمود في حرب طويلة الأمد اعتماداً على ثرواته و على مساعدات الدول الرجعيّة العربيّة في المنطقة، و دون الاحتياج الى دعم امريكا أو أوروبا مالياً أو عسكرياً - رغم أنّ التوقّعات الاولية من قبل امريكا و صدام كانت تدور حول حرب قصيرة الامد، تؤدّى الى القضاء على الثورة الإسلامية الايرانية بسرعة خاطفة.

من جانب آخر، فإنّ النفسيّة التسليطة لصدام و التّزاعات الحدوديّة السابقة بين العراق و إيران تعدّ ظروفاً مساعدة لدفع صدام الى الإعتداء و احتلال قسم من الاراضى الايرانيّة.

و لو أنّ العالم امتنع عن قبول الادلّة و الوثائق التي قدمتها إيران خلال الحرب لإثبات مدّعاها في ضلوع امريكا و اوروبا و الإتحاد السوفيتى في اشعال شرارة الحرب، فإنّ الإسرار التي انكشفت بعد حرب النفط بين امريكا و صدام (حرب احتلال الكويت) و الوثائق التي انتشرت دلّلت على هذه الحقيقة بشكل قطعيّ.

على أية حال في ٢٢ أيلول ١٩٨٠ م بدأ الهجوم العسكري العراقي على طول الحدود المشتركة البالغة ١٢٨٠ كم و من اقصى نقطة في الشمال الايراني و الى ادنى نقطة ميناء خرّمشهر - في جنوبها، و ترافق الهجوم البري مع هجوم جوى طال مطار طهران - الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم - و مناطق اخرى.

و تمكّنت الماكنة العسكرية الصّدامية - و التي تمّ اعدادها بمساعدة فرنسا و شركات الاسلحة الامريكية و الانجليزية و المعدّات العسكرية الروسية للقيام بهذا الهجوم - بسرعة من النفوذ لعدّة كيلومترات داخل المحافظات الايرانية الخمسة. و تعرضت المقاومة الشعبيّة المحدودة الى ضربة قوية من قبل الجيش العراقي نتيجة عنصر المباغتة الذي كان لصالح القوات الغازية، و نتيجة عدم وجود التسليح و الخبرة الكافيتين.

و بسرعة غريبة تمّ تخريب المدن و القرى المحتلّة و تحوّلت الى انقاض و شرد مئات الآلاف من بيوتهم و قراهم و مدنهم.

أمّا الجيش الايراني، و نتيجة لحوادث الثورة فقد كان مصاباً بالتخلخل و التفكك، و كان يمضى ادواره الأولى في اعادة البناء و التنظيم. فقد غادر الآلاف من الخبراء العسكريين الاجانب و الامريكان - خصوصاً - ايران بعد انتصار الثورة، كذلك فإن العديد من التجهيزات العسكرية المعقدة و الطائرات الحديثة و الصواريخ المتطورة - و التي كان الشعب الايراني قد دفع اثمانها من كده تمّ نقلها في الأيام الاخيرة من حكومة النظام الملكي البائد - و بمساعي الجنرال هايذر التي دامت شهرين - الى امريكا^(١)

كذلك فإنّ الحرس الثوري - الحديث العهد و الذي تمّ تشكيله بناءً على بيان

١- كانت عملية إعادة التجهيزات السرية العسكرية و الحاسوبية الأمريكية في ايران، و الطائرات الخاصة بالبتاغون و الصواريخ المتطورة ارض - ارض و ارض - جو و التي كانت منصوبة في صحارى شرق ايران و المناطق الشماليّة و الشماليّة الشرقية للبلاد و بمحاذاة الحدود السوفيتية (سابقاً) احدى ثلاث مهمّات كان على الجنرال هايذر (مساعدة قيادة حلف الناتو) ان يقوم بها خلال فترة الشهرين التي وفد فيها الى ايران. راجع «مأمرية في طهران» مذكرات الجنرال هايذر، و كذلك «المساعي الأخيرة في الأيام الاخيرة» الدكتور البيزدي، طبع انتشارات القلم ١٩٨٤ م.

صادر من الإمام لم يكن يمتلك التجهيزات والخبرة الكافية في الأيام الأولى من الحرب، مضافاً إلى أنّ صدام حسين أيضاً كان يعلم بكلّ هذه التفاصيل مستنداً إلى المعلومات التي زوّدت بها أمريكا وفرنسا وعملاء الطابور الخامس، لذا فإنّه كان قد أعدّ حتّى خرائط (العراق الكبير) مضيفاً فيها إلى أراضي العراق الحالية مناطق شاسعة من محافظة خوزستان ومن المحافظات الغربية الإيرانية، لقد كان واثقاً من أنّ النظام الإسلامي عاجز عن مواجهة هذا الجيش الجرار، وأنه سيتعرّض للسقوط بسرعة، كما أنّ الاستكبار العالمي كان يدعمه ويقف وراءه.

لقد قوبل خبر اشتعال الحرب العراقية الإيرانية - رغم أهميته - بالسكوت التام من قبل كافة المنظمات الدولية والقوى الكبرى، هذا السكوت ذا المعنى و العداء المتأصل في نفوس الدول الكبرى للجمهورية الإسلامية الإيرانية، و الواقع الذي كانت تعيشه البلاد، و القدرة العسكرية البعثية، كانت كلها ظروفاً عقدت عملية اتخاذ القرار. و وقفت إيران أمام مفترق يودّي إلى طريقين لاغير: التصميم على المقاومة في حربٍ غير متعادلة يلفها - حسب الظاهر - الغموض و الابهام، أو القبول بشروط أمريكا و اللجوء إليها للضغط على صدام للإسحاب، و الخيار الثاني يعنى التخلّي عن الثورة، وعن الإسلام إلى الأبد.

غير أنّ هذه الظروف رغم كلّ تعقيدها، كانت أقلّ من ان تعرّض الإمام الخميني إلى التردّد في تشخيص مسؤوليته و ما عليه ان يتّخذه من مواقف. لقد كان الإمام يؤمن بقوله تعالى: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»^(١) ايماناً شهودياً، كما أنه كان قد طوى - و قبل ان يتنسم مقام القيادة للامة بسنوات - مقامات «الفناء في الله»^(٢) و درّس «الاسفار الاربعة»^(٣) التي تمثّل

١- سورة البقرة الآية ٢٤٩.

٢- «الفناء في الله» مصطلح عرفاني يراد به التعبير عن حالة فناء العبد في الحق (الله) بمعنى فناء الجنبه البشرية منه في الجنبه الربوبية من الخالق، و هو نهاية سير العبد نحو الله. و بعد الربوبية يأتي دور العبودية، الذي تفرّق فيه ذات العبد و تعترف، اذا فسلوك العبد من مقام الذات نحو الكمالات يبدأ بالصعود حتّى يصل به إلى مقام العلم بجميع الأسماء عدا تلك الذي خصّ البارئ تعالى بها ذاته، و ما ان لله

الهجرة التي تمثل هجرة الانسان الكامل - نظرياً لعدّة دورات، ناهيك عن انه قد قطع تلك الاسفار بمنتهى الكمال على المستوى العملي. مضافاً الى أنه أورد احكام الجهاد و الدفاع في رسالته العملية على أنها احكام الهيّة لا يمكن تخطيها.

و لو أنّ احداً امتلك الاطلاع الكافي عن شخصية الإمام الخميني و سيره التكاملية لأمكنه الحدس بنوع المسار الذي إتّخذهُ الإمام عند المفترق الذي ذكرناه. أوّل ردّ فعل صدر عن الإمام، و أوّل بيان اصدده و أوّل حديث القاه بعد الحرب، و عدوان الجيش العراقي، كان - و من حيث علاقته بمعرفة شخصيته و نوع قيادته - مثيراً للعجب للغاية. و هو أمر يضيق المقام عن تفصيله. لقد اصدر الإمام فوراً امره بالمقاومة، و اشار في أوّل تحليل له عن الهجوم إلى تحميل امريكا المسؤولية الكاملة عن اشعال هذه الحرب. و اطمأنّ الجماهير بصراحة الى أنهم منتصرون لامحالة، و ان العدو مهزوم قطعاً اذا كان قيامهم للدفاع في سبيل الله و على اساس انّ ذلك تكليف شرعيّ، رغم انّ ظواهر الامور تشير الى خلاف ذلك^(٤)

و في اليوم التالي من عدوان النظام العراقي على الاراضي الايرانية وضح الإمام الخميني - و من خلال بيان خاطب فيه الشعب الايراني المسلم - الخطوط العامة لكيفية ادارة الحرب و أمور البلاد في ظروف الحرب، و لخصّ ذلك في سبعة

﴿

- يصل الى هذا المقام حتى تكون صفاته و افعاله فانية في صفات و افعال الحقّ، و في هذا المقام يحصل له مقام «الفناء من الفناء» الذي يشمل مقام اخفاء الفناء.
- ٣- كتاب «الاسفار الاربعة» احد مؤلّفات صدر المتألّهين الشيرازي، و يقسم فيه سماحته مسائل الفلسفة باعتبارها (الفكر) نوعاً من السلوك المختصّ بالذهن، الى اربعة اقسام:
- (١) السفر من الخلق الى الحقّ: و يشمل الامور التي تعدّ أساساً و مقدمة لبحث التوحيد و في الحقيقة سير الفكر البشري.
- (٢) السير بالحق في الحقّ: و يشمل مباحث التوحيد و معرفة الله و صفاته.
- (٣) السير من الحق الى الخلق بالحق: و يشمل مباحث الأفعال الالهية.
- (٤) السير في الخلق بالحق: يشمل مباحث النفس و المعاد. و هو من أشهر كتبه و اكثرها تداولاً في الحوزات العلمية.

بنود قصيره غاية في الجمع و الدقة^(١) ثم اصدر بعد ذلك عدّة بيانات وجهها الى الجيش البعثي و الشعب العراقي لاتمام الحجة عليهما^(٢). ثمّ شرع بادارة و توجيه امر الدفاع المعقد لمُدّة ثمانية اعوام و باسلوبٍ قلّ نظيره.

في الايام الأولى من الحرب، توجّه عشرات الآلاف من ابناء الشعب الى جبهات الحرب متطوعين - و استجابة لبيان الإمام - لمساعدة القوات المسلحة، و تمّ في المرحلة الاولى ايقاف تقدّم العدو، و ذلك بالتضحيات العالية للمقاتلين المسلمين و كان القتال غير متكافي بشكل كبير بيد أنّ الإمام الخميني استند كعادته على الله و المؤمنين به فراح و عبر البيانات و الخطابات المتوالية - يهَيء الامّة لحرب طويلة و عصبية، فقد كان سماحته يعتقد - مستنداً في ذلك الى الآيات القرآنية الواضحة بوجود الدفاع حتى ازالة العدوان و معاقبة المعتدى.

بعد عدّة ايام من بداية الحرب خاطب الإمام الخميني سفراء الدول الاسلامية المقيمين في طهران بالقول: «أنا مدافعون عن الإسلام، و المدافعون عن الإسلام يقدمون لأجل ذلك ارواحهم و اموالهم و اعزائهم و لن يتراجعوا عن ذلك أبداً»^(٣) في هذا اللقاء - و في مناسبات اخرى و من خلال رسائل خطية و بيانات رسمية - طالب الإمام الخميني قادة الدول الإسلامية ان يعملوا - و ان كانوا يرون انّ صدام رجلاً مسلماً - بحكم الآية القرآنية «و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله»^(٤)

«مع الأسف الشديد لم يعمل قادة الدّول الإسلاميّة بمفاد الآية الكريمة على اثر ضغط القوى الخارجيّة و الداخليّة حتى ضاغت القوات الإسلاميّة سيحكم الله تعالى في حقهم و هو احكم الحاكمين».

١- صحيفة النورج ١٢ ص ٩٤.

٢- صحيفة النورج ١٣ الصفحات ٩٥ - ١٢٠.

٣- صحيفة النورج ١٣ ص ١٢٣ - ١٢٩، حديث الإمام في جمع من سفراء الدّول الإسلاميّة و لقائه مع

الحبيب الشطّيء الامين العام للمؤتمر الاسلامي.

٤- سورة الحجرات - الآية ٨.

الدِّفاع عن النَّبِيِّ الأكرم(ص) و القيم الدينيَّة:

بعد توقّف الحرب بين العراق و ايران، بدأ القادة السياسيّون الغربيون نوعاً جديداً من الهجوم على الإسلام الثوري. لقد ادرك هؤلاء الساسة - و من خلال الحرب العراقية الايرانية و المواجهة التي وقعت بينه و بين حزب الله لبنان، و من نشوء المنظّمات الفلسطينية الإسلاميّة و الجهاد الإسلامي للافغان، و من عملية اغتيال السادات على أيدي المسلمين الثوريين المصريين في (٦/١٠/١٩٨١) بأنّ الحركة الإسلاميّة متنامية، و أنّه لا يمكن القضاء عليها بالسلاح و بالاسلوب العسكري. لذا فقد لجأوا الى فتح جبهة جديدة يتم فيها الصراع على اساس روجي و ثقافي و ايدولوجي. و لما كان بثّ الفرقة بين المسلمين على اساس مذهبي و طائفي فقد قدرته نتيجة لوعى الإمام الخميني و مسؤولي النظام الإسلامي. توجه هؤلاء لضرب الجذور و الاسس الاساسية المحركة لهذا التيار، و هي الاهداف الاساليب بين مختلف إتجاهات الحركة الإسلاميّة. فكان تنظيم و نشر الكتاب المبتذل «الآيات الشيطانية» لمؤلفه (سلمان رشدي المنافق) و الدعم الرسمي للدول الغربية له، بداية لفصل جديد من الهجوم الثقافي.

و لو انّ الأمة الإسلاميّة لم تبد اية مقاومة ازاء ما جرى من المساس بشخصية الرسول الأكرم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لنم بعد ذلك الهجوم على الأسس الدينيّة و المقدّسات و الاعتقادات بما وراء الطبيعة و سائر القيم المعنوية في المجتمعات الإسلاميّة بمختلف الاساليب. إنّ هويّة التفكّر الديني و الهويّة التي توحد الأمة الإسلاميّة إنّما تتشكل من هذه المقدّسات و انّ التشكيك به يؤدّي الى تضييع الهويّة الذاتية للعالم الإسلامي و الحركات الاسلاميّة و يجردها من أيّ سلاح في مقابل الهجوم الثقافي و الايدولوجي من قبل الغرب.

و استناداً الى الحقائق و الأسباب التي ذكرناها، أصدر الإمام الخميني في ١٤/٢/١٩٨٩ حكماً مختصراً اعلن فيه ارتداد (سلمان رشدي) و حكم عليه بالإعدام هو و من ينشر كتابه اذا كان مطلعاً على محتوى الكتاب من الأمور المؤدّبة

الى الكفر^(١)

بذا فقد أشعل الإمام فتيل ثورة جديدة فوحد المسلمون صفوفهم بصرف النظر عن مذاهبهم و ألسنتهم و بلدانهم للوقوف بوجه الغرب، و قد أظهرت النتائج - التي ترتبت على هذه الواقعة - المجتمع الإسلامي على أنه أمة واحدة، و أنّ المسلمين - رغم إختلافاتهم الداخلية و الجزئية - متى ما توقرت لهم القيادة الصحيحة إستطاعوا ان يقوموا و باعتبارهم رؤاداً - بدور فاعلٍ في حركة احياء القيم الدينية في مستقبل العالم. كذلك فإن إصدار هذا الحكم بدد التصورات الغربية الموهومة حول تخليّ إيران عن اهدافها الإسلامية الثورية بمجرد قبولها بالقرار(٥٩٨).

لبنان و جنوبه:

انّ عدم اكتراث الدول الإسلامية امام الاعتداءات الإسرائيلية على جنوب لبنان و الجرائم التي ارتكبتها الصهاينة في ذلك البلد، و المواجهة القاسية للمسلمين المنتفضين في الاراضى الفلسطينية المحتلة و أسوأ من ذلك كلّهُ، توجه الدول العربية نحو إقامة - ما يسمى - بالسلام مع اسرائيل و الكفّ عن السعى لتحرير القدس، كانت تمثّل كلها معاناة تُدمى قلب عجوز جماران. لقد اطلق سماحته صيحته - منذ شروعه بالنهضة من أجل تحرير الأراضى الإسلامية من قبضة الصهاينة - بوجه اسرائيل و حاميتها الأول (امريكا) و من أجل ذلك بالذات تمّ نفيه الى خارج بلاده مدّة اربعة عشر عاماً. كذلك فانه و خلال فترة ما بعد انتصار الثورة الإسلامية لم يأل جهداً و لم يدّخر وسعاً في تقديم الدعم المادى و المعنوى لتحقيق ذلك الهدف.

و اليوم يرى بأنّ الدول الإسلامية و قادة المنظمات الفلسطينية يهيوون انفسهم للامضاء على سند الإستسلام في وقت تغيّرت فيه الظروف لغير صالح أمريكا و اسرائيل نتيجة تنامي تيار الصحوة الإسلامية بين الشبان الفلسطينيين و في

مختلف أنحاء العالم الإسلامي. و هذه أمور كانت تترك اسوأ الآثار على روحية الإمام. و لاشك أنه في السنوات الأخيرة من عمره كان يخصص السهم الأوفر مناجاته الليلية الشكوى لله من تلك الأمور و الدعاء من أجل اصلاحها.

كما أشرنا سابقاً فإنّ بيانات و خطابات الإمام الخميني خلال السنوات الاخيرة من عمره تختلف عما كانت عليه في السابق. الأمر الذي يعبر عن سعة افقه و عمق احساسه بالمسؤولية عن الفترة التي ستلي فترة وجوده، فخلافاً لبياناته و احاديثه في المراحل السابقة - و التي كانت تركّز اساساً على توجيه الجماهير و المسؤولين فيما يتعلّق بالإحداث الجارية و المواقف المناسبة أمام الابتلائات التي تتعرّض لها البلاد و العالم الاسلامي - فإنّ بياناته في السنوات الأخيرة من عمره كانت عبارة عن تلخيص و جمع للاحداث السابقة و الحالية، و ترسيم ابعاد المستقبل، و بيان تكاليف عموم المسلمين في قبال المسؤوليات المستقبلية و بنحوٍ اشدّ وضوحاً من السابق.

و بعبارة أخرى فإنّ الإمام الخميني كان يشعر بقرب الرّحيل، عليه فإنه سعى في السنوات الاخيرة من عمره الشريف الى التذكير بمجموعة القيم و المثل و الاهداف التي شكّلت الاساس لانطلاق الثورة، و ترسيم و توضيح الأولويات للنظام الجمهوري الاسلامي و الثورة الإسلامية العالمية على اساس هذه القيم و الاهداف. لقد سعى الإمام الخميني من خلال هذه البيانات - و بطرح تقييمه عن مجمل العناصر الموجودة في المجتمع الإيراني و العالم الإسلامي، و كذلك تحليلاته عن الانظمة الحاكمة للعالم المعاصر - لتوضيح الطريق امام انتخاب و اختيار اللاحقين، و تبين تكليف كل شريحة ازاء الظروف المستقبلية و في حال عدم وجوده.

و قبل عدّة سنوات من رحيله و بتاريخ ١٥ شباط ١٩٨٣ كتب الإمام الخميني وصيته السياسية الإلهية مستنداً الى هذا المبنى و معتمداً على هذا الدافع^(١).

١- قامت مؤسسة تنظيم و نشر تراث الإمام الخميني (س) و لحد الان طبع الوصية الإلهية السياسية للإمام الخميني تحت عنوان (النداء الاخير) مع توضيحات و فهارس بأكثر من عشرة لغات منها، العربية،
لل

و هذه الوصية التي طبعت و نشرت الى الآن بمختلف اللغات تعدُّ بمثابة بيان الإمام الخالد المتضمّن اصول فكره و اهدافه و ارشاداته الخالدة لأنصاره و محبّيه. و كتابة و صيته على هذا المستوى و بهذه الأبعاد عملٌ لم يسبق له مثيل بين فقهاء الشيعة و مراجع التقليد، و دليل على عمق إطلاع الإمام على الحاجات الحالية و الآتية للمجتمعات الإسلاميّة، و على شدّة احساسه بالمسؤوليّة في هذا الاطار.

انّ بيانات الإمام الخميني الاخيرة، هي في الحقيقة شرح و تفسير منه للقيم التي دافع عنها في وصيّته و الامور السياسية التي طرحها فيها.

من جملة الخصائص التي تميّزت بها بيانات الإمام في أواخر عمره، تأكيدُه على ضرورة ألغاف المسلمين إلى نوعين متضاربين من الفكر الديني و الاسلامي، فهو و استناداً للشواهد التاريخية العديدة - يعتقد بأنّ الإسلام و سائر الاديان الإلهيّة - و منذ سحيق الزمان و حتّى اليوم عرضت بصورتين متضادّتين تماماً. فمن جانبٍ كان الدّين و الإسلام المحرّف الذي إستغلّه الظّالمون و المستعمرون و الذي ابتدعه المتحجرون و القشريّون من رجال الدّين الكاذبين، و من جانب آخر كان الدين و الإسلام الحقيقي الذي حفظ و انتشل من احضان الخرافات و الشعبدات بدماء المجاهدين و المساعي الحثيثة لعلماء الدين الملتزمين طوال التاريخ و بدأ فإنّ أحد اسرار موفّقيه الإمام الخميني في قدرته على تحريك الأمّة الإسلاميّة انما يتمثّل في قدرته على بيان هذا التّضاد المستمرّ بين هذين النوعين و خصائص كلّ واحدٍ منهما.

و الإمام الخميني يعتقد بأنّ عدم الالتفات و الإطلاع على هذه الحقيقة التاريخية، هو الذي ادّى الى نزول الاستعمار و إستقراره في البلدان الإسلاميّة، و ابتعاد المسلمين عن عصور الحضّر و الثقافة اللامعة التي كانوا عليها. و بالنتيجة الى



الاردو، الانجليزيّة، الفرنسيّة، الالمانيّة، الروسيّة، التركيّة، و الآذرية... و غيرها. كما قامت بطبع النسخة الفارسيّة مقرونة بفهارس موضوعيه و صورة عن النسخة الخطيّة تحت عنوان: دراسة موضوعيّة للوصيّة السياسيّة الإلهيّة للإمام الخميني (س).

ظهور هذه الوضعية الحالية، حيث نرى و للاسف انّ الحكومات الإسلامية - التي رفع اسلافها شعار «الإسلام يعلو و لا يُعلَى عليه» و «لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا»^(١) تستجدي اليوم - من أجل مواصلة حياتها و الحفاظ على حدودها - أعداء الإسلام من الكفار و المشركين.

و قد عبّر سماحته عن تيارى الفكر الدينى و الإسلامى المتضادين و بعبارتى «الإسلام الاصيل» و «الإسلام الأمريكى» فهو يرى بأنّ الإسلام الذى تُهمَل احكامه القرآنية المسلّمة و سنّة نبيّه الأكرم (ﷺ) فيما يتعلّق بالمسؤوليات الإجتماعيّة، الإسلام الذى تترك منه ابواب الجهاد و الامر بالمعروف و النهى عن المنكر و العدالة الإسلاميّة و الاحكام المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية و الإقتصادية فى المجتمع الإسلامى، الإسلام الذى يبعد المسلمين عن المشاركة فى السّياسة و فى تقرير مصيرهم، و يرى أنّ الذين يتلخّص فى مجموعة من الاذكار و العبادات الفردية الخالية من الفلسفة و الروح الحقيقيّة، هو اسلام من صناعة و ابداع امريكا و من يدور فى فلكتها.

سماحة الإمام يستند فى تحليله هذا، على ظواهر تاريخيّة و شواهد دامغة مستلهمة من الوضع الذى كانت عليه البلدان الإسلاميّة. فسماحته يعتقد بأنّ الإستعمار الحديث هو نتاج لمساعى المستعمرين السابقين. فأولئك سعوا لتغيير دين الجماهير المسلّمة عن طريق المبشّرين المسيحيين و لمّا فشلوا فى ذلك حوّلوا مساعيهم منذ ذلك الزمان و حتى الآن لتنصب على ابطال مفعول الاحكام الإسلاميّة الساميّة و افقاد الدين اثره من الداخل. و نتيجة ذلك جلية للغاية، فجميع البلدان الإسلاميّة اليوم تعتمد فى إنظمتها و قوانينها الموضوعة و اساليبها فى القضاء و فى هيكل النظام الحكومى و القوانين و الأساليب الملحدة للغرب، و التي تتعارض فى ماهيتها مع القوانين المستندة الى الوحي.

إنّ الإسلام الأمريكى هو الذى يتيح للثقافة الغربية و مفسدها و تحللها ان تنفذ الى عمق المجتمعات الاسلاميّة و يهلك الحرث و النسل. الإسلام الأمريكى هو

الذي فسح المجال للحكومات العميلة للاجانب ان تمارس سلطانها على المسلمين وتقف وباسم الإسلام - في مواجهة المسلمين الحقيقيين، وتمدّ في الوقت ذاته - يد الصلح والسلام و الصداقة الى إسرائيل و أمريكا، أعداء الإسلام.

لقد اكّد الإمام الخميني من خلال بياناته الاخيرة على حقيقة ان الطريق الوحيد لإنقاذ البشر من مشكلاته الحالية هو العودة الى عنصر الدين و الاعتقاد الديني، و انّ السبيل الاوحد لتحرير البلدان الإسلامية من وضعها الحالي المخزى، هو عودتهم الى الإسلام و إلى هويّتهم الاسلامية المستقلّة.

اعتقادات الإمام الخميني و اهدافه و تطلّعاته

بعد ان وصلنا في هذه المقالة الى الأيّام الاخيرة من عمر سماحة الإمام الخميني، لايفوتنا أن نلقى نظرة عابرة على أهمّ جوانب فكره و اهدافه.

بديهى ان من اللازم - لتكوين صورة واضحة و كاملة عن مبادئ الإمام الخميني الاعتقادية و اهدافه - مطالعة جميع الآثار الخطيّة و غير الخطية التي أثرت عن هذا الرجل العظيم و دراسة سيرته العملية بدقّة، الأمر الذي لايتيسر في هذه العجالة.

الإمام الخميني شيعيّ المذهب، يعتقد بشدّة بوحدة الأمة الإسلامية (بغض النظر عن توجّهاتهم المذهبية) في مقابل المستعمرين و اعداء الإسلام. فالدعوة الى الوحدة تمثّل جانباً مهماً من بياناته و خطاباته، و هو لايجوّز أيّة حركة تودّي الى زرع الفرقة في صفوف المسلمين و تمهّد الطريق امام المستعمرين المستغلّين لتحقيق هيمنتهم. لقد وضح سماحته. و من خلال دعمه لإعلان اسبوع الوحدة بين المسلمين و ذلك في ذكرى ولادة النبي الاكرم - و اصدار البيانات المتواصلة - الطرق العملية لتحقيق الوحدة بين الشيعة و السنة و منها لزوم الصلّة الجماعة في مواسم الحجّ حول الكعبة النقطة الأساسي للوحدة و قد اصرّ على مواجهة كل ما يؤدى الى التفرقة و الجدل بين الشيعة و السنة طوال مدة زعامته.

كان سماحته يعتقد بأن الايمان بالله الواحد. و الاعتقاد برسالة خاتم

الانبياء (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) و الايمان بالقرآن المجيد - على أنه صحيفة الهداية الأبدية - و الاعتقاد بالضروريات و الشعائر و الاحكام الدينية كالصلاة و الصوم و الزكاة و الحج و الجهاد، تعتبر كلها محاور عملية ثابتة تتلّف حولها جميع المذاهب الإسلامية في مقابل المشركين و اعداء الدين.

إنّ النهضة الإصلاحية للإمام الخميني و بياناته لم تتحدّد بالمجتمع الإيراني و سائر المجتمعات الإسلامية فهو يعتقد بأنّ الفطرة البشرية لجميع الناس أنما خلقت على اساس الدوران حول محور التوحيد و الخير و البحث عن الحقيقة و العدالة، و لو أنّ المعرفة البشرية العامة تنامت و تمت السيطرة على شيطان النفس الأمّارة و تمّ تضعيف شياطين الخارج، فإنّ آحاد المجتمع البشرى سيتوجّهون نحو الله و الحياة في محيط مليء بالعدالة و السلام.

على هذا الاساس فإنّ الإمام الخميني دعا - و في اغلب بياناته - المستضعفين و الشعوب الأسيرة في بلدان العالم الثالث الى القيام بوجه المستكبرين. و قد دعا في الأيام الاولى من انتصار الثورة الإسلامية و بصراحة الى فكرة اقامة حزب عالمي للمستضعفين و دافع عن هذه الفكرة. كما أنّ أوّل مؤتمرات العالمية التي ضمّت الحركات التحريرية اقيم لأول مرّة خلال عهد زعامة الإمام الخميني في ايران.

لقد أكد الإمام الخميني مراراً على أنّ الثورة الإسلامية أنما تعادى الاهداف التسلطية لقادة و حكومات امريكا و الغرب و الاتحاد السوفيتي (السابق) لاشعوب تلك البلدان - التي وقعت هي بذاتها ضحية للاستعمار الجديد - إنّ شعار الإمام الخميني هو مواجهة الظالم و الدفاع عن المظلوم، يقول سماحته «لا نظلم و لا نرضخ لظلم الاخرين»^(١).

و لعل من الأفضل ان نقل هنا اهمّ المبادئ الاعتقادية للإمام الخميني بالتّص من خلال نقل جواب سماحته على سؤال ممثّل صحيفة التايمز البريطانية، يقول سماحته: «إنّ اعتقادي إنّنا و جميع المسلمين إنّما يدور حول نفس تلك

المسائل التي أوردتها القرآن الكريم، أو التي أوضحها نبي الإسلام (ص) و أئمة الحق من بعده، و أن اساس و أصل جميع تلك العقائد - و الذي يعتبر أهم و اسمى اعتقاداتنا - هو اصل التوحيد، و استناداً لهذا الاصل فإننا نعتقد بأن خالق العالم و جميع عوالم الوجود و الإنسان، هو الله تبارك و تعالی، المطلع على جميع الحقائق و القادر على كل شيء و مالك كل شيء و هذا الاصل يعلمنا بأن على الإنسان ان يسلم فقط امام ذات الله المقدسة، و أن يبدى الطاعة لايّ إنسان آخر الا اذا كانت طاعته استمراراً لطاعة الله. على هذا الاساس فلا يحقّ لايّ إنسان أن يفرض على الآخرين التسليم له و من هذا الاصل الاعتقادي، نتعلم اصل حرّية البشر، و ان لا حقّ لأيّ انسان ان يسلب إنساناً آخر أو مجتمعاً أو شعباً حقهم بالحرّية، أو ان يضع لهم قانوناً يقوم بتنظيم سلوكهم و علاقاتهم استناداً الى رغباته و ميوله، استناداً لهذا الاصل فإننا نعتقد أيضاً بأن وضع القوانين لتطوير الحياة هو من اختصاص الباري جلّ و علا، كما انّ قوانين الوجود و الخلق من اختصاصه هو تعالی و انّ سعادة الانسان و المجتمعات و كمالها، يمكن فقط في طاعة القوانين الالهية التي تمّ ايصالها إلى البشر عن طريق الأنبياء، و إنّ الإنحطاط و السقوط اللذين يعانى منهما البشر أنّما هما بسبب مصادرة الحرّيات و الإستسلام امام بعض الافراد عليه فإنّ على الانسان ان يثور على هذه القيود و السلاسل المقيّدة، و على الآخرين الذين يدعونه للاستسلام للأسر و ان يسعى لتحرير نفسه و مجتمعه ليكون الجميع عبيداً لله و من هذا المبدأ تنشأ مقرّراتنا الاجتماعية ضدّ القوى المستبدة والاستعمارية. و من هذه الاصل الاعتقادي (التوحيد) فإننا نستلهم المساواة بين جميع بني البشر أمام الله، فهو خالق الجميع، وجميع مخلوقون له و عبيده. الاصل تساوي البشر و ما يميّز فردا عن فرد - كقاعدة و معيار - انما هو التقوى و الابتعاد عن الانحراف و الخطأ عليه ينبغي الوقوف بوجه كلّما يُراد به تخريب المساواة الإجتماعية و تحكيم الإمتيازات المزيفة و الفارغة على المجتمع»

يقول الإمام الخميني «المعيار في الإسلام، رضا الله لارضا الأشخاص، و نحن أنّما نقيس الأشخاص على الحقّ، لا الحق على الاشخاص. المعيار هو الحقّ و الحقيقة»^(١)

إنّ الإمام الخميني يعتقد بأنّ الفطرة الإنسانيّة مخمّرة في عشق الكمال المطلق المنحصر بالحقّ تعالى، و هو تعالى منشأ جميع الكمالات و القدرات. كان الإمام الخميني يذكّر انصاره دوماً بأنّ «العالم محضر الله، فلا تعصوا الله محضره»^(٢) «لاتخشوا ايّ احد إلّا الله، و لاتعتقدوا الآمال على أيّ احد سوى الله»^(٣)

ان الإمام الخميني يرى بأنّ الهدف من بعثة الانبياء يتمثل في هداية البشر نحو معرفة الله و تحويل طلب الكمال من القوة الى الفعل، و ازالة الظلمات و اصلاح المجتمعات و ايجاد القسط و العدالة.

يقول سماحته: «انّ بعثة الأنبياء أنّما تهدف إلى انقاذ اخلاق النّاس، نفوسهم، ارواحهم، و اجسامهم من الظلمات، و ازالة الظلمات و استبدالها بالنور»^(٤)

و يقول: «لانور سوى الحقّ تعالى، الجميع ظلمات»^(٥)

الإمام الخميني يرى بأنّ الإسلام خاتم الأديان الإلهيّة و أنّه يمثّل اسمى و اشمل العقائد الهادية، يقول سماحته مؤكّداً: «انّ الإسلام على قمّة هرم الحضارة» و «انّ النظام الحقوقي في الإسلام ارقى و أكمل و أشمل الانظمة الحقوقية»^(٦) «في الإسلام قانون واحد و هو القانونى الإلهي»^(٧) أنّه يرى بأنّ

١- الكلمات القصار ص ٢٥.

٢- الكلمات القصار ص ٢١.

٣- الكلمات القصار ص ١٨.

٤- الكلمات القصار ص ٢٢.

٥- الكلمات القصار ص ١٧.

٦- الكلمات القصار ص ٢٥.

٧- الكلمات القصار ص ٢٥.

الإسلام دين العبادة و السياسة، يقول سماحته «كان الإسلام من مؤسسى الحضارة الكبرى في العالم»^(١) كان سماحته يوصى أتباعه بالقول: «إياكم و الخلط بين القرآن المقدّس و عقيدة الإسلام المنجية بالعقائد الخاطئة المنحرفة، التي ابتدعها الفكر البشرى»^(٢) و يقول «إنّ مشكلة المسلمين الكبرى تكمن في تركهم القرآن الكريم و سعيهم للانظواء تحت مظلة عقائد الآخرين»^(٣) و يقول: «إنّ التشيع - و هو العقيدة الثوريّة، والإمتداد للإسلام المحمّدى الأصيل - كان كما هو الحال مع الشيعة - هدفاً لحملات المستبدين و المستعمرين الغادرة»^(٤).

لقد أكّد سماحته مراراً حينما تحدّث عن هدفه من نهضته و عن الباعث عليها بالقول: «أنّ أقصى ما نهدف اليه هو الإسلام»^(٥). فالإمام الخميني يرى بأنّ الثورة الإسلامية شعاع من الثّورة الحسينية الخالدة التي انطلقت في عاشوراء لانقاذ الدين من قبضة المجرمين الظالمين، فهو يعتقد «ان الإسلام لم ينزل من اجل قوم خاصين، و ليس لديه فرق بين التّرك أو الفرس أو العرب أو العجم، الإسلام للجميع و لاقيمة أو امتياز في نظامه للجنس أو اللون أو القبيلة أو اللغة»^(٦) «الجميع إخوة متكافئون، فالكرامة فقط و فقط في إطار التقوى، و التّمايز انما يتم اساس الأخلاق الفاضلة و الاعمال الصالحة»^(٧)

الإمام الخميني يسمّى الشهادة في سبيل الله عزّاً ابدياً و فخر الأولياء، و مفاتيح السّعادة، و رمز النّصر، و يرى أنّ الإندفاع نحو الشهادة أنما ينتج عن عشق الله، و يقول حول قيمة الشّهادة وماهيّته «ما أشدّ غفلة عبّاد الدّنيا و السّائرين

١- الكلمات القصار ص ٣٥.

٢- الكلمات القصار ص ٤٣.

٣- الكلمات القصار ص ٤٤.

٤- الكلمات القصار ص ٤٦.

٥- الكلمات القصار ص ٣٥.

٦- الكلمات القصار ص ٢٦.

٧- الكلمات القصار ص ٧١.

الذين يبحثون عن قيمة الشهادة ومعناها في صحائف الطبيعة، وعن وصفها في الأناشيد والملاحم والقصائد ويستجدون لكشفها في التخيل وكتاب التعقل والحال انّ حلّ هذا اللغز لا يتيسر إلاّ بالعشق»^(١)

العارف بمعارف الله

عرفان الإمام الخميني يقوم على الآيات القرآنية وأحاديث أئمة الدين و تعاليم أولياء الله في إطار الشرع الإسلامي المطهر. كان سماحته يعارض بشدة التصوّف السليبي الذي يروج بأنّ الدين والعقيدة منحصران في الذكّر والاوراد، و الذي يدعو إلى الاعتزال والتخلّي عن أداء المسؤوليات السّياسية والاجتماعية. و هو يرى بأنّ معرفة النفس أساس لمعرفة الله، وأن تهذيب نفوس البشر من الرذائل و المفسدات الاخلاقية و السعى في اكتساب الفضائل شرط اساس لنيل معرفة الحقّ كما انّ بلوغ المعرفة الحقيقية و المقامات المعنوية السامية لا يتحقق إلا بطيّي الطريق التي طواها و علّمنا آياه الانبياء العظام و حجج الله في أرضنا هذه.

بناءً عليه فإنّ الإمام الخميني لا يجوز الاساليب و الرياضات الخارجة عن إطار الشرع المنور و الأوامر الالهية، كما أنّه يتنفّر من القشريّة و التّظاهر بالقدسية و المرئيات بالعرفان.

كان الإمام الخميني يعتقد بأنّ الإستمداد - خلال الجهاد الاكبر المحفوف بالمخاطر، و السير و السلوك، في وادي الأسفار الاربعة - ينبغي ان ينظر الى المرشدين الحقيقيين و أصحاب الكشف و الكرامة الحقيقيين، لا المدّعين الكاذبين المحترفين لهذا الامر، كما أنه ينبغي ان يرتبط بالولاية العظيمة التي تمثل سفينة النجاة، فكلّ ما يبلغه الإنسان عن غير هذا الطريق هو ضلال في ضلال، و نفس الإمام المهذب و روحه المتساوية و تخطيه للمراحل العملية للسير و السلوك المعنوي بموقفية ظاهرة، تعدّ بذاتها أفضل شاهد على حقانيّة نهجه.

لقد بلغ الإمام الخميني في هذا المسير مرتبة من المقامات المعنوية و الإدراك

الشهودى، و كان فانياً في الله حتى إنه كان يناله ما يناله من الإضطراب في مقابل أداء الحلاجين بـ «أنا الحق» لامن حيث ما كان يتتهمهم به السذج من الغرباء عن العرفان - و تكفيرهم إياهم، و لكن من حيث أنهم يرون في الوجود ما هو غير الحق و يدعون «الانبيّة» وجود الواسطة، في حين أنّ الإمام يرى بأن الحق تعالى وحده هو التور، و ان كان ما عداه ظلمة و الظلمة هي عدم التور، و العدم ليس بوجود، و أنّ الوجود هو تجلّي الحق و لاشيء سواه.

كان الإمام الخميني و علاوة على تعمّقه في الفلسفة و العرفان و التفسير و الأخلاق و علم الكلام الإسلامي، مجتهداً بارزاً في الفقه و الاصول، فقد درس الفقه و الاصول على أعلى مستوياتها أكثر من ثلاثين عاماً. و الآن، فإنّ هناك - و فضلاً عن الكتب الفقهية و الأصولية التي ألفها سماحته العشرات من تقريرات طلابه لدورات درسه.

من الخصائص التي تميّزت بها مدرسة الإمام الفقهية، رؤيته أصالة خاصة للفقّه و الاصول و تجنّبه خلط الاستنتاجات الكلامية و الفلسفية و العرفانية مع الأحكام الفقهية في مرحلة إستنباط الأحكام.

كان سماحته يرى بأنّ تحرّك الفقه و الاصول و تطوّرهما ضرورة لازمة في البحث الاجتهادي، و ان لعنصرى الزمان و المكان دور حيوى هامّ في الاجتهاد، و ان عدم أخذهما بنظر الإعتبار سيؤدّي الى العجز عن درك المسائل المستحدثة و الحاجات المعاصرة و يحول دون تقديم الأجوبة المناسبة لها. كذلك فإنّه كان يعتقد بأنّ تحرّك الفقه و تطوّر له ليس بمعنى عدم الثبات في أسلوب الاستنباط و الاجتهاد المتعارف. و بناءً عليه فقد كان سماحته يؤكّد في توصياته الى الحوزات العلمية على ضرورة الإستناد الى الفقه التقليدي، بمعنى حفظ اساليب و مناهج السلف الصالح في إستنباط الأحكام، و أنّ تخطّيها يعتبر آفة و خطر عظيم، يمهد السبيل لظهور البدع^(١).

١- ن.ك: بيان الإمام الخميني وجهة الى العلماء و الحوزات العلمية بتاريخ ١٩٨٨/٤/٢٣ و الذي عُرف
لله

اصلاح الحوزات العلمية

و سماحته يريد إصلاح الحوزات العلميّة و تطويرها في هذا الأطار، و قد كان سماحته من السياسيين في هذا المضمار. فقد مهّد سماحته الطّريق - و من خلال إصداره للفتاوى الثّورية - إمام تغيير الزاوية التي ينظر منها المجتهدون و توجيهها نحو سعة المسائل الحياتيّة و الأساسيّة للمجتمع، و اثبت من خلال - احيائه للأبواب المنسيّة في الفقه - أهمية عنصر الزمان و المكان في الاجتهاد^(١). يقول سماحته «إنّ الحكومة بنظر المجتهد الحقيقي، تعبير عن فلسفة أعمال جميع الفقه في مختلف زوايا الحياة البشريّة. و الحكومة دليل على الجنبه العلميّة للفقه في تعامله مع جميع المعضلات الاجتماعيّة و السياسيّة و العسكريّة و الثقافيّة، فالفقه نظريّة واقعيّة و كاملة لإدارة حياة الإنسان من المهد الى اللحد»^(٢)

و على أساس هذه النظرة، طرح الإمام الخميني نظرتّه المتمثّلة في «اقامة الحكومة الإسلاميّة على أساس ولاية الفقيه في زمن الغيبة» و جاهد من أجل تحقيقها سنوات طوال. و رغم أن نظريّة ولاية الفقيه - بغضّ النظر عن اختلاف الآراء في حدود صلاحيّات الولي الفقيه - عموماً، تعتبر أمراً اتّفقت عليه آراء فقهاء الشيعة، الا ان ابعادها لم تتعرّض للبحث و لم تتح لها الفرصة للتحقيق العلمي نتيجة عدم توقّر الظروف المناسبة في الماضي و عليه فإنّ الإمام الخميني يعدّ أوّل فقيه نجح بعد قرون في تشكيل الحكومة الدينيّة المبنية على أساس قيادة المجتهد الجامع للشروط، التي من جملتها: التّهذيب و صيانة النفس، التدبير و القدرة على ادارة المجتمع، الشجاعة و العدالة و المعرفة العاليية و الاجتهاد في الاحكام الإلهية يقول سماحته «إنّ الحكومة الإسلاميّة هي حكومة القانون الإلهي على

﴿

فيما بعد بـ «بيان العلماء» و قد نشره الكامل في كتاب مستقل تحت نفس العنوان سنة ١٩٩٠م.

راجع ايضاً صحيفة النور ج ٢١ ص ٨٨.

١- المصدر السابق

٢- المصدر السابق.

النَّاس»^(١)**يوم القدس:**

بعد انتصار الثورة الإسلامية أعلن الإمام الخميني آخر جمعة من شهر رمضان المبارك كلَّ عام يوماً عالمياً للقدس، و طالب جميع المسلمين بتنظيم المظاهرات و الاعلان عن تضامنهم مع المجاهدين الفلسطينيين في ذلك اليوم من كلَّ عام ما دامت القدس رازحة في قيود أعداء الإسلام.

إنَّ الإمام الخميني يعتقد بأنَّ الطريق الوحيد لتحرير القدس و القضاء التامَّ على إسرائيل يتمثل في الإيمان بالله و الاعتقاد بعقيدة الشَّهادة و الجهاد المسلَّح.

يقول الإمام الخميني حول الشيوعية: «منذ بدء ظهور الشيوعيَّة، كان مدَّعوها هم اشدُّ الحكومات استبداداً و تسلُّطاً في العالم»^(٢) و قال حول التقدُّم الغربي: «أنا نقبل الَّذي حقَّقه الغرب، و لكننا نرفض الفساد الغربي الَّذي يأنون هم انفسهم من آثاره المخربة»^(٣) «ان التربية الغربية تجرِّد الانسان من انسانيَّة»^(٤) «أنا لانعارض التحضُّر، انما نعارض التحضُّر المستورد»^(٥) «أنا نريد حضارة تقوم على أساس العزَّة و الإنسانيَّة»^(٦).

اكذَّ الإمام مراراً على الدور الاساسي للثقافة، فقال «الثقافة هي الأساس الَّذي تعتمد عليه سعادة ايِّ شعب أو شقائه... انَّ ما يبني الشُّعوب هو الثقافة الصَّحيحة»^(٧) «إنَّ حالة الشعب الحيواني ليست هي الملاك، المهمَّ كرامة

١- الكلمات القصار ص ١١٧.

٢- الكلمات القصار ص ١٥٩.

٣- الكلمات القصار ص ١٥٨.

٤- الكلمات القصار ص ١٥٨.

٥- الكلمات القصار ص ١٧٦.

٦- الكلمات القصار ص ١٧٦.

٧- الكلمات القصار ص ١٧٥.

الانسان»^(١) «ما دام البشر يريدون مواصلة حياتهم تحت ظل السلاح، فإنهم لن يتمكنوا من أن يصبحوا أناساً بمعنى الكلمة، و لن يتمكنوا من بلوغ الاهداف الانسانية»^(٢) «لتبذلوا مساعيكم لإستبدال الأسلحة بالبيان و القلم، و اجعلوا الميدان ميدان صراح بالاقلام و العلوم و الفكر»^(٣).

الإمام الخميني يرى بأنّ الفنّ المسخر لخدمة الاستعمار و الاستغلال و «الفنّ من أجل الفن» امرٌ سلبيّ يفتقد الى أيّة قيمة، يقول سماحته: «انّ الفن في العرفان الاسلامي هو ترسيم واضح للعدالة و العزّة و الانصاف، و تجسيم لمرارة الجوع التي يعاني المفضوب عليهم من قبل اصحاب القدرة و المال»^(٤).

كان الإمام الخميني أستاذاً نموذجاً في مجال التّعليم و التّربية سواء في المجال التّظري أم العلمي. فقد تمكّن باساليبه التربوية من النجاح في دفع مجتمعه الى الإنسجام في نهضة دينية كبرى رغم أنّه كان - و نتيجة لجرائم العائلة البهلوية الخائنة و عملاء الفكر الغربي - قد جُرّ نحو ثقافة و قيم منحلّة، و روّض على عدم الاكتراث.

الإمام و المرأة المسلمة:

أحد أهمّ منجزات نهضة الإمام الخميني في إيران، استعادة المرأة لدورها الفعّال في المجال الإجماعي، و يمكن القول بجرأة بأنّ المرأة الإيرانية لم تبلغ طوال التاريخ الإيراني هذا المستوى من الوعي السياسيّ العامّ، و لم يكن لها مثل دورها الآن في تقرير مصير البلاد. ففي إشتداد و تنامي القيام الجماهيري على النّظام الملكي، كانت المرأة جنباً الى جنب الرجل - بل قد تقدّمت عليه إحياناً - و طوال الحرب العراقية المفضولة، قامت النّساء المسلمات في إيران - و من خلال

١- الكلمات القصار ص ١٧٤.

٢- الكلمات القصار ص ١٧٤.

٣- الكلمات القصار ص ١٨٠.

٤- الكلمات القصار ص ١٨١.

تهيأة الإمكانيات لجبهات الحرب، و تشجيع إخوانهنّ و ازواجهنّ على المشاركة في الدّفاع عن الإسلام و الثورة، بل حتّى المشاركة المباشرة في توفير مايلزم في الخطوط الإماميّة للجبهة - بدورٍ منقطع التّظير في الحروب المعاصرة.

و الآن ايضاً، فإنّ النساء في المجتمع الايراني، لهنّ الدور البارز في النّشاطات الاجتماعيّة و الامور التربويّة و التعليم، و الجامعات، و المجالات الصحيّة و في الإدارات الحكوميّة و سائر المجالات.

في حين أنّ النساء كن قبل انتصار الثورة الإسلاميّة - و نتيجة للمحيط الفاسد الموبوء الذي أوجده النظام الملكي البائد - مضطّرات لالتزام المنزل، و كانت الكثير من الفتيات - خصوصاً في المدن و القرى - محرومات من نعمة التعليم أمّا أولئك اللاتي كانت الفرص متاحة لهن في المدن الكبيرة للممارسة دورهن في النّشاطات الاجتماعيّة، فقد انشغلن في مواجهة هجوم الثقافة المنحلّة و في ظروف غاية في التّعقيد للدّفاع عن شرفهن و عقّتهن، في حين اضطرت و الاخريات الى ترك العمل و الدراسة من أجل ذلك.

أنّ التحول الذي حصل في المجتمع النسوي الإيراني مرهون - و قبل كل شيء بنظرة الإمام الخميني الخاصّة الى شخصيّة و منزلة المرأة و دفاعه عن حقوقها. يقول سماحته «أنّ للمرأة في النّظام الاسلامي نفس الحقوق التي للرجل، حقّ الدراسة، حقّ العمل، حقّ التملك، حقّ التصويت، حقّ الترشيح»^(١) «ليس هناك من تفاوت بين الرّجل و المرأة من ناحية الحقوق البشريّة، ذلك لأنّ كلاهما إنسان. و للمرأة الحقّ في تقرير مصيرها كالرّجل تماماً»^(٢) و يقول سماحته: «إنّ ما يعارضه الإسلام و يعدّه حراماً هو الفساد، سواء كان من طرف المرأة أم الرّجل»^(٣) «أنا نريد للمرأة أن تتسنّم موقعها الإنساني السامي، لا ان تكون ملعبة... الإسلام لا يريد للمرأة أن تكون شيئاً أو دميمة

١-الكلمات القصار ص ٢١٠.

٢-الكلمات القصار ص ٢١٠.

٣-الكلمات القصار ص ٢١١.

بيد الرجال، الإسلام يريد حفظ شخصية المرأة و يهدف أن يخلق منها إنساناً جدياً»^(١) «إنّ المرأة كالرجل حرّة في اختيار مصيرها و نوع نشاطها»^(٢) «أنّ الحرّية بالاسلوب الغربي الّذي يؤدّي إلى ضياع الشبان و الفتية و الفتيات - مردود بنظر الإسلام و العقل»^(٣)

أمّا على الصّعيد الإقتصادي فقد كانت توصيات الإمام و موافقه تستند عموماً إلى إجراء العدالة و إعطاء الأولويّة لإعطاء حقوق المحرومين و المستضعفين في المجتمع. فسماحته يسمّى خدمة المحرومين «أعظم العبادات و يعتبر المحرومين أولياء نعمته و نعمة المجتمع» اكثر ما أوصى به الإمام مسؤولي النظام الاسلامي، هو توصيته بالاهتمام بأمر الفقراء و تجنّب أخلاق المترفين. سماحته يعتقد بأنّ الحكومة و المسؤولين و الوزراء خدّام للشعب، و لاحق للخدّام أن يطالب بامكانات تفوق مخدميه. يقول سماحته: «شعرة من رأس أحد سكّان الاكواخ و الاقبية و مقدّمى الشهداء، أشرف و أعزّ من جميع القصور و سكّانها»^(٤) «ان من همّ معنا الى آخر الشوط هم اولئك الّذين تذوّقوا طعم الفقر و المحرومية و الإستضعاف»^(٥) «في اليوم الّذي تتوجّه فيه حكومتنا للإهتمام بالقصور الفخمة، علينا أن نقرأ الفاتحة على الحكومة و الشعب معاً»^(٦)

الزهد الانمذجي

و لتوضيح بساطه حياة الإمام الخميني و إعتقاده بضرورة الإحتياط الكامل في إنفاق بيت المال، يكفي أن نذكر أن المادة ١٤٢ من الدستور - الّتي اقترحت من قبل الإمام - تنصّ على أن (ديوان القضاء العالي) مسؤول عن حصر و تشخيص

١- الكلمات القصار ص ٢١١.

٢- الكلمات القصار ص ٢١٠.

٣- الكلمات القصار ص ١١٢.

٤- الكلمات القصار ص ٢٢٢.

٥- الكلمات القصار ص ٢٢٢.

٦- الكلمات القصار ص ٢٢١.

ممتلكات القائد و المسؤولين الحكوميين الرفيعة المستوى قبل و بعد تصديهم للمسؤولية، لضبط آية زيادة تطراً عليها دون حق. و قد يادر الإمام الخميني بتسجيل كافة ممتلكاته البسيطة في كشف رسمي بتاريخ ١٤/١/١٩٨١ و سلمها (الديوان القضاء العالي) ثم و بعد وفاته مباشرة، طالب نجله - و من خلال رسالة نشرتها الصحف المحلية^(١) السلطة القضائية، بإعادة حصر و تشخيص ممتلكات الإمام مجدداً و طبقاً للدستور.

و في ٢/٧/١٩٨٩ أعلنت نتيجة الحصر في بيان أصدره رئيس ديوان القضاء العالي^(٢) صرح فيه: بأن ممتلكات الإمام الخميني البسيطة لم تبق على حالها و حسب، بل إنها نقصت عما كانت عليه، فقطعة الأرض التي كان قد ورثها عن أبيه في خمين، إعطاها في حياته الى الفقراء في منطقته، فخرجت من ملكيته^(٣) و امواله غير المنقولة تمثل في المنزل القديم الذي يمتلكه في قم، و الذي كان و منذ عام (١٩٦٤) - عام بدء النهضة - في خدمة اهداف النهضة، و مركزاً لتجمع الطلبة و المراجعين من الجماهير و لايزال حتى الآن مفتقداً لصفة كونه مسكناً.

ذكر في الكشف المذكور - و الذي تم تنظيمه في عام ١٩٨١ تم على أساس إعادة البحث القانوني لحصر ممتلكات الإمام بعد وفاته، و أعلنت نتيجته رسمياً و قلنا إنه لم يخلف الا باتجاه النقصان - بأن ممتلكات الإمام تشمل الآتي: عدد من الكتب، بعض الوسائل الاولية و المستعملة و التي كانت في منزله و هي تخص زوجته، قطعتين من السجاد المستعمل (وقد أوصى باعطائها للفقراء بعد وفاته) كما أشير الى عدم وجود أثاث شخصي، و عدم وجود اموال شخصية و إن وجد مال، فهو من الحقوق الشرعية التي يقدمها المسلمون الى الإمام لإنفاقها في موارد الشرعية المعينة، و لاحقاً للورثة فيها.

١- ك: الصحف الرسمية للبلاد و الصادرة بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٨٩ م.

٢- ك: الصحف الرسمية المحلية الصادرة بتاريخ ٢/٧/١٩٨٩ م.

٣- في ٢١/٤/١٩٨٩ م ارسل الإمام حكماً لامام جمعة مدينة خمين و كلّه فيه عنه في توزيع الارض التي ورثها الإمام عن والده على الفقراء في المدينة، و تم العمل طبقاً لذلك. راجع صحيفة النورج ١٩ ص ١٤٨.

عليه فإنّ ما ورثه هذا الرجل الذي عمّر ما يناهز التسعين عاماً، وعاش يتمتّع بأقصى درجات المحبوبة من قبل الناس - تشمل ما يلي: نظارات، قراصة اظافر، مشط، مسبحة، مصحف و سجّادة صلاة وعمامة و ثيابه الخاصّة و مجموعة كتب في مختلف العلوم الدنيّة.

ذلك كشف بممتلكات رجل لم يكن قائداً لبلدٍ نفطي غنيّ يبلغ تعداد سكّانه عشرات الملايين فحسب، بل أنّه كان حاكماً على قلوب الملايين من الناس، ممن وقفوا في صفوفٍ طويلة ليتطوّعوا للشهادة حينما اصدر أوامره بتشكيل قوات التعبئة للدّفاع عن الإسلام، ممّن كتبوا الرسائل أو تجمّعوا امام المستشفى التي رقد فيها الإمام يعلنون عن إستعدادهم للتبرّع بقلوبهم لسماحته^(١).

إن السرّ في كل هذه المحبوبة يجب ان يُبحث عنه في ذلك الايمان الحقيقي والزهد، والصدق والأمانة.

كان الإمام الخميني يعتقد بشدّة بأهميّة البرمجة لجوانب حياته و بالنّظم و الانضباط. فهو يتوجّه للعبادة و ذكر الحقّ و قراءة القرآن و الدّعاء و المطالعة في ساعات محدودة من اللّيل و النّهار. ممارسة المشى و الإنشغال بالذكر و التفكّر كان جزءً من برنامجه اليومي. جدوله حافل يفوق العديد من القادة السياسيّين - رغم اقترابه من التسعين من العمر - لم يفرط من خلاله بالنشاط في الخدمة في سبيل الله تعالى، و خدمة المجتمع الإسلامي، و حلّ مشكلاته، حتّى في اشدّ الحوادث تعقيداً. و علاوة على ممارسته المطالعة يوميّاً، فقد كان يطّلع كذلك على أهمّ الأخبار و التقارير و الصحف و المجلّات الرّسمية للبلاد و عشرات المقاطع الخبريّة، و يستمع الى اخبار الإذاعة و التلفزيون الإيرانيّة، و الى التحليلات و التقارير و الاخبار التي تذيّعها الاذاعات الاجنبيّة باللغة الفارسية ليلاً، و على مختلف ساعات اللّيل، ليكون

١ - تحتفظ مؤسسة تنظيم و نشر تراث الإمام الخميني(س) باكثر من مليون رسالة مرسلّة الى الإمام الخميني، و قد اقدمت المؤسسة في عام ١٩٩٣ على نشر جانب من هذه المخاطبات في كتاب تحت عنوان «تجليات الكلام» و من ضمن تلك الرسائل، عرض الكتاب رسائل البعض ممّن بعثوا بتفاصيل عن فصائل دمهم و دم أبنائهم للتبرّع بقلوبهم للإمام.

صورة عن الاعلام المعادى للثورة، و يفكر في طرق مواجهته.
كذلك فإن إزدحام جدولته اليومي و عقد الجلسات مع مسؤولي النظام
الإسلامي لم يحل ابداً دون ارتباطه بالجماهير العاديين، على انه اهم رصيد للثورة
الإسلامية.

و قد تمّ جمع ما يزيد على (٣٧٠٠٠) لقائه له مع الجماهير في كتابٍ سمّي
«محضر النور» و ذلك فقط في السنوات التي تلت إنتصار الثورة الإسلامية، الأمر
الذي يوضح عمق علاقة الإمام بجماهيره.
تجنّب سماحته إتخاذ أىّ قرار يرتبط بمصير مجتمعه الا بطرحه على
الجماهير بصدق. فقد كان يرى بأن الجماهير تمثّل أهمّ شريحة محترمة لمعرفة
الحقائق.

الآثار و المؤلفات:

ترك سماحة الإمام الخميني عشرات الكتب و الآثار القيّمة في المباحث
الاخلاقية، العرفانية، الفقهية، الاصولية، الفلسفية، السياسية، و الاجتماعية و قد تمّ
نشر اكثرها الى الآن. غير أنّ عدداً من رسائله و مؤلفاته النفيسة فقدت أثناء
الانتقال من منزل مستأجر الى آخر، و اثناء العديد من حملات أزام السافاك على
منزله و مكتبته الشخصية.

كان للإمام خطّ جميل، و كان يتّبع في الكتابة قواعد التأليف القديمة، و النظم
في الكتابة و يتجنّب الإطالة.

بعض مؤلفات الإمام و تناسباً مع موضوعها التخصّصي (الفقه، الاصول و
العرفان) كتبت اساساً باللغة العربية، كما أنّ بعضها ايضاً كتبت باللغة الفارسية.
نورد هنا جرداً بأسماء آثار و مؤلفات الإمام الخميني حسب تاريخ كتابتها و
طبيعي أنّ التعريف بأيّ واحدٍ من هذه الآثار يحتاج إلى تحقيق مفصّل و مستقلّ، و
قد تمّ إنجاز الكثير من ذلك عبر مقالات و كتب مختلفة نُحِيل القاريء الراغب في
المزيد اليها.

- ١- شرح دعاء السّحر
- ٢- شرح حديث رأس الجالوت
- ٣- حاشية على شرح حديث رأس الجالوت
- ٤- الحاشية على شرح فوائد الرضويّة
- ٥- شرح حديث جنود العقل و الجهل
- ٦- مصباح الهداية إلى اثبات الخلافة و الولاية
- ٧- الحاشية على شرح فصوص الحكم
- ٨- الحاشية على مصباح الانس
- ٩- شرح الاربعين حديثاً
- ١٠- سرّ الصلاة
- ١١- آداب الصلاة
- ١٢- رسالة لقاء الله
- ١٣- الحاشية على الأسفار
- ١٤- كشف الاسرار
- ١٥- أنوار الهداية فى التعليقة على الكفاية
- ١٦- بدائع الدرر فى قاعدة نفي الضرر
- ١٧- رسالة الإستصحاب
- ١٨- رسالة فى التّعادل و التراجيح
- ١٩- رسالة الإجتهد و التقليد
- ٢٠- مناهج الوصول الى علم الاصول
- ٢١- رسالة فى الطلب و الإرادة
- ٢٢- رسالة فى التقيّة
- ٢٣- رسالة فى قاعدة من ملك
- ٢٤- رسالة فى تعيين الفجر فى الليالى المقمرة
- ٢٥- كتاب الطّهارة

- ٢٦ - تعليقة على العروة الوثقى
- ٢٧ - المكاسب المحرمة
- ٢٨ - تعليقة على وسيلة النجاة
- ٢٩ - رسالة نجات العباد
- ٣٠ - الحاشية على رسالة الإرث
- ٣١ - تقريرات درس الأصول لآية الله العظمى البروجردى
- ٣٢ - تحرير الوسيلة
- ٣٣ - كتاب البيع
- ٣٤ - الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه
- ٣٥ - كتاب الخل فى الصلاة
- ٣٦ - الجهاد الأكبر
- ٣٧ - تقريرات دروس الامام الخمينى
- ٣٨ - توضيح المسائل
- ٣٩ - مناسك الحج
- ٤٠ - تفسير سورة الحمد:
- ٤١ - استفتاءات:
- ٤٢ - ديوان شعر
- ٤٣ - الرسائل العرفانية
- ٤٤ - الوصية السياسية الإلهية
- ٤٥ - البيانات، الاحايث، اللقائات، الأحكام، الرسائل

رحيل الإمام الخميني:

لقد بلغ الإمام الخميني - و مارس عملياً - بجميع الأهداف و الغايات و كلّ ما ينبغى عليه قوله أو فعله، بل أنه على الصعيد العملى سخر كلّ وجوده من أجل تحقيق جميع ذلك. و الآن - و على أعتاب منتصف خرداد عام ١٣٦٨ (أوائل

حزيران ١٩٨٩ م) هياً الإمام نفسه للقاء عزيز أفنى جميع عمره من أجل كسب رضاه. ولم يحنِ قامته لغيره ولم يبك سوى له، وانشد كل أناشيده العرفانية في ألم فراقه و بيان عطشه للحظة وصاله. و الآن فقد أزف الوقت و حانت ساعة اللقاء الرائع بالنسبة له، العصب بالنسبة لأنصاره و محبه - فهو قد كتب في وصيته يقول: «و الآن فإني أستأذنكم أيها الاخوات و الأخوة لأسافر نحو مقرى الأبدى بقلب هادى، و فؤاد مطمئن و روح فرحة و ضمير أمل بفضل الله، و أسألكم بالحاح الدعاء بالخير، كما أسأل الله الرحمن الرحيم أن يقبل عذرى لما قصرت أو كنت قاصراً فيه، و ان ينطلق إلى الإمام بقدره و إرادة و تصميم» و حينما تقف الجماهير المحبة للإمام بحجب ضريحه، فإنها تتمم للرد على هذه العبارات المتواضعة التي قالها سماحته فنقول: «أيها الإمام! عن أي قصور أو تقصير تتحدث؟ فعلى حد علمنا و علم آبائنا و طبقاتنا لما رأيناه و سمعنا فأنت كنت صلاحاً و نوراً و طهراً خالصاً» أشهد انك قد أقممت الصلاة و آتيت الزكاة و أمرت بالمعروف و نهيت عن المنكر و جاهدت في الله حق جهاده»^(١)

الغريب أن الإمام الخميني قال في إحدى قصائده التي نظمها قبل عدة سنوات من وفاته:

تمرّ السّنون و تستوالى الحوادث

و انا أنتظر الفرج في منتصف خرداد^(٢)

و كانت الابيات التي سبقت هذا البيت من الشعر تتحدث عن ألم الهجران و الأمل بتحقق لحظة الوصال.

و ها هي لحظة وصال المحبوب قد حانت في النصف من خرداد.

منذ عدة أيام سابقة لوفاته كانت الجماهير على علم بمرض الإمام ما جرى له من عملية جراحية، و حقاً فإن الوضع الروحي للجماهير في تلك الايام مما يعجز

١- قسم من الزيارة التي اعدت لزيارة الإمام الخميني (س)

٢- وُرد هذا الشعر تحت عنوان «الانتظار» في ديوان الامام الخميني الشعري، ص ١٥٢.

الانسان عن وصفه، فراسم الدعاء و التوسّل تجرى في كل حذب و صوب، في المنازل في الحسينيّات في التكايا و المساجد و في مختلف أنحاء البلاد، بل في كل مكان من العالم وجد فيه محبّ للامام. و لعلك في تلك الايام لا تكاد ترى أحداً و قد تمكّن من إخفاء آثار الحزن و الغمّ عن محياه. العيون باكية، و القلوب هافية لجماران الساعات تمرّ ببطّ شديد، و ايران كلّها تلهج بالدّعاء. الفريق الطّبيّ المشرف على علاج الإمام استنفذ ما في وسعه، غير أنّ امر الله يدفع المقادير بإتجاه آخر «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ﴿١﴾ إِرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً»^(١)

في تمام الساعة الحادية عشرة و عشرين دقيقة قبيل منتصف الليل من الثالث عشر من خرداد ١٣٦٨ (حزيران ١٩٨٩ م) حانت لحظة الوصال. و توقّف القلب الذي اضاء الملايين من القلوب بنور الله و المعنويّة.

لقد فقدت الجماهير قائدها المحبوب و مرجعها الديني و المنادى بالإسلام الأصيل في يوم و ليلة الخامس من حزيران... لعلّ أولئك العاجزون عن درك و استيعاب هذه المفاهيم، يقفون حيارى حينما يشاهدون حالة الجماهير - التي عرضتها الأفلام التلفزيونية - أثناء مراسم توديع و تشييع و دفع الجثمان الطاهر للإمام الخميني، و لعلهم يدهشون حينما يسمعون بوفاة العشرات الذين لم يتمكنوا من تحمّل ثقل الصدمة، فتوقّف قلوبهم عن العمل، أو بسقوط العشرات الآخرين مغشياً عليهم نتيجة شدّة الحزن و إنتقالهم من يدٍ إلى يدٍ فوق أمواج هائلةٍ من البشر لينقلوا إلى المستشفيات... الى غير ذلك...

في يوم و ليلة الخامس من حزيران ١٩٨٩ م تجمّع الملايين من ابناء طهران و المعزّون من ابناء المدن و القرى، في مصلى طهران الكبير ليقوا النظرة الأخيرة على الجثمان الطاهر لرجل اعاد إقامة القيم و الكرامة المهطعة في عصر الظلم الاسود استقامتها بقيامه و ثورته، و فجر في الدنيا نهضة من التوجه لله و العودة نحو الفطرة الإنسانيّة.

لم يكن هناك من أثر للمراسم الرسميّة الخالية من التّوجه فكل شيئى كان

جماهيرياً تعبويّاً و عشقياً. و كان جثمان الإمام الموشح باللون الأخضر موضوعاً على دكة عالية يتحلّق حولها الملايين من اصحاب العزاء و يضيئ كدرة نفيسة. و كان كل واحدٍ من ذلك الجمع الغفير يتمّم بحزن مع امامه الفقيد و يذرف الدموع. امتلاً المكان و حتّى الطرق السريعة المؤدّية الى المصلّى بالجماهير الموشحة بالسواد. و رفعت اعلام العزاء على الأبواب و الجدران و انطلق صوت القرآن من جميع المساجد و المراكز و الادارات و المنازل و ما هبط الليل حتّى أوقدت آلاف الشموع تذكيراً بالمشعل الذي أوقده الإمام، و أضاءت منطقة المصلّى و ما حولها. تحلّقت العوائل المفجوعة حول شموعها و قد تعلّقت أنظارها بذلك المرتفع النوراني الذي رقد فيه إما مهم المحبوب.

و كانت صرخات «يا حسين» التي تنطلق من التعبويين الذين شعروا باليتم قد أحالت المكان إلى عاشوراء جديد. فقد قصمت الظهور، هل حقيقة أن هذا الصوت الرّباني لن ينطلق مجدّداً من حسينيّة جماران؟... بقيت الجموع المفجوعة تندب فقيدها حتّى الصباح.

و في أوّل ساعات يوم السادس من حزيران، أدّت الملايين صلاة الميت على جثمانه الطاهر بامامة آية الله العظمى السيّد محمدرضا الكلبايكاني.

إنّ من المواقف التي اثبتتها التاريخ يوم ١٢ بهمن ١٣٥٧ (١ شباط ١٩٧٩ م) و يومُ تشييع الإمام اذ تكرّر في اليومين اجتماع الملايين و انطلق مختلف المشاعر الحماسيّة و المعنوية. لقد قدّر مراسلو و كالات الابناء عدد المستقبلين للإمام في عام ١٩٧٩ بستّة ملايين شخص، كما صرّحوا بأن عدد المشييعين قد تجاوز التسعة ملايين شخص، و الحال انّ الدول الغربيّة و الشرقيّة تحالفت خلال الاحد عشر عاماً التي امضاها الإمام الخميني في الحكم و مارست مختلف انواع المؤامرات و حملت ايران حرباً ضروساً دامت ثمانية اعوام، الى المئات من المخططات الخبيثة التي كان يهدف من خلالها ضدّ جماهير الشعب عن الإلتفاف حول قائدها، غير انّ ذلك لم يتحقّق رغم مئات المشاكل التي تحمّلها ابناء الشعب، و رغم ما قدّموه من الشهداء و ذلك نتيجة للتربية العقائدية التي مارسها الإمام الخميني «انّ القدرة على تحمّل

المصائب والمصاعب والمحروميّة والتضحية بالأنفس إنّما تتناسب مع حجم الهدف وعلوّ مرتبته»

بدأت مراسم التشييع، فإنطلقت الجموع الغفيرة من المصلّى إلى مرقد الإمام - بجوار مقبرة جنّة الزهراء (مزار الشهداء) و ضجّت الجموع أطفالاً و نساءً و رجالاً و كأن أرواحهم تُخلع من أبدانهم. مرّت ساعات دون ان يتمكن الجمع من التقدّم نتيجة اضطراب الاحاسيس، و بالنتيجة تمّ حمل الجثمان الطاهر بطائرة سميّة ليُنقل إلى المشوى الاخير.

ثمّ بصعوبة بالغة تمّ استرداد الجثمان من أيدي الجماهير، و أعيد الى الطّائرة و حمل من جديد نحو حسينيّة جماران.

و لو ان جهود المحرفين و أصوات الاعلام المسموم لأعداء الحقيقة أتاحت الفرصة لهم ليقروا وصيّة الإمام أو أحد بياناته دون حكم مسبق، و بانصاف و على أساس من الوجدان و الفطرة، فان احكامهم ستتغيّر لاشكّ.

بعد تعذّر إتمام مراسم الدفن نتيجة شدة احاسيس المعزّين، أعلنت الاذاعة و عبر بيانٍ رسميّ عن تأجيل المراسم إلى وقت آخر. غير أنّ المسؤولين كانوا على يقين بأن مرور الوقت سيضعف من اعداد الوافدين من عشّاق الإمام من المدن و القرى البعيدة لذا فقد اضطروا الى اتمام الدفن في عصر ذلك اليوم متحمّلين شدة الضغط و الصعوبات البالغة. و قد نقلت بعض وكالات الأنباء جانباً من تلك المراسم.

إنّ الإمام لقد كان مظهرًا من مظاهر «الكوثر» كوثر الولاية الجارى في الارض و الزّمان و ستظلّ حكاية هذا العبد الصالح باقية مدى الدّهر على مرّ الأزمنة و الدهور.

«و السلام عليه يوم ولد و يوم مات و يوم يبعث حياً».

محتويات الكتاب

١ عنوان الكتاب
٢ هوية الكتاب
٥ المقدمة
٧ قصة تأليف الكتاب
٩ الميرزا الشيرازي بطل العلم والعمل
١١ رسالة السيد جمال الدين
١٣ نصّ اتفاقية التبغ والتبغ (مينوبول)
١٧ انطلاقة تبريز وشيراز
١٩ انتفاضة اهل تبريز
٢٠ انتفاضة اهل اصفهان
٢٣ رسالة السيد جمال الدين الاسدآبادي
٢٤ مشاكل الشعب الايراني
٢٦ الجواب العملي
٢٧ تجاهل البرقية
٢٨ ردّ فعل الشعب
٢٩ أنيس الدولة وجوابها القاطع
٣٠ وعّاظ السلاطين
٣٣ الحيل الدبلوماسية
٣٦ تقرير عن مشاعر الشعب، وخاصة النساء
٣٧ في مسجد الشاه
٣٩ عودة الى خبر نفي الآشتياني
٤٥ السيد جمال الدين الاسدآبادي
٤٧ الشخصية الاسطورة
٤٨ رأي لوتروپ

٥١ رأى الرازي
٥٢ رأى الاستاذ الشهيد مطهري
٥٥ في طريق مصر
٥٦ اصدار العروة الوثقى
٥٧ مناظرته مع رنان
٥٨ السفرات والتحركات
٦٢ السفر الى اوربا
٦٤ الانزواء
٦٦ المحرض على الاغتيال
٦٨ جذور الفساد
٦٩ مكانه علماء الدين الايرانيين
٦٩ رأي محيط الطباطبائي
٧٣ السيدان الآيتان الطباطبائي و البهبهاني
٧٤ ممر وسفر
٧٦ اتّساع نطاق الثورة
٧٧ رفيق درب الكفاح
٧٨ ثورة الجماهير
٧٩ بيان المعتصمين بالري
٨٠ رسالة الطباطبائي
٨٣ رسالة أخرى الى مظفر الدين شاه
٨٥ جواب مظفر الدين شاه
٨٦ ترجمة اجمالية
٨٩ الشيخ فضل الله النوري شهيد التغرب والتجديد
٩٠ بداية الجهاد
٩٣ صلابة العلماء واستسلام الشاه الفاجاري
٩٤ نظرة الى حياة العالم الشهيد

- ٩٦ تأمر الانجليز لحرف ثورة الدستور
- ٩٨ الدستور الغربي أم الدستور الشرعي؟
- ١٠٠ الثبات أمام اللادينيين
- ١٠٢ التنبؤ بالحوادث المشؤومة
- ١٠٤ تهمة الإتفاق مع البلاط
- ١٠٦ القربان المقدم للاسلام
- ١٠٧ الاحقاد الدفينة
- ١٠٨ بعد سبعين عاما
- ١٠٩ آخر اعتراف
- ١١١ الميرزا الثاني بطل الجهاد ضد الاستعمار
- ١١١ صورة اجمالية عن حياته
- ١١٢ مكانة النجف
- ١١٥ الإحتلال الأجنبي
- ١١٦ مقالة السيد حسن الصدر
- ١١٨ الرسالة المثيرة
- ١١٩ تأمين نفقات الجهاد
- ١٢١ الرسالة الثانية
- ١٢٢ رفاق الميرزا في الجهاد
- ١٢٣ شهداء الفضيلة
- ١٢٤ تغيير اسلوب المستعمرين
- ١٢٩ آية الله السيد عبد الحسين الموسوي اللاري
- ١٢٩ واضع اصل (ولاية الفقيه) قبل مائة سنة!
- ١٣١ بداية طريقه
- ١٣٢ نحو الجهاد المرير
- ١٣٤ بداية الجهاد
- ١٣٥ إعلان الجهاد ضد الانجليز

- ١٣٧ في ثورة الدستور
- ١٣٨ المدرس المجاهد الشهير
- ١٣٨ فترة دراسته
- ١٣٩ مقالة بامداد
- ١٤٠ في مدرسة علي (ع)
- ١٤٤ تفصيل الحال بقلمه
- ١٤٥ حياته السياسية
- ١٤٨ مقالة آية الله الطالقاني
- ١٥٠ النيابة في المجلس
- ١٥١ الخصائص الأخلاقية
- ١٥٣ الكدح من اجل المعيشة
- ١٥٥ نهاية المطاف
- ١٥٧ السيّد جمال الدين الواعظ الاصفهاني
- ١٥٨ دور الخطباء
- ١٥٩ الابن يتحدّث عن أبيه
- ١٦٣ النشرة السرية
- ١٦٣ رأي براون
- ١٦٤ مؤامرة الاغتيال
- ١٦٥ الهجرة الى قم
- ١٦٦ الأيام الاخيرة
- ١٦٩ ملك المتكلمين، الخطيب الشجاع
- ١٧٠ مقالة ناظم الإسلام
- ١٧٢ مقال من التاريخ
- ١٧٢ قصف المجلس بالمدفعية
- ١٧٢ القبض على ملك المتكلمين
- ١٧٦ الشهادة في سبيل الحرية

- ١٧٧ الشيخ محمد الخياباني المقاتل الأذربيجاني
- ١٧٨ علماء آذربيجان المجاهدون
- ١٨٣ المجاهد المرشد
- ١٨٤ المجاهد من أجل الإسلام
- ١٨٥ أقوال وارشادات
- ١٨٧ اتساع جهاد العلماء في الآفاق الأخرى
- ١٨٩ المصلح الكبير الشيخ كاشف الغطاء
- ١٩٣ رجل السياسة و الديانة
- ١٩٤ الآثار و التأليف
- ١٩٤ الوفاة
- ١٩٥ الشيخ محمد عبده
- ١٩٦ رأي الشهيد المطهري
- ١٩٩ الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر
- ٢٠٠ الاتصال بمركز الفقه الشيعي
- ٢٠٣ السيد عبدالرحمن الكواكبي
- ٢٠٦ رأي الأستاذ المطهري
- ٢٠٩ الشيخ عز الدين القسام السوري
- ٢١١ مقال الشقيري
- ٢١٢ نضالاته
- ٢١٣ السيد شرف الدين العاملي
- ٢١٤ نجم من لبنان
- ٢١٧ نظرة سريعة الى هويته الشخصية
- ٢٢٠ مقالة الشيخ آقا بزرك
- ٢٢٥ السيد اسماعيل البلخي من العلماء المجاهدين الأفغانيين
- ٢٢٦ الجهاد في سبيل العقيدة
- ٢٢٨ ذكرى السجن

٢٢٨ السفر الى ايران
٢٢٩ المتلبسون بالعلم من الافغانيين
٢٣٥ نهضة العلماء المعاصرين
٢٣٦ الاشعار المرشدة
٢٣٩ آية الله الكاشاني
٢٤٩ صورة مجملة عن الشهيد مرتضى المطهري
٢٤٩ ولادته ونشأته
٢٥٠ دراسة الأستاذ في الحوزة العلمية في مشهد
٢٥٢ دراسة الأستاذ في الحوزة العلمية بقم
٢٥٥ هجرته إلى طهران
٢٦١ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء
٢٨١ آثاره القيّمة
٢٨٥ الشهيد الرابع السيّد محمّد باقر الصدر (١٣٩٩ هـ)
٢٨٦ سؤال وجواب
٢٩٩ الشهيد السيّد حسن الشيرازي
٣٠٠ جهاده
٣٠٠ مؤسساته
٣٠١ مواقفه السياسية
٣٠٣ مؤلفاته
٣٠٤ رحلاته
٣٠٤ قصائده وأشعاره
٣٠٤ تدريسه
٣٠٤ شهادته
٣٠٥ يوم الاغتيال
٣٠٧ الوجه الآخر للحوزة العلمية في تربية طلابها على الجهاد والكفاح
٣٠٨ المقدمة

- ٣١٥ الثورة الأصيلة
- ٣١٣ ملجأ الشعب المظلوم
- ٣١٤ الحوزة العلمية في قم منطلق الثورات المنظمة
- ٣١٤ ضرورة الاهتمام بهذه المسائل
- ٣١٦ حراسة المذهب التبروي وتجديده
- ٣١٨ المنشور الانساني والثوري للحوزة العلمية بقم
- ٣١٩ حقاً، ماذا كان يريد رضا خان أن يقول؟
- ٣٢١ هدف الحوزة العلمية
- ٣٢٣ حياة آية الله الشيخ عبدالكريم الحائري مؤسس الحوز العلمية
- ٣٢٩ الآثار والخدمات التي أسداها آية الله الحائري مؤسس الحوزة العلمية
- ٣٣١ الأثر الخالد
- ٣٣٢ صور من أخلاقه وصفاته
- ٣٣٢ وجهة نظر آية الله العظمى المعصومي
- ٣٣٥ وجهة نظر آية الله العظمى السيد المرعشي
- ٣٣٦ وجهة نظر آية الله العظمى الكليبايگاني
- ٣٣٧ وجهة نظر آية الله مرتضى الحائري حول أستاذة ووالده
- ٣٣٨ الاهتمام بحقوق الزوجية
- ٣٣٩ الاينثار من أجل الآخرين
- ٣٤٠ الرحيل بعد ١٥ عاماً من السعي والجهاد
- ٣٤٤ مرحلة قيادة المراجع الثلاثة
- ٣٤٥ آية الله العظمى حجّت مؤسس مؤسسة الثقافة الكبرى
- ٣٤٦ ترجمة إجمالية
- ٣٤٧ آية الله العظمى السيد محمد تقي الخوانساري
- ٣٤٩ آية الله العظمى السيد صدر الدين الموسوي
- ٣٥٠ خصائصه الأخلاقية
- ٣٥٠ عرافة أسرته

- ٣٥١ الماضي التاريخي لحوزة قم العلمية
- ٣٥٢ قم، اشعاعاً من أنوار عظمة حفيذة النبي ﷺ
- ٣٥٤ فاطمة المعصومة
- ٣٥٤ قم حرم أهل البيت
- ٣٥٧ مدينة فاطمة المعصومة عليها السلام
- ٣٥٨ الضريح المشرق
- ٣٦١ الدور الأساس في تأسيس حوزة قم العلمية
- ٣٦٢ حوزة قم العلمية وآثارها
- ٣٦٢ الجامعة ذات الـ ١٢ قرناً من التاريخ المعنوي
- ٣٦٤ البيان الإنساني والثوري للحوزة
- ٣٦٦ الفقهاء والمحدثون
- ٣٦٨ فلاسفة قم
- ٣٦٩ الإمام موسى الصدر بطل العلم والعمل
- ٣٧٠ نشأته وعلومه
- ٣٧١ قدومه الى لبنان
- ٣٧٢ نشاطاته قبل إنشاء المجلس الإسلامي
- ٣٧٤ انتخابه و ولايته
- ٣٧٤ برنامجه
- ٣٧٥ تحركه الشعبي لإيقاد الجنوب
- ٣٧٦ انشاء مجلس الجنوب
- ٣٧٧ حركة من اجل المحرومين
- ٣٧٨ دوره في انشاء افواج المقاومة اللبنانية
- ٣٧٨ إنجازاته في المشاريع و تمليك عقارات الأوقاف
- ٣٧٨ سعيه لإنهاء الحرب الداخلية في لبنان
- ٣٧٩ سعيه لإيقاد جنوب لبنان
- ٣٧٩ إختفاؤه في ليبيا

- ٣٨٥ آرائه و افكاره
- ٣٨١ آثاره الخالدة
- ٣٨٢ آثار و تأليف
- ٣٨٢ آراء و اقوال فى حقّه
- ٣٨٢ مقال رئيس تحرير مجلة الأمل
- ٣٨٣ مقال الإمام شمس الدين
- ٣٨٣ مقال نبیه برّی
- ٣٨٣ مقال الشيخ قبلان
- ٣٨٤ مقال الدكتور سليم الحصّی
- ٣٨٤ مقال الدكتور نزيه البزري
- ٣٨٦ مقال الشيخ احمد الزين
- ٣٨٧ مقال المطران بولس الخوري
- ٣٨٧ الإمام الخمينی بطل الكفاح فى القرن العشرين
- ٣٨٧ يوم الكوثر
- ٣٨٨ السفر الى قم
- ٣٩٢ فى خندق الجهاد و الثورة
- ٤١٢ فى جلسة بيت آية الله الكلبايكاني
- ٤١٧ انتفاضة الخامس من حزيران
- ٤٢٤ اعتقال آية الله الطالقاني المجاهد الكبير
- ٤٢٥ مواجهة لائحة الحصانة القضائية
- ٤٢٧ نفي الإمام الى تركيا
- ٤٢٩ النفي المجدد من تركيا الى العراق
- ٤٤١ الإمام الخميني و مواصلة الثورة
- ٤٤٧ اشتداد الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٧ م
- ٤٥٠ من العراق الى باريس
- ٤٥٣ عودة الإمام من منفاه بعد ١٤ عاماً

٤٥٥ انتصار الثورة الإسلامية (يوم الله ١١ شباط)
٤٥٦ الحكومة الإسلامية و اصطفاة الدول الإستعمارية ضدها
٤٦١ إحتلال وكر التجسس الأمريكي فى ايران
٤٦٨ من روح روح الله
٤٧١ الحرب المفروضة و الدفاع المقدس
٤٧٧ الدفاع عن النبى الاكرم(ص) و القيم الدينية
٤٧٨ لبنان و جنوبه
٤٨٢ اعتقادات الإمام الخميني و اهدافه و تطلعاته
٤٨٧ العارف بمعارف الله
٤٨٩ اصلاح الحوزات العلمية
٤٩٠ يوم القدس
٤٩١ الإمام و المرأة المسلمة
٤٩٣ الزهد النموذجي
٤٩٦ الآثار و المؤلفات
٤٩٨ رحيل الإمام الخميني
٥٠٣ فهرس المحتويات
٥١٢ خاتمة المطاف